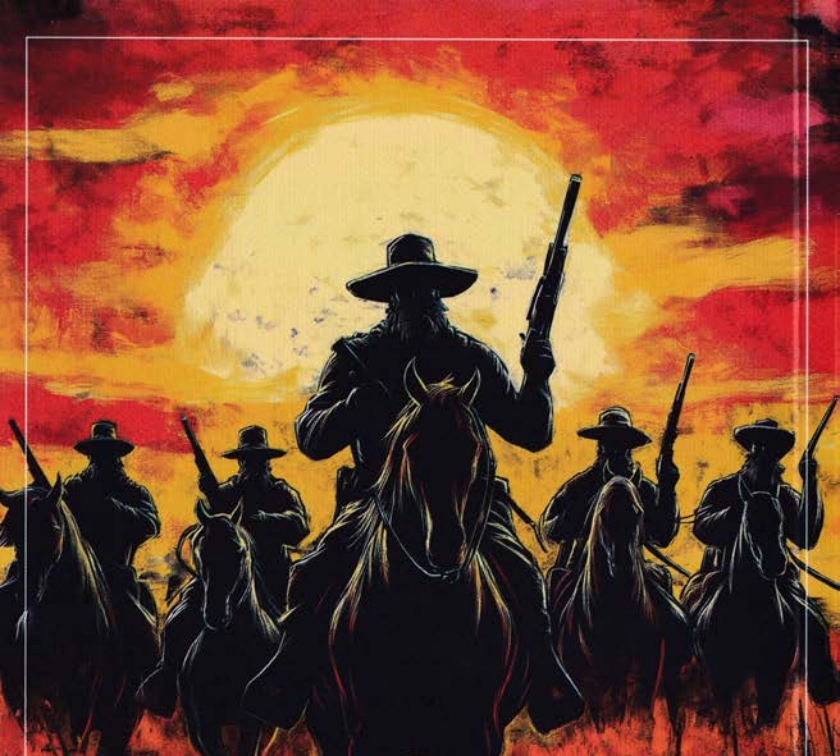




جُواوُ غِيْمَارَايس رُوْزَا

دُرُوب السَّرْتَاوُ

ترجمة: سعيد بنعبد الواحد

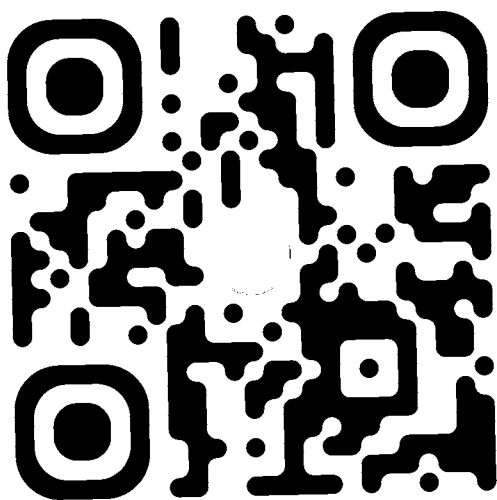
مكتبة

t.mc/soramnqraa

منشورات تكوين | مرايا
TAKWEEN PUBLISHING



دُروب السِّرْتَاوُ



سجل في مكتبة

اضغط الصفحة

SCAN QR

مكتبة

t.me/soramnqraa

الكاتب: جُواوْ غِيْمَارَايس رُوْزَا
عنوان الكتاب: دُرُوبُ السَّرْتَاوْ
ترجمة: سعيد بنعبد الواحد

العنوان باللغة الأصلية: Grande Sertão: Veredas

الكاتب: João Guimarães Rosa

تصميم الغلاف: يوسف العبدالله
تنضيد داخلي: سعيد البقاعي

ر.د.م.ك: 1-42-808-9921-978
الطبعة الأولى - يوليو/ تموز - 2024
1000 نسخة

جميع الحقوق محفوظة للناشر ©

الكويت - الشويخ الصناعية الجديدة

تلفون: 40 04 81 98 965 +

بغداد - شارع المتنبي، بناية الكاهجي

تلفون: 60 58 11 00 78 964 +

منشورات تكوين
TAKWEEN PUBLISHING



✉ takween.publishing@gmail.com

📘 takweenkw

📷 takween_publishing

📺 TakweenPH

🌐 www.takweenkw.com

لبنان - بيروت / الحمراء

تلفون: 803 345 1345 + / 980 541 1561 +

بغداد - العراق / شارع المتنبي، عمارة الكاهجي

تلفون: 07830070045 / 07810001005



✉ daralrafidain@yahoo.com

📘 Dar alrafidain

✉ info@daralrafidain.com

📷 Dar.alrafidain

🌐 www.daralrafidain.com

📺 Dar alrafidain

جُواؤُ غِيْمَارَايِس رُوْزَا

مكتبة

t.me/soramnqraa

دُرُوبُ السَّرِّتَاوُ

رواية

ترجمها عن اللغة البرتغالية

سعيد بنعبد الواحد

مرايا

منشورات تكوين
TAKWEEN PUBLISHING



مقدمة المترجم

مكتبة

t.me/soramnqraa

نُشرت رواية دُرُوب السَّرْتَاو لأول مرة في عام ١٩٥٦، وتُعتبرُ عملاً أدبيّاً فارقاً في تاريخ الأدب البرازيلي الحديث، بالنظر إلى السياق الذي ظهرت فيه وما يميزها من تجديد سواء على مستوى التقنيات السَّرديّة والسجّلات اللُّغوية أو ما تطرحه من مواضيع فلسفية ووجودية؛ ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالشرط الإنساني، محليّاً وعالمياً.

ظهرت الرواية نتيجة لنضج ما يسمى بحركة الحداثة الأدبية والفنية في البرازيل، التي برزت بداية القرن العشرين واستمر تأثيرها حتى خمسينيات وستينيات القرن الماضي. تأثر كُتّاب هذا التيّار الأدبي بالحركات الطليعية في أوروبا من داديّة، وسوريالية، وتكعيبية، وغيرها. بدأت الحداثة الأدبية البرازيلية في عام ١٩٢٢، مع أسبوع الفن الحديث، الذي أُقيم في ساو باولو. كان ذلك حدثاً مهماً لنشر الحداثة في البرازيل. من بين أهم المؤلفين في الحداثة الأدبية البرازيلية هناك الكاتب ماريو دي أندرادي، مؤلف رواية ماكونايبما الصّادرة عام ١٩٢٨، بالإضافة إلى الشعارين الكبيرين أوزفالدو دي أندرادي وكارلوس دروموند دي أندرادي. كما خرج من رحها كُتّاب آخرون بصموا الأدب البرازيلي الحديث من قبيل كلاريس ليسبيكتور، جورججي أمادو وغراسيليانو راموس.

يَتَّسِم هذا التيار الأدبي والفني بالتجريب والمغامرة الإبداعية بغرض استكشاف طرائق تعبيرية جديدة مثل التجريب اللغوي والشكلي مع توظيف الثقافة الشعبية بكل أبعادها الأنثروبولوجية والفكرية. كما يصبو رواد هذه الحركة إلى تأصيل ثقافة برازيلية محلية ينصهر فيها الأدب العالمي في تناغم كامل من خلال تقنية التناص العميق والسطحي، دون إغفال البعد الواقعي وانتقاد كل أشكال الجمود في المجتمع والفكر والأدب.

في هذا السياق الفني والأدبي ترعرع ونشأ الكاتب جواو غيماريس روزا، الذي رأى النور عام ١٩٠٨ في ولاية ميناس جيرائيس، شرق البرازيل. اشتغل غيماريس روزا طبيباً ودبلوماسياً. عرف منطقة السَّرتاو القاحلة، في شمال شرق البلاد، عن كثب لأنه مارس فيها مهنته وعاش أهلها. كان عضواً في الأكاديمية البرازيلية للآداب، حصل على عدة جوائز أدبية وطنية ودولية. تُرجمت أعماله إلى أكثر من أربعين لغة أجنبية، كما نُقِلَ بعضها إلى عروض مسرحية أو أفلام سينمائية.

اعتنق غيماريس روزا حركة الحداثة البرازيلية، وتبنّى توجهاته الكبرى. لقد لمع اسمه في القصة والرواية حين نشر أول مجموعة قصصية له في عام ١٩٤٦ تحت عنوان «ساغارانا»، وفيها بزر انشغاله بتجديد اللغة من خلال خرق القواعد ونظام التركيب المتعارف عليه وابتكار كلمات وعبارات مستوحاة من اللغة الشعبية أو عبر تنسيق الألفاظ لخلق تناغم شعري ونوع من الجناس غير المألوف.

يستعمل الكاتب في نصوصه ما يستقيه من مادة محلية من أجل قراءة أسطورية ونفسية للواقع؛ لهذا فإنَّ الشخصية الحقيقية في كتابته هي الإنسان البرازيلي البسيط في صراعه مع الواقع وما يعترى نفسه من قلق وجودي: الرّب، الشَّيطان، القَدَر، صراع الخير والشر، الموت والحب.

لذا، فإنَّ رواية دُرُوب السَّرِّتاو تطرُح عدة مواضيع متشابكة ومتداخلة، لكنها تنسجمُ تمامًا مع طبيعة الشخصيات وتطوُّر الحبكة. فالأحداث تدور في أجواء عنيفة تحيم عليها الحروب والمواجهات بين الجماعات المسلحة أثناء الحرب الأهلية. يُبرزُ الكاتب ما لهذا العنف من عواقب اجتماعية، نفسية، وروحية على الشخصيات.

كما تتطرَّق الرواية لموضوع الحب من وجهة نظر خاصة، إذ يتعلق الأمر بحُبٍّ مستحيل، جسدي وروحي بين ذيادوريم وزيوبالدو، تمتزجُ فيه أحاسيس الصداقة بمشاعر القلب ورغبات الجسد. كما يحضر بشكل مستمر في الرواية ويتناوله البطل بالتفكير والتأمل في محطات من مهمة من مساره الطويل وبحثه عن الذات.

تطرح الرواية، أيضًا، مواضيع ذات صلة بالدين والطبيعة ومعنى الوجود. فالبطل، زيوبالدو، شخصية متدينة لكنها تعيش حالة قلق روحي جرَّاء تجاربها المريرة عبر صحراء السَّرِّتاو حيث تظهر علاقة الإنسان بالطبيعة من العيش في ظروفها القاسية، بيد أن الرواية تعطي بُعدًا وجوديًا للمناظر التي تشكل خلفية الأحداث حين تتلون الطبيعة، وتقلب، وتقسو أو تكون رحيمةً في تعبيرٍ عن نفسية الشخصيات وطبائع الإنسان المركِّبة.

من جهة أخرى، تُشكِّل دُرُوب السَّرِّتاو سرِّدًا شفويًا يروي فيه البطل ما وقع له من أحداث في حياته لشخص معين يخاطبه بعبارة «أستاذ»، «سيدي» أو «أنت». إلَّا أن هذا المُستمع لحكايته لا يتدخَّل أبدًا ولا يظهر ردُّ فعله الذي نستنتجه فقط من كلام السَّارد. هكذا، يبدو السَّرِّد عبارةً عن مونولوج طويلٍ مسترسلٍ تتخلَّله تداعيات كثيرة، وعدة استطرادات وقفزاتٍ عودَةٍ إلى الماضي.

كما أنَّ بناء الرواية لولبيٍّ معقَّد وغير خطي، مع تحولات مفاجئة في

وجهات النظر. عمومًا، يمكن أن نميز في النص ما يناهز ١٥ كتلة متداخلة فيما بينها. لكن القارئ بوسعه أن يعيد بناء شريط الأحداث التي تتضح مع تقدمه في قراءة النص واقتربه من النهاية التي تكشف عن طبيعة الشخصيات وما يجمعها من علاقات ظاهرة أو خفية.

تضمُّ الرواية، أيضًا، مجموعة من التأمُّلات الذَّهنية التي يقوم بها البطل مستحضِرًا شريط حياته؛ يفكِّر في معنى وجوده باعتباره إنسانًا. كما يعبرُ الكاتبُ عن أفكار الشخصية بنبرة غنائية فلسفية تقدِّم مفاتيحَ مهمَّة لقراءة النص وسبر أغواره. تمتازُ الرواية، أيضًا، بلُغتها الأصيلَّة لأنَّ الكاتبَ يبتكر قاموسًا من المفردات المستوحاة من اللغة الشفوية المحلية، فيخلقُ عباراتٍ وكلماتٍ لا وجود لها في قواميس اللغة البرتغالية المعتمَدة، كما يمزج أحيانًا الكتابة الكلاسيكية بعبارات برتغالية قديمة من لغة الأدب البرتغالي الكلاسيكي، بل إنه يضع أسماء أماكن من خياله لا يمكن تحديدها على الخرائط الرسمية للبرازيل.

تندرجُ أعمال جواو غيماريس روزا ضمن تيار الحداثة البرازيلية المتأخرة الذي كان مفتوحًا على تقنيات وأساليب الكتابة السُّوريالية كما ظهرت في العقود الثلاثة الأولى من القرن العشرين. تتميز هذه النزعة الأدبية بتمرُّدها على قوانين الكتابة التقليدية من خلال استعمال الرموز، المونولوج والهذيان ولغة الأحلام. لذا، فإنَّ مقاطع مهمة من رواية «دروب السَّرِّتاو» تبدو غير منطقية ولا تخضع لأي تفسير عقلائي، باستثناء ما تعكسه من نفسية الشخصيات وما تحاول أن تكشفه من جوانب خفية تنتمي إلى اللاوعي.

هكذا، حين صدرت الرواية، تلقَّاهَا النقد باستحسانٍ وتنويه كبيرين مُبرِّزًا جدَّتَها وأصالتها وقوة لُغتها غير المعهودة في المشهد الأدبي البرازيلي.

لقد أبرز كل الدارسين ما يتميز به هذا العمل الاستثنائي من تعبيرٍ غنيٍّ متنوع، وعمقٍ في طرح المواضيع ومعالجتها بطريقة مختلفة.

تُرجمت رواية دُروب السُرُتاو إلى أكثر من أربعين لغةً، ونُقلت إلى السِّينما والمسرح أكثر من مرة، وتعتبر عملاً مرجعياً في الثقافة البرازيلية المعاصرة، في حين تأخّرت كثيراً ترجمتها إلى اللُّغة العربية. ربّما يرجعُ تأخّر ترجمتها، في تقديرنا، إلى طبيعتها اللغوية التي تتميز بالصعوبة والتعقيد وما تطرحه من مواضيع فكرية ونفسية غريبة ومركّبة. نتمنّى أن يكتشفَ القارئُ العربيُّ، من خلال هذه الترجمة نصّاً مختلفاً، يفتح عينيه على وجهٍ آخر من أوجه آداب البرازيل وأمريكا اللاتينية.

سعيد بنعبد الواحد

دُرُوبُ السَّرِّتَاوُ

هذا الكتاب،
مِلْكُ لزوجتي، أَرَا أَراسي

- لا شيء. إِنَّ الطَّلقات النَّارية التي سمعتها ليست تصفية حسابات، كلاً. حمداً للرب. أصبتُ هدفي فوق الأشجار، في البستان، قرب الجدول. لأحافظ على مهارتي. يعجبني ذلك، أقومُ به كل يوم؛ منذ طفولتي تقريباً. من هناك، جاؤوا يبحثون عني. بسبب عجلٍ: عجل أبيض، تائه، له عينانِ مثل عيني الإنسان - رأيتُ ذلك - ورأسُ كلبٍ. هذا ما قيلَ لي؛ أبيتُ الذهابَ لأرى. حتى بشفتيه المقلوبتين، عيبٌ خَلَقِيّ، بدا كأنه يضحك، مثلك إنساناً تماماً. ملامحُ بشرٍ، ملامحُ كلبٍ. قرَّروا أَنَّهُ الشيطانُ. ناس بلهاء. قتلوه. لا أعرفُ حتى من كان صاحبه. جاؤوا يستعيرون أسلحتي، فسَلَّمْتُها إليهم. أنا لا أؤمن بهذه الأمور. إِنَّكَ تضحك من ذلك... انظر: حين نطلق النار فعلاً، فَإِنَّ كل الكلاب تطفئُ تنبُحُ، أولاً، على الفور - وبعد ذلك، إذن، نذهب لنرى إِنْ قُتِلَ أحد. عليك، يا سيدي، أن تعتاد على ذلك، فهذا هو السَّرِّتاو^(١). هناك من لا يتفقون مع هذا: يقولون إِنْ السَّرِّتاو الحقيقي يمتدُّ بامتدادِ البصر في الأراضي العامَّة، في أقصى العالم، يقولون، في الجهة العليا من البلاد، وراء نهر أورو كويًا. حماقة. وما هذا هنا، إذن، بالنسبة لأهل كوزيتنو وكوزفيلو، أليس هو ما نسميه السَّرِّتاو؟ آه، هناك ما هو أكبر منه! فالسَّرِّتاو معروف: هناك حيث المراعي من دون أسيجة، حيث يمكن لأيِّ شخصٍ

(١) السَّرِّتاو، عموماً، هو المصطلح الذي يطلق في البرازيل على المناطق النائية وخاصة المضارب الداخلية في الشَّمال الشرقي من البلاد، المعروفة بمناخها الجاف وحياتها القاسية. (المترجم)

أن يجري عشرة، عشرين فرسخًا، دون أن يصادف بيتًا؛ حيث المجرمون يعيشون حيواتهم بعيدًا جدًا عن ضغط السُّلطات. ينبع نهرُ أوروكويا من جبال الغرب. لكنَّ كلَّ شيءٍ ينمو هنا اليوم، على ضفافه: فازيندات^(١) شاسعة، سهول طميّية خصبة، وديان صغيرة مسقيّة بوفرة، زراعات تنتقل من غابةٍ إلى أخرى بأشجار ذات أحجام كبيرة، بل منها ما لا تزال عذراء. أما الجيرايس، الأراضي العامة^(٢)، فتمتدُّ من حولها. الأراضي العامة تمتد إلى ما لا نهاية. على أيّ، أنت تعرف ذلك، كلُّ واحد يتفق مع ما يشاء: خُبْرُ أو رغيف، إنها مسألة آراء... السَّرْتَاوُ في كلِّ مكان.

الشَّيْطَانُ؟ لا أشرِّحه. اسأل أهل الجوار، يا سيدي. بسبب خوف غير مبرَّر، لا يتلفَّظون باسمه، يطلبونَ فقط: أنْ - تقول. بُعدًا له! كلاً... من يتجنَّبُ الشيء، يعيش معه. عن المدعو أرسْتيديس - ذلك الذي يسكنُ في أوّل بوريتي^(٣) على يميني، والمُسَمَّاة فيريدا^(٤) دافاكا مانسادي سانتاريتا - يحكون، وكلُّ الناس يصدِّقون ذلك: أنه لا يستطيع المرور من ثلاثة أماكن معينة، إذ سرعان ما يُسمع أنين خفيف، وصوتٌ خفيض من الخلف ينذر: أنا قادم! أنا قادم! وهو الشيطان، ذلك الذي لا يُسمَّى... كما يحكون عن شخصٍ آخر يدعى جوزيه سيمليسيو، الذي يقسمُ أيُّ شخصٍ من هنا أنَّه يملكُ شيطانًا في بيته، شيطانًا صغيرًا جدًا، يحبسه سجينًا ويحبره على مساعدته في الحصول على كل ما ينال من أرباح يمارسها؛ ولهذا السبب ينهمكُ سيمليسيو هذا في

(١) جمع لكلمة «فازيندا» في اللغة البرتغالية البرازيلية، وتعني المزرعة التي تضم المسكن وحظيرة الحيوانات والأراضي الخاصة بالرعي والزراعة. (المترجم)

(٢) كلمة جيراييس «gerais» هي صيغة الجمع لكلمة «geral» والتي تعني «العَام». (المترجم)

(٣) البوريتي عبارة عن بستان من النخيل. (المترجم)

(٤) تعني كلمة «فيريدا»، عمومًا، الطَّرِيق أو الدَّرب، كما تطلق على الغابات التي تحيط بها الحقول أو المناطق المناسبة لممارسة الزراعة. (المترجم)

طريقه ليصير غنيًا جدًا. كما يقولون أيضًا إنَّ الحيوان، بسبب ذلك، لا يسهل عليه المهمة، لا يدعه يقترب منه، حين يريد ركوبه، فيوقعه عن المطيَّة... تَطِيرُ. في الحقيقة، سمعوا بذلك أم لم يسمعوا، فإنَّ سيمليسيو وأرستديس يربحان ما لا كثيرًا. بل ثمة ما هو أكثر عجبًا من ذلك، يا سيدي: ما زال هناك من الناس، في أيامنا هذه، يقولون لأيِّ كان إنَّ الشَّيطان بنفسه توقَّف لدى مروره بأندريكيسي. ظهرَ شخصٌ، غريب عن البلد، ربما يكون قد تبجَّح بأنَّه جاء إلى هنا في مدة عشرين دقيقة فقط، بينما تتطلب الرحلة عادة يومًا ونصف اليوم على متن الحصان... لأنَّه يكفي أن يلتفَّ على نهر دو شيكو عبر منابعه! إلَّا إذا كنتَ أنتَ هو ذلك الشخص، يا سيدي - دون قصد الإهانة - مثلاً، حين أعلنتَ عن نفسك عندما مررتَ من هناك، لأجل متعة مرح خالصة؟ لكن، لا تلمني، أعرف أنَّك لم تكن أنتَ. لم أقصد الشر. لكن، هناك أمرٌ واحد، أحيانًا، في اللَّحظة المناسبة، يوضِّح أسباب السَّلام. لكنَّك، يا سيدي، تفهمني: هذا الشخص، لو وُجد، فإنَّه كان يريد أن يمزح. حسنًا، أن يأخذ النهر من المنابع قد يكون مثل الذهاب والإياب نحو المناطق الداخلية من هذه الولاية، ولايتنا، وقد يستغرق ذلك ثلاثة أشهر من السفر... إذن، هذا الذي لا يُسمَّى؟ جنونٌ. هلوسات. وهذا الاحترام في الإشارة إليه بأسماء مقنَّعة، يشبه كثيرًا الرغبة في التوسُّل إليه كي يتَّخذ شكلًا، ويظهر تجلَّياته!

أتمنى ألا يكونَ ذلك! أنا، شخصيًا، فقدتُ تقريبًا الإيمان به، حمدًا للرَّب؛ هذا ما أقول لك بكلِّ صراحة، يا سيدي. أعرفُ أنه أمر ثابت، يتشرُّ في الأناجيل المقدسة. تحدَّثتُ، ذات مرة، مع شابٍّ طالب في مدرسة دينية، كما ينبغي، كان يطالع كتاب الصلوات، يرتدي المسوحَ ويحمل سوطًا في يده؛ قال لي إنه ذاهبٌ لمساعدة الرَّاهب على استئصال ذلك المعني بالكلام من جسدِ امرأةٍ عجوز، في قرية كاشويرا دوس بويُس، هناك في كامبو

ريدونددو... أتساءل. ألسنت مثلي أنا، يا سيدي؟ لم أصدق ذرة من ذلك. يقول عرابي كيليمين إن العقول المنحطة الجافة، من الدرجة الثالثة، المنغمسة في أحلك الظلمات والمتلهفة في الاتصال بالأحياء، هي التي تضمن الحماية. عرابي كيليمين هو من يمدني بالعزاء. كيليمين دي غونيس. لكنه يصرُّ على السكن بعيداً من هنا، في جيوجوا، فريدا بوريتي باردو... عجباً! اتركه لي، لأنه - كان يتملكه الشيطان أو كان يحميه - لا بد أنك عرفت الكثير من هؤلاء، رجالاً، ونساءً. نعم، بكل تأكيد، أليس كذلك؟ أمّا أنا، فأيت منهم العديد، فتعلّمت. رينشا ماي، سانغي دوترو، رازغا إن بايشو، فاكافريّا، فانشو بودي، ترينيزيانو، أزينيا فري... هر موجينيس... عرفت منهم حفنة لا بأس بها. لو استطعت أن أنسى كلّ هذه الأسماء... لست مروّض خيول! وصراحة، من يريد أن يصبح جاغونسو^(١) بمحض إرادته فإنه معتاد على الشيطان بسبب قدرة مألوفة. هل هذا صحيح؟ صحيح؟

في البداية، كنتُ أفعل وأتحرك، أما التفكير فلم أكن أفكر. لم يكن لي أيُّ ترفيه. عشتُ حياةً صعبة قاسية، مثل سمكة فوق المشواة: من يتعب في الشقاء لا يحلم. لكن، الآن، نظراً لما ينتظرن من أوقات، ودون مشاغل صغيرة، أمارس الكسل. ثم ابتكرتُ لنفسِي هذا الذوق، أن أتأمل في الأفكار. هل الشيطان موجود أم غير موجود؟ أنشر الكلمة. أيها النحس. هذه الأحزان. مثلاً، انظر، السلال، إنه موجود، وماذا، إذن؟ لكن السلال فارق في ارتفاع الأرض، وماء يسقط منه من ماء يأتي من عل؛ إن استهلكت هذا الماء، أو ملأت ذلك الارتفاع الأرضي، ماذا يتبقى من السلال؟ الحياة أمر في غاية الخطورة...

(١) تعني «جاغونسو» حرفياً الشخص ذا المزاج السيء، وتطلق عموماً على الرجل البلطجي الذي يكون في خدمة مزارع قوي أو سياسي متجبر. يعيش أفراد الجاغونسو في جماعات مسلحة. (المترجم)

سأشرحُ لك، يا سيدي: الشيطان في داخل الإنسان، في طَيَّات الإنسان - هو إمَّا إنسانٌ مفلس، أو إنسانٌ المتناقضات. لا يوجد إنسانٌ مواطن حرٌّ يخلو من الشيطان. لا أحد! هذا ما أقول. هل تتفقُ معي، يا سيدي؟ قل لي كلَّ شيء، بصراحة - إنَّك تقدم لي خدمة كبيرة. وأستطيع أن أسألك، إن سمحتَ. فهذا الأمر - مهما بدوتُ لك غريب الأطوار - ذو أهميَّة كبرى بالنسبة إليَّ. كنتُ أفضلُ ألا يكون كذلك... لكن، لا تقل إنَّك أنت، المتعلِّم المتيقِّظ، تؤمن بشخصه؟! لا؟ سأكون مُمتنًّا لك! فرأيتُك، بقيمته العالية، يعطيني وزنًا. كنتُ أعرف ذلك، أنتظره - كنت واثقًا منه. آه، الناس، حين يكبرون، يحتاجون لقسط من الراحة. أنا مُمتنٌّ لك. لا يوجد أيُّ شيطانٍ. ولا أية روح. لم أر شيئًا من ذلك قطُّ. إن كان لا بد لأحد أن يرى شيئًا من ذلك فهو أنا، خادمُك المائل هنا. لو حكيتُ لك... حسنًا، الشيطان ينظِّم أشكاله السُّود في المخلوقات، في النساء، وفي الرجال. حتى في الأطفال، أقول. أليس هناك ذلك القول الشائع: «الطُّفل قاطرةُ الشَّيطان»؟ وفي العادات، في الأعشاب، في المياه، في الأرض، في الريح... في الرُّوث... الشَّيطان في الشَّارع، وسط الدَّوامة...

إيه؟ إيه؟ آه، تخيِّلاتي، أقطع ما في الزمن، بعضُها ذكريات. يا لبُؤسي! لا أعاني من الحُكي، كلاً... على العكس من ذلك، لأنه، بالتَّفكير مليًّا: في حقلٍ ما، بأغصان وأوراق لها نفس المظهر، ألا تنمو نباتاتُ المَنيهُوثِ الحلو، فنأكله بشكلٍ عادي، والمَنيهُوثِ البرِّي، سامٌّ؟ يمكن أن يصبح المَنيهُوثُ مرًّا فجأةً. الأسباب، لا أعرفها. يُقال إنَّ ذلك يعود لكثرة إعادة الغرس في نفس الحقل، باستعمال شتلات متتالية من نفس النبتة، ولذلك تصبح مُرة، فيستخرجون منها السموم. ثم، لاحظْ أيضًا، أنَّ المَنيهُوثِ الحلو، بدوره، يمكن أن يصبح حلوًا أحيانًا بالصدفة، فيصير أكله لذيذًا، ولا يصيب المرء بأيِّ ضرر. وهذا،

ما هو؟ هل رأيت، يا سيدي - مسألة نظري - قُبِحَ تجاعيد الحقد، على وجه ثعبان؟ هل لاحظتَ الخنزيرَ المتسخ، كلُّ يوم أكثر وحشيةً راضٍ عن نفسه، قادرٌ، إن كان ذلك ممكنًا، على أن ينخرَ ويبتلعَ العالمَ بأسره، من أجل راحته الخاصة؟ والنُّسور، بعضها، والغربان، ملاحمها تشي بقدرتها على الدقة في شق الهواء قُدَمًا، تمزيق كلِّ شيءٍ والجرح بضربات المنقار، كأنَّها سكين من دون نصلٍ، مشحودٌ برغبةٍ خسيصة. كلُّ شيءٍ. بل هناك أنواع من الحجارة الملتوية، الفظيعة، السَّامة، التي تسمِّم المياه لتصير قاتلةً، تقبع في قاع البئر؛ هناك يرقُدُ الشيطان في العمق: هي الشيطان. هل يُعرفُ ذلك؟ والشيطان - الذي هو فقط ممثِّلٌ لروح شريرة، زُبقيَّة - له أوامرٌ باتِّباع طريقه، فهل يملك ترخيصًا للتسكُّع في الأرياف؟! حذارٍ، إنه يمتزجُ بكلِّ شيءٍ.

ما يهلكُ، شيئًا فشيئًا ينهكُ الشيطان داخلنا، هو المعاناة المنطقية. وأفراح الحبِّ، كما يقول عَرَّابي كيليمين. الأسرة. حقًا؟ نعم، ولا. أنت تتفقُ معي ولا تتفقُ معي. كلُّ شيءٍ موجودٌ وغير موجودٍ... أيُّ مجرمٍ خطير، أشرس مجرم، غالبًا ما يكون زوجًا صالحًا، ابنًا صالحًا، أبًا صالحًا، ويكون صديقًا مخلصًا لأصدقائه! أعرفُ منهم الكثير. لكن هناك تبعات، وهناك الرِّب، معها. لقد رأيتُ كثيرًا من الغيوم.

لكن، طفلٌ، بدوره، يستطيع أن يلطِّفَ من طبعنا. انظر: هناك المدعو أليكسو، الذي يقطن في باسو دو بوبو، قرب أرييَّا، كان رجلًا قادرًا على اقتراف أكثر الأفعال الهادئة دناءةً، والتي لم يسبقُ لأحدٍ أن شهدَها. بالقرب من بيته، وهذا ما أعجبني، ثَمَّة مستنقعٌ صغير، وسط أشجار النخيل، به نَحلات، كبيرة بل أكثر من كبيرة، كبيرة حقًّا حتى أنها صارت مشهورة؛ كان أليكسو يقدم لها الأكل، في ساعات منتظمة، فاعتادت أن تأوي إلى مخابئها، لتناول الطعام، كأنها أسماكٌ مروَّضة. ذات يوم، فقط لأنه رأى الأمر

مُسْلِيًّا، قَتَلَ أَلْيَكْسُو مُتَسَوِّلًا مُسْنًا مَرَّ مِنْ هُنَاكَ. صَدَّقَنِي، فِي هَذَا الْعَالَمِ الْحَزِينِ أَشْخَاصٌ يُقْتَلُونَ فَقَطْ لِأَنَّهُمْ يَرَوْنَ أَشْخَاصًا بِوُجُوهِ بَائِسَةٍ... إِيَّاهُ، الْبَقِيَّةُ، مَا يَأْتِي، أَنْ تَرَى ذَلِكَ يَمُرُّ أَمَامَ عَيْنَيْكَ: الْخُبْزُ، الْيَدُ، الْقَدِيسُ، الشَّرِيرُ. أَلْيَكْسُو هَذَا كَانَ رَبًّا أَسْرَةً، لَهُ أَبْنَاءٌ؛ وَكَانَ أَطْفَالُهُ الصَّغَارُ أَحَبَّ مَا لَدَيْهِ، بِشَكْلِ مُفْرَطٍ. مَا حَدَثَ هُوَ أَنَّهُ لَمْ يَمُضِ عَامٌ عَلَى قَتْلِ الْمُسْنِ الْمُسْكِينِ؛ حَتَّى سَقَطَ أَطْفَالُ أَلْيَكْسُو مَرْضَى. وَبَاءَ الْحَصْبَةُ، قَالُوا، لَكِنَّهُ اسْتَفْحَلَ وَتَعَقَّدَ؛ فَلَمْ يَشْفَوْا مِنْهُ قَطُّ. لَكِنْ، حِينَ تَعَافَوْا مِنَ الْمَرَضِ، احْمَرَّتْ أَعْيُنُهُمْ وَأُصِيبَتْ بِالْتِهَابِ قَوِي فِي الْمُلْتَحِمَةِ؛ وَعَلَى إِثَرِ ذَلِكَ - لَا أَعْرِفُ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ مَا أَخَذَهُمْ جَمِيعًا، أَمْ بِسَرْعَةِ الْوَاحِدِ تَلَوِ الْآخِرَ - أَصْبَحُوا عُمِيَانًا. عُمِيَانٌ، مَنْ دُونَ وَلَا حَتَّى الْقَلِيلِ مِنَ الضَّوءِ! تَصَوَّرْ ذَلِكَ: صَفٌّ كَامِلٌ - ثَلَاثَةُ أَطْفَالٍ وَطِفْلَةٌ - كُلُّهُمْ عُمِيَانٌ. بِشَكْلِ لَا رَجْعَةَ فِيهِ. لَمْ يَفْقَدْ أَلْيَكْسُو عَقْلَهُ، وَلَكِنَّهُ تَغَيَّرَ: تَغَيَّرَ تَغْيِيرًا تَامًّا. إِنَّهُ يَعِيشُ الْيَوْمَ فِي كَنَفِ الرَّبِّ، يَقَطُرُ عَرَقًا وَدَمًا لِيَكُونَ رَحِيمًا طَيِّبًا فِي كُلِّ وَقْتٍ مِنْ أَوْقَاتِ النَّهَارِ وَاللَّيْلِ. بَلْ إِنَّهُ أَصْبَحَ سَعِيدًا، عَلَى مَا يَبْدُو، مَعَ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ سَعِيدًا مِنْ قَبْلُ. هُوَ نَفْسُهُ يَقُولُ إِنَّهُ رَجُلٌ مُحْظَوْظٌ لِأَنَّ الرَّبَّ أَشْفَقَ عَلَيْهِ، فَحَوَّلَ بِطَرِيقَةٍ مُخْتَلِفَةٍ مَسَارَاتِ رُوحِهِ. سَمِعْتُ ذَلِكَ عَلَى لِسَانِهِ، فَأَثَارَ حَفِيزَتِي. بِسَبَبِ الْأَطْفَالِ. لَوْ كَانَ ذَلِكَ عِقَابًا، فَمَا ذَنْبُ أَوْلَئِكَ الصَّغَارِ فِيمَا اقْتَرَفَهُ أَلْيَكْسُو مِنْ أَعْمَالٍ شَرِيرَةٍ؟!

لَا يَتَفَقَّ عَرَّابِي كِلِيمِينَ مَعَ شُكُوكِي. بِكُلِّ تَأْكِيدٍ، حَسَبَ رَأْيِهِ، فِي حَيَاةٍ أُخْرَى سَابِقَةٍ عَنْ هَذِهِ الْحَيَاةِ، كَانَ الْأَطْفَالُ بِدَوْرِهِمْ مِنْ أَكْبَرِ الْأَشْرَارِ، مِنْ نَفْسِ طِينَةِ الْأَبِّ، شَيَاطِينَ يَرْتَعُونَ فِي نَفْسِ الْمَكَانِ. مَا رَأَيْكَ، يَا سَيِّدِي؟ أَعْرِفُ - وَمَاذَا عَنْ ذَلِكَ الْعَجُوزِ الَّذِي قُتِلَ؟ - سَتَجِئْنِي. حَسَنًا، هُوَ أَيْضًا. مِنْ هَذِهِ النَّاحِيَةِ، كَانَ يَحْمِلُ خَطِيئَةَ جَرِيمَةٍ عَلَى كَتْفَيْهِ، فِي جَسَدِهِ، يَجِبُ أَنْ يُوْدِيَ ثَمْنَهَا. لَوْ أَنَّ النَّاسَ - وَفَقَ مَا يَقُولُ عَرَّابِي كِلِيمِينَ - يَتَجَسَّدُونَ مِنْ

جديـد أتصوّر أن العـدوّ القاتل يمكن أن يعود في صورة ابن العـدوّ. انظُر، مثلاً: ما أقول، هناك شخص يدعى بيدرو بيندو، جارٌ يسكن على بعد ستة فراسخ من هنا، رجلٌ طيب في كلِّ شيء، هو وزوجته كانا دائماً طيِّبين، من أهل الخير. لهما ابنٌ، في العاشرة من عمره، اسمه فالتي. اسمٌ عصري، من تلك الأسماء التي أصبح الناس يُقدِّرونها اليوم، كما لا حظت. حسناً، هذا الصغير الدقيق، هذا الطفل الصغير، منذ أن بدأ يفهم الأمور، أظهرَ كلَّ ما في طبيعته الكاملة: جَحودٌ بلا حدود، ناريٌّ فظٌّ، يحبُّ أقبحَ ما في أعماق طبيعة جنسه. صارَ يُعذِّبُ، على مهلٍ، كلَّ الحيوانات والمخلوقات الصغيرة التي يقبض عليها. ذات يوم، وجدَ امرأةً زنجيّةً ثَمَلَةً تنامُ، فتدبَّرَ قطعة زجاج وجرَّحها في ثلاثة مواقع من ربلة ساقها. وما يُسِيلُ لُعاب هذا الطفل رؤيةَ دجاجةٍ تنزفُ أو خنزيرٍ يُذبح. - أحبُّ أن أقتل - قال لي مرة يومَ كان صغيراً جداً. أثار ذلك فزعِي؛ لأنَّه: الطائر الصغير الذي يميل، صار تحليقه غداً. حسناً، انظُر ما حدث: أبوه، بيدرو بيندو، رغبةً منه في تقويم الابن، وأمه أيضاً، كانا يضربانه بالعصا دون شفقة، يحرقانه من الأكل، يربطانه إلى جذع شجرة، وهو عارٍ بالكامل، عارٍ مثل دودة، حتى في برد شهر حزيران، يحرقان جسده بالعصا والحزام، وبعد ذلك يغسلان الدم بقرع ممتلئ بالماء المالح. الناس يعلمون بذلك، يتلصَّصون، تقشعرُّ أجسادهم لذلك. اضمحلَّ جسدُ الطفل من فرط النحافة، غارت عيناه، تجوَّفت ملامح وجهه، فما عاد فيها غير العظام، حتى أنه أصبح يعاني من مرض السُّل، يسعل دون توقف، سعالًا يخرج جافاً من صدره. انتبه، الآن، على ما يبدو، اعتاد بيندو وزوجته على ضربه، وشيئاً فشيئاً خلقا من ذلك متعةً صغيرةً مُسلِّيةً، لأنَّ الضرب يُنجزُ في ساعات مناسبة، بل صارا يدعوان الناس ليروا المثال والنموذج. أظنُّ أن هذا الطفل لن يعيش طويلاً، لقد تدمَّر، ولن يبلغ حتى وقت الصيام

الكبير القادم... نعم، نعم، وماذا، إذن؟ إن لم يكن كما يريد عرابي كيليمين، أي تفسير تقدمه، يا سيدي؟ كان هذا الصغير سيصبح رجلاً. وفي جعبته، سلسلة من الشرور الفظيعة. روحه ضائعة، في الظلام. كان يستعرض ذلك. وها هو، الآن، يؤدي الثمن. آه، لكنه، حين يبكي ويجزن، يتألم كأنه طفل وديع... يا إلهي، رأيت كل شيء في هذا العالم! بل رأيت حصاناً يتحبب... وهذا من أقسى الأمور التي توجد.

لكنك، يا سيدي، قد تقول، يجب عليك أن: في البداية - من أجل هذه الخطايا والحيل، الناس - لماذا بدأ كل هذا التَّكفير عن الذنوب؟ حسناً، حسناً، هنا كل الناس يتعثرون. عرابي كيليمين، بدوره، يتعثّر. أنا مجرد رجل من السَّرتاو، لا أحسن السباحة في بحر هذه الأفكار. أنا مسكين مغلوب على أمره. لا أغبط سوى القلائل مثلك، المشبعين بالقراءة، من الدكاترة أصحاب القدر والسمعة. ليس لأنني أُمِّي. تعلَّمتُ القراءة لمدة عام كامل، بواسطة الذاكرة، والعصا وحروف الأبجدية. كان لي معلِّم، المعلِّم لوكا، في كورالينيو، فحفظت عن ظهر قلب قواعد النحو، قاعدة الأثلاث، بل وحتى تاريخ البرازيل وجغرافيتها. وبعناية كبيرة، رسمتُ خرائط جميلة على أوراق كبيرة. آه، ليس من باب الكلام، ولكن منذ البداية وجدوا أنني مفكّر ذكي. وأني أستحقُّ الانتقال إلى المدرسة العليا لدراسة اللُّغة اللاتينية - كانوا يقولون هذا أيضًا. تلك الأيام الخوالي! وما زلت إلى اليوم، أستمع بكتاب جيد، من حينٍ لآخر. في فازيندا أوليماوزينيو، لصديقي فيتو سوزيانو، لهم اشتراك في ذلك التقويم السميك، المُشكَّل من ألغازٍ وأحاجي وأمور مختلفة، يتوصَّلون به كلِّ عام. على أيِّ حال، أعطي الأولوية للقراءة النافعة: حياة قديس، نماذج وفضائل - مُبشِّر له خبرة في خداع الهنود، أو القديس فرنسيس الأسيزي، القديس أنطونيو، القديس جيرارد... أحبُّ الأخلاق حبًّا كبيرًا. التفكير،

حُثُّ الآخرين على اتِّباع الطَّرِيق الصحيح، النصيحة بالحقِّ. زوجتي، كما تعرف، تعتني بي: تُصَلِّي كثيرًا. أُنْهَآ مِنَ الْمُنْعَمِينَ. يَقُولُ عَرَّابِي كَيْلِيمِنْ دَائِمًا إِنَّهُ بوسعي أَنْ أُهْدَى مِنْ تخوفات ضميري، لأنَّه، مَا دُمْتُ أَحْظَى بِمُسَاعَدَةِ جَيِّدَةٍ، فَإِنَّ أَرْوَاحًا طَيِّبَةً تَحْمِينِي. أَوْه! لَا أَطْلُبُ غَيْرَ هَذَا... بِمَا أَنَّ لَذَلِكَ أَثَرٌ حَمِيدٌ، أَسَاهُمْ بِرَغْبَتِي فِي الْإِيمَانِ بِذَلِكَ. لَكِنِّي لَا أَتَمَكَّنُ دَائِمًا مِنْ ذَلِكَ. يَجِبُ أَنْ أَقُولَ لَكَ: أَنَا، خِلَالِ حَيَاتِي بِكَامِلِهَا، فَكَّرْتُ لَوْحْدِي، حُرًّا، لِأَنَّنِي وَلِدْتُ مُخْتَلَفًا. أَنَا مِنْ أَنَا. اخْتَلَفْتُ عَنِ الْجَمِيعِ... لَا أَعْرِفُ أَشْيَاءَ كَثِيرَةً. لَكِنِّي أَتَوَجَّسُّ مِنْ كَثِيرٍ مِنَ الْأَشْيَاءِ. أَسْتَطِيعُ أَنْ أَقُولَ، لَوْ سَمَحْتَ، أَقُولُ: لِأَفَكَّرَ بَعِيدًا، أَنَا كَلْبٌ مَدْرَبٌ - تَطْلُقُ أَمَامِي فِكْرَةً صَغِيرَةً، فَأَطَارِدُهَا حَتَّى أَعْمَاقِ الْغَابَةِ، آمِينَ! اسْمَعْ: مَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ، هُوَ أَنْ يَجْتَمَعَ كُلُّ الْحُكَمَاءِ، وَالسِّيَاسِيِّينَ، وَالْمُنْتَخَبِينَ الْكِبَارِ، لِيَتَوَّأ نَهَائِيًّا فِي الْمَسْأَلَةِ، وَيُعْلِنُوا مَرَّةً وَاحِدَةً، مِنْ خِلَالِ اجْتِمَاعَاتِهِمْ، أَنَّهُ لَا يَوْجَدُ أَيُّ شَيْطَانٍ، وَأَنَّهُ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَوْجَدَ. بِقُوَّةِ الْقَانُونِ! وَبِذَلِكَ، يَمْنَحُونَنَا جَمِيعًا سَكِينَةً طَيِّبَةً. لِمَاذَا لَا تَهْتَمُّ الْحُكُومَةُ بِهَذَا الْأَمْرِ؟!

آه، أَعْرِفُ جَيِّدًا، هَذَا غَيْرُ مُمْكِنٍ. لَا تَحْسَبْنِي بَلِيدًا، يَا سَيِّدِي. أَنْ يُرْتَّبَ الْمَرَّةُ أَفْكَارُهُ شَيْءٌ، لَكِنْ أَنْ يَتَعَامَلَ مَعَ بَلَدٍ مِنَ الْأَشْخَاصِ مِنَ لَحْمٍ وَدَمٍ، بِأَلْفِ نَوْعٍ وَنَوْعٍ مِنَ الْبُؤْسِ، فَذَاكَ شَيْءٌ آخَرُ مُخْتَلَفٌ... كُلُّ هَؤُلَاءِ النَّاسِ - مَرْعَبٌ التَّفَكِيرُ فِي ذَلِكَ - لَا يَنْعَمُ أَحَدٌ مِنْهُمْ بِالطَّمَأْنِينَةِ: كُلُّ مَنْ يُولَدُ يَكْبُرُ، يَتَزَوَّجُ، يَرِيدُ قُوَّتًا، صَحَّةً، ثَرَوَةً، شَهْرَةً، عَمَلًا مَضْمُونًا، وَيُرِيدُ أَنْ تَمُطَرَ السَّمَاءُ، وَأَنْ تَسِيرَ الْأُمُورُ عَلَى أَحْسَنِ مَا يُرَامُ... لِذَلِكَ نَحْنُ مُضْطَرُّونَ لِلِاخْتِيَارِ: إِمَّا أَنْ نَعِيشَ فِي الْفَوْضَى الْعَامَةِ، أَوْ أَنْ نَهْتَمَّ فَقَطْ بِاللِّدِينِ لَا غَيْرِ. كَانَ بوسعي أَنْ أَكُونَ أَبَا كَاهِنًا، أَوْ رَئِيسَ جَمَاعَةٍ مِنَ الْجَاغُونُسُو؛ فَأَنَا لَمْ أُولَدْ لِأَكُونَ شَيْئًا آخَرَ. لَكِنَّ شَيْخُوخَتِي قَدْ بَدَأَتْ، أَخْطَأْتُ خَطَأً كَامِلًا. وَالرُّومَاتِيْزِمُ... هُنَا، كَمَا يُقَالُ، فِي الْكَلِيتِينَ. آه.

ما أفكّر فيه ألاحظه وأشرحه: كلّ الناس مجانين. أنتَ، أنا، كلّ الناس. ولهذا بالأساس نحن بحاجة إلى الدّين: حتى نبعد الجنون، ونطرد الخبل. فالصّلاة هي ما يُشفي من الجنون. عموماً. هنا يكمن خلاصُ الرّوح... كثيرٌ من الدّين، أيها الشّاب! أنا هنا، لا أفوت فرصةً للتدبّر. أشرب الماء من كلّ الأنهار... فنهرٌ واحد قليل عليّ، قد لا يكفي. أصلي صلاةً مسيحيةً، كاثوليكية، أقصدُ الأمان؛ وأقبل صلوات عرّابي كيليمين، وآراءه الخاصة، من كارديكي. لكن، حين أستطيع، أذهبُ إلى ميندوبيم، حيث هناك مؤمن من أتباع الكنيسة الميثودية^(١)، يُدعى ماتياس: نتهّم نفسنا بالخطيئة، نقرأ الكتاب المقدس بصوت عالٍ، ونصليّ ونحن نترنّم بأناشيد خاصة بهم. كلُّ هذا يبعث السّكينة والطّمأنينة في نفسي. فينعشني أصغرُ ظلّ. لكن ذلك مؤقّت عابر جدّاً. أريد أن أصليّ - طوال الوقت. كثير من الناس لا يوافقون رأيي، يرون أن شريعة الرّب مجرد امتيازات، كالعادة. وأنا! الوجه القبيح! أكره ذلك! من أكون؟ أفعل ما يحلّولي، بطريقة شخصية جدّاً. وأفعل ذلك، بسهولة وسرعة، أمام أنف الجميع. أنا؟ - لا أهرب!

انظر: هناك زنجيّة، اسمها ماريّا ليونوسيا، تسكن قريباً من هنا، اشتهرت بصلواتها التي تمتاز بفضيلة ناجعة. حسناً، كلّ شهر أدفع لها كي تصليّ من أجلي صلاة السُّبحة كل ما خلق الرّب من أيّام، وتتلو سُبحة كل أيّام الأحاد. أمرٌ يستحق ثمنه. زوجتي لا ترى ضرراً في ذلك. وعليه، فقد بعثت برسالة إلى امرأةٍ أخرى، من فاو فاو، تدعى إيزينا كالانغا، لتأتي، وعلمتُ أنها تصليّ أيضاً بمهارة عالية، سوف أبرمُ معها عقداً، أريد حفنةً من هؤلاء النساء، أدافع عن نفسي تحت حماية الرّب، وهن متحلّقات من حولي... يا جراح المسيح!

(١) الكنيسة الميثودية طائفة من الكنيسة البروتستانتية. كانت موجهة بشكل أساسي للعمال والفلاحين والعبيد، لذلك لاقت استحساناً كبيراً في الأوساط المُستضعفة. (المترجم)

الحياة أمرٌ في غاية الخطورة... بدايةً، الرغبة المفرطة في الخير، بطريقة غير مضمونة، يمكن أن تكون معادلاً للرغبة في الشر. هؤلاء الناس! كان كل واحد يجلب العالم نحوه ليُصلحه إصلاحًا ويصوّبه تصويّبًا. لكن كل واحد لا يرى ولا يفهم الأشياء سوى على طريقته. بخصوص العدد، كان أكبرهم حكمةً وأكثرهم جديةً هو ميديرو فاش. وشخص آخر، على الطريقة القديمة... هو السيد جوازينيو بيم-بيم، أكثرهم شجاعةً، لم يستطع أحدٌ أن يفكّ شفرات مكوناته الداخلية. جوكا راميرو - رجلٌ عظيم، أميرٌ - كان سياسيًا. زي بيبيلو أراد أن يبدو سياسيًا، لكن الخطّ حالّهُ ولم يُحالفهُ: ثعلبٌ انتظر أكثر من اللازم. استشاط سو كانديلازيو غضبًا حين ظنّ أنه مصابٌ بمرض خبيث. أمّا تيتاو باسوس، فيرجعُ الفضلُ فيما كان عليه إلى أصدقائه؛ فقط بفضل هؤلاء، بفضل هذه الصداقات بلغ تلك المكانة العالية في مراتب الجاغونسو. أنطونيو دو، رجلٌ عصابة قاس. لكن عند النصف؛ أكبر نصفٍ ممكن. أنداليسيو، رجلٌ طيب بطبعه، طائشٌ أخرقٌ رغم كل ما يميزه من حقّ. أما ريكازداو، فكلُّ ما كان يطمح إليه هو أن يكون غنيًا في سلام: كان يمارس الحرب من أجل ذلك. الوحيد الذي وُلدَ نمرًا، وقاتلاً، كان هو هِرموجينيس. و«الثعبانُ الأبيض»؟ آه، لا تحدثني عنه. آه، هذا... ذلك الحزين ذو الوجه الشاحب، طفلٌ مسكين كان ينتظره مصيرٌ...

على أيّ، لا نستطيع شيئًا. كنتَ تسمعُني، وأنا أقول: الخسيسُ مع الخسيس، وكلّ الأشواك تنكسر، والرّب ينتظر تلك النهاية. أيها الشاب!: الرّب صبرٌ. الشَّيْطَانُ عكس ذلك. يملُ. المُس سِكِينًا بِسِكِينٍ - اشحذُهما - اكشطُهما. حتى الحجارةُ في قاع الماء، يحتكُ بعضها ببعض، تندورُ صقيلةً، ما دام الجدول يجري. حاليًا، أعتقد أن كل ما في العالم، شيءٌ مستحقٌ وضروري. أولًا، لأنني بحاجة إليه. إن الرّب لا يظهر حاملًا بندقية، ولا يضغط كثيرًا

على القوانين. ما الجدوى من ذلك؟ يترك الأمور تسير: الأبله مع الأبله - ثم يأتي يوم ينقصم ظهره فيتعلّم الدرس: يتخلص من البلاهة. إلّا أنه، أحياناً، من أجل المساعدة، ينثر الرّب قليلاً من الفلفل...

هل يحدث هذا؟ حسنًا، حتى أقدم لك مثالاً: قبل مدة، ذهبتُ عبر القطار إلى سيتي لاغو واس بغرض زيارة طبيبٍ أشاروا عليّ باسمه. سافرتُ مرتدياً ملابس أنيقة، وأخذتُ عربة في الدرجة الأولى، حتى أبعد الشكوك من حولي، لأنني لا أريد أن يحسبوني جاغونسو سابقاً. جلستُ في مقعدي وإذا به أمامي، بالقرب مني تماماً، عائداً من ذلك الشمال المتوحش، جلس المدعو جازيفيداو، عميدُ شرطة. كان رفقة شرطيٍّ سرّي، لأنني أعرفهما معاً، الأول شرّير والآخر لا يقلُّ عنه شرّاً. صراحة، انتابني رغبةٌ قوية في أن أبتعد من هناك، أن أغير المقعد. لكن رأيي قال لي إنه من الأحسن أن أبقى هناك. لذلك، بما أنني بقيت، كنتُ أشاهد. والحقيقة أقول: لم أر قطُّ وجهَ رجلٍ موسوم بالعنف والخبث أكثر من وجه ذلك الرجل. مثل دابة نقلٍ، ممتلئ الجسد كأنه نُحت بمنجل، بدا قاسي الهيئة، بعينين ضيقتين، ذقن حَجَري، وحاجبتين كَثِين. ليس له من جبين، ولا أدنى جبين. لا يضحك، لم يضحك، ولا مرة واحدة؛ لكنّ سواء تكلم أم لزم الصمت، كانت تظهر دائماً سنٌّ، مثل نابٍ غوارا^(١). كان يفوح برائحة كريهة بعض الشيء. يُدمدم كلمات خفيضة، يأكل نصفها. كان منشغلاً بترتيب الأوراق وتصنيفها، ورقة ورقة، مع صور وبصمات سود لأفراد من الجاغونسو، من سارقي الخيول والمجرمين القتلة. ذلك الانهالك في العمل، في ذلك النوع من الأمور، يثير الحفيظة في النَّفس. أما الشرطيُّ السّري، الجالس قريباً جدّاً منه، فكان أكثر

(١) حيوانٌ من فصيلة الكليّات التي تعيش في الغابات والأحراش البرازيلية. (المترجم)

من كلبٍ قرب صاحبه. أصابني ذلك بالقشعريرة، التي طالت جسدي فقط، لكنها لم تنفذ إلى قلبي وعزيمتي. في لحظةٍ ما، سقطت على الأرض واحدةً من تلك الأوراق، فلم أفهم لماذا، لم أرغب في ذلك، لم أفكر - ما زلتُ أشعر بالحجل من ذلك إلى اليوم - فالتقطت الورقة وأعدتها إليه. من هنا، أقول: غضبتُ بشكل كبير، بسبب ذلك الفعل، لكنني كنتُ قد قمتُ به. لم ينظر إليَّ الرَّجل، بل لم يشكرني على ذلك. حتى نَعْلًا حذائه - بالنظر إليهما - كانا غليظين خشنين، نعلان مزدوجان ضخمان، كأنهما من برونز أو من حديد. لأنني كنتُ أعرف: جازيفيدأو هذا، عندما يقبض على أحد، كان أول ما يقوم به بكل هدوء هو أنه يدخل دون أن ينبس ببنت شفة، متظاهرًا أنه على عجلة من أمره، فيذهب ويدوس بقوة أقدام المساكين الحافية. وفي تلك المناسبات، كان يقهقه، يطلق تلك الضحكات العالية، يطلق... مقرفٌ، أليس كذلك! أعدت له الورقة، وخرجتُ من هناك، كي أضبط نفسي، وأتمالكها كي لا أحطّم ذلك الرَّجل بطلقات نارية عن قرب. جسدٌ يزن كثيرًا... كانتُ تبرز مقدمة بطنه الأكرش، التي أيقظت رغباتٍ في نفسي... وبطبعي الهادئ، كنت أستطيع قتله بكلّ فرح. لكن ما اقترفه هذا الشرطي من فظائع وما قام به من أفعال، أنت لا تملك قلبًا لسماعها. لقد أسالَ دموع الدّم من عيون عديد من نساء ورجال هذا العالم البسيط الذي كُتب لنا هنا. السّرّتاو. أنت تعرف: في السّرّتاو، الأقوى والأدهى هو من يسود ويحكم. حتى الرّب، حين سيأتي، عليه أن يكون مسلّحًا! والرصاصَةُ ليست سوى قطعة معدن صغيرة جدًّا...

لكنني أقول أيضًا: جازيفيدأو، واحدٌ مثله، هل كان ضروريًا، هل كان لا بد أن يوجد؟ آه، لا بدّ. فالجلد السيء هو من يستوجبُ المكشط. بما أنه - ذاك شأنه - في هذه الحياة أو في الأخرى، كلُّ جازيفيدأو يقومُ بمهمّته، يسقط

مباشرةً، بدوره، في أوقات عصيبة، إلى أن يؤدي ما عليه؛ وعَرَّابِي كيليمينْ هنا ليتكَلَّف بالأمر. أنت تعرف: كم خطير أن يعيش المرءُ. لكن، فقط بمثل هذه الطرق، بمثل هذه الطرق الخسيسة، انتهى زمن الجاغونُسو. هل تظن ربما أنَّ أنطونيُو دُو أو أوليفينو أو ليفيانو سيظْلان طيِّين هكذا بمحض إرادتهما، أم بتوسُّل من الناس المساكين، أو حتى بعد سماع خطبة كاهن؟ كلاً! على ما يبدو...

أمَّا عن رجل من الجاغونُسو، نشيط، ويتصرف بطريقة تعبَّر عن ندمه لما صدرَ عنه من تصرُّفات هوجاء، فلا أستطيع أن أقدم شهادة سوى عن رجلٍ واحد: اسمه جوزيه كاروزو - حدث ذلك في ذروة تبادل لإطلاق النار، فوق مكان يدعى سيرا نوفا، في مقاطعة ريو باردو على ضفاف نهر تراسادال. كُنَّا أقلِّيَّة بائسة، محاصرين من طرف رجال المدعو أدالفينو، وهو من كبار أصحاب الفازيندات، سياسي قوي، معه فيلق من الجنود النظاميين تحت قيادة الملازم ريبَّيس ليمي، الذي كان قائداً فيما بعد. صمدنا لساعات طوال، وكنا نعتقد أننا محاصرين تقريباً. فجأة، جاء جوزيه كاروزو هذا - رجل شجاع جداً - جثا على ركبتيه فوق تراب السافانا، ثم راح يرفع ذراعيه، مثل غصن شجرة جاتوبا جفَّت أوراقها، وطفق يطلق صراخاً واضحاً يصمُّ الأذان: «رأيتُ سيدتنا العذراء مريم، هناك في وهج السماء، ومعها الملائكة، أبناؤها!...» يصيح دون توقف: «رأيتُ سيدتنا العذراء...». هل كانت رؤيا بدتْ له؟ هربنا. حصاني، بسرعة - قلتُ مع نفسي - قفزتُ فوق السَّرج، لا أدري بأيِّ سرعة، أطلقت الزمام المشدود إلى جذع شجرة. طرْتُ، مسرعاً. كان الرِّصاص يثُرُ. الأحراش تزجرُ. في الغابة، يخرج الخوف من الناس كاملاً، خوفٌ له ما يبرره. كان بوسعي أن أسرع، مثل حمارٍ متعثر، هيا، هيا. جاءت ثلاث رصاصات واستقرت في ظهر سرجي، اخترقته فانتزعت كل ما حُشي

به. وسط الركض، ارتعش الحصان، من باب التعاطف، أعرف: إنه يفكر في سيّده. ما كنت لأجد نفسي في موقف أسوأ من ذلك. كما تلقى الكيس فوق ظهري رصاصاتٍ أخرى، وكان ممتلئًا ببعض الأغراض. رصاصة أخرى، أطلقت من بندقيّة، بطريقة غير مباشرة هذا أكيد، أحرقت فخذي دون أن تصيبني بجرح، انظر: فعلت الرّصاصة ما يحلو لها، انسحقت هنا، بيني وبين وسادة السّرج. أوقات مجنونة... بورومبوم! جثا حصاني على قائمته ساقطاً، ربما مات، فسقطتُ نحو الأمام، وعلقتُ وسط خيسٍ من الأغصان والنباتات المتسلّقة التي كانت تتراقص بي، تسلّخني، كأني معلق وسط بيت عنكبوت ضخم... أين أذهب؟ كنتُ أعبر كل ذلك، حياة بكاملها... مفزوعاً، مذعوراً، أضغط بكل جسدي كي أخرج من تلك الغابة، لا أعرف كيف، فأندفع، أسقط بلا نهاية، أtdحرج في فراغ كهفٍ تسدّه الأحراش، ثم أتشبّث، أتشبّث - لا يمنعني ذلك من التّدحرج دائماً: وبعد ذلك - بعد ذلك، حين نظرت إلى يديّ، كل ما لم يكن دمًا يلطّخ أصابعي، كان يشكّل حساءً أخضر، من الأوراق المعمرة التي كنتُ أسحقها، أنتزعها... سقطتُ على العشب هناك في العمق، فقفز حيوانٌ قفزة كبيرة، يبصق، مجنوناً من الفزع بدوره: كان غريباً، بالكاد لمحتّه؛ لا ينافسه أحد في الهروب. كنتُ أكبر منه، أتصبّب عرقاً، تمدّدتُ على الأرض بكاملٍ طولي. لمعتُ فكرةً في ذهني: إن كان هذا الحيوان الصغير قد اتخذ لنفسه مأوى في هذا المكان فأنته لا ثعابين هناك. أخذتُ مكانه. لم يكن هناك أي ثعبان، لا أثر للثعابين. يمكن أن أستريح. كنتُ متراخياً تماماً، في استرخاء تامّ، لكنه لا يُذهبُ الفزع من نفسي، ولا يطرده من داخل قلبي. لهتُ. ظننتُ أنهم قادمون، أنهم سيقتلونني. ليكن، لا يهم. هكذا، مدة بضع لحظات، كنتُ أسمح لنفسي بقسط من الرّاحة لأستريح. طبعاً، فكّرتُ في ذيادوريم. لم أكن أفكر سوى فيه هو. غرّد

طائرٌ وقواق. كنتُ أريد أن أموت وأنا أفكرُ في صديقي ذِيادوريم، أخي، قريبين جدًا من بعضنا أنا وهو، مثل إصبعين في يدٍ واحدة. كان في جبال باؤ دازكو، على مشارف حدود ولاية باهيا، رفقةَ بقية أفراد جماعتنا مع سو كانديلازيو... كنتُ أحضن بذراعي صديقي ذِيادوريم، فتذهبُ أحاسيسي وتعود مباشرة إليه... لكن، حذار: هنا يتحدث لساني بطريقة لا يحكمها أيُّ نظام. إنني أحكي خارج الموضوع، أقول استطراداتٍ في غير محلّها. هل أثق بك، يا سيدي؟ طبعًا، طبعًا. ملاكي الحارسُ يُحذّرني... لكن، كما كنتُ أقول: علِمنا ذلك لاحقًا، حتى جنود المَلّازم وأتباع العقيد أدالفينو تَلَطَّفُوا واحترموا وشاية جوزيه كاروزو. فتبيّن أن هذا الأخير كان أكبر رجلٍ مسالمٍ على البسيطة، يصنع الزيت ويشغل خادمًا في الكنيسة، في ساؤ دومينغوس بُرانكو. يا له من زمان!

في كلّ مناسبة، من أجل نعم أم لا، أفكرُ. حتى تنتشر فكرتُنا بشكل أسهل، من الأفضل أن نسافر عبر القطار. إن كان ذلك بوسعي، لقضيتُ حياتي أسافر ذهابًا وإيابًا على متن القطار. والمعلومة التي أطلبها: كيف أنه، حتى في السماء، نهاية النهاية، تستطيع الروح أن تنسى كل تلك المعاناة والشرور، ما تَلَقَّت منها وما اقترفت؟ كيف؟ أنت تعرف، يا سيدي: ثَمّة آلام مخيفة حقًا! آلام الجسد وآلام الرُّوح التي تنغرس عميقًا، عميقًا جدًا مثل كلّ الحبِّ والحقد الغاضب. يذهبُ، البحرُ... لذا، اسمع هذا، من الأفضل: فيرميانو، «قملة الثعبان»، كما يلقَّب، بساقه المتنفخة المشوّهة، أُصيب بالجُدري، هذا المرض العضال؛ كما أنه لم يعد يبصر، بسبب ذلك البياض في عينيه، المياه البيضاء. فاضطرَّ، منذ سنوات ليتخلّى عن حياة الجاغونُسو. حسنًا، ذات مرة، توقّف أحدهم في بيته، هناك في أَلتو جيكيثاي، وحكى ذلك لاحقًا - مرَّ الوقت وأثير الموضوع - فهل تدري ما قال فيرميانو؟ قال: «ما أفتقد هو أن

أقبض على جندي، أخرج أحشائه بسكينني الحاد... لكن، عليّ أن أخصيه، أولاً...». هل تتخيل ذلك؟ مَنْ به كلُّ هذا القدر من الشيطان لا بد أن يكون هنديًا، أو أي عرق غريب. نجد هذا النوع من القبائل في أعماق الأراضي العليا في غويّاس، هناك حيث أنهار كبيرة متسكعة، تحمل دائمًا مياهًا صافية جدًا، عذبة، تجري في مجاري بلّورية وردية اللون... كان «قملة الثعبان» يؤكّد أن دماء هندية تجري في عروقه. قد تقول لي: إنه كان يتكلّم هكذا كي يظهر أنه عجوز آفل. طريقة يعارض بها الآخرين، خوفًا من التدجين، ووسيلة ليحظى بالاحترام. كلُّهم يتصرّفون وفق هذه القاعدة: يتجنّبون بالأفطع، كي يفرضوا أنفسهم، لأنّ الناس من حولهم قساة لا يرحمون. لكن أفطع ما في الأمر أنهم، بسبب نفس الشعور، يعتقدون في النهاية، ذات يوم، أنهم مجبرون على تنفيذ أقوالهم في الواقع. لشدّ ما رأيتُ من الوحشية! من المؤسف أن الحديث عن الألم لم يعد مربحًا؛ إن بدأتُ لا أتوقّف. وكل هذا يثير مشاعري، يصيبني بالقرف. ما يعجبني اليوم أن الناس قلوبهم طيبة. أي أنهم طيبون في كلّ شيء. أفعال الشرّ المجنون والشرور كانت دائمًا موجودة، لكنها قليلة. أما جيلي، الجيل الحقيقي، فلم يكن كذلك. آه، ها قد اقترب زمان لن يُمارس فيه قتل الناس... أما أنا، فقد هرمتُ.

حسنًا، كنتُ أقول لك: هذه المسألة، التي كانت تؤرقني... آه، طرحْتُ ذلك السؤال على عرّابي كيليمين. فأجابني: بعد أن يقترب الناس من السماء، فإنّهم يتطهرون كثيرًا حتى أن كلّ القُبْح الماضي يتبخّر إلى غير كائن - مثل أعمال السحر، تلك الطريقة التي لا شكل لها من زمن الطفولة. تمامًا كما أنه لا سبيل للنّدم عمّا يطفو إلى السطح مع لهاث كوايس ليلة من الليالي. لأنه كلّما قُطع نباتٌ، ازداد نموًا وازدهارًا. آه! وبسبب هذه الحكمة، يستغرق الصعود إلى السماء وقتًا طويلًا. إنني أثق بعرّابي كيليمين،

أنت تعرف ذلك: بسبب ما يتمتع به من إيمان بأنه عن كل ما نفتقر من شرّ سوف تؤدي الثمن في يوم من الأيام، الثمن المشروع. والمؤمن بذلك يفكر ثلاث مرات قبل أن يسمح لنفسه بفعل تفاهة تستحق التوبيخ... لم يكن عرابي كيليمين يتكلم أبدًا ليقول لا شيء، ولا يتهرّب. إلّا أنني لن أقول له هذا. لا ينبغي أن نقبل ما ليس لنا بحذافيره - وهذه هي القاعدة الذهبية!

أنت، يا سيدي... انظر واسمع: أن أجمل وأهمّ ما في العالم هو هذا: الناس ليسوا سواسية، إنهم ليسوا مكتملين، ليس بعد - ولكنهم يتغيرون على الدوام. إمّا يدركون الكمال أو ينحون إلى النقصان. حقيقة عظمى. هذا ما علّمتني الحياة. وهذا الأمر يغمرني بالفرح. ثم هناك شيء آخر: الشيطان. إنه خبيث فظيع، ولكن الرّب مكرّر. الرّب هو قمة المكر، شيء ممتع! قوته، حين يشاء - أيها الشاب! - تثير في نفسي الهلع! يأتي الرّب: لا أحد يلاحظ ذلك. يتصرّف الرّب وفق قانون التخفي، وهنا تكمن المعجزة. ثم يهاجم الرّب بشكل جميل، مُتسلّيًا، فيقتصد. لإثبات ذلك: ذات يوم، داخل مدبغة، سقط سكين في برميل ممتلئ حتى الحافة بذلك المرق من القشور، والخرنوب أو الأتجيكو، ولست أدري أي شيء آخر، مما يُستعمل في الدبغ - «إذا سوف أخرجه» - قلت في نفسي. لأن الليل كان قد حلّ، ودون ضوء لا أستطيع شيئًا. آه، إذن، اسمع جيدًا: في اليوم التالي، باكراً جدًّا، كان السكين، شفرته، عند النصف تقريبًا، قد نخره ذلك الماء الأسود، هكذا بكل هدوء. تركته لأرى ما يحدث بعد ذلك. لكن، أمر لا يُصدّق! هل تعرف ما حدث؟ في اليوم نفسه، لم يتبقّ من سكين غير المقبض... المقبض، لأنه لم يكن من حديد، بل من قرن الغزال. هكذا، إذن: الرّب... حسنًا، لقد سمعت، يا سيدي، ومن سمع علم، ومن علم أدرك ما أقصد...

باختصار، لا أعتقد أنَّ الدِّين يُضعفُ النَّاسَ. أنت تعتقد عكس هذا.
 من الواضح أنني كنت أحلم وقتئذٍ - أعتقد أن نبات الشوك يزهر. آه، أُرْضي
 الجميلة... شبابي. بيد أن الشَّبَاب مهمة سرعان ما يجري تكذيبُها لاحقًا.
 وبعد ذلك، من طول تفكيري في الفراغ، فقدت القدرة على العمل اليدوي
 في الأمور الشاقَّة، وسط الآخرين. لكن اليوم، بعد التدبُّر في الأمر، وأنا
 أفكر فيه طوال الوقت، ليس لذلك أعتبُرُ مهارتي معدومة في التعامل مع
 الحديد والنار. ينبغي أن ترى ذلك. ليأتوا ويعلنوا الحرب عليَّ، بسوء نية،
 بقوانين جديدة، أو نظرات مُلحَّة جدًّا، ليأتوا، ليأتوا! ما زلتُ أراهن على
 أنني أضرمُ النار في هذه المنطقة، من حولنا، في حالة ما إذا، في حالة ما إذا...
 بالبندقية: تاك تاك تاك... ولستُ لوحدي، حذار! لأتفادى ذلك، أحطتُ
 نفسي بأهلي. انظر، يا سيدي: قريبًا عند أسفل هذا الطريق، باشبي - مؤاكرِي
 - هو من أهلي. وعلى بعد فرسخ واحد من هنا، هناك أكاوًا، وهناك الأب
 سيريل وأبناؤه الثلاثة، أعرف أنني يمكن أن أعوّل عليهم. ومن هذه الجهة،
 هناك ألابيبي: لو تعلم كيف يمكن أن يكون شخص من سيارا مثله مفيدًا
 في استعمال السِّكين والبندقية! ثم هناك أيضًا جَواو نوناتو، كييس، باكاما
 دي بُريزاس. وهناك أيضًا فافافا، ذلك الذي تألَّق بالقرب مني في تلك
 المعركة القديمة، معركة تاماندواتاو: قطعنا الهواء عن كلِّ من لم نأذن لهم
 بالتنفُّس، كُنَّا قد طَوَّقناهم من قبل... يملكُ فافافا قطيعًا مهمًّا من الخيل. يُربِّي
 الخيل. بعيدًا هناك، عند سفح الجبل، هناك من كانوا ضمن جماعتي، هناك
 سيسفريدو، جيزو والدو نيلسون وجَواو كونكليس. بالإضافة إلى آخرين.
 هناك تريول... فكيف لا أكون قويًّا؟ أترك لهم قطعة أرض، مالي لهم، اتفقنا
 مثل إخوة. لماذا أرغبُ في تكديس الثروة؟ إنَّهم هنا، أسلحتهم جاهزة. إنَّ
 جاء العدو، نتبادل الأخبار، نجتمع: حان وقت إطلاق النار في سلام، كي

نريهم من نحن. أقول لك هذا، بكل ثقة. لكن، لا تفكر أبعد من ذلك. ما نريد هو أن نشتغل، ونقترح الهدوء والطمأنينة. أنا، من جهتي، أعيش لأجل زوجتي، لأنها تستحق كل شيء وأحسنه، ولأجل التقوى. فما ساعدني هو حب زوجتي، صلواتها، والنعمة. الحب ينشأ من الحب. أقول. أفكر في ذيادوريم، لكن ذيادوريم هو ضبابي...

الآن، إذن: لا أريد أن أعود إلى هذا الأمر - إلى ذلك اللعين؛ كفى. لكن، هناك «لكن» واحدة: أتساءل: هل تُصدّق، هل تُصدّق قليلاً من هذا الكلام، أنه يمكن عقد ميثاق مع الشيطان؟ لا، لا هي لا؟ أعرف أن هذا غير موجود. كنتُ أقول أكاذيب. لكن كل الأقوال تعجّبي. أن يبيع المرء روحه... أكاذيب مبتكرة! والروح، ما هي الروح؟ يجب أن تكون الروح شيئاً باطنياً عظيماً، أكثر من الحميمي، لا مزيج فيه، هذا فقط، أكثر ممّا يتخيله المرء: آه، الروح المطلقة! إن قرار بيع الروح ليس سوى اندفاع مغرور، توهم لحظة، لا يستند إلى طاعة قانونية. هل أستطيع أن أبيع هذه الأراضي الخصبة، الممتدة من هنا إلى فيريداس كواترو - تلك التي يملكها أميرال يقطن في العاصمة الفيديرالية؟ هل أستطيع ذلك؟! إذن، إن كان طفلاً ما طفلاً بالفعل، فإننا لذلك نسمح له بإبرام صفقة... ونحن، أعرف، لسنا سوى مثل طفلٍ أحياناً. إن ما اقترفته من شرٍّ في حياتي حدث في فترة معينة من طفولة الأحلام - كل شيء يحدث بسرعة كبيرة - فهل ثمة بريقٌ مسؤوليّة في ذلك؟ زمن حلم؛ وها قد انتهى كل شيء... أطمعتُ الحصان سكرًا! آه. حسناً. إن كانت الروح موجودة، فهي توجد، الرب هو من وضعها، شاء الإنسان ذلك أم كرهه. إنَّها ليست للبيع. ألا تتفقُ معي؟ قل لي ذلك بصراحة، من فضلك. آه، إنني أشكرك. أرى أنّك، يا سيدي، تعرف أموراً كثيرة، بفكر ثابت، علاوة على أنّك حاصل على شهادة دكتوراه. إنني أشكرك، أيضًا. رفقتك تمنحني كثيرًا من المتع الراقية.

بشكل مناسب، أودُّ لو تسكَّنَ هنا، أو قريبًا من هنا، هذا قد يُساعدني.
هنا، ينقصنا المحيط الذي يساعد على التعلُّم. السَّرَتَاو. هل تعرف ذلك، أنَّ
السَّرَتَاو هو ذلك المكان الذي يتشكل فيه فكرُنا بقوة أكبر من قوة المكان.
الحياة أمرٌ في غاية الخطورة...

هيا، لن تذهب هكذا؟ كلاً، ليس الآن؟ ليس اليوم. ليس غداً. أنا لا أوافق
على ذلك. سامحني، لكن باسم صداقتنا، تقبَّل هذا الأمر: ابقَ معي. بعد ذلك،
يوم الخميس باكراً جداً، إن كنت مصراً على ذلك، ازحل، حتى لو تركتني
أشعر بغيابك. لكن، اليوم أو غداً، لا. فزيارةٌ إلى بيتي، هنا، تدوم ثلاثة أيام!

لكن، هل تنوي فعلاً قطع هذه الأراضي من طرفٍ إلى آخر، كي تقارن ما
يوجد فيها؟ لك ما يدفعُك إلى ذلك. الآن - ما أقوله - جئت، جئت متأخراً.
مرَّ الوقت وتغيَّرت العادات. تقريباً، بقي شيءٌ قليل من الأشياء الشرعية
الأصيلة، لم يتبقَّ شيءٌ. فجماعاتُ الشجعان البواسل تفرَّقت؛ وكثير ممن
كانوا ضمن الجاغونسو تجدهم هناك يعانون، يتسوّلون. بل أنَّ رعاة البقر
يتردّدون في المجيء إلى الأسواق مرتدين كامل ملابسهم الجلدية، يعتقدون
أن ارتداء المعاطف الجلدية شيء قبيح المنظر، بدويٌّ حقير. حتى القطيع،
في المراعي، صار وديعاً، أقلَّ ضراوةً، أكثر تهديباً: صغارُ بقر الزيبو فقدوا
طبائعهم مع ما تبقى من القطعان والماشية. في كل مكان، في كل أنحاء
الهضاب العليا، هناك الفقر والبؤس. حزنٌ أصبح ممتعاً تقريباً. لكن، اسمع،
حتى تقطف حصاداً محترماً من الأشياء الغريبة، أنصحُك بالخروج في سفرٍ
أطول. لولا عجزِي، بسبب القرحة والروماتيزم، لذهبتُ معك بكلِّ سرور.
أكون دليلُك، يا سيدي، في كل مكان.

حتى أريك القمم الصافية في سلسلة جبال ألماس: يسقط النهر من هناك،
دووبًا، كأنه سور من الزبد، في صحبٍ هادر؛ كلُّ تدفقٍ شلال. حالة شبق

أثنى النمر الأسود في جبال تاتو: هل سبق لك أن سمعت أثنى اليغور تتلذذ أثناء الإنعاض؟ وهناك الضباب المتلألئ فوق جبال كونفينس عند الفجر حين تَبْيَضُ السماء، ذلك الضباب الذي يُسمونه «كُسِيرِيرِم». مَنْ علّمني تقدير كل هذا الجمال الذي لا يملكه أحد، كان ذِيادورِيم... جبال رايزاما، حيث الطيور - حسب ما يقال - تحسبُ مراحل القمر، وهناك يتجول اليغور العظيم. قمرٌ فضي كأنها تُسَكُّ منه النُقود. حين ستحلُم، احلُم بهذه الأشياء. روائح الحقول المزهرة، القوية، في شهر نيسان: نباتات السِّغَانِينِيَا، البنفسجيّة، نباتات الآس المتبلّ، الأصفر... هناك، في سارِينِيم. أسراب من حشرات الزّيز. عند ظل شجرة تمر هندي... آه، والبرد! هنا يبرد الجو كثيرًا حتى تتجمّد منه ظهور الثيران، بل وحتى سطوح البيوت. أو في مياومياو - حيث كل الأراضي وراءه شبه زرقاء. كأنها السماء: سماء ذات زرقة متوقّدة، كأنها عينٌ طائرٍ حجلٍ. ريحٌ لا تعطي الندى فرصة أن يتشكّل... ريحٌ خفيفة ساخنة تتسرّبُ بين جذوع النخيل... أتذكّر ذلك، لا أتذكّر ذلك... أو - أنت ستذهب، يا سيدي - الماء يغمر الأرض، من كثرة المطر. ستجد جدولاً يجري في مَعبرٍ صعب، أو أنهارًا تعجّ بالدوّامات... بين بوريتي - ميتيم، أنجيليكال، إسترِيَا دي سانتا مارِيَا... هل تمارسُ القنص، يا سيدي؟ هناك حجلٌ أكثر مما في هضبة فيرنيتيس... هناك يكون قنصُ الأنثا^(١)، التّأبِير، بين بوريتي ألّتو وكابيسا دي نيغرو، لأنها حيوانات تقتات على أعشاب متنوعة وتقتضم قشور عدة أشجار مختلفة: لحمها لذيذ لا شبيه له. قطعْتُ كل تلك الأراضي البعيدة رفقة حُبِّ حياتي، كنا نحبُّ بعضنا حبًّا كبيرًا. هل تعرف ما هذا الأمر؟ هل سبق لك أن عانيت من الهواء المشحون بالشوق والحنين؟ يقال إن هناك حنين

(١) حيوان من الثدييات، يكثر في المنطقة الوسطى من أمريكا الجنوبية. (المترجم)

الروح وشوق الفؤاد... آه. يقولون إنَّ الحكومة سوف تفتح طريقًا جيدًا تسلكه العربات من بيرأبورا إلى باراكاتو، قريبًا من هنا...

في جبال كافونندو، حين تسمعُ هزيم الرِّعد، وصداه المتردد، تغلق أذنيك، يا سيدي، بل يمكن أن تبكي أيضًا، من شدة الخوف والأوهام، كما كنتَ تفعل وأنت طفلٌ صغير. سترى بقرات تلدُّ في عزِّ العاصفة وبعيدًا عن هناك، وأنت تسير دائمًا، صعودًا ونزولًا، بمحاذاة نهر أوروكويَّا الذي يصبح متوحِّشًا تمامًا... جبالٌ تتلو جبالًا، ويختفي القمرُ. هناك تجري الجبالُ ملتوية. الجبال ترسم قممًا. وفي مكان ما، على جنباتها، يخرج من الأرض بخارٌ من كبريت، في صحبٍ مرعب، فيفرُّ القطيعُ، من الخوف. والشيء ذاته يقع في جبال إسترونندو ورونكادور، حيث تحدث عواصف قوية من حين لآخر. إيه؟ سيدي؟ اسمع: مياه نهر كارينيانا سوداء، ومياه نهر باراكاتو بُنية؛ أما نهري، نهري الجميل، أوروكويَّا، فمياهه هادئة... إنَّه الحياة!... بعد مضيق بورتو داسْ أونساس هناك فازيندا صغيرة. هناك توقَّفنا لبضعة أسابيع، واسترحنا. كُنَّا في أمْس الحاجة لذلك. ففي الطريق كنا نسير مشيًا على الأقدام حتى لا نتعب الخيل التي كانت في حالة سيئة. وجدَّ ميديرو فاش متعةً في مثل تلك الأماكن، خارج أوقات الحرب، فينام مرتديًا قميصًا طويلًا وقبعة في الليل؛ وقبل أن ينام، يجثو على ركبتيه ويتلو صلاةً بالسَّبعة. كانت تلك أجمل أيامي. كُنَّا نمارس القنص؛ وكلُّ واحد ينسى ما يريد أن ينساه، لا ينقصنا المأكُل، إذ نصطاد السمك في المستنقعات... سوف تذهبُ إلى هناك، وسترى بنفسك. فالأماكن لا تزال هناك في مواضعها، لتؤكد ذلك.

مُتعةٌ خالصة. مياهٌ صافية، منابعٌ ماء، ظلال وشمس. فازيندا بوي بُريتو ملك المدعو إليوتيزيو لوبَّيس، قبل الوصول إلى كامبو أزولادو، بمحاذاة نهر كييما داو. هناك، كان ذلك في شهر شباط أو كانون الثاني، خلال فترة

إزهار الذُّرة. عندي ثلاث ذكريات: الذُّرة البيضاء ذات الأطراف الفضيّة، التي تنمو كثيفة في السَّافانا؛ الينسون الذي يبعثُ المرح في الغابة؛ ونباتات الدَّيجانيرا بأزهارها الدقيقة. هذه النجليات شديدة المقاومة، تتكاثر أثناء نموها، وتكبر خضراء بلون البحر، نابعة من الرِّذاذ. ومن كل أرجاء الغابة، كانت تخرج أسرابٌ من الفراشات بكلِّ الألوان تحومُ حول الأزهار والأوراق. ما لم تره قطُّ، تراه هنا. لأنه، في تلك الهضاب العُليا، هناك نفس النوع من الفراشات - العادية في جهات أخرى - التي تصبح هنا، كما نعرف، أكبر، فتنمو، وبألقٍ أشدٍّ؛ أعتقد أنه بسبب هذا الهواء الجاف، الصَّافي، وبسبب هذا الضوء الهائل. هناك، على ضفاف نهر أورو كويّا، يغني البوفي^(١) عاليًا. وكان هناك طائر كُسينكسيم الذي يزقزق صباحًا في الغابات الصغيرة، طائر المستنقعات، طيور دويدينيا وغرغورينيا، ودجاجة الأخراج... وذلك الطائر الذي يصيح «رأيتك»، والبيغاوات الجشَّاء. كان جميلًا الاستماعُ إلى خوار البقرات وهي تنتظر أن تُحلبَ. لكن اليامة في الصباح الصافي، من أجل كل ذلك الحزن الذي يأتي من أفكارنا، تطرح السؤال وتظهر بالجواب. تمامًا كما الطائر الطَّنّان، مساءً، حين يطير في كل الاتجاهات، نحو الأعلى ونحو الأسفل، ذلك الحيوان الصغير بجناحيه الدقيقين؛ ذلك الطائر الذَّكي. كان يبدو كأنها ستمطر أكثر فأكثر. في ذلك النوع من المساءات التي تعجُّ فيها الأشجار بالزَّيز، فلا تُمطر. صفيّرُ يَحْتَمُ النَّهَار: طائر أبو الرِّيش، الطائر الأزرق، ملتهمُ الذباب، العصفور المستبدُّ، وطائر أشجار الجوز الهندي... كنتُ دائمًا تقريبًا مع ذيادوريم.

(١) هناك بعض الحيوانات والطيور التي توجد في المنطقة، وثمّة حيوانات أخرى في النص من ابتكار الكاتب؛ فلا وجود لها في القواميس والموسوعات المتعارف عليها. (المترجم)

ذيادوريم وأنا، نحن الاثنان. كنّا نتجوّل. وهكذا، كنّا نختلف عن
 الآخرين لأنّ الجاغونسو لا يُحبون الحديث المسترسل ولا الصداقات
 الحميمة: عادة ما يلتقون ويفترقون، بالصّدفة، لكن كلّ واحدٍ منهم يذهب
 إلى حال سبيله. أما عنّا نحن معًا، فلم يُقلّ أحدٌ شيئًا. كانوا يتمتعون بذلك
 الاحتراز الجيد. إنّ تكلم أحدهم، أو تهكّم، أقول، يمكن أن يموت.
 اعتادوا على رؤيتنا معًا. فلم يعودوا يرون شرًّا في ذلك. كنا نتحدث معًا،
 قرب الجدول، جدول الطاحون كما في الفازيندات القديمة، حيث يُزهر
 نبات الرّشاد. ساعة الغسق، وقت حلول الظلام. أشعل ذيادوريم نارًا
 صغيرة، وذهبتُ أبحث عن أكواز الدّرة اليابسة. كان ذباب اللّيل يحوم
 كثيرًا حول وجهيّنا، وخنافسٌ ضخمة تصطدم فيما بينها. هبّ نسيمٌ عليلٌ،
 وحمّلت نسّامات الرّيح إلينا رائحةً مطرٍ هطلَ قريبًا من هناك. ملأ صريرُ
 الخنافس الرّيف، في كل الأرجاء. لا أستطيع، لوحدي، أن أتذكر كلّ تلك
 التفاصيل، لست من ذلك النوع الذي يقف على كل كبيرة وصغيرة؛ لكنّ
 الحنين يجعلني أذكرها. كما لو أن ذلك كان اليوم. ترك ذيادوريم أثره في
 نفسي، إلى الأبد، بكلّ ما يتعلق بتلك التفاصيل الصّغيرة في الطبيعة. أعرفُ
 كيف أعرفُ. وكيف يبعث نقيق الضفادع الحزن في النفوس. ذيادوريم،
 قاسٍ جادٌ، جميلٌ، في انعكاس الجمرات. نكاد لا نفتح ثغريّنا؛ لكنه كان
 نداءً يجرّني إليه جرًّا: ذلك الامتداد اللّامحدود للحياة. أمّا أنا، فلست أدري
 أيّ دوارٍ من الخجل أصابني، هو صامتٌ وأنا أطيعه في هدوء. كان الأمر
 دائمًا هكذا تقريبًا، دون تغيير: نصلُّ إلى مكان ما، يطلب مني أن أجلس؛
 فأجلس. لا يعجبني أن أبقى واقفًا. ثم بعد ذلك، يأتي ليجلس بدوره.
 دائمًا بعيدًا نوعًا ما. لم أجروا على الدّنو منه. معي أنا فقط كان ذيادوريم
 يشعر أحيانًا بشيءٍ من التوجّس؛ تُجاهي أنا، أنا صديقه! لكن، في تلك

المناسبة، كان هناك، قريبًا جدًا، في متناول اليد. وأنا - على وشك ألا أقبل
بعذوبة الأشياء القبيحة - كنت أنسى كل شيء، في حالة من الصفاء المرح،
فأتوقَّف عن التفكير. لكن سرعان ما يتسلَّل شكٌّ، تتسرَّب رائحة قرفٍ:
أقلِّبُ الأمر في ذهني طولًا وعرضًا. لكن قلبي يكون هو الأقوى. الجسدُ
لا يُترجمُ، لكنه يعلمُ الكثير، يتكهَّنُ إن لم يفهم. قُرب هذه الوفرة من الماء،
كلُّ شيء سعيد. يُسمع ثعلبُ ماءٍ أو آخر، جهة النهر: هذا الصَّفير، كأنه
امتصاص، يحدثُ صوتًا. - حسنًا، ولكني لا أريد أن يأتي ذلك اليومُ! -
كان يقول ذيادوريم. - لا أستطيع الحصول على أي فرح، بل ولا حتى أن
أعيش بكلِّ بساطة، ما لم يُقَصَّص على هذين الوحشين... - ويتنَهَّد في حسرة
كما تنتهَد من الحب؛ لكنه يظل هو نفسه، في بقية الأمور، لا يتغير. كان
حقده تامًّا وكاملًا، حتى أنه لا يمكن أن يزيد: توقَّف وصار حقْدًا هادئًا.
حقْدٌ مع الصَّبر؛ أرايت، يا سيدي؟

شيئًا فشيئًا، كان ذلك الشيء القوي الذي يشعر به ينطبع في نفسي؛ لكن
ليس على شكل حقْد، بل كان بالأحرى يتحوَّل عندي إلى حزن. ما دام ذاك
الوحشان على قيد الحياة، فإنَّ ذيادوريم لن يعيش بكلِّ بساطة. ما دام لم ينتقم
للماضي التاريخي لوالده، سيظلُّ مسكونًا. وبينما نحن على هامش مسارنا، في
وقت استراحة، حين كنت أرغب أكثر في الصداقة، لم يكن ذيادوريم يتحدث
سوى عن مخرجات تلك القضية. القتل، القتل، الدَّم يطالب بالدَّم. وهكذا
كنا معنا ننتظر على مشارف اللَّيل. صامتين. أذكرُ ذلك، آه. الضفادع. يخرج
الضفدع نقيقه من بطنه، صوت حيوان زاحف، شاخٍ وهرم. كنت أنظر إلى
حافة الجدول. كل هذه الأغصان في نبات الرَّشاد - أتعرف - في ساعات
معينة، وسط الظلام، ينبعث منها ضوءٌ: ورقةٌ ورقةٌ، وميض فسفوري -
نبات الرَّشاد يشتعل، كأنه كهرباء. كنت خائفًا. خوفٌ في الرُّوح.

لم أجب. لا جدوى من ذلك. كان ذبادوريم يريد أن ينهي الأمر. لذلك كنا نمشي. كنا سنذهب، بعد هذه الراحة الضرورية، تحت قيادة مديرو فاش، لنهاجم الآخرين - ونتعقبهم! - ونشعل المعركة. لم تكن تعوزنا الذخيرة. كنا ستين رجلًا، لكن كلهم من خيرة المحاربين. لم يخسر قائدنا، مديرو فاش، أي معركة. كان مديرو فاش رجلًا بسيطًا وجدّيًا، يتمتع بتجربة كبيرة، ولا يتكلم سُدى. لم يكن قطُّ ليحكي مسبقًا ما سيُقدم عليه من مشروع، ولا يتحدث أبدًا عن العملية التي سنخوضها حين نستيقظ في اليوم الموالي. كان كل شيء فيه، أيضًا، يدفعنا للثقة والطاعة. بعظامه الناتئة، رقبتة الضخمة، ورأسه الكبير نصف المنخفض، كان سيّد اللّيل والنّهار - لأنه لا ينامُ تقريبًا: يستيقظ دائمًا والسماء ما زالت تتلألأ بالنجوم، يجوب الأرجاء، متسكعًا، بخطى متتدة، يتعلّ جزمته الجيدة القديمة، من جلد الخنزير. إن كان يعتقد أنه على حق، كان مديرو فاش يحتفظ بعناية بالسّبعة في جيبه، يرسم إشارة الصليب بكل وقارٍ ويعطي الأوامر الصارمة بقتل ألف شخص، واحدًا تلو الآخر. منذ البداية، كنتُ أقدر شموخ هذا الرجل غير العادي. كان سرُّه من حجرٍ.

آه، كم عشتُ وكم رأيتُ. أتذكّر الأشياء، حتى قبل أن تحدث... هل يزيد هذا من وهج شهرتي؟ عشتُ حياة حرة. السّرّتاو: فراغاته الواسعة تلك. سوف تذهبُ إلى هناك، يا سيدي. سوف تجد شيئًا آخر هناك. رعاة بقر؟ كما في الأيام الخوالي، ستجد واحدًا منهم في هضبة أورو كويّا - حيث تخور كثير من الثيران... أو بعيدًا من هناك: رعاة البقر في بُريجو فيردي أو في كورّيغو دو كيبراكيناؤس، حيث تهمس الخيول متحدثة إلى الفرسان في آذانهم - كما يُحكى - حين لا يكون أحدٌ إلى جانبهم، يمكن أن يُسمع ذلك. أصدّق ذلك ولا أصدّقه. هناك أشياء متشابهة، وهناك ضُباحُ الثعلب.

وأنت عائدٌ إلى هنا، تجد منابعَ نهريّ كارينيانا وبيراتينغا، رافد نهر أورو كويّا - هذان النهران يديران الظهر بعضُهما لبعضٍ - ينبعان من نفس المستنقعات، وسط واحات نخيل بوريّتي واسعة. هناك، في تلك الأماكن، ينوحُ ثعبان السُّوروكويو. تلك الأناكوندا الضخمة - ثلاثون شبرًا! - التي تنقض على الغزال، تلوي حوله جسدها، فتخنقه. وفي كل الأرجاء، طميٌّ لزجٌ، تلتصق به حتى حوافر البغال، فتنفكُّ حدودها واحدة تلو الأخرى. إنّ الخوف من الأناكوندا يجعل كثيرًا من الحيوانات تؤجّل، خائفة، مخبئة وراء طبقاتٍ من أوراق البوريتارانا، لحظة السّلام المواتية كي تستطيع أن تذهب لتشرب. لكن نبات السّافارا ينمو غابةً كثيفةً، لحسن الحظ، يحمي البئر ويعطر الجو. يطلقُ التمساحُ صيحته، مرّةً، مرّتين، ثلاث مرات، صرخة جشّاء بها شخيرٌ. التمساح يُفزعُ - عيناه جاحظتان، موحلتان، ترُقبانك بخُبث. إيه، يعرف كيف يسمنُ. في البحيرات، هناك حيث لا يحطُّ أي حيوات مجنّح، بسبب شراهة التمساح وأسماك الضاري المفترسة ذات الأسنان كالمنشار. أو هذه البحيرة الأخرى، التي لا تفتح عينًا لكثرة ما تغصُّ به من قصبٍ وأعشاب. بعد ذلك، بعيدًا جدًّا، تصبح المستنقعاتُ أنهارًا. فتتلوها أشجار نخيل البوريّتي، تتبعها، وتسير، تسير. للمرور من حوض إلى آخر، عليك أن تصعد، يا سيدي، عبر منحدراتٍ كأنها حافات مائدة، ثم تجد نفسك مباشرةً في الهضبة، هضبة شاسعة لا تتغير. هناك، لا أثر لأيّ نقطة ماء، إلّا ممّا تحمله معك. هضاب شاسعة تغصُّ بالزّناير التي تلسع. الشمس حارقةٌ، تنزل أمواجًا وتحرق من جديد، ومن فرط ضوئها تَجرح. الخيول ترشح عرقًا من الزّبد والملح. في كثيرٍ من الأحيان، كنا نسيرُ في تلك المسالك عبر الغابة، نفتفي طريق حيوان التّابّير، ذهابًا وإيابًا... وليلاً، إنّ كان الوقت ليلاً، تمتلئ السّماء بالنجوم. تكاد رؤوسنا تلمسُها. لا شيء أجمل من سماء

تغصُّ بالنجوم، عند منتصف شهر شُباط! لكن، حين ينكمش القمر، ويحلُّ اللَّيل، يسود ظلامٌ دامس، يخنق الأنفاس ويكبِّلها. إنَّه ليل من حجم كبير. كل ظلام السَّرتاؤ يجعلني غير مرتاح. ذِيادوريم، لا؛ هو لا يشغل بَنَاتا بتلك الفكرة، لا يضطربُ لذلك. لكنني كنتُ أريد أن يحلَّ الفجرُ. كلُّ يوم حار، ليلة باردة جدًّا. كنا نقطع أخشاب القرفة لنشعل النار. إن كُنا نتوفر على ما نأكل وما نشرب، أنام فورًا. أحلمُ. أحلمُ فقط، أحلامًا جميلةً أو خبيثة، عندما أكون متحرِّرًا. كنتُ أنعم بهدوء جميل. عندما يطلع النهار في الأفق، أسمع طيورًا أخرى. الشحرور، اليمامة ذات البطن الأبيض، طائر الفاريسكادييرا، حمامة الغابة الحمراء، بالأخصَّ طائر رأيتك جيدًا. أمامي ومن ورائي، في كلِّ مكان، كأنه ليس هناك غير طائر رأيتك جيدًا واحدٍ. «اللَّعنة! ألا يبدو لك أن هناك دائمًا نفس الطائر؟» سألتُ ذِيادوريم. لم يوافق على ذلك، وبدأ مستاءً. حين يكون صديقي على هذا الحال، أفقد مزاجي الجيد. لكنني بقيت أشكُّ في أنَّه لا بد أن يكون طائر رأيتك جيدًا الذي يلاحقُ حياتي مرَّةً أخرى، يتهمني بتلك الآثام التي لم أقرِّفها بعد. وما زال الأمر كذلك إلى اليوم...

وأنت تغادرُ ذلك المكان، يجذُر بك، يا سيدي، أن تزور قرية الزنوج: أولئك الذين كانوا يغسلون الرمال في مناجم الذهب، في تلك الأدغال النائية في فارجين داكرايا حيث استُخرج الذهب. ذهبٌ من قيراط منخفض، حسب علمي. زنوج ما زالوا ينشدون مدائح في لغة الساحل. عبرنا من هناك فقط: الجاغونُسو يمرُّ فقط، لا يتوقَّف كثيرًا: هناك في الهضبة، يعيش المساكين الفقراء في البُطء، مندهشين. بُوس شديد. تمتدُّ الهضبة، تحت سماء رمادية متشابهة، متشابهة، فتبعث الحزن في نفوس الكثيرين؛ لكنني أحببتُها قبل أن أولدَ حتَّى. تراجعت وتيرة الأمطار الآن...

أقول: شهرٌ آخر، أفقٌ آخر - توقفنا في أرويرنيا. هناك، عند عتبة بيت، رأيتُ امرأةً جميلة، ترتدي لباساً أحمر، وتضحك: - هيا، أنت، أيها الشاب ذو اللحية الخليقة... - قالت. حين تضحك، تظهر كل أسنانها، مصطفة. كانت جميلة جداً، ووحيدة. ترَجَلْتُ من على حصاني، وربطت الدابة إلى وتد في الحظيرة. كان ما بين ساقَيَّ يؤلُّني بعد رحلة سباق مومج استمرت ثلاثة أيام قطعنا خلالها مسافة ثلاثين فرسخاً. لم يكن ذبادوريم بالقرب مني، ليوببخني. فجأة، مرَّ رفاقٌ على ظهور خيولهم وسط ضجيج عارم، يطاردون ثوراً سوف يذبحونه ويُقطِّعونه عند ضفة النهر. لم أكن قد تحدثت بعد مع تلك الفتاة، فجمَعنا معاً ذلك الغبار القوي الذي ارتفع في الهواء بقعةً كثيفة حمراء. ثم دخلتُ، احتسيتُ قهوة قدَّمتها لي يدُ امرأة، شربت شراباً بارداً، عبارة عن عصير إجاص برِّي. كان اسمُها نِيُورِنيا. تلَقَّت مني لمسةً على جلدها الصقيل - وكان فرحاً، مثل زواج، قرأنا. آه، ثمرة المانغابا، لا يحلو أكلها إلا بعد أن تسقط وتلتقط من الأرض...: نِيُورِنيا. بعد ذلك، أهدتني سنَّ تمساح لأضعها على قَبْعتي، فهو معروف بفعاليته ضدَّ لسعات الثعابين، ثم عرضت عليَّ صورةً تقيَّةً لأضع عليها شفتي، لأنها كانت صورة معجزة شيئاً ما. كان ذلك شيئاً كثيراً.

جاءت أمُّها، امرأة عجوز بعينين جاحظتين، اسمها آنا دوزوزا: عرَّافة معروفة، بنت غجر، تستطيع التكهُّن بمصائر الناس، سيئة كانت أم جميلة: تتمتع هذه المرأة بسلطة كبيرة في السِّرتاؤ. كانت تعرفُ أنَّ ابنتها تمارس البغاء، لكن ما دامت تفعل ذلك مع رجال من خارج القرية، من الجاغونسو أو البغالين، لم تكن تعارضُ الأمر، بل كانت راضيةً عنه. أكلنا المنيهُوت مع شيء من السُّكر البُنِّي. قالت لي آنا دوزوزا، وهي تشي بسرَّ كبير، أنَّ ميديرو فاش سوف يحاول أن يقطع صحراء السُّوشوراؤ من طرفٍ إلى آخر. كانت

قد عادت من معسكر ميديرو فاش، الذي أرسل في طلبها لأنه كان بحاجة لتنبؤاتها. فماذا كانت تلك الحماقة؟ لماذا؟ لم أصدق أي شيء فعلاً. كنتُ أعرف أننا كنا نخرج نحو سلسلة جبال أراس، نقطع مجدداً أوكار البوم في تلك الأراضي الموحشة، حيث يجد أيُّ قاطع طريق مخبأه، وهناك، بشيء من الحظ، يمكن أن نستقطب زملاء جُددًا ومختلفين. بعد ذلك، كان الأمر معروفاً: لم يستطع أي كائن حيّ قطُّ أن يقطع صحراء الشوسوراو، إنَّها الصحراء، قَمَّة الجحيم. هل توجد حقاً؟ إنها توجد، بحق السماء! هل هي مثل فاو دو بوراكو؟ هذا الوادي شيء آخر - بعيداً، قبل صعود منحدرات نهري بُريتو باردو... هناك حيث يتكوّن حرٌّ قاتل - لكن، في ظروف أخرى، يكون الصعود هناك بالتشبث والصبر... آه، وماذا عن الهضبة العليا؟ هل تعرفها؟ تمتدُّ هذه من فيريدا فاكا بُريتا إلى جدول كورِّيغو كاتولي، الذي يجري هنا في الأسفل، ويمتد من المنبع في بيرواسو إلى نهر كوشا الذي يخرج من فارزيا دا إيما، بعد سافانا أشجار المانغاير^(١).

لا شيء، دائماً لا شيء، والشيطان: صحراء الشوسوراو هي الأبعد - فهي بعيدة، بعيدة، تمتد هنا في الأراضي الخالية. تمتدُّ من ذاتها. لا ماء فيها. يظن المرء، وهو هناك أمامها، أن العالم ينتهي هناك: يجب على المرء أن يعود أدراجه، دائماً. لا أحد هناك يغامر بعيداً، بالكاد يلقون نظرة، نظرة واحدة. من أجل رؤية القمر المضيء، الأمومي، والاستماع إلى الرِّيح وكيف تستطيع لوحدها أن تخلق ألفَ صوتٍ وصوت، في فراش تلك الصحاري. ليس هناك من براز. ليس هناك من طيور.

(١) شجرة قصيرة تعطي ثماراً صالحة للأكل، وتفرز مادة مطاطية. (المترجم)

وعندئذ، حاصرتُ أنا دوزوزا بأسئلتي فلم تتحمّل شرارة الغضب في عينيّ. - نعم، إنه السيد ميديرو فاش، شخصيًا من حكى لي ذلك... - اضطرتُ لتقول لي. شيء حزين. لم يكن ذلك أمرًا ممكنًا!

كان ذيا دوريمُ ينتظرني. كان قد غسل ملابسي: قميصان، معطف، سروال، وقميص آخر جديد من النسيج البخارويّ... أمّا أنا، فكنتُ أغسل ملابسنا أحيانًا؛ ولكن من كان يقوم بذلك في أكثر الأحيان هو ذيا دوريمُ. كنتُ أجد هذه المهمة أفظعَ مشقّة، ثم إن ذيا دوريمُ كان يعرف كيف يقوم بذلك، بفضل مهارته اليدوية. لم يسألني أين ذهبتُ، فقلتُ له هذه الكذبة، أخبرته أنني توقفت هناك فقط بسبب العجوز دوزوزا لأسألها عن مصري. ولم يقل عن هذا الأمر أيّ شيء أيضًا، كان يجب الصمت. عندما يكون كذلك، مشمرًا كُمّيه، أنظر إلى ساعديه الجميلين، البيضاوين جدًّا المتناسقين، أنظر إلى وجهه ويديه المحمّرتين المتفتحتين بسبب لسعات الدبابير. لحظتها، أدركتُ أنه كان بوسعي أن أطلب من أنا دوزوزا لمحةً عن مصري وقَدري. كما كان بوسعي أن أسألها عن سرِّ آخر في حياتي، أحفظُ به بعناية. شيء لا أجرو حتى على طرحه على نفسي. لأنه، ماذا لو كانت العجوز دوزوزا تكشف المستقبل فعلاً؟ لم أسألها، لم يسبق لي أن سألتها. من يدري، هل حدث ذلك وكنتُ مسحورًا؟ ندمتُ لأنني لم أطلب من أنا دوزوزا أن تعطيني لمحةً. آه، هناك تكرارٌ يحدث دائمًا في حياتي عدة مرات. أعبر الأشياء - وأثناء عبوري أظُلُّ أعمى! - كنتُ منشغلًا فقط بالتفكير في الأماكن التي أدخل منها وأخرج. أنت تعرفُ البقية، يا سيدي: نريد أن نقطعَ النهر سباحة، فنقطعه؛ لكننا نجد أنفسنا في الضفة الأخرى أقربَ إلى المصبِّ، مختلفين كثيرًا عمّا فكرنا فيه أولاً. أليست الحياة أمرًا في غاية الخطورة؟

أخبرتُ ذيا دوريمُ بما توصّلتُ إليه: إنَّ مشروع ميديرو فاش لا يكمن

سوى في أخذنا إلى صحراء الشوسوراو - إلى داخلها، حتى النهاية. - ولكن ذلك صعب، هذا أكيد - أجنبي ذيادوريم، وبقيت مندهشا من أنه كان على علم بذلك رغم أنه لم يهمل لي ولو بكلمة واحدة عن الأمر. ها أنت ترى: منذ مدة طويلة وأنا أمانع في حبّ ذيادوريم أكثر من اللازم، أن أحبّ صديقاً هكذا علناً؛ وهناك، في تلك اللحظة، لم أشعر بأي خجلٍ من اكتشاف غيرة مريرة أشعر بها. كان معروفاً أن مدييرو فاش يثق بذيادوريم أكثر مما يثق بأي أحدٍ آخر منا جميعاً، لذلك فقد كان يفتح له صدره، ويقول له أشياء. هل كان ذلك التعامل المختلف يزعجني الآن؟ لكن مدييرو فاش كان رجلاً من زمنٍ آخر، كان يتحرك في العالم بوفاء، لا يتغير، لا يضعف. في الحقيقة، كنتُ أعرف أنه لا يحتفظ سوى بذكرى صديقٍ واحد: جوكا راميرو. حظي جوكا راميرو بإعجابه الكبير طوال حياته: الرب في السماء وجوكا راميرو في الضفة الأخرى من النهر. كل شيء كما ينبغي أن يكون. لكن الغيرة أصعب في الكبت من الحب. هكذا هو قلبنا - الظلام، الظلمات.

حينئذٍ وصف لي ذيادوريم البقية. وراء صحراء الشوسوراو، في أراضي ولاية باهيا، كان واحد من الخائنين يملك أكبر فازيندا، بها كثير من القطعان، وحقول من المزروعات. كانت أسرته الشرعية تسكن هناك، نسبه - زوجته وأبناؤه. لنقطع الصحراء دون أن يتبّه لنا أحدٌ، نصل إلى هناك على حين غرة ونفاجئ الجميع - فتكون نهايتهم! فمن سيظن أن صحراء الشوسوراو يمكن أن تسعفنا وتكون لنا طريقاً؟ آه، كانوا يزدهرون في الفازيندا كأنهم في ثكنة من البرونز - لا يمكن لأحد أن يدخل من جهات أخرى، ولا داعي للتفكير في ذلك، لأن هناك مراقبين من حولها بكل تأكيد، ويتفرون على إمدادات ضخمة من الذخيرة ومجموعة من الرفاق في كل الممرات الصعبة تحت سيطرتهم، في كل كهفٍ وعند أي نقطة ماء. كانت المكيدة تكمن في

أن نبرز، فجأة، من أكبر جهة مستحيلة، ونفاجئ أولئك على حين غرة. استمعتُ إليه، أكاد أرتعش لذلك. لكن ذيادوريم، بجدية أكبر، أضاف: - تلك العجوز دوزوزا جحيم، إنَّها تفسدُ كل شيء... انطلاقًا مما طرح عليها ميدييرو فاش من أسئلة، استنتجتُ بحكمةٍ نواياه، وكان عليها أن تلزم الصَّمْت... يجب أن تموت، حتى تتوقف عن الكلام والثرثرة....

لم أصدق ما سمعتُ. شعرتُ بعرقٍ بارد يسري في جسدي. كان ذيادوريم بذلك الشكل: يقتل، إن قتل - من باب الاحتياط. هل كان أحدهم خائنًا؟ - بالسَّكين! لا بد أنها عادتُنا. ألم أكن أعرف ذلك؟ لستُ ممَّن يرون الندى عند منتصف النهار، ولستُ ضعيفًا بطبيعتي. ولكني أشفقتُ على آنا دوزوزا تلك، بعينيها الجاحظتين - حتى أننا نستطيع أن نمسكها بالأصابع. تلك المسكينة التي حكّت كثيرًا من الكلام الفارغ. الحقيرة، الحطام القديم، بذلك الفم الأذرد الذي ينغلق مثل قرع. كانت تكشفُ قطع السكر بسكين قديم، تُكوِّرُ في راحة يدها الحثالة السوداء اللَّزجة؛ أو، بدلًا من ذلك، تحتفظ بقطعة منه في يدها، تمصُّها وهي تفكِّر. كان أمرًا يثير الغثيان، ويسيل اللُّعاب. فكيف كانت تستحقُّ كل تلك الشفقة؟ لم أجد في نفسي دهاءً أعاكس به ذيادوريم. أسلمت له إرادةٍ نفسي. كانت حجته تشي بالاستفزاز. رأيتُ، مندهشًا، اللحظة التي سيأمرني فيها بالعودة بنفسي إلى هناك، وتصفيه آنا دوزوزا بيدي. لم أعد أتحكِّم بما كان يتباني من مشاعر. فمنذ مدة لم أعد أنظر إلى ذيادوريم في عينيه.

لكن، فور ذلك، فكَّرتُ: لو قتلوا العجوز دوزوزا، للحفاظ على السر، فهم قادرون تمامًا على أن يقتلوا أيضًا ابنتها ثيورينيا... وهذه جريمة! ثم برز في نفسي قرارٌ، فأشرعتُ سبعَ نوافذ: - من كلِّ ما قلتُ، أنا لا أتفق معه! فالمسُّ بحياة هذه المرأة لن يساهم سوى في تأخيرنا... - هذا ما قلتُ مع

نفسى. تكهنَ دِيادوريمُ بأفكارى: «أعرفُ أنَّك قد نمتَ مع الفتاة، بنتها...» ردَّ عليَّ بجفاء، مدممًا بين أسنانه. كأنه ثعبانٌ يصفرُّ. هناك أدركتُ حقيقة الأمر: إنَّ دِيادوريمَ يحبُّني كثيرًا، وإنَّ غيرته عليَّ كانت تزداد بدورها. بعد لحظةٍ من الرضا، تملَّكني ضربٌ آخر من الخجل، وأصابني اشمئزازٌ غريبٌ. كدتُ أصيحُ: - هل هذا تحذيرٌ؟ حسنًا، افعلْ ذلك، وسأتركُ هنا، إلى الأبد. لن تراني مرةً أخرى!... - وضعَ دِيادوريمُ يده على ذراعي. ارتعشتُ لذلك، من أعماقي، لكنني طردت تلك النبوة من الرقة. مدَّ لي يده؛ مددتُ له يدي. كانت كأنها حجر مسنن بين راحتي يدي. - أهذا هو كل ما تريد أن تدفع لجوكا راميرو؟ بسبب ساحرة، وابتتها الآثمة، هنا في أقاصي الأراضي العليا؟ - قال متعجبًا بصوتٍ خفيض. غضبتُ. - هذا كلُّ ما في الأمر! - قلتُ. الجميع، إذن، كل الناس، كان عليهم أن يقضوا حيواتهم في تمجيد ذكرى جوكا راميرو ذاك، كأنه سيدنا المسيح، لا أقل ولا أكثر؟! لحظتها، كنتُ قد دخنت سيجارتين. أن أكون سيِّد نفسي نهائيًا، هذا ما كنتُ أريد؛ أريده فعلًا. لكن دِيادوريمَ كان يعلمُ ذلك، ويبدو أنه لم يكن يرغب في أن يتركني لشأني:

- حسنًا، يا زِيوبالدو، اسمع: كان جوكا راميرو هو والدي... - قال - لا أعرف إن كان شاحبًا جدًّا، ثم صار أحمر اللون بعد ذلك. بما أنه أحنى رأسه قريبًا جدًّا مني.

هدأتُ، واسترجعتُ أنفاسي. تركتني الدهشة من دون كلام. أفترش الفراغ. ثم صدَّقته على الفور، بكل تأكيد، كأنني كنتُ أعرف ذلك على الدوام. لم أجد ما أقوله. تفحَّصت دِيادوريمَ، برأسه القاسي الشامخ، جميلًا وجدِّيًّا. فعاودتني ذكرياتُ جوكا راميرو: هيئته المهيمية، خطواته الرشيقة، جزمته الروسية، ضحكته، شارباه، نظرتة الطيبة المتسلَّطة، جبينه العريض،

خصلات شعره الأسود المجعد اللامع. كما كان يلمع كل كيانه. لأنَّ جوكا راميرو كان، بالفعل، هكذا، مؤثراً في الآخرين، ينبعث منه ضوءٌ، وكان هو مَلِكُ الطَّبيعة. أن يكون ذِيادوريم هو ابنه كان أمراً يفرحني الآن ويصيبني بالخوف. فرغبتُ أن أقول له: - أكرّر ما قلتُ. ذِيادوريم، أنا ذاهبٌ معك، هذا وعدي، في كل شيء، ومع ذكرى والدك!... - لكنَّ هذا هو ما لم أقله. أتساءل لماذا؟ إنَّ الإنسان هو لا، هو سؤال، حبل من ثلاث جدائل، مضفورة ثلاث مرات. - حسناً، بالنسبة إليّ، لمن يريد سماع ذلك، ربما تكون أنا دوزوزا هذه هي أمي! - هذا ما قلتُ. وفي النهاية، كدتُ أصيح: - أمّا بالنسبة إليّ، يمكنك أن تتحدّني كما تريد، لكنني لا أنخدع. أنا ضدُّ هذه الأفعال الفظيعة!...

كان ذهني في دوامة. انتظرتُ ردّة فعله. وفجأة، قرأتُ نفسي بوضوح: ما يحدد رأيي هو أنني بدأتُ، بكلّ جنون، أحبُّ ذِيادوريم، بينما في الوقت نفسه كنتُ أراجع وأغضبُ، بما أنه لم يكن ممكناً أن أحبه كما كنتُ أرغبُ، بشرفٍ وحتى النهاية. كانت أذني تلوي صوته. لدرجة أنني، عند نهاية هذه النشوة، فاصّ حُبِّي حتى بلّل كل الأوراق، فرغبتُ أن أمسك ذِيادوريم، أحمله بين ذراعيّ، أقبله، مرّاتٍ ومرّاتٍ، دائماً. وكنتُ أشعر بقرفٍ أكبر من آنا دوزوزا، تلك التي جاءت لتفرق المرء عن صديقه. وفي الوقت ذاته، شعرتُ بفخرٍ مكتوم تقريباً، وهو أنه، لو كان ضرورياً، سأذهب إلى هناك، من ذاتي، أصفّي تلك العجوز. لكنني لا أستطيع أن أصيب نيورينيا بأذى، لأنني كنتُ أعزّها وأحبّها كثيراً. أكيد أنني كنتُ أهذي، أليس كذلك؟ لا أعرف، لا أعرف. لا ينبغي أن أحكي هذا، وأكشف الجزء المظلم من الأشياء. إنني أهذي، أهذي. لا ينبغي أن أفعل ذلك. أنت من أرض أخرى، يا صديقي، أيّها الغريب. لكن، ربما لهذا السبب تحديداً. إنَّ الحديث هكذا مع غريب، يستمتع جيّداً ثم سرعان ما يعود إلى أرضه بعيداً، يعتبر منفعةً ثانية: كأنني

بالأحرى أحدث نفسي. انظر واسمع: ما ليس على ما يرام في أنفسنا، نُشوّهه دائماً وندفع به بعيداً عنا. ألهذا نتحدث كثيراً؟

وأفكارك العميقة، يا سيدي، تجلبُ لي الطُمأنينة. وخاصة حين أكدت لي أن سَيِّءَ الذكر لا وجود له؛ أليس كذلك؟ المُرتدُّ، الكلبُ، البارُّ، الفردُ، البطلُ، رجلُ البطَّة، القبيحُ، الإنسانُ، المسفوعُ، الأعرجُ، اللعينُ، السَيِّئُ، أسودُ القدم، الأيسرُ، الغاوي، الحزينُ، مَنْ لا يعرف ما يقولُ، مَنْ لا يضحك أبداً،... إذن، هو لا يوجد. وإن كان غير موجود، كيف سيسعنا أن نعقد معه ميثاقاً؟ لأنَّ هذه الفكرة تؤرقني. أخبرني، هذه الفكرة الشريرة التي أتحيلُها، إن كانت مشروعة: هل يعود ذلك إلى ماضي بعيد جداً، قصي، دفين، أكثر توغُّلاً في الزمن: أنه، حين يتخذ أحدهم قراراً ببيع روحه للشيطان، فلأنها كانت قد بيعت من قبل، دون علمه؛ وبذلك فإنَّ الشخص المعني لا يقوم سوى بتسوية ميثاق قديم، لأن روحه بيعت منذ مدة شيئاً فشيئاً؟ ليت الرَّب يرفض ذلك؛ الرَّب الذي يدير كلَّ شيء! قل ما رأيك، أخبرني. ربما نسمع ذلك، يوماً ما، من أحدهم، فنفهم هكذا: مَنْ يدري، هل ما زلنا، نحن البشر، نرتكبُ كثيراً من الخطايا، كثيراً جداً، حتى أن الرَّب لا يستطيع أحياناً التحكم فينا فيفعل ذلك بواسطة اللّعين؟ أم أن الرَّب، حين يبدأ مشروعاً يمتدُّ طويلاً، يجعل الخبث الطَّبِيعي الإنسان يرى قدوم الرَّب فقط في هيئة الآخر؟ ما الذي يستشعره الإنسان حقاً؟ منذ عشر سنوات والشكُّ يخامرني. الرياح المسكينة في دهشة الليل. لا بدَّ للأرض أن تدور! أنا محميُّ الجانب، بفضل ما أقوم به من صلوات. آه! حبُّ عظيم، عظيم جداً... أتذكّرُ ذيادوريم. ليت زوجتي لا تسمعني: كلُّ حينٍ ضُربُ من الشيخوخة.

لكن، هنا، وأنا أحكي لك، حين صرختُ بذلك التحدي الغاضب، أجابني ذيادوريم بما لم أكن أتوقع: - ليس هناك من خلاف، يا صديقي

زُيوبالدو، هدى من روعك. لا حاجة لك لتحترز من موت أنا دوزوزا. ونحن لن نذهب مع ميديرو فاش كي نتصرّف مثل مُتوحّشين مع زوجة وأحفاد واحدٍ من أسوأ ذينك الخائنين، رغم أنها قد يستحقان ذلك، هو وكل أمثاله ممّن اعتادوا أن يتصرفوا بهذا الشكل. كل ما نريد هو أن نأخذ أفراد الأسرة رهائن؛ وأكد أنه سيردّ وبسرعة! وهذا سيجبره على القتال... لكن، إنّ تخلّيتَ يوماً عن السيّر معنا، أقسم لك بما يلي: سوف أدخل في حزنٍ قاتل.... قال. ووضع مرة أخرى يده على يدي عندما بدأ يتكلم، ثم سحبها. بعد ذلك، ابتعد عني. لكنني ما شعرتُ به قطُّ أقرب مني وأحسن من ذلك، من نبرة صوته، صوتٌ ملؤه الحنان. القلبُ - أي كل هذه التفاصيل. كان قبساً من ضوء. والحبُّ في حدّ ذاته نوع من النّدم. عانقتُ ذبادوريم، كما تفعل كلّ الطيور بأجنحتها. باسم والده، جوكا راميرو، سوف أقتل الآن وأموت، إنّ كان ذلك ضرورياً.

لكن ذبادوريم لم يصف أكثر من ذلك ولم يشرح شيئاً. وربما كي يُغيّر مجرى الحديث، سألني: - زُيوبالدو، هل تذكر فعلاً السيدة أمك؟ حدثني كيف كانت طيبة....

حين سمعتُ ذلك، أقول لك، يا سيدي، لم يُرّقني السؤال. فأنا لا أقوم سوى بالتهرب من الآخر حين يريد أن يعرف تماماً من أكون، آه. لكن سرعان ما غيّرتُ موقفِي وأنا أرى أنّ ذبادوريم لوحده يستطيع حقاً، برقته وصداقته، أن يقوم بذلك. وهو ما تفهّمته. يجب أن يكون الأمر كذلك. كلّ أم طيبة، لكن كل واحدة تقوم بمهمتها، التي لها لوحدها، بطريقة متفرّدة، فتكون طيبةً بطريقة مختلفة. لم يسبق لي أن نظرتُ إلى الأمور من هذه الزاوية. بالنسبة إليّ، أمّي كانت هي أمّي، وهذا كل ما في الأمر. والآن، انتهت. نبعثُ طيبة أمي الخاصة من حُبّ يتوافق مع العدل، الذي كنتُ بحاجة إليه

وأنا طفلٌ صغير. كما كانت طيبةً تواكبُ أفراحي وهي تعاقب ما أفرطُ في ارتكابه من أفعالٍ. ألهمني تذكُّرها الخيال، واللباقة - لحظةً فقط - كأنها عظمة جديرة بالاحتفاء مثل هذه اللحظة بين الفجر ومطلع النهار.

- لأنني لم أعرف أمِّي... - تابع ذبادوريم. وقال ذلك بسرعة وبساطة، كأنه يقول: ضفة نهر، شريط رملي، منابع. كأنه أعمى منذ الولادة.

أما أنا، ففكَّرتُ: لم يكن لي أبٌ؛ ما يعني أنه حتى رسميًا لم أعرف اسمه قطُّ. لا أخجل من أنني مغمور المولد. فالأطفال اليتامى من آباء مجهولين ومن دون وثائق رسمية هم أكثر ما نرى في هذه المناطق من السَّرتاؤ. يسافر الرجل، يتوقف، ينطلق من جديد: يغير المكان، والمرأة، وما يتبقى هو طفلٌ. فالفقير لا يستقرُّ في الهضاب العُليا، يأتي ويذهب مثل طيور البحيرات والأنهار. ها أنت ترى، يا سيدي: زيزين، أحسن مُؤاكيرٍ عندي هنا، رجلٌ مرح وماهر. أسأله: - زيزين، لماذا لا تُربي الدجاج الغيني مثل كل الناس؟ - لا أريد أن أربي أي شيء... - أجابني - أحبُّ كثيرًا أن أغير المكان... - هذا هو المشكل، إنه في بيته رفقة امرأة خلاسية وقد رزقا بطفلين. لكن، ذات يوم، سوف يرحل. هكذا. لا أحد يندهش لذلك. أما أنا، فأقول نفس الشيء. أقدم الحماية. أنا، أي الرَّب، بطريقة متواضعة... تلك الحماية الذي لم تكن تنقص أمي كذلك، عندما كنتُ طفلًا، في السَّرتاؤ الصغير حيث ولدتُ، عند بداية سفح سلسلة جبال سيرًا داس مارافيلياس، بين هذه وجبال ألغريس، في كوخ متداعٍ وسط مكان يسمى كاراموجو، وراء منابع نهر فيردي، ذلك الذي يصب في نهر باراكاتو. بالقرب هناك قرية كبيرة اسمها ألغريس، سوف تراها، يا سيدي. اليوم تغيَّر اسمُها، غيَّروه. إنهم يغيرون كل الأسماء، شيئًا فشيئًا. إنها التعليمات. ألم يكن ساو روماو يسمى فيلا ريزونيا من قبل؟ ألم يكفَّ سيذرو وباغري عن الوجود؟ وماذا عن تابولييرو

غرأندي؟ كيف يمكن أن يغيّروا الأسماء بهذا الشكل؟ هل توافقني الرأي؟ فاسم المكان الذي يولد فيه المرء يجب أن يكون مقدّساً. هذا ما يُقال: هل يمكن لشخص أن يتنكر لاسم بيت لحم، تلك القرية حيث ولد سيدنا يسوع داخل المذود، بين سيدتنا العذراء والقديس يوسف؟! ينبغي أن يكون المرء أكثر ارتباطاً بمسقط رأسه. أنت تعرف: الرّب يوجد، بكل تأكيد، والشيطان هو نقيضه... لذا أقول: أنا، الذي لا تنقصني الذكريات كما رأيت، لم أنس شيئاً من طفولتي. وكانت طفولةً جميلة. أتذكّرها بكل استمتاع، لكن من دون حنين. لأنها سرعان ما تحمل هبّات من الحوادث. لا سلام في العودة إلى الوراء. أنت تعرف، يا سيدي: إنّ أبعد شيء في طفولتي الأولى، أجده في ذكرياتي، هو ذلك الحقد الذي كنتُ أكنّه لشخص يدعى غراماسيدو... أما أحسن الناس في ذلك المكان فكانوا كلّهم من عائلة غيديس، جيدياوغيديس؛ عندما غادروا، أخذونا معهم، أنا وأمي. ذهبنا لنعيش في وادٍ من أودية سيرغا، في الضفة الأخرى، هناك حيث يصبُّ نهر جانيرو في نهر ساو فرانسيسكو. كنتُ في الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة من عمري...

هكذا، بخصوص ما كنتُ أقول لك، يا سيدي، أمضينا ليلةً هناك، ونام الجميع نومًا هادئًا. أقول إنّ ذلك حدث في شهر نيسان، عند بدايته. حاول ميديرو فاش أن ينتظر الأمطار الأخيرة من شهر آذار ليُنْفِذ ما خطّط له - يوم القديس يوسف وما تحدث فيه من فيضانات موسمية - فيضمن لنفسه طقسًا مثاليًا، والحقول في عزّ خضرتها، بما أننا كنا مقبلين على عبور أراضٍ تكثر فيها المروج، ومن هناك نتابع طريقنا قُدمًا كما يُقال. لأنها كانت فعلاً رائعة، كما أدركتُ بسرعة، فإنني لم أفرع قطّ. تقدّمنا، بعد توقف لمدة يومين في فيسبي - هناك كانت في انتظارنا خيولٌ مرتاحة، خيول أخرى تحت رعاية مزارع يدعى جواو إنغراسيو. في الطّريق، كنا ما نزال نتعثّر في وحل البارحة. - إنّ

الخروج في رحلة على ظهور الخيل من دون طريق أمرٌ لا يمكن أن يُقدم عليه سوى مجنون أو فرد من الجاغونسو... - كان يقول جَواوْ إنْغراسيو، الذي كان رجلًا يعمل بجَد، ولم يكن أبله؛ وكان يضحك هو نفسه مقهقها مَما يقول. لكنه كان مخطئًا، لأنَّ ميديرو فاش كان دائمًا يعرف أين يسير، وكيف يمشي بثبات. لذلك، لاحظ جَواوْ إنْغراسيو كمِّيَّات الطعام والمؤونة التي جمعناها وكنا نحملها على ظهور البغال، والتي كانت مبالغة، وكانت فقط حُبًّا في الإفراط: لحم، طحين وسُكَّر بُني. بل حتى الملح. والقهوة. كل شيء. ولما رأى ما رأى، سألنا أين نحن ذاهبون، وحينها قال إنه يريد أن يأتي معنا بدوره. - هل أنت تمزح؟ - كان كل ردِّ ميديرو فاش. - كنتُ أمزح، أيها الرئيس. أستمحك... - قال جَواوْ إنْغراسيو مع انحناءٍ.

لم يكن ميديرو فاش رجلًا متشبَّهًا بتقاليد الماضي. بل كان فقط أكثر حكمة، إنسانًا عمليًا، صاحبَ تجربة. أحيانًا، كان يتكلم تحت ذقنه، مُبرطِّمًا. لا أحد يتماذى معه. لكنه دائمًا ما يقبل، في صمتٍ، أيَّ نصيحة صائبة وجيدة. بيد أنه لم يكن يحبُّ أن يتحدث الجميع في كورالٍ واحد. هل كنا جميعًا نتكلم في الوقت ذاته؟ أكيد أنَّ ميديرو فاش لم يكن هناك. أما حكايته الخاصة فيما مضى، فهل تعرفها، يا سيدي؟ حين كان شابًا، ورث عن والديه فازيندا شاسعة. كان بوسعه أن يديرها ويعيش حياة رغيدة. لكن، جاءت الحروب والمشاكل مع الجاغونسو - فصار كل شيء قتلاً ونهبًا، وإهانةً جسدية للنساء المتزوجات والفتيات، فلم تعد ثمة طُمأنينة ممكنة بعد أن سيطر ذلك الجنون الخبيث على الجبال، وانتشر عبر الأراضي العليا. هكذا، وبعد تفكير عميق، اعترف ميديرو فاش أنَّ ذلك من واجبه: تَخَلَّص من كل شيء، ترك كل ما كان يملك من الأراضي والقطعان، وخرج حُرًّا طليقًا كما ولدته أمه. لم تكن له أفواه يُعيلها، ولا من ورثة يخاف على مصالحهم. في نهاية المطاف،

أُضْرِمَ بيده النَّارُ في بيت الفازيندا، الذي كان ملك والده، كما لجَّده وَجَدَّ جَدَّه من قَبْلُ. ظَلَّ يرقب النَّارَ حتى صارت رمادًا. وفي ذلك المكان، نَمَتِ اليومَ أشجارٌ صغيرة. بعد ذلك، زارَ المكانَ الذي دُفِنَتْ فيه أُمُّه - مقبرة صغيرة على جانبِ أراضٍ ظلت متوحشة - فَكَسَّرَ السياجَ، وَشَتَّتَ الحجارة: انتهى كل شيء، بوسعه أن يرحل مرتاح البال، لا يستطيع أي أحد الآن أن يدنُسَ المكانَ الذي ترقد فيه رفاتا والديه. ومن هناك، بعد أن تَخَلَّصَ من كُلِّ شيء، وهو سيد نفسه، امتطى صهوة جواده، مَدَجَّجًا بالأسلحة، ثم جمع من حوله جماعة من الأشخاص الشجعان، من أبناء الرِّيف، وخرج في حملة ليفرض العدل. ظلَّ يحجُبُ التلال والوديان لسنوات طويلة. يُحْكِي أَنَّهُ صار غريب الأطوار أكثر فأكثر. حين التقى جوكا راميرو، وجد أَمَلًا جديدًا: بالنسبة إليه، كان جوكا راميرو هو الرجل الوحيد، نظيره، القادر على أن يسيطر على هذا السَّرْتاو الذي نعيش فيه، ويفرض فيه القانون، تحت سلطته العليا. المسألةُ أَنَّ جوكا راميرو كان بدوره في حملة من أجل العدالة والسياسة العليا، لكن فقط من أجل المضطهدين من أصدقائه؛ بيد أنه ظَلَّ يحتفظ بما كان لديه من ممتلكات. لكن ميديرو فاش كان رجلًا من طينة لم تعد تراها اليوم، يا سيدي؛ وأنا رأيتها. كان يتمتع بهيبة قوية، حتى أَنَّ الكهنة، والأطباء والأغنياء، بالقرب منه، كانوا يتصرَّفون بكل احترام. كان يفرق اللعنات ويمنح التبريكات، ولم يكن هناك من رجل شاب، مهما كانت شجاعته، ينجُلُ من تقبيل يده. كنا جميعًا نطيعه بسبب ذلك. كنا نقوم بواجبنا، نضحك أو نبكي، في السَّرَّاء والضَّرَّاء. كان هو الملازم في الأراضي العُليا، وكنا نحن ميديرو فاش بصيغة الجمع.

لهذا السبب، تقبَّلنا القرار بفرح، عندما أَكَّدَ ميديرو فاش بكلمات موجزة: سنقطع صحراء السُّوسوراو، ونسعى لمحاربة العدوِّ في أعماق ولاية

باهياً. بل من أجل تأكيد ذلك حدث لحظتها صخبٌ من الاحتفالات. ما لم يستطع أحد القيام به، كنا نشعر أننا نستطيع فعله. كيف ذهبنا: من هناك، من فيسبي، خرجنا، نزل عبر المستنقعات والأخاديد. وبعد ذلك صعدنا. كانت المنطقة التي تبدأ فيها الغابة، في الأحراش، تمتدُّ أكثر فأكثر كلما اقتربنا من منابع الأنهار. هناك يمكن أن يبرز الثور الوحشيُّ من الأدغال، هائجاً هيجاناً لم يسبقَ لنا أن رأيناه، ويهاجم بطريقة أفظع من هجوم اليغور. كنا نرى في السماء أسراباً من الببغاوات كأنها نسيج أحمر أو أزرق مبسوط، مُنسلٍ على ظهر الرياح الساخنة. ثم نزلنا من جديد، وفجأة، وصلنا إلى وادٍ خالٍ من الأشجار، جميل وهادئ، به بحيرة تحيط بها أشجار نخيل البوريتي العالية: بوريتي أخضر يمتدُّ رقيقاً سامقاً، كلُّه حُسنٌ وجمال. لم تكن هناك غير أطلال بيتٍ هدهد الزمن شيئاً فشيئاً؛ ونباتات خيزران غرسها أشخاص فيما مضى؛ وكوخ صغير. كان المكان يحمل اسم بامبووال دو بوي. هناك كان علينا أن نمضي اللَّيلة ونُحضّر لآخر الاستعدادات.

كنتُ أقوم بالحراسة، على بعد رُبع فرسخ. ومن هناك كنتُ أراقب تلك الحركة: كان الرجال، كلُّهم مرَّحٌ، أراهم قصار القامة مثل أطفال صغار، كأنهم سحابة نحل تطوف حول أزهار الأراسا، بنفس الحيوية، يخلعون ملابسهم ويهرولون ليستمتعوا بالسباحة في البحيرة الدائرية الزرقاء، هناك حيث تهرب الطيور فَرَّعة - طيور مالك الحزين، لقالق، طيور النحام، وأسراب من البط الأسود. يبدو أنَّ الرفاق كانوا يدركون أن ثقل الحياة سيكون أكبر في صباح اليوم الموالي، فلم يرغبوا لحظتها سوى في أن يتقافزوا، يلهوا، يضحكوا ويستمتعوا بالفرح. لكن، تعيَّن على عشرة منهم أن يظلُّوا في الحراسة، مسلحين ببنادقهم وقنابلهم، كما يشترط ميديرو فاش. عند المساء، لما عادت الرياح، كانت نفْساً هادئاً انسأقت وراءه أشجارُ البوريتي

فتمايلت أغصانها واحدة تلو الأخرى. حدث الشيء نفسه تقريبًا في نباتات الخيزران. صوت مطر هادئ. حينئذٍ، جاء ذبادوريم ليرافقني. كنت محتارًا بعض الشيء. من كان أكثر قلقًا بخصوص يوم الغد ربما كنت أنا، أعترف بذلك. وكما كانت طبيعتي، لم يسبق لي أن رأيت النهار يطلع بكل تلك الشجاعة؛ بمعنى: كانت الشجاعة شيئًا مُثَقِّلًا في نفسي. آه، وقتها، لم أكن أعرف، واليوم فقط أعرف: أنه، كي يتحوَّل المرء إلى شجاعٍ أو إلى جبان، يكفي أن ينظر إلى نفسه دقيقة قصيرة في المرآة - ويجهد نفسه ليظهر بوجه بطل؛ أو وجه جبان! لكن قدرتي كلَّفتني ثمنًا غاليًا، فتطورت مع تقدمي في السن. أقول لك، يا سيدي، ما يخشى الناس فعله حين يأتي أمرُ الرَّب، وبعد ذلك يأتي دور الشيطان ليأمرنا بفعله فنقوم بذلك ونوفي الفعل حقه. المُفسد! لكن ذبادوريم كان لطيفًا: - اسمع، يا زيوبالدو - قال لي - إننا نسير نحو المجد. حين نَحْذِلُكَ الشجاعة، تذكُرُ أُمَّكَ، وسأتذكُرُ والدي... - لا تذكُرُ هؤلاء يا ذبادوريم... لا تذكُرُ الأموات، نحن نتحدث عنهم في الصمت... فخانني اليقين لأردَّ عليه بما كنتُ أفكّرُ فيه. كل ما كنت أرغب فيه هو أن أضع أصابعي بلطف، بلطف شديد، على عينيه الناعمين، أخفيهما، حتى لا أتحمّل نداءهما، بنظراتهما التي لا تتغيَّر، بذلك الجمال الأخضر المستحيل تمامًا، الذي كان يؤلمني.

نمنا نومًا هادئًا. في الصباح الباكر - أسراب من الطيور، زقزقات وتغايرد - كنا منشغلين نجري في كل الاتجاهات نضع آخر اللّمسات على الاستعدادات. مُلئت قرابُ الماء الجلدية من منابع البحيرة ووضعت على ظهور الحمير. كما جلبنا بغالًا أيضًا، وسيلة النقل الوحيدة. كانت الخيول لا تزال تقضم بعض الشيء، تأكل عشبًا عاليًا، يغطي السيقان. كنا نقول عدة أشياء مرحة. كل واحد يحمل مطرته، وحصته اليومية من الطعام،

التي تتألف من اللحم المجفف مع دقيق المنيهوت، في جرابه. بعد أن امتنع طويلاً عن الكلام، أعطى ميديرو فاش الأمر بانطلاق السير. سارت مجموعة من خمسة رجال ودورية صغيرة في الأمام. وبما أننا كنا نتوفر على ثلاثة مستكشفين - سوزازتي، جواكيم بينجو وتيبوتي - كان تيبوتي هذا يعرف طرقاً لاكتشاف نقاط الماء ومواقع الكهوف. وكان سوزازتي يتمتع بحاسة شم كلبٍ متدرّب، وجواكيم بينجو يعرف تمام المعرفة، ليلَ نهار، كل ركن من أركان الأراضي العليا - يستطيع أن يرسم خارطتها لو طُلب منه ذلك. مشيناً نتحرّك من ذواتنا. دُبِحت سِتّة عجول سمينّة كنا نسوقها كي نأكل لحمها أثناء الطريق. فجأة، بينما كنا نبتعد، عادت كل الطيور من عمق السماء، ونزلت سهماً واحداً، لتعانق من جديد البرودة في ملاجئها، على ضفاف البحيرة - آه، ثرثرة في أشجار البوريتي، وغليان. كان شيئاً جديراً بالملاحظة، تلك الشمس الصاعدة، وذلك البهاء في الأفق، فوق الغابة، كان يهيمن بعيداً خلفنا. طلوع يوم جديد.

توغّلنا، دون موارد، في أدغالٍ من أشجار المانغايرا، حتى ساعة الغداء تقريباً. بيد أن الأرض صارت أكثر فأكثر قسوة. بدأت الأشجار تصغر، تنكمش، تلامس الأرض بحوافّها. وحده حيوان التّأتو كان يأتي إلى هناك، يجذبه العسلُ وثمار المانغايرا. بعد ذلك، اختفت أشجار المانغايرا. هناك حيث الريف يصبح مرتاحاً. كانت العقبان تحوم متناثرة في السماء الواسعة. اختفت أعشاب الرّعي، ثم تلتها الشائكة، إلى أن اختفت بدورها تلك الأعشاب ذات الأحزمة الفضية وكل الكتل. انتهى الكلاً نهائياً في تلك البقاع الرّمادية. وبما أن ذلك جاء تدريجياً، فقد شعرنا كأن العالم قد هرم في تلك الأراضي الكثيبة. انتهت كل النباتات الوحشية في الأراضي العليا. كنا ننظر وراءنا. لكن الشمس تمنع الرؤية في أي اتجاه. رأيتُ الضوء، كابوساً.

عَبَرَ نَسْرٌ ضَخْمٌ: كان آخر طائر نلَمَحْهُ. أَمْرٌ طَبِيعِي، لَأَنَّا كُنَّا فِي ذَلِكَ الشَّيْءِ: عَالَمٌ مَقْفَرٌ، فَارِغٌ، رَخْوٌ، مَقْلُوبٌ. كَانَتْ أَرْضًا مُخْتَلِفَةً، مَجْنُونَةً، وَبَحِيرَةً مِنَ الرَّمَالِ. أَيْنَ تَكُونُ نَهَايَتُهَا، حُدُودُهَا؟ كَانَتْ الشَّمْسُ تُهْرَقُ عَلَى الْأَرْضِ، مِلْحًا، تَسْطَعُ. وَمِنْ بَعِيدٍ، أَعْشَابٌ مَيِّتَةٌ؛ بَعْضُ الْكَلَأِ مِنَ الْأَعْشَابِ الْيَابِسَةِ - كَأَنَّهَا شَعْرٌ مِنْ دُونَ رَأْسٍ. وَبَعِيدًا، عَلَى بَعْدِ مَسَافَاتٍ، بَخَارٌ أَصْفَرٌ. ثُمَّ بَدَأَتْ النَّارُ تَدْخُلُ، مَعَ الْهَوَاءِ، فِي صَدُورِنَا الْمُسْكِينَةِ.

إِنِّي أَقُولُ لَكَ، يَا سَيِّدِي، إِنْ مَا سَيَلِي مِنْ مَعَانَاةٍ كُنَّا نَعْرِفُهَا مِنْذُ الْبَدَايَةِ؛ وَلَمْ تَزِدْ إِلَّا حِدَّةً. وَمَا سَيَاتِي. مَا يَجِبُ أَنْ يَأْتِيَ - إِنَّهَا الْكَلِمَاتُ. آه، لِأَنَّهُ. لِمَاذَا؟ أَقْسَمُ أَنَّهُ: فِي اللَّحْظَةِ الَّتِي وَطَأْتُ قَدَمِي صَحْرَاءَ الشُّوسُورَاوُ، جَاءَ رَفِيقٌ، يُدْعَى جَوَاوُ بُوغُرِي، وَقَالَ لِي، أَوْ قَالَ ذَلِكَ لِشَخْصٍ آخَرَ بِالقَرَبِ مِنِّي:

- لَقَدْ عَقَدَ هِرْمُوجِينِسُ مِيثَاقًا... تَحَالَفَ مَعَ اللَّعِينِ...

كَانَ ذَلِكَ أَكْثَرَ مَا أَحْتَمَلُ سَمَاعِهِ. الْمِيثَاقُ! ذَلِكَ الْأَمْرُ الَّذِي يَتَدَاوَلُهُ النَّاسُ - أَنْتَ عَلَى عِلْمٍ بِذَلِكَ. مَجَرَّدُ كَلَامٍ. يُخْرِجُ شَخْصًا فِي مَنْتَصَفِ اللَّيْلِ، يَقِفُ عِنْدَ مَفْتَرَقِ الطَّرِيقِ وَيُنَادِي بِصَوْتٍ عَالٍ ذَلِكَ الْمَذْكُورَ أَعْلَاهُ - ثُمَّ يَنْتَظِرُ. إِنْ حَدَثَ ذَلِكَ كَمَا يَجِبُ، تَهْبُ نَسْمَةٌ رِيحٍ، مِنْ دُونَ سَبَبٍ وَلَا مَبَرَّرٍ، تَظْهَرُ خَنْزِيرَةٌ مَعَ مَجْمُوعَةٍ مِنَ الْكَتَاكِيَتِ، أَوْ تَبْرُزُ دَجَاجَةٌ رَفِيقَةٌ حَفْنَةٌ مِنَ الْخَنَازِيرِ الصَّغِيرَةِ. كُلُّ شَيْءٍ مَقْلُوبٌ، سَيِّئٌ، نَاقِصٌ... هَلْ تَتَخَيَّلُ الْمَشْهَدَ؟ لَحْظَتَهَا، يَطْلُقُ الْخَبِيثُ - وَالْمَرْءُ يَضْبُطُ نَفْسَهُ - رَائِحَةٌ زَفَتْ يَحْتَرِقُ. فَيَتَجَسَّدُ الْأَعْرَجُ، يَتَخَذُ لِنَفْسِهِ شَكْلًا! يَجِبُ الْإِحْتِفَازُ بِالشَّجَاعَةِ. يُوقَعُ الْمِيثَاقُ. يَكُونُ التَّوْقِيعُ بِدَمِ الشَّخْصِ. وَالثَّمَنُ هُوَ رُوحُهُ. لِأَحْقًا، بَعْدَ مَدَّةٍ طَوِيلَةٍ. هَلْ تَرَى ذَلِكَ، يَا سَيِّدِي؟ خَرَافَاتٌ تَافِهَةٌ! عَقَدَ هِرْمُوجِينِسُ مِيثَاقًا... قَدَّمْتُ دَلِيلًا. قُلْتُ لَكَ ذَلِكَ. أَلَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ مُوَاجَهَتَهُ؟ هِرْمُوجِينِسُ هُوَ الشَّيْطَانُ نَفْسَهُ، نَعَمْ، هَذَا كُلُّ شَيْءٍ. كَانَ هُوَ الشَّيْطَانُ بِذَاتِهِ.

نحنُ جميعًا - بني البشر - جئنا من الجحيم، هذا ما علّمني عرّابي كيليمين.
من بعض تلك الأماكن السفليّة، الفضيعة القبيحة، حتى أن المسيح نفسه لم
يمكن فيها سوى الحد الأدنى من الوقت، بفضل نوره المتوهج، وظل في
ظلام عشية اليوم الثالث. هل تريد أن تصدّق ذلك، يا سيدي؟ هيا، إنَّ المتعة
العادية لكل واحد هي أن يزعم الآخرين، أن يعدّ بهم أيّما عذاب، وأن ينال
منهم البرد والحرق أكبر قدر؛ وأنا كي نهضم ما نأكل، يجب أن نبذل في الوقت
ذاته مجهودًا كبيرًا وسط آلام حادّة، بل حتى التنفس يُكلّفنا ثمنًا باهظًا. فلا
ننعم بالراحة أبدًا. هل أصدّق ذلك؟ أعتقد أن الأمر يصعب قوله. أفكر مرة
أخرى في قرية ماكاووبا دا جاييبا، أستحضرها، كل ما رأيتُ بأَمّ عيني وكل
ما حكوا لي: كل تلك الفظائع التي كانت تُمارسُ في كثير من القرى الصغيرة:
إعدام بالرصاص، طعن بالخنجر، شقّ البطون، فقأ العيون، بتر الألسن
والآذان، دون استثناء الأطفال، مع إطلاق الرصاص من مسافة قريبة على
القطيع البريء، وحرق الأشخاص نصف أحياء، بالقرب من كل ذلك الدّم
المراق. ألم يأت هؤلاء البشر من الجحيم؟ طبعًا! يظهر جليًا أنهم سعدوا من
هناك قبل الأوان، أتخيل، في مهمّة معاقبة الآخرين ليكونوا مثالًا حتى لا
ننسى أبدًا ما يسود هناك في الدرك الأسفل. لكن الكثير منهم يسقطون ثانية
هناك في الدرك الأسفل، بمجرد موتهم... الحياة أمرٌ في غاية الخطورة.

لكنّ الجحيم، مهما كُبرت، تُقاس بدورها. أقول. هناك دائمًا من هو أكثر
دهاءً منا. كانت الأمطار قد طواها النسيان، وكان جوهر شرّ السّرّتاو يكمن
في ذلك، كان شمسًا فوق فراغ ممتدّ. كنا نتقدّم بضعة باعاتٍ، ثم نطأ أعماق
الرّمْل - رملٌ ينفلت، من دون صلابة، يرفض حوافر الخيل. بعد ذلك،
نظل نراوح مكاننا في تشابك من الأشواك والحجارة الممزوجة، من أسوأ
الأنواع، ذات لون أخضر أسود كأنه لون ثعبان. لأنه لم يكن هناك من طريق.

لذلك، كنا نمشي فوق أرض صلبة وردية أو رمادية، بها ثقوب وحجارة - لا تفهم الخيول ذلك فتجفل. ذيادوريم - دائماً برأس مرفوع - ابتسامته كانت تضاعف من قلقي. كأن لسان حاله يقول: «إيه، نحن شجعان، جرأتنا تفوق جراءة أي كان، سوف نعاني وسوف نلاقي حتفنا هنا...» رجال ميديرو فاش... هل كان ميديرو فاش يمشي في المقدمة رفقة من يفتحون لنا الطريق؟ هل نستطيع أن نعود يوماً من مكان كهذا؟ وشيئاً فشيئاً، اعتقدت أنني رأيت أشباحاً. الرفاق الذين يصرون، ويصرّون على التقدم، ثم خشيت أن أكون مصاباً بالدوخة مثل رجل سكران. هل يجب أن أعرف لماذا؟ أعتقد أن ذلك حدث من الإفراط في التفكير، لأنني مشيت في رحلات أفزع من هذه، ممتطياً الحصان أو مشياً على قدمي، تحت شمسٍ حارقة. الخوف، خوفي. تحمّلت. كل ما أحمله معي يثقل كاهلي - كنت أشعر بأزمة حمالة السلاح، وشكلها. بعد مسافة فرسخ ونصف من المشي، شربت أول جرعة ماء من مطرّي، مقتصدًا في ذلك مثل بخيل. فقدت مفهوم الأشياء، وكانت أفكارى تأتي غير منتظمة. استمرّ ذلك إلى أن توقّفنا. إلى أن جاءت تلك اللحظة، دون أن يتغير منظر طبيعي ودون أن نميز ولا شجرة واحدة، ولا نتوءاً واحداً، رأينا في جهة الشمس تسقط وفي الجهة الأخرى رأينا الليل يستقرّ. لم أساهم في العناية بالثيران، ولا في تجريد البغال من برادعها. أين يمكن للبهائم أن ترعى؟ هبط الليل مستديراً، ليلٌ حالك من دون فم. أطلقت عنان الدابة، أوثقت رباطها ثم سقطت ونمت. لكن، لحظة دخولي في النوم، عبرت فكرتان ذاتي، وتشابكتا: هل كان ميديرو فاش في كامل قواه العقلية؟ هل عقد هرّموجينيس حلفاً مع الشيطان؟! أعتقد أنّ هذين العمودين أغلقا عيني. كنت لا أزال أسمع ذيادوريم وهو يرقد هناك، يستريح بالقرب مني، يقول: - حسناً، نَمْ، يا زيوبالدو، سيكون كل شيء على ما يرام... - كلمات

أَجَجَت في نفسي انزعاجًا منهكًا، لكن صوته هو ما كان ينقصني ليهدهد جسدي. في تلك الليلة، رأيتُ حلمًا: كان ذِيادورِيم يمرُّ تحت قوس قزح. آه، كم كان يعجبُنِي - الحبُّ.

كيف أجد ترتيبًا لأقول لك بقية ذلك العذاب، منذ تلك اللحظة، في اليوم الموالي، حين تراجعت قضبانُ الليل، وسط الضباب الشاحب عند طلوع ذلك النهار الباهت، من دون ولا أملٍ واحد، من دون حتى أبسط تغاريد العصافير الصغيرة الغائبة؟ كنتُ أخفض عينيَّ، حتى لا أوقف الآفاق التي كانت ثابتة من حولنا، تُطوّقنا من كل الجهات. أما الشمس وكل الأشياء الأخرى، فتستطيع أن تتخيل بنفسك، يا سيدي، وتُكمل الصورة؛ لكن ما لا تستطيعه هو أن تكون هناك، أن تعيشه. عليك فقط أن تعرف: كانت صحراء السُّوسوراو تُلدُّ الصمت وتُنتج الشرَّ - كأنها إنسان! لم أستطع طرد تلك الأفكار: ذهابٌ، ذهابٌ، ذهابٌ، استمرارٌ في الذهاب؛ كان ميديرو فاش مجنونًا، عاش دومًا نصفَ مجنونٍ، إلّا أنَّ حاله ساء اليوم، وصار واضحًا للعيان، هذا ما كنت أرغب بشدة في أن أصرخ به. وبقية الرفاق، فيم كانوا يفكِّرون؟ هل أعرف ذلك؟ لا شيء، بكل تأكيد - كانوا يمشون كالعادة - رجال من السُّرُتاو متعبون. فالجاغونُسو إنسانٌ تَخَلَّى عن نصف كيانه... المصائب والحُرُّ. وقَعُ هذا الحُرُّ، وما يترتَّب عنه من اختناق وألم يصيبُ الجسدَ بكامله. كانت الخيول تتنفس من مناخرها - كنا نسمع لهاثها ووقع خطواتها المتعبة. لا أثر لأيِّ ظلٍّ. ولا ماء. لا وجود لأيِّ عشب. عندما كنا نروي الخيل بواسطة قِراب الجلد، ونقدم لها نصف حصَّة من الماء، ليس أكثر، كانت تبدو كأنها تنظر إلى حوافرها كأنها تشير إلى ما بذلته من جهد؛ لكن كان يجب الاقتصاد في كلِّ ما تبقى من ماء. كنا نسير في كابوس. كابوسٌ حقيقي، ضربٌ من الهذيان. كانت الخيول تننُّ بلا ثقة. لم تعد تتقدم.

وكنا تائهينَ. لم نعثُرْ على أيِّ بئر. كنا جميعًا بأعينِ محمّرة، ووجوه بنفسجيّة. الضوء مفرطٌ في القتل. ندورُ في حلقة مفرغة، المستكشفون يتفقّدون المكان، يبحثون. ثمّة من بدأوا يقبلون كِفيّاتهم ويتلون صلواتهم. أما أنا، منكسرًا، منحنيًا على السرج، فأسلمتُ روعي لجسدي. حتى صدغاي صارا قاسيين. هل تصلح الشجاعة لكل وقتٍ وحين؟ فكّرتُ في الأشياء كما يفكر فيها المسنون. أم أنني كنتُ أهذي؟ ذلك الشوق الذي داهمني جعلني أفكّر في أنني سأفقد أوتاسيليا. فتاة كانت تحبّني، وكانت تسكن في جبال جيراييس - في بوريتي ألتوس، واحة نخيل في عمق الوادي - في فازيندا سائتا كاتارينا. كنتُ أنتشي بها، كأنها موسيقى جميلة، أشربها ماءً جديدًا. كانت أوتاسيليا تريد أن تعيش أو تموت معي - أن تزوّج. كان حنيني إليها قصيرًا في الزمن. وقت يكفي لنظم بعض الأبيات:

مكتبة
t.me/soramnqraa

بوريتي، يا واحتني،
هناك، قرب البحيرة،
على الشّمال بيتٌ جميلٌ،
عينانِ كأنهما موجهٌ بحر.

لكنّ العينين الخضراوين كانتا هما عينا ذيا دوريم. حُبّي الفضيّ، حُبّي الذهبي. من شدة الحزن، كانت عينا ي تغرورقان، تتشوّشان، فلا أستطيع النظر إلى السماء. أشفت على عنق حصاني - قطعة، لوحٌ يسيل عرقا، وألما. نعود أدراجنا، نحو الجبال الهادئة! كنتُ أرى، أريدُ أن أرى، قبل أن أموت، طائرًا دون حركة، التراب النّدي الذي تحرّكه فنطيسة حيوان تابّير، تأرجح العروش فوق هامات الأشجار، ضحكات الهواء وتلألؤ ببغاء. هل تعرف، يا سيدي، ما تكونُ هبةٌ ريح لا تقفُ في وجهها أجمةٌ ولا يكبح سيرها سورٌ؟ لم

يبتعد عني ذبادوريم. من حين لآخر، كان يقطّب جبينه متأملاً. حدس أنني
 كنت أنزلق بأفكاري بعيداً عنه - ريوبالدو - قال لي - لم تُقتل أنا دوزوزا...
 لم تتعرض لأي شيء غير لائق... - فلم أجب. حسناً، ما الذي كان يهمني،
 الأعمال السيئة أم العقوبات؟ كنت أحنُّ فقط إلى صوت جدول عذب يجري
 وسط الحجارة - هروب جدول تحت الأشجار. فتذكرتُ الطيور الأخيرة في
 بامبُووال دو بوي. كانت تلك الطيور تحرك نسيماً خفيفاً. تصيح في وجهنا،
 وكل طائر يحرك ظله فوق رقعة ماء منتعشة بالحياة. لا شيء أحسن من الماء.
 في وسط ذلك الحرّ... «لو خرجتُ حياً من هذه، سأذهب راکضاً لأتزوج
 أوتاسيليا» - كنتُ أقسمُ مع نفسي، وقد سئمتُ من كل تلك المعاناة. لكني،
 وقتها، لم أعد أحبُّ أحداً: كنتُ أحب نفسي لا غير، نفسي فقط! كنتُ
 مولوداً جديداً بقدّم الجحيم. يوم يكون هناك مرسومٌ يحدد متى يجب على
 المرء أن يتوقف عن الوجود - لذلك تراني هنا، يا سيدي. آه، والآبار، لم نكن
 نجدها... وأعلنَ عن موت أحدنا. ميكيم، شابٌ جدّي وصادق، محارب
 محنّك: توقف، أطلق ضحكة: «أليس هناك من حظّ؟» ثم سمعنا صرخة
 أحدٍ ما في المقدمة، صرخة ألم: «أنا أعمى!». ولكن، الأفظع هو ذلك الذي
 سقط منحرفاً، مثل كتلة، وتدحرج تحت حوافر الخيل. فجأة، بدأ أحدهم
 يتذمّر، محتجاً بصوت خفيض. تلاه آخر. بدأت الخيول تتمايل. رأيتُ دائرة
 من الوجوه. وجوه رجال! أحدهم، بدا لي أن أذناه كانتا رماديتين. وآخر:
 صار أسودَ بالكامل وكان الدم يسيلُ من جفنيه ومن ذينك الكيسين تحت
 عينيه. ألم يكن ميديرو فاش يتنبه إلى أي شيء؟ سمعتُ الدّم يغلي في عروقي.
 أفلحتُ في الإمساك بعنان حصانِ ذبادوريم وهو يسير - جرحني جلده في
 يدي - بقيت منحنياً لحظةً، لكنني تكلمتُ: - من هنا، من هذا المكان بالضبط،
 لن أتقدم قيد أنملة! أو يجب أن يسحبوني بالقوة... - بدا لي ذبادوريم جامداً

كالحجر؛ كلبًا ينظرُ. لكنه تفحصني بحزم، بذلك الجمال الذي لا يتغيّر: - حسناً، سوف نعود، يا زيوبالدو... أرى أنه لا شيء جرى كما ينبغي... - لقد حان الوقت! - أجبتُه بحدّة أقوى، وصوتٍ أجشٍّ مثل صوت قرْدٍ يعوي. في تلك اللحظة، خارَ حصانُ ذيادوريمٍ مفترشاً الأرض، واحتضَرَ. ترَجَلْتُ من على حصاني. كان ميديرو فاشٌ هناك، حائرًا. من حولنا، كان الرفاق يشدون أنفاسهم، في انتظار القرارات. - هل يجب أن نعود أدراجنا، أيها القائد؟ - سأله ذيادوريمُ. نطق في الأخير، وأشار إلينا بحركة من يده، طالبًا منا التزام الهدوء. تكلم بنبرة صوت هادئة، لكن من الواضح أنه لم يكن يريد شيئًا آخر غير ما طلبه ذيادوريمُ. ولأول مرة، فتح ميديرو فاش ذراعيه، مشيرًا إلى أنه لم يكن هناك من شيء يمكن القيام به؛ وظلَّ كذلك، بكتفين مُتدلّيتين. لم أر ولم أسمع أي شيء آخر. أخذتُ مطرقي وعبّيتُ جرعة ماءٍ، مرّةً كأنها الحنظل. لكن، أخيرًا، سنعود، قال لي الرّب. وبما أنه يجب أن تعرف كل شيء، يا سيدي، فسُرّعان ما شعرت بأنني معاقٍ، مستعدٌّ، متجدّدٌ كما شعر الآخرون بالإحساس نفسه. فالعودة كانت دائمًا شيئًا ممتعًا. أمسكَ ذيادوريمُ بذراعي... رأيتُ: عيناه تغروران بالدموع. ثم علمت لاحقًا أنّ ذيادوريمُ هو من نصّح ميديرو فاش بعبور صحراء السّوسوراو.

لكن، لماذا أحكي لك بالتفصيل، يا سيدي، كل ما عايناه من بعد؟ يكفي أن أعطيك نظرة شاملة. بعون من الرّب، أفلحنا في النجاة من تلك الشمس الحارقة دون خسائر كبيرة. ما يعني أن قليلًا من الرجال لقوا حتفهم، وعددًا كبيرًا من الخيل. لكن أقطع ما وقع لنا أننا بقينا من دون الحمير التي هربت من فرط شقائها وأخذت معها ما كانت تحمله من مؤونة، ففقدناها. وإذا لم نتّه نحن بدورنا فإنّ الفضل في ذلك يعود إلى النجوم التي اهتدينا بها. وكذلك كان. خرجنا من هناك، ذات صباح، مع بزوغ الفجر. ولم يكن ذلك

في الاتجاه الصحيح. لم نعد نتحمل. سماء عالية وقمرٌ مؤجِّل. وبالإضافة إلى معاناتنا، كان الرجال يتوترون مهلوسين، من شدة الجوع - لم نجد أي طريدة نصطادها - إلى أن أسقطوا قردًا من حجم كبير، قطعوه إربًا إربًا وراحوا يزددونه. أكلتُ بدوري. لم يأكل منه ذِيادوريم. أثناء ذلك - أقسمُ لك، يا سيدي - بينما كانوا يشوون اللحم ويأكلون، أدركنا أن ذلك الحيوان الضخم لم يكن قردًا لأنهم لم يعثروا على ذنبه. كان كائنًا بشريًا، من سُكَّان المنطقة، يدعى جوزيه دوس ألفتيس! جاءت أمه تُحْطِرُنَا بذلك، باكية، تقول: كان هذا المخلوق يمشي عاريًا، لانعدام الملابس... لكن، ليس تمامًا، لأنه كان يضع على جلده بعض الخرق، لكن، أحيانًا، كان الابن يتيه هكذا في الغابة، لأنه مخبول بعض الشيء. كان أمرًا مدهشًا. جثتِ الأم على ركبتيها وراحت تتوسَّل إلينا. فتكلم أحدهم وقال: - الآن، وقد مات، لنأكل ما ليس روحه عوض أن نموت جميعًا... - كانت مزحةً بائسة. لكنهم لم يأكلوا منه المزيد، لم يستطيعوا ذلك. ولم يكن هناك حتى ما يكفي من المَنِهْوتِ لمُصاحبة الأكل. بدأتُ أتقيأ. وراح آخرون يتقيئون بدورهم. كانت المرأة تتوسَّل. وميديرو فاش خائراً، يحترق من الحُمَّى، وآخرون كثر يعانون - هيا، كنا نموت جوعاً، أليس كذلك؟... - أثناء ذلك، حصل البعض على معلومة من المرأة: أنه على بعد حوالي ربع فرسخ من ذلك المكان، كان ثَمَّة حقل مَنِهْوت. - حذار، لا تذهبوا إلى هناك! - سمعتُ أحدًا يصيح: كانت المرأة تشير إلى ذلك كي تنتقم، ربما يكون المَنِهْوت من النوع البرِّي السَّام! فحدجوا المرأة بنظرات غاضبة. أثناء ذلك، جاء جاكاري يحمل شيئًا من التراب يقال إن مذاقه جيد، وبوسعنا أن نأكله. قدَّم لي منه شيئًا، أكلته، دون أن أجِد فيه غير طعم لزج غريب يخادع المعدة. من الأحسن أكل الأعشاب والأوراق. لكن، هناك من كدَّسوا منه كتلاً كثيرة في أكياسهم. أكل منه ذِيادوريم. قبلتِ المرأة بدورها أن

تأكله، المسكينة. بعد أن مرض ميديرو فاش، شعر آخرون بآلام، فظنوا أن لحم البشر مسموم. مرض الكثيرون، كانت لثاهم تدمي وبقع حمراء تغطي أجسادهم بكاملها، كما يشعرون بآلام في السيقان التي تنتفخ، فتؤلم. وكنت أعاني شخصياً من زحارٍ فظيع فشعرتُ بالقرف من نفسي وسط الآخرين. لكننا تمكنا من بلوغ ضفاف نهر بويس، وبحيرة سوسورانا، وهناك اصطدنا سمكاً. أخذنا معنا تلك المرأة، طوال الوقت، ولم يفارقها الخوف لأنها كانت تظن أننا سنأكلها إن لم نجد آخر - من يتجرأ ويلمسها سيكون له شأنٌ معي! - أكد ذيادوريم. - وليحاول! - وقفت إلى جانبه مسانداً. في الأخير، قتلوا خنزير ماءٍ سمين. جاء شخص من سُكَّان المنطقة وقَدَّم لنا طحين البوريتي، الذي كان دائماً شيئاً مفيداً. فاقتفينا النهر الصغير الذي ينطلق من بحيرة سوسورانا، يستقبل مياه أنهار جينيبابو وفريدا دو فيتورينو، ثم يصبُّ بعد ذلك في نهر بانديروس - في هذا الأخير شلالاتٌ تغني، ولونه قاتم جداً حتى أن الببغاوات تحلق فوقه وتصيح في نشار: «إنَّه أخضر! إنَّه أخضر! إنَّه أزرق! إنَّه أخضر! إنَّه أخضر!...» وبعيداً، لمحتُ حجراً قديماً، أحرقتُهُ الشَّمْسُ. مياه مقدسة، قرية. وكم كان جميلاً على امتداد الحقول، أزهار «قائد القاعة» الحمراء والبرتقالية، تلمع مرتعشةً، وتنعكس. - إنها فارس القاعة... - قال ذيادوريم، مبتهجاً. لكن الأاريي، بالقرب منا، حرَّك رأسه - في أرضنا، نسمي هذه «السيدة جونا» لكن حليها مسمومٌ... -

كنا في حالة صدمة، منهكين ومحطمين لما لحقنا من محن. لكننا لم نكن محبطين. لم يكن أحد يشتكي، ولا أظن أحداً وجدَّ ما يشتكي منه. هكذا هو حال الجاغونسو، ابنُ اللَّحظة. لا يغضب في الخسارة ولا في الهزيمة - كلُّ الأمور سواسية لديه، تقريباً. لم أر قطُّ شيئاً كهذا. فالحياة شيءٌ مضمونٌ بالنسبة إليه: الأمل، الشرب، معاشرَة النساء، القتال، والنهاية في آخر المطاف.

أليس هذا ما يتطلّع إليه الجميع؟ ألا يفعل صاحب الفازيندا شيئاً آخر غير هذا؟ ما يرغبون فيه هو أن يأتي شهر تشرين الأول العاصف، غنيّاً بالرُّز الذي يملأ المخازن. لدرجة أنني أنا أيضاً نسيتُ ما مررنا به من صعوبات في الآونة الأخيرة. استعدتُ ثقتي في بُعد نظر ميديرو فاش، أقصد أنني لم أعد أحقره. إنَّ الثقة، كما تعرف يا سيدي، لا تُسحبُ هكذا من الأشياء الجاهزة أو الكاملة: إنها تحيط بالشخص وتنبعث من حرارة كيانه. طردتُ من ذهني فكرة الدَّهاب للبحث عن أوتاسيليا، وطلب يدها للزواج، ضمان الفضيلة. بعد أن كنتُ رماداً، صرتُ ناراً. آه، أحياناً، تجاه شخص ما، يكون الأمر هكذا: لا يسعُنَا إلَّا أن ننحني. اسمع: الرَّب يأكل خفيةً، والشيطان يجري في كل الاتجاهات ليلحس الأطباق... ولكنني كنتُ أحبُّ ذبادوريم كي أعرف كيف كانت جميلة تلك المناطق المرتفعة.

وكنا في الوقت ذاته بحاجة إلى قسطٍ من الراحة، وانتظار ما سيأتي. تدبّرنا أمرنا ووجدنا خيولاً جديدة نمطيها، وبعد التخيم لبضعة أيام بفازيندا مضيافة في فيريدا أليغري، تابعنا سيرنا فقطعنا باردو وأكاري، وأينما حللنا لقينا الترحيب. ما تأخر هو ظهور جماعة الخائنين. بيد أننا حظينا بامتياز وقوف كلِّ السكان إلى جانبنا. لم يكن ميديرو فاش يسيء معاملته أحد من دون سبب معقول، لا ينتزع من أحد شيئاً ضدَّ إرادته، ولا يسمح بحماقات رجاله. نتوقف في مكانٍ ما، فيأتي الناس، يقدمون لنا ما استطاعوا من طعام، أو أية هدايا أخرى. لكن أتباع هرْموجينيس وريكارداو كانوا يسرقون، يغتصبون دون حرج، يطلبون الفدية مُشهريّن السِّلاح في القرى الفقيرة، ويصرُّون على ذلك مثل الطاعون. في لحظةٍ ما، علمنا أن هرْموجينيس كان في الضفة الأخرى، على هامش ولاية باهيا، وأنه كان هناك عالمٌ كامل من الأوباش. وريكارداو؟ أينما كان، فقد ظلَّ ينتظر. وصلنا على مراحل إلى

مكان آمن، إلى بوريتي دوزي. كان صاحبه، سيباستياو فييرا، يملك حظيرة
للماشية وبيتًا. احتفظ لنا بالذخيرة: أكثر من عشرة آلاف خرطوش.

لماذا لم نخض أي معركة، بعد كل تلك الأشهر؟ أقول لك الحقيقة: كان
جنود الحكومة يتعقبوننا. فالفائد أوليفيرا، والملازم راميش والنقيب ميلو
فرانكو، ثلاثهم لم يفسحوا لنا المجال. كانت فكرة واحدة في ذهن مديرو
فاش: أن يتدبر أمره كي لا يدخل في معركة معهم، ألا يُنْهَكَ نفسه في ذلك -
لأن أسلحتنا كانت مندورة لمصير واحد: الواجب. كنا نهرب، نفلت منهم.
ننتقل من فيريدا إلى أخرى كما تشير إلى ذلك أشجار البوريتي. نعبُر نهر
بيراتينغا، العميق، نقطعه إمّا عند ماطا دا فاو أو عند فاو دا بويادا؛ أو عند
الأسفل، في ساو دومينغوس، عند فاو دو جوزيه بيدرو. أو نصعد ضفاف
هذا النهر حتى منابعه، في ساو دومينغوس. أهمُّ شيءٍ وجب أن ندرسه
هو أن نتسلّل، بسرعة، نجد الممرات المناسبة في الحدود عندما يحاصرنا
الجنود. كان ضروريًا أن نعرف هذه الممرات جيدًا حتى ننزل إلى غوياس:
فالهضبة من هذ الجهة، قبل أن نصل، تنتهي دون سابق إنذار، وتهوي بشكلٍ
عمودي. بها ممرات في منحدرات صعبة، حُر. اسمع: بعيدًا، في ذلك الاتجاه،
رأيت أماكن يحترق فيها التراب والشمس يتردّد صداها - شيء عجيب -
عالم غريب! في المكان المُسمّى بريجودو جاتوبازينيو، شق رجل نفسه، لشدة
خوفه منّا. بالاستمرار هناك، في الطرف الآخر، يمكن الوصول إلى جالاباو
- من يعرف ذلك؟ - هضبة مسطحة بشكل متساوٍ، لا روح فيها. حسنًا،
هناك طلب مني رجل من أهل الهضبة أن أكون عرابًا لابنه. تلقى الابن اسم
ديادوريم بدوره. كان كاهن أهل باهيا هو من أقام القداس، أشرح لك: كان
سُكَّان قرية بكاملها، من ولاية باهيا، ينتقلون مشيًا على الأقدام - رجال،
نساء، حيوانات، شيوخ، الكاهن مع كل عدته وصلبيه، وتمثال الكنيسة

- بل كان هناك موسيقيون يرافقونهم. كان ذلك مثل موكب صغير يتقدم على إيقاع رقصة بيرنامبوك ماراكاتو! خرجوا يبحثون عن الماس، بعيداً، كما كانوا يقولون: «... في الأنهار...». كان بعضهم يقود بغالا محملة، وآخرون يحملون أغراضهم - أكياس من الأطعمة، رُزْم من الملابس، وأراجيح شبكية يضعونها على أكتافهم. وضع الكاهن قبة جلدية فوق مؤخرة جمجمته. لم يكن سوى موكب حكيم، يشغل كل الطريق، وسط الغبار وصفيق النعال الجلدية، شيوخ ينشدون ترانيمهم، أشخاص يحبون الغناء. كانوا يصلُّون وهم في طريق الفقر نحو الثروة. لكي نستمتع معهم بعزاء الدين، رافقناهم حتى قرية فيلا داس بيدراس دي أمولاز. هناك، الريح تهب من الغرب، في موسم الأمطار؛ وفي موسم الجفاف، كانت تأتي من هذه الجهة. لموكب أهل باهيا أجواء احتفالية. في السَّرتاو، حتى الجنازة البسيطة احتفالاً.

أحياناً، أفكّر: قد يكون أمراً جيداً أن يلتقي المؤمنون والناس الميسورون في مكانٍ مناسبٍ، وسط الأراضي العليا، ليعيشوا فقط مرددين صلوات جميلة، قويّة جدّاً، يمجّدون الرّب ويتوسّلون إليه أن يغفر للعالم. سيأتي الناس من كل حذب وصوب، ستبنى كنيسة ضخمة، فتنتفي الجرائم والطموحات، وتنتشر كل الآلام في الرّب إلى أن تحين ساعة غناء كل موتٍ. تحدثت في الأمر مع عرابي كيليمين، فحرّك رأسه متشكّكاً: - زيو بالدو، الغلّة واحدة ولكن حصادها شأن كل واحد على حدة... - أجا بني بحكمة.

عراي كيليمين رجل لا ينخرط في المشاريع. اذهب لزيارته، يا سيدي، هناك في جيجوجا. اذهب الآن، ما دما في شهر حزيران. تظهر نجمة الفجر على الساعة الثالثة؛ وقت الفجر القارس. إنه موسم قصب السكر. سوف ترى في الظلام سيجاراً ضخماً - وسيكون هو، ضاحكاً وقد غرق في عرقه، يشغل طاحونته. اشرب قرعاً من عصير قصب السكر وبلّغه سلامي. رجل

وديع، بقلب صافٍ يمتلئ طيبةً، يتمنى أي شخص، مهما كان حزينًا، أو سعيدًا، أن يحظى بحديثٍ معه.

كما كنتُ أقول لك، ما كانت تطلبه نزعتي هو مزرعة كبيرة يملكها الرّب، تقع في مكان مرتفع، فيها يُحرق البخور قرب المنابع فينشد الناس تراتيل حتى الطيور والحوانات تأتي لتردّدها. هل تتخيّل المشهد؟ أشخاصٌ أصحّاء، بواسل، لا يرغبون سوى في السماء، في نهاية المطاف. كما حدث مع فتاة في بارّيو نوfo، تلك التي توقفت فجأة عن تناول الطعام، لم تعد تشرب غير ثلاث قطرات في اليوم من جرن الماء المقدس، ومن حولها بدأت المعجزات. لكن رئيس الشرطة المحلية جاء رفقة الفرقة، وأجبروا الناس على أن يتفرّقوا؛ أما الفتاة فألقوا بها في مستشفى المجانين، في العاصمة، بل يُقال إنهم أجبروها على أن تأكل عن طريق مجموعة من الأنابيب. هل كان ذلك من حقّهم؟ هل تصرّفوا جيّدًا؟ بطريقةٍ ما، أظنّ أنهم كانوا على حقّ. لم يكن ذلك من الأشياء التي أقدرها وأؤمن بها. لأنه، في وقت قصير تمامًا، ظهر الآلاف وجاؤوا يطلبون الشفاء من الأمراض: مرضى الجدري ممّن تغطي القروح أجسادهم، مقعدون من كل الأنواع الفظيعة، جرحى يعانون من جروح كبيرة، عميان شبه عاجزين، مجانين مقيّدون، بلهاء، مصابون بداء السلّ ومن يعانون من الاستسقاء. مخلوقاتٌ من كل الأنواع، تنبعث منهم روائح كريهة. لو رأيت ذلك، يا سيدي، لأصبت بالإحباط. يشعر المرء أمام ذلك بقرفٍ كبير. أعرف: القرفُ بدعة من صنع ذلك-الذي-لا-وجود-له، ليمنعنا من الشّفقة. وكان أولئك الناس يصيحون، يطالبون بالصحة على الفور، يصلّون بصوتٍ عال، يتحدثون مع الآخرين، يائسين من إيمانٍ لا أثر له - ما كانوا يريدونه هو الشفاء، لا غرض لهم بأيّ جنّة. منظرٌ يترك المرء مندهشًا أمام خطورة هذا العالم الذي يتّسع لنا أو لا نرغب فيه. قد

يكون من الأفضل أن تتفرق الأخطاء والفظاعات بشكل مُتساوٍ على كل البقاع البعيدة. وإلا، سنفقد كل شجاعة. إِنَّ السَّرَّتاوُ يعجُّ بهذه الآفات. فقط حين نمضي أيامًا على ظهور الخيل، نعيش حياة الجاغونُسو ولا نرضى بحياة الاستقرار، لا نلاحظ كثيرًا من ذلك: حالة البؤس والأمراض. الحرب تلهي الناس - كما يرى الشيطان.

اسمَع وانظُر: في رَيُو دو بورا، رُزق زوجان بأربعة أطفال جاؤوا إلى الدنيا في أفضع تَحَوُّلٍ ممكن: من دون أذرع ولا سيقان، لا شيء غير الجذع... وحدث هذا فقط لأن الزوج والزوجة كانا من أبناء العم المقربين بأواصر الدم... اللعنة! هذا الأمر يتجاوز حدود خيالي! دَعْنِي أقول لك هذا، يا سيدي: كان هناك طبيبٌ آخر، طبيب شاب، يستكشف وادي أراسواي، بحثًا عن الأحجار الكريمة، حدَّثني وقال كلامًا عن حياة الناس التي تتجسَّد وتُبْعَثُ، وتتطوَّر من ذاتها، لكن الرَّبَّ لا وُجود له. أرتعش لذلك. كيف نتصرف من دون وجود الرَّبِّ؟ إِنَّ كان الرَّبَّ موجودًا، فكلُّ شيء يبعث الأمل في نفوسنا: المعجزة دائمًا أمرٌ ممكن، والعالمُ يجدُّ حلًّا. لكن، إِنَّ لم يكن الرَّبَّ موجودًا، فأكيد أننا هالكون في دوَّامة، وأنَّ الحياة عبثية. ثَمَّة خطر دائم في الأوقات الكبيرة والصغيرة، لا شيء يجدُّ حلًّا - يجب الاحتراز من كلِّ ما يقع. إِنَّ كان الرَّبَّ هنا، فإنه ليس خطيرًا انسياقُ المرء قليلًا مع الأشياء، لأنَّها تجد حلًّا في نهاية المطاف. أما إِنَّ لم يكن الرَّبَّ هنا، فأكيد أننا لن نسمح لأنفسنا بأيِّ شيء! الألمُ أمرٌ قائمٌ. تُنسى حياة الإنسان، تُرمى في رُكن - خطأ واحدٌ يؤدي إلى تشوُّهات مثل هذه، أطفال من دون أذرع ولا سيقان. ألا يثير الألمُ المعاناة في الأطفال الصغار، بل وحتى في الحيوانات وفي المجانين؟ - ألا يجعل النَّاسَ يعانون حتى من دون معرفة أو سبب؟ ألا يولد الناس دائمًا؟ آه، ليست رؤية الموت ما يصيبُنِي بالخوف، بل رؤية الولادة. خوفٌ ولُغز.

ألا ترى ذلك؟ ما ليس الرَّب، هو حالة الشيطان. الرَّب موجودٌ حتى عندما لا يكون. لكن الشيطان لا يحتاج أن يوجد ليكون - فقط بمعرفتنا أنه غير موجود، يسيطر على كل شيء. الجحيمُ امتدادٌ لا نهاية لها حتى أننا لا نستطيع أن نراها. لكن الناس يريدون نهاية فيرغبون في الجنة: يريدونها نهاية يمكن أن نرى بعدها كل شيء. إن كنتُ أقول هراء، فأوقفني، يا سيدي. هكذا أنا، وهذه طبيعتي. ولدتُ حتى لا يوجد إنسان آخر له أذواقى نفسها. ما أغبط فيك، يا سيدي، علمك وثقافتك...

من أراسواي، جلبتُ حجرَ ياقوت.

هل تعرف، يا سيدي، لماذا ذهبتُ إلى تلك الأماكن؟ سأحكي لك. كيف يمكن أن نحبَّ الحقيقة في الكذب؟ الصداقة مع وهم الخيبة. الحياةُ مفرطةٌ في طابعها الإسفنجي. كنتُ بخير، لكن كانت تتأبني أحلام تصيبي بالتعب. من ذلك النوع من الأحلام التي نستيقظ منها بصعوبة. الحُبُّ؟ طائرٌ يضع بيضًا من حديد. والأفطع هو حين بدأتُ أقضي لياليًا بيضاء، لا يغمض لي فيها جفنٌ. كان ذيادوريم واحدًا من أولئك الأشخاص الغامضين - لا نستشف شيئًا مما يفكر فيه بأعماق نفسه، ولا ما يتطلع إليه. أظنُّ أنني كنتُ هكذا، بدوري. هل كنتُ أريد أن أعرف أفكاره؟ لم أكن أرغب سوى في هذا الأمر ولا أريده. مسألة عبثية معاكسة، لا يمكن التعامل معها. ها قد عدتُ إلى برودة المنطق. الآن، هذا هو قدرنا، انظر، يا سيدي: جلبتُ حجرَ ياقوتٍ لأهديه إلى ذيادوريم؛ ولكنه كُتبَ لأوتاسيليا، أعطيتها إياه من باب التدليل. واليوم، أينما وجدَ فإنه في يد زوجتي!

أم أنني لا أحكي جيدًا؟ سوف أعيدُ الحكي.

أقمنا مُحيمًا غيرَ بعيدٍ عن المستنقعات الكبرى، وسط وادٍ به ماء كثير. بل كان مناسبًا كي لا تتيه الخيول - حيثُ كان هناك حاجز طبيعي يمكن

الاستناد إليه وحظيرة مصطنعة للقبض على القطيع المتوحش. طبيعة جميلة،
عشب طريّ. إنني أسترجع كل ذلك، يومًا بعد يوم. ظلّ ذيادوريم مدة
طويلة يحمل قربة في يده، وأنا أنظر إليه: - زيوبالدو، أتمنى ألا نتأخر في
استئناف السير. هذه المرة، سوف نحارب... - نطق بذلك، سعيدًا، كما يفعل
عادة حين نكون هكذا، عشية شيء نُقدم على فعله. لكنه حرّك قِربته، كان
بداخلها شيء ما، قطعة حديد، فانزعجتُ لذلك؛ قطعة حديد لا تصلح لأي
شيء، سوى أن تثير أعصابي: - ازمِ ذلك، يا ذيادوريم! - قلتُ له. نظر إليّ،
ولم يحتجّ، حدّجني بنظرة متردّدة كأنني قلتُ للتو شيئًا مستحيلًا. ثم احتفظَ
بقطعة الحديد في جيبه. ولم يترك قِربته. كانت قربة صُنعت في باهيا، مصمّمة
بعناية كبيرة، لكنها صارت الآن تضايقني. بما أنني كنت أشعر بالعطش،
أخذتُ كوبي المصنوع من القرن المنحوت، الذي لا ينكسر أبدًا، وذهبتُ
نجلب ماءً من البئر التي حدّثني عنها. توارت البئر تحت ظلال شجرة
نخيل، من نوع لا أعرف اسمه، قصير الجذع، لكنه سميكٌ جدًّا، له أعراش
ممتلئة، تتجه نحو الأعلى، ثم نحو الأسفل، حتى تلمس بأطرافها الأرض.
تكاثفت الأعراش، الصّقيلة جدًّا، الكثيفة جدًّا، لتشكّل مخبئًا، يحاكي كوخًا
هنديًا. لا بد أن الهنود بنوا أكواخهم بعد معاينة شيء كهذا. كان لا بدّ من
أن ننحني، نرفع عرش نخيل، وندخل إلى هناك. كانت البئر تنفتح دائرية،
أو بشكل بيضوي. كما في عمق الأدغال، بداخلها ضوء مخضّرٌ تمامًا. لكن
الماء، في حدّ ذاته، كان أزرق، أجمل لونٍ أزرق ممكن - سرعان ما تحوّل إلى
بنفسجيّ. حسنًا، خفّق قلبي بقوة. فكّرتُ: ماذا لو غرس ذيادوريم عينيه في
عينيّ، لو صارحني بكلام واضح؟ ردّ فعلي أن أصدّه. أنا؟ يا للقرف! وقفَ
ذيادوريم هادئًا، عاديًا، ينظرُ من حوله كأن شيئًا لم يكن. كأنها ليس من سرّ
هناك. هل شعرتُ بالخيبة من ذلك الصمت الحكيم؟ انحنيتُ لأتذوّق الماء،

ولحظتها رأينا حيوانًا صغيرًا - ضفدع قبيح غير متوقع: كان يطلق فقاعات تطفو عنقيدًا فوق سطح الماء. باختصار، بسرعة، انتفى الوراق، وقفزنا نحو الخلف. لم يقل ذيادوريم شيئًا، اختفى، لا أدري أين، كما هي عادته الغريبة في أن يختفي أحيانًا ثم يظهر من جديد دون سبب. آه، من يفعل ذلك، ألا يكون شخصًا يعرف أنه مذنب؟

ذهبتُ لألتحق بمجموعة من الرفاق الذين كانوا يمارسون لعبة الرمية لتزجية الوقت. يجبُ أن أقول إن رفقتهم في الآونة الأخيرة أزعجتني حدَّ القرف، لأنني أجدهم جهلةً، رجالًا مبتدلين من عامة الناس. إلا أنني كنتُ بحاجة إلى حضورهم البائس - كلُّ مَنْ هبَّ ودبَّ - رجالٌ عاديون. حينئذٍ، حتى دون أي شعور بالجوع، أخذتُ حساء المنيهوت جيّدًا، أكلته بصمتٍ. وأردتُ - بل تساءلتُ أيضًا - أن أفكر في الحياة: «هل أفكر؟». لكن، في تلك اللحظة تحديدًا، رفعوا جميعًا رؤوسهم: بسبب ضجة هناك عند المنعرج حيث يبدأ المنحدر - وهناك كان رفاق آخرون ينادون علينا، يلوّحون بإشاراتٍ خاصة. فهرعنا مسرعين، لنرى ما هناك، ونحن نصعد عبر الأحجار اللزجة.

كانت قافلة تضمُّ مجاميع من البغال، قادمة من ساو روماو، تحمل الملح إلى غوياس. روى البغال خبرًا تغيّسًا، من تلك الأخبار التي تعجُّ بها الحياة - هل كان رجلًا طويل القامة، بملامح وجه طويلة، تبرز الأسنان الأمامية من فمه؟ - طلب منه مديرو فاش أن يؤكد ذلك - نعم، كان كذلك - أجابه البغال - وقبل أن يموت، قال اسمه: سانتوس ريبيس... لكنه لم يستطع أن يقول أكثر من ذلك، لأنه أسلم الروح للرّب. صدّقني، أيها القائد، لقد تأسّفنا كثيرًا لذلك... - من حوله، كنّا واجمين. في كورورو، وجد البغالون سانتوس ريبيس، مُحْتَضِرًا؛ فأشعلوا شمعة كبيرة ودفنوه. الحُمى؟ على الأقل،

وفي كل الأحوال، لترقد روحه في سلام. خلعنا جميعًا قُبَعَاتِنَا، ورسمنا إشارة الصليب. كان سانتوس ربيّس، في حياته، أكثر من كنا بحاجة إليه - كان يحمل لنا الرسائل ويبلغنا بما يتّخذهُ الزَّعيمَان سو كانديلازيو وتيتاو باسوس، من قراراتٍ في صالحنا على الضفة الأخرى الشاسعة من النهر.

- الآن لا بدّ لأحدٍ ما أن يذهب إلى هناك... - قرّر مديئرو فاش، وهو ينظرُ إلينا واحدًا واحدًا؛ آمين! - وافقنا. بحثتُ بعينيّ عن ذيادوريم، كان أمامي بالضبط، يمسك قضيبًا حديدًا، فوجدتُ أنه يغلي برغبة انتقام ليست بالجميلة. أشحتُ بعينيّ عنه. تقدّمتُ وسألتُ: - بعد إذنكم، أيها القائد! أريد أن أذهبَ إلى هناك... - تنحنجُ مديئرو فاش. صراحة، اندفعتُ، لكن كي أحظى بالثناء: لم أكن أعتقد أنه سيقبل ذلك، بما أنني كنتُ رامياً ماهراً، الأحسن والأسمى، فقد كانوا بحاجة إليّ؛ فلأني سببُ سيرسلني، لأحملَ الرسائل؟ وهناك حدث ما حدث، أي أن مديئرو فاش وافق! - لكن، لا بد أن تذهب رفقة زميل... - اقترح. عند سماع ذلك، ألم يكن من الأنسب أن ألزم الصمت، أترك للآخرين مهمة اختيار الرجل الثاني، لأن ذلك لم يكن أمرًا يخصني؟ آه، القلق: من ألا أرغب بما أريده حقًا، والذي يمكن أن يظهر على حين غرة... جعلتني الرغبة في الانتهاء من ذلك أشدُّ على أسناني، وأخذ زمام المبادرة: بإذنك، أيها القائد، سيأتي سيسفريدو معي... - قلتُ. لم أنظرُ إلى ذيادوريم. فوافق مديئرو فاش: تفحصني مليًا، ثم أرسلني قائلاً بفظاظة: - حسنًا! اذهب ولا تمث في الطّريق! - والحقيقة أن مديئرو فاش، وقتئذٍ - بملاحه الممحوّة وما يعانیه من صعوبة في التنفس - كان في المرحلة الأخيرة من المرض. كان أصفر بلون المعجون، يقف مطوياً نصفين رغماً عنه، ويُقال إنَّ أنينه يُسمع حين يتبوّل. لكني لم أعرف قطُّ أحدًا مثله!... مديئرو فاش، ملكُ جيرايس.

لماذا كنتُ أتصرّف هكذا مثل رجل طائش؟ هل أعرفُ ذلك، يا سيدي؟
انظر إن كنت تستطيع أن تفهم. إننا نعيش بالتركار، وأنا، في دقيقة واحد،
أكرّر وأخطأ. وها نحن الآن على غصن آخر. لو أنني تكهنتُ بما تعلّمت بعد
العديد من لحظات الذهول... يظل المرء دومًا في العتمة، فهل تضاء غرفته
في آخر لحظة؟ أقول: الحقيقة لا توجد عند الخروج ولا عند الوصول - إنها
تظهر لنا وسط الرحلة. كنتُ أبله أكثر من اللازم! اليوم، لا أشتكي من أيّ
شيء. لا أخرج الماضي من قبره. لكنني لا أتدّل وأشعر بالذنب. نعم، فقط
من أمرٍ واحد. أنا أخاف من هذا الأمر بالضبط. ما دمنا نشعر بالخوف،
فأعتقد أننا لن نشعر شعورًا صحيحًا بالذنب، هذا غير ممكن. حياتي ليست
حياة قديس. لكنني اعترفتُ لسبعة من الكهنة، وضمنت معهم الغفران سبع
مرات. أستيقظ في عزّ الليل وأحاول جاهدًا أن أصلي. أستطيع ذلك. وما
دمت أستطيع ذلك فإنّ جبنيني لا يبردا! ساحني، يا سيدي، إن كنتُ أتكلّم
كثيرًا.

لكن، انظر كيف نحن: بمجرد مرور لحظة واحدة، وأنا أجهّز حصاني
وأحمل متاعي، صرتُ حزينًا. كان دِيادوريم يرقبني من بعيد، متظاهرًا بشيء
من اللامبالاة. شعرتُ وأنا أودّعه، بالحاجة لأقول له بصوتٍ خفيض:
- صديقي وأخي، سأذهب من أجل والدك... سأنتقم لجوكا راميرو... -
ذلك هو ضعفي، المتملّق. لكنه أجابني: - رافقتك السلامة، زيوبالدو. حظًا
سعيدًا... - تصيبي كلمات الوداع بالحمّى.

أركض رفقة سيسفريدو، ابتعدتُ عن ذلك المكان المعروف ببوريتي
داسْ ثريس فيلييراس. بدأ الندم يكبر في نفسي. حينها اكتشفت تسرّعِي
وأنا أرغب في الخروج مع سيسفريدو. ذلك أنه، كما كان معروفًا، ترك منذ
سنوات، في منطقة جيكيثينيونيا شابًا كان يعشقها بولعٍ شديد، شابة ذات

شعر أشقر. اعتقد أنه لم يُخلق لذلك، لأنه كان جاعونُسو وهي لن تحبه. -
هيا، أخبرني، يا سيسفريدو، بما وقع؟... - لم نكن قد قطعنا مئة فرسخ حتى
بدأت أسأله. كأنني كنت أركض وراء ظلٍّ مستعار من حبٍّ ما. - ألا تعود
إلى هناك، يا سيسفريدو؟ هل تتحمل الحياة؟ - سألتُه. - أحفظ بذلك، حتى
أحصل أحيانًا على شيءٍ من الحنين. أجراس الجحيم! الحنين، ليس إلَّا...
- قال، ثم جعد أنفه، ضاحكًا. رأيتُ أن حكاية تلك الفتاة كانت كاذبة.
لا نكسب الكثير من الابتكار. تختلف قواعد العالم من شخص إلى آخر.
كان سيسفريدو يأكل كثيرًا. وكان يعرف كيف يقلد كثيرًا من الطيور وهو
يصفرُّ.

في الحقيقة، كان عليَّ أن أقطع عدة مناطق ومقاطعات، لأننا قمنا برحلة
عبر هذا الشمال، بكامله تقريبًا. هكذا، تعرفت على أقاليم الولاية، ولم تبق
منها واحدة لم أزرها. مررنا بإستريا دي سانتا ماريا، بارّيرو كلارو، كاييسا
دي نيغرو، كورّيجو بيدرا دو جيزفازيو، أكاري، فييرا وفوندو، بحثًا عن
طريق نحو ساو فرانسيسكو. من دون مشاكل. قطعنا في زورق. سرنا شرقًا
وتوجهنا مباشرة إلى ثريميدال، المسمى اليوم مونتي أزور. كنا نعرف ذلك:
كان رجال من صفوفنا يقومون بدوريات هناك، بين جاييبا وسيرا برانكا،
في تلك الأراضي القاحلة على طول نهر فيردي غراندي. ذات صباح باكر،
أيقظنا عبر النافذة رجلًا عجوزًا يملك بستان موز. كان العجوز صديقًا لنا.
أخذ الرسالة. بعد خمسة صباحات، عُدنا. كان ذاك من أجل لقاء شخص
وصل، وكان هو جواو غوانيا بعينه. وكانت التفاصيل التي قدّمها من أقطع
ما يكون. سو كانديلازيو؟ قُتل في تبادلٍ للرصاص، شطرت الرّشاشة جسده
إلى قسمين، من منطقة الحزام. أُلقي القبض على ألييو وأُخذَ إلى السجن لا
نعرف أين. تيتاو باسوس؟ آه، طارده بعض الجنود، فاضطرَّ للفرار إلى باهيا،

وطلب حماية العقيد هوراسيو دي ماتوس. كان جواو غوانيا هو الناجي الوحيد. قاد كتيبة الجنود القلائل الذين نجوا. لم تنقصه شجاعة ولا ذخيرة. - وماذا عن الخائنين؟ - سألته وأنا أقوم بذلك التفكير الحزين: لماذا لا يتركنا الجنود وشأننا؟ - يُقال إنهم يحظون بالحماية... - أوضح لي جواو غوانيا؛ «عقد هِرموجينيس ميثاقًا. وصار الشيطان في خدمته...» لقد آمنوا جميعًا بهذا الأمر. ونظرًا للخوف الناتج عن ضِعفي، والقوة المتولدة عن حقدِي، اعتقدُ أنني كنتُ أول من آمنَ بذلك. مكتبة سُر من قرأ

كما قال جواو غوانيا كذلك إنه يجب علينا أن نسرع. لأنه يعلم أن الخائنين قرَّرا أن يعبرا النهر في مكانين، مع التعزيزات، وسيزحفان على ميديرو فاش كي يصفيا حسابهما النهائي معه هناك، من حيث أتينا. هناك حيث الخطر، كان ميديرو فاش بحاجة إلينا.

لكننا، لم نتمكن من الالتحاق به. بمجرد انطلاقنا نحو شلالات سالتو، وجدنا أنفسنا وجهًا لوجهٍ أمام مجموعة من الجنود تحت قيادة الملازم بُلينيو. أطلقوا علينا النار. هربنا. في جاكارا غراندي، كانت هناك طلقات أخرى - الملازم روسالفو. في جاتوبا توزتو، طلقات أخرى - الرقيب ليساندرو. سرنا في حلقة مفرغة. شعرتُ لحظتذاك بأنني أقل حظًا من برغوث بين إصبعين. في أعماق ذاتي، لم أكن أشجعَ الشجعان، ولم أكن ما نسميه جبانًا. كنتُ رجلًا مثل أي رجلٍ آخر. في الحقيقة، وجدتُ أنني لم أكن أصلح لذلك الأمر، أن أكون جاغونسو طوال الوقت لم يكن أمرًا يثيرني. كيف يستطيع المرء أن يقوم بشيءٍ لم يُخلَق لأجله؟ يمكن أن يحدث أي شيء. اعتقدُ، اعتقدُ، حسب ما يتلقاه من تأثير، وحسب الأوقات. تمامًا كما أن هناك وقتًا للعبور، الفصول، شهور الجفاف وشهور المطر. حقًا؟ تجربة الآخرين كانت مثل تجربتي، دون أن يفكرُوا بدورهم في الأمر ودون أن يشعروا به. وإلا، كيف نثبت وجود

هذه الأبيات المكتوبة التي كنا نتغنى بها طوال حيواتنا، نرسم شريط رحلاتنا عبر الطرق، وثُمَّ فرحٌ زائفٌ في قلوبنا:

أُولِي، أُولِي، يا فتاة باهيًا...

كنتُ أذهبُ ولم أعد أفعلُ:

أنا ذاهبٌ

إلى الأعماق، يا فتاة باهيًا!

وعند منتصف الطريق، أعود أدراجي ... -؟

جَواوُ غَوَانِيَا، رجلٌ شجاعٌ وحقيقيٌّ، لم يكن بحاجة ليتباهى بنفسه. كان شخصًا مخلصًا ومقدامًا. قال لي: - الآن، لا نعرف ماذا سنصير... بالنسبة لحرب مهمة، أعتقد أنه لم يكن هناك من شخصٍ قادر غير جوكا راميرو... - آه، لكن جَواوُ غَوَانِيَا كان يملك أوراقا مهمة في جعبته. رجلٌ مُدهش. رغم أنه أُمِّي، كان يفاجئنا ويأتينا أحيانًا، لا أدري من أين، بأفكار صغيرة فظيعة، بطرق مختلفة للموت. هكذا، كنا نجرب أمورًا مختلفة، ونحن نتظاهر بالهرب. وكانت هضابٌ عليًا أيضًا هنالك. منحدرات وعرة، شعاب عميقة. اللّعنة! تُرميدايس، هل رأيَتها؟ الأرضُ هناك صلبة قاحلة، ومن الطبيعي أن تخدع المرء؛ من لا يعرف البقية، يأتي، يطاء، يتقدم، جنود يركبون الخيل، فرسان. وعلى حين غِرَّة، وهم وسط ذلك تقريبًا، تنشقُّ الأرض وتنقسم، تزجر وترتعش منزلة كأنها صفار بيضٍ في مقلاة. يا للهول! لأنه تحت قشرة جافة، هناك قشرة بيئيةٌ مختفية بعناية، مستنقع هائل يتلع كل شيء... حسنًا، أمرنا جَواوُ غَوَانِيَا أن نختبئ حول تلك المصيدة - ثلاث مجموعات من الرجال - ننصبُ فخًا للعدو. مع طلوع الفجر، خرج جنود ليباندرُو أولًا، لأنهم كانوا قلة ودفعوا أجرَ دليلٍ ليربهم الطريق الصَّلْب. لكننا تسرَّعنا وفرَّقنا بسرعة أغصان الأشجار التي

وضعوها لإخبار الآخرين... لأنه بعد ذلك، جاء رجال الملازم. أيها الملازم، أيها الملازم، إن كنت تصرُّ على ذلك فإنهم سيذهبون مباشرة إلى هناك، آه! قام البعض منّا، هناك، بإطلاق النار للرّد. من أجل الخداع! توتّرت خيول الجنود. أيتها العذراء، فجأةً، اهتزت قشرة الأرض ثم انشقت وانفتحت على شكل صليب عدة أمتار - انتفخت. انقلبت الخيول - كأن رفوفًا من الأواني سقطت ملء الأرض - فصاح الجنود وراحوا يعانقون الحيوانات المتهاوية يتشبثون بأفواهها أو يلوحون في الهواء بمسدساتهم كيفما اتفق. لكنهم كانوا يغوصون ويدهس بعضهم بعضًا، إلى أن يخنقوا نهائيًا... ونحن، إن شئنا، ننظر، نساعد، نهوي أكثر. الأشياء الكثيرة التي رأيتُ، رأيتُ، رأيتُ. أوه! لم أطلق نارًا. لم أجد ذراعًا لذلك. ربما شعرتُ بالشفقة.

منذ ذلك الوقت، تكالبوا علينا، متعطّشين للانتقام. في الحقول والغابات، في الشّعاب والوديان، في كلّ مكانٍ، لم يكن هناك غير الجنود، أعداد كبيرة منهم، تزداد وتتكاثر. فورادو دو ميو، سيرّا دو ديوس مي ليفري، باساجين دا ليمييرا، شابّادا دو كوفاو. مات سولون نيلسون. مات أرذوينينو، مات فيغيرو، باتاتاروشا، دافيد مانيوزو، كاميلو، كلانجي، ديو فيديو، بيسكوزو وبريتو، توكين، سوسيفري، إليزيانو، بيدرو بيزناردو - أظنّ أنهم كانوا هؤلاء، هؤلاء، كلّهم. شابّادا دو سوميدرو، كورّيجو دو بولندرو. ومات ستة آخرون. أصحّح: بالإضافة إلى من سُجنوا، الذين يُقال إنهم قُتلوا! جُننًا. كانت باهياً محاصرةً من الأبواب. كان أيُّ جبانٍ يسكن هناك يفتعل سببًا ليتنقم منا. آه، أحيانًا، كانوا يدفعون الثمن غاليًا. جيراي دابيدرا. هناك، افترق عنّا إليوتيزيو، وابتعد مسافة مئة باع، ليذهب مشيًا على قدميه ويطرق باب كوخ كي يستعلم. خرج البدوي، مدّه بمعلومة ما، خاطئة عن قصد. شكره إليوتيزيو، رجع أدراجه، ابتعد بضع خطوات. لحظتها، نادى

عليه البدوي. عاد إليوتيزيو ليرى ما هناك، فتلقى في وجهه وفي صدره شحنة من الحديد الرقيق. تعثّر، ودار في مكانه مُصابًا بالعمى، يحرك ساعديه بقوة، ينشر بقعا حمراء تكبرُ من حوله. انتفش شعره. كان الجنود يطلقون النار من مخابئهم في ضفة النهر الأخرى؛ على حافة الأدغال. اختبأ البدوي وراء فرن الخبز - ومن هناك راح يطلق النار بواسطة بندقية - وكانت رصاصاتنا تثير التراب من حوله، فيبدو كأنه كلبٌ يحكُّ جلده. بقيَ أيضًا جنود آخرون داخل الكوخ؛ لا بدّ أنهم أسلموا أرواحهم للرّب. جاء أتاليا يحمل مُدِيّةً كبيرة، مسمّر البدويّ على حائط، في الخارج، فمات بهدوء كأنها هو قديس. ظلّ هناك، مُسفدًا. أما نحن، أوه! حسنًا، نجحنا في الابتعاد حتى بلغنا مكانًا شعرنا فيه بالأمان ورحنا نتحدث.

سيرًا إسكورا. لم تبقَ لنا ذخيرةٌ ولا طعام. كان علينا أن نفترق، يذهب كل واحدٍ إلى حال سبيله، ويتدبر أمره ويجد لنفسه مخرجًا. تفرّق رجال جَواوْ غَوانيا. ذهب كل واحدٍ إلى حال سبيله: من نجا عليه أن يقطعَ النهر مرة أخرى ليلتحقَ بالجمع عند ملتقى فيريدا ساكو دوس بويس مع ريبيراو سانتا في. أو أن يتوجه مباشرة إلى المكان الذي قد يوجد فيه ميديرو فاش. أو، في حالة ما إذا كان العدوُّ يحوم قريبًا من هناك، إلى بوريتي دا فيدا، ساو سيماء دو با، أو بعيدًا نحو عالية النهر، هناك حيث يمكن استعمال نهر ريبيراو غادو برافو. وهذا ما أمرَ به جَواوْ غَوانيا. السُرعة هي السُرعة. كان الهواء في الرّيف بكامله يفوح برائحة البارود والجنود. أمامي، جاغونسو عجوز ضخم البنية، كونيّا برانكو، لا ينتهي من ربط حزام سترته: كان لسانه يطفو داخل فمه الأخضر. والخوفُ، خوفي أنا، صار أكبر وأعظم. ودّع بعضنا بعضًا. انزلقتُ دون وجهة محدّدة، وسرتُ، يتبعني سيسفريدو، سِرنا. بعون الرّب، خرجنا من دائرة الخطر. وصلنا إلى كورّيجو دو كانسانسو، غير بعيد

عن أراسواي. لفترة من الوقت، كنا بحاجة لممارسة عمل معترف به، لأن كل شيء ممكن في هذه الحياة. تركنا أسلحتنا وجزءًا من ملابسنا مخبأة في مكان آمن. وهناك، تفاهمنا مع عمال ذلك الدكتور الذي يشتغل في استخراج المناجم، والذي حدثتكَ عنه سابقًا، يا سيدي.

لماذا لم نبقَ هناك؟ أعرفُ ولا أعرفُ. كان سيسفريدو ينتظر أن تصدر عني كل القرارات. هل يكون إحساسًا بالذنب، بأنه لم يلتزم بالتعاليم، وهرب من الخدمة؟ لا، أرى أنه لا، فأستبعد ذلك. حين نكون مع شخص آخر، من السهل جدًا أن نخدع أنفسنا، وفكرة الخيانة لا تثير الشعور بالذنب، كما لا تفعل ذلك أيُّ جريمة، مهما كانت طبيعتها: نُعيِّرُ الجلد كما يفعل الرجلُ الذئبُ. إلَّا أنه، مع مَنْ تَبَقَّى مِنَ الرفاق، نعود لإثارة الموضوع المُشين؛ أجل، رائحة الزنخ الناتجة عن فقدان السمعة بعد أن يصبح المرء جبانًا. لكني كنتُ أستطيع أن أفكر في الامتيازات، أحاول أن ألتحق بإقامة سيلوريكو مينديس، وأطالب بما أستحقُّه من معاملة في فازيندا ساو غريغوريو. قد يخشونَ ذلك! أو أستطيع كذلك، كما كنتُ أفعل سابقًا، أن أحضر، بسبب أوتاسيليا، إلى بوريتيس ألتوس - وأستمرُّ في مغاللتها. رفضتُ ذلك. هل كنتُ أعاني من الحنين إلى ذيادوريم؟ بشكلٍ أقل، أستطيع القول. أو ربَّما، لا شيء تمامًا: ليس أكثر مما تحن السماء والغيوم هناك في الأعالي إلى الخطَّاف الذي مرَّ للتو. أظن أنه كان، بالأحرى، الفضول، تلك النزعة التي تستعيد شبابها في نفسي: كنت أرغب كثيرًا في أن أكون هناك، أمتزجُ برجال ميديرو فاش، وأرى ما تؤوُلُ إليه الأمور. في شهر آب، يجود البوريتي بالنبيذ... لم تكن أراسواي أرضًا أملكها... الحياة إهمالٌ عنيد. هناك، كانت الليالي تفسد بسبب المطر، والطَّقس السيء. لم أعد أتحمل --- هل نرحل؟ حانَ الوقت... - قلتُ لسيسفريدو - «نرحل، كيف!» - أجبني سيسفريدو.

آه! نعم ولا، يجب أن أتوقف، إنني أزيّف الأشياء، أو هكذا. كنتُ على وشك أن أنسى: فوبيّس! لا أقول ما أقول إن لم أوف فوبيّس حقّه - الذي يستحقّه وأكثر. كان فوبيّس هذا أجنبيّاً، ألمانيّاً، أتعرفُ، يا سيدي: سحنة صافية، بنية قوية، عيان زرقاوان، قامة طويلة، أسديّ، وأشقر - شخص حقيقيّ فعلاً. شخص طيب. رجل منهجي، سليم، في حدود مَرَح معتدل. حسنّاً، وسط كل البلبلة السياسية وما يسود من صراعات، كان ينأى بنفسه جانباً؛ يسافر مرفوع الرأس، ينشغل بممارسة مهنته في السّرّتاو - كان يحمل ويبيع للمزارعين كل شيء: محاريث، معاول، مقشّرات الذرة، سكاكين، أدوات أنيقة جيدة وأخرى أقل جودة، دواء النمل، الزرنخ ومُطهرات أخرى؛ بل كان يبيع أيضاً طواحين هواء لجلب الماء من الآبار، ويتكفّل بتشغيلها. كان يتميز بطريقته الخاصة في التعامل، حتى أن الجميع يَكُونُ له الاحترام. يُقال إنه ما زال حيّاً، يعيش حياةً رغيدة في العاصمة - وأنه يملك هناك محلاً، تجارةً مربحة يكسب منها مالاً كثيراً. آه، هل عرفته، يا سيدي؟ هذا العالم قرية صغيرة! وكيف تنطق اسمه بالضبط؟ وُوسْب. هكذا. السيد إميليو وُوسْب... وُوسبيّس... وُوسبيّس. حسنّاً، ظهر فوبيّس هذا، وتعرّفني على الفور، بما أنه رأي في كورّالينيو. تعرّفني على طريقته، البطيئة، الدّقيقة. رجلٌ يحب الدّقة! نظرَ إليّ وقال: - سعيدٌ لرؤيتك من جديد. هل أنت بخير؟ سعيد لرؤيتك من جديد... - أعجبتني هذه الطريقة في التّحية. شيء مفرح أن نلتقي من جديد بواحد من قدامى المعارف - حسب الشخص، نضحك، نُخبي أشياء قديمة، ولكننا على ما يبدو ننتقي فقط المثير منها، تلك التي كانت جميلة وممتعة. كان الألماني فوبيّس أمامي، فتذكّرتُ تلكم الفتاتين - ميوزوتيس وروزوزدّة - اللّتين كانتا لي عشيقتين في كورّالينيو. - سعيد بدوري، سعيد لرؤيتك مرة أخرى، سيد فوبيّس. كيف

أحوالك، أنت أيضًا؟ - أجبته بطريقة مؤدّبة. كان يدخن السيجار. تابع: - أعرف أنك رجل شجاع، شجاع جدًا... أنا بحاجة لرجل مثلك، شجاع مثلك، يسافر معي، لمدة خمسة عشر يومًا، السّرتاؤ جدّ مضطرب الآن، هناك أناس أشرار، وكل شيء... - وأنا أستمع إليه، لم أستطع أن أتمالك نفسي، فضحكت، وضحكت، ولكنني ضحكت...

شعرت أنني مهمّ جدًا، فخور بمهنتي. آه، يا لعادات الجاغونسو الجميلة! هذه هي الحياة الجيدة، حياة يكون لنا فيها اعتبار. وهو يعيش حياة كهذه، لا يرى الجاغونسو شيئًا، لا يلاحظ شيئًا، لا يلاحظ كل الفقر من حوله، وأحوال الناس في مواجهة الصعاب والإحباط. الفقير محكوم بحُبّ حزين للنزاهة. إنها أشجار يتراكم فوقها الغبار. كان يحدث لنا أحيانًا أن نخرج بمئتي رفيق فوق الخيل، في ضجّة من الموسيقى، لكثرة ما كنا نحمل من سلاح - وفي الطريق، خرج لنا رجل نحيف، أصفر الوجه، من جحره، واقترّب منارث الثياب، يتلعّ خوفه، وقطعة يغطيها لون أخضر رمادي في راحة يده: أرادَ الرجل شراء القليل من الطعام. كان متزوّجًا، وربّ أسرة تتصوّر جوعًا. أشياء من دون غدٍ... فكّرتُ، سألتُ: - أي وجهة تقصدُ؟ - فأجاب فوييس: - أنا، أمشي في خطّ مستقيم، نحو ساؤ فرانسيسكو. أذهب بقوة - لم يقم بأي حركة وهو يتكلّم، بل لم يحرك طرف إصبع. كانت تلك هي وجهتي بالفعل - قبلتُ - القدر! وحينئذٍ، تحدثتُ مع سيسفريدو، الذي قبل بدوره. لم يكن سيسفريدو شخصًا مدّعيًا، لم يكن له قطُّ أي رأي خاص به.

لكن الطرق لم تكن لها نهاية. قادنا السيد فوييس، دون مشاكل ولا أحداث مفاجئة، عبر تلك البقاع في غراؤ موغول، بُريجو داس ألماس وبرازيليا^(١).

(١) ليست هي العاصمة الحالية للبرازيل، بل مدينة أخرى صغيرة بنفس الاسم تقع شمال ولاية ميناس جيرائيس. (المترجم)

بفضل الرَّب، تعلمتُ منه الكثير. كان فوبيسُ رجلاً دقيقاً، يحافظ على برودة دمه في كلِّ الظروف. تصوّر، يا سيدي: حين يبدو أننا لا نملك ما نأكل، كان يلتقط شيئاً من هنا وشيئاً آخر من هناك، وشيئاً مختلفاً من هنالك - حبة توت، بعض البيض، عيدان نبات الخيزران، بعض الأعشاب - وبعد ذلك، حين نصل إلى بيت أحسن حالاً، يطلب، بعد دفع الحساب كاملاً، وجبة عشاء أو غداء، تتألّف من عدة أطباق، ترفُّ ما بعده ترف، ثم يوضح طريقة تحضير يخنة الأرنب، فيصير كل شيء طبقاً من أطباق الملوك. كما أقول لك، هناك في قلب السَّرتاو، كان يحيط نفسه بالرَّاحة، وبكل ما يحتاج إليه. كان يخبرُ ذلك! افترقنا عن نهاية الرحلة، لكنني كنتُ أعتني به جيّداً، هو الذي أظهر لي ثقته بي.

وصلنا إلى النهر وعبرنا إلى الضفة الأخرى. هناك، بعد كل هذا الوقت، عاودني الحنينُ إلى ذيادوريم، بعد وقتٍ طويل. كنتُ أتوقُّ لأصل، أصِل، وأكون قريباً منه. الحصانُ الذي يحبُّ صاحبه يتنفس بطريقته تقريباً. كان القمر جميلاً، كان جميلاً جدّاً هناك في السَّماء، يبرز مرة أخرى من بين الغيوم، مستديرًا ومقطعًا. سرنا بمحاذاة نهر أوروكويّا. أوروكويّا هو نهر حُبّي. الهضبةُ حيث تخور كثير من الثيران. ثم الأراضي العُليا والمروج المخضرة. هناك يصيخُ راعي البقر وراء قطعانه الضّالة. ريحٌ تسوّطُ، تثير الحركة، في موسم الأمطار العائدة، فيزجرُ الرعدُ. يسوقُ الرُّعاة القطعانَ. الحيوانات تنخر متوترة. أكثر الأخبار تتعلّق بشرذمة الخائنين، وهذه الحثالة تزداد يوماً عن يوم! سألتهم: - كم عددهم؟ هل هم كثير؟ - أعدادُ كبيرة! مملكة بكاملها... - أجابني الرُّعاة.

لكن ميديرو فاش، ورجالنا، لم نجدهم، ولم يعلم أحدٌ عنهم شيئاً. كنّا نسير كأننا نمشي نحو آخر الدنيا. نمشي هائمين. تمامًا مثلك أنت، يا

سيدي، وأنت تريد أن تلتقط أمورا فوريّة، وتقرب من الطبيعة. إنني أفهم مثل هذه الأمور. وجدنا أنفسنا في عمق أحد الوديان، مكان منعزل بين نهر غارابا ونهر جيبيوّا. وهناك توجد ثلاث بحيرات في بحيرة واحدة، لها أربعة ألوان: يقال إن مياهها مسمومة. بَمَ يفيدني ذلك؟ ماء، مياه. سوف ترى نهرًا صغيرًا يصبُّ في نهر كانابرافا - الذي يصبُّ في نهر تابوكا، الذي يصبُّ في نهر باراكاتو. حسنًا، مياه هذا النهر كلها مِلْحٌ، مياه كثيفة ومالحة، تصير زرقاء بسبب ذلك: من يعرف المكان يقول إنه من البحر، لأنها تشبه مياه البحر تمامًا، حتى الثيران لا تحبُّ أن تشربها. حسنًا، إنني أقول لك كل هذا لأن كثيرًا من الأنهار والخلجان هناك تحمل نفس الاسم. حين لا نعرف، نرتبك، ونتوتّر. «بريتو»، مثلاً، كم من نهر يحمل هذا الاسم أغرقت يدي فيه، عشرات الأنهار. و«فيردي»، العشرات. «باكاري»، حوالي خمسة. وكثيرٌ من «بونتي». وتلك التي تحمل اسم «فاكا» أو «بوي» فمنها الكثير أيضًا. وسبعة تحمل اسم «فورموزو». أما تلك التي تسمى «ساوبيدرو»، «تامبوريل»، و«سانتا كاتارينا» فكثيرة جدًا. السّرّتاو أرضٌ بحجم العالم.

الآن، هنا، يا سيدي، كما رأيت، ثمة فقط نهر ساو فرانسيסקو، نهر دو شيكو. أما البقية، فجداول، خلجان. إنني أتذكّر الآن: هناك، على ضفة نهر إنترى ريبيروس، سوف ترى فازيندا قديمة تتوفّر على قاعة بحجم بيت، تقع في الأسفل، في مخبأ تحت الأرض - هناك عذبوا كثيرًا من العبيد والناس، حتى كادوا يقتلونهم على نارٍ هادئة... - لكن، يجب أن أقول لك، لكيلا أكذب: لا أصدّق شيئًا من ذلك. كان المخبأ مكانًا لإخفاء الذهب، الكنز، الأسلحة، الذخيرة والنقود المزورة، هذا ممكن. يجب أن تكون على بينة من الأمر: الناس هنا يحبون الانسياق وراء الحماقات، و«يجعلون من الحبة قبة».

حُبًّا في التشوُّش، يَخْتَلِقُونَ وَيَتَكْرَهُونَ الْعَجَبَ الْعُجَابَ الَّذِي يَعُودُ عَلَيْهِمْ
بِالْمَجْدِ، ثُمَّ سِرْعَانِ مَا يَخْشَوْنَ ذَلِكَ أَوْ يَصْدُقُونَهُ فِي نِهَآةِ الْمَطَافِ. يَبْدُو أَنَّ كُلَّ
النَّاسِ بِحَآجَةٍ لِهَذَا الْأَمْرِ. أَعْتَقَدُ ذَلِكَ.

لِذَلِكَ، اسْمَعْ: هُنَاكَ مُسْتَنْقَعٌ، مِنْ تِلْكَ الْمُسْتَنْقَعَاتِ الْمُسْوُومَةِ، بِمَحَاذَاةِ
نَهْرِ رِيَّاشُو سِيزِلَا، غَرَقَ فِيهِ قَطِيعٌ مِنَ الْأَبْقَارِ بِكَامِلِهِ وَهُنَاكَ تَعْفُنُ. بَعْدَ ذَلِكَ،
فِي بَعْضِ اللَّيَالِي، رَأَوْا هُنَاكَ، تَطْفُو عَلَى السَّطْحِ، وَالرِّيحُ تَعْبَثُ بِهَا، قَطَعَ لَهَبٌ
صَغِيرَةٌ زُرْقَاءَ، لَهَبٌ مُسْتَنْقَعَاتٍ، وَهَجَّ سَاطِعٌ. وَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ بَعْضُ النَّاسِ
الَّذِينَ لَا عِلْمَ لَهُمْ بِالْأَمْرِ، جَنُّوا وَهَرَعُوا هَارِبِينَ. حَسَنًا، هَذِهِ الْقِصَّةُ انْتَشَرَتْ
وَجَالَتْ أَكْثَرَ مِمَّا سَافَرْنَا أَنْتَ وَأَنَا، مِنْ دُونِ شَكٍّ، وَكَانَ النَّاسُ يَقُولُونَ إِنَّ
ذَلِكَ كَانَ أَمَارَةً عِقَابٍ: أَنَّ الْعَالَمَ سَيَنْتَهِي فِي ذَلِكَ الْمَكَانِ، لِأَنَّهُ، قَدِيمًا، أُخْصِيَ
كَاهِنٌ فِي تِلْكَ الْمَنْطِقَةِ، عَلَى بُعْدِ عَشْرِينَ فَرَسَخًا مِنْ هُنَاكَ، بِسَبَبِ أَنَّهُ لَمْ يُوَافِقْ
عَلَى تَزْوِيجِ ابْنِ مِنْ أُمِّهِ. بَلْ إِنَّهُمْ نَظَّمُوا حَوْلَ ذَلِكَ أَغَانِيًا، مِثْلَ أَغْنِيَةِ «النَّارِ
الزُّرْقَاءِ لِنِهَآةِ الْعَالَمِ»، إِلَيْهِ؟

وَالْيَوْمَ، هُنَاكَ الْمَشْنَقَةُ، رَأَيْتُهَا - مَشْنَقَةُ عَصْرِيَّةٍ، مَقْصَبَةٌ، مَرْتَفَعَةٌ جَيِّدًا،
مَنْحَوْتَةٌ فِي خَشَبِ بُنْيٍ جَمِيلٍ، رَفِيعٍ: خَشَبٌ مِنْ نَوْعِ سَوَكُوبِيرَا. شَيَّدُوهَا فِي
مَكَانٍ مَرْتَفِعٍ، بَعْدَ سَاوٍ سِيَاوٍ دَوْبَا، قَرَبِ الضَّفَةِ الْيَمْنَى مِنْ نَهْرِ بُرِيَّيْتِينْغَا.
مَشْنَقَةُ غَرِيبَةٍ لَشَنْقِ النَّاسِ، شَيَّدُوهَا هُنَاكَ عَنْ قَصْدٍ، خَاصَّةً وَأَنَّهُمْ لَا يَتَوَفَّرُونَ
عَلَى سَجْنٍ يَضْعُونَ فِيهِ الْمَجْرِمَ أَثْنَآءَ السَّفَرِ، لِأَنَّ ذَلِكَ كَانَ أَمْرًا مَعْقَدًا، قَدْ
يَصْرِفُ النَّاسَ عَنْ أَعْمَالِهِمْ. لِذَلِكَ، كَانُوا يَسْتَعْمِلُونَهَا فِي ذَلِكَ الْمَكَانِ. بَلْ
كَانُوا، أَحْيَانًا، يَأْتُونَ بِالْمَحْكُومِ عَلَى صَهْوَةِ جَوَادٍ مِنَ النَّوَاحِي الْمَجَاوِرَةِ،
إِلَى الْمَشْنَقَةِ الْعُمُومِيَّةِ. يَبْدُو أَنَّ شَخْصًا بَائِسًا جَاءَ وَاسْتَقَرَّ تَحْتَهَا تَحْدِيدًا، وَكَانَ
يَتَلَقَّى صَدَقَةً عَنْ كُلِّ حَالَةٍ شَنْقٍ، إِذْ سِرْعَانِ مَا يُخْفَرُ قَبْرًا لِلْمَشْنُوقِ وَيُدْفَنُهُ فِي
قَبْرِ يُخْفَرُهُ فِي عَيْنِ الْمَكَانِ، ثُمَّ يَضَعُ عَلَيْهِ صَلِيبيًا. لَا شَيْءَ غَيْرَ هَذَا.

لكن الأمور لم تجرِ هكذا يوم قام رجلٌ يدعى رُودوجيُرو دي فرييتاس، من أهل فرييتاس الشُّقر أولئك، وأعطى أوامرَ خاصة لأحد أبنائه بأن يذهب ويقتل الآخر، أن يذهب ويبحث عن ابنه الآخر الذي سرق معروض القُربان المقدَّس من الذهب في كنيسة الدَّير. لكن، بدل تنفيذ ما أُمِرَ به، تواطأ الأخ مع شقيقه، وجاء الاثنان معًا، وكان المقتول هو والدهما العجوز، الذي أجهزا عليه معًا بضربات منجل موزعة بكل عناية. لكنهما، قبل ذلك، زَيَّنَا المنجلين بخيوط جميلة وأزهار مختلفة. ثم رفعنا جثة والدهما فوق البيت - بيت جميل، بالقرميد، أحسن بيت في المنطقة. ثم جمعا القطيع، وذهبا لبيعه بعيدًا. لكن، سرعان ما أُلقي عليهما القبض. ساعدنا في إلقاء القبض عليهما. وصارا سجينين لدينا، بطريقةٍ ما. حكمنا عليهما. لو كان ميديرو فاش لأرسلهما ليُشنقا فورًا في تلك المشنقة المنطقية جدًّا. لكنَّ قائدنا، وقتئذٍ - كما يجب أن تعرف يا سيدي - كان هو زي ببيلو.

مع زي ببيلو، كان مجرى الأحداث ينبعُ متقلِّبًا، مختلفًا، حسب الظروف والأحوال. كان يحسن الكلام - عجبًا! لماذا زَيَّنتُما المنجلين عن قصدٍ وسبق إصرار؟ - سألهما. قال الشقيقان إنها تصرَّفَا كذلك تكرِّيًا لسيدتنا العذراء، كي تصفح لهما مسبقًا عن الخطيئة التي سيقترفانها، والتي اقترفاها بكل سرعة. من طريقة زي ببيلو وما علا وجهه من إشارات لا تشي بأي عبوس ولا تجايد على الجبين، أدركتُ بسرعة أنه كان يموت ضحكًا في دواخله. وقال حرفيًّا: - سيدتنا العذراء المقدسة - فخلع كل الرجال قبعاتهم احترامًا. - حسنًا، لا أعرف إن كانت العذراء تصفح أو لا تصفح. ولكني أصفح باسمها، هي أطهر الطاهرات، سيدتُنا! - قرَّرَ زي ببيلو. - ألم يكن الأب ينوي القتل؟ إذن، هو قد مات - النتيجة واحدة. إنني أبرؤُكم! لدي الشرف لتلخيص ظروف هذا القرار، من دون استثناء ولا إلغاء، بطريقة قانونية،

كما يجب!... - كما قال أيضًا زي ببيلو، معلقًا: - إنَّ الصّفح دائماً هو الشّيء العادل والصّحيح... - وهلمّ جرا. لكن، بما أنَّ الشّقيقتين استحقّتا عقوبة مع ذلك، فقد حُجز على قطيعهما السمين، الذي أعدنا بيعه دون انتظار، وملأنا جيوبنا بهالٍ كثير. من هذا الحدث أيضًا بقيت أغنية جميلة يؤدونها على نغمات القيثارة. لكن، أشهدُ أنَّ زي ببيلو حسمَ بتلك الطريقة في ذلك الظرف فقط، من باب اللياقة. عادةً، حين نصادف قطيعاً منتجعاً، لا يستخلصُ ضريبةً إلّا على رأسٍ واحد أو رأسين، من أجل قوتنا اليومي. كان يؤكّد على أنه يجب احترام عمل الآخرين، وأنه ينبغي تشجيع النظام والمثابرة في هذا السّرتاؤ الحزين.

زي ببيلو - آه، إن لم تكن قد عرفت هذا الرجل، يا سيدي، فإنّك قد فوّتتَ على نفسك فرصة التّحقّق مما تجود به الطبيعة من عقول رائعة، من حين لآخر، وبشكلٍ نادر. أراد هذا الرجل معرفة كل شيء، وأن يتوفّر على كل شيء، وأن يستطيعَ تغيير كل شيء. لا ينزِعُ إلى الراحة. لا بدّ أنه ولّد كذلك، مخبولاً بعض الشيء، مستديرًا، مخلوقًا مشوّشًا. يتشدّق بأنه أنزه الناس، أكثرهم جحيمًا، غير متوقع، حسب الظروف. كانت له نبرة فيما يقول، في طريقة كلامه، طريقة فيها سلطة، مختلفة، لكنها سلطة سريعة جدًّا. رأيته يومًا يتقدّم أعزل نحو لليونُسيو دُو، الذي أبعد الجميع من حوله وراح يلوّح بمُدية كبيرة. وكيف كان يصيح: - تريد الدم؟ حذارِ أيها الوغد، سوف أشقّك نصفين! - وأمام ذلك، قرّر لليونُسيو دُو، فترك المُدية لتسقط من يده، واستسلم. هل تسمعي، يا سيدي، وتتابع ما أقول؟ كان زي ببيلو ذكيًا وشجاعًا. إنَّ الرجل ينجح دومًا في أن يوهم الآخرين بكل شيء، لكنه لا يستطيع ذلك إذا تعلق الأمر بالذكاء والشجاعة. وكان زي ببيلو يثير انتباه الناس بنظرة واحدة. ذات يوم، جاءنا رجل فظٌّ من زاغايا، يحمل توصيةً من

جهة نافذة: - إِنَّ ظَلْكَ يُوْذِنِي، أيتها الشجرة الشائكة! - قال وهو يحياه. ثم أمر بربط الرجل وأشبعه ضربًا. وبالفعل، اعترف الرجل أنه جاء في مهمة سرّية، من أجل الخيانة. وجّه زي ببيلو مسدسه نحو شعر الرجل المجدد فوق رأسه. سُمع انفجارٌ مدوّ وتطايرت قطعُ المخّ شظايا بعيدًا وقريبًا من هناك لزجةٌ تتلاصق. مُدَّاك، بدأنا نغني أغنية «طريقة الثور».

في الحياة العادية، كان زي ببيلو يمارس الصيد، والقنص، ويرقص رقصاتنا، يبتُّ فينا الحماس، يبحث في كلّ صغيرة وكبيرة، يقبض على الحيوانات بالوَهَقِ أو ينخزها بالمنخس، يعزف على القيثارة، يصفرّ بفمه أحيانًا؛ الشيء الوحيد الذي لم يكن يفعله هو أنه لا يلعبُ الورق ولا يمارس لعبة الكعب - يُفصح عن مخاوفه، يخاف من السقوط في الرذيلة ومخاطر القمار. كان، لأي سبب بسيط، يتحمّس لأدنى شيء: إن أمطرت، امتدَح المطر؛ وبعد ذلك بدقيقة، سيثني على الشمس. أحبّ إسداء النصيحة خارج السياق، كيف اتفق. اعتبرَ نفسه مسؤولًا عن تقدم الجميع - عن تقدم البرازيل وتقدم كلّ الأقاليم - فتحدّث لساعات، وساعات. - لقد عدتُ نهائيًا! - قال لنا عندما رجع من غويّاس. كان الماضي، بالنسبة إليه زمنًا مُنقضيًا بالفعل، ولا يُحتسب. لم يُظهر قطُّ الجانبَ الضعيف في شخصه، ولا أي جزء ضئيلٍ منه. قطُّ. ذات مرة، وجد نفسه يركض في طريق جديد تمامًا، فصاح بكل جدٍّ: - عجبًا، هذه الجبال تُغيّرُ مواضعها أحيانًا!... - ولكنه في الحقيقة تاه، وضلَّ الطريق، هههه. معه، حتى أفضعُ ما في الحرب كان ينطوي على شيءٍ من المرح، وينسج نصيبه من التسلية. بعد الانتهاء من أي معركة، كان يخرج راكضًا ممتطيًا حصانه، والمسدس لا يزال في يده، يطارد كل من وجده في طريقه، صائحًا: - يحيا القانون! يحيا القانون!... - ثم يحدث فرقة! أو يصيح: - سلام! سلام! - ثم يطلق رصاصةً أو اثنتين. عن أي شيء كان يتحدث؟ عن

أيّ قانون وعن أي قيم؟ هل يعرف أحدٌ ذلك؟ باختصار، اكتسب سمعةً ذاعَ صيتها في كل مكان. أعطيك مثلاً على ذلك: ذات يوم، خرج على صهوة حصانه راكضاً، فلمحه فلاحٌ وشعر بالخوف، فجثا على ركبتيه في الطريق متوسلاً: - لا تطبق عليّ «يحيا القانون»، زي ببيلو، أرجوك - فألقى زي ببيلو بقطعة نقدية على ذلك المسكين؛ ثم صاح في وجهه: - اركب، هيا، يا أخي! - ثم جاء به ليقسّم معنا العشاء. نعم، كان هكذا. كان رجلاً. بالنسبة لزي ببيلو، أحسنُ ذكرياتي عنه تكون دائماً دافئةً حيةً. يا صديقي، لقد كان واحداً من الأشخاص الذين افتخرتُ بهم وقدّرتهم كثيراً في هذه الحياة.

لكن، لنعد إلى ما كنتُ أقول، وأنهي حكايتي. ذلك أننا، من روابٍ إلى تلال، ومن جبالٍ إلى وديان، ومن رمالٍ إلى هضاب، وصلنا إلى ماركا فاو، أنا وسيسفريدو. قبل وصولنا بقليل، تلبّدت السماء بالغيوم وهدد المطرُ بالنزول. مطرٌ يقلع الأخشاب من جذورها، سيل جارف. رأيناه طوفاناً يأكلُ الأرض أكلاً. من يقيس هذا المطر المفرط ويضبط وزنه؟ انتفخت الأنهار. ترجّلنا عن خيولنا في ماركا فاو، على ضفة نهر سونو. مات ميديرو فاش، في تلك الأرض المنسية. وصلنا في الوقت المناسب.

حين التحقنا بالجماعة، في ذلك المكان، وميديرو فاش في أسوأ أحواله، ربما كان ذلك هو السبب الذي جعل الفرح لم يظهر، ولم يعانقني ذبادوريم، بل لم يُبدِ مسرةً لعودتي. بقيتُ صادقاً. تملّكنا الحزنُ والترقُّب المشؤوم. - ما بقي هو الأفطع: العدوُّ هنا، مختبئٌ، قريباً جداً... - قال لي ألاريبي. هطل مطرٌ غزير أثناء الليل - الأشجارُ كأنها قطعُ إسفنج. بل كانت تهب ريح باردة، مشبعة بالرطوبة. من أجل منح ميديرو فاش شيئاً من الدفء نصّبوا خيمة ثور - أتعرف، جلد كامل يوضع على عامود يحمي الشخص من سوط الريح وهبّاتها. كنا نخيم تحت أشجار ضخمة. وكانت الزقزقات القادمة من النهر

هي زقزقات الحشرات في مخابئها. كان ميديرو فاش يرقد مدثرا بغطاء أبيض من جلد الماعز - لباسه مفتوح عند الصدر، الذي يغطيه زغبٌ أشيب. انتفخ بطنه كثيرًا، لكن ذلك لم يكن بسبب مرض الاستسقاء. كان بسبب الآلام. عندما لمُحني، بذل مجهودًا لينهض، مكابرًا ليراني. عيناه، بلونهما الأبيض، كانتا مثل لبّ عشب النمل. لكنه خار، سقطت ذراعاه، وهوى فوق الأرض على ظهره. - بدأت أجراس نهايته تقرع - فكَرْتُ. آه، وجهه: أصفر، شاحب، من صفرة التبن. هكذا، على هذا الحال، قضى اليوم حتى النهاية تقريبًا.

بدأ ظلامُ المساء ينزل. رغم كل شيء، أخذني ذبادوريم جانبًا؛ تحكّم في دموعه: - صداقتك، يا زيوبالدو، تخيلتها طوال هذا الوقت... - ثم شدّ على يدي. بقيت جانبًا، محرّجًا بعض الشيء. في تلك اللحظة، نادوا علينا: - أسرع، القائد على وشك أن يرحل! - كان ميديرو فاش يلهث، مثل أيّ شخصٍ مختنّض. لا يتوقف ذقنه عن الحركة؛ لحظات فظيعة. كان يقاوم. ثم نزل وابلٌ من المطر، مطر كثيف وثقيل، كأنه مقصود. كان الليل تقريبًا. مُلتفّين حوله، كُنّا نمسك الجلد المفتوح كي نحمي موته. ميديرو فاش - ملك الأراضي العليا - كيف يعقل أن يموت شخصٌ من هذه الطينة؟ كان الماء ينزل من السماء سطولًا، ينسابُ على وجوهنا، وينزلق قطراتٍ. ننحني تحت الجلد، استطعنا أن نشهد تلك النهاية التي تحصل عليها الروح من الجسد. يستجمعُ قواه في تيار الاحتضار، صدّ ميديرو فاش بمجهودٍ تلك الحشرة التي تصعد لتملأ حنجرتَه، ثم تمتم: - من سيأخذ مكاني؟ من سيتولى القيادة؟... - وبسبب صخب المطر، كان القليلون هم من سمعوا كلامه. لم يعد ينطق سوى بكلمات متقطّعة. لكنني رأيتُ نظراته تتوق إليّ، وتختارني. هل كان اللون الأحمر يشوّش على عينيه؟ لكنه كان لونًا أحمر من رصاص وزجاج. انقبض قلبي انقباضًا قويًا. لم أكن أرغب في أن أكون قائدًا!

- من سيكون القائد؟ ... رأيتُ اسمي في وميض حياته الخاطف. أراد أن يرفع يده ليشير إليّ. شرايين يده. بأيّ ضوء كنتُ أرى؟ لكنه لم يستطع. كان الموتُ أقوى منه. دارت عيناه في محجريهما؛ وأطلق حشرة من حلقه. ذهب لينام في سريرٍ معلق أبيض.

كان يوم عمل كبير في حياته. عندما توقف المطر، بحثنا عن شيء ما نشعله. لم نجد غير قطعة شمع من نوع كارناووبا وجذوة. عشتُ للتو لحظة فزع. والآن، شبه دائح، انتابتنى رغبة في أن أنشد هذه الأبيات، كمن يغني في كورال:

ثوري الأسود الجامح،

أيّ شجرة أربطك إليها؟

نخلة لا تنحني:

شجرة بوريتي - لا تلين...

كان ينبغي لأجراس كل الكنائس أن تقرع!

غطينا الجسد بأعراش نخلة بوريتي، مقطّعة ومبلّلة. حرسنا الجسد جميعاً حتى انشقَّ ضوء النهار. كانت الضفادع تنقُ. أطلق الضفدع الكبير نقيقاً أجشّ. أطلق حيوان تابّير صغيراً أخفّ من سهيل مهرٍ حديث الولادة. عند الفجر، حفرنا قبراً عميقاً. ترابُ الأراضي العالية جيّد.

شربنا القهوة، ثم قال لي ذبادوريم حازماً:

- ريو بالّدو، أنت من يتولى القيادة. لقد اختارك مدييرو فاش وهو ينطق بآخر أوامره...

كانوا جميعاً هناك، الأشاوس، وأعينهم كلّها تحدّق بي أنا. كانت الدّقات السّودُ تخفق - حبة، حبة - وتنزل عليّ رصاصاً أو مطراً من حجر. كانوا

يوافقون. يريدونني أن أكون قائدهم. فارتعشتُ في دواخلي، وتجمدتُ فلم أستطع أن أنبس بينت شفة. لم أكن أرغب في ذلك، لم أكن أرغب. رأيتُ الأمر يفوق قدراتي بكثير. ومن سوء الحظ أن جواؤ غوانيا لم يعد! لم أكن أرغب في أيِّ مجد، ولا في أي سلطة قيادة. بلغتُ ريقي. لإنهاء ذلك، أجبث وأنا أتمم تقريبًا فقلت ما يلي: - لا أستطيع... لستُ الشخص المناسب...

- زيوبالدو، يا أخي، أنتَ تستطيع!

كنتُ عنيدًا. فكرت في كلمة بذية. ليروا ما يحلوا لهم، وليفكروا كما شأؤوا! لكن لا أحد يستطيع أن يتحكم بي، هذا مزاح...

- زيوبالدو، أخي، أنتَ تظن أنك لا تستحق ذلك، لكننا نعرف شجاعتك... - أجباني ديا دوريم. وظل يلح عليّ، رافعًا يده. بينما تحلّق الآخرون من حولنا، وأبدوا موافقتهم: - تاتارانا! تاتارانا!... - صاح بعضهم؛ كان «تاتارانا» لقبني الذي أحمله.

ارتعشتُ خوفًا. صار الأمر صعبًا. هكذا، هل كان من حقّ ديا دوريم أن يفعل ذلك معي؟ أنا، وفق طبيعتي، ضربتُ الأرض بقدمي: - أنا، لا أستطيع، ولا أريد! أقول ذلك نهائيًا! من طبيعتي تنفيذ الأوامر، لا إعطاؤها...

توقف كل شيء لحظة. ظلوا ينتظرون وهم يحبسون أنفاسهم. هل تعرّفتَ، يا سيدي، من الداخل على جماعة من الجاغوثسو في حالة تأهب - حين يحوم الخطر؟ - وهل تعرف كيف يصبحون ذئابًا؟ لكن، لا، أفضع ما في الأمر هو الهدوء، والترقب الأسود. ليس لأنهم يقتلون بعضهم بعضًا، اسمع؛ لو كان كذلك، لأتفه الأسباب، يمكن أن تفقد الاحترام، ويزدروك إلى الأبد، في هذا الوادي من الدموع. زجَرَ الجميع. أثناء ذلك، نهَض ديا دوريم واقفًا،

وتقدّم خطوةً. توقّف عن التحديق في وجهي، وتفحصّ وجوه الآخرين. كان بارعًا في ذلك، يستطيع أن يُكوّن فكرة من لمحة خاطفة فقط - كان يتمتع بخفة من يقومون بعدّ رؤوس القطيع. قال بكلمات ذكية:

- حسنًا، في هذه الحالة، أنا من يتولّى القيادة. لستُ أحسنكم، يا رجال، لكني أصرُّ على ما أريد وما أقدر، مثلكم جميعًا. سوف تستمر قوانين مديرو فاش بكلّ حزم. لكن، إن رأى أحدكم أنّ هذا ليس صحيحًا، يمكن أن نحسم في ذلك بعدد السيف...

آه! اللعنة! ذيادوريم، الجميل المتوحش! يعرف كيف يتصرف! بين جاغونسو وجاغونسو، لا تنفع غير السلطة الجافّة للشخص... كثير من الحاضرين هناك كانوا مستعدين للتضحية بحيواتهم من أجل أن يكونوا القادة - ولكنهم لم يجدوا الوقت حتى ليرتبوا أفكارهم. فثمّن الآخرون ذلك وصفقوا له: - ريّنالدو! ريّنالدو! - كانت تلك هي موافقتهم. آه!

فجأة، نبع من أعماقي ذاتي احتجاجٌ عنيف. لا. لا، يا ذيادوريم، لا. ما كنتُ لأوافق أبدًا على ذلك. ليس لأنني كنتُ صديقه حدّ الجنون، وأشعرُ نحوه بعاطفة مهينة تدمّرني، مثل حبّ خفي ومنحرف - هل حقًا، لأي سبب آخر، لم أكن مستعدًا لذلك التحوّل: أن أتلقَى دومًا أوامر منه، ويكون هو قائدي؟ لا يمكن أن أسمح بذلك. لا، صحتُ - كأنني أقرع جرسًا: - لا أوافق على ذلك.

هل كانوا جميع يحدقون بي؟ لم أر ذلك، ولم أرتعش. مما يمكن رؤيته، لم أر غير ذيادوريم. مختصرًا من هيئته ومقتضبًا من حركاته: اليدان والعينان؛ في حالة تأهب. قمتُ بحساب ذهني سريع لعدد الطلقات النارية التي يمكن لي تسديدها عن كثر - بالإضافة إلى رصاصة صغيرة، الأولى، الموجودة مسبقًا

في زناد سلاحي - ولا تنقصني حَبَّات الدُّرَّة في الخُرْج! أما الرفاق الآخرون، فكفُّوا عن الحركة شيئًا فشيئًا، من فرط الانتظار؛ أكيد أنهم يشعرون بالنفور مني، ممتعضين من إصراري على عرقلة القرارات؛ رأوا أنه لم يعد لي الآن الحق في الإدلاء برأيي، بما أنني رفضتُ تحمُّل مسؤولية القيادة. من يدري، هل يكونون سعداء بهذه الفرصة وهم يروننا، نحن الاثنين، أنا وذيادوريم - وقد كنا لحد الساعة مثل أخوين شقيقين - نجرُح بعضنا بالسكاكين؟ شعرتُ برغبة عنيفة في قتل أحدٍ ما، كي أخفِّفَ من حيرتي وقلقي: ليكن أي أحد آخر - ذيادوريم، لا - أبدًا. أدركوا كل ذلك في شخصي. الصَّامتون. وحده سيسفِّريدو، بشكلٍ غير متوقع، قال أيضًا: - لا أوافق - لأنه كان يقدِّرني. وألاريبي، شخص جدِّي، قال: - هيا، دعوا زيوبالدو يشرح فكرته... - استقمْتُ ناهضًا، وأعلنتُ:

- في نظري، مارسيلينو بامبا هو من ينبغي له أن يتولَّى القيادة. بما أنه أكبرنا سنًا، وبالإضافة إلى أنه أكبرنا سنًا، فهو رجل شجاع، كله علم وحكمة! صار وجهُ مارسيلينو بامبا ضخماً. حسب ما لاحظتُ في وجوه الآخرين، من موافقتهم، استنتجتُ أنني تصرَّفتُ بمهارة. أصبتُ الهدف! لكن، وذيادوريم؟ نحن معًا، العينان في العينين. هذا الجنون، كل ما كنتُ أريده في تلك اللَّحظة هو أن أرفع مشاعر حبي نحو ذيادوريم إلى أقصى حدٍّ؛ ولكنه، ولكنه، بالكاد أظهر انزعاجه، ورفعتُ التحدي. توقَّفَ الزمن، ولكي يستأنفَ سيره لا بدَّ أن يحركَ الجبال... حينئذٍ، أخيرًا، خفض ذيادوريم عينيه. كنتُ أقوى منه! طفقَ يضحك، بعد أن ضحكتُ. ثم أفصح عمَّا يخالجه، وقال، حازمًا:

- بكلِّ سرور. ليس هناك من هو أحسن من مارسيلينو بامبا. لم أكن أطمح للسلطة...

تحدّث بشجاعة. ثم:

- أقول وأكرّر، حان الوقت لتجاوز خلافاتنا، ونحدّ من دون نزاعات...

- قال ألابي ناصحاً.

آمين. كلهم، صوتاً بعد الآخر، وافقوا. ثم أخذ مارسيلينو بامبا الكلمة وقال ما يلي:

- أقبل، لأننا جميعاً بحاجة إلى ذلك، ولأنّه واجبي. في انتظار أن يأتي من هم أحقّ بالقيادة، أشخاص من فئة أعظم: جواو غوانيا، ألييو موتا، تيتاو باسوس... في غضون ذلك، أنا بحاجة لنصائح كل من لديه نصائح، هذا أكيد. اتفقنا الآن...

قال أشياء أخرى، بنفس النبرة، من دون أهمية، ولا أفكار عميقة؛ لأن مارسيلينو بامبا كان محدود المواهب. فكّرت أنه فقط أثقل كاهله بحمل ثقيل، من باب التضحية. أكيد أنه، في أوقات أحسن، قد تكون القيادة شيئاً ممتعاً، ولكن، في الظروف التي كنا نجتازها ونحن في الحضيض، مع كل ذلك البؤس، ألم يكن هناك ما ينفر من المسؤولية؟ لكنني حينئذٍ لاحظت: كيف صار مارسيلينو بامبا، فجأة، بهيئة أخرى، راضياً عن نفسه، غريباً بشكل مثير؟ أن يكون المرء قائداً شيء مريّر في الظاهر، لكنه أمرٌ ورديّ حلوّ تماماً في الدواخل.

أما أنا، فشعرت براحة النفس. لم أشك لحظة في قيمتي: هل كان هناك من له ملامح مثل ملاحي تماماً؟ أوه، كان قلبي يعرف كيف يخفق مقلداً كل شيء. اليوم، ما عدتُ أعرف ما يعتمل فيه من ضجيج خفقانه. اقترب مني زيادوريم، حدّثني عن إعجابه بي، وعن حبه الكثير الوفي. سمعتُ، سمعتُ كلّ ذلك، كلّ ذلك العسل الحلو. كنتُ بحاجة لذلك. تأتي لحظات أظنُّ

فيها أنه ربما يستحسن، فجأة، أن أستيظ من الافتتان. الناس، والأشياء، ليسوا حقيقة! من أين يأتينا، في كثير من الأحيان، هذا الشعور بالحنين إلى اللّايقين؟ هل يكون حقًا أننا قد بعنا جميعًا أرواحنا؟ حماقة من طرفي. كيف لشيء كهذا أن يكون ممكنًا؟ إيه!

اسمَع: سوف أحكي لك، يا سيدي. يُحكى أنه في جماعة أنطونيو دُو، كان هناك جاجونسو، ذو مرتبة عالية، وثروة كبيرة، يدعى دافيداو. مع مرور الوقت، وهذه أمور تحدث أحيانًا، بدأ دافيداو هذا يخشى الموت. فكَّر مليًا، ودون وخز ضمير، اقترح على شخص آخر، من أفقر الناس، اسمه فاوستينو، الصفقة التالية: يدفع دافيداو عشرة آلاف كوثنو من الريالات، لكن إن اختار القدر دافيداو ليموت الأول في المعركة، فإن فاوستينو، وفق قانون من قوانين السحر الأسود - الخفي والشارق - هو من سيموت عوضًا عنه. قبل فاوستينو العرض، أبرم الصفقة وأخذ المال. لكن يبدو أنه لم يكن يؤمن بقوة سحر العقد. أثناء ذلك، وقعت معركة ضد جنود اللواء ألسيديس دو أمارال، الذي كان متحصنًا بقوة في ساو فرانسيسكو. بعد انتهاء المعركة، كان الاثنان على قيد الحياة، دافيداو وفاوستينو. ماذا كان يعني ذلك؟ أنه لم تحن ساعة ولا يوم أي منهما. وظلّا كذلك لعدة شهور، دون أن يحدث أي تغيير؛ خرجا دائمًا سالمين، من دون ولا جرح واحد... إذن، ما رأيك في هذا؟ إذن، انظر واسمَع جيدًا: رويت نفس الحكاية لشاب ذكي من المدينة، جاء على متن شاحنة ليصطاد في النهر. هل تعرف ما قاله لي هذا الشاب؟ إنه موضوع مهم للغاية، من تلك المواضيع التي توفر مادة تصلح لتأليف قصّة في كتاب. لكنها بحاجة إلى نهاية تدهش الناس، نهاية متقنة. وكانت النهاية التي تخيلها كما يلي: أن يبدأ فاوستينو يومًا بالشعور بالخوف، فيرغب في إبطال الصّفقة! يُعيد المال لكن دافيداو لا يقبل، يرفض، لا يريد ذلك

بأي شكل من الأشكال. سيدخلان، من شدة الخصام والشجار، في صراع بدني. في الأخير، يستل فاونستينو خنجره وينقض على دافيداو، فيتشابكان ويتدحرجان فوق الأرض. لكن، وسط ذلك الاضطراب، يغرس فاونستينو بيده الخنجر في قلبه، ويموت...

أعجبني كثيرًا تلك التّيمة المبتكرة. كثيرة هي الأشياء الصافية والحقيقية التي يمكن أن تخطر لشخص متعلّم! بهذه الطريقة، يمكن أن نملاً هذا العالم بحركات أخرى، من دون تلك الأخطاء التي تصرّ عليها الحياة في تحبّطها الأخرق. هل تنافقنا الحياة؟ مثلاً. قلتُ ذلك للشاب الذي جاء يصطاد والذي هنأته بكل صدق. فسألني عن النهاية الحقيقية التي آل إليها دافيداو وفاونستينو في الواقع. النهاية؟ من يدري. سمعتُ فقط أنّ دافيداو قرّر وضع حدّ لحياة الجاغونسو التي كان يعيشها - ترك الجماعة ومقابل وعُد بأن يعطيه بعض الهكتارات، علاوة على امتيازات أخرى وشيء من المال، تمكّن من أن يجعل فاونستينو يتخلى عن حياته السابقة ويأتي ليعيش بالقرب منه، إلى الأبد. لكني لا أعرف عنهما شيئاً آخر غير هذا. في واقع الحياة، تنتهي الأشياء بطريقة منتظمة، أو لا تنتهي. هكذا أحسن. إنّ النضال من أجل الدقة يفضي إلى أخطاء نؤدي ثمنها. لا ينبغي أن نطلب الدقة. الحياة أمرٌ في غاية الخطورة. ما رأيتُ بسرعة هو أنّ مارسيلينو بامبا، رغم حسن نيته، لم يكن في المستوى. حتى ينجح في قراراته بخصوص أولى العمليّات، نادى علينا، أنا وجواو كونكليس. - إنّ الخائنين في الأنحاء، على بعد عشرين فرسخاً تقريباً، يعرفان أين نحن. لكنهما لن يهجا علينا هجوماً حقيقياً مع هذا الطقس وفيضان هذه الأنهار. لكن، نظراً لكثرة عدد رجالهما، فإنّها بصدد وضع خطة لمحاصرتنا، من أبعد نقطة ممكنة... في رأيي، لدينا حلّان: إمّا أن نهرب نحو الهضبة، ما دام أمامنا متّسع من الوقت - لكن هذا يعني أننا سنتخلّى عن

أيّ أمل ونغرق في الخزي... أو أن نخاطر بكلّ شيء ونشقّ لأنفسنا طريقًا عبرهم: نمرُّ إلى الضفة الأخرى من النهر ونحاول أن نلتحق بجواو غوانيا والرفاق الآخرين... لكني، حتّى الساعة، لا أعرف شيئًا آخر، أنا بحاجة لكل الآراء السديدة - هكذا تكلم مازسيلينو بامبا - لكن، لو علموا بموت ميديرو فاش، فإنهم قادرون على أن ينقّضوا علينا اليوم بالذات... - هذا ما قاله جواو كونكليس، وكان على حقّ تمامًا. لم أجد ما أقوله، لأن اضطرابات الساعات الأخيرة كانت قد أربكتني. ما الذي كان بوسع ميديرو فاش أن يفعل في مثل هذا الموقف؟ وجوكا راميرو؟ وسو كانديلاريو؟ تضاربت هذه الأفكار في ذهني. هناك أدركتُ كيف أنّ جماعة من الناس لا بدّ لهم من رأس مُفكّر. فالقائد ضروريّ، للتخفيف عن القلقين، وحماية عقول الناس من الاضطرابات غير المناسبة. لم أكن أعرف، وقتها، ولا أعرف اليوم أي قاعدة صالحة على المدى المتوسط. من دون فعل، يمكن أن أمضي حياتي بكاملها أعصر دماغي. بعد وقت قليل من ذلك، قرّر مازسيلينو بامبا بدوره، عقب كثير من الصمت وقليل من الكلام، أن نستأنف ذلك الحديث في فترة ما بعد الظهر. حائرَيْن، بقينا نحن الثلاثة.

من هناك، ذهبْتُ لألتحق بديادوريم. - زيوبالدو - قال ما إن رأني - ها أنتَ تدركُ أنه لا حلّ لدينا... - وهنا توقّف، ثم فكّر لحظة يضعُ يداً فوق أخرى - وأنت، ماذا قرّرتَ أن تفعل؟ - سألني. أجبتُه: - سوف يُتخذُ القرارُ اليومَ في فترة ما بعد الظهر، يا ديادوريم. ألسْتُ راضيًا على ذلك؟ - استقام، وقال لي: - ما يُرضيني، أعرفه. كل هذا، في نظري، لا فائدة منه. كل ما أريد هو أن أصلَ إلى أحد الحائِثين وأنهاي كل هذا! - كنتُ أعرف أنه حين يتحدث عن القتال لا يتكلّم في الفراغ. كنتُ أكثرَ تعبًا وحزنًا منه - من يدري... كي نجدَ طريقة لنصلَ بها إليهما... ألا يُستحسن أن... - قال متعثّرًا ثم سرعان ما

انطوى على نفسه. وفي عينيه الواسعتين، إذ تفكَّرَ بها قاله، اعتقدتُ أنني رأيتُ
غَوَاية القيادة تسيطر عليه وهو يُحرِّضُ كُلَّ الرفاق على التمرد. كان قادرًا تمامًا
على حماقة من هذا النوع. لكنه استأنف قائلاً: - أنت، يا ريو بالْدو من تحكَّمت
في كل شيء هذا اليوم. اخترتَ مارسيلينو بامبا قائدًا؛ ثم قرَّرتَ وفرضتَ...
- وكذلك كان. أعجبني ذلك، كثيرًا جدًّا، وارتحتُ لسماعه. لكني، مع ذلك،
اصطدمتُ بفكرة حادَّة، ارتعشتُ لها وفزعْتُ. في كُلِّ ساعة من كل يوم،
نتعلَّم وجهًا آخرَ من أوجه الخوف!

لكن، بما أننا كنا مجتمعين من جديد، وقد انتهى الأكل - مارسيلينو بامبا،
جواو كونكليس وأنا - لم يسعفنا الوقت حتى لنشرع في الكلام. كان ذلك
بسبب ما سمعناه: ركضُ خيول وصلت وهم يكبحونها، فارسان سرعان ما
قفزا مترجِّلين فسمعتُ أصواتَ نعاليهما على الأرض. كانا فيليسيانو وكييس
عائدين يجرسان راعي بقر شابًا. وصلا يركضان تقريبًا. لم يتجاوز الراعي
اليافع الخامسة عشر من عمره، وملامح وجهه لا تستقرُّ على حالٍ من شدة
الخوف. - رأيناه يمرُّ، بالصدفة. كان يهرب، شبه مندهش. أمسكناه. لديه
كثير من الأمور ليحكىها... - ثم دفعا الراعي اليافع دفعًا خفيفًا. من شدة
الخوف، لم تكن أعيننا تفارقه، لكنه تحاشى نظراتنا. أوف، في النهاية، ابتلع
جرعةَ هواءٍ، ثم انتحب قائلاً:

- إنه رجلٌ... هذا كل ما أعرف... إنه رجلٌ...

- هوَّن عليك، أيها الشاب! هنا، أنت حرٌّ وفي أمان. إلى أين كنت ذاهبًا
هكذا؟ - حاول مارسيلينو بامبا أن يهدئ من روعه.

- حدثتُ معركة كبيرة... إنه رجلٌ... أنا ذاهب بعيدًا، أعود إلى بيت
والدي... آه، هذا الرجل... نزل عبر نهر باراكاتو فوق طُوفٍ من أغصان
البوريّتي.

- ما الذي فعله هذا الرجل - سأله جَواوُ كوئُكلِش حينئذ.

- أطلق النار... هو وخمسة رجال آخرين... توغَّلوا في الغابة، أطلقوا النار على الآخرين. كان هناك عدد كبير من الآخرين، أكثر من ثلاثين. لكنهم هربوا. تركوا وراءهم ثلاثة موتى وبعض الجرحى. كانوا مختبئين. آي! وكانوا يمتطون الخيل... أما الرجل ومن معه، فكانوا يمشون على أقدامهم. رجلٌ فظيع... قال إنه سيُصلح كل هذا. جاؤوا إلى الكوخ يطلبون المَنيهُوثَ والملح. أعطيتهم. كانوا قد قتلوا ظبيًا صغيرًا، أعطوني منه قطعة لحم...

- ما اسمُ هذا الرجل؟ تكلم! كيف ينادي عليه الآخرون؟ كيف هو شكله؟ كيف هو؟

- هو؟ كيف هو شكله؟ حسنًا، إنه بالأحرى قصير وليس بالطويل، لكنه ليس مُسنًا، ولا هو بشابٌ أيضًا... إنه رجل أبيض... يتحدث من غويَّاس... يتحدث الآخرون وينادونه «النائب». نزل عبر نهر باراكاتو فوق طُوف من أغصان البوريتي. كنَّا بحاجة إلى شجار قوي!... قال هو نفسه. هو، والخمسة الذين معه، أطلقوا النار مثل حيوانات شرسة. كانوا يطلقون صيحات النمر... وقال: إنه سيرجُ العالم! نزل عبر نهر باراكاتو فوق طُوف من أغصان البوريتي... نزلوا... لا يملكون حتى الخيول.

- إنه هو! ولكنه هو، نعم! لا يمكن أن يكون إلَّا هو... تذكر أحدهم لحظتذاك. ثم إنه الآن إلى جانبنا. أضاف آخر. - يجب أن نرسل إليه أحدًا ما - قرَّر مارسيلينو بامبا. - أين هو الآن؟ هل هو في بافُووا؟ يجب أن يذهب أحدًا ما إلى هناك. - إنه هو... كيف هي الحياة: من كان ليصدق ذلك؟ ثم إنه رجلٌ شيطانيٌّ، شبه مجنون... إنه معنا... وهو محارب ممتاز... وكان ذلك حقيقة. كان المطر قد عاد ليهطلَ وابلًا من السماء، لكن كييس وكافالكانتي

ركبا من جديد حصانيهما وانطلقا باتجاه بافورا بحثًا عنه. لا بدّ وأنها وجدنا صعوبةً كبيرة في العثور عليه، لأنه لم يظهر لهما أثرٌ بعد حلول الليل. لكن: ذلك الرجل، حتى تعلم ذلك يا سيدي، ذلك الرجل: كان هو زي بييلو. وليلاً، لا أحد كان ينام بالفعل في معسكرنا. في الصباح التالي، مع أول خيوط الشمس، وصل. يومٌ قلّ نظيره.

بِقُبْعَتِهِ الواسعة، وخطواته الكبيرة، وصل، يرافقه خمسة من رجاله الشرسين. بدوا، من حركاتهم وملابسهم، أنّهم من أعالي نهر أورو كويّا. بدو من أهل الأراضي العليا. فقراء، لكنهم مدجّجون بالسلاح، وخراطيشهم ممتلئة. تقدّم مارسيلينو بامبا للقائه؛ فتبعنا قائدنا واصطففنا خلفه. كانت مراسيم وشكليات تستحق المشاهدة.

- سلام وصحة، أيها القائد! كيف الأحوال؟

- كيف حالك، يا أخي؟

تبادل العظيمان التحية. ثم لاحظني زي بييلو: - أستاذ، أو! مرحبًا! كان مقدّرًا لنا أن نلتقي من جديد... - لم يكن ينسى وجوه الناس وأسماءهم مع مرور الوقت. لاحظت أنه كان يُقدّرني ويعزّني، ولا يعتبرني خائنًا أو منافقًا. ضحك ملء شديقه، ثم توقف عن الضحك فجأة. تراجع خطوة إلى الوراء. - عدتُ نهائيًا! - قال متحدّيًا تقريبًا.

- جئت في الوقت المناسب، أيها القائد! هذا ما نقوله جميعًا هنا - أجابه مارسيلينو بامبا.

- إذن، تحية لميديرو فاش!...

- ليكن الرّب معه. إنّ ميديرو فاش يرقد الآن في سلام.

- علمتُ بذلك. *Lux eterna*، نورٌ خالدٌ... - ثم خلع زي بييلو قبعته

ورسم إشارة الصليب ثلاث مرات وظلّ جامدًا وقورًا لحظةً بطريقةٍ تأثّرنا لها. بعد ذلك قال:

- جنّت أنتقمُ لموت صديقي جوكا راميرو، الذي أنقذ حياتي فيما مضى... وأقضي على هذين المجرمين اللّذين يلطّخان اسم الوطن وهذا السّرّتاؤ الوطني! ابنا الكلبة! - كان في حالة غضبٍ شديدٍ حتى أن كلّ ما يقوله بدا حقيقةً.

- في هذه الحالة، نحن إخوة... وماذا عن هؤلاء الرجال؟ لم يفتح أهل أوروكويا أفواههم. لكن زي بيبيلو حدّجهم بنظرة متسلطة وقال بصوتٍ جهوري قوي ما يلي:

- جنّت من أجل النظام والفوضى. وهؤلاء هنا هم جيشي... كان ممتعًا سماعُ ما قيل. إنّ نحن أردنا أن نقاتل، فهذا الرجل سيقودنا، وسيزيده السلاحُ قوةً.

ثم جاء دور مارسيلينو بامبا ليقول:

- في هذا الحالة، يا صديقي، لماذا لا نُنظّم مصيرنا؟ نحن معًا، لِنَسِرْ جنبًا إلى جنب؟

- التفاهم والصدّاقة، أقبلهما، يا أخي القديم، لكنني لا أوافق على أن أنضم إليكم. لا أتحركُ سوى حيث أستطيع أن أعطي الأوامر؛ هكذا ولدْتُ. لا أعرف أن أكون سوى قائد.

بسرعة، قام مارسيلينو بامبا بحساباته. قطّب حاجبيه وأطرق لحظةً. ثم جال بعينه في لمحة خاطفة فنظر إلينا جميعًا، نحن رفّاقه، رجاله الشجعان. لم يُقل شيئًا آخر. لكنه فهم ما تريده كلّ إرادة. وبسرعة، نقل ذلك الاتفاق الضمني:

- ستكون أنت القائد. نُسلِّمُكَ أسلحتنا، وننتظرُ أوامرك.

قال ذلك بشجاعةٍ، ثم جال حولنا بعينه مرةً أخرى.

- أوافق! - قلتُ وقال ذلك ذِيادوريم، وجواو كونكليس، وأعلنوا جميعاً:

اتفقنا!...

وهنا لم يُبدِ زي بيبيلو أدنى قَدْرٍ من الدَّهْشة، بل بدا كأنه كان ينتظر ذلك التصويت - كل السُّلطاتِ؟ هل يصادق الجميع على ذلك؟ - سأل من جديد، صادقاً بجديَّة. أَكَدنا ذلك. حينئذٍ، وقف على أصابع قدميه ونادى علينا: - وأبنائي من حولي، أَسَلِّمُ القيادة! - كأنَّ ذلك أمراً مثيراً للضحك. لم يضحك أحدٌ. تحلَّقنا من حوله، ورجال أورو كويَّا الخمسة وسطنا. تابع: - حسناً، هذا أصعب ما في الحياة، يا أهلي. ولكن مجرمي جوكا راميرو سوف يدفعون الصَّاعَ صاعين! - أعلن، مُحدِّقاً فينا بعينه واحداً تلو الآخر - المجرمان، الخائنَان. هكذا سيكون اسمهما من الآن فصاعداً - قال جواو كونكليس. - هيا! خائنان! يمكن أن نهْلِلَ للرَّب! هَلِّلُويا! فرَّقوا اللحم في الأطباق! ضَعُوا المَنِيهُوْتُ في أواني القرع!... - وافق زي بيبيلو، مطلقاً ذلك على سبيل التحية. أجبنا موافقين. وكذلك كان زي بيبيلو. أرعدتِ السَّماء، ذلك الرَّعْدُ المميز في الأراضي العُليا، الذي يتدحرج متقطعاً قبل أن تنزل قطراتُ مطر سميكةٍ وساخنة. يُزجر الرَّعْدُ، يملأ الدنيا، فتتحسَّس الأرض بأقدامنا. كان ذلك هو ما وقع: أرعدت فبقينا صامتين - لمس زي بيبيلو ظهره بيده، كما نفعل في حركة تنمُّ عن الاحترام، وقال: - هذا شأني... - وبخصوص ذلك، أعود لأحكي ما كشفه: - لم نكن نملك شيئاً تقريباً، أنا ورجالي، لم نكن نتوفر حتى على نصف ساعة من الذخيرة... - اعترفنا أكثر بشجاعته. بمعنى، إنَّ واحداً منا كان يعلم أن ذلك يمكن أن يكون كذبة. كان شيئاً أقلَّ جمالاً، ولكن، خلف كل ذلك الهراء، كان يختفي رجلٌ بشجاعة كبيرة.

منذ ذلك اليوم، ومن تلك الساعة، باشرَ عمله بأزيمية أكبر؛ ولم يتوقف قطُّ. أراد أن يذهب إلى مكان القبر، السلاح والأغراض التي تركها ميديرو فاش؛ فقد قرَّر أنه مادام المرحوم من دون أقارب، فإنَّ ممتلكاته تبقى تذكّاراً لأقرب المقربين منه: البنادق والمسدسات، المسدس الأوتوماتيكي، الخنجر، السيف المقوس، القارورة وعلبتها، معطفه، القراب وحقائب الظهر، وجعاب الخراطيش. قال أحدهم إنَّ حصانه الأغبر الكبير يجب أن يكون من نصيبه هو، زي بييلو. رفض ذلك. نادى على مارسيلينو بامبا، وسلّمه إيَّاه بكل وقار: - هذه الدابة من نصيبك، وأنت تستحقها، يا مارسيلينو. لأنني ما زلتُ أنتظر أن أرى رجلاً مثلك في الحكمة والشخصية! - ثم شدَّ على يده وصافحها عدة مرات. انتفخ صدر مارسيلينو بامبا، مرتبكاً. كان مذكاً مستعداً ليموت من أجل زي بييلو. لكن زي بييلو لم يحتفظ لنفسه سوى بجلد خروف أصفر، يتخذ منه وسادة على السَّرج، بالإضافة إلى مفصليَّة صُنعت من ثلاث طبقات من نسيج الفلانيَّة.

ثم تابع، يلاحظ، يسأل، ينظر إلى كل شيء. عرف اسم كل واحد، واحداً بعد الآخر، ومكان ولادته، ونبذة عن حياته، كم خاض من المعارك، والمهنة التي يبرع فيها. تفحص وأحصى حقائب الذخيرة والأسلحة. تفقّد الخيول وتوقف عند أحسنها حدوةً وأجملها هيئة ومظهرًا - الحدوة، الحدوة، هذا هو الأهم... - كان يردّد قائلاً. قسّم الرجال إلى أربع كتائب: ثلاثة فصائل من فئة خمسة عشر وفصيل من فئة عشرين، ويضم كل فصيل مستكشفاً واحداً على الأقل. ثم قال: - نحتاج لأربعة أبواق صيد، للنداء... - وكان هو نفسه يعلّق صفارة في عنقه، تُسمع من بعيد. ولقيادة الفصائل، عيّن مارسيلينو بامبا، جواو كونكليس وفافافا. بقي هو شخصياً مع أهمّ فصيل، ذلك الذي يضم الرجال الخمسة من أورو كويّا، أنا، ذيادوريم، سيسفريدو،

جواكيم يينجو، كوسكوراو، ديباس دويدو، أكاوّا، ماو دي ليشا، مارواس، كريد، ماريموندو، رازغا إن بايشو، جيريبسي، وجوي بيشيغيتو، الملقب بـ«النعل». إلا أنه، بعد توزيع الجميع، بقي تسعة آخرون، فوضعوا في فصيل مستقل، كُلف ببغال الحمل، وما تنقله من مؤن وذخائر. وعلى رأسهم، لأنه جيد في كل ما يُطلب منه، كان ألابيبي. كُلف كل واحد من هؤلاء التسعة بمهمة خاصة: كان كيم كيروس مكلفًا باحتياط الرصاص، وجاكارى يمارس مهمة الطبخ، ولا يجب أن ينسى أبدًا أن يقول ما يجب أكله أو ما ينقص في المطبخ. كُلف دوريستينو بأنعال الخيول ورعايتها؛ أما الآخرون، فكانوا يساعدون؛ لكن رايموندولي، الذي كانت له معرفة بالعلاج والطب، كُلف بأن يحتفظ دائمًا بصندوق مليء بالأدوية. لكننا لم نكن نتوفر على أي أدوية في تلك الساعة. بيد أن زي بيبيلو لم يكن منزعجًا من الأمر: هيا بنا، هناك أو في أي مكان آخر، سوف نشترىها، سنجدها، يا بُني. لكن، احرص الآن على جمع الأعشاب والجذور. اجمع منها، وكُدّس... ما أريده هو أن أراك دائمًا تحمل ذلك الصندوق في يدك... - كان معسكرنا يشبه مدينة.

فيما يتعلق بالأمور الهامة، كان زي بيبيلو يلقي علينا دروسًا ويعطينا الأوامر. يعلن: - يجب العمل بشقاء من أجل الحصول على نوم هادئ! - أو يقول ضاحكًا: - عندما أموت سيكون لكم كل الوقت لترتاحوا... - ثم يطلق قهقهة: - لكنني لا أموت... - كان شخصًا ذكيًا، أتعرف، يا سيدي. - و- غريب أن أقول هذا - كُنّا نقدر ذلك. أمدنا ذلك بأملٍ صلب. بمعنى من المعاني، أحسن ما يمكن القيام به وقت الحرب، هو الاهتمام بدقة بأشغال أوقات السلم. أما الباقي، فكان تمارين الفروسية، هنا وهناك، أو المسيرات العسكرية، حيث يمشي زي بيبيلو مزده بنفسه، ينفخ صدره موجّهاً رجله نحو الداخل، يقود الدّوريات، إلى الأمام، عودة، يصفر. فقط -: هيا! ليس لدينا أي وقت، يا

رجالي، هيا! - دائماً في النهاية من أجل التشجيع، يرفع ذراعه عاليًا: ما زلتُ أرغب في أن أقوم معكم باستعراض على الخيول في المَدينِ الكبرى! ما ينقصني هنا هو الراية، الطبل والأبواق، ومعادن أخرى... لكني، سوف أحصل عليها! آه، سوف ندخل إلى كارينيانا وإلى مونتييس كلاروس، وهناك سوف يتدفق النَبِيذ. سنقيم معسكرنا في سوق ديامانتينا... إيه، سوف نذهب إلى باراكاتو دو برينسيبي... - وكم كان يُصَفَّرُ بفمه وبواسطة الصفَّارة!

بكلِّ جدِّ، كان يناديني بالقرب منه، ويطلب حضور الآخرين - مارسيلينو بامبا، جواو كونكليس، ذبادوريم، أو بانتالياو من أورو كويًا وفافافا، نُواب القائد. كان علينا جميعًا أن نستعرض ما نعرفه عن الأراضي العليا: المسافات بالفرسخ والأذرع، المعابر، عمق المستنقعات ونقط الماء، أراضي السَّميسم التي يمكن أن نخبئ فيها، وأكثر المراعي كثافةً. بسؤالنا والاستماع إلينا، كان زي ببيلو يشكل فكرةً. أحيانًا، بطرف العصا، كان يخطُّ رسمًا على الأرض يمثل كلَّ شيء. كان ينظِّم كلَّ ذلك بالتدريج في رأسه. يتعلَّم. سرعان ما سيعرف أكثر ممَّا نعرفه كلُّنا مجتمعين. كنتُ أعرف جيدًا زي ببيلو، من حظائر أخرى. وددتُ لو ولدتُ مثله... ثم يذهب للقنص. أكيد أنَّ القنص كان يستهويه؛ لكن ما يفعله هو أنه يستكشف التلال، يمَشُّها. الغابات والمروج، وكيف تشكل كلُّها شيئًا واحدًا. ذات مرة، ذهب وعاد ثم جاء يطلب رأيًا: - بواسطة عشرة رجال فوق هذا التل، وعشرة آخرين موزعين على منحدره، ثمة وسيلة لمنع مرور مئتي فارسٍ عبر الجدول... وبواسطة عدد قليل في المؤخرة، إذن... - تقريبًا، لم يكن ليتوقف أبدًا عن التفكير في هذا النوع من المواضيع. في الحين، يرسلُ أحدًا ليستكشف الأمر، يستخبر عن تحركات الخائنين، ويأتيه بأخبار حيَّة. لم أرَ قطُّ رجلًا سعيدًا وقتئذٍ مثل زي ببيلو، صدَّقني، يا سيدي.

كان ذيادوريم بدوره يخفي عني أمورًا واضحة. كان الانتقام الكبير قادمًا، وهو يفرح لذلك، دون أن يقول لي شيئًا عنه. الانتقام، أقول لك: هو أن تلعق باردًا الطبق الذي حضّره الآخرُ ساخناً جدًّا. الشيطان يقول ألف قول. هذا! يرقب، لكنه لا يُبدي أي ردة فعل. ما هو طريقنا الأكثر أمانًا؟ لا هو الطريق الذي أماننا، ولا ذلك الذي تركناه خلفنا: فقط الطريق الذي يصعد. أو أن نتوقف ساكنين. كما تفعل الحيوانات. ألا تقوم الحيوانات بذلك في معظم الأوقات؟ لكن، من يعرف كيف؟ الحياة، الحياة، أنت تعرف ذلك أصلاً، هو أن كذا وكذا... ذيادوريم مَرِحٌ، وأنا لست كذلك. مرورٌ تحت ضوء القمر. أخذتُ تلك العتمة. طيور الصباح تداهمني صائحة «رأيتُك!» طوال الوقت. أحببتُ ذيادوريم بطريقة تثير الامتعاض؛ لم أعد أفكر في حبّه، لكنني فقط كنتُ أعلم أنني أحبه إلى الأبد. آه! البومة! اللّون الجميل...

بمجرد طلوع النهار، أمرَ زي بييلو، فجأةً، أن يكون كل شيء جاهزًا من أجل إجراء تدريبات مسيرة عسكرية، كالعادة. فقط من أجل الاحتفال. يرى صغار الحمير تأكل اثنين اثنين، في مرجٍ مُحضّرٍ، أسرًا إليها قائلًا: - أيتها الحمير الجميلة سوف تحملين ذخيرتنا، وستكونين مسؤولة عن نقل مؤونتنا! - لكنه، بمجرد أن امتطى صهوة جواده، أعلنَ: - من الآن فصاعدًا، سيكون اسمي هو زي بييلو فاش راميرو! وأنتم، يا رفاقي، أصدقائي، ستكونون رجال زي بييلو! دقّت ساعتنا: لنخرج إلى الحرب! هيا! هيا لنقض على تلك الشرذمة من الأشرار!... - ثم خرجنا، مستعدين تمامًا.

لكنّ القمر لم يكن مناسبًا تمامًا. من ذا الذي يطلق جيشًا من الفرسان عبر طرق موحلة، مليئة بالأخاديد والحفر، والمطر الذي يغمر كل شيء؟ كان ينبغي انتظار أن تنتظم المياه. - نهر باراكاتو يفيض بالمياه... - قال أحدهم فقاطعه زي بييلو قائلًا: - ونهر ساو فرانسيسكو لا يقلُ فيضًا عنه - معه،

كان كل شيء هكذا، غريب الأطوار؛ ولا يطبق الكلام التافه. انطلقنا. مطرٌ خفيف يهطلٌ مسترسلًا. حتى آخر لحظة، ظننا أننا سنعبّر نهر باراكاتو. لم نعبّره. كان ذلك الرجل قد تعلّم كل شيء، ودرّس كلّ شيء. أولاً، فرّق الدّوريات. نحن، من نشكّل كتيبته، سرنا بمحاذاة الضفة، تاركين النهر دائماً على يسارنا. ثم سُمع هزيمُ الرعد، فكدنا نضطرب لذلك. - هذا أحسن. - قال زي بيبيلو. - هكذا، سوف نباغتهم... لا شيء أحسن من المباغثة للحصول على نتيجة. ما أريده هو الهجوم! - توجّهنا نحو بوريتي بيتادو. لبلوغ هذا المكان، ينبغي قطع مسافة تتراوح بين عشرة إلى اثني عشر فرسخًا. - أن تحيّن اللحظة، ينبغي على كل واحد أن يرى خائناً واحداً كل مرة، يصوب السلاح نحوه جيداً ويطلق النار. البقية، بين يدي الرّب... - كان يتحدث هكذا - بالنسبة للعمل الذي نريد أن نقوم به، تتوفر على الأداة المناسبة. هذه الخيول، إنها مسألة سرعة، يجب أن نتحرّك من نقطة إلى أخرى، إلى الأمام، إلى الوراء. أعرف، لكنّ أهم قسط من المعركة سنقوم به مشياً على الأقدام... - على ضفّة نهر سونينيو، استرحنا. ظلّت دواب النقل، مجموعة البغال، مختبئة في وهدّة من الأدغال. بقي ثلاثة رجال فقط للحراسة. - أنا من أختار ساعة ومكان الهجوم... - قال زي بيبيلو. في مكان به مياه هادئة، عبرنا نهر سونينيو تحت جنح الظلام، دون أن تبتلّ أسلحتنا، حيث رصاصة جاهزة في كلّ ماسورة. في الصباح، أطلقنا عليهم النيران من ثلاثة اتجاهات.

كان زي بيبيلو قد خطّط لكل شيء، كأنه وضع رسماً. مشى جواو كونكليش أولاً، رفقة خمسة عشر من رجاله، لا يُظهرون أي شيء. حين أتى الآخرون، كنا جميعاً مختبئين في مواقع مناسبة. ثم جاء فافافا من الجهة الأخرى مع فرسانه: جاؤوا مزدحمين متراصين، لأنه هكذا يعطي الكتيب الانطباع بأنه أكبر عددًا مما هو عليه في الواقع. الخيول، التي معظمها شقراء أو دهماء،

لأن اللون الفاتح يجعلها تبدو أكبر حجماً. آه، كم كانوا يصيحون. كان الخونة يطلقون النار، بشكل أحرق، غير منسجمين، دون أي فائدة. هنالك، من ذلك العلو حيث كنا، أطلقنا عليهم وابل عقابنا. رجال هُزموا جينيس... على حين غرة، دون أن يجدوا وقتاً ليتنفسوا! رشاشات معدنية. - هيا نازلني، أيها الخلاسي! - وما إن يتكسر غصنٌ، أو يتمزق ثوب، حتى يسقط خائنٌ في الجهة التي يوجد فيها جيريببي: المسكين! - أوه! - كانت تلك طريقته في المساهمة الكاملة. رفع أعلى جسده قليلاً: - إيه، أنت، هل تظن نفسك إله صغيراً؟ - قال زي ببيلو بعد أن أرداه قتيلاً بطلقة في الأسفل، سريعة كأنها طائر الحجل. فرَّ آخر، سريعاً ذكياً: - له موهبة في عقبي قدميه... - توقفتُ عن عدِّ من صفيتهم، من باب الشفقة. المساكين! هذا هو النصر! هل تظن أنه شرٌّ مرَّحٌ، يشبه عملية قنص؟

نرتاح قليلاً؟ من طلبَ ذلك، لم يُسمع نداؤه. - هل أترك هذه الحثالة يعبثون هنا في سلام؟! هيا، يا رجال لنهاجمهم! - كان زي ببيلو يصيح مهتاجاً. أما رجال جَواو كونيكلش، فقد استولوا على خيول الآخرين. - لتتوجَّه نحو الشمال: هناك وجهُ الأرض ملكي أكثر من أي مكان آخر... - كلاً، كانت الطريق في الجهة المقابلة. كان علينا أن نزل مباشرة على أكبر عدد من الخونة. عبر الجداول، والمختصرات سرَّنا، وسرَّنا. ثم وصلنا إلى طريق كبير، يمشي فيه أربعة في الأمام. حتى بلغنا أوبي ماي. ثمَّة جدول به صخور واسعة، وأحجار كبيرة تغطي القعر وتظهر فوق السطح. وصلنا مرتاحين، دون عراقيل. زي ببيلو يفرِّقُ نصائحه، كأنه يقوم بجولة في حجرة مرضى. كان يشتمُّ حتى الهواء، كأنه قِطٌّ. أدركنا أنَّ كلَّ شيء كان في رأسه، يُحطَّط ويحارب. مثلاً على ذلك: كانت هناك وهدة عميقة يختبئ العدوُّ في قاعها من الجانبين، في التجاويف والجنبات. كيف كان زي ببيلو

يعلم ذلك؟ أخذ جواؤ كونيكلش رجاله نحو الأعلى، على حافة الحقول، في كمين. تركنا لهم الوقت ليتخذوا مواقع لأنفسهم، ثم سعدت كتيبتنا زاحفة حتى بلغت مشارف الوهدة. هنالك، وصل فافافا، وتقدّم، مكشوفاً دون احترازٍ مع فرسانه، وبرزوا مثل غزلان يسهل قتلها... لكن، آه! - حينئذٍ انطلقنا نازلين من أعلى الوهدة، صحناً وأطلقنا النيران على كل ما من كان في الأسفل. - عملٌ رائع! - آه! كان ذلك مثل خلية نحل في جذع مجوّف: الذين اختبأوا في التجاويف فقدوا السيطرة على أعصابهم، فزعوا، وتفرّقوا تحت وابل الأسلحة النارية، يتوعّدون، ويصيحون. كان جواؤ كونيكلش في انتظارهم، كما تعرف، يا سيدي... أما الصقور، فاستطاعت أن تحلق طائرة - صقور حقيقية.

ثم عدنا أدراجنا، فعبرنا مرة أخرى نهر سونينيو حتى بلغنا المكان حيث تركنا البغال، مع الذخيرة وبقية الأشياء الأخرى. انكمشنا دون أن نتراجع إلى الوراء. كان شيئاً مؤسفاً، ولكننا كنا مضطرين لنخادعهم بهذا الشكل، لأن مواردنا لم تكن كافية لنجهز على أولئك الخونة مرة واحدة. دائماً، دائماً، وحتى يخدعهم بما سيرون، كان زي بيبيلو يغير طريقتنا في السير، أحياناً نسير مجتمعين وأحياناً أخرى نتفرق. فوق ذلك، كنا نملك امتيازاً كبيراً في هذا التكتيك، أطلقنا وابلًا من الرصاص في مزرعة ساو سيرا فين!

واصلنا السير في ذلك الاتجاه، نحو الأسفل، فوجدنا مكاناً. ملتقى طرق. كانت الطرق تؤدي إلى فيريداس تورزاس - الميئة. لقد قلت لك ذلك، يا سيدي، لكنك لم تسمعي. لا تعد لتذكر هذا الاسم مرّة ثانية. هذا ما أطلبه منك. مكان لا يشبه أي مكانٍ آخر. أماكن كهذه بسيطة، لا تثير الانتباه. الآن، حين مررتُ من هناك، ألم تُصلي أُمي من أجلي في تلك اللحظة؟

هكذا، تمامًا كما في باريداو. لكن الماء صافٍ رقيق، يخرج من المنابع. الخير أو الشر، يوجدان في نفس من يقوم بهما؛ وليس ما ينتج عنهما من آثار. حين تسمع ما يلي، سوف تفهمني. هناك، توجد باريداو. سوف تذهب إلى هناك، سوف ترى. إنها قرية صغيرة. اليوم، لا أحد يسكنها. خلت البيوت. بل كان هناك بيتٌ بطوابق. نمت الأعشاب فوق سطح الكنيسة، وأينما دخلت، تسمع خفخفة الفئران التي تقطعها أصوات الطوايط. حيوانٌ يحتفظ في جسده بكل أشكال البرد فوق الأرض. تعود الثيران من الحقول، تحتك بالجدران، وتستلقي على الأرض. تسترخي تحت الظلال. مع بداية الظلام، تطفق الطوايط تُغطّي الثيران بمناديل صغيرة سود. تخاريم حداد سود. حين تُطلق رصاصة، تنبع الكلاب، مدة طويلة. نفس الشيء في كل مكان. لكن هذه الكلاب أصبحت متوحشة اليوم، وصارت مضطرة لتقنص ما تقتات عليه. كلابٌ كانت قد لعقت كثيرًا من الدّم. كما أن الفضاء هناك يُجِيم عليه صمتٌ كبير جدًا حتى أن همس منتصف الليل يبدأ عند التاسعة مساءً. سمعتُ ضجيجًا. شعله الكارناووبا^(١) كانت مضيئة. لم يبقَ أحد. رأيتُ فقط ببغاءٍ وديعًا متكلمًا، يمزق شيئًا ما بمنقاره. هل كان هذا يعود لينام هناك من حين لآخر؟ لم أرَ ذيادوريم مرة أخرى. ثمة شارع واحد يعبر هذه القرية، شارع الحرب... الشيطان في الشارع، وسط الدوامة،... لا تسألني عن أي شيء. يُستحسنُ ألا نسأل عن هذا النوع من الأشياء.

أعرفُ أنني أحكي بشكلٍ غير صحيح، أمرُّ على الأشياء مرور الكرام. دون أن أصحّح. لكنني لا أفعل لذلك لأخفي، لا تظن ذلك. أما بما يخصُّ الأمور الجدّية، تلك العادية، فقد قلت لك كل شيء، يا سيدي. لا أتردّد.

(١) نوع من النخيل يكثر في البرازيل. تُستخلص منه مادة دهنية تستعمل في الإنارة. (المترجم)

أنت رجل تفكر في أمور الآخرين كما لو أنها أمورك، لست ممن يشون بالآخر. لقد ألغيت أفعالي، طأها المنع وصارت في علم العام والخاص. صارت سمعتي أمرًا مقررًا. الآن، أصبحت مثل حيوان تأبّر في مسبح، لا أحد يستطيع أن يقبض عليّ. لم تعد أمامي حياة طويلة، فقط ينبغي أن أحمد الرب وأردّد ذلك. هراء. في سوق ساو جواو برانكو، ثمّ رجل يردّد: «الوطن لا يناسب العجزة». لا أتفق معه. الوطن للعجزة، أكثر من غيرهم. كان رجلًا مجنونًا، أصابعه مليئة بالخواتم القديمة التي لا قيمة لها، تنقصها الأحجار. كان يقول: تلك الخواتم يمكن أن تحدث صدمات كهربائية... كلاً. إنني أحكي بهذا الشكل لأنّها طريقتي في الحكى. حروب ومعارك؟ هذا يشبه لعب الورق، الورق الأول يربح، ثم يليه الثاني. بعد ذلك، مرّ من هنا المتمردون، جنود بريستيس^(١)، كانوا يأتون من غويّاس، يحجزون كل الدواب المسرجة. أعرف أنهم خاضوا معركة عند مصبّ نهر أورو كويّا، في ساو روماو، هناك حيث رست باخرة تابعة للحكومة، تعج بجنود من باهيا. بعد عدة سنوات من الآن، سيذهب مزارع ليقطع خشب شجرة فيجد الرصاص مغروسًا في جذعها. ما يهم أشياء أخرى. إن ذاكرة الناس تظل محفوظة في مقاطع متفرّقة، كل واحد بأحاسيسه وألوانه، بل أظن أن المقاطع لا تمتزج فيما بينها. إنّ الحكى بشكل متتابع، متسلسل، لا يليق سوى بالأشياء التي لا أهمية لها. إن كل شيء عشته حقًا، بفرح قوي أو حزن عميق، أظن اليوم أنني كنت كل مرة كما لو أنني أشخاص مختلفون. أحداث خارج السيطرة. أعتقد أنني هكذا، وهكذا أحكي. أنت طيب لأنك تستمع إليّ.

(١) لويس كازلوس بريستيس (١٨٩٨-١٩٩٠): سياسي ثوري من البرازيل. شغل منصب الأمين العام للحزب الشيوعي البرازيلي ونفّذ في عشرينيات القرن العشرين عدة مسيرات على مدينة ريو احتجاجًا على السياسات العمومية للبلاد. (المترجم)

ثمة أوقات قديمة نستشعر أنها أقرب إلى نفوسنا من أوقات أخرى، وإن كانت قريبة العهد. إنَّك تعرفُ ذلك حقًا.

انظر، مثلًا؛ تلك الفتاة العاهرة، التي تحمل اسمًا جميلًا، نيورنيا، بنتُ أنا دوزوزا: ذات يوم، توصلتُ منها برسالة: رسالة عادية جدًّا، تسأل عن الأخبار وتبعث السَّلام، رسالة كُتبت بيدٍ أخرى، أعتقد جيدًا. كانت نيورنيا هذه تضع منديلًا قصيرًا على رأسها، كأنها هُدهُدٌ صغير. كتبت الرسالة وبعثتها. بيد أن الرسالة استغرقت ثمانى سنوات كي تصلَّني. عندما وصلَّتني، كنتُ قد تزوّجتُ. رسالة جالت بين مكان وآخر، بعيدًا في دُروب السَّرتاو، في هذه الأراضي العُليا، متقلبة بين الجيوب والأكياس، بسبب كثير من أعمال الخير. كُتبت فوقها، فقط: ريوبالدو، الذي مع ميدييرو فاش. وصلت الرسالة بعد أن حملها البغالون، والمسافرون، وبعد أن جابت كلَّ المنطقة. تكادُ لا تُقرأ، من كثرة ما طووها وأعادوا طيَّها، فاتسخت، وتمزَّقت. بل إنهم لفَّوها في ورق آخر وشدُّوها بخيطٍ أسود. بعضهم لم يكن يعرف من أيِّ يد تسلمها. كان آخرُ من جاءني بها، بسبب خطأ من أخطاء القدر تقريبًا، رجلٌ كان ينزل بقطيعه نحو الأحراش الأكثر جفافًا، خوفًا من مرض الذبابة. كنتُ متزوِّجا. إنني أحبُّ زوجتي، أحبُّتها منذ أول يوم، ومازلتُ أحبُّها. عندما تعرَّفتُ على نيورنيا بعينيَّ ويديَّ، أحبُّتها، فقط في تلك اللحظة التافهة. لا بدَّ أنها كانت تحبُّني حين كتبتُ تلك الرسالة. أقامت وقتها بعيدًا، للأسف، في ساو جوزيزينيو دا سيرًا، في اتجاه زياشو داس ألماس في طريق العودة من مُورُو دوس أوفيسيوس. عندما تلقيتُ الرسالة، هناك أدركتُ أنني أحبُّها حبًّا كبيرًا يتطاير شررًا؛ لكن، دون أن أتوقف عن حبِّها لحظةً واحدة، منذ تلك اللحظة العابرة التي كنتُ معها في أرويرنيا، وتعرفت عليها بالجدس. نيورنيا، تلك السعادة المستقرَّة في عينيَّ، وفي فمي. من هنا إلى هناك، انقضت

ثماني سنوات. لم يعد لها وجود. هل تعرف ما معنى هذا، يا سيدي؟ الحقيقة أن ذاكرتي صارت أكثر جمالاً. أكيد، أنها لم تعد تحبني اليوم، بل، من يدري، ربما تكون قد ماتت... أعرف أن ما أقوله صعبٌ، متشابك جداً. لكنك، يا سيدي، تسبقني. أغبطك على ما تتمتع به من علم ومعرفة. أودُّ أن أفكَّ شفرات الأشياء المهمة. ما أرويه ليست حياة رجلٍ من السَّرتاؤ، ولو كان من الجاغونسو، بل ما يهمُّ فيها من أمور. أودُّ أن أفهم الخوف والشجاعة، والغضب الذي يدفعنا للقيام بكثير من الأفعال، وتجسيد ما يحدث. إنَّ ما يدفعنا إلى القيام بأفعال غريبة هو أننا قريبون جداً ممَّا نملك بحكم القانون، لكننا لا نعرف ذلك، لا نعرف.

ومع ذلك، أقول حماقات للمجنون. بيد أنَّك وافدٌ جديد، رجل متعقل، وفيّ مثل وثيقة، تصغي إليّ، تفكّر، تعيد التفكير، تعيد الكلام، وبذلك تساعدني. هكذا، أحكي. بل إنني أحكي الأشياء التي شكلت بالنسبة إليّ الماضي أكثر. أحدثك عن السَّرتاؤ. عمّا لا أعرف. سِرِّتاؤ شاسعٌ. لا أعرف شيئاً. لا يعرف أحدٌ أيَّ شيء بعد. إلَّا القليل النادر من الناس - وتلك الوديان، تلك الوديان الصغيرة التي تتخللها نقط ماء، وأشجار البوريتي. ما أشكركُ عليه هو دقَّة انتباهك، يا سيدي.

ذات يوم، حدث ذلك، وقع حدثٌ ما. الأول. حدثٌ أعاد لي الحق، سوف ترى لماذا.

حدثٌ وقع منذ مدة، منذ مدة طويلة، تصوّر: ربما كنتُ في الرابعة عشرة، لو أن. كنا قد جئنا إلى هنا - مسافة خمسة فراسخ تقريباً - أُمِّي وأنا. عند ميناء نهرنا، نهر رِيو دي جانيرو، الذي رأيته، يا سيدي. إنه الآن ميناء السيد جُواوزِينيو، التاجر. ميناء، هذا كثير، لكن ليس هناك من اسم آخر. لذلك فهو كذلك، يسمى في السَّرتاؤ. إنه شاطئ هناك في الأسفل، مع بيت،

حظيرة ومستودع. مستودع للحبوب. بل كانت هناك أيضًا شجرة وزد. تصور! سوف تذهب وترى ذلك. حسنًا، وقتئذ، كان كل شيء هكذا تقريبًا. على بعد نصف ساعة نحو الأسفل، كان نهر جانيرو يصبُّ في نهر ساو فرانسيسكو. يصل مستقيماً، ويشكلان معاً زاوية مستقيمة. من يحتاج لذلك، يعبر نهر جانيرو بالقارب - لأنه ضيق ولا يتجاوز الثلاثين فرسخًا. من يُرِدُ بلوغَ ساو فرانسيسكو، يبدأ رحلته من ذلك المكان أيضًا. فالميناء هناك، هذا ضروري، نحو أعلى النهر، حيث لا يصاب الناس بحمى المستنقعات. تنحدر ضفة النهر بقوة، ولا يمكن تحسين ذلك لأنَّ الفيضانات تأتي وتحفر كل شيء. تحبس مياه نهر ساو فرانسيسكو مياه نهر جانيرو، أحياناً عند بداية شهر تشرين الثاني. في شهر كانون الأول، يكون ذلك أمرًا أكيداً. أثناء ذلك، يتعيَّن على المراكب أن تنتظر، مشدودةً إلى جذور مكشوفة لشجرة كُبيبة هناك. كما كانت هناك شجرتان أو ثلاث شجرات من أشجار السَّنط، من الزمن الماضي، أتذكَّرُ ذلك جيداً. رؤية الناس ينزلون إلى أحوال تلك الضفة، وغالباً ما يحملون أكياساً ثقيلة، كان شيئاً يثيرُ الشفقة والأسى. إنَّ ثمن الحياة هنا يُدفعُ مرَّتين، إنَّكَ توافقني. حينئذ، في زماني أنا، ما الذي لم يكن، إذن؟

حسنًا، ما حدث هو أنَّني كنت قد شفيتُ للتو من مرض، وكانت أمي قد قطعت على نفسها وعداً يجب أن أنفذه يوم أشفى: كان عليَّ أن أتسَوَّلَ حتى أجمع مبلغاً صغيراً - أدفع نصفه مقابل إقامة قداس في الكنيسة، ونصف آخر أضعه في دُبَاء يُغلقُ بإحكام ويُلقى به في نهر ساو فرانسيسكو حتى ينزل عبر النهر ليلبغ، في ولاية باهيا، ضريح «سيدنا يسوع الطيب في لاَّبَّا»، الذي يستطيع القيام بكل شيء على ضفاف النهر. المرفأ مكان جمع الصَّدقات. أعطتني أمي قراباً صغيراً. كنتُ أذهبُ إلى هناك كل يوم. هناك أنتظر، في ذلك المرفأ، ونادراً ما يأتي أحد. لكن ذلك كان يعجبني، كنتُ أريد مستجدات هادئة لعينيَّ. كنتُ

أخشى النزول إلى الضفة. لكنني كنتُ أقرب قطع الدُّباء الصغيرة التي تُستعمل لتطفو فوقها الصنارات، التي تظل دائماً معلقة على جدار المستودع.

في اليوم الثالث أو الرابع وأنا هناك، وصل أشخاصٌ آخرون. رجُلان أو ثلاثة رجال، غرباء، يشترُون تلك الأكياس الكبيرة التي يحتوي كُلُّ واحد فيها على قنطار من الرُّزِّ، ويشدُّ بخيط برعوم من شجرة البوريتي، وورقة جديدة - خضراء وصفراء، قُطِّعت طولياً إلى نصفين. كانوا يرفعون تلك الأكياس على أكتافهم، ويقطعون في المراكب إلى الضفة الأخرى من نهر جانيرو. في تلك الضفة الأخرى، وكانت كما هي اليوم، غابة سامقة الأشجار. لكن، وسط الأشجار، كان يمكن أن نرى عربة ثيران متوقفة، والثيران تجترُّ بلعاب قليل، ممَّا يعني أنها قطعت مسافات طويلة. من هنا، فأنت ترى، يا سيدي، كل هذا العناء، بسبب بضعة أمتار من المياه الهادئة، فقط لأنه ليس هناك من قنطرة. بالإضافة إلى هذا، فإنَّ رحلةً على متن عربة تجرُّها الثيران تستغرقُ أياماً وأياماً لقطع مسافة تقطعها بسيارة جيب في بضع ساعات. لكن ذلك ما زال يتم هكذا، على ظهور الرجال، حتى يومنا هذا.

وهناك، فجأة، رأيتُ شاباً متَّكئاً على شجرة، يدخنُ سيجارة. شاب أصغر سنّاً مني، أو لا بد أن سنه يناهز سني. كان هناك، يضع قبعة من جلد، يحني ذقنه ويبتسم لي. لم يتحرَّك. كنتُ أنا من اقتربتُ منه أولاً. راح يشرح لي، بنبرة عادية تماماً، أن ذلك المشتري عمُّه، وأنها يسكنان في مكان يدعى أوس بوركوس، في النصف الآخر من العالم المختلف تقريباً، لكنه لم يولد هناك. كان يحكي كل ذلك، وكان شاباً وسيماً جداً، بلون بشرته الصافية، رأسه المرفوعة، وعينيَّه الخضراوين الواسعتين. بعد ذلك بكثير، علمتُ أن ذلك المكان الصغير، أوس بوركوس، يوجد حقاً، ليس بعيداً جداً عن هنا، في الأراضي العليا في لاسانس.

- هل كل شيء على ما يرام، هناك؟ - سألتُه.. - جيد جدًا - أجابني وأضاف قائلاً: - عمِّي يزرع كل شيء. لكنه، هذا العام، لم يستطع أن يزرع الرُّزَّ، لأنه ترمَّل بعد أن ماتت زوجته،... بدا لي أنَّهما شعرا بالخجل وهما يشتريان الرُّزَّ، كما ترى، يا سيدي.

لكنني كنتُ أنظر إلى ذلك الشاب، بمتعة من يحظى برفقة، متعة لم أشعر بها قطُّ مع أيٍّ أحدٍ. وجدُّه مختلفًا، أعجبتني ملامحُه، وكذلك صوته، الخفيف جدًا، الممتع للغاية. لأنه كان يتكلم من دون أن تتغير نبرة صوته، من دون قصد، ومن دون جهد كبير، طريقة قديمة جدًا وراشدة في الحديث. شعرتُ برغبة تجتاحني، ألا يذهب أبدًا بل أن يظلَّ كذلك لساعاتٍ طوال، من دون ثرثرة أو كلام فارغ - أن يكون فقط رفيقي، صديقًا مجهولًا. فأسرعتُ لأخفي قرابي بسرعة، لما شعرتُ به من خجل، حتى وإن كنتُ أفعل ذلك لأني بوعدٍ وأنا أتسوَّل. لكنه ظل يتابع عمل الرِّجال ثم أثار انتباهي إليهم، بطريقة معقولة. فأدركتُ، بطريقتي الطفولية، أنه هو أيضًا تعاطفٌ معي.

بما أنه كان يملك مالًا، فقد اشترى ربع قطعة جُبِن وشيئًا من السُّكر البُنِّي. قال إنه ذاهب ليقوم بجولة في المركب. لم يستأذن في ذلك عمَّه. سألني إن كنتُ أريد أن أذهب معه. كان يفعل كل ذلك بلمسةٍ بساطةٍ، خالية من أيِّ إلحاح لا يسعُّنا معها إلا أن نقول نعم. مدَّ لي يده ليساعدني على النزول إلى الضفة.

كانت هناك عدة قوارب، كلها طويلة، مثل قوارب أيامنا هذه، نُحِتت داخل جذوع الأشجار. كان أحدها مجوَّفًا يُستعمل لنقل الرُّزَّ، فاخترنا أحسن قارب من القوارب الأخرى، لا ماء في عمقه تقريبًا ولا وحل. جلسْتُ بداخله، مثل كتكوت داخل بيضة. جلس قبالي، فكُنَّا وجهًا لوجه. لاحظتُ أن القارب لم يكن متوازنًا جدًا، يتأرجح على هوى النهر. كان

الشاب قد مدّ لي يده كي أنزل على اليابسة. كانت يدًا دقيقة، ناعمة ودافئة. كنتُ خجلاً، مرتبكاً. أصابني تأرجح القارب بقلقٍ متزايد. كنتُ أنظر إلى تينك العينين المتقدتين، العجيبتين، الخضراوين مثل خضرة الماء، بأهدابها المورقة، تشعّان إحساساً بالهدوء، الذي كان يجتاحني تقريباً. لم أكن أعرف السباحة. المُجذّف، شابٌ في مثل عمرنا نحن الاثنين تقريباً، ظلَّ يجذّف. لم يكن ذلك ممتعاً، لأن القارب كان يتمايل بقوة. فقررتُ أن أظهر همّتي. كان أحسن ما في الأمر أنني كنتُ بالقرب من الشاب. لم أكن أفكر حتى في أمي. كنتُ أسير على غير هدًى.

واعلم، يا سيدي، أنّ نهر جانيرو يتميز بمياهٍ صافية، وشفافه تعجّ بالسّلاحف. إن نظرتَ إلى جانبك، ترى سلحفاةً فوق حجر تستحم بأشعة الشمس، أو تسبح فوق السطح، ظاهرة للعيان. كان الشاب هو من أشار إليها ونبّهني إلى وجودها. كما نبّهني إلى النباتات على طول النهر، الواقفة على الحافة كأنها حائط رُسم بشكل واضح ومنتظم - أزهارٌ... - قال مبتهجاً. هناك في الأعلى، كانت كثير من الأزهار، حمراء فجأة، أزهار الياقوتية ونباتات متسلقة أخرى، وأزهار الموكونيا البنفسجية، تلك الفاصوليا البرّية؛ لأننا كنا في شهر أيار، يجب أن أخبرك بهذا، - الفترة التي ينبغي أن يشتري خلالها الرُّزّ كلّ من لم يزرع. غرّد طائرٌ. هل يكون طائر نيامبو^(١)؟ كانت ببغاوات صغيرة تمرُّ أسراباً فوق رؤوسنا. ها أنت ترى، يا سيدي، لم أنس شيئاً. هذا الشاب، كيف كان بوسعي ألا أتذكّره؟ طائرٌ أحمرٌ - هل كان ببغاء؟ - سألني. ثم تساءل الطوقان مُندهشاً: ماذا؟ ماذا؟ ماذا؟ لم يشبه الشاب أحداً، كما قلتُ لك، لم يكن به ولا شيء واحد من ملامح أيّ شخصٍ آخر. بل كان رقيق

(١) نوع من الحجل المتوحش، يكثر في البرازيل. (المترجم)

الطبع، لكنه قوي، هادئ، شيئاً ما مثل عطر جميل لا يمكن تحديد رائحته، حتى أعطيك فكرةً عنه. حتى ملابسه، لم تكن تتخللها ولا لطخة واحدة، ولا طيةً واحدة، لا تنكمش. في الحقيقة، كان قليل الكلام. كان واضحاً أنه يستمتع بالهواء الجميل، في صمت، وعن دراية، وكل شيء فيه كان يشي بالثقة في النفس. وددتُ لو يشملني بحبه.

لكننا سرعان ما بلغنا نهر دُو شيكو. ظهر فجأة، يا سيدي، فكانت تلك المياه الفظيعة الشاسعة بكل اتساعها. إنَّ أكبر خوف يمكن أن يشعر به المرء هو أن يصل إلى هناك مُجذِّفاً عبر نهر صغير، ثم يجد نفسه، على حين غرة، وسط نهر عظيم. التغيُّر لوحده أمرٌ سيءٌ. إنَّه القبح الذي يجري به نهر ساو فرانسيسكو، متموجاً في الوحل الأحمر، ثم يتلقى نهر جانيرو، أخضر، يجعله مجرَّد جدول صغير. - هل سنعود انطلاقاً من هذا المكان؟ - سألتُ قلقاً. لم ينظر الشاب إليّ، لأنه كان ينظر إليّ كما كان يفعل من قبل - لماذا؟ - سألني بكلِّ بساطة، هادئاً مطمئناً. وحده المُجذِّف من وقف ضاحكاً مني. ابتسم الشاب، دون طيبة، دون خبث. لم تكن عيناه ترمشان. كان المُجذِّف يسوق القارب واقفاً بين ماءين غير عميقين من دون وجهة محدَّدة، يجول بالقارب وهو يدفعه بلُطف. بعد ذلك، دخل في نهر دو شيكو، وصعده على طول الضفة. كنتُ أنظر بحرصٍ إلى النباتات على الحافة. ضفاف من دون أي شاطئ، حزين، حيث كل شيء يشي بالإهمال، شبه متعفّنة، عالقة في أحوال الفيضانات الأخيرة، كما تعرفُ: عندما يبلغ نهر دو شيكو ستة أو أحد عشر متراً. في لحظة ما، ركنَ المُجذِّفُ القارب وسط القصب تقريباً، ثم انحنى لأنه كان يريد أن يكسّر عرشاً من شجر ماراكوجا الأدغال. قام بحركة خاطئة فكاد القارب أن ينقلب، ووقف الشاب بدوره. أطلقتُ صيحةً - لا، لا شيء - قال بكل لطف. - إذن، إنقياً جالسين... احتججتُ. فجلس. لكن، بكل

جَدُّ، وبلطفه الجذَّاب، بكلمة واحدة، حاسمة، دون أن يجرح مشاعره، قال للمُجذَّف: - اعبُر! - فلبَّى المُجذَّف أمره.

شعرتُ بالخوف. أتعرف؟ هذا كل ما في الأمر. شعرتُ بخوف شديد. في الجهة الأخرى، لمحتُ حدودَ النهر. بعيدًا، بعيدًا، كم من الوقت ينبغي للوصول إلى هناك؟ خوف وخجل. هذا التيار المتوحش، الخائن - النهر يعج بالصَّخب، بالطُّرق الرَّخوة، بالهمسات والأسف. كنتُ أتشبث بالقارب، أغرس أصابعي في خشبه. لم أتذكَّر كابوكلو داغوا^(١)، روح المياه التي تقلب القوارب، لم أفكر في الخطر الذي تمثله نمور المياه، كلاب المياه التي تخرج من المياه قطعانًا وتعتدي على الناس: تُطوِّق القارب وتعمد إلى قلبه. لم أتذكَّر أي شيء. تملكني خوفٌ أعمى. كل ذلك الضوء الذي يغمر النهار. اندفاع النهر، وفقط هذا التعذيب بالقارب، مع ما ينطوي عليه الماء من خطرٍ لا ينتهي، من جانبٍ إلى آخر. لكنني كنت حتى وقتئذٍ قد تشبثت بأملٍ واحد. كنتُ قد سمعتُ أنه حين ينقلب قارب فإنَّه يطفو فوق الماء، لذا يكفي أن يتمسك به المرء ولو بإصبعٍ واحدة، كي يقاوم، ويثبت حتى لا يغرق، ثم بعد ذلك يترك نفسه لينساق حتى يبلغ اليابسة. قلت ذلك. لكن المُجذَّف عارض رأيي: - هذا القارب من النوع الذي يغرق مباشرة. إنَّه مصنوع من خشب البَغونية. القوارب المصنوعة من خشب البَغونية والكُيبية لا تطفو فوق الماء. تملكني الحقدُ: آه، كل تلك القوارب في المرفأ، قوارب جيدة تطفو، من خشب البلاذُر، والرُّزُّ، والإمبمورانا، ونحن اخترنا هذا القارب... إنها حقًا جريمة أن يصنعوا قوارب مثل هذا القارب، من خشبٍ رديء! ربما لم يكن الأمر غير كذبة - لكن لا بدَّ أنني فتحتُ عينيَّ جاحظتين. هادئًا أمامي، حذرًا،

(١) كائنٌ أسطوري في معتقدات شمال شرق البرازيل. يُعتقد أنه يسكن أعماق مياه نهر ساو فرانسيسكو في كهف من ذهبٍ، ويزرع الرعب في نفوس الصيادين والبحَّارة. (المترجم)

كان الشاب ينظر إليّ، يحبّ التحلي بالشجاعة... - هل رأى عينيّ تغرورقان بالدموع؟ وجدتُ صعوبة في الرّد عليه: - إنني لا أجيّد السباحة... - ابتسم الشاب ابتسامة جميلة. ثم قال: - وأنا أيضًا لا أجيّد السباحة - هادئًا، كل الهدوء. رأيتُ النهر. كنتُ أنظر إلى عينيّه، كانتا تشعان بنور. - بماذا نشعر حين يتأبنا الخوف؟ - سألني حينئذٍ، لكنه لم يكن يسخر مني؛ فلم أغضب من ذلك. - ألم تشعر بالخوف مرة؟ - كان هذا كل ما وجدتُ لأقول له. أجبني: - لا يحدث لي ذلك... - وما هي إلّا لحظةٌ أطلقت فيها تنهيدةً حتى قال: - أبي يقول إنّه لا ينبغي أن نشعر بالخوف... - وهو ما تركني نصفَ مندهش. ثم أضاف: - أبي هو أكثر الناس شجاعةً في العالم. كانت تلك المياه المتدفّقة، من حولنا، بهول جريانها، هي أعظم نهر رأيتُهُ في حياتي. ذلك النهر، يومئذٍ. كان يمكن أن نسمع، ونعدّ، كل ضربة من ضربات المجذف، مع الخوف من ألاّ ينتهي ذلك الشوط أبدًا. - آه، أنت: ألسْتَ خائفًا البتّة؟ - سأل الشابُّ المُجذّف، بنبرة فيها شيء من الكبرياء. - أنا من ضفاف النهر! - أجابه المجذّف، وردّد ذلك بفخر كبير. استحسّن الشابُّ الأمر، لأنّه وافق بحركة من رأسه. أنا أيضًا. كانت القبعة الجلدية فوق رأسه شبه جديدة. عيناه، كنتُ أعرف ذلك وما زلتُ أعرفه اليوم أكثر من الأمس، كانتا تغروران في عمّة قاسية. أدركتُ، رغم صغر سني، وهو يراني أرتعش من رأسي إلى أخمص قدمي، أن ذلك كان يُقوّي شجاعته. لكنني تحمّلتُ سحرَ نظراته. فصارت عيناه ناعمتان مرة أخرى واستعادتا بريقهما. ثم وضع الشاب يده على يدي. ضغط على يدي فشعرتُ أنها صارت أحسن ما في جلدي، عميقة كأنها تنقل شيئًا ما إلى جسدي. كانت يداً بيضاء، بأصابع رقيقة. أنت شجاع، بدورك... - قال لي. طلع الفجر في حياتي. لكنّ الارتباك الذي كنتُ أشعر به الآن كان من نوع آخر. بدأ المجذف يغني، بصوت قبيح، مردّدًا لازمةً

يتغنى بها سكان الضفاف على طول نهر ساو فرانسيسكو: يا نهري الجميل، نهر ساو فرانسيسكو، في كل هذا الوحل، جئتُ أهديك جرعة ماء، أتوسَّل منك البركات... ثم ابتعدنا ووصلنا إلى الضفة الأخرى، تلك البعيدة جدًا. حين رأى ذلك، أمر الشاب بالرُّسو؛ فنزلنا. - أنتَ، لا تبتعد عن هنا، ابقَ هنا واحرس. - قال رُبَّان القارب، الذي بدأ يمارس تلك السلطة منذ أن ربط السلسلة إلى شجرة البلاذر. إلى أين كان يريد الشَّاب أن يذهب؟ فكَّرتُ، ولكنني مشيتُ، وذهبنا عبر الوادي الخصب، وسط حُمرة نباتات النَّجليات الكثيفة. أخيرًا، جلسنا في مكان مرتفع، به حجارة، تحيط به المستنقعات. بقينا هناك، كذلك، دون أجل، أي صامتين فقط لا غير. كان البعوض هو ما يزعجنا أكثر، شيء عادي. - يا صديقي، هل تريد أن تأكل؟ هل تشعر بالجوع؟ - سألني. ثم قدَّم لي جنبًا وعجين فواكه. لم يأكل هو نفسه غير فُتات. كان يدخِّن. انتهى من التدخين، كان يقتلع سيقان النباتات ويمضغها؛ كان لها طعم الذرة التي لم تنضج بعد، وعليها كان يتغذى خنزيرُ الماء. لذا، عندما شعرتُ برغبة في التبول، وأخبرته بذلك، قرَّر: - انظر، اذهب إلى الخلف، بعيدًا عني، وافعل ذلك... - لم يقل شيئًا آخر؛ فأدركتُ أنه كان يحتقرني وهو يقارن ملابسي الفقيرة بملابسه.

لحظتها، من خلفنا، برزَ وجهُ رجل، دون سابق إنذار! كان يزبح أغصان الأشجار بيديه، فأفزعني فقط. أكيدُ أنه كان هناك طريق يمرُّ قريبًا من هناك، كان الرجل قد سمع حديثنا. كان، في الحقيقة، شابا خلاسيًا، في حدود ثمانية عشر أو عشرين عامًا؛ لكنه قويُّ البنية، خشنُ الملامح. بنبرة فاحشة، قال: - إيه أنتما معًا! ما الذي تفعلانه؟... - ثم دمدم، مُجادلًا، وقام بحركة بذيتة إذ رفعَ إصبعه الوسطى في قبضة يده المشدودة. نظرتُ إلى الشَّاب. يبدو أنه لم يندعش للأمر، وظلَّ أصمَّ، جالسًا، اجتماعيًا بابتسامته المعتادة. -

إيه، إيه وأنا؟ أنا أيضًا أريد! - ألحّ الخلاسي وهو يتقدم. حينئذ، تمكّنت من الكلام بصوت مرتفع، وأجبتُه أننا لم نكن بصدد القيام بأيّ دناءة تُذكر، فقط كنا نتأمل مسافات النهر وثبات الأشياء. لكن أقل ما كنتُ أنتظر هو أنني سمعت صوت الشاب الجميل: - أنت أيها الجميل؟ حسنًا، اقترب من هنا... - صوته، طريقته كانت تحاكي النساء. فهل كان ذلك؟ فرح الخلاسي وراح ليجلس بالقرب منه.

ثمّة أحداث، من تلك التي تقع بسرعة، فلا تجد نظرائنا وقتًا لمواكبتها. هل ضربَ الشعبانُ بلسعته؟ هذا ما حدث. قفز الخلاسي نحو الوراء، وأطلق صيحة، أنينًا زاعقًا. قطعَ الغابةَ، هاربًا، وكانت تُسمعُ هروله تلك. كان الشاب يُلوّح بالخنجر العاري في يده ولا يضحك... كان قد غرس الحديد في فخذ الخلاسي، وشقه عميقًا. كانت الشفرة تقطر بدم خبيث. لكن الشاب لا يبرح مكانه. ثم نظف الخنجر في العشب، بكل عناية. - خنجر قاطع.... - كان كل ما قاله، محدّثًا نفسه، ثم أعاد الخنجر إلى غمده.

لم تهدأ مخاوفي. يمكن أن يعود الخلاسيّ، ربما ذهب يبحث عن منجل، عن مسدس، سيجمع رفاقًا؛ ما مصرينا بعد قليل؟ حدّثُ الشاب عن ذلك كله، وأضفت أنه يتعين علينا الرحيل بسرعة. - يجب التحلي بالشجاعة، يجب التحلي بكثيرٍ من الشجاعة... - هدّأني بكثيرٍ من اللطف. فتذكّرتُ ما قاله لي قبل قليل، وهو يحدثني عن والده. سألتُه: - ولكن، هل تعيش مع عمك؟ - حينها، نهض، ودعاني لنعود. لكنه تأخر، وعاد على مهل حتى بلغ القارب. لم ينظر إلى الوراء. لا، لم يكن يعرف الخوف، لا من الخلاسي، ولا من أي أحدٍ آخر.

يوجد كل شيء في هذا العالم، أشخاص غرباء: كان المُجذّفُ ينام ممدّدًا داخل القارب، البعوض فوقه وقميصه مبلل بعرق الشمس. فرحَ بالجنين

وعجبن الفواكه، أخذنا مجذفاً، بل كان يغني أيضاً وسط النهر. لن أصف لك تلك العودة: كان كل شيء هو نفسه، نفسه. إلا أنه، تلك المرة، بدا لي كل شيء يجري بسرعة. - هل أنت شجاع، دائماً؟ - سألت الشاب في تلك اللحظة. كان الشاب يبذل يديه بالماء الأحمر. طرّق يفكر لحظة. في النهاية، دون أن ينظر إليّ، قال: - أنا مختلف عن الجميع. قال أبي إنه ينبغي أن أكون مختلفاً، مختلفاً جداً... - لم أعد أشعر بالخوف. أنا؟ إن الشيء الدقيق والخطير هو هذا، اسمع، يا سيدي، اسمع وتمعنّ فيما وراء ما أقول لك من كلمات؛ اسمعني بلا تحيز. الخطير هو هذا، أخطر ما في الحكاية - ولذلك حكيته لك: لم أكن أشعر بأي شيء. فقط بتحوّل، قابل للقياس. كثير من الأشياء المهمة ينقصها الاسم.

كانت أُمّي في المرفأ، بانتظاري. اضطررت لأذهب معها، فلم أتمكن من أن أودّع الشاب كما ينبغي. من بعيد، استدرت، حيّاني بإشارة من يده، فأجبت. لم أكن أعرف اسمه. لم أكن بحاجة لذلك. لم أنسه قط، بعد كل تلك السنين.

الآن، وقد استمعت إليّ، سأطرح عليك أسئلة. لماذا كان يجب أن ألتقي بذلك الشاب؟ حماقة، أعرف ذلك. أتفق معك. لا تُجبني. لكن، أي نوع من الشجاعة تلك التي كان يتمتع بها؟ من أين كان يستمدّها؟ من الربّ، من الشيطان؟ من أحدهما أم من الاثنين معاً؟ حول تلك الأسئلة التي ما فتئت أ طرحها على نفسي طوال حياتي، حتى عرّابي كيليمين لا يُعلّمني شيئاً. ما الذي قصده والدّه بكلامه؟ وقتئذٍ، بالنظر إلى سنّي، لم أ طرح ذلك السؤال على نفسي. انظر واسمع: في نازاري، تعرّض شاب للإهانة فقتل رجلاً. قتله وهرع إلى بيته. هل تعرف كيف استقبله والدّه؟ - يا بُنيّ، ها قد صرت بالغا. في كبري، لدي من يحميني، ويعرف كيف ينتقم لي... - اللعنة! أنت

تري، أنت تعرف. السَّرتاؤ هو العقاب، والجريمة. السَّرتاؤ هو المكان الذي يجب على الرجل أن يكون فيه صلبَ القفا، سريعَ اليد. لكن، حيث يصير الجواب، أي جواب، شيئًا بليدًا، هناك يُطرح السؤال. لماذا تعرَّفتُ على ذلك الشاب؟ أنت لم تعرفه، لم يعرفه عرَّابي كيليمين، ولم يعرفه ملايين الناس. فكَرَّ، يا سيدي، ثم أَعَدَّ التفكير فيما فَكَّرْتَ فيه: لماذا كان عليَّ أن أقطع النهر قبالة ذلك الشاب؟ نهر ساو فرانسيسكو دائمًا هناك، قويٌّ، جارٍ. الهضبة تمتد بعيدًا، مُحاذي غويَّاس، في طرفها. الأراضي العُليا لا تبالي بالزمن. أحلامٌ وهواجسٌ: أظن أنه كان عليَّ أن أتعلم كيف أكون مرحًا وحزينًا في الوقت نفسه، بعد ذلك، حين أفكر في الشاب، يبدو لي أنه. لكن، لماذا؟ لأجل ماذا؟ كنتُ في مرفأ جانيرو، أحمل قرابي في يدي، أجمع الصَّدقات للطفل يسوع، وفاء مني بوعدٍ لأُمِّي حتى أشفى من مرض خطير. هل يبدو فعلًا أن حياتنا ليست مرثوقة بهذا الشكل؟ ربَّما كان القدر، أفكر: فهناك، زي ببيلو الذي كان يعرف شيئًا عن هذا، لكنه كان يعرف من دون أن يعرف، ولم يكن يريد أن يعرف؛ مثل ميديرو فاش، مثل جوكا راميرو؛ مثل عرَّابي كيليمين، الذي يسير في رحلةٍ مختلفة. ماذا، إذن؟ لا تُحِبُّني، لا تُحِبُّني. لكن، اليوم، غداً، أريدك، يا سيدي، أن تقدم جوابًا. هكذا، سوف تُسعدني. الآن، وأنت صامتٌ بكل صراحة؛ أرى أنَّك تنيرني.

بعد ذلك؟ أحكي. البقية بسيطة. ماتت أُمِّي؛ بيغري، هكذا كان اسمها، بكل بساطة. ماتت في يومٍ من أيام كانون أوَّلٍ مُمطرٍ. هناك، كان حزني عظيمًا. لكنه كان حزنًا يعرفه الجميع، كان حزنًا من حَقِّي. مذكَّك، وحتى اليوم، يرحلُ بي حزنُ أُمِّي بعيدًا. ماتت، فتحوَّلت حياتي، دخلت في جزء ثان. استيقظتُ أكثر. كإرث، بقيتُ لي أشياء صغيرة بائسة - تفاهات بريئة تقريبًا - لا يمكن اعتبارها: هناك، تركتُ الوعاء، الطَّست، الحصائر، المقلاة، غلاية

الشوكولاته، قذراً وغلاية الماء؛ أخذتُ فقط سريري المعلق، أيقونة قديس خشبية، جرة مزينة برسوم الأزهار، مشبكاً كبيراً مزيناً، غطاءً مُرخى وملاهي لتغيير ما أرتديه من ثياب. وضعوا كل شيء في رزمة، ما يكفي لملء نصف كيس. إلى أن أشفق لحالي أحد الجيران، بسبب المطر، وأخذني معه في رحلة دامت ستة أيام إلى فازيندا ساو غريغوريو، إلى عرّابي سيلوريكو مينديس، بمحاذاة طريق قطعان الماشية، باتجاه باغري وكورالنيو، هناك حيث تبدأ الجبال في الانحدار. ما إن وصلتُ حتى استقبلني عرّابي سيلوريكو مينديس بكل طيبة. كان غنياً وشحيحاً، يملك ثلاث فازيندات لتربية الماشية. هذه الفازيندا، أيضاً، كانت ملكه، وهي الأكبر بينها.

- بما أنني لم أعرفك من قبل، خلال كل هذه السنين، فإن ذلك يُطهرني من الذنوب - كانت هذه هي الكلمة الصادقة التي قال لي، بعد أن تفحصني جيداً. قضيتُ أياماً وأنا أفكرُ إن لم يكن في كامل قواه العقلية. لم يتحدث قطُّ عن أمي. كما أنه لم يكن يتطرق تقريباً لأموال التجارة وما جاورها. بيد أنه كان يحب الحديث، ويروي الحكايات. كان يُحدثني عن ملاحم الجاغونسو - أحبّ ذلك دائماً - وعن حكاياتهم.

- آه، الحياة الحقيقية شيء آخر، حياة مواطن السّر تاو. السياسة! كل شيء سياسةٌ ونافذون أقوياء. مؤسف، لأن هذه أرض مسالمة، تنام بسلام، وأنا رجل خاص. لكن، هناك في الأعلى، هناك مزارع متجبر يُنصب نفسه سيداً يأمر وينهى: كلهم يملكون خدماً شجعاناً، عصابات من الرجال المسلحين بالبنادق! دومينغوس تورو، في ألأمبيكيس، ماجور أوربانو في ماساسا، آل سيلفا في كرونوديوبا، وبروشيرا بلانزينا في فاوفاو. دونا أديلاندي في كامبو ريدوندو، سيماء أفيلينو في بارا دا فاك، موزار فييرا في ساو جواو دو كاناستراو، العقيد كاموسين في أركانوجوس، مقاطعة ريو باردو؛ وكثيرون،

كثيرون. بحيث إنه، في طرف كلِّ فازيندا، يختفي ويظهر رفيقٌ، يحرس، يتأبَّط سلاحه، ويراقب مثل نمر يلتهم جيفةً. نعم. نفس الأمر على طول الوادي، من ينزل عبر نهر ساوُ فرانسيسكو يدرك ذلك، كل مكان ملك مُزارع كبير فقط، ومعه رجاله من الجاغونُسو تحت أوامره: يكفي أن نرى ساوُ فرانسيسكو دا أزيليا، جانوازيا، كارينيانا، أوروبو، بيلاوُ أركادو، شيكي- شيكي وسيتو-سي.

بما أنه كان يعرفُ نيكو، فإنه لم يكن ليتوقف عن الكلام. كان يتذكر تلك الفترة، العام ١٨٧٩ تقريبًا، يوم دخل نيكو بقوة إلى جانوازيا وكارينيانيا: استولى على كل المرافق - جاتوبا، ماليا دا ومانغا - وتصرَّف كما يحلو له؛ اتخذ من بلدة التمساح مقرًّا لجيوشه القوية، هناك حيث موطنه.. ذهبتُ إلى هناك، أحمل رسالة من توقيع القائد سيفيريانو فرانسيسكو ماغاليائيس، الذي كان رفيقًا مقربًا من نيكو. كانت أعداد الجيوش التي يستطيعون حشدُها لمهمة حربية تشبه جحافل بابل. بل إنهم كانوا يطلقون في النهر زوارق تعج بالرجال المسلحين بالبنادق، يصعدون النهر وينزلون عبره، من أقصاه إلى أقصاه. كنا، على مدار اليوم، نسمع طلقات وصراخًا. فرسان من الجاغونُسو يركضون، يخرجون إلى مسافات معينة. عندما يدخلون مدينة، يأمرّون بقرع أجراس الكنيسة. يطلقون سراح السجناء، يستولون على أموال الضرائب وقيمون مائدةً في قصر البلدية.

كان عرابي سيلوريكو مينديس رجلًا رعديدًا. يقول إنه أنفقَ وقتَ شجاعته، يمتدح نفسه، ويفتخر. أراد لي أن أكون ماهرًا في الرماية واستعمال الهراوة والخنجر. بعد ذلك، أعطاني خنجرًا، مسدسًا وبندقيةً برتقالية اللون. بل قدَّم لي، لاحقًا، سيفًا، صنعه لنفسه... سيفٌ كبير له شكل ورقة الأناناس. - جلستُ على مائدة نيكو، شربتُ نبيذًا، وتناولتُ طعام الغداء... كان تحت

إمرته حوالي ثمانمئة رجل شجاع، يدينون له بالطاعة والاحترام - عرّاي، كان ضيفاً عند نيكو؛ لطالما شعرَ بالأهمية وهو يحكي ذلك. في تلك المناسبة، كان كل الأشخاص المهمين قد قرّوا إلى جانوازيّا، بعد أن لم يعد بوسعهم البحث عن حماية القانون، وظلّوا ينتظرون مصيراً أحسن في بيدراس دي ماريّا دا كروس. - نيكو؟ آه! لقد ساد أكثر من رينوفاتو أو ليوباس، وتسبب في اضطراباتٍ أكثر مما فعل جواو برانداو أو فيغييراس... - ثم أراني عرّاي ورقة، بخط يد نيكو؛ كانت وضلاً بتسلّم ستة براميل من البارود وشحنة من مادة اليود. كان التوقيع يقول: ماثويل طافاريس دي سا.

لكني لم أكن أعرف القراءة. لذا اتخذ عرّاي قراراً: أرسلني إلى كورالينيو لأذهب إلى المدرسة وأسكن في بيت صديق له، السيد ماروتو، واسمه الحقيقي جيرفازيو لي دي أتاييدي. رجل طيب. هناك، لم أكن مضطراً لأشتغل، بأي شكل من الأشكال، لأن عرّاي سيلوريكو مينديس اتفق مع السيد ماروتو على أن يدفع له نهاية كل عام واجبات التسجيل، بالإضافة إلى مصاريف إقامتي ونفقتي، بل حتى ثمن الأحذية والملابس التي كنت أحتاجها. كنت أكل كثيراً، ولم تكن نفقتي قليلة، ودائماً كنت أحب أجود الأشياء وأحسنها. كان السيد ماروتو، من حين لآخر، يطلب مني أن أقدم له خدمة صغيرة، مستعملاً كل حلاوة لسانه، يلاطفني ويقول إن ذلك معروفٌ يقدره. لم أبخل عليه يوماً بيديّ وقدمي، لكن ذلك لم يكن عملاً مميّزاً. مرت الأيام، وذات يوم قال لي: - بالدو، يجب فعلاً أن تدرس وأن تحصل على دبلوم دكتور، لأنك لستَ ماهراً في العناية بالأمور التافهة - تأثرت لما قاله لي، وسرعان ما سألتُ المعلّم لوكا. نظر إليّ لحظة؛ كان رجلاً عادلاً، وله آراء راجحةٌ جداً على ما يبدو، لا يبخل بها على أحد: أحياناً، كان ينزل على كل الأطفال بصفعاته؛ ومع ذلك، لم يحقد عليه أحدٌ منّا. هكذا، أجبني المعلّم لوكا: - هذا صحيح.

لكن الأصحّ من هذا كله هو أنّك سوف تصبح معلّمًا من الدرجة الأولى...
- ومع بداية العام الثاني، قرّر أن أساعده في مراجعة الدروس، فكنْتُ أشرح
للأطفال الصغار حروف الأبجدية والعمليات الحسابيّة الأربع.

كانت كورالينيو مكانًا جيدًا، والحياة هانئة هناك. ارتبطتُ بصداقة مع
الشبان في سني. قضيتُ تلك السنوات من دون حنين، ولم يكن الماضي
يُعيّقني. ثم عرفتُ حُبِّي الأول، مع تلكم الفتيات اللواتي تحملن أسماء
الأزهار. باستثناء رُوزوَرْدَة، الفتاة الناضجة، التي كانت تكبرُني سنًا،
وكان أبوها تاجرًا، هو السيد أسيس وابابا، صاحب محل البقالة «أول متجر
للتخفيضات، ربيع ساو جوزيه». كانت غريبة، تركية، كانوا جميعًا أترًاكًا،
يملكون محلًّا تجاريًّا كبيرًا، وبيتًا واسعًا. كان السيد وابابا يمارس كل أنواع
التجارة. كان منشغلًا بشكل غريب، مكرًّا جدًّا؛ كان يعجبني، ويقول إنَّ
عرّابي سيلوريكو مينديس زبونٌ جيد، ودعاني عدة مرات لتناول الغداء على
مائدة بيته. ما كنت أستمتع بأكله: لحم مفروم مع طحين القمح، مكعبات
اللحم المقلي، محشوات جيدة بالكوسى وأوراق العنب، وتلك الطريقة في
تحضير البامية - أطباق لذيذة. كذلك كانت المحليّات. كنْتُ أقدر السيد
أسيس وابابا، أقدر زوجته، دونا أباديا، وأنفاهم جيدًا مع أبنائهما، إخوان
وأخوات رُوزوَرْدَة، الذين يصغرونها، مع فارق كبير في السن. بيد أن ما كان
يثير أعصابي هو تلك اللغة الحلقيّة التي يتكلمون بها فيما بينهم، العربية^(١).
مع ذلك، أوكد أن رُوزوَرْدَة أحبَّتني، علّمتني أبجديات المجون، وأكملها،
تلك التي كنا نمارسها معًا في خلفية الحديقة، كنْتُ أقوم بها بمنتهى القلق

(١) في القرن التاسع عشر، حلَّ جُلُّ المهاجرين العرب إلى أمريكا اللاتينية جوازَ سفر أصدرته
سلطات الإمبراطورية العثمانية، لذلك كان سكان بلدان الاستقبال يسمونهم أترًاكًا، بينما كانوا
يتحدثون باللغة العربية ودوارجها؛ الشّامية في أغلب الأحيان. (المترجم)

والمتعة. كانت دائمًا تقول لي كلمات تركية عذبة. تناديني: «يا عيني»، لكن عينيها كانتا تلمعان متوهجتين، سوداوين على نحوٍ رائع، جميلتين جمالاً فريداً. طوال حياتي أحببتُ الأجانب كثيراً.

اليوم فقط أعترف بكل ما فعله عرابي من أجلي، هو الذي كان يحب ماله حباً غيوراً، وكان شديد البخل. لأنه، عدة مرات، سافر من كورالينيو ليزورني - صحيح أنه كان يغتنم الفرصة لبيع العجول ويقوم بصفقات أخرى - كان يجلب لي معه علبة صغيرة من القشطة والبوري، الجبن الخاثر، ومربي الإجاص. كلما حلّ شهر تشرين الثاني، أرسل في طلبي. لم يوبخني يوماً، ولطالما أغدق عليّ بكلّ شيء. لكنني لم أطلب منه شيئاً قط. كان بوسعه أن يعطيني عشرة أضعاف ما كان يقدمه لي، لكن ذلك ما كان ليغيّر شيئاً. لم أكن أحبه، ولم أكن أكرهه كذلك. لكن الحقيقة هي أنني لم أكن أعرف كيف أتعوّد عليه. لكنني، في النهاية، هربتُ، لسببٍ آخر، من ساو غريغوريو، كما سترى، يا سيدي. لم أرَ عرابي مرةً أخرى. لكنه لم يلُمّني؛ لا أفهم ذلك. لا بدّ أنه كان سعيداً وهو يعلمُ أنني كنتُ جاعونسو. جعلني وريثه الأول في وصيته: كانت من نصيبي فازينداتان من فازينداته الثلاثة. تركَ فقط فازيندا ساو غريغوريو لامرأة خلاسيةٍ اقترن بها أواخرَ حياته. لم أهتم بذلك. حتى ما كان من نصيبي لم أكن أستحقّه فعلاً. الآن، هناك شيءٌ أخير أريد أن أقوله: إن كان، وهو عجوز، قد عانى من الندم بشأني، فأنا أيضاً، وها قد صرْتُ عجوزاً، أعاني من الندم بشأنه. أظنُّ أننا كنا حقاً بعضنا لبعضٍ معاً.

بُعَيْدَ عودتي النهائية من كورالينيو، وقع حدث مهم، لا أخفيه عنك، يا سيدي. ذات صباح، عند الفجر، بدأتُ كلُّ كلاب ساو غريغوريو بالنباح. كان أحدهم يطرق الباب. كان شهر أيار، قمرٌ مشؤوم في السماء، وريح باردة تهبُّ. بما أنني كنتُ صغير السن، وجدت صعوبة في النهوض، ليس بسبب

صَحَّتِي الهزيلة، بل بسبب كسلٍ لم يُقَوِّمْ بشكل صحيح. هكذا، حين غادرتُ
السُرير وذهبتُ لأرى إِنْ كان يجب أن أفتح الباب، كان عَرَّابِي سيلوريكو
مينديس، والمصباح في يده، يُدْخِلُ إلى القاعة الكبرى مجموعةً صغيرة
من الرجال، كانوا ستة، كلهم يضعون قبعات كبيرة، ويرتدون عباءات
ومعاطف، والمهامز لا تزال في أقدامهم. دخلوا يحركون الهواء بطريقة
جعلتني أخشى متاعبَ محتملة. اندهشتُ: كل تلك الأسلحة. لكنهم لم
يكونوا قناصين. فحدثتُ أنهم كانوا على أهبة للحرب.

أرسلني عَرَّابِي لأبحث عن واحدة من الخادِمات كي تُحضِرَ قهوة ساخنة.
حين عدتُ، كان أحد الرِّجال - أَلَارِيكو توتوي - يعرُضُ، ويشرح. لم يكونوا
قد اتخذوا لأنفسهم مكانًا فوق الكراسي. كان أَلَارِيكو مزارعًا كبيرًا من غُراو
موغول، يعرفه عَرَّابِي. هو، وشقيقه أَلويس توتوي، كانا شخصين مهذبين
من الميسورين. طلبًا مساعدة رجال الجاغونسو في مسألة سياسية، حسب
ما فهمت بسرعة. استمعَ عَرَّابِي موافقًا بحركاتٍ من رأسه. لكنَّ مَنْ كانت
عيناها لا تتوقَّفان عن النظر إليه بإعجاب هو قائد الجاغونسو، ورئيسهم.
هل تعرف من كان؟ جوكا راميرو! فقط لسماع اسمه، تجمَّدتُ في مكاني،
وتوقَّفتُ أنفاسي.

كان جوكا راميرو يشبك ذراعيه، وقبعته الواسعة تغطي بعض جبينه.
حتى ظلُّه، الذي يعكسه المصباح على الجدار، كان يفرض الاحترام بشكل
مختلف، عظيمًا، كبير الحجم. رأيتُ أنه كان شخصًا وسيماً، معتنيًا أشدَّ العناية
بنفسه. أدركتُ أنه شخص لطيف. وعلى كل جانب من ظلُّه انعكس ظلُّ
اثنين من الجاغونسو؛ كانا، كما علمتُ بعد ذلك، مساعداه. أحدهما يدعى
ريكارداو: هادئ ضخم البنية، مع شيء من اللُّطف في ابتسامته: بدا مزارعًا
ثريًا. الآخر اسمه هرْموجينيس - رجل من دون ملاكٍ حارس. لحظتها، لم أنتبه

إلى الأمر من أول وهلة. شيئاً فشيئاً، شعرتُ بتوجُّس. هُرموجينيس - يدير لي ظهره، لكنه ظهرٌ مشوَّه، بعمود فقري منضغط، قبة مخفضة نحو الأسفل، لكنها قبة جلدية مدوّرة، كأنها دُبَّاء فوق حجمته. كان ذلك الرجل منكمشاً تماماً كأنها هو بلا رقبة. سرواله مدعوكٌ أكثر مما ينبغي، تتخلله طيات كثر. بينما ساقاه متباعدتان جدّاً؛ وحين يخطو يجر قدميه فيعطى الانطباع بأنه لا يريد أن يرفعهما عن الأرض. أتذكّر كل هذا، وأتساءل: هل ترسل لنا الحياة بعض التحذيرات؟ أتذكّره باستمرار، وبشكل سيء، أتذكّره، لكنه يظهر لي محاطاً بكثيرٍ من الدخان. في تلك اللَّحظة الأولى، لم أكن أريد أن أراه يستدير، أن أرى وجهه. استدار. كان ظلُّ القبة ينزل فوق فمه تقريباً، فيلُفُّه بالسَّواد. في الأخير، قال أَلاريكو توتوي إنَّهم بحاجة إلى ملاذٍ آمن حيث يستطيع الرِّجال قضاء نهار اليوم التالي، لأنهم يسافرون ليلاً، حتى يخلقوا المفاجأة ويطمسوا ما وراءهم من آثار. قبلَ عَرَّابي طلبه: - لديك غخباً جيد هنا... - ثم أمرني أن أقود أولئك الأشخاص إلى مكانٍ بالقرب من بئر كامباووبال، ملاذٌ مستتر يقع في غابة منعزلة. لكنهم، أولاً، شربوا القهوة. ظلَّ جوكاراميرو يجول بعينه من حوله، بابتسامة صريحة، وجه شجاع جدّاً، ثم وضع يديه في جيبيه. كان ريكازداو يطلق ضحكةً عالية. ثم تقدّم هُرموجينيس هذا ليُرافقني، بالإضافة إلى رجلٍ آخر من الرجال الستة - من سيارا، ذي بشرة صافية، له عينٌ متيقظة جدّاً: هذا أعجبني، يُدعى أَلاريبي، وما زال اسمه كذلك. هكذا، ركب الاثنان على حصانين، وأنا أمشي على قدميّ، ثم سرنا للتحقق بالآخرين حيث كانوا في انتظارنا، على بعد خطوتين، عند أسفل الطريق.

كان ذلك في شهر أيار، كما قلت لك، يا سيدي، مع نجمة الفجر. الندى يقطر، والأرض مبلّلة. الصراصير تصرُّ. فجأة، ذلك الحجم القوي، بعيداً، يملأ الفضاء: حتى قبل أن أتمكن من الرؤية، حدستُ. تجمُّع من الخيول.

فرسانٌ. لم يكن أي واحد منهم مترجلاً. لا بد أنهم كانوا حوالي مئة فارس. تنفست: كنا نتجرعُ النَّفسَ - رائحة الأعراف، الذبول التي تسوط الهواء، الشعر، العرق القديم المرشوش بغبار السَّرتاؤ. وتلك الرعشة المكتومة التي يهمس بها فيلق متوقف - تتشكل من أصوات صغيرة، تشبه تلك التي يحدثها نهرٌ كبير على سطح الماء. في الحقيقة، كان هؤلاء الناس صامتين تمامًا. لكن، ثمة سرجٌ يصرُّ من تلقاء نفسه، يتحرك رِكابٌ، يقرع آخر، سيرٌ رِكابٍ، أو شكيمة، عندما يمزغ الحيوان أو يمرر لسانه على الكابح. الجلدُ يحترقُ بالجلد، فترفع الخيول أذانها، وتضرب الأرض بحوافرها. هنا، هناك، نَفَسٌ، نصف لهاث. من حين لآخر، يتقدم فارس بهدوء مع دابته، يشقُّ لنفسه طريقًا وسط هذه الصُّهارة ليُغيِّر مكانه، شاذًا لجام حصانه. لم أكن أشعر بالرجال، أنا لا أعرفُ غير الخيل. لكن الخيل المشدودة، المركوبة. إنها شيء مختلف. رائع. شيئًا فشيئًا، انفصلتُ ظلالٌ، أكثر فأكثر عددًا، كأنها أشجار كبرت جنبًا إلى جنبٍ. كانت القُبَّعات مخفضة، ورؤوس البنادق تبرز عند أعالي الظهور. لأنهم كانوا لا يتكلمون - ولهم تلك الطريقة في الانتظار - أثاروا الخوف. لا بدَّ أنه كان بينهم بعض أخطر رجال السَّرتاؤ، يمتطون الخيول المتوقفة. هل كان ذلك حقيقة أم كنتُ أحلمُ؟

كان فارس منفصل تمامًا عن الآخرين؛ لا بد أنه كان يقوم بالحراسة. تقدَّم، حصانه داكن: كان حصانًا أشقر، جيد الخطو.

- كايكسوم، هو أنا والسيد هرْموجينيس... - قال رجلٌ سيارا.

- حسنًا، يا ألابيبي - أجابه الآخر.

احتشدنا في البرد، نسمِّعُ الندى، الغابة تعجُّ بالروائح، طقطقة النجوم، حضور الصراصير وثقل الفرسان. الفجر يطلع، ذلك الضوء الخافت عند الشَّفَق، حين تبيضُّ السماء. كلما صار الجوُّ داكنًا، أصبحتُ ملامح الفرسان،

الغامضة، أكثر دقة. ساحني، يا سيدي، لتوقفي عند كثير من التفاصيل. لكنني حتى اليوم ما زلتُ أحتفظ بمشاعر تلك اللحظة في عيني، لأن كل ذلك كان جميلًا؛ وفي الحقيقة هذا هو الحنين.

بتزامنٍ مع كاييكسوم، جاء أيضًا شخصٌ آخر واقترَب. كان رئيسًا ثانويًا، نادى عليه هِرموجينيسُ باسم السيد ماركيس. كان هِرموجينيسُ يملك صوتًا لم يكن بالأغنَّ ولا بالأجشَّ، لكنه كان صوتًا غير متجانس، سيئًا؛ كان صوتًا ينفلتُ. كأنه - من باب الخيال - ابنُ عرس: رائحته كريهة. - إيه، هل لديك أحد هناك، يا أخي؟ - سأل السيد ماركيس وهو يشير لي. - سلام، أخي الكبير. إنه صديق جاء ليرينا المعسكر. أجابه هِرموجينيسُ. ثم أصدر صوتًا من حنجرتِه وفمه، كأنه ينخر. دون أن أنتظر مزيدًا من الوقت، انطلقتُ في الطريق، أمشي إلى جانب حصان هِرموجينيسُ، كي أصحابهم أخذهم جميعًا إلى كامباووبال. من ورائنا، كنتُ أسمع الخطوات الموقَّعة لحوافر تلك الخيول الضخمة، ذلك الاندفاع المسترسل، المنتظم. لم أكن أرغب في أن ألتفت وأتجسَّس، فيعتبرونني فضوليًّا. لكنهم، الآن، صاروا يتكلمون، بعضهم يضحكون، يتبادلون المزح. تخيلتُ أنهم كانوا فرحين جدًّا لربح بضع ساعات من الراحة، لأنهم صاروا فوق ظهور الخيل طوال الليل. قال أحدهم بأعلى صوت شيئًا جميلًا، لا معنى له: - سيرويز، الفتاة العذراء، ماذا صار بها؟ - ابتعدنا عن الطريق، كانت الأعشاب المبلَّلة تغسلُ قدميَّ. فأنشد أحدهم، وهو سيرويز، أغنيةً، كلماتها مخلقة، لها نغمٌ غريب عني تمامًا:

أوروبو مدينة عالية

أقدم مدينة في السَّرتاؤ:

قدَّيستي الحامية، حياتي.

من هناك جئتُ، وإليها لن أعود....

أمنُ هناك جئتُ ولن أعود؟

أمضي الأيام وسط هذه الخضرة،

ثوري بلا قرنين يغطيني.

بوريتي - ماء أزرق لازوردي،

كارناووبا - ملح الأرض...

مياه هادئة في نهر واسع،

قيثارة الوحدة.

حين أخرج إلى المعركة،

أستدعي قلبي لينقذني...

كان الفجر يطلع. يومٌ من أيام آيار، مُبلَّل بالطلّ. هكذا هي ذكرياتنا.

أعاروني حصاناً، وذهبتُ مع الأاريبي، أنتظر وصول قافلة البغال، بعيداً
عند مدخل الجسر. لم تتأخر، كانت قد بدأت تصل. قافلة من عشرة بغال،
رفقة بغّالين. لكنها كانت تصل، أجراسها مكتومة، محشوة بالقطن: لم تكن
لتصدر أي ضجيج، غير صرير البرادع. كما قُذنا البغّالين حتى كامبأووبال.
لكن، هناك، وصل عرّابي، رفقة جوكا راميرو، ريكازداو والإخوة توتوي.
فألح عرّابي، وأخذني إلى البيت معه مرة أخرى. طلع النهار تمامًا الآن. ظلّ
قلبي مثقلًا بأشياء مضطربة.

لم أرَ المعسكر مرة أخرى، رنينُ المهامز. لم أستطع. أمرني عرّابي سيلوريكو
مينديس أن أذهب إلى أوكوشو لأبحث عن المدعو روزيندويو، رجلٌ - قال

لي عرّابي - يعرف القراءة ويتقنُ فتح المسالك. كان ذلك من أجل أن يأتي في سرية تامة، ليقود جماعة جوكا راميرو في جبال ثرينتا فولتاس، عبر أحسن الدروب والمختصرات، حتى يقطعوا في ليلتين، ومن دون أخطار مفرطة، ما قد يستمرُّ لستَّ أو سبع ليال. أنا لوحدي، نظرًا للظروف، كنتُ جديرًا بالثقة لأذهب إلى هناك. ذهبتُ على مضضٍ. ثلاثة فراسخ، ثلاثة فراسخ ونصف ساعة من المشي. توجَّب عليَّ أن آخذ حصانًا إلى ذلك الرجل، أقوده من لجامه. كان روزيندو بيو هذا مخادعًا ومجنونًا. تأخر كثيرًا، متذرعًا بالتحضيرات. في الطريق، أثناء العودة، لم يكن يعرف شيئًا عن جماعات الجاغونسو، لم يكن يتكلم تقريبًا، ولا يريد أن يقوم بأي عرض. لم يكن يجد أي متعة في ذلك. وصلنا مع حلول الليل، وكانت الجماعة على وشك أن تغادر. تفرقوا مجموعاتٍ صغيرة. كان عرّابي قد ربط كلَّ كلاب الفازيندا. خرجوا. وجدتُ أن كل شيء فقد نكهته وحُسنَ منظره.

في الأسابيع الموالية، حدَّثني عرّابي أكثر عن جماعات الجاغونسو. قال إنَّ جوكا راميرو كان قائدًا محنَّكًا: لا يولد الكثيرون ممَّن يشبهونه: رجل منذور للمجد! كانت تلك الجماعة من المرتزة كبيرة، وبشيءٍ من الحظ يمكن أن تفرض احترامها على الحكومة. قضى عرّابي اليوم بينهم. حكى: استعداداتٌ تُنجزُ بكل عناية، كل شيء منظم، تعليمات بالذهاب إلى النوم، وتلك السلطة القوية وسط كل هذه الفوضى. لم يكن ينقصهم أي شيء: أكياس كبيرة من الطحين، كميات وكميات من اللحم المجفف، مؤونة محروسة بعناية، صندوق من قطع الصابون حتى يغتسل كل واحدٍ منهم ويغسل ملابسه. كانوا يتوفَّرون على بيطارٍ، له خيمة خاصة مع ما يلزم من معدّات: سندان وكماشة، منفاخ يدوي، وآلات مناسبة... رجل يعمل بيطريًا، لديه أشكال مختلفة من المشارط لأحجام الخيول المريضة. بالإضافة إلى أشياء

أخرى كان عَرَّابِي قد سمعها عن رواية موثوقة، ويصفها بكثير من المتعة. صراعات رجال جوكا راميرو، المناوشات، المناورات من أجل الدفع به إلى المعركة، كمَّ هائل من العلاقات من كل أنواع الحيل والإستراتيجيات. أنا أسمع عَرَّابِي يتحدث عن ذلك بمجاملة فاضحة، بدأتُ أشعر بالاشمئزاز. كأنه كان يريد أن يُنسب لنفسه بطولات الجاغونُسو، كأن جوكا راميو كان هناك بجانبنا، ينفذ الأوامر، وأنه هو، سيلوريكو مينديس، من يعود له كلُّ الفضل. كان عَرَّابِي شخصًا ثقیلَ الظِّل. كان كذلك أكثر وأكثر. ظننتُ ذلك. في مكان رتيبٍ كهذا، وسط الرِّيف، نكون، من حين لآخر، بحاجة كبيرة لتغيير المواضيع.

لستُ بصدد البحث عن أعذار، كما قد تظنُّ، يا سيدي، كلاً. ما كان يمتعني، نعم، كان هو تذكُّر تلك الأغنية، الغريبة جدًّا، والتي سيطرت عليَّ خلال ذلك الصباح بكامله. أقول لك ذلك، يا سيدي، دون لفٍّ أو دوران: لقد سيطرتُ على ذهني. حقًّا، هدأتني لدرجة أنني بدأتُ، في ذهني، أبتكر أبياتًا من ذلك المقام. نظمتُ منها الكثير. لم أكن أغنيها شخصيًّا، لأنني لم أحظَ قطُّ بطبقة الصوت المناسبة، وشفَتاي لا تليقان بالصَّفير. لكنني كنتُ أدوِّنها من أجل الناس، وكان الجميع معجبين بها، ينشدونها، ويردِّدونها. الآن أريد أن أثير انتباهك إلى نقطة معينة: وأنت تسمعها، ربما تكون متفقدًا مع ما لا أقوله شخصيًّا، لأنني لا أعرفه. ذلك أنني كنتُ أكتب أشعارًا أخرى، حول مواضيع حقيقية، شخصيَّة جدًّا، أشعر بها كلها، حول أحزاني وحنيني. فما رأيك؟ لكن تلك الأشعار، التي أعجبتني لحظتها، غير موفقة، لا معنى لها، ماتت تمامًا بداخلي، ولم تترك رمادًا. نسيتها، لا أتذكَّر بيتًا منها، أيَّ بيت. كل ما أحفظ به في ذاكرتي هو ذلك الفجر المنتشر: الفرسان المتراصُّون في العَتَمَة، كأنهم أشجار، حيوانات، قطرات الندى المتساقطة،

صرير الصراصير في الحقول، وقع حوافر الخيل، وأغنية سيرؤيز. هل من معنى لكل هذا؟

تركني عرابي سيلوريكو مينديس لأعيش مثل سيّد محترم. في ساو غريغوريو كنت أتوفّر على كلّ شيء، بشكل معقول، وعلى كل ما أرغب فيه. فلم أكن بحاجة لأشغل نفسي بعملٍ. سواء قمتُ بذلك أم لا، كان عرابي يقدّرني؛ لكنه لا يمتدّحني. الشيء الوحيد الذي لم يكن يطيقه، وكان هو الشيء الوحيد: أن يسأله أحدهم عن قدر ما يملكه من مال. لم أهتم قطُّ بذلك، لأنني لستُ من النوع الذي يُخمّن. كنتُ أعيش في انسجام مع جسدي. فهل يمكنُ أن ننعمَ بحظٍّ أحسن من هذا؟

لكن، ذات يوم، قال لي أحدهم - نسيْتُ من هو من كثرة ما كنتُ لا أرغب في التفكير في الأمر - إنه ليس من محض الصدفة أن أكون صورة طبق الأصل من سيلوريكو مينديس. إنّه والدي! أوكد لك أنني حين سمعتُ ذلك، دار كل شيء من حولي - كان العالمُ بأسره يرفضني، في خزي عظيم. بل بدا لي، بطريقة مبطنّة نوعاً ما، أنني كنتُ أعرف ذلك من قبل. سمعت ذلك قطعاً متفرقة، من أفواه أخرى، إشارات مباشرة أو أقل مباشرة، فكنتُ أصمُّ أذني. أسأله إن كان ذلك صحيحاً؟ آه، كلاً، لم أستطع ذلك. كما لا أستطيع أن أسأل أحداً آخر: اكتفيتُ بذلك. لم أستطع أن أطفئ تلك الأسئلة الحارقة في ذهني. جمعتُ أغراضِي الصغيرة، أسرجتُ حصاني وهربتُ. هرعْتُ إلى المطبخ، ودسستُ في قرابي قطعة لحم وحفتين من الطحين. لو كانت هناك نقود في متناولي لأخذتها من دون تأنيب ضمير. هربتُ بشكل صريح. ركضتُ متوجّهاً نحو كورّاليم.

لماذا تصرّفتُ بهذا الشكل؟ أعرف ذلك ولا أعرفه. فكّرتُ بشكل واضح في الأمر الأول، أما الأمر الثاني، فلم أكن لأفكر فيه أبداً. كنتُ أرغب في

الغليان. بل إن ذلك كان يدوّخني، بشكل غير معقول، مثل رذيلة متعة
أثمة. كنتُ أزداد غضبًا. لم يكن ذلك غضبًا تحديداً، بل ما يشبه غيظاً داخلياً،
إهانة تخنّني فتمنّني من أن أقرّر مساري. كان التصرف الوحيد هو أن
أبقى مرفوع الرأس وأن أنسف اليأس العنيف، الفوضى وما في ذهني من
ارتباك. أطلق لخصائي العنان كي يعدو سريعاً. لم أكن متوجّها إلى بيت السيد
ماروتو. سأزور أولاً بيت السيد وابابا - في ظروف كهذه، لم أكن أرغب في
التعامل سوى مع أشخاص غرباء، غرباء جدّاً، الغرباء تماماً! حتى لو كان
ذلك فقط من أجل رؤية روزوردة، تلك التي كنتُ أحبّها، كما قلتُ؟ آه،
كلّاً! روزوردة، كنتُ أستطيع أن أحبّها، ولكن هنا، لم أكن في حالة تسمح
لي بالتفكير في هذا النوع من الملذّات لأن يأسني كان يزداد بسبب خجلي.
سأذهبُ إلى مدرسة المُعلّم لوكا. هناك، قرب بيت المُعلّم لوكا، كان يسكن
رجل اسمه دودو ميوزوتيس، له بنتُ اسمها ميوزوتيس. هكذا، وبطريقة
بلهاء، كانت ميوزوتيس هذه عشيقتي أيضاً، ففكرتُ أنه قد يواسيني أن
أراها لحظة - وأنها يجب أن تعرف: كيف أنني، وأسلحة الموت معي، تمرّدتُ
على عرّابي، هربتُ من البيت، أصبح كالمجنون عبر الغابة، قادراً على فعل
أي شيء! هناك، كان يجب أن أقدم تفسيراً للمُعلّم لوكا. لم أكن أحبُّ
ميوزوتيس، لأنها كانت شيئاً ما بلهاء، وفي ساو غريغوريو لم أفكر فيها قط؛
روزوردة هي التي كنتُ أحبّها. على أيّ، لا بد وأن السيد ماروتو سرعان ما
سيعلم بوصولي إلى كورّاليم، ولسوف يُخطّر عرّابي بسرعة بذلك. سيُرسل
أحدًا في طلبي. أو يأتي بنفسه. لا يهم. فجأةً، أدركتُ: كل ما كنتُ أرغبُ فيه
هو هذا بالضبط. أن يأتي، يطلب مني لأعود، يعدني بكل شيء، ثم يجثو على
ركبتيه عند قدمي. ماذا إن لم يأت؟ ماذا لو تأخّر في المجيء؟ وما كان عليّ أن
أقوم به هناك هو أن أبحثَ لنفسي عن وسيلة للبقاء، وأتحمّل مختلف أنواع

التلميحات من الجميع، أتحبَّط في الأمور اليومية الصغيرة، مهما كان قاسية وبغيضة. حينها تضاعف غضبي. ملأت دموعٌ جديدة عينيَّ السخيفتين. فكَّرتُ، مأساويًا، في أمي، بكل جوارحي، فأدركتُ عاليًا أنني بسببها فقط انقلب سلوكي رأسًا على عقب، فصحتُ. وجدتُ صعوبةً في التظاهر، وكان خجلي يزداد. وهنا، صار كساءُ حصاني مبللًا بالعرق، كأنه يستجدي الرحمة. أرخيتُ المهمازين. تابعنا الطريق ركضًا. كنتُ مرعبًا وأنا أفكر في حياتي حين دخلنا إلى كورَّالنيو.

استقبلوني بحفاوةٍ؛ في بيت السيد أسيس وابابا. هناك، أكلتُ، ضحكْتُ وثرثرتُ. إلَّا أنهم أخبروني بمفاجأة مشؤومة: إنَّ رُوزوَرْدَة كانت مخطوبة وعلى وشك أن تتزوج شخصًا يدعى سالينو خوري، تاجر تُركيٍّ آخر، حلَّ بالجوَّار في الشهور الأخيرة. شعرتُ بالحزن والارتياح، على التوالي - ذلك الحب لم يكن حقًّا لأجلي لأسباب شخصية. اضطربتُ لكنني تماكنتُ نفسي، فجمعت ساقِيَّ، وقلَّ كلامي، لا-سيدي، نعم-سيدي، حذرًا متبهاً، أسأل عن الأثمان الباهظة؛ حتى يظنوا أن زيارتي تلك كانت لأجل قضاء غرض مهم من أغراض عرَّابي سيلوريكو مينديس. ليلتها، كان السيد أسيس وابابا يهني نفسه عاليًا بالخبر الذي جاء به فوبيس: قريبًا سوف يصل خط السكة الحديدية إلى هنا، وبذلك نُذرتُ كورَّالنيو لمستقبلٍ زاهر، لأنها ستصبح سوقًا تجارية من الدرجة الأولى. أدلى السيد أسيس وابابا برأيه، أحضر إبريقَ خمر. أتذكَّرُ: سايرتُ خيالي - أوهم نفسي أن أحوالي أنا أيضًا سوف تتحسن مع هذا التقدم الحديث، وأن كل شيء سيجد طريقه إلى الحل: كنتُ أرى نفسي في السوق، غنيًا، ذا سمعة. بل رأيتُ كم سيكون ذلك رائعًا، لو كان حقيقيًا. لكن، كان هناك فوبيس، الألماني فوبيس، كما قلتُ، السيد إميليو ووشب، كما تقول أنت، يا سيدي. كان هناك من أجل معرفة قديمة، تعود إلى المرات

الفارطة التي زار فيها كورالنيو. رجلٌ بقيمة ثلاثة رجال. لأنه كان يفقه كل شيء في استعمال السلاح، لكنه يسافر من دون أي مسدس؛ كان يقول: - كلاً! أنا من دون سلاح تماماً، هكذا سوف يحترموني أكثر، أوه، في السرتاؤ... - رآني أصوبُ السلاح مرةً فهنأني لأنني كنتُ أعرف بالحدس كيف أشدُّ أنفاسي في اللحظة المناسبة. قال لي: - أنت تجيد الرماية لأنك ترمي بفكركَ. فالفكر هو الذي يصيبُ الهدف... - وهو ما بدا لي كأنه قال: - الفكر هو الذي يقتل دائماً... - لكن، يومئذٍ، لحسن الحظ، كان فوبيس هناك. ففي لحظة كارثية، خطرت لي تلك الفكرة - ما سيحلُّ وضعيتي هو أن أشتغل لصاحبه، أن أسافر لأبيع في الجوار معدات، آلة لتقشير القطن. لم أفكر وقلتُ: - سيد فوبيس، ألا تريد أن توظفني لخدمتك؟ - كلاً! - هكذا كان يتعجبُ فوبيس باستمرار. لم أكن قد أنهيتُ كلامي، وقد شعرت في قرارة نفسي أنني أندم بسرعة كبيرة. لأنني فكرت للتو أن أي شخص يصبح مشغلك، يصير أكثر قسوة وتوبيخاً. عضضتُ على شفتي لأنني كنت قد تكلمتُ. حاولتُ أن أقلل من أهمية الأمر، وتحجَّجت أنني كنتُ أمزح؛ لكن السيد أسيس وابابا والسيد فوبيس كانا يوجَّهان لي نظرات متحدِّية، فشعرت بإهانةٍ فظيعة. كان كل شيء ضدي، والفرصة الوحيدة كانت تفلت من بين أصابعي. هربتُ من هناك على وجه السرعة، وأنا أودَّع كما ينبغي. لأذهب إلى أين؟ لا أستطيع أن أذهب سوى لأرى المُعلِّم لوكا. فذهبتُ إلى بيته بدافع اليأس. أذكرُ ذلك؛ أذكرُ أنني ذهبتُ مشياً على الأقدام، وحينها بدأت أفكرُ بشكلٍ حرٍّ بعيداً عن رُوزوردة، وعن ساقِها الجميلتين المكتنزتين، رُوزوردة في فستانها القطني، لن تكون أبداً هديةً أحظى بها. شعرت بذلك بطريقة ما عندما تذكرتها، بعد عدة سنوات، عندما كان من الموضة ترديدُ هذه الأغنية:

لو كان أبوك غنياً،

لو كان تاجرًا،

لتزوجتُك في الحال

ولكانت المتعة من نصيبنا...

هذا، لكن تمامًا؛ بعد مدة طويلة.

وبخصوص ما أقول لك، يا سيدي، أسأل: هل الأمور هكذا في حياتك؟ في حياتي، إنني أنتبه إلى ذلك الآن، كلُّ الأمور المهمة، كُلُّها تحدث في لحظة صدفة عابرة - بفضل تلك القفزة التي نقوم بها من دون أن نرى - وحظُّ تلك الفرصة معلق بخيطٍ رفيف، بزغبٍ واحد من عرف الحصان. آه، لو لم يكن ذلك، لو لم تكن الصدفة كل مرة، ما الذي كان سيؤول إليه مصيري؟ تفكيرٌ لا جدوى منه، لأنه لا ينطوي على جواب. أحيانًا، يصيبني الرعب. لكن، انظر، يا سيدي، وصلت إلى بيت المُعلِّم لوكا، فاستقبلني بشكل طبيعي. ما وجدت أنه طبيعي أيضًا هو أنني كنتُ متعبًا جدًّا. وحين سألني المُعلِّم لوكا إن كنتُ أمرُّ هناك عابرًا أم أنني أحمل رسالةً من الفازيندا، قلتُ لا: إنني قد حصلت من عرَّابي على إذن بأن أبدأ حياتي الخاصَّة في كورَّالينيو، أو أبعد من ذلك، بنية أن أتقدم كثيرًا في دراستي وأن أحتكَّ بعادات المدينة. أقول ما قلتُ، كنتُ أقسم مع نفسي أن المُعلِّم لوكا لن يصدِّق ذلك. بيد أنه صدَّقه، بل وأكثر من ذلك. أتعرف لماذا؟ لأنه، يومها، كان يواجه مشكلةً، وهو يستعدُّ ليصدِّقني. أقول: إنه استمع لي وقال:

- زيوبالدو، لقد جئت في الوقت المناسب!

ثم شرح لي: في بالياو، في فازيندا نِيانفا، على الضفاف العليا لنهر جيكييتاي، كان يريد تشغيل أستاذ يتكلَّف بتدريس كل المواد. كان الأمر مستعجلًا، وكان رجلًا ذا وضعية جيدة، يضمن أجرًا محترمًا. بمعنى أنه كان

يريد أن يذهب المُعلِّم لوكا إلى هناك، ويترك مكانه لشخصٍ آخر في كورَّاليم لبعض الوقت. لكن ذلك كان أمرًا مستحيلًا، طبعًا. فهل كنتُ أريد أن أذهب أنا شخصيًا؟

- هل تظن أنني أستطيع ذلك، يا سيدي؟ - سألتُه. كي أبدأ مهمة، أي مهمة، لم أتحلَّ قطُّ بالشجاعة لوحدي. - نعم، إنَّك تستطيع ذلك! - قال المُعلِّم لوكا. كان يضع كل الكتب - جغرافيا، حساب، نحو، وأبجدية - في حقيبة جلدية، بالإضافة إلى המחاة، والقلم، والمسطرة، والمحبرة، وكل ما يمكن أن يكون نافعًا ومفيدًا. قبلتُ. حماسنا معا شجَّعني. وأحسن ما في الأمر أنه سريعًا وفي الحال كان اثنان من رفاق المزارع هناك، في كورَّاليم، ينتظران قرارًا ليأخذاني على الفور. عانقتني دونا ديندينيا، زوجة المُعلِّم لوكا، لتودعني، وذرفتُ دموعًا طيبة من أجلي: - ما أكثر الأشرار في هذا العالم، يا بُني... وأنت تذهب هكذا شابًا، جميلًا... - حينئذٍ، لم أستطع حتى أن أرى تلك الفتاة ميوزوتيس. أمَّا رُوزوَرْدَة، فلمحتُها من بعيدٍ.

كان الرفيقان، كما أدركتُ بسرعة، اثنان من رجاله. لكنهما تصرفا بشكل جيد، من دون تقلبات ولا خشونة، فتعاملوا معي بكل احترام وتقدير. قطعنا معًا مسافة ثلاثين فرسخًا تقريبًا، مسير أربعة أيام على ضفاف رِيَّاشاو، وعلى يسارنا تلال كابُال تلوح في الأفق. لم يزودني مرافقاي بأي معلومة، لا شيء تقريبًا. كانا قد تلقيا أوامر أخرى. لكن، حتى قبل أن نلج أراضي بالياو، بدأتُ ألاحظ أمورًا مريبة، أثارت شكوكي. دوريات من فرسان مسلحين، تبادل لكلمات السَّر، وقافلة صغيرة من البغال، لكن كان هناك ثلاثة جنود يختلطون بالبعَّالين. وازدادت دهشتي حين اقتربنا. في ثيانفا، كان الناس في كل مكان، تعجُّ بهم الساحة يوم السوق. كانت فازيندا رائعة، بها بيت من طابق واحد، حظائر شاسعة وباحة واسعة. ثم سرعان ما رأيتُ صاحب الفازيندا.

بدا لأول وهلة مثيرًا للحيرة، يرتدي سروالًا أزرق ويتعلل جزمة مُصَفَّرَةً. كان متوترًا، نحيفًا، قصيرًا، أقصر من المتوسط بعض الشيء، بذراعين تبدو أن أطول من اللازم، لكثرة ما كانتا تتحرَّكان. اقتربتُ منه فتقدم نحوي، المسدَّس الكبير في حزامه؛ منديلٌ يرفرف حول عنقه. وذلك الشعر الصلب، غير المسرَّح، منتصب، كأنه شعر مستعار مشعَّت. حثَّتُ الخطى، فتوقف ووضع يديه على الوركين. نظرَ إليَّ مباشرة، وراح يضحك - لا بد أنه لم يكن يعرف من أكون. صاح متهكِّمًا: - تقدَّم بمشية الضفدع، تقدَّم...

آه! ملأني غيضًا هذا التهكم في وقت غير مناسب. توقفتُ بدوري. تجاهلته. فجاء نحو، وحيَّاني بطريقة معقولة وودِّية. تكلمتُ أنا أولاً: - أنا المعلِّم الشاب... - كان فرحه مُدهشًا وهو يسمعني. أمسكني من ذراعي، وفي فيض من الجُمَل واللُّطف صعد السلام رفقتي، أخذني إلى غرفة، هناك بداخلها، بسرعة كبيرة، كأنه يريد أن يخفيني عن أنظار الجميع. كأنه جنون، ولماذا؟ آه، ولكن، من كان ذلك الرجل؟ زي بييلو. في الحقيقة، كان كل شيء فيه، بالنسبة إليَّ، يفيض بحقيقة جديدة.

هل قلتُ لك ذلك، يا سيدي؟ - كنتُ أعتقد أنني قد جئتُ لأعطي دروسًا لأطفال صاحب فازيندا. خدعة. مع زي بييلو، حتى الأمور العادية كانت تبدو مختلفة، مع مرور الوقت. نبَّهني. كان هو التلميذ. أراد على الفور أن يلقي نظرة على الدفاتر، والكتب، ويأخذها في يده. هكذا، كان يعرف القراءة والكتابة، وعمليات الحساب الأربع، ويستهلك الجرائد. حرَّك كل شيء، كالعاصفة، ثم راح يراكم كل شيء فوق الطاولة الكبيرة في الغرفة، وكما كان يصفر ويدندن، يا إلهي! لكن - وهنا عاد إلى جدِّه - كان لا بدَّ من الاحتفاظ بذلك سرًّا مكتومًا: انتبهتُ لذلك. - سوف نوهم الآخرين بأنني أضع خططًا. أنت تشتغل معي كاتبًا - وفي خضمِّ ذلك اليوم، شرعنا في

العمل. ذلك الرجل جعلني أجنُّ، آه، جعلني أضبط نفسي. لم أر مثله رغبةً وحاسًا في التعلُّم وفهم كل شيء. ما كان يريد هو أن يُدخل إلى ذهنه، مرة واحدة، ما تقوله الكتب وما لا تقوله. كان هو الذكاء! يلتهم كل شيء. ينتقل من درس إلى درس، ثم يسأل ويعيد السؤال، ويبدو أنه يستشيط غضبًا لأنني أعرف وهو لا يعرف، مغتاظًا لأنه ما زال أمامه الكثير مما ينبغي أن يستوعبه، إلى ما لا نهاية. كان يحرق كل ليلة شمعتين أو ثلاثًا من الشموع. يقول مع نفسه: - لن أنظر إلى الساعة. سوف أدرس، وأدرس، حتى تأخذني الغفوة. إن أخذتني، تركتُ الكتاب، استلقيتُ ونمتُ - بكل بساطة، بمحض إرادته. خلال النهار، وبينما نحن نشغل على الصفحات، ينهض فجأة، يهرع نحو النافذة ويصفر في صفارته، يصيح بأوامر: عشرة، عشرة، عشرون أمرًا مرة واحدة. فيسرع رجاله لتنفيذها. كأنها ذلك سيرك، مسرح حقيقي. لكن، خلال أقل من شهر واحد، أصبح زي يبييلو متحكمًا في حفظ كل شيء، وصار يعرف أكثر مما أعرف أنا شخصيًا. هنا أصبحت فرحته بلا حدود. فيأتي حاملًا الكتاب ويطرح عليَّ حفنة من الأسئلة. فأتأخَّر في الردَّ، أتردَّد، أرتبك في الشرح، أدَّعي المعرفة، أغشُّ. آي، آي، آي، وهو يقاطعني، يريني في الكتاب أنني خاطئ، يصحِّح لي، يعطيني دروسًا. كان يضحك ملء شذقيه، يصفق بيديه، ويقوم بحركات أخرى، من اختراعه - سعيدًا تمامًا وهو يراني بدوري «جاهلًا»، محبطًا، مغلوبًا بسبب تلك الصعوبات. لحظتها فقط، يجب أن أقول ذلك، بدأ يجنُّني. كما يجب. عانقني، كافأني بالمال، وأغدق عليَّ بالمديح: - سيد بالذو، لقد بلغت الآن مستوى عاليًا في كل شيء! لكن، لا يجب أن تذهب الآن، بل أن تستمر، أنت كاتب... أقول لك إننا سنذهب إلى ذلك السَّمال، من أجل أحداث كبيرة، لن تندم على أي شيء... - ثم قال لي: - هذا السَّمال، تلك الجماعات اللَّعينة - ثم نفخ فقط، كأنه كان يهبُّ مثل الريح.

لأنه وضعني ضمن مشاريعه. لأنه كان يحشد الرجال ويدربهم ليصعد بهم نحو حدود الولاية، ويقودهم في حربٍ. كان هدفه الأول هو أن يهاجم مباشرة جماعةً تلو الأخرى، ويقضي عليهم جميعًا، يضع حدًا لأولئك الجاغونُسو حتى آخر رجل فيهم، وينظف العالم من تلك العصابات المتوحشة. - بعد أن أقوم بذلك، سيد بالدو، سأكون أنا نفسي: ألجُ السياسية من الباب الواسع! - وكان قبل ذلك قد أسرَّ لي أن ذلك هو القدرُ الوحيد الذي يطمح إليه، بكل قلبه: أن يكون نائبًا. طلب مني أن أكتب السرَّ، فلم يرقني ذلك. لأنني كنتُ أعرف أنهم جميعًا كانوا يتحدثون علنًا عن تلك الحماية، بل حتى في غيابه كانوا ينادونه سلفًا «السيد النائب»... هكذا هم الناس. مع ذلك لم يكن أي واحد من رجاله يمانع في احترامه والوفاء إليه. بسبب شجاعته الرجولية. آه، زي بيبيلو، كان رجلًا خشنًا قاسيًا - سبعة سكاكين من حديد، وكلها في غمد واحد! كان بوسعه أن يستعمل أي سلاح ويصيب الهدف في كل مرة. كان يتقن استعمال الوَهَق ويطارد رؤوس الماشية كأنه راعي بقر حقيقي، يروّض أكثر الحيوانات جموحًا - خيولًا وبغالًا كبيرة؛ ينازل الآخرين بالسكين، وكان ماهرًا مخادعًا مثل نمِرٍ محاصر، لا يكفُّ عن الهجوم؛ أما الخوف، أو حتى الشيء القليل من الخوف، فكان يبصق عليه ولا يعرفه. يُحكى أنه كان يحشر نفسه وسط العراك، ومهما كان الشجار، يعيد السَّلام. رجل انتقامي بطبعه، لا يعرف الخوف! يزار. بالنسبة إليه، حقًا، يبدو أنه لم يكن هناك من أمر مستحيل. مع كل ما كان يميزه من حماقة وتهور، ويلٌ لمن سوَّلت له نفسه أن يغامر ويحدِّثه بنظرة ساخرة: فقد ينتقل، في رمشة عين، من الحياة إلى الموت... - إنَّ الجاغونُسو الوحيد الذي يمكن أن أحترمه، سيد بالدو، لم يعد من أهل هذه الدنيا... وعلينا جميعًا أن نقدم هذه الخدمة للوطن - كل شيء وطني! - أما ذلك الذي كان يتحدث عنه،

ولم يعد من أهل هذه الدنيا، فكان هو جواوزينيو بين-بين داس أروريراس، المعروف في المنطقة بكاملها. كان يقال إنه قد درس حياته، بعناية كبيرة جدًا، بكل تفاصيلها، ومنها استلهم لقبه زي بيبيلو؛ بينما اسمه الحقيقي كان هو جوزيه ريبيلو أدرو أنتونيس.

- هل ينبغي دائمًا القبول بوجود هؤلاء الجاغونسو، الأوغاد؟ مهلاً، بعد بضعة شهور، لن نرى في شمالنا ولو زعيمًا واحدًا يتعاقد، من أجل الانتخابات، مع هذه العصابات من المنافقين، مخادعي العدالة، فقط ليدمروا كل ما هو حضاري وشرعي - وكان يدعم أقواله بوقائع حقيقية، مع غضب مُبرَّر. كان علينا حقًا أن ننبد عادات تلك العصابات المسلحة التي تغزو المدينة، تدمر التجارة، تنهب كل شيء، تلتطخ بالغايط جدران بيت القاضي، وتجوّل بالنائب محمولًا بالقوة على ظهر بغل، وقد ألصقت علبة مُحلَّلات في مؤخرته فوق ذلك، والأوغاد يطلقون مفرقات ويهتفون بالموت! ألم تصل بهم الجراحة حدًّا أنهم ثقبوا براميل خمر أمام الكنيسة وجالوا بالقسّ عاريًا في الشارع، ثم أهانوا الفتيات والأسر، وتناوبوا على نساء متزوجات أمام أعين أزواجهن؟ حين كان يتكلم بتلك النار التي تخرج منه، يضطرُّ زي بيبيلو ليتوقف، فيذهب إلى النافذة أو حتى إلى الرُواق، يصفرُّ في الصفارة، ويعطي الأوامر. بعد ذلك، وهو أحسن حالًا من أي وقت مضى، يعود بالقرب مني، ويستأنف كلامه: - آه، حين أفعل، أفعل حقًا، سيد بالدو. أنا القادر على فعل ذلك وتحقيقه. بما أنني الوحيد الذي ولد من أجل ذلك! - كان يقول أيضًا بعد ذلك، إنه بعد القضاء على قُطَاع الطرق، وحين يصبح نائبًا، سيلمع ذلك الشَّمالُ رائعًا، ستُبنى القناطر، ستُنشأ المعامل، ستُصلح الصحة، سيُقضى على الفقر، وستُدشَّن ألف مدرسة. حين يبدأ ذلك، كان يستمر لحظةً طويلة، يرفع صوته كلما تقدم في التصريحات، التي غالبًا ما كان

يأخذها من الجريدة. كنتُ أضجُرُ منه في النهاية، لأنه كان دائماً ينتهي بنفس الشيء.

لكن حياتي في تلك الفازيندا، هل كانت سيئة أم جيدة؟ كانت من أحسن ما يكون. كنتُ على أحسن حال. أعيش حياة الأسياد. تعودت بسهولة على تلك الحركة، فكنتُ أدخل في صداقة مع رجال العصابات. كان دائماً يأتي أشخاص من الخارج، ويلتقون رأساً لرأس مع زي بيبيلو، أشخاص من المدينة. علمتُ أن واحداً منهم كان مُفَوَّض شرطة، في مهمة. قدّمني زي بيبيلو مع التشريفات اللائقة: أستاذ ريوبالدو، كاتبي حالياً. في أوقات الفراغ، كنتُ أذهب مع الرفاق إلى ليفا، على بعد فرسخ تقريباً، حيث استقرت النساء، أكثر من خمسين امرأة. كان يصل منهن الكثير والكثير حتى أنهن اضطرن لتخفيض التسعيرة يومياً. لم تنقصنا تلك التسلية الجميلة. وافق زي بيبيلو على ذلك: - متى رأيتم رجلاً محترماً لا يملك فتيات رهن إشارته؟ أين؟ - بل كان يوفر لنا الكاشاسا^(١) أيضاً، بشكل منظم. - هذا أحسن، على ألا يوفروها لأنفسهم بأنفسهم، فتنفّلت الأمور، ويكثر السكر والشمالة... - كان يقول. كنا نستمتع هناك، بشكل مفرط، وراحة شاملة. طعام وفير، سلاح من الدرجة الأولى، مؤونة حسب الرغبة، أحذية وملابس من أجود ما يكون. والمال الأسبوعي الذي نتلقاه أجراً، إذ لا أحد من هؤلاء الرجال كان هنا محبباً في الرَّب، بل ليتدبر وسيلة للعيش. قالت الشائعات إنه صندوق مال الحكومة... وكذلك كان يبدو.

هكذا، في النهاية، جاء يوم الخروج إلى الحرب، عبر الوديان والجبال، خروجنا جميعاً. أوه، الضجيج! صيحات عالية، صيحات ببغاوات، دوامة

(١) خمر محلي يُصنع من قصب السكر. (المترجم)

من الطيور تنطلق محلقة - حتى أنت لم تَرَقْ شيئاً مثل ذلك، فقط موصوفاً في رواية من الروايات. مجد ومعدات جيش حقيقي، وخيول يُحشى ألا تجد ما يكفي من المراعي، وفيلق يناهز ألف رجل. رفقة رؤساء الفرق - الذين كان يسميهم ملازمين وضباطاً على رأس كتائبهم - كان زي بييلو يمتطي حصاناً أشقر بلون الياهم، يضع قبعة على رأسه، يجري يميناً ويساراً، يراقب. نادى عليّ بالقرب منه، وكان ينبغي أن أحمل دفترًا كبيرًا كي أسجل فيه، بأمر منه، أرقامًا، أسماء وعدة أمورٍ مختلفة. يعني، كما ترى، كنتُ أذهبُ معهم. أذهب لأعرف ذلك المصير - يا - إلهي. ما شجّعني على ذلك هو أنه حذّرني في حال لم أعد أرغب في ذلك يكفي أن ألمح له بذلك فيعفيني ويسمح لي بالعودة.

أقول إنني رافقتهم، وأقول إن ذلك أعجّبني. جولة صعبة، طعام وافر، وقفات جميلة، صداقة. كُنّا نقضي أوقاتاً مسلية. كنتُ أكتشف طرقاً جديدة، أراضٍ متنوعة. نستيقظ في مكان ما، ونصل في الليل إلى مكان آخر، وكل ما قد يكون قديماً، أو سوء تفاهم مع الذات، كُنّا نتركه وراءنا. كان ذلك هو «وفي النهاية». كان كذلك بالفعل. - الأحسن، الأحسن، سيكون غداً، يوم يبدأ القتال! - قال بعضهم. هو ما كان يريده زي بييلو. كان يعرف ما يريد، الثعلب. منذ خروجنا من نياثفا، قسّم رجاله إلى ثلاث مجموعات صغيرة، كل واحدة في طريق. ذهبت مجموعة أولى عبر ساو لامبيرتو، على اليمين؛ ذهبت مجموعة ثانية على طول نهر فونديو وكورريغو دو سانتيار؛ بينما انفصلت عنّا مجموعة ثالثة في المكان الذي يُدعى سو - أكبي، للوصول إلى نهر بارّا؛ بينما ذهبت مجموعة أخرى يساراً بمحاذاة ظهر نهر ساو فرانسيسكو. أما نحن الذين كنا تحت القيادة المباشرة لزي بييلو، فقد اختصرنا الطريق سائرين قرب نهر فيليسيدادي. مررنا قرب قرية إنكوفيدينسيا وخيمنا في بيدرا برانكا، على ضفاف نهر أغوا برانكا. جرى كل شيء على ما يرام. كانت

دورياتٍ تنتقل من فيلق إلى آخر، تنقل أوامر وتحمل رسائل. ألقينا في المياه شبكة واسعة لاصطياد الأسماك الكبيرة. اصطدنا بعضها. لم أر تلك المعركة المشهودة - بقيتُ في بيدرا بُرانكا. لم يكن ذلك بسبب الخوف، كلاً. كان زي ببيلو هو من أمرني: - اصبر قليلاً، انتظر، حتى تجمع أعضاء المجالس المحلية وتُلقي فيهم خطاباً، ما إن تأتي دورية تحمل تقريراً عن أول انتصار نحققه.... - وحدث ما قاله. لكن، بدل دورية وصل زي ببيلو نفسه على صهوة جوادٍ يعدو. كنتُ قد احتفظتُ بباقة من المفرقات لأطلقها، فكان الاحتفال. أمر زي ببيلو بنصب منصّة في زاوية من الحظيرة، صعد فوقها وتحدث طويلاً. وصفَ. هناك خلف نهر باكو، في بلدية بُرازيليا، كانوا قد حاصروا جماعة من الجاغونسو - وعلى رأسهم ذلك المقدام هِرْموجينيس - وألحقوا بهم هزيمة شاملة. أكثر من عشرة قتلى، عشرة على الأقل من رجاله أُسروا؛ لسوء الحظ فقط، تمكن هِرْموجينيس هذا من الفرار. لكنه لن يذهب بعيداً، بكل تأكيد! وبهذا الخصوص، امتدح زي ببيلو القانون، صفّق للحكومة، وعدّ في المستقبل المنظور كثيراً من الأمور الجمهورية. ثم أصرّ على أن ألقى بدوري خطاباً. اضطررتُ لذلك. - عليك أن تذكر اسمي كثيراً، لأنني لم أتوقّف عنده كثيراً من باب التواضع. عليك أن تتحدّث كثيراً عن الوطن.... - همس لي فنفّذتُ أمره. لا بد لرجل مثله أن يكون نائباً، هذا ما قلت وأكدت عليه. انتهيتُ فعانقني. أظن أن الناس استحسنوا ذلك. أثناء ذلك، وكنا قد انتهينا من تناول الغداء، وصلَ فرساننا يسوقون مجموعة السجناء. أشفقتُ لحال أولئك التعساء، مندهشين، متعبين، متسخين تغطيهم بُقع دمٍ جافٍ - يبدو أنهم فقدوا أي أمل في الكرامة. وجّهوهم نحو سجن إستريا، ومن هناك سيُنقلون لا محالة إلى سجون أخرى، بل وربما إلى سجن العاصمة. كان زي ببيلو يشاهد ذلك، فنظر إلي، ولاحظ رقتي. - لا ينبغي الإشفاق عليهم،

إنهم أشدّاء ملاعين... - آه، أكيد، كنتُ أعرف ذلك. لكن، كيف يمكن ألاّ نشفق لحالهم؟ إنّ ما يتجاوز المرء هو قوة الألم البغيضة، في حدّ ذاتها، وليس صفةً من يُعاني.

فكّرتُ أننا نستحق الآن راحةً أطول. آه، نعم؟ - ركوب الخيل والركض. هناك الكثير من ذلك! الكثير!... - نادى زي بيبيلو. انطلقنا من جديد. في الطريق، بها أننا كنا نتحدث، لا أعرف لأي سبب، سألتُ: - وجوكا راميرو؟ هزّ زي بيبيلو كتفيه، كأنه لا يريد أن يقول شيئاً. ما خلق لدي رغبة صغيرة، ليست بالقبيحة، لأشرح كم كانت إدارة جوكا راميرو رائعة، كم كان يعرف كل شيء ويلبّي كل شيء، بل كان يأخذ معه شخصاً فقط ليقوم بمهمة إنعال الخيل، يضع له خيمة ويزوده بالمعدّات، وبكل ما له علاقة بالحيوانات. ما إن سمع زي بيبيلو ذلك حتى توقف على الفور: - آه، إنها فكرة جيدة، رأيتُ! يجب أن نهتم بها أيضًا، وهذا مثال جيد يجب أن نستفيد منه... - ثم فكّر. وأنا، الذي كنت أريد أن أروي مزيداً من تلك الأمور المختلفة والمغامرات التي كان يقول عرابي إنّ جوكا راميرو كان يبتكرها حين يقوم بالهجوم، انسجمتُ مع ذاتي ولزمتُ الصمت. انظر، يا سيدي، إلى كل ما يتعرّقل من أمورٍ في الحياة، بسبب الأحاسيس المسبقة. لأنني كنتُ أقول مع نفسي، إنني لو حكيت سأكون بصدد القيام بفعل خيانة. خيانة، ولكن لماذا؟ صفقتُ لساني. إننا لا نعرف شيئاً، ونعرف كل شيء. لذلك لزمّت الصمت. أطلقنا أعنة الخيل.

بين كوندادو ولوثرا، أطلقنا النار. هناك، رأيتُ وتعلّمتُ. ترّجل نصف فرساننا، وتقدموا متسلّلين مستترين، يرفعون أسلحتهم - يختفون وراء الأشجار؛ ثم يرمون فجأة وبسرعة على الأرض: حتى يشرعوا في الزحف، ثم يتشّمّمون، يرفعون رؤوسهم، دون أن يتوقفوا! هل كان هؤلاء يتقنون

القتال منذ ولادتهم؟ لمحتُ ذلك لحظة فقط. لأننا عدنا أدراجنا، خلف زي ببيلو، كي نتوجه نحو غاميليراس، حيث حدث الأفظع. هناك كانت جماعة ريكارداو، قريبة جدًا، فطوّقناهم. ولنختم القنص، لم ينقصنا غير الكلاب. جعلناهم يرون الجحيم. كان قتالًا ضارياً. دوّت طلقات نار عنيفة وسط الأدغال: كأنها انفجار، أو هزيم رعد. انتصرنا. لم أترجل من صهوة دابّتي. لم أشارك، ولم أكن هناك حين انطلقوا راكضين يتعقبون أولئك المنكمشين رفقة ريكارداو. لكن ذلك كان دون جدوى، لأن ريكارداو كان قد أصبح بعيداً. لذلك اغتاز رجالنا فأرادوا أن يصفّوا الرجال، أولئك الأسرى الثمانية. - آه، خصوصاً هذا، لا أريده، ولا أقبل مثل هذه الانحرافات الجبّانة! - قال زي ببيلو غاضباً. استحسنْتُ سُمُوّه، وطريقته في نبذ القتل. هكذا تمنيت أن تعود أجواء السّلام بسرعة، لأن تصفو الأمور، وتهدأ الصيحات. كان ذلك اليوم أمراً عسيراً. شعرت بالحاجة الكبيرة للابتعاد والهدوء. كان منه القليل. بعد تسوية الأهم، نعمنا بهدنة قليلة، لأنهم وضعوا خططاً جديدة للدفع بمشاريعهم، فانطلقنا مرة أخرى نحو تيرا فوفا، على الحدود تقريباً مع غراو موغول. لكنني لم أذهب إلى هناك. على الطريق، وفي لحظة ما، قرّرتُ مصيري على أحسن وجه.

فررتُ. فجأة، رأيتُ أنني لم أعد أتحمل المزيد، فتملّكني القرف. لست أدري إن كان لأنني كنت أبعد ذلك: أن نمشي بتفوق وأغلبية، نأسر ونقتل الناس، بوحشية لا تتوقف. نجحت في أن أفلت من انتباههم، فبقيت متخفياً في المؤخرة. مشيتُ وفق خطواتي. لم أكن بحاجة لأتصرّف كذلك بالنظر لما اتفقنا عليه. كان بوسعي أن أذهب لأرى زي ببيلو وأقول له متراجعا عن التزامي: - لم أعد أرغب في هذا، أودّ أن أعود إلى كوراليم... - كنت أستطيع ذلك، أليس كذلك؟ لكن، بما أنني كنتُ أتخذ قراراً، شعرت بالسأم من زي

بييلو، كرهتُ حديثه. لم أكن مستعدًا لأثق في أي كان. باختصار: هربتُ، ولم أفكر بشكل صحيح. هذا كل ما في الأمر. أنت تعرف، يا سيدي، حين نصبح ما صدر عنا من تصرّفات: خطأ، فعل مثير للندم، لكن لا شيء جوهري يمكن أن يُحكى.

كنتُ أملك حصانًا رائعًا، نقودًا في الجيب، وسلاحًا جيدًا. عدتُ أدراجي، دون تسرع. كانت وجهتي غير واضحة تمامًا. سافرتُ، تسكّعتُ، أظنُّ أنني لم أكن أرغب في الوصول إلى أي مكان. بعد عشرين يومًا من التسكّع ومن دون تعقيدات أخرى، وصلتُ إلى ضفاف نهر فيلياس عند التقائه مع نهر صغير جدًّا، باتيستيزيو. ضاجعتُ امرأةً أعطتني متعة كبيرة - كان الزوج في جولة في المناطق المجاورة. هناك، لم يكن مرض الملاريا. في اليوم الموالي، حين استيقظنا، قالت لي المرأة: - أبي يسكن على بعد ربع فرسخ من هنا. اذهب إلى هناك، تناول الغداء والعشاء. هذا المساء، إن لم يعد زوجي، سأناديك، سأرسل إليك إشارات. قلتُ لها: - تشعلين نارًا عند هذا العلو، سأراقب ذلك وسأعود... - قالت: - لن أفعل هذا، يمكن لشخص آخر أن يرى ذلك فيتوجّس - قلتُ: - لا يهم. أحرص على ذلك. أشعلي نارًا - نارًا صغيرة جدًّا... - قالت: - ربما أشعلها، من يدري... - كنا جادّين معًا، حتى أننا لا نبتسم. بعد ذلك، ذهبْتُ.

لكن والد تلك المرأة كان رجلاً ماكراً، له طريقة في دفع الناس ليتحدثوا وفق ما يحلو له. كان بيته - الواسع، المملّط، المغطى بالقرميد - في مكان، على الضفة، حيث كل تلك الكشبان الرملية عند النهر. كان اسمه مانويل إناسيو، ويدعى مالىناسيو، وكان يملك مراعي مسيّجة جميلة، ترعى فيها أعداد من الخيل والثيران. قدم لي الغداء، وجعلني أتكلّم. كنتُ أريد أن أكون صادقًا. ولاحظتُ أنه كان ينظر مباشرة في وجهي وهو يصغي لي، كما

أنه يرمش بعينه: ومن يرمش وهو يستمع إليك ويتفحص وجهك لا يكن وداً للجنود. شيئاً فشيئاً، حكيتُ له: لم أكن أريد أن ألتحق برجال زي بييلو؛ وكانت تلك هي الحقيقة الحقيقية. - وجوكا راميرو؟ - سألني. أجبته حتى أرفع من قيمتي وأضع شيئاً من نثري، أنني قد كنتُ في خدمة جوكا راميرو، وتحدثت معه. إنني بسبب هذا الأمر بالذات لا أستطيع أن أبقى مع زي بييلو، لأن حبي ووفائي وميلي كانوا اتجاه جوكا راميرو. كما تحدثتُ عن عرابي سيلوريكو مينديس، تحدثتُ عن الإخوة ألويس وألاريكو توتوي، وحكيتُ له كيف قضى جوكا راميرو ليلة في مزرعتنا ساو غريغوريو. قلتُ أشياء كثيرة أخرى، وكان ماليناسيو هذا يصغي إلي، لا يفعل شيئاً آخر غير التزام الهدوء. لكنني لاحظتُ أنه لم يكن هادئاً. تدبّر أمره لينصحني بالأبقي. كانت الملاريا تنتشر في المكان. رفضتُ عرضه. أردتُ أن أنتظر، حتى أرى إن كانت النار ستشتعل لحسن حظي، لأنني أحببتُ كثيراً بنته المتزوجة. لمدة لحظة واحدة، تأخر طويلاً لا يعرف ما يفعل. لكن، وأنا أسأله عن مكان أعلق فيه سريري في الظل لأرتاح - قلتُ إنَّ حالتي الصحية لم تكن على أحسن ما يرام - فبدا أن ذلك أراحه. أخذني إلى غرفة كان بها سرير خشبي مع فراش، تركني هناك على راحتي وأغلق الباب. أغلقتُ القفل، وعانقتُ سلاحي.

لم أستيقظ إلا عندما نادى عليّ ماليناسيو للعشاء. وصلتُ إلى الغرفة فوجدتُ ثلاثة رجال آخرين. قالوا لي إنهم بغّالون، وكذلك كانوا يبدوون من هيشتهم وملابسهم. لكن ماليناسيو بدأ يعلق على ما جرى بينه وبينني من حديث ويردّده - وهذا لم يرقني. إنَّ الأسرار الجديدة التي تُحكى ليست للجميع. رئيس البغّالين - صاحب الوجه المدوّر والبشرة البيضاء - طرح عليّ كثيراً من الأسئلة. شعرتُ بالحرج. قرّرتُ البقاء محترّزاً. ليس بسبب مزايدته بهذا الشكل - لأن كل البغّالين كانوا يريدون أن يعرفوا كل شيء

- بل من الطريقة التي يستعملها الآخرون لمساعدته على سبر أسراري. كان يريد أن يعرف أي وجهة أقصد. كان يريد أن يعرف، إن كنتُ أساند جوكا راميرو وأنا مسلح، لماذا لم أجد وسيلة لأركض نحو الشمال، بغرض الانضمام إلى رجال راميرو؟ من يحترز يصبح حكيمًا: تدبّرتُ أمري لأؤكد كثيرًا من الأشياء؛ وأضفت أنني كنتُ هناك لأنني ارتأيتُ أنه من الحكمة أن أقوم بجولة احترازية، بل ولأنعم بالهدوء الضروري الذي يسمح لي بتوضيح ما يحول في خلدي من مشاريع. آه، وبينما هم يستمعون لي، جاء رجل آخر، بغال أيضًا، ووقف عند عتبة الباب. قاومت هذا الرجل بعيني، فارتعشتُ، في اهتزاز من الدهشة. لكنها كانت دهشة قلبٍ منخطف، كانت أكبر فرح...

عرفته فورًا. ذلك الشاب، المختلف تمامًا والأنيق جدًّا، كان هو، هل تعرف من كان، هل تتكهنُ بذلك؟ إنه الشابُّ. نعم، يا سيدي، كان هو ذلك الشاب في مرفأ جانيرو، ذلك الذي حدّثك عنه، ذلك الذي عبّر رفقتي النهر الذي لا تظهر له نهاية، على متن قارب يترنّج. دخل، فنهضتُ من المقعد. عيان خضراوان، وواسعتان، أهداب طوال لا تُنسى، أجمل ثغر، وأنف دقيق مشيق. إنَّ دهشةً من هذا الحجم تصعقنا فلا نفهم شيئًا: ما الذي ستقوله بخصوص ما أحكيه لك الآن؟ كنتُ أريد أن أذهب نحوه لأعانقه، لكن شجاعتي لم تكن كافية. لأنه تعثر في حركة تراجع، محرّجًا. لكنه عرفني على ما يبدو. تحكّمتُ أعيننا بنا معًا. أظن أن شيئًا قويًّا قد استقر بيننا لأنَّ الآخرين لا حظوا التغيّر - لاحظت هذا وسط بقية الأمور. مدّ لي الشابُّ يده. ما يُقال بين يدٍ وأخرى قصيرٌ عابر؛ ويمكن أيضًا أن يكون أحيانًا أكثر الأمور تكهنًا وكتمانًا. كيف ابتسم لي. أقول لك ذلك: إنه ما زال يتسم لي إلى اليوم. صدّقني. اسمه ريينالدو.

لماذا يجب أن أذكر كل شيء وأنا أحكي كل كبيرة وصغيرة؟ حدث لقائنا خارج ما هو متعارف عليه، بعيداً عن الممكن والمحتمل، ولا يقارن إلا بما نقرأه في الجرائد والكتب. حتى ما أحكيه هنا، فإنني لم أتمكن من استجماعه إلا فيما بعد وفهمه كما هو، على حقيقته - لأنه حين يُعقدُ شيء كهذا، ما نشعر به هو طبيعة الجسد الحقيقية: القلب يخفق. ما هو حقيقة: الحقيقي يتدحرج ويفرض نفسه، فجأة. - تلك الساعات هي ساعاتنا. أما الساعات الأخرى، ساعات كل الأيام، فهي ساعات الجميع - شرح لي عرابي كيليمين. كما لو أنَّ الحياة العادية تشبه الماء، وأنا منغمسون فيه، وبما أن كل شيء يتراكم ويخفُّ - فإنه لماما، مثل معجزة، ننجح في إخراج رأسنا إلى السطح. لماذا؟ سأقول لك ما ليس معروفاً جداً: دائماً حين نبدأ في الشعور بالحب تجاه شخص ما، في الحياة اليومية، فإن الحبَّ يثبُّ ويكبر لأنه، بطريقة ما، نريد أن يكون ذلك، وأن يستمر، في ذهننا، الذي يتمناه ويدفع به؛ ولكن حين يكون الأمر بيد القدر، الأكبر من أي شيء صغير، فإننا نحس حبا شاملاً، بدافع الحاجة إلى الحبِّ، فلا يتبقى لنا سوى أن نواجه المفاجآت. إنَّ حباً كهذا يكبر أولاً، وبعد ذلك يُزهر. إنني أتكلم كثيراً، أعرف ذلك؛ أضيّقتُ. لكن هذا ضروري. لأنه، إذن، إذن، أجبني: هل يمكن لحبِّ كهذا أن يأتي من الشيطان؟ يمكن! هل يمكن أن يأتي من شخص لا يوجد؟ لكن، وافق في صمتٍ، أرجوك. لا تُعطني جواباً: وإلاَّ ستزدادُ حيرتي. ذات مرة، هل تعرف: في تاماندواتاو، في عزِّ المعركة، كنتُ على وشك أن أنتصر، وهناك، في ضربة خوفٍ جليّة، ارتعشتُ - لكني لم أخف سوى من نفسي، لأنني لم أعد أتعرفُني. كنتُ شاسعاً، أكبر من نفسي بكثير؛ وطفقتُ أضحك، كنتُ أضحك من نفسي مقهقها. فجأة، تساءلتُ، كي لا أجيب على ذاتي: هل أنتَ هو ملكُ الناس؟ ... - تكلمتُ وضحكتُ. أطلقتُ صهيلًا، كأنني حصانٌ

متوحش. أطلقت النار. كانت الريح تهبُّ في كل الأشجار. كانت عيناى
تريان فقط ارتعاش الغبار فى الأعلى. ولن أقول أكثر من هذا: صه! فلا أنتِ،
ولا أنا، ولا أى أحد يعرف شيئاً.

إننى أحكى. رينالدو - هكذا كان اسمه. كان، كما قلت لك، هو ذلك
الشاب فى المرفأ. وما إن ظهر، شاباً لم يتغير، عند عتبة الباب، حتى علمت
أننى لن أستطيع أبداً أن أترك رفقته بمحض إرادتى لا غير، بسبب أى قانون
كان؛ هل كنتُ أستطيع ذلك؟ أدركتُ ذلك فى قرارة نفسى: تماماً وأنا أعيد
اللقاء فى تلك اللحظة بذلك الطفل-الشاب، فإننى استعدت إلى الأبد، فى
الوقت المناسب، أسلوب أسرة هى أسرتى. بلا شك، من دون وزن الأسرة
ولا سلمها، أعرف ذلك. لكن، رغم ذلك، هل يمكن أن يأتى الحبُّ بأمرٍ من
الشیطان؟ أنفى ذلك. آه - وأوتاسيليا؟ أوتاسيليا، كما سترى، حين أحكى
لك - هى، تعرّفتُ عليها فى ظروف لطيفة، يوم كان كلُّ شيء صافياً ممنوحاً،
وكان الزمن معلقاً، كما يقال: مع الملائكة، وهى تخلق من حولنا، تقريباً،
تقريباً. فى فازيندا سانا كاتارينا، فى بوريتيس ألتوس، فى عمق الوادى.
أوتاسيليا، كان أسلوبها هو أن تكون كاملة فى كل شيء، مخلوقاً غاية فى
الجمال. سوف أحكى لك لاحقاً: كل شيء فى وقته وأوانه. لكن الضرر الذى
عانيتُ منه، وكان يصيبنى ويعاودنى، هو أننى اضطررت لأعوض، من يد
إلى أخرى، حباً بحبِّ. هل هذا ممكن؟ أمُرُّ بلحظات فأقول مع نفسى: إن
كان حبُّ كهذا يأتى من الرَّب، إذن... الآخر، كيف يأتى؟ عذابٌ لا غير!
إن الأشياء عندي ليس لها هذا اليوم ويوم أمسها هو الغد: إنها دائماً. عذابٌ.
أعرف جيداً أن الذنب ذنبى. لكن متى بدأ ذنبى؟ إنك لا تفهمنى جيد الآن،
يا سيدى، ولا أدري إن كنتَ ستفهمنى فى النهاية. أقول: باستثناء هذين معاً
- وتلك الفتاة نيورنيا، من أرويرنيا، بنتُ آنا دوزوزا - لم أعرف حبّاً آخر

في حياتي. قد أحببتُ نيورنيا حبًّا كبيرًا فيما مضى، مع تأخر مُكَلَّف جدًا. أنا، في الماضي، أقول ذلك وأعرفه، أنا هكذا: حين أتذكر حياتي الماضية، أحبُّ الجميع، ولا أشعر بالاحتقار أو التوجُّس إلَّا تجاه نفسي السابقة. قبل الخروج في حملته عبر جيراييس، باسم العدالة، أضرمَ ميديرو فاش النَّار في بيته، ورفض أن يملك منه حتى الرماد. بأوامر صارخة مني، أضرمتُ النار في كثير من البيوت: بقيت أستمع للأشياء بداخلها وهي تتكسر وتسقط، تتهشم، يائسة، في ضجيج مكتوم. السَّرَتاو!

ما إن تعرَّفني رينالدو وحيَّاني، لم أجد أي صعوبة أخرى في أن أطمئن الآخرين على وضعي. تقريبًا، دون كلمات زائدة، قدَّم ضمانة على حسن نيتي لذلك الشخص صاحب الوجه المستدير والهيئة الباسلة، والذي كان يعتبر هو رئيس البغالين ويُدعى تيتاو باسوس. في الحقيقة، لم يكونوا بغالين، علمتُ ذلك، بل كانوا رجالًا مسلَّحين في خدمة جوكا راميرو. وقاflتهم؟ هذه، التي كانت تسير لحظتها نحو الشَّمال، كانت تنقل الذخيرة. لم يحترزوا في إخفاء الأمر عني. كان ماليناسيو هذا هو الحارس: يحرس الذخيرة المخبأة بعناية. قبالة بيته، تمامًا، كما عند عالية النهر وسافلته، كان النهر يشكل شرائط رملية - يحمل كل واحد منه اسمًا يطلقه عليه أصحاب القوارب، ويعرفونها جميعًا. ثلاثة شرائط رملية وجزيرة. لكنَّ واحدًا من تلك الشرائط الرملية الثلاثة، وهو أهمها، كان نصف جزيرة: أي أنه، في اتجاه أسفل النهر، جزيرة يابسة، بها حجارة كبيرة وأشجار، أحراش ومراعي، نبات إكليل الجبل يغمس أوراقه في الماء، ونحو عالية النهر، مجرد شريط رملي. جزيرة من شرائط رملية، كما يقال. يسمونها جزيرة الشريط الرملي ماليناسيو. كان الرجال يذهبون إلى حد هناك، حيث المخبأ، في قارب، بحثًا عن الذخيرة. أما الرفاق الآخرون، الذي يدَّعون أنهم بغالون، فكانوا هم تُريُول وجَواو

فاكيزو، بالإضافة إلى أكريسيو وأسونساو، الحارسان، وفوف، جينولين وأدميتو الذين شدوا للتو حمولة البغال. تناولنا العشاء تحسباً للسفر. ذهبنا معهم. وانطلقنا. لم أشعر بأي أسف على عدم انتظار إشارة النار من المرأة المتزوجة، بنت ماليناسيو. كانت جميلة، وشاطرة. امرأة من هذا النوع: مثل ذراع من قصب السكر تحترت في البرميل قبل أن تطحن. لم أعد أفكر في ذلك حتى. بدأت رحلة الليل كالمشي على القطن - بحذر شديد. كانت تلك الذخيرة تُقدر بآلاف كثيرة من الريالات، وكنا نضطلع بمسؤولية كبيرة. كنا نسير من دون أن نتبع الضفة، لكن النهر لا يفارق عيوننا. كان تيتاو باسوس هو من يقودنا.

أن أستمع معهم هكذا، من دون أي قرار حقيقي، مثل تلك الكلاب النحيفة التي تنتظر المسافرين قرب كوخ، قد تظن، يا سيدي، من يدري، أنني رجل من دون شخصية. فكرت في ذلك بدوري. أدركت أنني تافه، مستسلم للأحداث، مجرد من واجبي الشخصي والشريف. في تلك الفترة، أيا كانت الجماعة التي قد انضم إليها، كانوا جميعاً يقتلون ويموتون، يعيشون في غضبٍ ثابت، في يقين، ولم أكن أنتمي لأية عقيدة، لا أدافع عن أية قناعة، لا أشكل جزءاً من أي شيء. محبباً بكل هذا، اضطربت أفكارني. إلا أنني حرصتُ بالأشعر بالندم: كانت هناك دائماً بداية، أما الإحباط فكان طريقة في التفاعل تعلمت كيف أوجلها إلى ما بعد. لكننا كنا نساfer معاً، أنا وريينالدو، بيد أنه لم يكن يسعى إلى رفقتي، لم يقترب مني، ولو مرة واحدة، ولم يُبد أي رغبة في استئناf صداقتنا. لم تكن بحاجة لنشغل أنفسنا بالبغال، التي كانت تسير مصطفة الواحد تلو الآخر، بصبرها المعهود، تميز الأشياء في الظلام. لو أنني لم أمر بمكان معين، ولم أصادف تلك المرأة وأتفق معها على أن تشعل ناراً، أما كنت لألتقي بذلك الشاب؟ هذا ما فكرتُ فيه. انظر،

يا سيدي: فكَّرتُ مليًّا في ذلك، وبدل أن أسعد لما نلت من حظ كبير، كنتُ أعاني. الحظ؟ ما يَعْلَمُهُ الرَّبُّ، يَعْلَمُهُ. رأيتُ الضباب يحتاج حجم النهر وحدَّ الفجر ينبثق في الجهة الأخرى من الضفة. ومن خلفنا أطلقت طيور النحام تغريدةً. ثم وصلنا مباشرة إلى ضيعة صغيرة، فلمحنا زنجياً استيقظ للعمل، ينظف قطعة أرض. كان الزنجيُّ من رجالنا، فتوقَّفا.

هناك، رتلْتُ صلاة الصباح المريميَّة، بينما كنا نزيل برادع البغال ونقدم لها حصّة من الدُّرة. في حين كان آخرون ينظفون البغال بالفرشاة، أو يضعون الحمولة، وينزلون المشحونات. ثم وضعوها في المخبأ - فشغلت كل بيت الزنجي الصغير تقريبًا. كان الرجل فقيرًا معدّمًا حتى أننا اضطررنا لنعطيه ما يأكله هو وزوجته، وأطفاله الصغار، وهُم كثر. لم يكن هناك من خير، أيا كان نوعه. كنا سننام اليوم بكامله؛ لكن وجبَ أن يظل ثلاثة رجال مستيقظين، لغرض الحراسة. قال رييُنالدو إنه سيكون واحدًا منهم، فتشجعتُ واقترحت نفسي لأبقى؛ لم أكن أشعر بالنعاس، كنتُ كيسًا من الأعصاب المتوترة. حسب ما رأينا، ثَمّة شريط من الرمال الصفراء وشاطئ واسع يحاذي النهر: هناك، مع طلوع النهار، كان المكان يعج بأسرابٍ من الطيور. بل إنَّ رييُنالدو هو من نَبَّهني إلى ذلك. أنواع معروفة: طيور مالك الحزين مصطفة، بيضاءً بالكامل، مالك الحزين جابورو - البط الأخضر، البط الأسود، وكل أنواع البط الراقص؛ طائر الرِّفراف؛ البجعة أثوباً؛ بل حتى العُقبان، بلونها الأسود الذي يُلطِّخ المنظر. لكن أجملها جميعًا - كما قال لي رييُنالدو - ذلك الطائر الدقيق، أجمل الطيور وأكثرها مرحًا، سواء في عالية النهر أو أسفله، فكان اسمه هو «مانويل الصغير على الشريط الرملي».

لم يسبق لي، قبل تلك المناسبة، أن سمعتُ بالتوقف، من أجل الاستمتاع، لمشاهدة جمال تلك الطيور وحياتها البسيطة، حين تطير أو تستأنف التحليق

ثم تأتي لتحطّ في المكان. كان ذلك مناسبة لحمل بندقية وممارسة القنص. لكن ريّنالدو كان يحب ذلك المنظر: - إنه جميل حقاً... - قال مُبدئاً ملاحظته. في الجهة الأخرى، كانت هناك بحيرات ومستنقعات، تتشابك فوقها أسراب من البطّ تطير في كل الاتجاهات. - انظر، كيف هي هاته... - كنتُ أنظر فيزداد هدوئي. الشمسُ تسطع فوق النهر والجُزر يغمرها النور. - وهذا، انظر كم هو جميل! - كانت طيور «مانويل الصغير على الشريط الرملي»، التي تتحرك دائماً زوجين، فوق الرمال الناعمة، بأرجلها الطوال الحُمْر، الممتدة نحو الخلف، المنتصبة بالكامل، صدورهما المنتفخة، تنقر بعناية آلاف الأشياء التي تتغذى عليها. الذكر والأنثى - يتبادلان القبل بالمناقير أحياناً - يغازلان بعضهما على طريقتهما الخاصة. - هذه، ينبغي مراقبتها بكثير من الرّقة... - قال ريّنالدو. كذلك كان. لكن، أن يقول ذلك بتلك الطريقة كان شيئاً مفاجئاً. عذوبة صوته، رِفْقُهُ غير الأناني، رِقَّتُهُ - وكل هذا عند رجلٍ من رجال السلاح، شرس وجاغونُسو حقيقي - كان شيئاً لا أفهمه. لو سمعتُ غيره يقول ذلك، لفكّرتُ: جبان، ذلك النوع الذي يريد أن يعطي لنفسه قيمة لكنه لا يملك الشجاعة الكافية. لكن، لا أستطيع ذلك والقائل هو ريّنالدو، كلاً. ما حدث هو أنني سُررتُ كثيراً لسماع كلامه. كان كلاماً جعله أكثر لطفاً. أذكر ذلك جيداً. من بين كل تلك الطيور كان الأجل هو «مانويل الصغير على الشريط الرملي».

بعد ذلك، تحدثنا عن أشياء بسيطة لا قيمة لها بالنسبة للآخرين، فشعرت بالثقة كي أحكي تفاصيل عن حياتي، ولأتحدث بسهولة ومن دون حرج، دون التفريط في اللُطف والطيبة. كان كل ما سيأتي يعجبني، ولم أكن بحاجة لأنظر بعيداً. - ريوبالدو... ريّنالدو... - بدأ يقول فجأة: - إن اسمينا يشكّلان زوجين متناغمين - كلمات كان لها وقع علينا معاً: أنا، في الحالة التي

كنتُ عليها، شعرت بدفقة فرح؛ أما هو، فكان نحوَّلاً نحو الحزن. لكن، لماذا؟ لم أكن أعرف ذلك بعدُ. كان رييُنالدو يدخن كثيرًا، ولا أعرف كيف كان يحافظ على أسنان في غاية البياض والنظافة. كما أنه يجب القول إن التدخين لم يكن ترفًا، إذ كانت تطاردُنا أسراب من البعوض الصغير، دون هوادة، فتمتصُّ دماءنا، وتهيمن على الضفاف راقصةً فتوقظُ النائمين. رحت أحكي له عن حياتي. لم أخفِ شيئًا. حكيتُ كيف رافقتُ زي بيبيلو، حكيتُ عن الشَّهب النَّارية التي أطلقتُها، عن ذلك الخطاب الذي ألقيته في قرية بيدرا بُرانكا، عن الهجوم الذي قمنا به قرب ضفاف نهر غاميليراس، عن السجناء المساكين الذين رأيتهم يمرُّون، بوجوههم المتسخة وقمصانهم الملطَّخة ببُقع دمٍ جافٍ. - ريوبالدو، أنت شجاع... أنت رجل، رجل حقيقي... - قال لي حين انتهيتُ. ثَقُلَ قلبي، الذي كان ممتلئًا ويكاد ينفجر، كما يُقال: ظننتُ نفسي قادرًا على أعظم الأفعال، مستعدًّا لأي شيءٍ جِدِّي وعادل. منذ تلك اللحظة، أدركتُ أن رييُنالدو، مهما كان ما يقوله، فإن ذلك يرتدُّ عليَّ بسبعة أضعافه.

سأخبرني، يا سيدي، فأنا أعرف أنني كثير الكلام، ثرثار. أنزلق. إنَّها الشيوخوخة. لكن، أيضًا، ما الذي له قيمة وما لا قيمة له؟ كل شيء. انظر بالأحرى: أتدري لماذا لا يفارقني الشعور بالذنب؟ أظن أن ما لا يسمحُ بذلك هي ذاكرتي القوية. فضوء القديسين التائبين يشتعل في الظلام. أما أنا، فأتذكَّر كل شيء. كانت هناك مناسبات عظيمة لم يكن عليَّ أن أتصرَّف خلالها بشكل سيء، حتى لو رغبتُ في ذلك. لماذا؟ إن الرَّب يتجلى فيقودنا مسافة فرسخ واحد، ثم يتركنا. فيصبح كل شيء أسوأ ممَّا كان عليه سابقًا. هذه الحياة تمضي رأسًا على عقب، لا أحد بوسعه أن يحصي ثمارها وخساراتها. لكنني أحكي. أحكي لنفسي، أحكي لك، يا سيدي. عندما لا تفهمني جيدًا، انتظرني.

في ذلك اليوم، عند منتصف النهار تحديدًا، بعد انتهاء دورنا في الحراسة، لم نشعر أنا وريينالدو بالرغبة في النوم، فذهب يبحث عن كيس جميل كان يملكه، به تطريز وثلاثة أزرار لإغلاقه. بداخله، وضع مقصًا كبيرًا، مقصًا صغيرًا، مشطًا، مرآة، قطعة صابونٍ طريةً، فرشاة وشفرة للحلاقة. علّق المِرآة على غصن شجرة إجاص بري، نسّق تسريحة شعره، الذي كان مقصوصًا بشكل قصير جدًا. ثم أراد أن يقصّ شعري. أعازني شفرة الحلاقة، وطلب مني أن أحلق ذقني، لأن لحيتي كانت طويلة جدًا. كل ذلك وسط ضحكات وعبارات لطيفة - كما فعل طائرُ نياووما حين حلق فبسط مروحةً من الريش الداكن، أو عندما قفزتُ لألتقط غصنًا مزهرًا فكدت أقع، أو حين سمعنا شحيجَ بغلٍ كان يرعى قريبًا جدًا منّا. أن ألهو هكذا، بشعر مسرّح كما يفعل أهل المدينة، ووجه حليق، كان ذلك فرحًا صغيرًا، شيئًا جديدًا بالنسبة إليّ. مُذّاك، تشجّعت فلم أتوقف قطّ عن العناية بنفسي. لاحقًا، اشترى ريينالدو من أحدهم شفرة حلاقة أخرى وفرشاة، وأعطاني إياهما، في ذلك الكيس الذي أخبرتك عنه. أحيانًا، كنتُ أشعر بالخجل من أن يراني أحدهم مع قطعة مطرّزة وباذخة جدًا، لكنني حافظت عليها بعناية كبيرة. في مناسبات سفر أخرى، قدّم لي ريينالدو هدايا مختلفة: قميصًا مخطّطًا بشرائط دقيقة، منديلًا وزوج جوارب، مثل هذه الأشياء. ثم، ها أنت ترى: إنني أعنتي بنفسي اليوم. فالرجل النظيف يُفكّر بشكل نظيف. أعتقدُ.

بعد ذلك، طلب مني ريينالدو أن أذهب لأستحم في النهر. أما هو فلن يذهب. لم يكن يستحمّ، قال لي، وهي عادةٌ لا يقوم بها إلّا وحيّدًا في الظلام، مع أولى طلّائع الفجر. كنتُ أعرف منذ مدة هذا التطيّر، هذه الطريقة الغريبة التي يتصرف بها بعض الأشخاص - الكابورجودو - أصحاب الأجساد المغلقة. لم يفاجئني ذلك. لكن، فكّر قليلًا: تضحية بهذا الحجم، الانزعاج

من الاصطدام بأغصان ملتوية، التحسس مثل الأعمى في الظلام، دون القدرة على تمييز شيء من آخر، الانزلاق في الأخاديد أو فوق الألواح اللزجة، والانغماس في الوحل، بالإضافة إلى الخوف من العناكب السامة والثعابين! كلاً، أنا لا. لكن ريينالدو قدّم لي تلك النصيحة، وتركني على جانب الشاطئ، مبتهج الفكر. تمكّنتُ من مواجهة المياه، ونهر داس فيلياس في أوج مياهه المتدفقة، والأنهار دائماً تكون من دون أقدمية. نجحتُ في خلع ملابسي. لكنني اكتشفت أنني كنتُ في غاية السعادة وأنا أستحمُّ لأن ريينالدو طلب مني ذلك، وكان ذلك متعة مريحة ومضطربة. - اللعنة! - فكّرتُ. أطلقت العنان لغضبي. ارتديت ملابسي، وعدتُ إلى بيت الزنجي؛ لا بد أنه كان وقت تناول الغداء وتحضير البغال لاستئناف المسير. ما كنتُ أرغب فيه هو أن أسافر في تلك الساعات المتأخرة من الليل وأذهب بعيداً جداً. حتى أنني لم أرغب في النظر إلى ريينالدو.

إنني أحكي لك، يا سيدي، ولا بدّ لي أن أقدم لك شرحاً. إن التفكير السيء شيء سهل، لأن هذه الحياة متشابكة. إننا نعيش، أعتقد، كي نتخلص من أوهامنا ومن الثقة بالناس. تسود الوقاحة، خفيفة وخفيفة جداً، حتى أننا في البداية لا نؤمن بالصدق دون شرّ. هذا صحيح، أعرف ذلك. لكنني أعطيك وعدي: بما أنني كنتُ رجلاً حقيقياً، رجلاً يحب النساء! - لم أشعر قطُّ بميول نحو الرذائل المنحرفة. أفرُّ مما ليس له مبدأ. إذن - سوف تسألني، يا سيدي - وماذا كان ذلك؟ القانونُ اللص، قوّة الحياة. إنني أقول لك صراحة كلّ ما حدث لي خلال ذلك الوقت بكامله، دائماً باستفاضة، وأحياناً باختصار. تلك الصداقة الإلزامية. لم أكن أفكر في أي تمديد، في أسوأ الأحوال. لكنني كنتُ أحبه، ويوماً بعد آخر، أحببته أكثر. أقول لك، يا سيدي: مثل تعويذة؟ تماماً. كان مثل تعويذة. يكفي أن يكون إلى جانبي،

فلا ينقصني أي شيء. يكفي أن يحزن، أن ينقبض وجهه، فأفقد طمأنينتي. يكفي أن يكون بعيداً، فلا أفكر في سواه. لم أكن أنا نفسي حينئذ أفهم ما ذلك؟ أعرف أنه كذلك. لكن، لا. أن أفهم حقاً، لم أكن أرغب في ذلك. أعتقد فعلاً. تلك العذوبة التي لا مثيل لها، والتي كان يعرف كيف يخفيها في معظم الأحيان. رغبتُ بقرارة نفسي، دون هواده، أن أكون قريباً جداً، مهووساً تقريباً بأن أشم رائحة جسده، ساعديه، أنكهن بها أحياناً بطريقة مجنونة - كنتُ ألامس هذه النوع من الغوايات، فأقسو على نفسي، وأصدها. في لحظات كثيرة. كما يحدث ذلك حين أتذكر يديه، وكيف كان يشدُّ بها وجهي حين يقصُّ شعري. دائماً. الشيطان؟ أتساءل. بأيِّ عقل كنتُ أفهم؟ بأيِّ عيون كنتُ أرى؟ إنني أحكي. أنت تسمعني، يا سيدي. حدثتُ أموراً أخرى بعد ذلك.

مع ذلك، وأنا في حالة الحماس تلك، وجدتُ قاعدة للنصيحة: كان علينا، في رحلتنا القادمة، أن نعبر إلى الضفة الأخرى من النهر، نقطع جبال سيراًدا أونساً، ونشرع في عبور منطقة جيكيثاي، حيث يمكن أن توجد فرقة من الجنود: ألم يكن من المنطقي أن نرسل فقط واحداً منا إلى هناك، ليتجسس على ما يمكن أن يحدث؟ ويستجمع معلومات أخرى؟

كان تيتاو باسوس رجلاً متزناً، يحب البساطة، فاستحسن رأيي. كما استحسنه الجميع. كان لا بد من نقل تلك الذخيرة على وجه السرعة، لكنها كانت أيضاً أكثر قيمة من الذهب، ومن الدَّم، بل تستوجب عناية كبيرة. هنأوني على ذلك، وأعلنوني رجلاً شجاعاً، ذا أفكارٍ موثوقة. أعتز لك، يا سيدي، أنني حين سمعتُ ذلك شعرت برضا كبير - لأنَّ الفرح هو النسيم الذي يهبُّ على غرورنا، وهو الذي يوقد فيه أسرع الشُّعلِ وأشدّها. لكن سرعان ما خاب ظني، وأنا أتحقق من أن رأيي لم يكن غير أمنية مقنَّعة كي نبقى

لأطول وقت في ذلك المكان الذي كان يغدقُ عليَّ بكثير من الهدايا. لسعةُ ندم صغيرة نوعاً ما: كثير من الأخطار تهددنا، الحياة جادة جداً فوق رؤوسنا، وأنا أتخبط فيها بحثاً عن ملذات صغيرة. لطالما تصرفت بهذا الشكل، تصرفات في غير محلّها. لكن أمنيّتي أحدثت أثراً، وجاءت أوامرٌ جديدة. حتى يرى بعينيهِ ويتأكد، توجّه جينوليم نحو جيكيّتي ولاغوا غراندي، ومن أجل الغرض نفسه، سار إلى هناك أكريسيو، وذهب متنكراً عبر طريق بورتييراس وبونثال دا بارّا، مصغياً بكلتا أذنيه. بقينا هناك خمسة أيام، ننتظر عودتهما نرتاح ونستمع في بيت الزنجي بيدرو سيغوندو دي ريزيندي، الذي يعمل حارساً في فازيندا ساو جواوزينيو، التي كانت ملك عقيد يدعى جوكا سا. ألا أندم حتى اليوم بسبب ذلك؟ كانت تلك الأيام مختلفة عن بقية أيام حياتي. كنا نسير في الغابة لساعات طوال، نتأمل نهاية الشمس في أشجار جوز هند ماكاووبا، نقنص، نقطع أغصاناً ونجمع عسل نحل الأزهار، الذي يعطي شمعا ذا لون وردي. كانت هناك أعداد هائلة من الطيور السعيدة تحط فوق الرمل أو على الجزر. بل واصطدنا أسماكاً من مياه النهر. لم أر قط، حتى آخر لحظة من النهاية، لم أر قط رينالدو هادئاً بذلك الشكل، سعيداً كل تلك السعادة. كان هو نفسه، بعد ثلاثة أيام، من سألني: - زيوبالدو، هل نحن صديقان، يجمعنا قدر الوفاء؟ فأجبتّه: - رينالدو، إنني أريد أن أعيش وأن أموت صديقاً لك! - المشاعرُ. أحالني عدوّه نظراته على نظرات عينيّ أُمي العجوزتين. حينئذٍ، رأيت ألوان العالم. كما في الزمن الذي كانت كل الطبيعة فيه تتكلّم، هذا، أعرف ذلك. النهر الممتلئ صباحاً، أبيض من الضباب؛ وحبّات جوز الهند تلوي أغصان الأشجار. وحده نغمُ قيثارة يمكن أن يعيد كل هذا إلى الحياة.

أما الآخرون، الرفاق الذين كانوا معنا، فليس لديّ ما أقول عنهم. كنتُ قليل الاختلاط بهم. رجال شجعان، يستعملون أيديهم أكثر من عقولهم،

أشخاص عاديون من هذا الشَّمال البائس. ليس من باب التعالي، بل لأنني لا أتوفر على الحد الأدنى من الصبر، أظنُّ أنني لم أحب قطُّ الناس الذين يقنعون بالقليل. إنها طبيعتي. لكن تيتاو باسوس، يجب أن أقول ذلك، كنتُ أقدره: لأن ما كان ينقذ مظهره هو أنه ولدٌ بقلب كبير، يتَّسع لصداقات عظيمة. كان يرى الشَّمال طبيعيًّا. ذات يوم، ونحن نتحدث، سألتُه إن كان جوكا راميرو رجلًا طبيعيًّا. ضبط تيتاو باسوس دهشته: سؤال، أكيد أنه لم يسمعه من أحدٍ قبلاً. أعتقد أنه لم يتساءل قطُّ إن كان جوكا راميرو رجلًا طبيعيًّا أو شريرًا: لقد كانَ صديق جوكا راميرو، وكان ذلك كافيًّا. لكن الزنجي ريزيندي، الذي كان حاضرًا هناك، هو من قال بضحكة سعيدة: طيب؟ كان مسيحًا!... - أتعرف، زنجيُّ، إن كان من النوع الذي ينظر في عينيك مباشرة، فإنه أقدر الناس على الاعتراف بالجميل. أثناء ذلك، وهو يسمعنا نتحدثُ عن جوكا راميرو، اقتربَ ريئنالدو. يبدو أنه لم يرقه تمامًا أن أتحدث طويلاً وودياً مع أشخاص آخرين، فعبسَ لذلك تقريبًا. مع مرور الأيام، أدركتُ أنه لم يكن دائمًا بنفس المزاج، كما اعتقدتُ في البداية. آه، كان يحبُّ إعطاء الأوامر، يعطيها أولاً بلطف، ثم، بعد ذلك، إن لم تُطع أوامره، يصدرها بخشونة. تلك القوة في الرأي، هل كان هي أكثر ما يعجبني فيه؟ لا، بكل تأكيد. لكنني كنتُ أوافقهُ الرأي، من يدري ربَّما بسبب تلك الليونة التي نشعر بها من دون سبب، ليونة يومية، شيء يبدو لي مقترنًا بالكسل. أما هو، ريئنالدو، فكان أنيقًا وسيًّا، وأمراً، بطريقته الوقحة، فيغمرنِي ذلك بالفخر لأنه اختارني أن أكون صديقه الوفي. ربما لهذا السبب أيضًا. إن التَّأبير، حين يغوص في الماء، يتنفس شعره. لكن، أبدًا. كلاً، لم يكن كذلك. الحقيقة، الحقيقةُ إنني كنتُ أحبه. كنتُ أحبه حين أغمض عينيَّ. حبُّ يأتي من الهواء الذي كنتُ أنتفسه، ومن أحلامي ليلاً. سوف تفهمني، فأنت لم تفهمني بعدُ. أمَّا الباقي، الذي كنتُ أتبقده، فكان خداعاً مني وإليَّ: حماقات.

- قريباً سوف تتعرّف على جوكا راميرو... - قال ريئنالدو وهو يقترب -
سوف ترى أشجع رجل في الوجود! - حدّجني بتينك العينين اللطيفتين جدّاً.
ثم أردف: - أتعرف أنّه يستحيل ألا يكون طيباً من كان شجاعاً تماماً في أعماق
قلبه؟ - هذا ما قاله. احتفظت بذلك. تأمّلته. وتأملته من جديد. بالنسبة إليّ،
ما يُقال لم يكن دائماً هو الحقيقة الكاملة. حياتي. لم يكن ذلك ممكناً. لكنني
فكرت من جديد في الأمر، مرة، وأخرى. سألتُ عرّابي كيليمين. - لا يمكن
أن تكون هناك حقيقة أكبر من القيمة التي تنطوي عليها هذه الكلمات -
أجابني. عرّابي كيليمين دائماً على حق. أفكرُ في ذلك مرة أخرى. سترى، يا
سيدي، في النهاية أنّ الحقيقة المشار إليها تزيدني خجلاً من محنتي.

لكن الأشياء الجميلة سرعان ما تنتهي، لسوء الحظ. عاد أكريسيو: هدوء
تأمّ على امتداد النهر؛ لا جديد. ثم عاد جينوليم: كانت طريق جيكيثاي
متاحة. انطلقنا من جديد مع القافلة، من دون انشغال ولا قلق، عبر الطرق
المتوقعة وسط الجبال. هنالك، دقّت ساعة خطيرة بالنسبة إليّ، بعد ثلاثة
فراسخ من السير. بدأت تؤرقني مشاغل جديدة. في الجانب الذي لم أكن
أخشاه، كنتُ في أسوأ وضعية، بدأ تيتاؤ باسوس يسألني.

كان تيتاؤ باسوس رجلاً صريحاً وطيباً؛ طرحَ عليّ الأسئلة بطريقة طبيعية
تنمُّ عن كثير من الكرامة، حتى أنني ما عدتُ أملك شجاعةً أن أكذب، أو
أن ألوذ بالصمت. لا أستطيع ذلك. لاحقاً، حين سنعبّر منطقة جيكيثاي،
سيصبح كل شيء بالنسبة لنا ساحة معركة وأخطار موت. جابَ خيالَ زي
بييلو المنطقة، يطاردون الناس، يهزمونهم، يراقبون. كان من السكان من
يتوجّس منّا فيزودونهم بالوشايات، لأنهم كانوا جميعاً يريدون استغلال
الفرصة للقضاء نهائياً على جماعات الجاغونسو. - الموت، الموت، إننا نستسلم
له دون تفاخر... - قال ريئنالدو... لكن الذخيرة يجب أن تصل بين يدي

جوكا راميرو! - هل كان بوسعي أن أفكر بكل هدوء في موتي هناك؟ هل كان بوسعي أن أفكر في ريئالدو وهو يموت؟ وما كان تيتاو باسوس يريد أن يعرف هو كل ما كنت أعرفه عن زي بييلو، ما كان يستعمله من حيل في الحرب، قواته وأسلحته. كل ما قد أقوله، يمكن أن يساعده. معرفة البعض، موت الآخرين. وحتى أفكر بشكل أفضل، بدأت أعطي أجوبة سيئة، أصمت، أتحدث بشكل عام. كيف كان بوسعي أن أدلي بشهادة؟ هل كنت أستطيع ذلك؟ كنت أرغب في كل ما أريد. لكن الخيانة، لا.

لا. لم يكن ذلك من باب الواجب، أو بسبب الشرف أو أي إحساس نبيل. لكنني لم أكن قادرًا على ذلك. لا شيء في نفسي كان قادرًا على ذلك. لن أنسى أبدًا ما عانيت في تلك الساعة، وكانت وجنتاي تشتعلان نارا. أن أحكي أو لا أحكي، كنت على أحر من الجمر. لم أكن قادرًا، كأني حيوان لا يستطيع ألا يتناول الأكل الذي أمام عينيه، وكما لا يستطيع أم الحيوان أن تهرب وتترك صغارها عرضة للموت. هل كان ينبغي عليّ القيام بذلك؟ هل لم يكن ينبغي عليّ القيام بذلك؟ رأيت الليل يتقدم بشكل مبهم، بظلال أكثر حضورًا. من كنت، أنا؟ ومع أي جهة كنت؟ مع زي بييلو أم مع جوكا راميرو؟ تيتاو باسوس... ريئالدو... لم أكن لأحد. كنت لنفسي. أنا. ريو بالدو. ما كنت أرغب في أن أحكي.

تكلمت وتكلمت من دون جدوى؛ وهل ترى أن تيتاو باسوس يقبل ذلك هكذا؟ كان يصدق كل ما أقول له. وتذكرت أنني كنت لا أزال أحتفظ بدفتر يضم لائحة بأسماء وأشياء لها علاقة بزي بييلو. هل كان لهذا أي قيمة؟ لا أعرف، لم أكن أعرف شيئًا. أخذت الدفتر، ودون أن يراني أحد مرقته قطعًا صغيرة وأنا أمشي، ثم رميت كل شيء في مياه جدول. كانت تلك المياه تُطهرني. كل ما كنت أعرف بخصوص الباقي، كنت أرغم نفسي على

جهد نسيانه نسيانًا تامًا. بعد ذلك، قال تيتاو باسوس: - يمكن أن تقدم لنا مساعدة كبيرة جدًا. إن صادفنا رجالًا من صفوف زي بييلو، تدخل معهم في حديث - تقول إنك منهم، وإنك تقود هذه القافلة... - اتفقتُ معه على ذلك. بل إنني، شيئًا فشيئًا، شعرت بنوع من الفرح أنني أستطيع أن أساعد وأن أقدم يد العون، مثل أي رفيق جيد. لذلك، في جماعة زي بييلو، كان عليّ أن أساهم بكل حماس وشجاعة. لم يكن أمرًا مهمًّا ألا أقول شيئًا عن زي بييلو، لأن ما قد يترتب عن ذلك من ضرر، قد أكون أنا أول من سيعاني من تبعاته ويؤدي ثمنه. في مثل هذه الظروف، وبما أنني أصبحت رجلًا من رجال راميرو، فقد كنتُ معنيًا بالأمر. وأنا أفكر في ذلك، شعرتُ بفخر كبير، بمجدٍ، ومرحٍ. لكن ذلك لم يدم سوى لوقت قصير جدًا. أوه، مياهُ جيكييتاي الموحلة، مرّت مُتدفقة أمامَ وهني.

ولأنه فُكر بشكل أفضل فقد قال تيتاو باسوس: - علينا أن نحترس من كل شيء... لو علموا أنّك هربتَ، وعثروا عليك، سيقتلونك في الحال؛ بتهمة الفرار إلى معسكر العدو... - استغرقتُ أفكر في الأمر، ولم أستطع أن آتي بجواب. شعرت بمرارة على طرف لساني. الخوف. الخوف الذي يكبلك. الخوف الذي لحق بي في منعطف الطريق. شجرة الموز تتلقّى الريح من كل الجهات. والإنسان؟ إنه شيء يرتعش. حصاني يأخذني من دون أجل. بغال القافلة وحميرها، الرّب يعلم كم كنتُ أغبطها... ثمة عدة أشكالٍ من الخوف، أعرف، وأنتَ تعرف أيضًا. لكن أقطعها هذه: تلك التي تدوُّخُ المرء أولًا، وبعد ذلك تفرغه. خوف يبدأ دفعة واحدة بتعب كبير. هناك في صدغيّ، شعرتُ بعرقِي يتجمد. الخوف مما يمكن أن يقع دائئًا ولكنه لم يحدث بعد. إنّك تفهمني: ظهرُ العالم. لذا، فقد وجدّني أفكر في أشياء عديدة - قد يقوم مسلّحو زي بييلو بدوريات مفاجئة، هناك، فيقبضون

عليّ: لا يهّمُ السبب، سأهزمُ، لا حظّ لي في النجاة، مُصابًا أموت والتراب في يدي. كان يجب أن أتذكر الخطوات الخاطئة، وما كنتُ أعرفه عن حقد أولئك الرجال المتعطشين للدم، وشرّهم القادر على صقل انتقامهم بأفطع حقارة. لم أكن قادرًا على ذلك، لم أكن أفكر بشكل واضح. منعني الخوف من ذلك. كان دماغي مشوشًا، ورأسي يدور. غيرتُ مكان قلبي. واستمرت رحلتنا الليلية. شربتُ مُرورَ الخوف حتى الثمالة - كنتُ أمرُّ بفراغ كبير.

الحزنُ. في تلك اللحظة، عندما توقفنا، جاء رينالدو واقترَب مني. أعرف أنه كان يحبُّني أكثر بسبب حزني. دائمًا، عندما أكون حزينًا يحبُّني الآخرون أكثر، ويجدون متعةً في رفقتي. إنّ حزني منعطف محسوب؛ لكنّ فرحي أقوى من ذلك. كنتُ أعبرُ الحزنَ حين جاء رينالدو. بدا عطوفًا، ونصحني مازحًا: - ريو بالْدو، اسحبْ أذني حمارك! - لكني لم أغضب من ذلك. أجبته فقط: - صديقي... - ولم أقل شيئًا آخر. بكل ما أوتيتُ من جدية. لكني، في الحقيقة، كنتُ بحاجة لأبقى لوحدي. حتى شخصية رينالدو الخاصة لم يسعها إسعافي. أنا وحيد، وأكون بحاجة أكبر لأكون لوحدي في الأوقات العصيبة - هذا ما أحاوله. رينالدو إلى جانبي، بالإضافة إلى حزن الخوف الذي يصيبني، فيمنعني من تقدير قيمته. فرجل مثلي، حين يكون حزينًا بالقرب من صديقي، يتابه الضعف. كنتُ أرغبُ حقًا في شيء من اليأس.

يأسٌ هادئٌ سيُعدُّ أحيانًا أفضل بلسم. يجعلُ العالمَ أكثر اتساعًا ويجرّرُ الخلق. يسيطر علينا الخوفُ ويشدُّنا من جذورنا. تابعتُ السيرَ قُدّمًا. فجأة، فجأة، قبضتُ في نفسي على وميضِ فكرةٍ - رتّةٌ ذَهَبٍ: حجارة صغيرة من ذهب. فعلمتُ ما هي الإغاثة.

أنت تسمعنني، يا سيدي، أنا أدلي بشهادتي، أحكي. لكن، يجب أن أقول

درسًا مهمًا تلقَّيته من عرَّابي كيليمين. سترى، بعد ذلك، أنني في ذلك الليل المظلم، كنتُ أتكهن ببعض الأمور، ببعض الأفكار الكبيرة.

بعد عدة سنوات، علَّمني عرَّابي كيليمين أنه من الممكن دائمًا أن نحقق رغبة مهما كانت - لو تحلينا بالشجاعة، مدة سبعة أيام متتالية، وامتلكنا الطاقة والصبر المستمرَّين لنقوم فقط بما يُصيبنا بالقرف، بما نكرهه، ويستنزفنا ويُتعبنا، ونرفض أي شكل من أشكال المتعة. هذا ما قاله لي، أظن. لكنه علَّمني أيضًا، ما هو أحسن من ذلك وأفضل، أننا، في النهاية، يجب أن نرفض حتى تلك الرغبة الأولى التي شجَّعتنا على هذه المثوبة المجيدة. أن نهَبَ كل شيء للرَّب، الذي يتجلَّى فجأة، مع أشياء أكثر نبلاً، فيجازينا ويضاعف الجزاء، فلا تخضع فوائده لأي معيار بشري. احتفظ بهذا من عرَّابي كيليمين. هل هو نوع من الصلاة؟

حسنًا، الصلاة، لم أستطع ليلتها أن أصلي. بل لم أفكر فيها. حتى التَّفكيرُ في الرَّب يستوجب شيئًا من العادة. لكن وميض تلك الفكرة هو ما رفع معنوياتي، ومدَّني بالحجج. فكرة صغيرة جدًا. مجرد بداية. وشيئًا فشيئًا، نفتح أعيننا؛ فاكشفُ الحلَّ لو حدي. إنني في ذلك النهار الذي كان يطلع، قررتُ ألا أدخن، مهما كانت قوة الرَّذيلة التي تطالبني بذلك. كما قرَّرتُ ألا أنام أو أرتاح، لا جالسًا ولا مستلقيًا. وألا أذهب لأبحث عن رفقة رييُنالدو، ولا عن حديثه، وهو ما كان يعجبني أكثر من أي شيء آخر. اتخذت ذلك القرار، وشعرت بالسعادة. فقد بدأ الخوف يَفُكُ الخناق عن ساقِّي، وعن صدري. كنا نقرب من بيت مهجور، قرب بحيرات كورِّيغو موكامبو. كانت هناك مراعي جيدة. فنَفَّذْتُ ما قرَّرتُ. فعلته.

آه، كم شعرتُ بثقل ذلك اليوم، هَدَّأتُ قوة نسائم أخرى. برأسٍ مرفوع - أقول. هذه الحياة تعج بطرق خفية. إن كنت تعرف، فأنت تعرف؛ وإن

كنت لا تعرف، فأنت لا تفهمُني. لذلك، أعطيك مثالاً آخر. يبدو، بحسب ما يُقال وما يُفعل - أن أيَّ شخص يمكنه أن يصبح شجاعاً كبيراً إن استطاع أن يأكل نيئاً قلبَ يَغُورٍ. لكن يجب على الشخص أن يقتل اليَغُور بنفسه، أن يقتله بيده، مستعيناً بنصل سكين! حسناً، هذا أمر يقومون به هنا، رأيتُ ذلك: شخص جبان، يخاف من اليَغُور خوفاً شديداً، لكنه يريد أن يتحول إلى جاغونسو باسل - حسناً، يشحذُ هذا الرجل سكينه، يلج إلى العرين، ويتمكن من قتل اليَغُور بعداوةٍ ضارية؛ ثم يأكل القلب، فينفخ بشجاعة فظيعة! سيدي، ألا تفهم ما أقصد بكلامي؟ أتابع الحكيم. بسبب امتناعي عن التدخين، كان يتتابني اصطكاكُ أسنان مفاجئ، كأني غاضبٌ من العالم بأسره. صمدتُ. وحين لم أعد أطيق ذلك، بدأتُ أتمشى، بخطوات حازمة: أذرع المكان جيئةً وذهاباً. هو ما ولّد لديَّ رغبةً في أن أشرب من قنينتي. دمدمتُ: لا. تابعت المشي جيئةً وذهاباً. لم أكن أشعر بأدنى رغبة في النوم، وتنكرتُ للتعب. وجدت في ذاتي نفساً جديداً. الربُّ يتحكّم في العظمة. مزيد من الخوف؟ لا خوف إطلاقاً! ولتأتِ الآن جماعة من رجال زي ببيلو أو كتيبة من رجال الشرطة، وسيجدونني. سيجدونني، آه، بما يكفي. كنتُ مستعداً لمواجهةهم بأي شكل، أردُّ الحديد بالحديد، وليسلِ الدّم. بل رغبتُ حقاً في أن يأتوا، مرة واحدة ونضعَ حدّاً لكل هذا. وهناك، سمعتُ خطوات، ورأيتُ: وصلَ ريئنالدو. أراد أن يتحدث معي، مباشرة.

لم أكن أستطيع أن أغلق قلبي أمامه بسرعة. كان يعرف ذلك. كنتُ أستشعر الأمر. كان ينطلق من انطباع خاطئ: اعتقدَ أنني حزين، ولم أكن كذلك. هو ما كان مني اعتدالاً في نارٍ طبيعتي، فاعتبر ذلك ضعفاً في نفسي. فهل كان يريد أن يواسيني؟ - زيوبالدو، صديقي - قال لي. كنتُ أتنفس بقوة، لا صبر لي على تحمل التفاهات؛ وكنت لا أردُّ سوى بكلمة واحدة. هو،

عادة، ربما كان سيغضب لأقل من هذا. حينها، لم يشعر بالإهانة. - زيوبالدو، لم أفكر أنك في مزاج سيء... - أضاف مازحًا. لم أجبه. بقينا صامتين لحظة، نسمع الحيوانات تمضغ وهي ترعى بنهم العشب العالي. اقترب مني زيوبالدو أكثر. كلما أبديتُ له قسوتي، صارَ ودودًا معي. أعتقد أنني حدّجته بنظرات تشي بذلك. لكنه لم يكن يرى ذلك، لم يكن يلاحظه. آه، كان يحبّني كثيرًا، أقول لك، يا سيدي.

لكن، حمدًا للرّب، كان كلامه مقتضبًا.

- زيوبالدو، هناك أمرٌ دقيق لا بد أن أقوله لك، ولا أستطيع أن أخفيه عنك أكثر... اسمع: اسمي ليس ريئنالدو، هذا هو اسمي الزائف، ابتكرته لحاجة شخصية. من فضلك، لا تسألني لماذا. لدي مصري. إن حياتنا، كما يقال، تدور سبع دورات. ونحن لا نملك حياتنا...

كان يقول ذلك من دون غرور ولا تكبر، بل بالأحرى بنوع من التسرع، مع نبرة حزن وتردّد خجول.

- لقد كنتَ شابًا، وكنتُ شابًا كذلك... عبرنا النهر في القارب... نزلنا في ذلك المرفأ. ومنذئذ صرنا صديقين - وكذلك كان، وافقتُ. ثم سمعتُ: - حسنًا، اسمي الحقيقي هو ذيادوريم... احفظ سرّي هذا. دائمًا، حين نكون لوحدها، عليك أن تنادينني ذيادوريم. أقول لك هذا وأطلبه منك، يا زيوبالدو...

هذا ما سمعته، وكان شيئًا فريدًا للغاية. كرّرتُ في ذهني عدة مرات ما قاله للتو، كي أعتاد على ذلك. ثم مدّ لي يده. من خلال تلك اليد، كنت أتلقّي الحقائق الأكيدة. من خلال عينيه. عيان كان يضعهما عليّ، برّانيتان جدًّا، تكادان تكونان حزینتين من الكبّر. روحه على سطح وجهه.

حدستُ ما كنا نرغب فيه معًا، فقلتُ بسرعة: - ذِيادوريم... ذِيادوريم! -
 بِقُوَّةٍ من الإحساس. ابتسم جادًا. كان يعجبني، يعجبني، يعجبني. هناك
 رغبْتُ بكل حماس أن يكون بحاجة لحمايتي، طوال حياته بأكملها: حاجةٌ
 أشفع فيها له، أضمنها له، أناضل بدلًا عنه من أجلها. عيناه على وجه
 الخصوص، جعلتاني أضطرب؛ لكنهما لم توهناني. ذِيادوريم. مع غروب
 الشمس، انطلقنا من جديد وأخذنا الطريق نحو كانابرافا وبارًا. كان ذلك
 اليوم يومي أنا، ملكي. كنا نعبر سهلًا من المروج؛ بينما القمر يطلع. صفاء
 القمر. قَرُبُ السَّرْتَاو - ذلك الشَّمال العالي المتوحش كان يبتدئ. - هذه
 الأنهار يجب أن تجري مستقيمة! قلتُ مع نفسي. هذا هو السَّرْتَاو، كما
 تعرف يا سيدي: كل شيء أكيد، لا شيء أكيد. يومٌ مقمر. ضوء القمر يجعل
 الليل ممتلئًا.

ريينالدو، ذِيادوريم، يقول لي إن هذا كان هو اسمه الحقيقي - كأنه كان
 يقول لي أخبارا عما يجري في أراضٍ بعيدة. كان اسمًا، مجرد اسم. فماذا يكون
 الاسم؟ إن الاسم لا يُعطى، الاسم يُؤخذ. سبب ذلك السرُّ، لم أشعر حتى
 بالفضول لمعرفة. ربما تكون جريمة ندم على ارتكابها، من يدري، أرضًا
 أخرى اضطر للهروب منها؛ أو ربما إخلاصًا لقديس يحميه. لكنه كان يريد
 أن أكون الوحيد الذي يعرف، الوحيد الذي ينطق باسمه الحقيقي. أدركتُ
 قيمة ذلك. صداقتنا، لم يكن يريد لها أن تحدث ببساطة، بطريقة عادية، من
 دون معنى. صداقته، كان يهديها لي. كنتُ مستغرقًا في أفكارٍ، كما يستوجب
 ذلك أي فرح بيِّن: أفكر لأُطيل ذلك. لأنَّ أيَّ فرح بابُّ مشرع على الحنين في
 الآن نفسه. حتى هذا كان فرحًا من دون ترخيص، ولَدَ متعثرًا. إن العصفور
 الصغير يسقط لأنه يريد أن يخلق، لكنه وهو على الأرض، يرفرفُ بجناحيه
 الصغيرين.

اليوم، أرى الأشياء من جديد: أصوبُّ وأقارن. أليس أيُّ حبٍّ نوعاً من المقارنة؟ كيف ينشأ الحبُّ؟ سوف أحدثك عن حببتي أوتاسيليا. رغم أنني لم أتعرف على أوتاسيليا إلَّا بعد ذلك بمدةٍ؛ مدة طويلة جدًّا، بعد وقوع تلك المأساة، وفق ما ستسمعُ، يا سيدي. بعدَ ذلك بكثير. لكنَّ لقائي الأول بها، سأحكي لك عنه الآن، لا يهم إنَّ حكيْتُ ذلك قبل الأوان. الآن، ألا يطفو كل شيء فجأة بقوة أكبر إلى سطح ذاكرتي؟ هكذا كان. من هذه الضفة من النهر، عانينا من عدة أنواع من النكسات؛ علمنا أن الخائنين قد عبروا أيضًا نهر ساوُ فرانسيسكو، فعبرناه وحاولنا أن نلتحق بقوات ميديرو فاش، الأمل الوحيد الذي تبقى لنا. في الأراضي العليا. ففي الأراضي العليا تنمو أشجار البوريتي سامقة وتزداد قيمتها. كنتُ رفقة دُيادوريم، الأريبي وجواو فاكييرو، بالإضافة إلى جيزوالدو وفافافا. في بوريتي ألتو، أقول لك، يا سيدي - عند أعلى الوادي - مشينا حتى بلغنا فازيندا تدعى سانتا كاتارينا. كنا نعرف أن صاحبها معنا وإلى جانبنا، وكان علينا أن ننتظر رسالة هناك، في بيته. وصلنا عند المساء، والليل يكاد ينزل، مظلمًا، حالكًا. لكن صاحب البيت لم يكن هناك، لن يصل إلَّا في اليوم الموالي، وكان اسمه سيد أماديو. من استقبلنا وتحدث إلينا كان رجلًا مسنًّا، عجوزًا موقرًا، لم يظهر إلَّا عند حافة الشرفة - إذ يبدو أن هيئتنا لم تبعث الطمأنينة في نفسه؛ لم يدعنا لنصعد، لم يقدم لنا أي شيء نأكله، لكنه سمح لنا أن ننام تحت الطاحونة. كان ذلك العجوز هو جدُّ أوتاسيليا، ويدعى الجدُّ أنسيلمو. لكن، وبينما هو يتحدث، ورغم اللغظ ونباح رهطٍ من الكلاب، ميَّزتُ، هناك في الداخل، وسط إطار نافذة، وفق ما يسمح به ضوء شمعة خافت، حلاوة وجه فتاة شابة. فتاة شابة بوجه مستديرٍ صغير، تحيط به هالة شعر طويل. كانت هناك، تحديدًا، ابتسامة. هل كان ذلك كافيًا؟ أحيانًا، يكون ذلك كافيًا، أحيانًا. شيء

معروف: الحبُّ والموت لهما أماكن محددة. في الظلام. لكنني شعرتُ؛ شعرتُ بنفسي. ماء يؤجَّجُ ظمئي. أقسمتُ مع نفسي: لو أن سيدتنا العذراء ظهرت لي في المنام أو تجلَّت لي شبَّحًا، ستكون كذلك - ذلك الرأس الصغير، ذلك الوجه الدقيق، المحاط بهالة في الهواء لا نراها. آه، إنَّ شبابنا لا يترك أي شيء للمستحيل! أوتاسيليا. هل كنت جديرًا بجزاء كهذا؟

وماذا عن ذيادوريم، ستقول لي، يا سيدي: ألم ألاحظ، حينئذ، أي شيء منحرف في طريقة كلامه معي، في نظراته إلي، في حبه الكبير لي؟ كلاً، لم ألاحظ شيئاً. أوكد لك ذلك. كانت له أشياء أخرى، ربما... أتشكُّ في ذلك، يا سيدي؟ هيا، إنها افتراضات! أنت رجل سعيد، فاتركني لأضحك... كان يحبني بروحه، هل تفهمني؟ ريينالدو، ذيادوريم، أقصد. كان يعرف كيف يكون رجلاً رهيباً. اللعنة! هل سبق لك أن رأيت أنثى يغور: تشرعُ فمها من أذن إلى أخرى، غاضبة، دفاعاً عن صغارها؟ هل رأيت ثوراً هائجاً، يصارع وسط الحقول؟ هل رأيت ثعبان جاراراكوسو يتحمَّل سبع ضربات متتالية؟ هل رأيت قطعاً من الخنازير البرية هاربة، تزرع الرعب في الغابة؟ ولكنك لم ترَ ريينالدو يتعارك!... إننا نؤمن بهذه الأمور حين نراها. الشيطان في الشارع، وسط الدوامة... أتكلِّم! من يمنعني من الكلام، كما أشاء؟

هكذا، ذات مرة، بعد أن نزلنا في معسكر هرْموجينيس؛ وبأية طريقة! آه، كان ذلك مستودعاً للحاجيات. خليط من الناس الأشرار؛ قطاع الطرق من الجاغونسو الذين لا يخضعون لنظام ولا قانون. كانوا بين فورادو دي ساو روكي وفورادو دي سابو، على ضفة نهر ماكاووبا، عند طرف غابة جاييبا. هناك وصلنا ذات نهاية مساء. الساعات الأولى، قلتُ مع نفسي، كانت جحيماً. ثم، بعد ثلاثة أيام، تَعودتُ على الأمر. لأنني كنت شبه مضطرب بسبب الرحلة.

بخصوص ما كنتُ أحكي: من كان لا يعرف ريئنا لدو سرعان ما عرفه. ذيادوريم، أقصدُ. أخيرًا، بلغنا وجهتنا، دون فخر، سعداء بالعثور على عدد كبير من الرفاق المسلحين: كانوا ضمانًا للجميع. اختلطنا بهم ورحنا نبحت عن نارٍ نجلس حولها ونتجاذب أطراف الحديث. لا جديد في ذلك، أنت تعرفُ - حول النار، أي حديث يكون وقتنا تافها. كان أحدهم يشرح المعارك التي جرت ضدَّ زي ببيلو، ونحن نتحدث عن حكايتنا: كلُّ مسار رحلتنا، بكلِّ تفاصيلها. لكن ذيادوريم كان رجلًا وسيئًا جدًّا، بملامح دقيقة وجميلة. واحد أو اثنان من الرجال، كانا يريان أنه لا يملك ملامح ذكورية، بل اعتبراه غرًّا، لا تجربة له في المهنة. وسرعان ما بدأ يمزحان. حمل أحدهما لقب فأنشو بُودي. جبان. وكان الآخر، زنجيُّ أشعث، كان يدعى، اسمع، فولورينسيو. خبيثان. - ارتدَّ دخانُ الجمرات على وجه ذيادوريم - قال فأنشو بُودي بنبرة مسرحية. دمدم بكلمة بذئثة، وأوحى بشيء ما في صوته. بقينا صامتين. لماذا ندخل في شجار من دون سبب؟ لكن الرجل أبى أن يغير الموضوع. وقف وبدأ يحرك وركيه، يرسل قبلات ويقوم بحركاتٍ شبقية مفرقة أصابعه فيما يشبه الرقص. قفز ذيادوريم واقفا على قدميه، وابتعد عن النار؛ رأيتُ ما كان يقوم به: فسح لنفسه مجالًا. لكن فأنشو بُودي كان وقحًا، وكان يسعى ليقحمه في رقصة شرقية. الآخر، الزنجيُّ القذر، بدا متواطئًا وراح يهيجه وهو يدندن بصوت يخرج من أنفه:

مكتبة

t.me/soramnqraa

من أجل غاودير، غاودينسيو،

فماذا من أجل فولورينسيو؟...

كانت الجلبة! حدث صياح وعويل لكن ما سيلي ذلك كنتُ أعرفه... هوب!: سريعًا مثل البرق، انقضَّ ذيادوريم على فأنشو بُودي ووجه له لكمة قوية - لكمة إلى الفك، وأخرى تحت الذقن - ثم احتاج ووطئه بقدمه. تدرج

فأنشو بُودي على الأرض وكان ذيادوريم يطلُّ عليه من أعلى: وضع الخنجر على شريانه السباتي، وثبته هناك في الأعلى فوق تفاحة آدم، ليكون جاهزاً كي تنفذ بدفعة قوية وانزلاق بسيط، بينما دغدغ نصله سطح جلده ليمنحه مذاقاً أولياً يسبق الموت الجميل: كان يكفي أن يتركها تنزلق، ومع ثقله يكتمل الأمر. في رمشة عين، أخرجت مسدسي بدوري. حذار، أنا لم أكن أريد أن أحذر أحداً، لكن كنتُ مستعداً حقاً لأقتل، إن كان ذلك ضرورياً. أظنُّ أنهم فهموا ذلك. الحقيقة أنني لم أشعر في حياتي بالخوف. فهموا ذلك. شموه، وحدهسوه: كما تفعل الكلاب. لم يتدخل أحد، لأنَّ حشر النفس وسط ذلك كان أمراً خطيراً. أوقف فولورينسيو فجأة رجاله الوقحين، وبالكاد نظر إليّ مرة واحدة، ثم لم يرفع عينيه بعد ذلك. - انهض، أيها الغبي! - أمر ذيادوريم فأنشو بُودي ليقف ويمسك خنجره كي يدافع عن نفسه. بيد أن فأنشو بُودي طفق يضحك، بودّ ساخر، كأنه كان يسعى فقط ليمزح: - يا إلهي! أنت رجل، يا صديقي، وابن بلدي! - كان منظره مقرفاً بوجهه القذر وشعره الأشعث الذي ينمو في كل مكان من جسده. أعدت مسدسي بكل احترام. ليسا رعيدين؛ لكن لم تكن لديهما مصلحة في أن يموتا مبكراً جداً بتلك الطريقة. الرجل يكون وجهًا لوجه؛ والجاغونسو كذلك: إنه من - مع - من. وهذان معاً لم يكونا يحظيان بتقدير كبير من الآخرين. ورغبةً منهم في إرضائنا، بدا رفاقٌ آخرون أكثر ودًا. بل إن فولورينسيو، جاء متودِّداً مازحاً، وسألني: - يا رجل، هل تشتري مني الحلم الذي رأيته هذه الليلة؟ - متسلِّياً بدوري، أجبتُه بنفس النبرة: - مقابل نقودٍ أم تمساح... - فأطلق الجميع قهقهات عالية. لم يضحكوا مني. كان فولورينسيو يضحك بدوره، لكن ضحكته كانت صفراء. وأنا، صامتاً، صامتاً ولطيفاً، فكرتُ: يوماً ما، لا بدَّ أن يلتهم أحدنا الآخر... وإلاَّ ستنتقل القضية إلى أحفادنا وأحفاد أحفادنا... وبعد

أن استتبَّ السَّلامَ نهائيًّا، قدموا لي شرابًا: كاشاسا من النوع الجيد - جرعة واحدة فقط: من تلك الكاشاسا الزرقاء ذاتة الصيت من جانوازيا. وعلى إثرها، نمتُ تلك الليلة.

لطالما قلت لك ذلك، إنني أجد الرِّماية.

هذان الرجلان، فانشو بُودي وفولورينسيو، تلقيا رصاصتين في أول مواجهة لنا مع كتيبة من رجال زي ييبيلو. لسببٍ ما، قام أحدهم بنشر إشاعة تقول إنني أنا من أطلقتُ عليهما الرصاص، أثناء تبادل المواجهة. كما يحدث عادة، في مثل هذه الجلبة، كما تعرف: عندما تترد الرصاصة. بعد ذلك، قالوا إنني قمتُ بذلك عن قصد، حتى أتفادى أن ينصبا لي لاحقًا شرًا أو أفضاخًا، ويتنقما مني. إنني أنفي ذلك، لأنه ليس صحيحًا. إنني لم أرغب في ذلك قطُّ، بل إنني لم ألقِ عليهما أي تعويذة. ماتا لأنه يوم حتفهما، فكانت نهايتهما. بل إنه مات واحد منهما فقط. أما الآخر، فقد دخل إلى السجن - أعتقد - حيث قضى حوالي عشر سنوات في أحد السجون. ربما يكون سجن مونثيس كارلوس، من يدري. لستُ قاتلاً. ابتكروا لي ذلك الشيء الزائف، وأنت تعرف كيف هم الناس. الآن، أنا أتفق مع أمر واحد: لو أنهما لم يموتا منذ البداية، لأضيا وقتها يبحثان عني وعن ذيادوريم، ليلحقا بنا شرًا أو غدرًا، عند أول فرصة. ألا تجري الأمور عادة على هذا النحو، في الكتب، والحكايات؟ من الممكن أنه، حين نحكيها بمفاجآت متعددة وأحداث متتالية تكون أكثر تسلية. لكن حين نعيشها، في الحقيقة العادية، فإن هذا التنميق لا ينفع في شيء: أحسن من ذلك كله هو أن تصفي عدوك نهائيًا برصاصة صائبة قبل أن يباغتك بضربة غادرة. ثم إنني أعرف ما أقول: في كل مكان، حيثما سبق لي أن مررتُ، حتى في أوقات السَّلام والنظام، بالنظر إلى طبيعتي، كان هناك دائمًا عدد كبير من الناس يخشونني. اعتبروني غريب الأطوار.

الشيء الوحيد الذي يجب أن أقوله هو أنني أجد الرماية: إنني مازلت حياً لأنني ما زلت أنتظر ندي، من يضاهيني في التصويب وسرعة الضغط على الزناد. كان ذلك من حسن حظي، منذ صغر سني. لم يعلمني الألماني فوييس شيئاً كثيراً. وقتذاك، أصبحت رامياً ماهراً. أتقن استعمال أي سلاح ناري: بندقية، مسدس، رشاش، بندقية خدمة، مقذاف، بندقية خفيفة أو بندقية طويلة. إنني لا أتباهى بذلك، لأنني مقتنع بأن المهارة الطبيعية هبة من الرب. بحسب ما قال لي عرابي كيلمين: ربما كنتُ، في حياة أخرى، تجسيدا أكيدا للرماية ودقة التصويب. هل تعتقد ذلك؟ إن التصويب الجيد موهبة ذهنية، أنت توافقني. وأقل من ذلك في العين. الميزان. هل كان فوييس نبياً؟ ذات مرة، دخلتُ إلى قاعة بلياردو، وكان الرفاق بحاجة لي كي ألعب، إذ كان ينقصهم شريك. في لعبة البلياردو أعني. لم أكن أعرف شيئاً، ولم يسبق لي في حياتي أن لمستُ عصا بلياردو. - لا يهم - قرّر أذفيندو - تلعبُ معي لأن لي خبرة بذلك. سيلعب ضدنا جواو نوناتو وإسكوبيل - قبلتُ. اتفقنا على أن أذفيندو يمكنه أن يتابعني ويشير لي بأيّ ضربة وهو ينصحني، من دون أن يحقّ له أن يلمس ذارعي أو يدي ولا أن يضع إصبعاً واحدة على عصا البلياردو. كان لا بدّ من رؤية ذلك، حتى مع هذه الشروط، لم أرتكب أدنى خطأ في التصويب. كان أذفيندو يوضح لي أحسن اتجاه اللعب فيه، فأنحني، بطني مرناً، وأضربُ العصا مستهدفاً الأخضر، فكان الارتداد المضبوط، الاصطدامات بحرف البليارد، التفاف، التفاف مضاعف، التفاف ثلاث مرات، والتفاف مرتدّ: في الأخير، ما أمتعني أكثر هو لمعان الكرات وبريقها، وكيف كانت تنزلق متدحرجة مع بعضها... حسناً، كما كنتُ أقول لك، كانوا يحترموني لمهارتي في التصويب، فأرادوا أن يطلقوا عليّ لقباً: أولاً، «اليعسوب»، وبعد ذلك، تاتارانا أو «السهم الناري». لكن ذلك اللقب لم

يلتصق بي. وأنا، لم يكن يلتصقُ بي أي لقب تقريبًا. أ يكون ذلك لأنني لا أستقرُّ أبدًا على نفس الحال؟

كيف كنتُ، أين كنتُ وما شاهدتُ في معسكر هِرْموجينيس.

شر ذمة من الأوغاد. حثالة الناس. بعد انطباع أول، وبعد أن رأيتُ ما رأيته، شعرتُ بالتَقَرُّز. كانوا أكثر من مئة فرد، مئة وخمسين، طائعين، متمرسين على حياة الجاغونسو، غوغاء، أشخاصًا مبتدلين. في البداية، كنتُ قلقًا، ولكني سرعان ما بدأت أنظر إلى ذلك عن كثب، فتدبَّرتُ أمري ووجدت لنفسي وضعًا يريحني. هكذا، تعودتُ بنصف قلبي على تلك المزرعة. بالتحديد مع رجال هِرْموجينيس. الطيبون منهم والأشرار، هؤلاء وأولئك، كما هو الحال في عالمنا هذا. فمقابل كلِّ سيِّئ، سرعان ما تجد آخرَ أسوأ منه. كنا في حالة حرب. رغم ذلك، بقلب شجاع، لم يكن أحد ينزعج لأخطارِ بذلك القدر من الجدية. كنا نعيش في مرح، دون أن نكثرث ونحن نقيس أيادينا، في صخب وأجواء من الاحتفال. لم يكن أي أحد يهدأ. كان ذلك التجمع هناك عبارة عن أشخاص يتسكَّعون دون هدف، أو يقفون في مجموعات؛ بعضهم ينامون على الموائد وآخرون يتمددون على الأرض غير نائمين - فقط يضطجعون. كانوا يرتدون ملابس مختلفة، كما رأيتُ: بل أتذكر واحدًا كان يضع حزامًا طويلًا من الصوف الأحمر، وآخر يضع قبعة من فرو الأرنب ويرتدي صدرية من ثوبٍ رفيع، كما في المدينة؛ وكان آخرون يرتدون عباءات من تبنٍ وقصب، حتى عندما لا تمطر السماء؛ إلا أنه لم تكن تُرى ملابس بيض: الناس لا يخوضون الحرب بألوان ناصعة. لكن لا أحد يظلُّ عاريًا كما ولدته أمه أو يرتدي لباسًا غير لائق، بين الآخرين، فهذا لا، أبدًا. يذهبون ويأتون أو يظلون جالسين، يمارسون ألعابًا أو يتبارزون في صراع القوة، يمخطون، ينفخون، أو ينفثون التبغ الأسمر ويصقون بعيدًا، يدخنون سجائر التبن،

يسحقون التبغ ويلفونه في تجاويف أياديهم لساعات طوال؛ ويمضون بقية الوقت في الثرثرة والصياح. كان أكثرهم تجربةً يتبادلون أشياء بسيطة، أشياء تافهة يملكونها، لم يعد لهم بها أي غرض ولم تكلفهم ثمنًا باهظًا. لم يكن أحد يسرق! فالسرقة مجازفة بالموت. كان البعض يردّدون أغنيات الرعاة في غياب القطيع. أو يشغلون وقتهم بملء البطون. كان العمل الوحيد الذي ينجزونه هو تنظيف السلاح ونقش علامات الصليب على مقابض البنادق. ما يفعلونه خارج هذا كله، كان بسبب انعدام ما يقومون به. ولهذا - حسب ما كان يُقال - حُبِكتْ عدّة دسائس، راج الكلام، وكثُر الطُفيليون. بل كانت هناك كلاب أيضًا: تتسكع في كل الأرجاء، لكن كل سيد عرف كلبه؛ وكان من غير اللائق إساءة معاملتها، احترامًا لأصحابها.

شيئًا فشيئًا تقبّلوني؛ لكنهم ظلّوا حذرين. هل كانت تلك عادتهم فعلاً، بسبب ميولٍ ما في مزاجهم؛ أم أنهم كانوا يريدون إبقائي على الهامش، بما أنهم وجدوني مختلفًا؟ كان ذلك في البداية فقط. بما أنني أدركت أنني كنت حقًا من أصول مختلفة. هذا ما فهمتُ بسرعة من خلال هذا المثال: كانوا يريدون أن يكونوا جاغونُسو مئة في المئة، من أجل التَّبَختر والتميُّز، حسب ما اكتشفتُ، كما يلي. بل إنني رأيت منهم من كانوا ينزوّون في ركن قَصِيٍّ ويمضون وقتهم في عملية غريبة: يشحذون أسنانهم، ليجعلوها أكثر حدة! هل تتخيل ذلك؟ كان لا بدّ من رؤية ذلك، ذلك الإصرار على العمل كان مرهقًا، مفرقًا، بل كانت تلك المحنة شيئًا مثيرًا للشفقة والجنون. رأيتُ من كانوا يشتغلون بتلك الطريقة: جيز والدو، شاب لطيف، أراوتا ونيستور؛ ومن يعلمانهم كانا هما سيميّاو وأكاوّا. كما أقول لك. كانت عادة جارية، شحذ الأسنان الأمامية، بواسطة شفرة أداة من الأدوات، فقط رغبةً في تقليد الأسنان الحادّة لبعض الأسماك في نهر ساو فرانسيسكو - أسماك الضاري

السُّود وتلك السمكة الضارية المسماة رأس الحمار. ولا تظن أنهم للقيام بذلك الكشط امتلكوا الأدوات المناسبة، مثل مبرد صغير أو مبشر. كلاً: استعملوا السكين. كان جيزو والدو يقوم بذلك بنفسه جاثياً على عقبيه. كان يتدبر أمره ليثبت شفرة السكين على حافة السن، يزيل شفرة الموسيقى، ثم يضرب المقبض بحجر، ضربات خفيفة، بوتيرة معينة. من دون مرآة، من دون أن يرى؛ وكان مقبض السكين معدنياً. آه، وبها أن اللعاب يسيل حين يفتح فمه، فقد كان يسيل الدَّم أحياناً من فمه. بل الأسوأ من ذلك أنه كان يثُنُّ، منقبض الوجه، لأن ذلك كان مؤلماً حقاً. كان يتحمّل. حين يسخن فمه أكثر من اللازم، كي يقوم بتبريده، كان يشطف فمه بشيء من الماء ومشروب العرق. الآخرون يفعلان الشيء نفسه. تدبّر أراوتا أمره بنفسه، يضرب السكين بنفس الطريقة بواسطة سكين آخر. أما نيستور، فلم يكن كذلك: كان سيمياؤ هو من يشحذ أسنانه، وهو يضرب بمطرقة صغيرة؛ لكن أكيد أن نيستور كان يدفع له شيئاً مقابل ذلك. شعرت بالقرف من تلك العادة. - إلى الجحيم كل هذا! - قلتُ. ألا تريد أن أشحذ أسنانك، يا صديقي؟ - سألني سيمياؤ مازحاً. ابتسم لي بتكشيرة، وصدّقني إنه كان يشحذ أسنان الآخرين ولم تكن لديه ولا سنٌّ واحدة في لثتيه، بحسب ما عاينتُ حين فتح فمه الأدرد. أجبتُه: - أرى أنه كي يكون المرء شجاعاً، لا حاجة له للقيام بحركات مضحكة - كان أكاؤا من معارفي القدامى، فسارع ليرد قائلاً: - إنها مسألة ذوق... - لكن رجلاً آخر أقبل فقال بنبرة جافة: - كل شيء حسب الذوق في هذه الحياة، يا رفيقي. لكنه لن يكون ذوقي! - تفحصت وجه هذا الذي مدّني بدعمه. كان شخصاً يُدعى لويس باجييو - كان هذا الاسم منقوشاً على خنجره، وكان يتحدث من السّرتاؤ الذي يحمل الاسم نفسه، مقاطعة من مقاطعات بيزونا موكو. رجلٌ جريء، أسمر داكن البشرة،

شعر مجعد، وشجاعة فظيعة. لكن ما كان ينقصه، هو ما لم يعد ملكه، إحدى أذنيه - التي قُطعت قريبًا جدًا من رأسه. فأين يمكن أن يكون لويس باجيئو قد نسي أذنه؟ - لن يكون أبدًا من ذوقي أن أقشّر أسناني... - قال بشكل صريح، وكان يتحدث كأنه يغني، بصوت عذب، رقيق. وفي الوقت ذاته، سمعتُ شخصًا آخر يقول، بصوت قوي مرتفع: - أوه، في أرضنا، الثور هو من يشحذ قرنيه، هههه! - وكان هذا فارسًا صريحًا، هو فافافا. تعرّفتُ عليه. وسأعود لأتحدث عنه لاحقًا.

لكن ما لم يكن ينقص هناك كان هو الطعام المتوفر بكثرة. مؤونة وشراب جيد. من أين كان يخرج كل ذلك، في تلك الأرض الفقيرة المنسية، بما أننا كنا نخيم في صحراء تقريبًا؟ والذخيرة، بكميات كبيرة حتى أنهم لم يحتاجوا إلى تلك التي جلبناها، والتي حملوها بعيدًا، إلى مخابئ جوكا راميرو، قرب قرية بُرو؟ والأجر، لإرضاء هذه العصابة من الرجال المأجورين؟ آه، لقد سرقوا ونهبوا كما يحلو لهم، وعاثوا فسادًا. كانت السرقة بالسلاح شغلهم الأول، بل كانوا يتحدثون عن مهاجمة المدن الكبيرة. هل حدث ذلك أم لا؟

لكن، انظر واسمع، يا سيدي: في عام ١٨٩٦ تقريبًا، عندما تقدّم رجال الجبل تلك المسيرة وساروا نحو ساو فرانسيسكو، سيطروا عليها دون تأخير ولا صعوبة. لكن، في السنوات الأخيرة، حاول أنداليسيو وأنطونيو دُو بدورهما أن يدخلوا إلى هناك، بواسطة ما يناهز ألفا وخمسمئة رجل، على متن الخيول، فما إن علم سكان ساو فرانسيسكو بذلك حتى تجمعوا، واستقبلوهم بطلقات نارية دفاعا عن أنفسهم. يُقال إن المعركة استمرت مدة ثلاث ساعات، فقد أقام السكان المتارس عند مداخل الشوارع - بواسطة أخشاب الحواجز، والرمال والحجارة بكميات كبيرة، وأغصان الأشجار المقطوعة - وحاربوا مثل مواطنين بوسائل. بعد ذلك، عاد رجال

العصابات، أعادوا الكرّة بقوة، فأصبحوا أسياد المدينة بكاملها، وواجهوا مقاومة من لدن القائد ألسيديس أمارال وبعض الجنود، الذين حُصروا داخل بيت أو بيتين وبستانٍ خلفي؛ كانت معركة استمرت ليال وأيام. وكان ذلك من أجل الانتقام، انظر، لأن ألسيديس أمارال كان قد سَجَنَ مرّة أنداليسيو هذا وجزّ شاربِيّه. وكان أنداليسيو - واسمه الحقيقي هو أنداليسيو غوميس بيريرا - رجلًا بشاريّن طويلين. أعرفُ ذلك ممّن سمعَ، وهو يتذكر ذلك الحدث مرتعشا: الطريقة التي كان أنداليسيو يقود بها المعركة، فيوقف القتال ويصيح مثل حيوان هائج: - اخرج أيها الكلبُ! تعال إلى هنا! إنّ شارب الرجل لا يُقطع! - كان مجرّد سماع ذلك يُجمّد الدم في العروق. من هبّ لإنقاذ القائد كان هو المفوّض الدكتور كانتوازيا غيماريس، الذي جاء على وجه السرعة من جانوازيا، مع حفنة من الجاغونسو الآخرين، وبعض أصحاب الفازيندات المساندين للحكومة. فحرّروهم وأمروا بإخراج الضحايا من تحت التراب ليعدّوهم، فأحصوا أربع عشرة جثة كانت جميعها في قبرٍ واحد! لم تعد مثل هذه الأمور تحدث في زماني، وكنتُ قد اعتزلت وقتئذ حياة الفوضى لأمارس تربية الماشية، وأزرع القطن وقصب السُكر. لكن الأسوأ هو ما حدث مؤخرًا، الآن تقريبًا، يعني أن الأعمال الانتقامية لم تتأخر كثيرًا بعد ما وقع من قلاقل في كارينيانا - مجزرة حقيقية: يوم تدفق الدم في كل مكان، أتعرف: - كارينيانا مكان جميل جدًّا... - حقيقة يتغنى بها السكان على ضفاف نهر ساو فرانسيسكو، ويرددها أصحاب القوارب. لأن كارينيانا كانت على الدوام معقلًا لرجُل يملك الشجاعة والسلطة: العقيد جواو دو كي - أبُ الشجاعة. تعرّفُ على أنطونيو دو ذات مرة في فارجم بونيتا، وكان يوم سوقٍ هنا، فجاء رفقة بعض من رجاله، وظلوا منزوين، صامتين. كان أنداليسيو واحدًا من أحسن أصدقائي. آه، لا بُد

لزمنا الجاغونسو أن ينتهي، والمدينة هي التي ستقضي على السرتاؤ. هل ستقضي عليه؟

في البداية، لم أدرك جيدًا من كان يقودنا جميعًا. كان هرُموجينيس. لكن قرابة خمسين - من بينهم أكَاوَا، سيمياؤ، لويس باجيؤ، جيزوالدو وفافافا - كانوا يطيعون جُواؤ غوانيا، كانوا رجاله. وكانت هناك أيضًا جماعة من الشجعان تابعين لريكارداؤ. أين كان ريكارداؤ؟ منشغلًا بحشد مزيد من السواعد، والرجال المسلّحين، على حدود ولاية باهيا. وكان يُتَظَر أيضًا وصول سو كانديلازيو، مع رجاله. كما كان يُتَظَر القائد الأكبر، أولهم جميعًا - جوكاراميرو - الذي كان يُقال إنه كان في بالماس وقتئذٍ. لكنني وجدتُ أن كل هذا كان يشكل كثيرًا من الفوضى. تيتاؤ باسوس، رقيب بسيط مع عدد قليل من الرجال تحت إمرته، كان، مع ذلك، يحظى باحترام كبير. وكان النظام مختلفًا تمامًا تحت قيادة زي بيبيلو. انظر: الجاغونسو إنسان يتصرّف بطريقة ملتوية، معقدة جدًا حتى أنه يصعب عليّ أن أشرحها لك. إنهم يتصرّفون حسب معرفة خفية، لكن دون أي منطق سليم حقيقي يمكن أن أصفه: كما يحدث حين يقع بينهم توافق قوي وضمني، يشبه، في مقارنة غير موفقة، ما يحكم جماعة من الحيوانات، مثل رهط من الخنازير البرية أو قطيعا من الثيران. ثم يصنعون لغزًا من كل شيء. ذات يوم، تلقينا أمرًا: أن نجمع كل الحيوانات، والخيول، والدواب كي نأخذها ونخفيها لترعى في الجبل، في وادٍ صغير على ضفاف نهر بوسو تريستي. بالنسبة إليّ، كان موقع ذلك المكان يبدو لي كذبة. لكنني اضطررت لتسليم حصاني، على مضض. وأنا على قدميّ، شعرتُ أنني من دون أمان. وهناك تلك الأشياء الصغيرة التي تزعجني: مع حصاني، كنتُ أحمل شماعة المعطف، الحقيبة المثبتة فوق السرج، والجراب، وأستطيع أن أحتفظ بأغراضي البسيطة. ليلاً، كنتُ أعلق السرج في غصن شجرة، أضع

تحتة الحقيبة، مع ملاسي، وأنا م مطمئناً. فجأة، وجدُّني في وضع غير مريح تماماً. لا أستطيع أن أحمل أغراضي معي - السَّلاح الثقيل، الرِّصاص وذخيري من الخراطيش كان هو كل ما أستطيع حمله. سألتُ رجلاً أين يمكن أن نضع أغراضنا. - إيه، يا رجل، ضعها في أي مكان، ازمها، هل تحمل الذهب أم ماذا في هذه الحقائق؟ - فيما كان يهمهم ذلك؟ في كل مكان، كانت هناك مواقد نار للطبخ، مع دخان متصاعد يفوح برائحة إكليل الجبل، والقدرُ مثبت فوق حاملٍ ثلاثي القوائم، رائحة شهية، للحم مشويّ في المشبك، بطاطس وفطائر المنيّهوت، دائماً ساخنة تحت الرماد. طحينٌ وسُكَّر بُنيّ، بكميات كبيرة. قطع لحم كبيرة مجفّفة في الشمس، لا خوف على نقصانها، لأن البعض غالباً ما كانوا يذهبون إلى القنص فيعودون بحيوان يقتسمونه فيما بينهم. كان الكثير منهم يضيفون قليلاً من ماء الحياة إلى المرق، ولم يسبق لي أن رأيت أحداً يمزج المرق بتلك الطريقة. عادات مختلفة! كان عليك أن ترى كيف كان فافافا يحفر ثقباً مربعاً في الأرض، يملأه بجمرات كبيرة، وفيه يشوي، فوق الجمرات مباشرة، قطعةً كاملة من اللحم يقطرُ دمه، ثم يقلّبها بخنجره معتمداً فقط على ما تصدره من أزيز. كنتُ أكره هذه الطريقة في التصرف، بكل تأكيد. إنَّ أكبر حنينٍ ينتابني هو ما أشعر به تجاه طبق دجاج بالبامية وشيء من القرع والمرق؛ أو أوراق الكارورو المقلية والملفوفة في دقيق المنيّهوت. كنتُ أشعر بحنينٍ مرضي إلى مزرعة ساو غريغوريو - فقد عشتُ هناك حياة الأسياد. لاحظَ ذيادوريم ما كنتُ أعانيه من صعوبات. فقال لي ليواسيني: - زيوبالدو، ستأتي أيام أحسن من هذه. أما الآن، فنحنُ في قعر المستنقع... - أن أكون مع ذيادوريم وأسمع منه كلمة جميلة كان كافياً ليمنحني عُشاً دافئاً.

لكن، رغم ذلك، كنتُ أرى أنه ليس من اللائق، في تلك الظروف، أن نبقى معاً لوقت طويلاً، بعيداً عن الآخرين. فكَّرتُ أنهم قد يظنُّون بنا الظُّنون،

ويتصوّر أننا نرتبط برِباط الذنب. فهؤلاء الناس كانوا دائماً مختلطين، دائماً معاً. وكانت كل صغيرة وكبيرة من حياة المرء تُعرف ويُعلّق عليها: على أنظار ومسامع الجميع. لكن الأمر كان مختلفاً وأحسن بكثير حين التحقنا برجال ميديرو فاش: هناك، كان الأغلبية يتحدّرون من الأراضي العليا، أشخاص صموتون مُنطوون على ذواتهم، من سكان المناطق النائية. لكننا في النهاية ن تعود، أي أنني تعودتُ. دون خوف من أن يسلبوني ما معي من مال: كنتُ أحفظ منه بقدر كبير لأن زي ببيلو كان دائماً يدفع لي أجري بانتظام، ولم يكن لديّ فيما أنفقهُ. أعددتُهُ مرة أخرى. وأردتُ أن يروا في الحال كيف كنتُ أُجيد الرّماية. بل إنهم كانوا يحبّون ذلك، مشاهدي: - هيا، تاتارانا، أطلق النار وصوّب جيّداً... - كانوا يقولون من أجل التسلية. على مسافة مئتي ذراع، كنتُ أدخلُ الرّصاصة في عين شمعدانٍ وأصيّهُ. كل الرصاصات، كلها، في نفس الهدف! وبذلك، ها أنت ترى، كنتُ أوقِفُ في الحال ما يدغدغ أذنيّ من كلام. - إذا تكلم عني أحدهم بالسوء، لا يهمني. لكن، لا أريد أن يأتي أحدهم ويشي ذلك. من تُسوّل له نفسه أن يأتي ويخبرني، فهو من لا قيمة له: كل ما يستحقه هو أن نعامله معاملة العاهرة التي ولدته!... - حدّرتُ. إنك تعرف: هذه الشّتيمة: «وأملك»، وما يتلو ذلك - أيّ زنّادي. في الوقت نفسه، حتى لا تخونهم الذاكرة ولا ينسوا، أمسكُ بندقيّتي - كنتُ أملك بندقية صيد، من نوع وينشستر يمكن أن تطلق حتى أربع عشرة طلقة - وأقوم باستعراض. كانوا يشجعونني: اقطعْ هذا الخيط من الثقوب، يا تاتارانا! - وماذا لو قطعته؟ لم أخطئ قطُّ في إصابته. بمزيد من الحذر، كنتُ أفعل ذلك بمسدّسي - حتى لو مرّ ظلُّ شعرة من أمامي أصبته - قلتُ مبالغاً. لم أكن أنتقل من دون خراطيشي الثلاثية، الممتلئة دائماً. هكذا كانوا يُعجبون بي ويهثونني، في الوقت الذي كان بوسعي أن أظل فيه هادئاً مطمئناً. وهناك،

فجأة، بدأت رغبة تستقر في ذاتي - أن أدمر أحدهم، الشخص المناسب. يمكن أن تضحك، يا سيدي: وضحكك له ما يبرره. أعرف ذلك. ما أريد هو أن تفكر مرة أخرى في كلماتي المجنونة. وانظر: كل ما يقع هو تحذير. قتل العنكبوت في بيته. وإلا، فلماذا خطرت عليّ تلك الفكرة المشتهاة في أن أضع رصاصة في جبهة هرْموجينيس.

من البرونز. الحقد يترسب في ذات المرء عبر بعض المخلوقات. على ذمتي، كان هرْموجينيس خبيثًا، خبيثًا. لم أكن أريد أن أخاف منه. أقول لك، يا سيدي، إن أولئك الناس كانوا جاغونُسو: هل كنت أنتظر منهم طيبة؟ أنفي ذلك. لم أكن طفلًا، ولم أكن مغفلًا قط. فرغم أنني كنت بحارا أخرج في أول رحلة، فهمتُ حالة الجاغونُسو. ذات يوم أوقفوا رجلًا جاء يتجسّس لفائدة رجال زي بيبيلو. قتلوه. مما أصابني بالحزن، حتى نفسِ الهواء. لاحظ جيدًا: إنهم يأكلون الثعابين نيئة تمامًا. هم بحاجة إليها. ولهذا السبب فقط، تفاديًا لتراخيهم أو أن يفقدوا عادة الفعل، كان سو كانديلازيو، الذي يتبجح مع ذلك بأنه طيب، يرسل رجاله، حتى في أوقات السلم، ليقوموا باعتداءات، من أجل ممارسة الحياة لا غير. أن يكون المرء خبيثًا طوال الوقت شيء صعب أحيانًا، لذلك لا بدّ من تجريب بعض التمارين المنحرفة. لكن، مع مرور الوقت، سُممتُ أذهان الجميع. كنت أخشى أن يكتشفوا رقة قلبي المبالغة، وأن ينتبهوا إلى أنني لم أكن مستعدًا لتلك الأجواء، أشعر بالشفقة على أي واحدة من مخلوقات الرّب. - والرّب، يا ذيادوريم؟ - سألتُ ذات يوم. نظر إليّ، لزم صمتًا قصيرا طبيعيا تمامًا، ثم قال جوابًا على سُؤالي: - قدّم جوكا راميرو خمسة آلاف من الريالات إلى كاهن كنيسة إسبينوزا.

لكن هرْموجينيس كان مرارة نائمة، آفة باردة.

كان يجب أن يقتل، من أجل تحقيق متعة خاصة. لم يكن يتحدث عن بطولات وإنجازات، يقضي وقته يقول إنه ليس رجلاً شريفاً. لكن، ذات مرة، حين قبضوا للتو على عدوٍّ، أمر - أتركوه لي. أعرف ما حدث. أخذوا ذلك الرجل وسط أرضٍ من الأشجار المقطوعة والمحروقة، وتركوا البائس هناك، مخاطه يسيل وهو مشدود إلى وتد. لم يكن هِرموجينيس على أي عجلة من أمره، كان جالساً يسند ظهره. يمكن أن نستشف من عينيه أكثر أنواع الفرح سواداً. بعد قليل من الوقت، ذهب ليري الآخر وحيداً، بكل هدوء. قضى ساعات طوال يشحد سكينه. نظرتُ ملياً إلى هِرموجينيس: كان راضياً على نفسه، يفيض صحّةً وعافية. كان يمزح. حتى عندما يأكل أو حين يتكلم أو يضحك، يبقى فمه مشرعا على مصراعيه، دون إرادته، فمٌ مؤلم. لم أكن أرغب في النظر إليه، لم أكن أريد أن أتفحص وجه ذلك العقرب؛ كان ذلك يجعلني أضطرب. لذا نظرتُ إلى قدمه، قدمٌ ضخمة، حافية، تعج بالتورّمات والندوب الخبيثة، كتلك التي تغطي أقدام قُواد مراكب العبور في الأنهار، قدمٌ متعفّنة. نظرتُ إلى يديه. في النهاية، قلت مع نفسي إن كل هذا الخبث لا يمكن أن يكون إلّا في تلك اليدين، فكنت أنظر إليهما، مرات ومرات، بقرٍ. هذه اليد، إنه يأكل بها، يمدّها للناس. من حين لآخر، كنتُ أقارن ذلك الرجل بزي بييلو. وفي تلك اللحظات، كنتُ أشعر نحو زي بييلو بحبٍّ أشبه بما قد يشعر به ابنٌ مُجاه والده. كانت أشياء كثيرة تدوخي: قضيتُ ليالياً بيضاً. فجأة، أدركتُ أنني أريد انتصار زي بييلو، لأنه هو من كان على حق. كان لا بد أن يأتي زي بييلو، وأن يدخل بقوة: ويقضي حقاً على جحيم عصابات الجاغونسو. كنتُ هناك، أحترم ظاهرياً ما التزمتُ به، لكنني، في أعماق قلبي، كنتُ أخون، لم أكن سوى خائن. غريباً، كما كنتُ، أسندتُ ظهري إلى شجرة. لم أكن أرغب في أن أصبح مجنوناً، بكل تأكيد. تحدثتُ في الأمر مع

ذيادوريمُ. لماذا كان جوكا راميرو، وهو قائد كبير، بعاداته النبيلة، يقبل أن يتخذ له ملازمًا، شخصًا مثل هرْموجينيسْ هذا، الموشوم بالخبث؟ استمع لي ذيادوريمُ بسرعة، كأنه يشك في رجاحة رأيي: - زيوبالدو، أين عقلك؟ هرْموجينيسْ رجل قاس، لكنه وفيٌّ وجدير بالثقة. هل تظن أننا نقطع اللحم بسكين قديم أو بملعقة من خشب؟ هل تريد رجالاً لطفاء طيبين كي يذهبوا لمحاربة زي بيبيلو وكلاب الحكومة؟ - بعد تلك الضربة، لزمْتُ الصمت طوال ذلك اليوم. هكذا، حتى عن ذيادوريمُ، كنتُ أخفي ذلك الأمر: أنني كنتُ غارقًا في الكذب حتى الأذنين وأنام مع الخيانة. سحابة سوداء. فقدت النجم الذي أهتدي به. ودخلتُ في متاهةٍ من الحزن.

إذن، هل كنتُ مختلفًا عن كل أولئك الناس؟ كنتُ كذلك. وكان ذلك في صالحي. هؤلاء القوم من البلطجية، الذي يقضون ليلهم ونهارهم في الراحة، يتشاجرون، يشربون ويأكلون بلا توقف. - هل أكلتُ، أيها الذئب؟ - يقولون هراء، بل ويشوشون كلامًا حولنا، أنا وذيادوريمُ. ذات يوم، قال أحدهم: - إيه، إنَّ ريينالدو هذا يعجبه كثيرًا أن يكون صديقًا مقربًا... عندما توفي ليوبولدو كاد أن يموت من الأسى الذي لا ينتهي... - تظاهرت بأنني لا أفهم، بإرادة مني. لكن ذلك لم يجد شيئًا. ومنذ ذلك اليوم، بشكل ملح، بقيت أفكر في تلك الحكاية وفي اسم ذلك المدعو ليوبولدو. كنتُ أعتبر إهانة في حقي أن يكون لذيادوريمُ صديق سابق قبل وقت طويل. إلى أن نضجت في ذهني هذه الفكرة: إنَّ ما ينقصني هو امرأة.

إذن، هل كنتُ مثل كل هؤلاء الرجال؟ كنتُ كذلك. بما أنهم كانوا من دون أي امرأة هناك، فقد كانوا يتحدثون عن أمور بهيمية. كان أحدهم يقول: - أول امرأة أصادفها بعد الخروج من هنا، لن تفلت مني! - وكانوا يحكون قصص شابات صغيرات جرَّأوهنَّ من أجل الاستمتاع بهنَّ في

ساعات الفحش. - المرأة شخص تعيش للغاية... - قال لي ذيادوريم ذات يوم، بعد أن استمع إلى حكاياتهم. هؤلاء الرجال، حين يفتقدون المرأة، يفوحون برائحة كريهة. فيتدبرون أمرهم، يستمنون. لقد نجاني الرب من الإدمان على تلك العادات المستمرة. كانت أول فتاة ذهبتُ معها جميلة جدًا، وكنت معها لوحدي. كانت تصيح كثيرًا وتصفني بكل النعوت، تعضني بوقاحة ولها أظافر. في النهاية، عندما تمكنتُ منها، أغلقت الفتاة عينيها وما عادت تتحرك، سوى قلبها الذي كان يخفق على صدري، فشعرت بالخوف. لكنني ما كنتُ أستطيع أن أتوقف. وكذلك كنا إلى أن جاء ذلك فجأة، فاعترتها رعشة خفيفة. ثم فتحت عينيها وتقبلت فعلي، لاهثة من اللذة؛ معجزة حقيقية. بالنسبة إليّ، كان ذلك مثل الحصول على أكبر أنواع الحب! كان بوسعي أن آخذ تلك الفتاة معي. لكن، في فازيندا قرب سيرّا نوبا، كانت هناك شابة أخرى، فتاة قصيرة سمراء، أسلمتني نفسها باردة مثل قطعة ثلج، وظلت من ترابٍ وحجر معي. آه، جعلتني أشعر كأنني وحش مخيف - هل تصدق ذلك، يا سيدي؟ - بل إن الفتاة، كي تتقبلني راحت ترتل صلواتها طوال الوقت. هربتُ من هناك دون المطالبة بما تبقى، وتركتُ لها ما كان معي من مال، أما أنا فرحت ألعن نفسي. بعد هذا، لم أعتد على أي امرأة أخرى. بالنظر إلى ما أُتيح لي من فرص، تركتها جانبًا، أرجو من الرب ألا ينسى أن يجازيني. ما كنتُ أرغب فيه هو أن أرى الإشباع على وجوههنّ وهنّ ينعمن بالشهوة، بفضلني أنا. كما حدث مع رُوزُورْدة، الجميلة على الدوام، بنتُ أسيس وابابا، فتاة أحلامي، على الطريقة التركية؛ وعن هذه، لم أقل لك ذلك: كان والدها تاجرًا كبيرًا، لم يشك في أي شيء، في أي شيء إطلاقًا. أو مثل نيورينيا، بنتُ آنا دوزوزا. حدثتُكَ عن ذلك. لكن اسمح لي، يا سيدي، أن أعلق بكل برودة عن تلك

الأشياء التي تلزمنا القواعد بأن نسكّت عنها. الآن: كل ما أحكيه، فلأنني أعتقد أنه جدّي، وضروري.

وسط كل هؤلاء الرجال، صادقتُ بعضهم وجعلت من بعض الجاغونسو ملائكة يجرسونني. كلهم من الطيبين تقريبًا. وخاصة منهم كايكسون، فلاح هادئ جال في الأراضي العليا لساو فيليبي؛ فونفريدو، الذي كان يتلو كل صلوات القس، لا ينقصه أي نوع من اللحم، ولا يتحدث أبدًا عن موطنه الأصلي، وذلك الذي كان اسمه على وزن اسمه: سيسفريدو، الذي سبق لي أن حدّثتك عنه: تيسّتا إين بي، محتال من باهيّا، يكثر من شرب الخمر؛ باشبي، راعي بقر من جاييبا، أمهر الرجال وأكثرهم خدمة للآخرين صادفته في حياتي؛ دادا سانتا كروز، الملقب باسم «العطوف»، كان دائمًا يريد أن نعطي ما تبقى من طعام إلى الفقراء الذي يستحيون من المجيء في طلبه؛ كاتوشو، خلاسي ذو بشرة صافية، الذي تقيه تعويذة خاصة من الرصاص؛ ليندوريفيكو، من الأراضي العليا في ميناس نوفاس، الذي كان مهووسًا بتكديس الأموال. ذبولو، زنجيٌّ بشفتين غليظتين؛ جوفيناتو، أداالجيزو، سانغي دي أوثرو. إيه، كثيرون، لماذا بدأت أصفهم؟ داغوبي، إليوتيزيو، بيسكوزو بريتو، جوزيه أميغو...

صديق؟ مثل هؤلاء الرجال، لو تجرأ أحدهم ونعت واحدًا منهم بالشیطان الخبيث، لن يقبل ذلك وربما يتملّكه غضب قد يدفعه إلى قتل الآخر. أوكد لك، يا سيدي، ما عاينتُ ورأيتُ: إنّ أصعب شيء ليس أن يكون المرء طيبًا ويتصرف بنزاهة؛ أصعب شيء، حقًا، هو أن يعرف بالتحديد ما يريد، ويملك الشجاعة ليترجم أقواله إلى أفعال. قتل إزيرينو رفيقا اسمه باتاتينيا، رجل مسكين هزيل الجسم كان عيبه اللعين أنه يعاكس أي شيء يقوله أيّ كان. اختفى إزيرينو عن الأنظار. وبدأ يروج كلام عن فراره

ليلتحق بعصابات زي بييلو، من أجل المال، وأنَّ باتاتينيا مات فقط لأنه كان يعلم بذلك. كان الجميع على أحرَّ من الجمر، يتحدثون عن مكائد ودسائس. انتقلنا إلى أماكن أخرى، أكثر انعزالًا وبعْدًا، بما يناهز سبعة فراسخ، باتجاه الغرب. أدركتُ جيدًا أنَّ ذلك لم يكن من أجل الانسحاب؛ بل لأنَّ تيتاو باسوس، هَرْمُوجِينِسْ وجَواوْ غَوانيا اتفقوا فيما بينهم، أثناء أحاديثهم الخاصة، على خطة لمحاربة زي بييلو في أحسن الظروف. آه، وهنا، بما يرضي الجميع، وصل عشرة من رجال سو كَانْدِيلَا زِيو. جاؤوا يقودون قافلة محملة بكثير من الملح، البنّ الجيد وبرميل من سمك القد. كان دِلْفِيمْ واحدًا منهم، وكان يقود الدواب. رفقة لوزي، من ولاية ألاغو واس. يومها، خرجتُ، رفقة فرقة، في رحلة استكشاف عبر الطرق التي يمكن أن يسلكها رجال زي بييلو، فقطعنا ما يناهز ثلاثة فراسخ، وعدنا وسط الليل.

وفي الصباح الباكر، علمتُ: أنهم رقصوا أيضًا يوم البارحة مساء. - هل ترقص، يا ذِيادورِيمْ؟ - سرعان ما سألتُه - يرقص؟ قد يكون مثل قدم في صالة... - وكان غارانسو هو من أجابني، ذلك الرجل بعيني خنزير. وأنا أسمعُه، شعرت بالغثيان. كان غارانسو خلاسيا أسود نحيف الجسم، بملامح غريبة، وهو لطيف بطبعه. كانت له أفكار يبدو معها أحيانًا كأنه طفل صغير. كان يطلق أسماء على أسلحته، فيدعو خنجره «جَلَاد»، مسدسه «عندليب»، وبندقيته «ثور يخور». كنا نضحك معه على الدوام. لكن غارانسو كان يحاول أن يبحث عن رفقتنا أنا وذِيادورِيمْ؛ فكان دائمًا بالقرب منا. أحيانًا، كما في ذلك اليوم، كان ذلك يثير حفيظتي حقًا. لم يكن ذِيادورِيمْ يقول شيئًا، كان مستلقيًا على ظهره، فوق جلد خروف، يسند رأسه إلى كومة قش. عمومًا، كان ينام هناك، في ذلك المكان - يفضل هذا على السرير المعلق. كان غارانسو من منطقة ساو فرانسيسكو، من مكان يدعى موزبارا. المزعجُ في الأمر أنه كان يريد أن

نستمع إليه وهو يحكي مقاطع طويلة من حياته. كان مملاً. وكنتُ أريد متابعة الأشعار: أن أستمع إلى عازفي القيثارة الذي يُعبّرون عن الإحساس العام. بعد فترة، نهض دِيادوريمُ ليذهب لست أدري إلى أين. تابعته بعيني لحظة، جميلاً كما كان، أنيقاً ومتناسقاً - مرتدياً دائماً سترته التي لا يخلعها أبداً وسرواله الرعوي من جلد الظبي المدبوغ بقشرة شجر البلاذر البرية. فجأة، شعرتُ بالحاجة إلى فعل شيء ما. وفعلتُ: ذهبتُ واستلقيتُ على جلد الخروف ذاك، في ذلك السرير الذي طبعه دِيادوريمُ في العشب، ووضعت وجهي في نفس المكان الذي وضع فيه وجهه. لم أعر أي اهتمام لغارانسو، وركزت كلَّ اهتمامي على عازف القيثارة. على الصوت اللاذع المنبعث من تلك القيثارة. كابدتُ حتى لا أفكر فقط في دِيادوريمُ. أولاً، لم أعد هناك، لم أعد أسمع شيئاً - تملكني النغم فرحت أحلم بأماكني البعيدة. هل فكرت في ساو غريغوريو؟ في الحقيقة، لم أفكر في ساو غريغوريو، كلاً؛ لكن حيناً أغرقني في طيورٍ من ذلك المكان، وفكرت في سدّ الجدول، في حركة الطاحونة المائية ليل نهار، في المطبخ الواسع بموقده المشتعل، في الغرف الغارقة في العتمة، في الحظائر قبالة البيت، في الشرفة التي نتأمل منها الغيوم. أتعرف ما أقصد، يا سيدي؟ لا أفصح في أن أحكي لك لأنني أحرك أشياء عشتها بعيداً جداً، أشياء لا تتمتع بتماسك كبير، وأنا أريد أن أدفع هذه الذكريات وأفتح صدري. أو أريد أن أجد خيطاً رابطاً لأفكاري، وذلك الاتجاه العنيد للأشياء، طريق ما حدث وطريق ما لم يحدث. أحياناً، لا يكون الأمر سهلاً. والحقيقة أنه ليس كذلك، ثِقْ بي.

حسنًا، انظر واسمّع الآن: لا بدَّ أنه قد وقعت بالمناسبة، خلال تلك الأيام، أشياء مهمة نوعاً ما، لم ألاحظها، لم أفاжئها في نفسي. وحتى يومنا هذا، لا أفصح في معرفة ما كانت. لكنني تذكرتُ في اللحظة المناسبة الصباح الذي ظل مرتبطاً بهذا الاسم: سيرويز. أقصد أنني سألتُ غارانسو بخصوص سيرويز، الذي

كان يغني أشياء كان ظلُّها يقبع في قلبي بكل تأكيد. ما كنتُ أريد أن أعرف لا يتعلق بسيرويز في حدِّ ذاته، بل بالفتاة العذراء، الفتاة البيضاء، تلك التي كانوا قلقين بشأنها، وتلك الأشعار التي لم أفلح قطُّ في نظم شيء مثلها. لكن غارانسو كان قد أجابني: - إيه، إيه... إنَّ سيرويز قد مات. لقي حتفه في تبادل للنار، بين نهريِّ مورسيغو وشواسوابارا، في هذه الضفة من نهر باكوي... - إنَّ الصدمة التي تسبَّب لي فيها تأكيدُ هذا الخبر قد أغرقتني في الإحباط. كأنه قال لي: - سيرويز؟ أَلستم أنتم من قتلتموه؟... - أنا، كلاً. يومئذ، بقيتُ خارج الأحداث، بعيداً، في بيدرا برانكا، ولم أعاين القتال. كيف كان بوسعي أن أقوم بذلك؟ كان غارانسو ينشُق. كان شخصاً باهتمامات محدودة جداً. سألني إنَّ كان سيرويز هذا صديقي، أو قريباً من أقربائي. - ربما كان كذلك - أجبته بطريقة بلهاء. رأيتُ أن ذلك لم يرق لغارانسو. إن العيش قريباً من الناس، تحت عيونهم، شيء صعب على الدوام. ولم أعد أرغب في معرفة المزيد، كنتُ على يقين بأنَّ غارانسو الواصل جدًّا من نفسه، لا يعرف شيئاً ذا أهمية. لكنني، بحزن كبير، كنتُ أحفظ عن ظهر قلب تلك الأغنية التي طالما كانوا يردِّدونها. وكان سيرويز قد مات. لذلك علِّموني أغنية أخرى، وكانت لحناً يتغنون به في السفر، وكانت جماعتنا تغنيه عند خروجها إلى القتال:

أولي، أولي، يا امرأة باهياً

كنتُ ذاهباً،

لكنني لا أذهب مرة أخرى،

أُتظاهر، يا امرأة باهياً

بأنني كنتُ ذاهباً إلى هناك،

ثم عدتُ أدراجي...

هل تحفظها، يا سيدي؟ إنني أغني بشكل سيء. ليس لأنني أملك فما خبيثا، كما يقال. لستُ سيئا، أنا رجل مستعد لأحب الآخرين، حين لا يُضايقونني: أنا رجل متسامح. علبةٌ غضبي ليست مفتوحة على الدوام. لم أكن أتشاجر مع أحد في ذلك المخيم، كنتُ أتقبل النظام والقوانين في أدق تفاصيلها. لكنهم ارتكبوا خطأ في حقي. أخطأ واحدٌ منهم. جاغونسو مخضرم يُدعى أتينور، أظن أنه كان من أعضاء «كوراساو دو جيزوس»، بدأ يتكلم وكان يحسن الكلام، كما لاحظتُ. كان رجلاً مقرباً من هرْموجينيس - وكان هذا الأمر شيئاً معروفاً. كلمة هنا، كلمة هناك، كان يدور ويلف حول الموضوع. يريد أن يعرف كم كنتُ أقدر جوكا راميرو، تيتاو باسوس، وكل الآخرين. إن كنتُ أعرف سو كانديلازيو، الذي كان على وشك أن يصل. سئل من المواضيع - كان يستدرجني لأتكلم. لاحظتُ. وشيئاً فشيئاً، كان يحاول أن يورطني؛ أن يلقي بي في شرك الشك. هل كنتُ مخطئاً؟ كلا، فهمتُ كل شيء. أتينور هذا، الذي لم يكن يتوقف عن مدح جوكا راميرو والثناء عليه، جعلني أفهم في النهاية، وبسرعة، ما يلي: إنَّ جوكا راميرو ربما لا يتصرف جيداً وهو يقضي الوقت بكامله بعيداً جداً؛ بل إن البعض، من ذوي النفوس الدنيئة، كانوا يتصورون أنه تخلى عن رجاله في عز الحرب؛ وإنَّ جوكا راميرو كان رجلاً غنياً يملك أراضي شاسعة، ويعيش حياة الرفاهية في بيوت كبار الملاك ورجال السياسة الذين يتلقى منهم الأموال لشراء الذخيرة: السيد سول دي أوليفيرا، والمزارعين العقيد كاييتانو كورديرو والسيد ميرابو دي ميلو. ما ذا كان رأيي في ذلك؟

استمعتُ. هل أجبتُ؟ ليس لي أي رأي في الموضوع. أنا لم أولد بالأمس، لأنني خبرت تجربة الرجال مع الرجال. اكتفيتُ بالقول إنَّ جوكا راميرو كان بالتأكيد يوفر الرجال والعتاد لِيُساعد الجاغونسو النظاميين الذين كُنّا

نحن، ويضع ثقته في هِرْمُوجِينِيسْ، كما يضعها في تيتاؤْ باسوس وجَواوْ غَوانِيا، الذين أبانوا عن شجاعتهم وإخلاصهم. وكنتُ أفرطُ في الشناء على هِرْمُوجِينِيسْ على وجه الخصوص؛ فوافقني أتينور الرأي. في الحقيقة، وافق على كل ما قلتُ. لكنه تفاخر خصوصا بسمعة هِرْمُوجِينِيسْ، وكذلك بسمعة ريكازداؤْ - قائدان محنكان في أوقات السِّلْم، كما في ساعة القتال. كان أتينور يعرف كيف يدغدغ عنق الثَّعبان وكيف ينثر الملح في المزارع. شخص خطيرُ الأفعال - فاحتاط منه غارانسو بفضل ما كان يتمتع به من حسِّ سليم نابع من غريزته الطيبة. أية أفعال؟ ما رأيتُ في حياتي هو أن أي فعل يبدأ حقاً بكلام صادر عن تفكير طويل. كلامٌ مُقنَّع، يُعطى أو يُحتفظ به، يشقُّ طريقه. كان أتينور قد أودع في نفسي ظلاً معتماً لفكرة سيئة: فكرة مخادعة، سرعان ما سرت في ضلوعي، خائنة، كما تنزلق قطرةٌ طُلَّ. كيف أشرح لك ذلك، يا سيدي؟ لم أصدق شيئاً مما قلتُ لك أنه قال لي. لكن، في نفسي، بالنسبة إليّ، كان ذلك كله مثل مكان يفوح برائحة كريهة، في الرِّيف، مثل شجرة: مكان تننُّ لجأ إليه ظربانٌ ليدافع عن نفسه من نباح الكلاب. وتلقيت يومئذ تحذيراً كبيراً؛ لكنه أقل خطورة لما سمعتُ منه، وتكهنتُ به في الحقيقة. فيمَ نفعني ذلك؟ تحذير. أظن أنه كلما جاء التحذير فإنَّ ذلك لا يكون من أجل تفادي العقاب، بل فقط للحصول على عزاء، بعد حصول العقاب ونهايته. تحذير؟ ذهبتُ لأبحث عن ذيادوريم. لكنني بدأتُ أشعر بالقلق. رغم ذلك، تحدثتُ عن القديم والجديد في ارتباكٍ، في خرقٍ، غاضباً متسرَّعاً. لهذا السبب، أعتقدُ، لم يُعزْ ذيادوريم كلامي ما يليق به من اهتمام. غير مبال، نوعاً ما، إيه! الشيء الوحيد الذي أثاره، في ومضة سريعة، هو حين سمع أنَّ أحداً ما يشكُّ في تحركات جوكا راميرو: كان جوكا راميرو إمبراطوراً، يفوق الآخرين ثلاث مرات. كان جوكا راميرو يحسن التصرّف، كان يحكم: حتى

اسمه، يستحسن ألا يُنطق به كما اتفق. والآخران: هِرْموجينيس وريكارداو؟ هذا، من دون جوكا راميرو، ينهاران ولا يسمع أحد عنهما شيئاً، لا يساويان قفزة برغوث. هِرْموجينيس؟ أكيد، جاغونسو جيد، رئيس عصابة؛ لكنه من دون أي حجم سياسي، من دون أي تمييز ولا تميز. أما ريكارداو، غنيٌ ويملك عدة فازيندات، فلا يفكر سوى في تحقيق الربح وتكديس الأموال. ذيادوريم، كان ريكارداو هو أقل من يحبُّ من الناس - إنه وحش تجاري... قال، ثم زَمَّ شفّتيه بقوة، كأنه يهْمُّ بالبصق.

وعلى إثر ذلك قلتُ: - إنه حقاً ذيادوريم. لكن، سواء كان هو أم لم يكن، لماذا لا نذهب ونحمل هذه المعلومة الدقيقة إلى جوكا راميرو، كي نضعَ حدّاً لهذا الأمر؟ - وهنا قلتُ وأعدتُ الكلام حتى أخفيتُ غضبي. من يدري، جوكا راميرو، الذي جاب الجبال والوديان، ونسي أن يشتَمَّ تغيّرَ الأزمنة، ربما يكون قد نسي أن يعرف رجاله؟ لو جاء جوكا راميرو لكان بوسعه أن يميز المتعفن من الطاهر، ولنجح في أن يفرز الشجعان ويعدّهم على رؤوس أصابع يديه. بوسعه، بإمكانه أن يسرِّح هذا الوحش هِرْموجينيس. وهكذا وكذا وما إلى ذلك، لو كان ضرورياً، إيه! يمكن أن نقتله!... نظر إليّ ذيادوريم مليّاً، فرأيتُ حجم دهشة العتاب في عينيه، كأنه لم يكن يصدق أنني قادر على تصوّر كل ذلك الخبث بكلّ وقاحة. لست خبيثاً. أفعى؟ - هل قال هذا؟ حتى الأفعى ليست حيّة شريرة. ولدتُ على مهل. أنا فعلاً شديد الحذر.

ثم هدّأنا، اقتربَ مني ذيادوريم أكثر فأكثر، وراح يُثني عن بعض الأفكار والقناعات. أكيد أنني لم أحظ بالوقت الكافي لأفهم العادات، أنني كنت أتوجّس من الكأس والماء بل ومن فمي أيضاً، ولم أكن أعرف من أي عالم من الأحلام كنتُ أستمُدُّ أفكارِي. كان هِرْموجينيس عيوبه، لكنه كان

مخلصًا لجوكا راميرو - يحارب ويناضل من أجله. وجب عليّ أن أنتظر أيامًا فقط لأرى شمس مجدي تشرق. لم أكن أفقه شيئًا في الصداقات وفق معايير الجاغونسو ونظامهم. الصديق هو الساعد، وهو الحديد!

صديق؟ هل سمعتُ جيدًا؟ آه، كلاً، الصداقة، في نظري، شيء مختلف. إنها ليست اتفاقاً يُسدي المرء بموجبه خدمةً إلى الآخر، ثم يتلقاها منه، طريقة للسير في العالم من خلال تبادل المساعدة، حتى لو كان ذلك على حساب الإساءة إلى الآخرين. إن الصديق، في نظري، هو هذا الأمر لا غير: إنه الشخص الذي نشعر بالمتعة في الحديث معه، ندًا لندّ، من دون سلاح. هو ذلك الشخص الذي نشعر بمتعة لقائه. هذا فقط، تقريبًا؛ وكل التضحيات. أو - صديق - هو ما يمكن أن نكون، دون الحاجة لنعرف ذلك وطريقته. صديقي أنا، كان هو ذِيادوريم؛ كان هو فافافا، الأريبي، سيفريدو. رفض أن يستمع إليّ. أدركتُ له ظهري، غاضبًا.

أقول لك، يا سيدي: لم أكن أفكر حتى بشكل دقيق في ذِيادوريم. إذن، ألم أكن أحبه في تلك الأيام؟ بشكل غير واضح. كنتُ أحبه ولم أكن أحبه. أعرفُ، أعرفُ أنني في أعماق ذاتي كنتُ أحبه على الدوام. لكن طبيعة المرء تعجُّ بالتناقضات. هناك الليل وهناك النهار، يتناوبان على الصداقة العاشقة. أولاً، ما كان يزعجني أكثر من أي شيء آخر - أتذكّرُ هذا جيدًا - هو أنني لم أكن أرى أي معنى لوجودي هناك، في تلك الأجواء حيث كنتُ مضطراً لأعيش وسط أشخاصٍ من تلك الطينة. وأنا أفكر مرة أخرى فيما قاله ذِيادوريم، استتجتُ ما يلي: هل كان كل ذلك فقط حياة من الزيف، والغدر، والخيانة؟ خيانتني، مهما يكن. أليس كل ما كنا نقوم به أو نتركه خيانة في نهاية المطاف؟ يجب أن تكون خيانة شيء أو شخص. لم أتأخر كثيرًا لأعرف ما أريد: لا يمكن أن أبقى هناك لمزيد من الوقت. كيف أتيتُ إلى هذا

المكان ولأَيِّ سبب، من دون أي مقابل، كنتُ ملزماً بالخضوع لذلك؟ كان عليّ أن أذهب إلى حال سبيلي. كنتُ أخطر بحياتي، أدمر شبابي. من دون هدف. باستثناء ذيادوريم. فماذا كان يمثل ذيادوريم بالنسبة إليّ؟ لم يكن، بدقيق العبارة، من الضروري أن أكون بالقرب منه، وأتحدث إليه، وأراه أكثر. لكن ذلك كان لأنني لا أتحمل الحياة: لو اضطررتُ، فجأة، أن أفترق عنه، إلى الأبد. وكان نفوري من هُرموجينيس لا يقل قوة من هذا الأمر. كان حقداً مشؤوماً: ينطلق دائماً حين لا نتظره، وأحياناً يكون صائباً، مثل الحبّ من أول نظرة. هُرموجينيس هذا - بعل زبوب^(١). كان يقبع هناك في العتمة. كنتُ أعرف ذلك. أبداً، حتى بعد ذلك، لم أعرف الأمر كما عرفته في تلك الأيام. هُرموجينيس، رجل كان يستمدُّ متعته من خوف الآخرين، من معاناة الآخرين. وهنا، حذارٍ، اعتقدتُ فعلاً أن الجحيم ممكن حقاً. لا شيء ممكن غير ما يُرى في الإنسان، ويمرُّ عبر الإنسان. بعيدٌ من - لا - عين - له! وذلك الجحيم كان قريباً جداً، فوق رأسي. في الظلام، رأيتُ، حلمتُ أشياء قاسية. في اتّساع أحلامنا.

وهناك، كنتُ أذهب لحال سبيلي، أهربُ. أين كان ذيادوريم؟ لم أتصوّر لحظة أن أفر وأترك ذيادوريم خلفي. كان هو رفيقي، ويجب أن يأتي معي. آه، وقتئذ كنتُ أعشق روح عينيه، كنتُ أحبه بالطرف البرّاني من ذاتي. لم يفهمني ذيادوريم. تقوقع على نفسه.

وإلى حدّ كبير، كان الذنب ذنبي أنا أيضاً، يمكن أن أقول: لأنني لم أملك الجرأة لأتكلم بكل صراحة. لو تحدثتُ بقلب مفتوح، لأوقفني ذيادوريم في الحال، لمنعني، لكنه لم يسمعني. بشكل حيّ، كان مثل طائر متسلّل في

(١) بعل زبوب: اسمٌ من أسماء الشيطان كما وردَ في الكتاب المقدس. (المترجم)

الهواء. تلك كانت قدرته. وأكد أنه كان سيقول لي اسم جوكا راميرو! جوكا راميرو... هذا الأخير لم نكن حتى نتصوره كما هو حقيقياً في الواقع، كان اسماً فقط، اسماً من دون أي سلطة ملموسة، يمشي بعيداً، إن كان يمشي فعلاً. لمدة لحظة واحدة، ترددتُ بشكل قوي. هل حدث ذلك تلك المرة؟ أم حدث في مناسبة أخرى؟ حدث ذلك مرةً، على أي حال: أذكر ذلك جيداً. كان جسدي يعشق ذيادوريم. مددتُ يدي، كي ألمسه؛ لكن، بما أنني كنتُ أقوم بذلك بشكل أخرق، فقد نظر إليّ - منعني عيناه من ذلك. ذيادوريم متجهّم، مرفوع الجبين. تجمّدتُ. عيناه وحدهما كانتا تقولان لا. رأيتُ - هو نفسه لم يدرك شيئاً. لكن، أنا بدوري لم أدرك شيئاً؛ أو ربما أدركتُ؟ هل كنتُ واعياً بذاتي؟ كان جسدي يعشق جسده فوق ركح مسرح. بإفراط. كل الحزن من حولنا، تماماً كما يحدث حين تتحمّل السماء بكلّ المطر. كان بوسعي أن أضع ذراعي على جيني، وأظل كذلك، أبله، من دون اتخاذ أي مبادرة. ماذا كنتُ أريد؟ لم أكن أرغب بما كان في الهواء؛ لذلك ناديتُ على فكرة لتأتي من بعيد جداً. قلتُ كما في حلم: - ذيادوريم، أليس لديك، ألا يمكن أن تكون لك أخت، يا ذيادوريم؟ - سألتُه، بصوتي.

هل أعرف إن كان قد ضحك؟ ما قاله، وما ذا كان جوابه؟ أعرف متى تستقر المرارة، أعرف ما الكلب وما المخلوق. أعرف الحزن، المياه الحزينة والقلب على الحافة. لم يكن له أخت ولا أخ: - لدي فقط الرّب، جوكا راميرو... وأنت، يا زيوبالدو... قال. إيه، القلب، من الخوف، يخفق بشدة في الصدر؛ لكنه، من الفرح، يصطدم بقوة بالصلوع. - إذن، ذيادوريم، من كان هذا الشاب ليوبولدو، صديقك الذي مات؟ - سألتُه، دون أن آخذ وقتاً، دون أن أعرف لماذا: لم أفكر في ذلك من قبل. كنتُ أظنّ أنني لم أسأل عن أي شيء عندما كانت الكلمات قد خرجت من فمي: - ليوبولدو؟ إنه

صديق، يا زيوبالدو، صداقة شريفة محترمة... - ثم أطلق ذيادوريم تنهيدة، كأنه قد شعر بالراحة. - هل حدثوك أيضًا عنه، يا زيوبالدو؟ كان ليوبولدو هو الأخ الأصغر لجوكا راميرو... - هذا كنتُ أعرفه - لأن جوكا راميرو كان يبرز عاليًا، مهيمنا على كل شيء. لكنني نجحتُ في ضبط لساني. - هل نذهب معًا، يا ذيادوريم؟ هيا بنا بعيدًا نحو مرفأ جانيرو، في السَّرتاؤ السفلي، إلى كوراليم، ساو غريغوريو، أو إلى ذلك المكان في الأراضي العليا، المسمى أوس بوركوس، حيث كان يعيش عمي... - أخرجتُ هذه الجملة وسط فواقٍ من العطش. بعد ذلك، خفضتُ عينيَّ تدريجيًا - وأنا أدرك أن ذيادوريم كان يمسكني بنظراته، ثم ران صمتٌ من حديد. اندهشتُ من نفسي، من الاحتقار حدَّ الشك في صواب عقلي. ما قلته كان حماقة. ظلَّ ذيادوريم ينتظر. كان ثابتًا لا يلين. حينئذ خرجتُ من هناك، راغبًا في نسيان ما حدث بسرعة. كان وجهي يشتعلُ نارًا.

همتُ على وجهي، تسكَّعتُ، ثم تذكَّرت في الأخير: غارانسو. غارانسو هذا سوف يأتي معي، سيتبعني في أي شيء، كان رجلًا مسكينًا ينتظر أي أمر ودِّي. هو نفسه لم يكن يعلم شيئًا، لكن ذلك كان هو الحقيقة: ما كان يحتاجه هو الصداقة. كان هناك، مقوَّس الظهر برأسٍ كرأس الزيز. كان يطهو فواكه البيكي في وعاء. - إيه، إيه، نحن... - هكذا كان يتلكم. دخلتُ في حديث معه. كان يستمع لي، موافقًا، يعطي الانطباع بأنه يفهم. لم يكن قادرًا على ذلك. كان يستطيع فقط أن يُظهر حجم رأسه. يكفي أن أدس كلمة أخرى ويتبعني غارانسو ليكون رفيقي في هروبي. الشيء الوحيد الذي كان من الممكن أن يقع هو أن يبدأ بسؤالي: - وريينالدو؟ - لأنه تعود كثيرًا على رؤيتنا معًا، أنا وذيادوريم، وهو يريد أن يكون ثالثنا. إذن، ربما كنتُ سأجيبه: - إنه سرّ، إيه، غارانسو، إنه سرّ، هيا بنا! - ثم أضيف أن ذيادوريم

سيأتي لاحقًا. كان غارانسو يملك شيئًا مختلفًا، شيئًا طبيعي في ذاته، فكان مختلفًا عن الجاغونسو.

لكني لم أتمكن من الكلام، لم أقل شيئًا، لم أشرح شيئًا، لم أرغب في ذلك. ما الذي سأفعله وأنا هارب رفقة ذلك الأبله عبر الشمال وعبر الجنوب في سِرْتَاو جاييبا؟ لا يمكن أن يكون، مهما ابتكرتُ، غير خضوع، تحكمه أفكار، إرادتي؛ ورفيق كهذا لن يمدني بأي أمان. هل أريد ظلًا؟ هر أريد صدى؟ هل أريد كلبًا؟ كلاً، معه لا جدوى للتفكير في المحاولة معه، من الأفضل أن أنتظر؛ سوف أبقى - وليكن ما يكن - لبعض الوقت. يوما ما، ربما سيغيرُ ذيادوريمُ رأيه. ذيادوريمُ هو من كنتُ أفكر فيه، وذيادوريمُ هو من كنتُ أريد أن أهرب معه، مثر نهرٍ يضاعفُ مياهه. كان غارانسو يتلذذ بفواكه البيكي، يضغط على مهل لبّها الأصفر المقرف بأسنانه. لم أكن أطيعه، لم أذوق من تلك الفاكهة؛ فأنا شارد الذهن ودائمًا ما كنتُ أتوجّس من الأشواك التي يمكن أن تنغرس في لساني. - إيه، إيه، نحن - كان غارانسو يردد، فرحا جدًا. كانت صداقتي تغمره شيئًا ما، لأنه كائن بقلب بسيط. أقول لك، يا سيدي، في ذلك اليوم، كنتُ أتلكأ في رحلة من الوحدة.

آه، لكني لا أقول الحقيقة. هل تشعر بذلك؟ هل تنفيه؟ أنا أنفيه. إنَّ الحكي شيء صعب، صعب جدًا. ليس بسبب السنوات، التي مرت منذ وقت طويل. بل بسبب المكر الذي يميّز بعض أمور الماضي - التي تتأرجح، ولا تستقر في مكان واحد. هل كان صحيحًا ما قلتُ؟ كان صحيحًا. ولكن، هل قيلَ ما كان صحيحًا؟ اليوم، أظن أن ذلك لم يحدث. إنها ساعات كثيرة انقضت مع الناس، كثير من الأمور التي حدثت في وقت طويل جدًا، دقيق ومتشابك. لو كنتُ ابنا لمزيد من الأفعال، وقليل من الأفكار، نعم، لكنك هربتُ دون أن أقول شيئًا، مع حلول الليل. كنتُ سأقطع عشرة فراسخ،

يطلع النهار، ثم أختبئ عند اشتداد ساعات الحر، أقطع عشرة فراسخ أخرى، أعبّر ساو فيليبي، الجبال، فيتتي أوما لاغو واس، أصل إلى ساو فرانسيסקو، قبالة جانوازيّا، أعبّر، فأجدني مرة أخرى في الأرض المتحضرة، خارج منطقة الخطر. أو لو أوقفني في الطريق رجال بييلو أو رجال هرّموجينيس، هل سيقتلوني؟ ربما كنتُ سأموت وأنا أطلق غثاء خروف أو نباح كلب؛ لكن ربما كان ذلك مصيرا آخر وشجاعة أكبر. هل كان ذلك يستحق العناء؟ لم أفعله. مند يدري حتى إن كنتُ أفكر بجدّ في ذيادوريم، أو، أفكر فيه قليلاً أو كثيراً، على سبيل الاعتذار. اعتذارٌ عن طريقة تصرُّفي. فكلما سقط المرء عميقاً بشكل أفظع، كلما ازدادت حاجته لاحترام نفسه. من جهتي، أتعلم أي كذبة. ألسنَ كذلك؟ كذلك نحن جميعاً. لكنني كنتُ دائماً إنساناً هارباً. حتى أنني هربتُ من الحاجة إلى الهروب.

لماذا لم أرحل؟ فيما فكّرتُ؟ في الصعوبات الفظيعة؛ بكل تأكيد، إلى حدّ ما. كيف سأبتعد عن ذلك المكان، عن أراضي جايباؤ المقفرة، في رحلات مشي طويلة وملتوية، مغامراً، مغامراً؟ أظنُّ أنني لم أكن أخشى أخطار معينة: ما كان يردّ عني هو الخوف من الخطأ - أن أسقط في فوهة الأخطار بسبب أخطائي. اليوم، أنا أعرف: كان ذلك خوفاً أطلتُ التفكير فيه، هذا ما كان. الخوف من الخطأ. كنتُ دائماً أشعر بهذا الخوف. وهذا الخوف من الخطأ هو ما يشكل صبري. هذا سيء. هل تثق بي، يا سيدي؟ من يستطيع أن ينزع من نفسه الخوف من الخطأ فقد اهتدى إلى الخلاص. هل تتابعني، يا سيدي؟ فكّر في تشبيهي. حسب ما حكيت لك، هل تأثرتُ بعادة الجاغونسو في العيش جماعاتٍ؟ نعم، تأثرتُ، أعرف ذلك. هل يعجبني ذلك أم لا، تلك حكاية أخرى. ليس هذا هو الأهم. الأهم هو أن المرء ليس هو نفسه مادام يشكل جزءاً من الآخرين كلهم. لم أكن أعرف ذلك. هكذا، كان باسبي

يملك إبرًا كبيرة، خيطًا ومخرزًا: أصلح علي. أما ليندوريفيكو، فقد قدم لي، مقابل لا شيء تقريبًا، صورةً مقدسة لها فضائل كبيرة، تدعى جنية الغابات والصليب الدامي. وكان إليزيانو ينكبُّ على قطع وشذب غصن مستقيم من شجرة الجوافة، يحضّر الذّ أنواع اللحم، بأطرافها المقرمشة، ودواخلها التي تهسهس فائضة بالعصير. وفونفريدو الذي ينشد تراتيل لا تُفهم، ودوفينو، الذي يجعل من كل شيء سببًا مضحكًا ومرحًا؛ وما إن يعزف دِلْفِيمَ نغمًا على القيثارة حتى ينبري ليو كاذبو في رقصة فالس رفقة دُيودولفو؛ أما جيرالدو بيدرو وفيتتارول، فكان هُمُهما الوحيد أن يظلّا متمدّدين مستسلمين للنوم طوال اليوم، حتى عندما يشخر فيتتارول - كان يملك سريرًا معلقًا مزدوجًا، من القطن الجديد، تزين حواشيه نقطٌ من التخاريم... نعم، وكان هناك جينوليم وأكريسيو، وجواو فاكيرو، الذين كانوا يكتنون لي تقديرًا مختلفًا، فقط لأننا سافرنا معًا، قادمين من نهر داس فيلياس: - سلام، أيها الرفيق البغال... - كانوا يقولون وهم يحثّونني. ثم نلعب الورق فوق جلود الثيران. هنا، كان الاسترخاء حول موقد النار، صخب الكلام والكلام حين يتجسد الليل. صدّقني، كان هناك فرح. الفرح، هذه هي الكلمة المناسبة. مع كل ما كان يُحكى من تبادل للثيران ومعارك، وأخطار متجاوزة، وعمليات نجاة معجزة، وشجاعة عالية... هؤلاء، كانوا رجالًا. كنتُ وسطهم، وسط كل هذا الأمر. لم أكن بحاجة لأحسب مستقبل حياتي، الذي كان هو تلك الحياة. لو رحلتُ، سيصبح كل شيء منسوجًا، واجبا؛ عن ظهر قلب حتى الموت. هل خُلق الإنسان ليكون وحيدًا؟ نعم. لكنني لم أكن أعرف ذلك. لو رحلتُ، لن يكون لي قدر مختلف. معهم، مع هؤلاء الرّجال الذين يعيشون قدرهم، المتمثل في تنفيذ الخطوط الكبرى لقانون ما، لا بد أن يكون هناك ربح ما في نهاية المطاف؛ هل كان ممكنًا ألا تكون هناك نهاية كبيرة؟ لماذا كانوا جميعًا

ييقون هناك، من أجل السلام كما من أجل الحرب، ولماذا لا يتفرقون، لماذا يرفضون أن يذهبوا إلى حال سبيلهم؟ فكّر، يا سيدي، في هذا الأمر، لأن هذا هو ما فهمتُ بشكل واسع فيما بعدُ.

أتخلّى عن ذيادوريم، هل قلتُ هذا؟ أقول ذلك، أنفيه. بل من الممكن، نظرا لطريقتي غير المتقنة في الحكمي، إنك فكرت أنه، في صخب المعسكر، نادرا ما كنتُ أرى ذيادوريم، وأنّ صداقتنا بدأت تعاني من التضائل والإهمال. خطأ. عكس هذا تماما. كنا أنا وذيادوريم دائما على مرمى البصر، على مرمى السمع، غير بعيد الواحد عن الآخر. من الصباح حتى المساء، كان إحساسنا قطعة واحدة، لونا واحدا. ذيادوريم، دائما منتبه، حذق، يتصرّف بشكل لائق تماما. بثقة في النفس، كان يستبعد أي شكل من أشكال الإحباط. لماذا، إذن، لا أقول أي شيء عن ذلك، وألخص، كما لا ينبغي لي أن أفعل، في هذا الحديث معك. انظر، هناك آلاف الأشياء: إنني أثرثر. لو حكيت لك فقط عن ذيادوريم وما كان يعنيه بالنسبة إليّ وقتئذ، سأدخل في تفاصيل لا تنتهي حتى أوضح لك حقيقة حياتي. إذن، لماذا أتركها جانبا؟ أعتقد أن ذهنتنا حصانٌ يختار طريقه: حين يتجه نحو الحزن، الموت، فإنه يذهب دون أن يعرف ما هو جميل وما هو جيد. هل يكون هذا؟ انظر، غارانسو، مثلاً: ما قلتُ عنه، عن طبيته وصداقته، لم يكن هو الحقيقة الكاملة. أعرف أنني، في تلك المرة، لم أشعر. لم أشعر، ولم أستوعب إلّا وأنا أتذكر، في وقت متأخر جداً، واكتشفتُ ذلك، بعد عدة سنوات. مسكين غارانسو، كان يريد أن يتحدث معي، كان يريد أن يحكي لي: - كنتُ بغالاً في سيريم. كان لي ثلاثة أطفال... - لكن، أي نوع من الجاغونسو كان؟ - طفوليٌّ هكذا، فظٌّ وطيبٌ: - اللعنة، هل قتلتُ كثيراً من الرجال، يا غارانسو؟! - سألتُه. كانت ضحكته تحاول أن تكون أكبر من ذلك: - إيه، إيه، نحن... هل أنا جبانٌ؟ اطلب مني

ما تشاء، يا صديقي، وهذه البندقية في يدي. إيه، لن أخذك، لن أجعلك
تحتل من ذلك... - غارانسو، أستطيع أن أوكد ذلك، أظن أنه لم يشك قط
في أي شيء. ذهنه المتأخر كان يمنعه من ذلك. هذا كل ما في الأمر. مزيج من
الخير والشر.

هل تفهم، يا سيدي؟ أنا لا أفهم. كان هزموجينيس يلاطفني، شيطانًا
يتودد لي. كان يُحسني دائمًا بتقدير كبير، موجهًا لي مزحة ودّية أو كلامًا جميلًا،
ولا يبدو أنه كان هو القائد هناك. من باب الأدب، ونظرًا لوضعنا، كنتُ
مضطّرًا للردّ عليه. لكن على مضض. كنتُ أغضب. كان يثير اشمئزازي،
قلتُ لك ذلك. ذلك النوع من الاشمئزاز الذي يخرج من الأحشاء. لم أنظر
إليه قط في عينيه. نفور، إلى الأبد - سببٌ وجيه للبقاء بعيدًا. هذا الرجل،
في نظري، لم يكن مكتملاً. والأدهى من ذلك، أنه لم يكن يحترز، لا ينتبه
إلى أي شيء. كان يريد الحديث، يناديني، فأضطرُّ لأذهب لأنه كان هو
القائد. أصبحت متجهماً. لاحظَ ديا دوريم ذلك؛ فقدّم لي نصيحة: - عدلْ
مزاجك، يا ريو بالديو. إنّ الناس ليسوا خبيثاء عدائين إلى هذا الحدّ - فأجبت: -
إنني لا أخشى منه أي شيء! - كنتُ أستطيع أن أزجره بنظراتي. وحينئذ،
أهداني هزموجينيس مسدّسًا، وعلبة من الخراطيش. كدتُ أرفضها. كنتُ
أملك مسدّسي الخاص، فما حاجتي بهذا المسدس بفوهة واحدة ضخمة؟
احتفظتُ به، أمام إلحاحه. بصقتُ، بعد ذلك. هديةٌ لن أقدم أي شيء مقابلها
بعد ذلك! هل كنتُ من النوع الذي يرغب في العيش قريبًا من أصحاب
القيادة؟ ما يعوزني هو أن أعيش بعيدًا جدًا عن أصحاب السلطة، بل وبعيدًا
حتى عن الأشخاص الذين أعرفهم. أنا سمكةٌ تعيش في الأغوار العميقة.
حين أحبُّ، فمن دون سبب واضح، وحين أكره، نفس الأمر. لا يمكن أن
يُغيروني بالهدايا والإطراء. كان هزموجينيس قاتلاً - من أولئك الذين يؤذون

بشرهم مخلوقات الرب - خائن مشؤوم. كانت مسامعي تطرد كلامه. يدي لم تُخلق لتلمس يده. آه، هَرَموجينيسُ هذا، كنتُ أعاني لأنه موجود في هذا العالم... حين يدنو ليتحدث معي، كنتُ أذهب حدَّ التوسُّل إلى الشيطان، في صمت غضبي، كي يأتي ويقف بيننا، ليعذني عنه. كنتُ أستطيع أن أشحن مسدسي بالرصاص، وأفرغه بين عينيه. تحمّل كلامي، يا سيدي، وسامحني عما يُمليه عليَّ الغضب؛ لكن، أعرف، كان هذا ما أشعر به، ما كنتُ أعانيه. تلك كانت طبيعتي. لا أدري اليوم إن كنتُ لا أزال كذلك.

عن الحقد أتحدث. أعتقد أن حقدنا لشخص ما، أحيانًا، يساعدنا على أن يصبح حبُّنا نحو شخص آخر أكثر قوة. القلبُ يكبر من كل الجوانب. يحرس القلب كأنه جدول يتعرَّج عبر الجبال والوديان، الغابات والمروج. القلب يمزج أشكال الحب. يتسع لكل شيء. كذلك، حكيثُ لك كيف تعرفت أول مرة على أوتاسيليا في الأراضي العليا، هناك في بوريتيس ألتوس، فازيندا سائنا كاتارينا في عمق أحد الوديان. حين لمحتُ حبا في ذلك الوجه الدقيق، في تلك الابتسامة وذلك الثغر، والشعر الطويل، وسط إطار نافذة، على ضوء شمعة مرتعشة. لكننا سرعان ما ذهبنا لنستقر تحت طاحونة الماء، حيث قضينا الليل. أنا، رفقة ذيادوريم، ألابريي، جواو فاكييرو، جيزو والدو وفافافا. بما أننا وصلنا من تلك الرحلة الشاقة: كل ما يمتُّ إلى الجسد كان تعبًا كبيرًا. لكنني نمْتُ رفقة ملاكين حارسين.

ما أتذكُّر هو ما أملك. بدأتُ أتذكُّر أفراحًا قديمة. كانت فازيندا سائنا كاتارينا قريبة من السماء - سماء بزرقة عميقة، وغيوم لا تتحرَّك. كان شهر أيار. أحبُّ شهر أيار؛ الشمس تجلب البرد الصحي، الأزهار في الحقول، ورياح أيار العذبة. واجهة الفازيندا، المبنية فوق منحدر، كانت موجهة نحو قمم الجبال، نحو السماء. وبين السماء والحظائر، كان هناك فقط مرجُّ

مفتوح وأجمة صغيرة، كانت تنزل منها الفراشات البيضاء، وهي تمرُّ عبر القضبان. هنا، لا نشعرُ بمرور الساعات. وكانت اليمامة تغني دون توقف، دون توقف. بالنسبة إليّ، اليوم، غناء اليمامة له رائحة أوراق الأعشاب. بعد كل تلك السنوات من القتال، كنتُ أرى حياة صالحة لكل ما يناسب الحسَّ السَّليم واليومي، حلَّبُ الأبقار، الشخص الذي يحمل السطل لينظف حظيرة الخنازير، الطيور الغينية التي تخدش بسرعة كبيرة كل نباتات السِّينا البرّية ذات الأزهار الصفراء. أتصوّر أنه، في تلك المناسبة، ربما شدّني الحنين إلى ساو غريغوريو، وشعرت برغبة عقيمة لأكون صاحب أرضٍ تحت قدميّ، أرضٍ أملكها، ربحتها بعملٍ مثابر، عمل يُقوي الروح ويصلّب اليدين. كنتُ أفكر وأعيد التفكير في هذه الأمور. وكنتُ هناك، مرة أخرى، في الأراضي العليا. هواء الأراضي العليا، أنت تعرف... كنا نشرب كثيرًا من الحليب. جاؤوا بالقهوة في فناجين صغيرة. لذلك بقينا هناك، نذهب ونأتي، بعد أن تحدثنا مع الجد العجوز. رأيتُ أوتاسيليا مرة أخرى، وقد تقدم الصباح كثيرًا. ظهرت.

كانت باسمه وجميلة تفوق الوصف؛ لكن، قد تفهم ذلك دون صعوبة، قد لا يكون ذلك شيئًا لائقًا اليوم، قد يجرّني أن أقول المزيد عن ذلك. أوتاسيليا، ذلك الجمال الخاص بي أنا، جمال محروس، في بهاء الشباب، رقيقة مثل إكليل الجبل، بحضورها الثابت. أنا من وضعت عينيّ عليها أولاً. غمستُ يدي في العسل، وقطّرتَه في لساني. ثم تحدثتُ عن الطيور التي تسارع لتطير قبل حلول ضباب الحرّ. منظرُ تلك الطيور، انشغال الآلهة، كان ذيادوريم هو من علّمني ذلك. لكن ذيادوريم ينعزل اليوم، عبوسًا، غضبانًا. ما كنتُ أراه خصوصًا هو الحمام. أسرابٌ من الحمام حول نافورة الشرب. وطيورٌ من الحمام المتوحّش، التي تخلق عاليًا فوق الغابة. - آه، لقد

مرت أكثر من عشرين حامة... - قالت أوتاسيليا، التي كانت تعدّها، وكان ذلك بداية حديثنا. باستثناء بعض الضحكات وكثير من الصمت. كل فتاة رقيقة، بيضاء، وديعة. وكانت أوتاسيليا أكثرهن رقة، بياضاً، ووداعة.

لكن، على حافة البوابة، كان هناك حوض زهور صغير، به أزهار مختارة، وقليلة جداً. من بينها، كانت تبرز زهرة بيضاء - ظننتُ أنها زهرة كايتي لأنها تشبه الزنبق - متغطرسة تفوح بعطرها. وهذه الزهرة، أتعرف ذلك؟ إنها رمزٌ. في بيتٍ به فتيات، تُغرُسُ هذه الزهرة عند باب بيت صاحب الفازيندا. تُغرُسُ عن قصد، من أجل السؤال والجواب. لم أكن أعرف ذلك. سألتُ عن اسم الزهرة.

- تزوّجني... - أجابتنني أوتاسيليا بصوت خفيض. وهي تقول ذلك، شاحت عني بعينيها؛ لكن ارتجاف صوتها، التقطته واحتفظتُ به، لأنه كان يفيض إحساساً. أو أنه لم يكن كذلك؟ كان ذلك الخيط الرفيع من الشكوك هو الذي قوّض اختياري. وكان اسم الزهرة هو ما قلتُ، كان اسمه هكذا - لكن العشاق وحدهم هم من يستعملونه. بينما النساء الأخريات، المتحررات، اليسيرات، تجبن: - نَمْ معي... - ربما هكذا كانت ستجيبني تلك الجميلة نيورينيا، بنتُ آنا دوزوزا، في تخوم الأراضي العليا؛ لأنني أعجبْتُها وهي أيضاً أعجبتنني بدورها. آه، زهرة الحب لها عدة أسماء. نيورينيا المومس، مذاق الفلفل، فمٌ معطر، نفَس طفلٍ صغير. إنَّ حياتنا مضطربة؛ تماماً مثل هذا النهر، أورو كويّا نهري، الذي يقذفُ بنفسه في البحر.

لأنه، وسط تلك اللحظة، التفتُ إلى حيث كان ذيادوريم، وأنا منشغل تقريباً. ناديتُ عليه - وكان نداءً ممزوجاً بالندم - فجاء ذيادوريم، واقترب. ولأقول شيئاً ما، قلتُ: كنا نتحدث عن تلك الزهرة. ألم نكن نفعل ذلك؟ فلاحظها ذيادوريم أيضاً، وسأل بدوره ما كانت تلك الزهرة؟ - سأل بكل

براءة. - اسمها ليروليرو - أجابته أوتاسيليا. قدّمت له تلك المعلومة بتعالٍ، فلاحظتُ أنّ ذيادوريم لم يستحسن ذلك. أستطيع القول إنّ الأمر قد سرّني. لم يستحسن ذيادوريم ذلك - هو ذلك الفتى الوسيم، المتميز والمتأنق جدًّا. كان ذلك ضرباً من المعجزة في نظري. ألم يعجبه ذلك؟ ما رأيته في عينه كان اشمئزاً، نفوراً، بينما نظراتهما لا تلتقيان. وذيادوريم؟ أثار خوفي. كان يبدو غاضباً تقريباً. مقدار من الحقد ينذر بمزيد من الأحقاد. هل كان ذيادوريم قادراً على الحقد أكثر من الحبِّ؟ أتذكّر، أتذكّره في تلك اللحظة، أذكره في ذلك اليوم المعلوم. كيف أنني لم أشعر بأيّ حدس؟ أنت نفسك، هل تتصور أن ترى جسداً أبيضَ لفتاة عذراء، قُتلت على يد بشرٍ، بعد أن طُعنَت بالسكين، مدرجة بالدماء، وقد ابيضّت شفتا فمها وصارتا شاحبتين، عيناها الزجاجتان شبه مفتوحتين نصف مغلقتين. وهذه الفتاة، هل كانت قدراً وأملاً مكتوماً في حياتك، يا سيدي؟! آه، ذيادوريم... لقد مرت سنوات كثيرة على ذلك.

ومنذ ذلك اليوم الأول، احتفظ ذيادوريم في نفسه بحقد نحو أوتاسيليا. بل استطعتُ أن أرى أنه كان نوبة من الغيرة. انتظرُ حتى أحكي لك، يا سيدي. لا ينبغي كشف الأمر منذ البداية، لأن الغموض لا ينبغي إلّا تدريجياً. أن يشعر ذيادوريم بالغيرة وهو يراني مع أي امرأة، كنتُ أعرف ذلك، بل ومنذ مدة طويلة. منذ البداية تقريباً. وطوال كل تلك الشهور، ونحن نعيش معاً، عبر تقلبات الحياة، في مراراتها وأخطارها، لم يفلح من إخفاء تلك اللسعة، رغم كل ما بذله من مجهودات. ومع مرور الوقت، فرض عليّ اتفاقاً: طالما نحن في المعسكر، لن يلمس أي أحد منا أيّ امرأة. وعلى سبيل التأكيد، قال: - عِذني، يا زيوبالدو، أننا سنفي بهذا الالتزام، مثل القَسَم على الأناجيل المقدسة. إن الوقاحة والعادات الفاسقة لا تعمل سوى على حرماننا من قوة

الشجاعة... فهل ترسم إشارة الصليب وتقسّم؟! - أقسمتُ. لم أستطع الوفاء بوعدى دائماً، وأرجع ذلك إلى أشعار الجسد، إلى المَجُون. لكن ذِيادوريم كان يعطى المثال الصارم لجَواوزينيو بيميم. - دائماً دون امرأة، لكنه شجاع على الدوام. وعدته. صُمْتُ لوقت طويل عن الاقتراب من أي امرأة. فعلاً. مارستُ التوبة. أتعرفُ ما هذا، يا سيدي؟ صددتُ خلاسية صغيرة، راودتني بكل حنان. ثم صددتُ أخرى، وأخريات كثيرات. ثم صددتُ مومسا، من مومسات البذخ التي وقفت عند الزاوية، وكانت في خدمة كل الرفاق؛ مومس تتعطر ثم تنطلق لطيفةً في فحشها الخليع، رائعة الجمال. لم أومن لا بالقسم، ولا بما كان يقال عن جَواوزينيو بيميم؛ لكن ذِيادوريم كان يراقبني. كان يكافئُ تضحياتي بتقديره، وبمزيد من الصداقة. ذات يوم، لم يعد يتحمّل، فعلم بالأمر، وكاد أن يراني: استمتعتُ بساعة من الحبّ مع صغيرة جميلة وهائجة، سمراء مثل مربى ثمار البوريتي. علمَ ذِيادوريم بما علم، لكنه لم ينطق ببنت شفة. وعلى منواله، قضيتُ عدة أيام بفم مختوم، في قسوة مجردة من أيّ حزن. وتابعتُ فسوقي، مخاتلاً؛ كنتُ دائماً أشعر بالنار تشتعل في جسدي. لم يكن ذِيادوريم يلومني، لكنه كان يعاني. فتعودت على ذلك، ولم أعد أهتم بالأمر. بأي حق يريد صديق أن يلزمني بزهد قاس كهذا؟ أحياناً، كان ذِيادوريم ينظر إليّ بازدراء، كأني حالةٌ ميؤوسة، وَعْدٌ لا أمل في إصلاحه. كان ذلك يثيرُ غضبي. انفجرتُ فقلتُ له أشياء فظيعة: - أنا لستُ لا شيء، أنا لست من ثلج، كلاً... أنا رجلٌ، رجلٌ حقيقي! - صرختُ، قلتُ له كل شيء، بل وشمته أيضاً. نأى بعيداً عني؛ بل أعتقد أنه راح ييكي. هل كنت سأشعر بالشفقة؟ الرجل لا ييكي! - فكّرتُ. إذن، هل كان ينبغي أن أترك لأفواه الآخرين تلك الصغيرة التي أعجبت بي، وكانت بشرتها بلون مربى فاكهة البوريتي، ونهداها كبيرين؟ آه، تلك الفتاة، إنها لم

تعد رهن إشارتي الآن، فقد قطعنا طريقاً طويلاً منذ ذلك المكان الذي كانت تسكن فيه. لكننا دخلنا قرية أكبر، وكان هناك ماخور استفدتُ كثيراً من كرم ضيافته، لأنني أحبُّ متعة الحياة. ذيادوريمُ، ظل حزينا متشنجا، منعزلاً عن تلك القرية، أذكرُ ذلك. غادرتُ الماخور مبتهجاً، عن قصد. بعد ذلك، في متجر بقالة، سألت فافافا إن كان عندهم شاي المِتَّة الجاف، التجاري؛ فأخذ لنا رجلٌ صورة. كان اسم المكان ساو جواو داس ألتاس. امرأةٌ بخصرٍ نحيف، لها تجربة وخبرة، أمتعتني. افهَمُني، يا سيدي، ولا تَلْمُني. هذا الدفق من الكلام يطفو مع ذكريات الشباب. ألسْتُ أحكي؟ إذن، حياتي مع ذيادوريمُ سارت لوقت طويل بهذه الطريقة. ثم تحسنت الأمور. كان يحبني، كان ذلك قدره. وأنا، كيف لي أن أشرح لك قوة ذلك الحب الذي كَبُرَ في ذاتي؟ حياتي تتكلم عن ذلك. هل كان حبا؟ كان شيئاً شاسعاً مثل أراضي كبار الملاك. معه كنتُ أبلغ ضفاف نهر الأردن... تملكني ذيادوريمُ واستحوذ عليّ.

تأخرنا ليومين آخرين في فازيندا سانتا كاتارينا. في اليوم الأول، استطعتُ أن أتحدث عدة مرات مع أوتاسيليا، التي كانت تزداد جمالاً في عيني ساعة بعد أخرى. كانت رוחي وأفكاري مأسورة. أدركتُ أن أوتاسيليا كانت فتاة مستقيمة، لها آراؤها الخاصة، وكانت رصينة ونشيطة للغاية. لم يكن لها أخ ولا أخت. كان السيد أماديو يدير مزرعة شاسعة: قطعان كبيرة ترعى في مئات ومئات من الهكتارات الممتدة على حدّ البصر. لم تكن أوتاسيليا خطيبة أي كان. فهل كانت ستحبني؟ لم أكن أفهم الكثير بخصوص الفتيات من العائلات المرموقة. ربما، باستثناء رُوزوَرْدَة؟ لم أكن أريد أن أحب أوتاسيليا بنفس الطريقة؛ باستثناء، أؤكد على ذلك، أنني لم أفكّر قط في رُوزوَرْدَة بازدراء؛ لأنني لا أبصقُ في الطبق الذي أكلتُ منه. فكّرتُ في الأمر، وفكّرت ملياً؛ بنيتُ ألف فكرة.

اجتررتُ كلامي. أردت أن أتحدث عن قلب وفيّ وعن أشياء أحسست بها. ثرثرة يغلب عليها الشعر. لكنني كنتُ أريد أن أكون صادقاً - كما تتكلم الكتب، أتعرف: منظر جميل، أفعال جميلة، أشياء جميلة. كيف أن فتاة، رقيقة متوارية خلف جدار بيتهم، قديسة تبتسم من أعلى الشرفة، تحكم من دون حاجة إلى سلاح ولا ركض خيل... وكانت تريد أن تعرف عني كل صغيرة وكبيرة، فتسأل وتعيد السؤال: - من أين أنت، يا سيدي، أخبرني، من أين؟ - وكانت تبتسم. ولم أكن أخبئ عنها شيئاً؛ أحكي لها أنني ابن السيد سيلوريكو مينديش، صاحب ثلاث فازيندات مزدهرة، تقع في ساو غريغوريو. وأني لم أكن أتحمل وزر أيّ جريمة، ولا أيّ عمل طائش، لكن فقط لأسباب لها علاقة بالحكمة السياسية كنتُ أحرس أولئك الجاغونسو في صفوف رجال ميديرو فاش، السلطة الحقيقية والشرعية في كل تلك الأراضي العليا. أولئك الجاغونسو؟ ذيادوريم والآخرين؟ كنتُ مختلفاً عنهم.

بقيت أنتظر أن تقدم لي جوابها. ألم تُصدّق شيئاً مما قلتُ؟ لكنّ وجه أوتاسيليا سرعان ما تبدّل وصار جاداً، فلم تعد ترغب في أن تسألني هكذا، بشكل عام، عن حياتي. كانت عيناها الجميلتان تشيران لي إلى السماء بغيومها. كنت قد تنكرتُ لذيادوريم، وتوقفتُ عن الشعور بالخجل. كان النهار يميل إلى الغروب. وبالقدوم من المنحدر، كان هناك البستان، والغابة، وصياح البيغاوات الضخمة القابعة فوق أشجار المانجو التي تغمرها الشمس بلون ذهبي. وفي أعالي التلال، كانت تظهر السماء الزرقاء، مع قطع من الغيوم من دون حركة. لكن، من جهة الغرب، كانت ريح ترتفع فتحمل أغصان أشجار الأماريليس، كأنها تريد أن تذهب لتنسج عشا طاهراً، بعيداً، في وحشة الأراضي العليا، على حافة الغابات المعتمة وكل مياه نهر أوروكويّا،

وفي سماء السَّرتاؤ والخضراء-الزرقاء، التي قريبًا ستبدأ في رسم خطوط طويلة متشابهة مثل الحديد المنصهر والدم. أقول ذلك، لأنه إلى غاية هذا اليوم ما زالت تفاصيل تلك اللحظة منقوشة في نفسي، تمامًا كما يرقب الذهن خلف العينين. لماذا، يا سيدي العزيز؟ سأشرح لك: لأنني رفضتُ، وتنكرتُ لذيادوريم، لكن سرعان ما كان ذيادوريم هو من أحبه أكثر. غرابة ذلك الإحساس. سقطت الشمس.

ثم حلَّ الليل، والقطط الرمادية. ليلة أخرى بالنسبة لنا، قضيناها في مخبأ الطاحونة، متمددين فوق حصائر وقطع من الجلد - لم يكن هناك حتى فضاء نضع فيه سريرا معلقا. ذيادوريم بالقرب مني. هكذا كنتُ أستمع لأزيز الجداجد. كانت النار الموقدة في المخبأ تصرّ وهي تنطفئ. اقترب منها ألابريي مرة أخرى، حرّك جمرة، وأشعل سيجارة. جيزو والدو، فافافا، وجواو فاكيزرو لم يتوقفوا عن الكلام؛ كانوا يتحدثون عن مزايا سانتا كاتارينا. فيم كنتُ أفكر؟ في أوتاسيليا. توقفت دائمًا عند ذلك النصف من اليقين، دون أن أعرف إن كانت ستفعل أم لا. أكيد أننا كنا معًا نفكر في نفس الأمور؛ لكن أحلام كل واحد، من كان يعرفها؟

- هذا حوض يعدُّ بكثيرٍ من السمك... - قال جيزو والدو. لا بد أنه كان يشير إليها. - يا صديقي، لا تنطق باسم تلك الفتاة... - قلتُ. لم يجبني أحد، رأوا أن الأمر جدّي مشؤوم، لا بد أنهم ظلوا بأفواه فاعرة في تلك اللحظة، وسط الظلام. بعيدًا، أطلقت البومة البيضاء صيحة: - فليوزيانو فوي، فوي، فوي... - أتت في الأرواح. ذلك أن القمر كان يطلع في مكان ما، فظلت البومة البيضاء معلقة فوق عُشٍّ من أعشاش النمل الأبيض، منبهة بلهاء. وهو يستند إليّ تقريبًا، كان ذيادوريم غارقا في صمتٍ ثقيل. ثم سمعته يدمدم شيئًا بين أسنانه، فأدركتُ أنه كان يلهث من الغضب. وفجأة.

- زيو بالدو، هل تحبُّ تلك الفتاة؟

كان ذِيادوريمُ، نصفَ ممدّد، نصفَ ناهض، ونَفْسُ وجهه يبحث عني. هل استطعتُ أن أرى أنه كان أبيض من الغضب؟ كان صوته يخرج من بين أسنانه.

- لا، يا ذِيادوريمُ. إنني لا أحبها... - قلتُ، نفيتُ ونفيتُ، وروحي تطيعني.

- هل تعرفُ قدَرَكَ، يا زيو بالدو؟

لم أجهُ. تمكنتُ من رؤية الخنجر في يده، شبه مخبأ. كنت فقط أريد أن أتخاشى أن يدرك الآخرون الجنون المؤذي لهذا كله. لم أرتعش.

- هل تعرفُ قدَرَكَ، يا زيو بالدو؟ - سألني من جديد. وكان الآن جاثيا على ركبتيه إلى جانبي.

- إنني لا أعرف شيئًا، لا، لا أعرف شيئًا. الشيطانُ يعرفُ... - أجبته. أسأله.

قل لي، يا سيدي: لماذا لم أذكر اسمَ الرَّبِّ في مثل تلك الأوقات الحرجة؟ آه، إنني لا أعرف. لم أتذكر قوة الصليب، ولا أي دعاء مقدس. تصرّفتُ كما خطر لي. كما يُطيعُ الشيطانُ - في تلك اللحظة، حيا. طوى ذِيادوريمُ ذراعه، مع الخنجر، ثم ابتعد عني، واضطجع ثانية. كانت عيناه كأنهما ترقصان، من فرط اللمعان. لا بد أنه كان يعصّ حزامه الجلدي.

محتزًا، التففتُ بقوة في غطائي؛ لكنني لم أنم. كنتُ أشفق على ذِيادوريمُ، وذهب تفكيري إلى أوتاسيليا. بقيتُ هكذا أتا رجح، وقد تقدّم الليل كثيرًا، مسرورا أحيانًا، آسفا أحيانًا أخرى، مع كل هذه الأفكار والشكوك، هذا الأمل الجديد، على ضوءٍ أرق. في الأخير، نهضتُ. خرجتُ. قستُ علوَّ

كوكبة الثريا. لكن القمر كان يصعد ممتدًا، يبارك ما حوله بردُ أيَّار الصغير. ومن حافة الحقول كانت البومة البيضاء تننُّ مغنيةً، من أعلى أشجار الغابة التي تحفُّنا. حين يصعد القمر أعلى من هذا، ستختفي النجوم وسط هذه الكتلة، وقد تتيه طيور السَّرَّيبِ من كثرة الصياح. بقيتُ لحظةً أستند إلى شجرة البلاذر على حافة الحظيرة. كنتُ أنظر فقط إلى واجهة بيت الفازيندا، أتخيل أوتاسيليا، بعد القيام بالصلوات، مستلقية كأنها قطة صغيرة بيضاء، غارقة في أغطيتهما النظيفة الناعمة، حيث لا بد أنها ترى أحلاما. وفجأة، شعرتُ كأن أحدهم دنا من خلفي، وكان يرقبني. هل يكون ذِيادوريم؟ لم ألتفت لأرى. لم أخف. لا يمكن أن أخاف من الأشخاص الذين أحبهم. هذا واضح. انتظرتُ أكثر، لوقت أطول. ثم عدتُ أدراجي. لكن، لم يكن هناك من أحد، لا أحد بين الظلال والضوء. توهُمُّ مني، تخيلات من ذاتي. شربتُ من ماء الجدول الذي يجري دافئًا في برودة الليل. ثم اندسستُ من جديد في المخبأ. كان ذِيادوريم دائمًا هناك، منهارًا من النوم. عن كثبٍ، شعرتُ بتنفّسه، لطيفًا متثاقلاً. هناك كنتُ أحبه. إن لم يكن شخصًا، مثلي، قلتُ للرب إنني سأعانق ذلك الكائن، أحضنه بين ذراعي. ودون أن أشعر، لا بد أنني نمتُ - لأنني استيقظتُ عندما تحرك ذِيادوريم ونهض بلطف وخرج دون ضجيج، حاملًا حقيبة الظهر؛ كان سيأخذ حمامًا في بركة عند الجدول، وسط ضوء وعتمة يوم جديد. وما إن ذهب، حتى عدتُ سريعًا لأنام.

لكن، باكراً جدًّا، مع طلوع النهار، جاء السيد أُماديُّو يحمل خبرًا عاجلاً: إنَّ معظم رجال جماعة ميديرو فاش كانوا يعبرون مرة أخرى من فيريدا فوندا نحو راثر اغاجيم، على بعد خمسة عشر فرسخًا من هناك، وكان علينا أن نستأنف السير، في هذا الاتجاه. أثناء ذلك، وجه لي الجدُّ أنسيلمو كلامًا لطيفًا ومختلفًا - فهمتُ أنَّ العجوز كان يشك في شيء ما، وأنه لا يزعجه أن أصبح

واحدًا من حفدته. تناولنا الغداء، وركبنا الخيل. انطلق ألابريسي، جيزو والدو وجواو في المقدمة، ثم تبعهم فافافا. لكنني استجمعت كل شجاعتي، وطلبت من أوتاسيليا أن تخبرني بقدري. فقالت، لتزيد من فرحتي، إنها لا يمكن أن تحب أحدًا سواي، وإنها ستنتظر كل ما يلزم من الوقت حتى أستطيع أن أعود من أجل القيام بالإجراءات القانونية لزواجنا. انطلقت، رأسي يضج بالأغاني، وقلبي يفيض ربيعًا. قلتُ مع نفسي: - لن أغيب طويلًا عن فازيندا سانتا كاتارينا، وعن سخائها الرائع. ليس لأنني كنتُ طامعًا في الخيرات والمتاع بل ما كنتُ أرغب فيه حبا حقيقيا هو أوتاسيليا فقط. لكن، عربونًا على الحب، ودليلاً على الصداقة نحو الجميع، في احترام تام لقواعد الهدوء، كنتُ أفكر: في الصلوات، في الملابس، في الاحتفالات، في المائدة الكبيرة بكل أطباقها وحلوياتها؛ وأنه وسط كل ذلك الوقار، ربما سيتنازل والدها، السيد أماديو، لصالحنا، عن غابة من أشجار البوريتي، كما جرت عادة القدامى.

التحقت بالآخرين، ولم يقل ذيادوريم أي شيء. كان غبار الطريق يلتصق مثقلًا بالندى. كانت طيور يسوع الجميلة وطيور الحسون تغني. كان نبات البرسيم يرتفع ناضجًا، بكل أزهاره البنفسجية. لكن، الباقي، ما أتذكره، فكان هو الأفكار التي كانت تداهمني. إحساس بالسجن. أوتاسيليا. لماذا لم أستطع أن أبقى هناك، تلك المرة؟ لماذا كان عليّ أن أستمّر، مع ذيادوريم والرفاق، عبر الأراضي العليا، في ملاحقة أي مصير وأي موت؟ مصير سجين. جئنا، ذيادوريم وأنا، جئنا؛ مسرعين. لكن، يومئذ، بقي جزء من ذاتي هناك، مع أوتاسيليا. المصير. كنتُ أفكر فيها. قليلًا أحيانًا، كثيرًا أحيانًا أخرى، كما في الحياة. أحيانًا أنسى، وأحيانًا أتذكر. مرت الشهور، وانقضت الأعوام. لكن ذيادوريم كان يأخذني معه، حيثما يحلو له. كنتُ متأكدًا أنه حين أفكر في أوتاسيليا، كان ذيادوريم يتكهن بالأمر، يعرف ذلك، ويعاني.

كل هذه الأمور حدثت وقتاً طويلاً بعد ذلك. لقد سبقتُ نفسي وأنا أروي حكايتي. سامحني، يا سيدي، عن هذا الخرق الذي يعتري سردي. إنه الجهل. إنني لا أتحدث مع أي أحد من الخارج، تقريباً. لا أعرف كيف أحكي بشكل صحيح. تعلمت شيئاً مع عرّابي كيليمين؛ إنه يريد أن يعرف بطريقة مختلفة: ما يريد ليس هو الشيء في حد ذاته، بل معنى الشيء، الشيء الآخر. في هذه اللحظة، في هذا اليوم الذي نعيشه، - معك، أنت يا سيدي، حقاً، وأنت تستمع لي بكل إخلاص، أتعلم شيئاً فشيئاً كيف أحكي بشكل صحيح. سأعود إلى ما كنتُ أقول لك. بينما كنتُ، معك يا سيدي، وسط رجال هرْموجينيس.

الحدث الأبرز: كان زي بيبيلو قادمًا. كانوا قادمين إلينا. وعلمنا بذلك: على بعد فرسخ من هناك، كانوا يصلّون، وسط النهار، في كتيب من الفرسان. فرسخٌ واحد، لم يكن ذلك صحيحًا - ولكن حوالي ستة فراسخ، نعم. كانوا حوالي ستين رجلًا فقط. كنتُ أعرف ذلك منذ البداية، أعرف أن ذلك هو ما كان ينتظرنا، لكن الأمر ظل مفاجأة مع ذلك. لم أستطع أن أتصور أنني سأطلق النار على رجال زي بيبيلو. بطريقة ما، كنتُ أكنُ الاحترام لزي بيبيلو بوصفه صديقًا. كنتُ أحترم رفته - زي بيبيلو: يفهم كل شيء دائماً. لكن شيئاً أحبطني بشكل خاطئ. لم يكن الخوف، لكنني فقدت الرغبة في أن أكون شجاعاً. غيرنا المعسكر كي نقرب أكثر، أكثر. - الآن! اليوم! - حشد هرْموجينيس رجاله جميعاً. كان لا بدّ من حمل أكبر احتياط ممكن من الذخيرة. إلى أين؟ أوقفني ذيادوريم بإشارة من يده، لم يكن ينبغي لي أن أطرح أسئلة. إلى السلاح! كان ذيادوريم يستعدُّ، كمن يستعد للزهوة ممتعة. آه، نسيت أن أقول لك شيئاً، يا سيدي. ذلك أنه وقتئذ، في مخيم هرْموجينيس، كانت صداقتي مع ذيادوريم قد أصبحت، مثل المياه التي تجري فوق الحجارة، من

دون طينٍ ولا حجرٍ يُكدرُ صفاءها. من صوتِ الرجال وصرير الأسلحة، عشية العنف، لا يسعنا سوى أن نشعر بنفَس تلك الأجواء القاسية، أكبرُ قدر من الاحترام للذات، فتنكمش كثير من الأشياء الصغيرة وتتقلص.. - إنَّ زي بيبيلو محترز جدًّا، يا ذِيادوريم... إنه يلعب بأمان: لا بد أنه قد وضع، في مكان ما، وخبأً جيّدًا، كتيبة أخرى مستعدة لتهاجم من الخلف. أعرف ذلك جيّدًا - إنها طريقته... لا بدّ أن نحذر هِرموجينيس، جَواو غوانيا، تيتاو باسوس... - لم أتمالك نفسي فقلتُ ذلك.. - إنَّهم يعرفون، يا زِيوبالدو، أيُّ حربٍ هي هكذا... - أجباني ذِيادوريم. وكنتُ أعرف أن قولَ ذلك كان خيانةً. هل كان كذلك؟ اليوم، أعرف أنه لم يكن خيانة، لأنه كان يجب عليّ أن أعتني بالحياة وبالرفاق. لكن، أن أخون، كان ذلك خيانة أيضًا: كان ذلك خيانة لأنني كنتُ أفكر أنه كذلك. الآن، وبعد كل ما حدث لاحقًا، كان ذلك خيانة، ألم يكن كذلك؟

أمسكتُ حقيبة الظهر، وأكلتُ حساءَ مَنيهُوث باردًا. كان كل شيء مقررًا، محدّدًا، بما في ذلك ما كان علينا أن نقوم به بعد ذلك. وزَّعنا جَواو غوانيا على مجموعات صغيرة من خمسة عشر أو عشرين رجلًا؛ وكان على كل واحدة من تلك المجموعات، بعد نهاية القتال، أن تلتحق بالمجموعات الأخرى في المكان المحدد لذلك. منذ تلك اللحظة، كان علينا أن نقاتل في تشكيلات صغيرة. كنتُ أرى الرضا على وجوه الرجال، وبدا ذلك كثيرًا وقليلًا. بمرح، شربنا جرعةً. - خُذ هذه الكَنيّة، يا زِيوبالدو. نسجتها لي مُربّيتي. وبما أنني أحمل اثنتين... - كان فينجو، جندي مُحلّط، يستعمل بندقية وثلاثة مدافع. لماذا ذلك التصرّف اللطيف معي؟ لم أنتبه قطُّ إلى فينجو. - هيا! اليوم هو اليوم الذي نقوم فيه بما لا نفعله في الأيام العادية... - قال أحدهم ليحمّس نفسه، فشعرتُ بالخوف من عقاب الرّب. من أراد أن يصلي

استطاعَ ذلك؛ آخرون، يرافقونه، نادمين. كان آخرون ما زالوا يأكلون، يتخمون، ينظفون أفواههم بكلتا اليدين. - ليس الخوف، يا أصدقاء، إنه الجسد، وحاجياته... - كان يقول البعض، وهم يهرعون لتلبية نداء الطبيعة. فينفجر الآخرون، ضاحكين. كانت تفصلنا بالكاد نصف ساعة على غروب الشمس. من ذلك المكان، الخالي من البيوت والأراضي الفلاحية، كنا نسمع هدير حمام الجوريتي كأنه آخر نداء، وفي الوقت نفسه كان ذئبٌ غوارا يطلق صيحات التوبة. - قدّم لنا يد مساعدة، هنا... - فأساعد. كان رجلاً من مونثيس كلاروس - أعتقد أنني نسيْتُ اسم هذا الشخص، وكان يريد أن يضع شرائط من القماش حول نعليه وحول قدميه ليقوّيها. بعد أن انتهى من ذلك، رسم خطوة راقصة، مرنة حول مفاصله، وراح يصفّر. هل كان ذلك الفتى يفكر في شيء ما؟ - زيوبالدو؟ - قال لي ذيادوريم - تدبّر أمرك، في اللحظة المناسبة، لتغيّر مكانك، كلما استطعت. وكن حذراً: يمكن لرجل أن يزحف وسط الأحراش، في ظهرنا، ثم ينقضّ علينا والخنجر يلمع في يده - كان ذيادوريم يتسم ابتسامة جادة. صدمني رجلٌ آخرٌ وهو يمرُّ. كان دلفيم، عازف القيثارة. قيثارته، أين وسّعه أن يحتفظ بها؟ صافحتُ يد ذيادوريم، وكنتُ أرغب في أن نذهب، أن نتحرّك، وأن ننطلق عبر الطريق. وصلَ هزموجينيس. صوتُ هزموجينيس، حين يعطي تعليمات الحرب - هل قلتُ لك ذلك؟ - يصبحُ صافياً وصحيحاً؛ يمكن أن نقول: إنه يصير كذلك تقريباً. على الأقل، كان يعرف إلى أين يأخذنا، وما كان يريده. قدّم الخطوط العريضة لخطته. وعلى الجميع أن يصغوا، على الجميع أن يسجلوا. كان معظم رجال بييلو قد اتخذوا مواقعهم في ألتو دوس أنجيكوس - هضبة صغيرة منبسطة جداً. ربما يكونون قد نشروا حُرّاساً بعيداً جداً، حتى ضفاف نهر دينيو، أو من حوله، أو في الجهة الأخرى من التلال. لكننا سوف نعرف

هذا الأمر، لأن مستكشفينا خرجوا في دورية. ما كان يجب القيام به هو أن نصل بعد حلول الظلام، صعدنا زاحفين عبر المنحدرات، على مهل، في عز الليل. لن نطلق النار، بشكل مفاجئ، إلا مع أولى تباشير الفجر. على كل واحد منا أن يتخذ لنفسه أحسن موقع، وأن يزيد من الدهاء والمكر، بل يجب أن يقبض أنفاسه. إن صادفَ أحدنا، لسوء الحظ، أعداءً قبل الأوان، فلينزلق بقدر ما يستطيع، أو ليتدبر أمره بالخنجر: لا يمكن أن يُستعمل أيُّ سلاحٍ ناري. نستطيع ذلك، لكن فقط بعد أن يقوم هرْموجينيسُ - الذي كان هو القائد - بإطلاق أوّل رصاصة. ينبغي على كل واحد أن يطلق النار بدم بارد، وأن يقتل بشكل أكيد. لأنَّ خُطتنا كانت هي القضاء عليهم جميعاً في أسرع وقت ممكن: وخصوصاً أن يلتحق بنا آخرون لتعزيز صفوفنا. ومع ذلك، ذهب تيتاو باسوس رفقة حوالي ثلاثين رجلاً ليحموا طريق الولوج، واتخذوا لأنفسهم موقعا في جرفٍ صخري. لحسن الحظ، كان هرْموجينيسُ يشرح كل شيء بتأقل، مكرراً كل ما يقول، بصبر كبير: كان الواجب المطلق هو أن يتعلم أي أبله، وأن هدف كل مهمة يتحدّد من المكان الذي ينبطح فيه كل واحدٍ على الأرض ثم يبدأ في الزحف حتى يصل إلى أعلى. لكنني فهمت معنى كل شيء من الشرح الأول، وكلما كرّر قوله، كنتُ أتخيل في ذهني الأحداث وهي تقع - كنتُ في عين المكان، أزحف، مستعداً. بدأتُ أشعر. انسجمتُ مع سلاحي.

كيف ذلك؟ بفضل ما حدث، وهو ما لم أكن أتوقعه. نادى عليّ هرْموجينيسُ. هذه المرة - مع الأحزمة، جعاب الخراطيش، حقيبة الظهر، السرير المعلق فوق الكتف، وغطاء فوق ذلك كله - كان يبدو مثل رجل بدين. - زيوبالدو، تاتارانا، تعالاً معاً إلى هنا. سيكون موقعنا هو الأخطر. أنا بحاجة إلى ثلاثة رجال، على مقربة من همساتي - لماذا أكذب عليك، يا

سيدي؟ أن يُميّزني هكذا، وأن يمنحني قيمةً بهذا الشكل، كان أمراً أثلج صدري نوعاً ما. إن طبيعتنا ترتوي على المياه العكرة، وتتمسك بها يلطّخ. من يدري؟ أعجبني ذلك. رغم ما كنتُ أكنّ له من بغضاء، كانت حقيقة وقوية، مثل ندم. لقد خلّقنا - هذه هي الحياة - لنشعر بالخجل...

لكني، هنا، وقفتُ قطعةً واحدة. بفضل الإرادة القوية التي عبّرتُ عنها من خلال ماهيتي المستاءة، أصبحت شخصاً آخر - شعرتُ بذلك شخصياً: أنا، زيوبالدو، رجل من الجاغونُسو، إنسان مستعد لأقتل وأموت بشجاعة. أنا، زيوبالدو، رجل من دون أب، من دون أم، من دون أي انتماء، من دون أي شيء أملكه. غرستُ قدميَّ بثبات في الأرض وصككتُ أسناني. كنتُ عازماً، عازماً في ذهني، عازماً في جلدي. لم يكن بوسع ذلك الوحش هُرموجينيس أن يعوّل على صداقتي. بل لم يكن له وجود في تلك اللحظة. كان اسماً بلا شخصية، لا يثير حباً ولا نفوراً، مجرد سلطة ضرورية. وفوقنا معاً، هو وأنا، كان هناك جوكا راميرو. فكّرتُ في جوكا راميرو. كنتُ جندياً، أطيع الأوامر العليا. لم أكن أطيع هُرموجينيس هذا. تكلمتُ بداخلي وقلتُ: - أنا، زيوبالدو، أنا! - جوكا راميرو هو السلطة العليا، الضرورية. لكنّ جوكا راميرو كان بعيداً، ربما مثل قانون ما، قانون معين. كنتُ أفكر فيه، بقوة، فيه فقط. أقول مع نفسي: - جوكا راميرو! جوكا راميرو! جوكا راميرو! ... - وكانت العضلة التي تهدر بداخلي شيئاً هائلاً، كأنها بحر عاصف. لم أعد بحاجة لأخشى أو أكره أحداً. وبدأتُ أفقد تلك الرغبة الملحة في مداعبة مسدسي وإفراغه في أحشاء هُرموجينيس. أقول لك، يا سيدي: كل هذا في خفقان الكائن. ليس إلا. شكّل من أشكال غضب الحياة.

وحينئذ كان قد طلبَ مني أن أختار من سيأتون معنا. أنا؟ هل كان يختبرُني؟ لم أتردّد: - غارانسو... قلتُ - وهذا هناك، هنا! - أكملتُ كلامي،

وأنا أشير إلى الرجل من مونثيس كارلوس. كان بودي أن أختار فينجو أيضًا؛ لكن لم تكن الحاجة سوى لإثنين، وقد اكتمل العدد. وزيادوريم؟ - قد تسألني، يا سيدي. آه، هذه الاسم الذي لم أكن أنطق به، لم يكن يفارق فكري طوال الوقت. وبشكل غريب، لم أكن أرغب خصوصاً أن يكون زيادوريم إلى جانبي في تلك الأوقات. لماذا؟ لماذا، أنا بدوري لا أعرف شيئاً. هل يكون الخوف من حضوره بالقرب مني، إن كان عليّ أن أرى الأخطار تصيبه، وسط المعارك، فتذهب شجاعتي؛ أم الخوف من أن أتذكر أن زيادوريم معي فيكون ذلك أمراً لا يطاق لأنه يضعفني، وأنا ساعتها قاسٍ كالحديد، قلب أسد، أمام هرْموجينيس؟ أعرف، أعرف ما أعرف. ولكنني كنتُ هكذا. فأجبتُ كما يلي: إنَّ غارانسو والرجل من مونثيس كارلوس سيأتيان معنا.

وهكذا، خرجنا، انطلقنا عبر الطريق، متفرقين في مجموعات من ثلاثة أو اثنين، أو فرادى. وكان الليل قد حلَّ. في جاييبا، يأتي الليل على جناح السرعة. دفعة واحدة. ويجب: أن تتعود العيون على الظلام. سأحكي لك كل شيء، يا سيدي. سرنا في صمت، حتى النعال لم تكن تُسمع. وكانت هناك كثير من الأحراش، والشجيرات لدرجة أن الصوت الوحيد كان هو صرير ملايين الحشرات. وفوق رؤوسنا، كانت تحلق البومة الضخمة التي تعرف إلى أين تسير، وتعرف ذلك من دون ضجيج. وحين تجعلُ العتمة ظلّها أكثر كثافة أمامنا، كنتُ أغمض عينيّ ثلاث مرات. كان هرْموجينيس يسير في المقدمة، لا ينبس ببنت شفة. وعلى منواله كان يسير غارانسو أيضًا، وكذلك الرجل من مونثيس كارلوس. وفي أعماقي، شكرتهم. من سيموث ويقتل، هل يرغب حقاً في الحديث؟ وهنا، فقط تلك الطيور ذوات الريش الرخو، المتولدة عن الليل - كل هذه السُّبَد المجنونة: الطائر اليعجمي ينادي على أنثاه، بقهقهات عالية، مطالباً بتبع جيد. أقول لك، يا سيدي، ما كنتُ

أفكر فيه: لا شيء. توجَّب عليَّ الانشغال فقط بالأمر البسيطة، والتيقُّظ لأي جديد في كل لحظة. اكتست نفسي أهمية كُبرى بالنسبة إليَّ. هذا الطائر اليعجميُّ، القابع وسط الطريق، كان يُخلَق ليذهب كل مرة ويحط على بعد عشرة أبواع ثم يستأنف بنفس الطريقة، كما تفعل كل تلك الطيور. الأبله - ألم يكن يعرف أنَّ الخطر ينزل من جديد، دائماً؟

أقول كل شيء، قلتُ: يقتل ويموت؟ حماقة. هذا ما لم أكن أفكر فيه. لم يكن ذلك يستحق العناء. كانت الأمور هكذا: كنتُ أسير، أنفذ الأوامر؛ كان عليَّ أن أحمل أسلحتي؛ أما الباقي، فليكن ما يكن؛ أليس ذلك هو القدر؟ كنتُ أرغب في ألا أتذكر شيئاً، ألا أذكر أحداً. مسافة نصف فرسخ من المشي، على طول درب. يجب ألا نحتك كثيراً بالأوراق، وألا نُكسِّر الأغصان. إن المشي ليلاً، في الظلام الدامس، يستوجب شمَّ كلبٍ صيِّد: يجب أن تتكهن القدم بما تطأ على الأرض. نتخيل ثقباً لا شكل لها. نرصد أصواتاً. إيه! نجوم قليلة في السماء: الليل كتلة كثيفة، متوحشة. أقول لك يا سيدي: هل الليل من الموت؟ لا معنى لأي شيء، في بعض الأوقات. ولتعلم ما فكرتُ فيه أكثر. في الأمر التالي: كيف يغني طائر الكورْيَانغُو؟ ما يغنيه الكورْيَانغُو هو: كوري - أنغُو!

على بعد مئة باعٍ تقريباً، على طول النهر، توقف هِرْموجِينِسُ. احتمينا. تحسَّسنا بعضنا البعض بالأيدي. أصبحنا نسير جنباً إلى جنب. كان هِرْموجِينِسُ يتقدَّمنا وينظرُ نيابة عنا. يا لهما من عَيْنَيْنِ كان يملكهما! عياناً تُشَرِّحان أي شيء في الظلام، بقوة بصر البومة. حمل كل واحد منا خنجرًا في يده، وعبرنا النهر، نقفز من حجر إلى آخر؛ بعيداً نحو الأسفل، كنا نعرف ذلك، كان هناك جسر صُنِعَ من غصنٍ أُلقي عبر النهر، لكننا كنا نخشى أن يكونوا قد وضعوا حراساً هناك. كان ذلك هو أفظع مكان: سرت رعشة في

ظهري، وشعرت بفضاء رقبتني. كل شيء، في الظلام، ممكن حقاً. وحين صار في الجهة الأخرى من النهر، همس هِرْمُوجِينِيس بتعليقاته. انبطحنا أرضاً. كنتُ أختبئُ وراء شجرة، شجرة بلاذر. وبعيداً بعض الشيء، ورائي، كان النهر يجري فوق الحجارة. في ذلك الانتظار، كان علينا أن نقاوم لساعات طوال، ونفس المجال للوقت. هكذا، مع المياه القريبة، كان البعوض يأتي، يستيقظ على رائحة وجوهنا، لا يتركنا في سلام. أن نشعل سيجارة وندخن، لم يكن ذلك ممكناً. كان الليل انتظارا طويلاً. والبعوض يهاجمنا بلا هوادة. ربما لهذا السبب، أستطيع قول ذلك، اختارَ هِرْمُوجِينِيسُ هذا المكان: حتى لا ينام أحد، بما أن أسراب البعوض كانت تمنعنا من ذلك؟ على أيّ، لم أكن الشخص الذي يستطيع أن ينام نوما عميقاً بالقرب من هذا الرجل الذي ارتكب عدداً كبيراً من الفظائع. ما كنتُ أرغب فيه هو أن يسير كل شيء وفق مجراه الطبيعي، وأن ينتهي ذلك الليل، تماماً، بشكل جيد أو سيء... هنا، خذ... - سمعتُ، فجأة. كان هِرْمُوجِينِيسُ وهو يمدّ لي نشقاً من التبغ بلّله للتو بقليلٍ من الكاشاسا القوية. كان ذلك من أجل فرك الوجه واليدين. قبلته. لو كان شيئاً يأكل، ما كنت سأقبله. لم أقل شيئاً، لم أشكره. كنا في خدمة عسكرية، وكان ذلك جزءاً منها. فركتُ جيداً وجهي ويديّ. بعد ذلك، كفّ البعوض عن تعذيبي. ثم رحّلتُ أمضغ قشور شجرة البلاذر، تلك المادّة الصمغية اللّزجة. وحينئذ داهمتني أفكارٌ لا فائدة منها، ولا أستطيع أن أرويها: ملامح عدة أشخاص، ذكرى أحاديث مفكّكة، أشياء غامضة عن أسفار قمتُ بها. كان الليل يطول إلى الأبد.

هل يجب أن أحكي كل ما حدث - كيف انزلقنا من أعلى المنحدر - حتى بلغنا المكان الذي كان علينا أن نتظر فيه لحظة الكمين؟ إنه دائماً نفس الشيء. يتمسك كل واحد بالأرض، بالعشب، ثم يمضي، يمضي - يصبح حيّة - قطعاً

يصطادُ. يجب توزيع ثقل الجسد بشكل مرن، كما لو أننا نسبح؛ فالمرْفُوقُ، والرُّكبتان بعده، هما ما يدفعُنا. كل هذا باندفاع بطيء، لا يُطاق في نهاية الأمر، لكنه يجب أن يكون كذلك. لا فائدة من الانطلاق بسرعة، يجب أن نتمطَّط لأقصى وقت ممكن، لأقصى ما نستطيع. المفاصل تطلق، فنسمعُها. نحك ربلة الساق بالكاحل - لا فائدة من وضع لفافة حول الساق. كل مرة، يجب أن نتحرك بحمل الجسد نحو جهة واحدة: ثم ننظر، نصغي. أي صوت نحدثه دون فائدة يصبح خطراً. طائرٌ، يقف على شجيرة فيطير خائفاً، ينبه العدوَّ. وأفطع الطيور تلك التي تكون قد وضعت أعشاشها، فتبدأ أحياناً تحوم حول نفس المكان وهي تزقزق عالياً - تحدث إنذاراً صاخباً. أو حين يكون موسم اليراع، وهي آلاف من الحشرات لا تعد ولا تحصى، في كل مكان فوق الأرض: ما إن نصل حتى تنتشر وتضيء فتحدث ما يشبه بساطاً من الضوء من حولنا في العشب، شرارة خضراء تتمدد - إنها أفضع تحذير. ما كنا نقوم به كان سبباً لكثير من الجنون، شيء لا نرغب فيه إلا في أوقات الحرب. الخنجر بين الأسنان، أتعرف هذا؟: دون إرادتنا، نزجرُ. في حالة تأهب، كل شجيرة تبدو كأنها تهدد بالتحرك: مع العدو الذي سيرز منها. الأشجار تقف مبيضة، خائنة. عليك أن تغرس بطنك في الأشواك والحصى، وعليك أن تعرف متى يستحسن أن تتجمد فوق شوك بمحض إرادتك - لأنه أحسن طريقة كي لا ينغرس فيك. العدو، بدوره، يمكن أن يكون بصدد الزحف أيضاً، فينقض عليك من الخلف، ليس هناك من أمان أبداً. رائحة الأرض تنذر بالسوء. أعشاب حادة تمرق الوجه. والجراد يقفز، تسمع صريراً خفيفاً، تيكليك، فأتصور أنها نجوم متساقطة تنزل فوق ظهري. ما تقوم به الأظافرُ. العشب يقطرُ بندى الليل، باكياً. آه، والأفاعي؟ يمكن، في أي لحظة، أن تضع يدك على حيَّة ذات أجراس ملتفة على نفسها، فتلقى

موتًا أكيدًا. لكن الأفطع هي الأناكوندا، التي تتجول بعيدًا، وتخرج ليلاً: إنها أكبر سرعة مجنونة في هذا العالم. تلوث صلاة التقوية للقديس بنديكت. كان يبللني ماء الطل، والأعشاب، والأوراق - أقول لك؛ كان ذلك يثير قرفي. فجأة، انفرجت الأعشاب السامقة، فخفضت رأسي. كان حيوان المدرع يندس في جحره. عطس فسمعت احتكاك صفائح القرنية. كان مُدرعًا من فصيلة بيبا وأنا عند رأسه. فما العمل، إذن؟ على يميني، كان هِرْمُوجِينِسُ يتقدم زاحفًا، كنتُ أشعر بنَفَسِ فمه، وذلك الظلُّ المستلقي حيوان ضخم، يكاد يلمسني. غارانسو والرجل من موثيس كارلوس كانا منفصلين، أحيانًا يتقدمان بعيدًا عني، وأحيانًا ورائي. إلى أن توقف هِرْمُوجِينِسُ، فجأة، دون أن يخطرني. ثم همس - كان همسًا صدر منه ويده مُجَوِّفة نحو أذني - هنا، هنا بالضبط.... - كرّر. أين كانت طيور الليل الوديدة والنجوم الأولى؟ - فكرتُ. كنتُ قد أغمضتُ عيني. كانت رائحة آسٍ أبيض ترتفع كراتٍ في الهواء. هدتُ.

ماذا صنعتُ بوقتي، وكم مرّ من الوقت قبل أن يطلع النهار؟ كان بوسعي أن أقيسه بالنجوم، التي تدور، تنزل نحو المغيّب. لكن، كما قلتُ لك، يا سيدي، لم أنظر إلى السماء. لم أكن أرغب في ذلك. لم أكن أستطيع. وأنتُ مستلقٍ هكذا، على طول جسدك فوق الأرض الصلبة، تعاني من برد الليل، الأرض تجمد أو صالكَ. فكرتُ: وماذا لو مرضتُ؟ وكان ألمٌ سنّ قد بدأ يزعجني. ربما غفوْتُ - كنتُ أرفض أن أنام. هِرْمُوجِينِسُ - رجل موجود يستند إليك، في صمتٍ سحيق، أفكاره تثير أعصابك - كما تثيرها صيحاته. وأولئك الأموات، الذي سيموتون بعد قليل، كانوا قد استقروا في ذهن هِرْمُوجِينِسُ. لم تكن لي أي علاقة بكل ذلك، كنتُ أطيع فقط، أليس كذلك؟ لا شيء غير الطاعة، أليس كذلك؟ بالإضافة إلى أنها كانت أول طلاقات نارية

أقوم بها. وأفزع ما في ذلك أنك لست معتادًا على ما سبق - تلك الأمور السابقة الكثيرة. هل ترى أن هذا أمر طبيعي، يا سيدي؟ تلك الفظاعات التي يجب أن نطردها من ذهننا: كنتُ أنتظر هناك لأقتل الآخرين - ألم يكن ذلك خطيئة؟ لم يكن خطيئة، لم يكن كذلك - فظاعات، لحقتُ الأمر. في النهاية، غفوتُ، أعتقد؛ عن غير قصد. هل أكون قد نمتُ، بالفعل؟ لم أكن القائد. هل كان هذا هو ما يريده جوكا راميرو؟ وهَرْمُوجِينِسُ، ملازمُهُ بالقرب منا، كان يقودنا. البعض يقولون: أن ترى شيئًا في السماء كأنه تكشيرة سوداء؟ إنه خطأ. إنه لا شيء، لا شيء. كنتُ سأقتل أشخاصًا، كائنات بشرية. وقریبًا، سوف ينبلع الفجر، سأرى النهار قادمًا. كيف كان هَرْمُوجِينِسُ؟ كيف أقول لك، يا سيدي...؟ حسنًا، حتى أصفه لك بصورة ما: كان مزيجًا فظًا - من حصانٍ وأفعى... أو كلبًا ضخماً. كان عليَّ أن أطيعه، مهما كان الذي أمرني بتنفيذه. كان يأمرُ بالقتل. إرادتي لم يكن لها أي دخل في ذلك. وأولئك الأعداء، لم أعرف منهم أحداً، لم أكن أحقد على أي أحدٍ منهم، ولا على أي واحد. كان رجالُ جماعة زي بيبيلو يتجمعون على ضفة نهر جيكيثاي، يبحثون فقط عن ربح شيء من المال القليل، مثل جنود نظاميين. فكم منهم لن يموتوا على يدي؟ أثناء ذلك، تسرَّبت ريحٌ خفيفة ومعها ارتفع أزيز آلاف الحشرات الصغيرة المتناثرة. واستقرَّ الليلُ يرخي ظلالاً حُمْرًا. أحسن شيء في ذلك النوم من الموت هو أنه يأتي سريعًا، خاطفًا. الأشياء التي لم أكن أرغب في التفكير فيها، والتي كنتُ أفكر فيها أكثر، كانت تختلج على بالي. طريقة جيراالدو بيدرو في الكلام، وهو يقول: - ذلك هناك؟ لم يعد له وجود اليوم، صار شبحًا... قتلته... وكاتوشو، قائلًا عن شخص آخر: - هنالك، ثمة أيتامٌ لي... كنتُ مضطرا لقتل آبائهم... لماذا كانوا يحكون تلك الشرور... لماذا يجب أن أطيع هَرْمُوجِينِسُ؟ كان أمامي ما يكفي من الوقت: لو أردتُ،

يكفي أن أخرج مسدسي، أوجه إليه طلقة واحدة، سريعة، مصوّبة بعناية، ثم أطلق ساقّي للريح، أجري بخطّ متعرّج، حتى أبلغ المنحدر، وبعدها أتدبّر أمري لأختفي في هذا العالم الشاسع. آه، لا شيء من كل هذا: هنا قد يندلع تبادلٌ للنار في كل مكان، وقد يموت بذلك عدد كبير من الناس، وأنا أولهم جميعاً. لم يكن هناك من حلّ. كنتُ تحت سلطة هِرموجينيس. شئتُ ذلك أم أبيتُ، كان هو الأقوى! فكّرتُ في ذيادوريم. ما كان عليّ أن أرغب فيه هو أن نهرب معاً بحياتنا من تلك المعارك، سالمين، وأن تنتهي الحرب، نتخلّى عن حياة الجاغونسو ونذهب إلى الأراضي العليا، التي طالما ذكرتها، لنعيش بإصرارٍ كبير. حسناً، وهؤلاء الآخرون، أعداؤنا، ألم يكونوا قادرين بدورهم على قتلي؟ حماقة. كنتُ أراني، على متن حصان، ذات صباح باكراً، في طريق صغيرة من الرمال البيضاء، في بوريتي دُو آ، على هامش إحدى الجداول، مع مُزارع شهيم، رفيق ما، نضحك، نثرثر متحدثين عن آلاف الأشياء الصغيرة، دون أن نبحث عن الشر، ندخن، وأنا أحمل على متن الحصان نصف كيس من الذُّرة، أتوجه نحو إحدى الفازيندات، لأبيع ذُرتي في الطاحونة مقابل بعض الطحين... - تلك هي الأحلام التي كنتُ أفكّر فيها. في الحقيقة، ألم يقطع رجال زي بيبيلو كل طرقات الشِّمال من أجل القضاء علينا؟ وماذا، إذن؟ ما كان يجب أن يكون هو ما كان. حتى هِرموجينيس لا يمكن أن يُلام؛ كان ذلك حالة قانونية، وليس قانونه هو. أنا كنتُ أطيع، وكان الجميع يطيعون. - سأذهب إلى الأراضي العليا! سأذهب إلى الأراضي العليا! - كنتُ أقول وأكرّر. لحظتها، التوت ساقِي بسبب تشنُّج. ثم ليئتُ أصابع يديّ. كنتُ أرانا معاً، أنا وذيادوريم، على صهوة حصانٍ، الحقول تفوح بروائحها، والأرض تغطيها الأزهار في كل مكان. لماذا نشعر بالشفقة على الآخرين؟ هل كان أحدٌ يشعر بالشفقة عليّ...؟ كم هو هشُّ ذهنُ الإنسان، كنتُ أردد

مع نفسي. الشيء الوحيد الصحيح هو القضاء بسرعة على رجال زي بييلو. التفكير في ذيادوريم كان يريحني، يهدئ أفكاري. آه، أقول لك، يا سيدي: لن أنسى تلك الليلة. هل أستطيع؟ وشيئًا فشيئًا، غفوت، لا طيبًا ولا شريرًا. القتل، القتل، فيم كان يعينني ذلك؟ أن أنسى تلك الليلة، لا أستطيع. وعند الفجر، نزل الرذاذ.

مع طلوع النهار، يتلاشى الظلام في السماء، في دفعات. كنا ندير ظهورنا للفجر. ما أتذكره، أتذكره: عبر أماننا هُرموجينيس، منبطحًا، بطنه يلامس الأرض بلطف. كان الرجل نمرا هائجًا، يهمس في أذن غارانسو، ثم في أذن الرجل من مونثيس كارلوس - مشيرًا إلى الموقعين اللذين ينبغي أن يكونا فيهما. اللعنة، ثم سرعان ما عاد نحوي، وهي يتحرك الآن من الجهة الأخرى. قال: - حذار، زيو بالذو... - رأيت غارانسو حين تقدم، فزحف، وزحف، ثم اتخذ لنفسه موقعًا يحميه تلٌّ من النمل الأبيض، على بعد خمسة أمتار مني، قليلًا على يميني. وغير بعيد عن ذلك، لمحت الرجل من مونثيس كارلوس، في نفس الاتجاه. تحركت مسافة بضع خطوات: اغتنمتُ حماية شجرة ضخمة - جوافة ذات أوراق كثيفة. كانت عين هُرموجينيس ترقب كل شيء، ولا تفارقني. حتى بداية ذلك الفجر، كانت مؤلمة. كانت حاجتنا تضغط. لماذا لم نكن نتقدم دفعة واحدة، كالمجانين؟ آه، لم نكن قادرين. إلا أنه، مع أول اصطدام برجال زي بييلو، سنموت نحن الأربعة، وستخترقنا خناجرهم. أمّا الآخرون، رفاقنا، فلم نكن نعرف عنهم شيئًا. سوى أنهم، في الساعة المحددة بالضبط، سيكونون قد طوّقوا بسرعة معسكر زي بييلو من كل الجهات، وعلى مسافة بعيدة. كان كل شيء يستوجب الصبر. تهبُّ ريح خفيفة، تهزُّ الأوراق. كثير من الرجال كامنون في الأحراش، لا يفعلون شيئًا آخر غير المراقبة: مضطرين - فُكِّرْتُ. ثم وجدت هذا شيئًا جميلًا، فجأة.

كانت الطيور قد بدأت تُحلق، لأنها تكتفي بأقل غواية من النهار، لتبحث فقط عما تأكل. حزينًا، حزينًا، غرَّد طائرٌ مُلتهم الذُّباب. ومرحًا معي، غرَّد طائرُ الرفراف. نظرتُ أمامي، قريبًا جدًّا، فكانوا هناك: كان شيء من الضوء ينير ما بين الأشجار القصيرة، فرأيتُ ظلًّا، بعكس الضوء. كان الرجل يتأهب ليشعل النار. ثم ظهرت ظلالٌ أخرى، كانت تنهض. بعد قليل، سوف ينزل بعضهم إلى الجدول بحثًا عن الماء، إن كانوا بحاجة إليه. الحماقات التي دارت بخلدي: هذا الماء، هل استعملوا منه كميات كبيرة؟ هل يفقد المرء قلبه بسبب الخوف؟ لم أكن أركض خلف الموت. لستُ مطمئنًا، هذه طبيعتي. أن أكون هناك وهَرْمُوجينيس إلى جانبي، في تلك اللحظة، شيءٌ أعجبي، أستطيع أن أقول لك هذا، يا سيدي. - رُيوبالدو، تاتارانا! هيا بنا... - أمرني، فجأة. أطعتُ. تركت يدي تنطلق مستعدة: كانت عيني على نقطة التسديد: شيء ما واساني، وهو أن ذلك الرجل ذو القامة الطويلة لا يمكن أن يكون هو زي بيبيلو... لم أرتعش. سمعت طلقتي وطلقة هَرْمُوجينيس: فانهار الرجل ساقطًا، ميتًا على الفور، وتدحرج في الغبار الوسخ. تملكني غضبٌ، ضدَّهم، وضدنا. ومن كل مكان، في ملاحقتنا، بدأت طلقات النار.

زجرت النيران. تحدثت البنادق وكل الأسلحة: بنادق من كل الأشكال والأنواع. حفلةٌ حربٍ.

هل أقول لك المزيد، يا سيدي؟ أطلقت النار، ما كان من نصيبي. ثم استعدتُ أنفاسي. هل سبق لك أن رأيت معركة؟ حتى دون أن نفكر، نتوقف ومنتظر: ننتظر ماذا سيكون ردَّهم. لكل واحد حصته. وما يزيد على ذلك: كثير وسط لا شيء. الموت؟ ليس هناك غير الصياح والرصاص. على أيّ، ليس هناك من خيار. لا سبيل لك سوى أن تصيح بحقدك عاليًا، إن شئت، فتكدّر الجو وتقاطع فيه صفيّر المعدن. وهناك تنسى أباك وأمك، ولا

ترى أن الحياة ليست سوى همجية. أغصان أشجار متقطعة، والأمر العادي هو الغبار والتراب المتقلب. إنني أحكي لك، أقول. هكذا كان. شحنتُ بندقيتي، أطلقت الرصاص، في رشقات. أماننا، كان أعداؤنا يبذرون كثيرًا من الذخيرة، يطلقون النار بعصبية. كانوا يرفضون الموت تحت طلقاتنا النارية. طفقتُ أضحك، وأضحك، فناداني هِرْمُوجِينِسُ، مفزوعا. كأنه ظنّ أنني جننتُ. لكن ما حدث هو أنني، فجأة، طفقتُ أفكر في عرّابي سيلوريكو مينديس.

- والآن، اذهب أنت، اذهب! ألا تريد؟ - هذا ما عنّي أن أصبح في وجه هِرْمُوجِينِسُ. الكلبُ. ضحكتُ أكثر. وحيدًا، والبندقية في يده، كان هِرْمُوجِينِسُ رجلًا مثلي، لا أقلّ ولا أكثر، بل كان يطلق الرصاص بشكل أسوأ. ورجال زي بيبيلو نهضوا باكراً ليتلقوا طلقات نارية. شعرتُ أنني سيد نفسي. ... لو أنهم جميعًا حملوا أسلحتهم وأطلقوا النار على بعضهم البعض، ستكون نهاية العالم... - فكّرتُ، أعتقد. هذا النوع من الحماقات التي كانت تسبح في ذهني. أخذتُ أعدّ طلقات النار. وفق سير القتال، لم تكن أيّ هدنة تلوح قريبًا في الأفق. طلع النهار: كان بوسعي الآن أن أصف الرجل من مونثيس كارلوس وصفا كاملا. كان مختبئًا خلف جذع شجرة وسط أجمة صغيرة. لماذا أحكي لك هذا، يا سيدي؟ إنني أطيل في الكلام. لو أنّك رأيت مثل هذه الأمور، فأنت تعرف: إن كنت لا تعرف، فكيف ستعرف؟ هذه أمور لا نستطيع أن تكون لنا عنها فكرة واضحة.

معركة كهذه، معركة كبيرة. مع فرق بسيط، وهو أننا لم نعد نزحف كي نتحرّك، لم يعد ذلك ضروريًا. لا يجب أن نقوم بذلك إلّا إذا كنا في حالة وضعيّة دفاعية: لنوهمهم أننا أكثر عددًا مما كنا عليه في الحقيقة. وبما أن الأمر لم يكن كذلك، فقد كان من الأفضل أن نضمن موقعًا أحسن، ونظل متيقّظين.

طلقة نارية من أمامنا تستوجب طلقة نارية من هنا، نيران متبادلة. كلما كنتُ مستعدًّا لأطلق النار، أراقب حركة ما، شروذًا عند الآخرين. لم تبعد صفوف العدو سوى مئة وخمسين مترًا، في تناول طلقاتي. مسافة مناسبة حتى لإطلاق مدفع. لقد أصبتُ منهم أكثر من واحد، الخ، الخ، حسب علمي، حسب ما بدا لي. لكن فقط من كُتِبَ لهم أن يموتوا في ذلك اليوم. هل أكذب؟ لا تنخدع، يا سيدي. كذلك كان.

ثم جاءت لحظة، صارت فيها الطلقات أكثر حدة، عن قصد، وازدادت حدتها من جانب واحد. كانوا يريدون الدخول في نزال. والساعات طويلة لا تنتهي. الشمس تحرق رقابنا. شمس حارقة كنت أتصبب عرقًا تحتها، في شعري وداخل ملابسي، حتى أنني كنتُ أشعر بحكة كبيرة وسط خاصري؛ ونمل يسري في أجزاء مخدرة من جسدي. ألم نكن على وشك أن نتقدم؟ كلاً. كان الآخرون يطلقون النار بكثافة، لا يمكن الحط من قدرها. الكلاب! لم يكن شتمهم عاليًا يفيد سوى في تحديد أهدافهم بدقة أكبر. من حين لآخر، كنتُ أضع عيني على ظهر غارانسو، هنالك، أمامي تقريبًا. كان غارانسو قد أنزل حقيقة الظهر ووضع الغطاء على الأرض، كما خلع معطفه، ولم يعد يرتدي غير قميص ذي مربعات. رأيتُ العرق يتحوّل بقعة على قميصه، وسط ظهره، بقعة سوداء تتسع، تتدور وتمتد. كان غارانسو يطلق النار، جسده يهتز بكامله، كان صديقي بشجاعته الدقيقة. شابٌ كما نحبُّ ونرضى، رجل بصفات الوفاء. لذلك، كنتُ أطلق النار أنا أيضًا. - رصاصة ومعدن... رصاصة ومعدن... - رحتُ أردد. - رصاصة ومعدن... رصاصة ومعدن... انقباض في موقع قلبي. كنتُ جسدًا كثيفًا وحرارة شرسة. - ما الذي يقع؟ ما هذا؟ - سألني هزموجينيس. - لا شيء، لا - أجبت. - رصاصة ومعدن... رصاصة ومعدن... - أجراسُ الجحيم! وفجأة، بعيدًا عن جناحنا الأيسر،

برزت مجموعةٌ صغيرةٌ من رجالنا، يندفعون نحو الأمام، يطلقون صيحات،
فهجموا على العدوِّ جسماً لجسمٍ.

وهناك، كانا اثنان... كانوا ثلاثة... اللعنة! - زجرَ هِرْمُوجِينِيسُ:
اللعنة! لقد جنّوا من الغضب! - مسرعين، هاجموا مُلوّحين بمقابض
البنادق والخناجر... توقفنا عن إطلاق النار، وتعلقت أنفاسنا. ثم شدّني
هِرْمُوجِينِيسُ، محتزاً: لأن الرجل من مونْتيس كارلوس - المسكين! - اندفع
هو أيضاً، مثل الآخرين، فرموه بوابلٍ من الرصاص. سقط، وعصّ التراب.
المسكين. هل كان جنوناً؟ أثناء ذلك، كان الرفاق الآخرون، الذين ارتعوا
في عشّ زنابير رجال زي بييلو، يصيحون في غبارهم، ولا شك أنه انتهى
بهم الأمر مقطّعين إرباً إرباً، كأنهم أرانب تحت أنياب رهطٍ من الكلاب.
تمنّيتُ لو أنهم قتلوا بعضاً منهم! وما إن عاد الهدوء، حتى أطلق رجالنا نيرانا
جهنميّة - وكان ذلك نارا بكل ما في الكلمة من معنى. كبَحَ هِرْمُوجِينِيسُ
جراح اندفاعي: - تاتارانا، هدى من روعك، لا داعي لرفع حرارة سلاحك،
لا تبدّد الذخيرة. طلقات قليلة، لكن جيدة. واقطف ثمار عملك - كان ذلك
الرجل يجمدك، كأنه حلزون من العتمة. وهو ما أثار ظمئي، ربها، لكن لم
تتبق ولا قطرة ماء واحدة في دُبائي. فابتلعتُ لعابي.

هل كان سينتهي ذلك القتال الذي لا نعرف كيف نضع له حداً؟ أخنّ
أنهم قد أطلقوا علينا حوالي ألف رصاصة، من كثرة ما كان صغيرها يلعلع
فوق رؤوسنا وبالقرب منا. ثلاثة أضعاف. تحت ذلك الوابل من الرصاص،
حدث لي شيء ما، ما يشبه خوفاً أعظم، لا نعترف به: ارتعشتُ مثل جدع
شجرة. على الأقل، لو متّ سأرتاح. سأرتاح من أيّ إحباط. بما أن هجومنا
لم يُسفر على أيّ نتيجة، وأنا بحاجة لأرى الآخرين، وأعرف الحصيلة،
عدد القتلى، أو كم منهم في حالة سيئة. كنتُ أريد أن أعرف أعدادهم

وأعدادنا. قتال لا مبرر له! لا شيء سوى تبادل النيران هذا، تبادل نيران يتكرر، ويتجدد. خطرت على بالي فكرة: وماذا لو غضب هُرموجينيس وتملكه الشيطان، بالصدفة؟ لو أمر أن يهاجمهم بالسلاح الأبيض، هل يجب أن نتقدم جميعًا؟ إذن، هل كنتُ هناك مجرد عبدٍ للموت، مجردًا من إرادتي؟ إنسان لعين، يا له من جحيم! ألم أكن أستطيع فقط أن أدير جسدي قليلًا، أوجه سلاحي نحو هُرموجينيس، وأطلق النار؟ كلاً، لم أكن أستطيع ذلك، شعرتُ بذلك فوراً. ثمة عتبة، لا يمكن أن نتراجع إلى الوراء بعد بلوغها. حملني كل شيء في اتجاه واحد، وكانت شجاعتي تدفعني دائماً إلى الأمام، إلى الأمام فقط؛ وكان هُرموجينيس ممدداً هناك، يستند إليّ - كان كأنه أنا. آه، وفي كل لحظة، كان يجب أن يُذكّرني بذلك. في كل لحظة وحين. ليقول لي: - تاتارانا، خُذ، كُل، امنح جسدك شيئاً من المتعة... - وها هو الآن يقدم لي حقيبة ظهره، وفيها لحم ومَنيهُوت. كانت الطلقات النارية قد توقفت من كل الجهات في الوقت ذاته، تماماً تقريباً. كان طعامي في حقيبتَي الظهرية مع ذخيرتي من الرصاص. فيمَ كنتُ أحتاج هُرموجينيس؟ لكن، لماذا قبلتُ، لماذا كنتُ أمضغ هذا اللحم، أظن أنني لم أكن أشعر حتى بجوع حقيقي، ولماذا كنتُ أبتلع ذلك المَنيهُوت؟ طلبتُ منه ماءً: - اشرب يا صديقي، فهذه تستحق أن نشربها... - ثم ضحك. وكان ما مدّه لي، في مطرته الصغيرة، ماءً ممزوجاً بالكاشاسا. شربتُ. مسحْتُ شفتي. أسندت فوهة بندقيتي إلى شجيرة. كنتُ أنظر إلى ذلك العرق الكثيف في ظهر غارانسو. إن أطلق النار، أطلقتُ. كانت تلك هي الحياة، قلبٌ يخفق بنفس النبض. بل كنتُ أشعر بغفوة نوم تُدغدغني.

وفي تلك اللحظة، اندلع ذلك. بعيداً، هناك - من جهة التل الصخري حيث كان رجالنا مع تيتاؤ باسوس قد اختبأوا للمناوشة - حدث إطلاق

ناري قوي، طلقات نارية متتالية. آه، لا بد أن جنودًا آخرين من رجال زي بييلو كانوا يصلون، كتيبة من الحَيَّالة. مدَّ هِرْمُوجِينِسُ عنقه وأصاخ السَّمْع. وبينما هم يطلقون النار، دون توقف، تغيرت طبيعة الطلقات. - هذا لا يعجبني بتاتًا... - قال هِرْمُوجِينِسُ. ثم أردف: - لقد أخطأ الشَّيْطَانُ... - رجل خبيث، جبان. - لقد جاؤوا على بينة من الأمر، إيه، حدسوا ذلك! حسب ما أرى، ذهب عملنا سُدَى... - وهنا، كنتُ أستمع. رأيتُ. كنتُ أنظر إلى ظهر غارانسو، إلى البقعة التي كانت تتخذ لونا آخر... عرق أحمر... كانت دمًا! دمٌ يبلل ظهر غارانسو - ففهمتُ أكثر مما ينبغي. غارانسو هادئ، جامد، بصدر مستقيم، كأنه يضم تلَّ النمل الأبيض بين ذراعيه. الموت صاعقةٌ نزلت من قبل. القلق، كأنه كتلة تصعد عبر حنجرتي، يضغط، كأنه قبضة تحنقني، فيتحوَّل أحيانًا إلى دموع في عيني. العبث...

- تاتارانا، زُيوبالدو: إننا في ورطة! - كان هِرْمُوجِينِسُ هو من يحذّرني. - اللعنة! - أجبتُه. لكنه لم يسمع كلامي الصريح. نفخ: - كن حذرا... يجب أن ننسحب في انتظام: هؤلاء الذين وصلوا جاؤوا ليُطَوَّقونا، ليهاجمونا من الخلف. وكذلك كان. كيف كان ذلك اللعين يعلم كل شيء، يتكهَّن بباقي الأمور، ذلك الخائن القذر! لكنني كنتُ لا أزال أملك كبريائي: من يمنعني من الرحيل؟ - زحفتُ جنبًا، بضعة أمتار، بقلبٍ منقبض، كان لا بدَّ أن أرى ما يمكن القيام به من أجل غارانسو. - إيه، يا أخي هناك في الخلف، خذ حذرَكَ! - سمعتُ الصوت اللاذع لهِرْمُوجِينِسُ - لم يكن يريد أن يصيبنني مكروه. ولكن لا يمكن أن نترك مسيحيًّا يسقي بدمه عشب الغابة، مثل خرقة بالية، أو جثة خنزير برِّي. أخذته بين ذراعيَّ: فات الأوان - كان جثة هامدة. كان قد توفي، فمه مفتوح - صار جسدًا باردًا. فهمتُ، كان الدَّم قد بدأ يفوح برائحة فاسدة. ثم جاء سرب من البعوض المتعطش للدَّم، وتلك

الذبابة الخضراء التي تجرأت دون طينيتها المعهود، فوقه تمامًا. بسبب طلقات النار. وغار أنسو لن يحظى حتى بلحظة من الشموع المشعلة. - تعال، تعال، سوف نقول آمين! - نادى عليّ هرموجينيس غاضبًا. زحفتُ متراجعا إلى الخلف. إنّ الخطر يطرّد أي شكل من أشكال الحزن. ثم حدث هذا الأمر: نفخ هرموجينيس صدره، وأطلق نهيقَ حمارٍ عجوز على حافة الطريق. ثلاث مرات. كان يعطي أمرًا بالانسحاب. وفي كل مكان، بعيدًا، كان الآخرون يردّدون نفس النهيق الأجوف. - الآن، أطلق النار، الآن، كلّ النار! - أمرني هرموجينيس. أطلقت النار. أطلقنا النار، وكانت طلقات مستمرة. كانت صيحات النهيق تعطي إشارة الانسحاب، لكن العدو لم يكن يعلم شيئًا: كان يجب أن نوهمهم بأننا سنشن آخر هجوم. هل صدّقوا ذلك؟ من يدري؟ كانوا يردّدون، طلبة بطلقة. لكننا اغتبننا تلك الفترة فانسَلْنَا بين الأشجار، نندفع متعرّجين حتى بلغنا الأسفل، أقصى نقطة في الأسفل، مثل الأرانب. كان تفرّقنا بتلك الطريقة أسوأ من التقدم تقريبًا. قفزة بعد قفزة، كنتُ أقفز بين فتحات الأشجار، أتبعُ هرموجينيس. وكنتُ قد تجاوزته، لكنني التفتُ وانتظرته. لأنه، في الفوضى الذهنية لأحاسيسي، لم أكن أرى خلاصَ جسدي الحقيّر إلّا في هرموجينيس. من قال إننا نختر كل شيء في هذه الحياة؟ إننا نقوم أيضًا بما يُنجّلنا. تابعتُ السير. لمحتُ عند أسفل المنحدر رجالا، مثلي، يجرّون أحيانًا، وأحيانًا أخرى يصعدون فوق كتلة من نبات الخيزران، مثل طيور سمان تطاردها الكلاب. هربنا، قطعنا نهر دينيو، سرنا على طول المستنقع ثم توغلنا في الغابة. - هل معك كل شيء، تاتارانا؟ الأسلحة، الذخيرة؟... - سألني هرموجينيس. - وكيف لها أن تكون معي؟ - أجبتُه. فقال: - حسنًا، هذا جيد... - كان يُحدّثني الآن بشكل عنيف، بنبرة قائِد يعطي الأوامر، وكان كذلك. وجرينا مسافة خمسة فراسخ، بين الشمال

والغرب، حتى كائناتنا، ذلك المكان حيث كان من المفترض أن يمتد مجموعتنا من رجالنا. وصلنا إلى هناك، نطمس آثارنا، نمشي تارة في جدول، ثم نختار بعد ذلك الحجارة التي نضع فوقها أقدامنا، ثم نمحو آثار خطواتنا بواسطة أغصان الشجر، ثم تابعنا بقية الطريق عبر عدة منعطفات.

إنني لا أتحدث عن كل شيء. ليست لي أي نية في أن أحكي لك حياتي بكل تفاصيلها؛ فيم سيُجدي ذلك؟ ما أريد هو أن أبرز حدثًا ما، وبعد ذلك أطلبُ منك نصيحة. لذلك أنا بحاجة لك، يا سيدي، كي تصغي بعناية إلى هذه المقاطع: عن حياة زيوبالدو، عن الجاغونسو. حكيتُ بتفصيل، عن ذلك اليوم، عن تلك الليلة، ولا أستطيع أبدًا أن أنسى ذلك. زيوبالدو الجاغونسو. هل كُنته؟ كُنته ولم أكنه. لم أكنه! - لأنني لست كذلك، ولا أريد أن أكون كذلك. وليكن الرب!

وأتابع. بعد ذلك، حين بلغنا مخبأنا، في فسحة صغيرة من الغابة، وجدنا عدة رفاق آخرين، يحملون سلاحهم، وكانوا يصلون متفرقين، وكلهم سرورٌ بالنجاة. كان فينجو واحدًا منهم. ألا يكون قد ملح بالصدفة ريينالدو بمنأى عن الخطر؟ سألتُه بشكل غير مباشر. لأنني ما كنتُ أفكر سوى في ذيادوريم. أثناء ذلك، كان فينجو قد لاحظ: بعد الانسحاب، خرج سالما؛ وبعد ذلك بقي متخلفا داخل كهف قرب بئر. - كان هناك دمٌ على ساق من سرواله. بالنسبة إليّ، لم يكن ذلك أمرًا ذا بال، مجرد خدوش... - وهو ما أحزنني - إذن، جُرح ذيادوريم. وهناك، توقفتُ، كنا قرب نهر جيُو الصغير، وأردتُ أن أغسل قدميّ اللتين كانتا تؤلّمان كثيرًا. وأظن أنه، من فرط التعب، كنتُ أعاني أيضًا من الشقيقة، فهرقتُ الماء على صدغيّ. التعبُ يصيبُ بالحزن من يعاني الحزن. لو كان ذيادوريم هناك، بكل بساطة، لكفى ذلك لإسعادي، لم تكن لي أي رغبة في التعليق على طلقات النار والقتال، لم

أكن أرغب سوى في صمتِ حضوره. لذلك لم أكن أميز جيدًا ما كنتُ أشعر به من انزعاج. الحزن. الحزن على الرجال الذين ربما أكون قد قتلتهم، أم على ذلك الرجل الطويل المبكر - ربما كان هو طبّاخهم، من يدري - الذي سقط تحت الرصاص مع أول ساعة؟ أقول لا. الحزن الذي كنتُ أشعر به كان على غارانسو وذلك الرجل من مونثيس كارلوس. مثل حملٍ ثقيلٍ تقريبًا، لأنّ الذنب كان ذنبي - فأنا من اخترتهما معًا، لآخذهما على الفور. عليهما معًا - هل تفهم، يا سيدي، وهل تتابعني؟ الندم؟ بالنسبة إليّ، أقول وأنفي. انظر: على بعد فرسخ أو فرسخين من هناك، في الأسفل عند الوادي، مَرَقَ يَغُورُ ساقَ سيزينو لُو وحوَّها إلى لا شيء. كان الرجل يشتغل في نهر ساو فرانسيسكو، سائقًا في مركب بخاري؛ وبعد ذلك ورث بضع هكتارات من الأراضي. فاشترى له ساقًا خشبية جيدة. لكن، بعدما أصبحت لديه اليوم هذه الساق، ربما بسبب ما تعرضت له سحايا دماغه من اهتزاز، لم يعد يرغب في مغادرة بيته، ولا يبرح سريره أبدًا تقريبًا؛ يقضي وقته يقول ويكرّر: - آه، حسنًا، حين تكون لك اثنتان تملك واحدة، وحين تملك واحدة تكون لك اثنتان... - فيضحك الجميع. الندم، أظن ذلك؟ هذه المصيبة، كنتُ أنفذها تحت الطلب، ذريعة جيدة لمن فقد شيئًا ربما. لأن ألم الصداقة معاناة صغيرة وبسيطة، وألّمي أنا لم يكن كذلك. ثم بلغتُ كائنساو فيليو، المسمى أيضًا جيّو، كما يُقال.

هناك، في وقت وجيز، كنا حوالي اثني عشر رجلًا. البعض، من ضمن من كان من المفترض أن يتجمّعوا في ذلك المكان، كانوا لا يزالون متخلفين، لكنهم لن يتأخروا كثيرًا في الوصول. هناك أمرٌ واحدٌ كنتُ أهني نفسي عليه: في الحرب، إذن، هل نكاد لا نموت تقريبًا؟ بل إن مواساة جميلة تأتيك وأنت في أحلك الأوقات: كان بُراش قد مرَّ يوم البارحة إلى جيّو، فحمل

مسبقًا، على متن بغلين، مؤونة من الفاصوليا السوداء والرُّزَّ، ولحمًا مقدَّدًا لتحضير شرائح الخنزير، بالإضافة إلى أطباقٍ وقدر، فحضَّرنا العشاء. أكلتُ كثيرًا حتى أنني ذهبتُ لأنام. نمتُ ممتلئ البطن. فكَّرتُ في موت غارانسو والرجل من مونتييس كارلوس، وما إذا كنت مدينًا لأبي جبر؛ وإن كان ذبادوريم يلتحق بنا بدوره أم لا في نهاية الأمر، مع طلوع الفجر على أبعد تقدير؟ نمتُ. لكنني سرعان ما استيقظتُ، يدي على البندقية، كما لو أن الوقت قد حان. لم يكن هناك أي شيء، لا ظلٌّ ولا ضجيج. كان الآخرون هناك، ثقلًا في نومهم، كل واحد في ركنه، وأسرَّتْهم معلقة من شجرة إلى أخرى.

لم أرَ منهم غير واحدٍ، جويي بيشيغيتتو، الملقَّب بـ«النَّعل»: كثيرٌ من عاداته، وما يقال عنه، تجعل منه رجلًا غريب الأطوار. يبدو أن جويي بيشيغيتتو لم يكن يرغب في الذهاب إلى النوم، فقد بقي قرب موقد النار يحرك الجمرات؛ كان يمكن تمييز وجهه في العتمة المحمَّرة. وكان يدخن. وضعتُ بندقيتي بلطف، وتقلبتُ على الجهة الأخرى. لم أنجح في أن أنام من جديد. لكن، بعد بضع دقائق، استيقظتُ مفزوعا مرة أخرى. وتكرَّر الأمر ثلاث مرات، واحدة تلو الأخرى. لاحظ جويي بيشيغيتتو قلقي، فجاء بالقرب من سريري المعلق، وجلس على الأرض. - في ساعة كهذه، هناك ديكة قد بدأت تصيح، في أماكن أخرى... - قال لي. لا أعرف إن كنتُ قد أجبتُهُ. كنتُ متوترًا جدًّا في تلك اللحظة.

هل كان بسبب نذير خطرٍ يلوح هناك فالتقطتُ إشعاره؟ ألا يحدث قدْرٌ كبير من تلك الأمور لعدد كبير من الناس؟ كنتُ أعرف، سبق لي أن سمعتُ بذلك: رجال من الجاغونسو يملكون تلك الملكة، فيأخذون في التكهن بما هو وشيك الحدوث، ولذلك يهربون في الوقت المناسب. كان هرْموجينيسُ

وجواؤ غوانيا يميلان، أكثر من الآخرين، إلى هذا الحدس الدقيق مثل الهواء، مما يمليه القلب. فهل كان هذا هو ما ينتابني أنا أيضًا؟ الانطباع بأن رجال زي ببيلو كانوا يحومون في المكان، ربما يزحفون قريبًا جدًا من هناك، وزى ببيلو على رأسهم. كنت أفكر في زي ببيلو في كل لحظة دون توقف، وأفكر كيف أن الحياة كانت مليئة بأمور تُصحح. في نيانفا، كنت أعطيه دروسا، أعلمه الإملاء والقراءة، الحساب والفوائد؛ ثم جاءت السهرات بعد ذلك، في القاعة الكبرى، حول المائدة الكبيرة، حيث كنا نأكل حساء الذرة الخضراء المحضر بالجن، حبات جوز الهند من باهيّا، الفستق، السكر، القرفة، وزبدة حليب البقر. - أنا مستعدّ، أنتظرُ ساعتِي، سيد بالدو: كي أقضي نهائيًا على تلك الحثالة من الجاغونُسو! - كان يقول لي، بقوة ومرح في صوته، وهو يشرب كأس المتّة، الساخن يكاد يحرق اللسان. وها أنا ذا الآن واحدٌ من الجاغونُسو بدوري. - كان زي ببيلو قد خرج على رأس فيلق مسلح، وما أقسم عليه يومئذ كان يعني أنه سيقضي عليّ أنا أيضًا، سيُنهي حياتي. لكني كنتُ أحترم زي ببيلو، كان ودّي له كاملاً، أقدمه نهائيًا ودون أي تحفظ، وكذلك كنتُ دائماً. حتى لو لم يتعلّق الأمرُ به شخصيًّا، لو أنه لم يكن وسط ذلك كله، لبدا كلُّ شيء مختلفًا: لكنت انخرطُ بشكل كامل ودون جموح في رغبتِي في القتال. لكن، أن ألقى الموتَ وأنا أقاتلُ زي ببيلو، أدركتُ أن هذا هو ما كان يصيبني بالقرف. نهضتُ من سريري المعلق وطلبتُ من جويّ بيشيغيتو أن يضيف حطباً إلى النار. لكنه قال: - علينا ألا نفعل ذلك. في مثل هذه الحالات، يُستحسن ألا نشعل ولا حتى شمعة واحدة من الشمع الأسود... - لففتُ سيجارةً.

حكيت لجويّ بيشيغيتو ما كنتُ أشعر به من أمور غريبة: هل كان ذلك ربما نذير شؤم؟ طمأنني: إنَّ ملاكًا لا يحذرُ بتلك الطريقة، بل ربما يكون ذلك

النوع من اليقين الذي يتسرب شريرا إلى أذهاننا، من دون سبب ولا نقاش. ما كنتُ أعانيه كان توترا قديما تراكم وازداد أثناء أوقات تبادل إطلاق النار. - لا يزال يحدث لي هذا الأمر أنا أيضًا، بعد كل تبادل عنيف لإطلاق النار. مثل حكة في الدهن، إنَّ صحَّ هذا التشبيه. فمنذ ست سنوات وأنا أعيش حياة الجاغونسو، لا أعرف الخوف من الحرب، لكن، بعد كل معركة، في الليلة الموالية، لا أستطيع أن أتخلص منه، من هذا القلق الذي يتأبني.... -

ولهذا السبب، قال لي، لم يكن يغمض له جفن في ذلك الليل الطويل، بل إنه لم يكن يحاول ذلك. كان جويّ بيشيغيئنتو يعتقد أنه ليس كفؤا ليكون رجلاً من الجاغونسو؛ فصحتّه لم تكن على ما يرام منذ شهور، إذ كان يعاني من الرّبو وداء الحمرة. - تعلمت باكرا كيف أعيش لوحدي. سوف أذهب إلى رياشاو، وهناك سوف أقطع قسطاً كبيراً من الغابة... - كان هذا هو مشروعه، الذي يتحدث عنه من حين لآخر. - العمل اليدوي... يستطيع الفلاح أن يقوم بذلك دائماً، حتى وهو على مشارف الشيخوخة.... -

- هل كنتَ صديقا لغارانسو، يا جويّ - سألتُه بحذر. - صداقة عرضية، عابرة. ما ذا حدث له؟ هل لقي حتفه؟ أعتقد أنه كان دائماً سيء الحظ... وكان يعرف ذلك... - وما كاد يكمل كلامه حتى أدركتُ أنني سألتُه عن غارانسو فقط كي أسأله بعد ذلك عن ذيادوريم: ريئنالدو، أقصد. لكنني لم أملك مزيداً من الشجاعة. كان يعوزني سببُ السؤال. غيرتُ الموضوع. - النّحس، هل يمكن أن يُعالج، يا جويّ؟ هل تعرف صلوات جيدة لطرده؟ - لا بدّ أنني سألتُ كذلك أو شيئاً من هذا القبيل؛ موضوع كان يجدر بي أن أتحدثه. - إلى من نلجأ، إن لم يكن للنّحس علاج؟ الكلُّ يعاني من النّحس، في وقت أو آخر... - أجابني - لكنني، رفضتُ أن أتعلم ذلك السحر. إنَّ ما حبّاني به الرّب من ذاكرة ليس لأهذي بكلامٍ مُسيء....

خطايا، مغفرة الخطايا. ولكن، هل كنا مع الرب؟ هل كان ذلك ممكنا
لرجلٍ من الجاغونُسو؟ جاغونُسو - أي إنسان يتقاضى أجرا ليقترف جرائم،
شخص يزرع المعاناة في قرية هادئة لأشخاص آخرين، يذهب، ويقتل.
هل كان ذلك ممكنا؟ كنتُ أريد رأيَه حول هذه النقطة، من باب الحماقة:
فأي جواب كان بوسعه أن يُقدِّمه لي جوي، ذلك الغليظ الخشن من وادي
جيكيتينيونا؟ أي جواب؟ ونحن الجاغونُسو، هل كان الإيَّان يسمح لنا أن
نأمل من الرب أن يشملنا بالعفو والحماية؟ سألتُ بحُرقة.
- آه؟! ما دُمنَّا على قيد الحياة... كان جوابه.

لكني لم أقبِّله. لم أرض به. عدتُ لأتحدث معه، متشككا، رافضا. لأنني
لم أكن أشعر بالنوم، ولا بالعطش، ولا بالجوع، ولم يكن لي صبر، ولا أدنى
رغبة في أن أُفرِّح رفيقا جيِّداً. لم أكن أرغب حتى في ذَهَب الجَسَد، لأن الوقت
لم يكن مناسباً: البياض الوردى لفتاة شابة، بعد حافة شهر العسل. تحدثتُ
بصوتٍ عال. كان أحدهم ينام في سرير معلق بالقرب من هناك، فنهض بكل
تأكيد بسبب صيحتي، وغضب، صه... خفضتُ صوتي، لكنني واصلتُ
استعراض التناقضات. كان ذلك هو ما يشغل بالي على الدوام، كما تعرف يا
سيدي: يجب أن يكون الجيِّد جيِّداً، والسيِّء سيِّئاً، أن يكون الأسود في جانبٍ
والأبيض في الجانب الآخر، أن يكون القبيح منفصلاً عن الجميل، والفرح
بعيداً عن الحزن! أريد أن تكون كل المراعي بحدود مضبوطة جيِّداً... كيف
لي أن أتدبَّر أمري مع هذا العالم؟ إنَّ الحياة جاحدة في عذوبتها؛ لكنها تحمل
لنا الأمل حتى من قلب مرارة اليأس. في الحقيقة، هذا العالم مزيجٌ من الأمور
المختلطة جداً...

لكن جوي بيشيغيتتو لم يكن يهमे ذلك. بوصفه رجلاً من الجاغونُسو،
فظاً حتى النخاع، لم يكن يرى أبعد من أرنبه أنفه، لا يتغيَّر. كان يقول: -

ولدتُ. مَنَحَنِي والدي قَدَرِي. أنا أعيش على طريقة الجاغونُسو. قلتُ مع نفسي: - كان كل شيء بسيطاً وصلباً، فلماذا لا أستطيع أنا أيضاً أن أعيش كذلك، مثل جوي؟ لأنه، يجب أن ترى، يا سيدي، ما رأيتُ: بالنسبة لجوي بيشيغيتنو، وبحكم حساسيته الطبيعية، لم يسُدْ خليطاً في هذا العالم - كانت الأشياء مقسمة جيداً، منفصلة عن بعضها. - وماذا عن الرَّب؟ ماذا عن الشيطان؟ - سألتُهُ فكان جوابُهُ: - الرَّب، نحترمه، والشيطان، نبتعد عنه ونطرده من أرواحنا... ما الذي يميز البرق عن الصاعقة، الضباب عن المطر، هناك عاليًا في الغيوم؟ - وهنا، طفقتُ أضحك، ضحكتُ بهدوء أكبر، لأنه كان مسلياً. في تلك الفترة، أيضاً، لم أكن صارماً ودقيقاً جداً في هذه المواضيع. وكان جوي يروي حكايات. حكى. وقعَ حادثٌ بالقرب من موطنه، في سِرَتاو جيكيكتيناو، في قرية ساو جواو لياو. حكاية ماريّا موتيما والأب بوئتي.

في تلك القرية، كانت هناك امرأة تدعى ماريّا موتيما، شخص مثل كل الناس، لا تختلف عنهم في شيء. ذات ليلة، مات زوجها، وُجِدَ ميتاً عند الصباح. طلبت ماريّا موتيما المساعدة، وجمعت كل جيرانها المقربين. كانت القرية صغيرة، وجاءوا عن بكرة أبيهم ليتأكدوا من الأمر. لم يلاحظوا أي شيء خاص، وبما أن الزوج كان ينعم بصحة جيدة في الأيام السابقة، فقد قالوا إنه لا يمكن أن يكون قد توفي إلا بسبب نوبة قلبية مفاجئة. عند زوال شمس ذلك اليوم بالضبط، دُفِن الزوج كما يجب.

كانت ماريّا موتيما امرأة ذات تجربة في الحياة، وفق ما تقتضيه تقاليد السِّرَتاو. إن شعرت بشيء، فقد كان ذلك في دواخلها، إن عانت كثيراً، لم تقل شيئاً، خبأت ألمها دون أن تظهره للآخرين. تلك هي القاعدة هناك، بين أشخاص يحترمون بعضهم بعضاً، فلم يثر ذلك انبتهاء أحد على ما يبدو. ما أثار

الانتباه كان شيئاً آخر: تدينُ موتيما، التي بدأت تتردد على الكنيسة كل يوم من أيام الرب، بالإضافة إلى أنها كانت تقوم بالاعتراف كل يوم. أصبحت تقيّة جداً - قيل - ولم يعد ينقصها سوى خلاص الروح. ارتدت موتيما دائماً ملابس سوداء، وفق العادة، امرأة لا تضحك، تمثال خشبي. داخل الكنيسة لم تفارق عيناها الكاهن.

كان الكاهن، الأب بوئتي، رجلاً شهماً في منتصف العمر، متوسط البنية، سهل المراس، يحظى باحترام الجميع. لكن، احتراماً لشخصك، يا سيدي، وتقديرًا للحقيقة، فقد كان به عيبٌ: لطالما زاغ عن جادة الصواب. فقد أنجب ثلاثة أطفال مع امرأة بلهاء بدينة، كانت تعتني ببيته وتطبخ له الأكل، كان اسمها ماريًا أيضًا، المعروفة باسم «ماريّا الكاهن». لكن، لا تُفكر بالأسوأ، يا سيدي، لترى فضيحة في هذا الوضع - فسابقاً، نظرًا لسيادة الجهل، كانت مثل هذه الأمور ممكنة، والكل يراها عادية. كان الأطفال، الوسيمون المهدّبون «أبناء ماريّا الكاهن». ما عدا هذا، كان الأب بوئتي كاهنًا رائعًا، رحيماً صاحب ضمير، يعظُ في خطبه بكثيرٍ من الفضائل، ويلبي على مدار اليوم نداء كل أبناء رعيّته من المؤمنين ليقدم لهم مواساة القربان المقدس أو الزيت المقدسة.

لكن، ما عُرف بعد ذلك، وتحدث عنه الناس، أمران: لا بدّ وأنّ ماريّا موتيما ارتكبت خطايا كي تحتاج كل ثلاثة أيام إلى توبة القلب والفم؛ وأنّ الأب بوئتي كان على ما يبدو منزعجاً من أن يمنحها أذنا أبويّة في ذلك الطقس الديني، الذي يجري فقط بين شخصين لا غير، ومن الضروري أن يظلّ سرّه محفوظاً بختم مضاعف. بل يُحكى أنّ الكاهن، في المرات الأولى، كان يصيح بعنف في وجهها، غاضباً، في غرفة الاعتراف. بيد أن ماريّا موتيما لم تكن ترفع ركبتهما من هناك، خافضة عينيها، وبتواضع جمّ، حتى أنها لتبدو

قديسة تكابد عذابًا. ثم تعود بعد ثلاثة أيام. لوحظَ أنَّ الأب بوئتي بدأ يتخذ تعبيراً خوفٍ وألمٍ حقيقيَّين ليذهب مرغماً، ويستمعَ إلى ماريًا موتيها. كان يذهب لأنه لا يمكن رفض طلب اعتراف. لكنه كان يذهب بوصفه كاهناً، وليس بوصفه رجلاً، مثلنا.

مرت الأيام، كما يُقال: تابع الزمن سيره، ومرَّض الكاهنُ، أصابه مرضٌ قاتل، كما تبَيَّن بسرعة. كان يضمّر يوماً بعد آخر، وتزداد كآبته؛ تراوده آلام؛ وفي الأخير، غارت عيناه، وامتقَّ وجهه فصارَ كأنه تبَن ذرة قديمة. أثارَ حاله الشفقة. مات حزيناً. منذ ذلك اليوم، حتى بعد أن أصبح لقرية ساوُ جواوُ لياوُ كاهنٌ آخر، لم تعد ماريًا موتيها ثانية إلى الكنيسة، لا لتُصلي، ولا لتطأَ قدماها المكان. هذه أمور تقع. كانت امرأة كُتومًا، لا تنخرط في أي حديث، فلم يستطع أحد أن يعرف كيف كانت تتصرَّف ولا كيف تفكَّر.

لكن، في الأخير، بعد مرور عدة سنوات، حلَّ وقت البعثات التبشيرية، فجاء المبشرون إلى القرية. كانا قسَّين أجنييين، بِنَيَّتين قويَّتين ووجهين محمَّرين، يصدحانِ بعظااتٍ قاسية، ولهما صوتان يتميَّزان بالقوَّة والفظاظة. من الصباح حتى المساء، لمدة ثلاثة أيام، لم يبرحا الكنيسة، يعظان، يستمعان للاعترافات، ينصحان ويقودان الصلوات، بفضل أمثلة حماسية مُجيشُ المؤمنين وتضعهم على الطريق المستقيم. كان دينهما ديناً طاهرًا وحماسياً، يفيض صحَّةً وفضيلةً؛ ومعهما لم يكن ثمة مجال للمزح، لأنهما يستمدَّان من الرَّب قوة سرِّية، وفق ما ستراه، يا سيدي، في بقية حكايتي. إلَّا أن هذا الحظ السعيد سرعان ما كبر في القرية.

حدث ذلك في آخر يوم، أي عشية الغد، إذ سيقام في اليوم الموالي، يوم الأحد، حفلُ المناولة العامة و صلاة الشكر الربَّانية. حدث ذلك مساءً، بعد الانتهاء من المباركة، حينَ اعتلى أحدُ المبشَّرين المنبرَ ليلقي عِظته، وقد دعا

للتَّوْبَانِ يَجْثُو الْمُؤْمِنُونَ مِنْ أَجْلِ صَلَاةِ الْعِذْرَاءِ الْمَلَكَةِ. لَحَظَتْهَا، دَخَلَتْ مَارِيًا مَوْتِيمَا. وَلَمْ تَكُنْ قَدْ ظَهَرَتْ فِي الْكَنِيسَةِ مِنْذُ مَدَّةٍ طَوِيلَةٍ؛ فَلَمَّا ذَا، إِذِنْ، فَكَّرَتْ أَنْ تَأْتِيَ؟

لَكِنْ ذَلِكَ الْمُبَشِّرُ كَانَ يَحْكُمُ وَفْقَ قَوَاعِدٍ أُخْرَى. دَخَلَتْ مَارِيًا مَوْتِيمَا إِلَى الْكَنِيسَةِ، فَتَوَقَّفَ هُوَ فَجْأَةً. صُدِّمَ الْجَمِيعُ، لِأَنَّ صَلَاةَ الْعِذْرَاءِ الْمَلَكَةِ صَلَاةٌ لَا يَجُوزُ التَّوَقُّفُ عِنْدَ مُنْتَصَفِهَا - حِينَ نَبْدَأُهَا جَائِثِينَ عَلَى رُكْبِنَا، يَجِبُ أَنْ تَسْتَمِرَّ الْكَلِمَاتُ حَتَّى النِّهَايَةِ. لَكِنَّ الْمُبَشِّرَ اسْتَأْنَفَ وَعَظَهُ، بِصَوْتٍ مُتَغَيِّرٍ مَعَ ذَلِكَ، كَمَا لَاحِظَ الْجَمِيعُ. مَا إِنَّ قَالِ آمِينَ حَتَّى نَهَضَ، وَقَفَّ إِلَى جَانِبِ الْمَنْبَرِ، مُحْمَرًّا، مِثْلَ جَمْرَةٍ مُشْتَعِلَةٍ، ثُمَّ انْحَنَى، وَجَّهَ ضَرْبَةً قَوِيَّةً إِلَى الدَّرَابِزِينَ، كَأَنَّهُ ثَوْرٌ مُتَوَحِّشٌ. ثُمَّ صَاحَ:

- هَذَا الشَّخْصُ الَّذِي دَخَلَ أَخِيرًا يَجِبُ أَنْ يَغَادِرَ! لَتَخْرُجْ هَذِهِ الْمَرْأَةُ، حَالًا!

مَذْهُولِينَ، حَاوَلَ الْجَمِيعُ رُؤْيَا مَارِيًا مَوْتِيمَا.

- يَجِبُ أَنْ تَغَادِرَ، وَتَخْرُجْ رَفْقَةً أَسْرَارَهَا الْخَبِيثَةِ، بِاسْمِ يَسُوعَ الْمَسِيحِ وَبِاسْمِ الصَّلِيبِ. إِنْ كَانَتْ لَا تَزَالُ قَادِرَةً عَلَى التَّوْبَةِ، فَلْتَذْهَبْ حَالًا وَتَنْتَظِرْنِي، سَأَسْتَمِعُ إِلَى اعْتِرَافِهَا... لَكِنْ يَجِبُ أَنْ تَقُومَ بِاعْتِرَافِهَا عِنْدَ بَابِ الْمَقْبَرَةِ! فَلْتَذْهَبْ وَتَنْتَظِرْنِي هُنَاكَ، عِنْدَ بَابِ الْمَقْبَرَةِ، حَيْثُ دُفِنَ مَيِّتَانِ!...

هَذَا مَا أَمَرَ بِهِ الْمُبَشِّرُ: وَمَنْ كَانُوا فِي الْكَنِيسَةِ شَعَرُوا بِسِيرِ جُنُودِ الرَّبِّ، الَّذِينَ يَشْتَغِلُونَ بِعُمُقٍ وَسُمُوءٍ كَبِيرَيْنِ. كَانَ ذَلِكَ شَيْئًا مُفْزَعًا. أَطْلَقَتِ النِّسَاءُ صَيْحَاتٍ، وَتَرَكْنَ أَطْفَالَهُنَّ. تَمَرَّغَ آخَرُونَ عَلَى الْأَرْضِ، وَلَمْ يَبْقَ أَحَدٌ لَمْ يَجْثُ عَلَى رُكْبَتَيْهِ. الْكَثِيرُ، الْكَثِيرُ مِنْهُمْ، كَانُوا يَبْكُونَ.

كَانَتْ مَارِيًا مَوْتِيمَا وَاقِفَةً لَوْحَدَهَا، نَحِيفَةً مَلْتَوِيَّةً فِي مَلَابِسِهَا السُّودِ. طَفَقَتْ تَبْكِي بِكَاءٍ فِيهِ أُنِينٌ وَتَعَجُّبٌ، أَطْلَقَتْ صَيْحَةً جَسَدٍ يَمَزِّقُهُ خَنْجَرٌ.

طلبت المغفرة! مغفرة قوية، مغفرة صاعقة، أن تنزل عليها الرأفة الربانية، تعاقبها بسرعة، قبل أن تدق ساعة موتها. حينئذ، في عين المكان، راحت تتحدث وسط البكاء، حتى يغفر لها كل أهل القرية بدورهم؛ كانت تعترف. اعتراف رسمي، كما ينبغي، أمام الملائكة، مثال يصيب بالقشعريرة، يُغرِق في الكوابيس من يستمع إليه، ويجعل دمه يغلي، لأن ذلك كان يقلب نظام الأمور ويبعث المجرى العادي للحياة. قالت إنها، مثل نمرة متوحشة، قتلت زوجها - وإنها كانت أفعمى، وحشاً دنيئاً، وبرازاً فاسداً. لقد قتلت زوجها تلك الليلة، دون سبب، من دون أن يصيبها بأي سوء؛ لا تعرف لماذا قتلتها. لقد قتلتها بينما كان نائماً، صبت في ثقب إحدى أذنيه، باستعمال قمع، رصاصاً ذائباً. لقد مرَّ زوجها - هذا ما قالت - من التُّخوم إلى النهاية - من التُّوم إلى الموت، أمَّا الجرح في الأذن، فلم ينتبه إليه أحد. بعد ذلك، حتى تصيب الكاهن بوئتي المسكين بالقرف، من دون سبب ولا علة، كذبت بمرارة في غرفة الاعتراف: قالت، أكدت، إنها قتلت زوجها بسببه هو، الأب بوئتي - لأنها كانت تذوب فيه حباً، وتريد أن تكون خليلته وعشيخته... كان كل ذلك كذباً، لأنها لم تكن تحبه، ولم تكن ترغب فيه. لكن، حين رأت الأب غاضباً لسبب وجهه، أعجبها ذلك وشعرت بمتعة خبيثة كانت تزداد كل مرة، لأنه لم يكن يملك وسيلة للدفاع عن نفسه، فقد كان رجلاً لطيفاً، مسكيناً تقيماً، وكاهناً. وكانت تتردد في كل الأوقات على الكنيسة، لتؤكد الزيف وتزيد فيه - مشيدةً صرح الشر. استمرَّ الأمر على هذا الحال حتى مرض الكاهن من القرف، ومات في يأسٍ صامت... جريمة مضاعفة، وهي من اقترفتها! الآن، وهي تتوسَّل مغفرة الرب، بصيحات قوية، تنتفُ شعرها وتعصر يديها، ثم ترفعها نحو السماء.

بيد أن المُبشِّر، من المنبر، أنشد عاليًا حمداً للرب، تبارك الرب - وبينما هو ينشد، كان يشير إلى كل النساء ليُغادرن الكنيسة، وألاً يبقى بداخلها سوى

الرجال، لأن موعظة كل مساء كانت موجهة فقط لأذان ذكورية، وفق العادة.

وفي اليوم التالي، يوم الأحد، يوم الرب، تزينت القرية كاملة بالأقواس والأكاليل، والأعلام الصغيرة، كما أطلقت الشهب الاصطناعية، أنشد القدّاس، وأقيم الموكب... لكن الجميع كانوا يفكّرون فقط في ماريّا موتيّا، السجينة المؤقتة التي حجزوها في بناية المدرسة، فمُنعت من الأكل ولم تكن تهدأ، وظلت تطالب بالتوبة والعقاب جاثية على ركبتيها وأن يأتي الجميع ليبصقوا على وجهها ويضربوها بالعصي. كل هذا - كانت تصيح - تستحقّه. وفي نفس الوقت، أخرجوا رفات الزوج من القبر، ويحكى أن الناس كانوا يحركون الجمجمة فتتأرجح كرة الرصاص بداخلها، بل وتُصدر رنينًا. وكل هذا من عمل ماريّا موتيّا. لكنها بقيت في ساو جواو لياو أسبوعًا آخر بعد أن غادر المبشّران القرية. جاءت السلطات، مفوض شرطة وجنود، وأخذوا ماريّا موتيّا إلى سجن أراسواي من أجل محاكمتها. لكن، خلال الأيام التي أقامتها هناك، جاء أهل القرية ليسامحوها ويواسوها بكلامهم، وليصلّوا معها. جاؤوها باريّا الأخرى، ماريّا الكاهن، وأطفال ماريّا الكاهن، حتى يغفروا لها بدورهم، فمدّتها كل هذه الأفعال بالراحة والهدى. لقد ذهب بعضهم - أمام هذه البداية المتواضعة من التوبة والمعاناة الواضحة - إلى حدّ القول إن ماريّا موتيّا تتحوّل إلى قدّيسة.

هذا ما رواه لي جويّ بيشيغينتو، قصة تسلّيني بطريقة ما. وما إن انتهى من الحكى حتى سمعنا صفير رجالنا فردّذنا عليهم: كان واحد منهم - بأسب - كان يصل - فخرج بهدوء من الظلام، دون ضجيج، يرتدي نعليه ويحمل بندقية على كتفه. كان ضمن من اتخذوا موقعا في الكمين مع تيتاو باسوس، جاء الآن يحمل أخبارا عمّن استطاعوا أن يتجمّعوا في معقل كباو؛ ويطلب

تعليمات. رجلٌ -نهرٌ، هذا بأسبُ: لم يكن يخشى شيئاً، ولا يكلُّ أبداً. حكى أن الخطط ذهبت هباءً، إمّا لأن رجال زي ببيلو لمحو المتجسّسين، أو أنهم شعروا بالخطر. فالعدوّ، بدل أن يصل مباشرة، التفّ من حولهم: وحتى قبل أن يتوصّلوا بالسؤال كانوا قد نزلوا عليهم بالجواب فأطلقوا نارا خبيثة - قتيلان، رجلان من رجال تيتاو باسوس، رفيقان شهيدان؛ بالإضافة إلى ثلاثة جرحى، أصيبوا بجروح خطيرة. وكان هذا من أمور الحرب أيضاً.

- آه، هل كان زي ببيلو نفسه هناك، على رأسهم؟ شخصياً؟ - سألتُ.
- أكيد أنه كان هناك. الشيطان! - أجب بأسبُ؛ فسأل من يتوفّر على جرعةٍ من الكاشاسا.

بعد ذلك، لا بدّ أنني سألتُ عن ذيادوريم. سألتُ من أجل السؤال، وليس من أجل الحصول على معلومة. بل إنني كنتُ أخشى أن أسمع أخباراً سيئة. لكنني كنتُ محظوظاً حين أجابني بأسبُ:

- رأيته، مرّ بالقرب مني، بل إنه حمّلني رسالة، نعم! وإليك أنت بالتحديد: اذهب وقل نيابةً عني لزيوبالدو تاتارانا: لديّ أمرٌ بسيط أقضيه، هناك حيث أذهب، ليس لوقت طويل، سأعود سريعاً... - هذا ما قال. مرّ بسرعة على صهوة حصانه - أين يمكن أن يكون قد وجد ذلك الحصان؟ لا بد أنه قد أخذه من رجال زي ببيلو، حيوان منسي وسط تبادل إطلاق النار...

سمعتُ ولم أصدّق أذني. هو، ذيادوريم؟ أين كان ذاهباً، من دوني، لا يمكن أن يكون هو، لم يكن ذلك من عاداته. فطلبتُ من بأسبُ المعلومات الدقيقة. كان هو. ولكن، ألم يكن قد تعرّض لجرحٍ في ساقه؟

فلم يستطع بأسبُ أن يجيبني بنعم أو لا - أو بالأحرى لا أو نعم - لأنه لم يلاحظ شيئاً في ذلك الوقت القصير جداً. كل ما رآه هو أن السرج كان

جديدًا تقريبًا، والحيوان حصانٌ كُمِيتٌ ضخم، نحيف، لكنه متوترٌ، لا يتوقَّف عن ضرب الأرض بحوافره.

وهناك، آي، شعرتُ بذلك الألم الغريب في كل أركان جسدي، كما تعرفُ، يا سيدي. بدأتُ أتخيَّل أشياء لا معنى لها. ما الفائدة من أكون وفيًا؛ أين كان صديقي؟ في أسوأ اللحظات، هجرَ دِيادوريمُ صُحبتي. وبعد ذلك هرب، بكل تأكيد، ليلتحق بجوكا راميرو. آه، هو الذي يعرف كل شيء، تخلى عني عن قصد، دون أن يخصّني بكلمة من لسانه، دون أن يودّعني، وهو يعلم، مع ذلك، أنني جئتُ لأصبح جاعونُسو فقط من أجل الصداقة! أظنُّ أنني اغتظتُ. ومع كلِّ ما دار في خلدي من أفكار، شعرتُ، دائخًا، أنَّ أطراف جسدي كانت تتجمّد وأن نوما هائلًا ينزل عليّ، نومٌ مرضٍ، نومٌ مصيبة. فَنمتُ، نمتُ نومَ الموت، نومًا غريبًا جدًّا، حتى أنه في الصباح الباكر جدًّا، كي يوقظوني، اضطروا لصبوا الماء على رأسي وقدمي، وهم يظنون أنني أصبتُ بحُمى النوم. وكذلك كان.

سوف أوجز في الحكى: الفراغ الذي عشته في الأيام الأخرى، أنتظر. منذ أن أنهض من سريري المعلق، بذلك الثقل الليلي في عينيّ. وقتُ الجزر في مياهٍ بحري. وفق طريقي في النظر إلى الأمور: كانت هناك المعاناة التي نعانيها بطريقة قانونية، وهناك المعاناة الممزوجة بالنّدم؛ تمامًا كما توجد السرقة الناجحة والسرقة الفاشلة. أتفهمني، يا سيدي؟ أيامٌ وشمّتُها بعلامة خاصة: كانت أحد عشر يومًا. طبعًا، كانت الحرب مستمرة. هاجمناهم بطلقات نارية متوسطة، مناوشة ونصف معركة. هل يستحق هذا أن يُحكى؟ بكل تفصيل ودقة، إن كنتَ تلحُّ على ذلك، سأصفه لك. لكنني لا أضمن لك أي قيمة. الحياة والحرب هما ما هما: حركتان غبيّتان، هما فقط ضدَّ ما لم يكتب له أن يكون. لكن بالنسبة إليّ، ما له قيمة هو ما يوجد تحتها أو فوقها—ما يبدو بعيدًا

وهو قريب، أو ما هو قريب ويبدو بعيدًا. إنني أحكي لك ما أعرف وأنت لا تعرفه؛ لكنني، على وجه الخصوص، أريد أن أحكي عما لا أعرف إن كنتُ أعرف، وربما تعرفه أنت. الآن، إن اشتَرطَ ذلك، يا سيدي، أقدم لك الآن بالضبط سردًا كاملاً - بنهايته وكل شيء - من ثلاثين معركة. أتذكرُ ذلك. خلال كل مواجهة، يمكن أن نحصي حتى عدد الرصاصات التي أطلقت. هل أحكي؟ عمّا عانينا، عن طلقات النار العشوائية، والتي كنا نطلقها مثل المرحين، وسط الزراعات المسكينة للآخرين، في مزارع قصب السكر، بصوفها الخضراء المرحية أو لُقاط الذرة الميتة، التي كُنّا ندوسها ونكسرُها. وحين تنددن البندقية كثيرًا، من خلال طلقاتٍ في كل الاتجاهات، كنا نضع يدًا على شكل محار حول الأذن، دون أن نعرف لماذا، كأننا نأمل أن نفلح بمعجزة سماع صوت صغير مختلف، أيّ صوت آخر غير ذلك الضجيج الذي يصمّ الأذان. وحين ينزل مطرٌ وابل، يلغي الغاية من المعركة، فيبللنا حتى العظام، ويغرق أسلحتنا. وعندما ننظر دون احتراز إلى التلّ قبالتنا، فيطلقون علينا النار فجأة من تلك القمة الجرداء. أو عندما نعبّر فنقع في ثقبٍ وعلينا، والماء يصل إلى صدورنا، أن نلتفّ ونطلق النار صوب العدو. أو كيف، في ظرف ساعة قصيرة، وجدّثني مضطرا لأحمل البندقية على كتفي وأطلق النار، في وضعية سيئة، على الحدّ بين حقلٍ وغابة، أن ألتفّ حول رأس تلّ صخري، أنزل وأصعد سلسلة من الدروب الصغيرة المنحدرة، أختبئ تحت شجرة وراء حاجز، أتسلّق شجرة أكاسيا وشجرة بيكيزيرو، أستلقي فوق زرقعة لوح حجري وأتدحرج فوق سرير من ثفل قصب السكر الرخو، لأقتحم، في النهاية، أحد البيوت. كيف كان الرفيق يسبح في دمه وفي تلك القذارة من أحشائه، أحشاء بطنه، يعانقنا، تحت سطوة الألم، وكيف قام في النهاية بلعن أبيه وأمه كما ينبغي. كيف أننا كنا نحارب في حرارة رطوبة،

حرارة جهنمية، وفجأة جعلنا الغيظ والغضب كلنا سواسية، يصيح بعضنا في وجه بعض، أصداءً ومتعارضين، نفس الصيحات - حتى أننا اتفقنا أن نتخلي عن أسلحتنا النارية كي نقرب ونهني ذلك بالأسلحة البيضاء. هكذا كان. شيء يفيض عن الحاجة. هل تريد أن تعرف المزيد؟ لا. كنت أعرف أنك لن تريد. كفى من القتل. إنني أقدر كيف أنت، يا سيدي - رجلٌ حكيم متبصر.

لنعد إلى حيث كنا. دفعتُ بتلك الأيام، أستبدل شوقي إلى ذيادوريم بغضبٍ زائف. داهمتني المראה. كنتُ أرى نفسي مثل قشرة فاكهة على الأرض، صورة الاحتقار، بالإضافة إلى كل ما نشعر به في مثل هذه الظروف، كما تعرف، يا سيدي، وتعلم جيدًا. لكن أقطع ما كنت أشعر به: كأنهم انتزعوا من دواخلي اللبنة الأساسية ودعائم البناء. وكما يحدث دائمًا، حين نكون بمزاج سيئ ومن دون إرادة، كنتُ أجترُّ أفكارٍ. تذكرتُ ما همس به أنتينور مثيرًا فضولي، فوجدتُ شكوكه على صواب: من يدري، حقًا، إن لم يكن هدف جوكا راميرو هو أن يتركنا للنلقى نهايتنا في حربٍ قدرة في هضبة السرتاؤ؟ وربما كان ذيادوريم يعرف ذلك، يشارك في المؤامرة، ولا بدَّ أنه ذهب ليلتحق بجوكا راميرو - الشخص الوحيد في هذا العالم الذي كان يُقدِّره بما يكفي. شعرت بخيبة في أعماق ذاتي، وسقطتُ في خمولٍ. لكنني بصقتُ ثلاث مرات على الأرض، ومحوتُ ذيادوريم من أفكارٍ. فرجلٌ مثلي لا يستطيع بتاتا أن يحتفظ بقسط من الحبِّ، ما إن تطاله كثير من إهانات الاحتقار. إلا أن ما وقع، بعد ذلك، هو أن الروح تُصاب بعلة إلى حد ما. أقول، إنني أُصبتُ بالخمول. خطر لي أن أتحدث مع أنتينور. لم أفعل. لن أتقاسم مثل هذه الشكوك مع أشخاص غرباء. ولم أحب الفضوليين قطُّ، لا أتحدث أبدًا مع مثل هؤلاء: لا أدرش معهم ولا أتكلَّم. حتى أنه كان هِرموجينيس نفسه

هو من نادى عليّ يوما وفتحني قائلا: - إيه، أنت شجاع، يا تاتارانا! يعجبني فيك هذا الإقدام...

- تحت أمرك، سيدي - قلتُ فقط. إذ سرعان ما لاحظتُ من هيئته أنه كان سيقدم لي خدمة عفوية، أو يبشّرني بخبر سارّ. كما يفعل أي أحد مثله، في مناسبات كهذه، فيغير فجأة طريقة تصرّفه: ينتهز ضحكة ليحدثك من فوق، بنبرة سيّد لطيف أو أبٍ مُتنازل. ولم أكن مخطئا. ما كان يريد هِرْموجينيسُ أن يعدني به هو أنه قريبًا سوف تنتهي تلك الأخطار والمعارك، بعد القضاء على رجال زي بيبيلو، وحينها سنكون أكثر حرية كي نشتغل بشكل أفضل، بالهجوم على أحسن الأماكن، في خدمة القادة السياسيين. وأنه كان ينوي، ما إن تسنح الفرصة، أن يختارني لأقود جزءا من رجاله، لأنني أتوفر على الكفاءة الصلبة - قائداً لمجموعةٍ من الرجال.

كل هذا الإطراء لم يغير شيئاً في نفسي. تركته يتحدث. فقط اغتنمتُ الفرصة، وأنا أسبر نواياه، لأسأله: - وجوكا راميرو...؟ - قلتُ بضحكة ماكرة، يمكن أن تتخذ أي معنى غامض بين اثنين. وانتظرتُ. لكن هِرْموجينيسُ أفلت من السؤال قائلاً فقط، بكل جدٍّ وثقة: جوكا راميرو قائد شجاع، حقاً، في الواقع. مراوغة من هِرْموجينيسُ؟ لا، يا سيدي. إنني أعرف ورأيتُ، كان صادقاً. لماذا كانوا جميعاً يحترمون هكذا جوكا راميرو ويشنون عليه ثناء لا يشوبه شكٌّ؟ أقلقني ذلك بعض الشيء. لكن، منذئذ، ظلت تورقني مخاوفي تجاه هِرْموجينيسُ، وهي المخاوف التي كنتُ بحاجة لأحوّلها إلى غضبٍ. لذلك، قلتُ مع نفسي: - هذا الرجل، سأرفض أن أقدم له الماء، ولو في وعاءٍ - فمدّني ذلك الشكل من التعويذة بالطّمأنينة. وكنتُ بحاجة لذلك. حتى أنني لم أكن أرغب في أن أفكر في هِرْموجينيسُ هذا، لكن التفكير فيه كان يخطر ببالي دون هوادة، وأنا تحت سحره. بمعنى أنني كنتُ

أفكر فيه مثل جلّادٍ، سيّدٍ، لفرط ما كانوا يتحدثون عن وحشيته وقسوته. في البداية، كان ذلك يصيبني فقط بقشعريرة من الرعب، فيرفض ذهني قبولها. لكن، شيئًا فشيئًا، بدأت تُدغدغني الرغبة في معرفة كيف يمكن أن يكون ذلك ممكنًا، وأتحيلُ. أقول لك، يا سيدي: إن كان يوجد الشيطان، ويمكنك أن تراه، يا سيدي، فإنه لا يجب ولا يليق بك أن تتجسّس عليه، ولو لثانية واحدة! - لا يمكن القيام بذلك، لا يجب أن نفعل ذلك! إلا إذا كانت الأمور تصير سوداء - وأغمضنا عيوننا.

ولفرط ما بذلتُ من جهد كي أنسى ذِيادوريم، فقد ترك ذلك في نفسي بدايةً من الحزن عن كل شيء، وحالة من التعب. لكنني لم أكن أتأمل الماضي، ولا أتوقف عنده أبدًا. كانت رحلة حزينة، لكنها ضرورية. ماء النهر الذي يجرفنا. أما عن دَوامِها، فقد دامت تلك الرحلة؛ شهورًا بكاملها. الآن، لم تعد تهمني. اليوم، أفكر، أنظر: أعتقد أن أحاسيسنا تذهب وتعود، لكن بطريقة، تدور حول نفسها لكن وفق قواعد معينة. هل تتحوّل المتعة إلى كثير من الخوف، ويتحوّل الخوف بدوره إلى حقد، والحقد إلى أشكالٍ من اليأس؟ إنَّ اليأس يصبح حزنًا شاسعًا، وخاصة ذلك الحزن المرتبط بحُبِّ ما - كثير من الحنين... وهنا يكون زمنٌ أملٍ جديد قد بزغ... لكن الجمرات الصغيرة لكل شيء ليست سوى نفس الجمرة الوحيدة. ابتكار شخصي، يخطر على بالي. ما كنتُ أودّ أن أمتلك هو علّمك، يا سيدي، لأنه ينير الطريق لدراسة مثل هذه الأمور...

بدأتُ أبحث عن طريقةٍ تسليني، وأنا أختلط بالآخرين. وأنا أتحدث مع كاتوشو، مع جوي بيشيغيتنو، مع فوفي، مع فينجو - أكثرهم حكمة - أو مع أومبيلينو - بوجهه الذي يشبه وجه القطّ. كنا نضحك، خارج عناء المعارك، ونتسكّع كثيرًا. لم أكن أشعر بالراحة ولا بغياها في تلك الأجواء. يأتي أمرٌ

فتتجمّع عن بكرة أبينا، ثم نتفرق مرة أخرى في مجموعات صغيرة. كانت الحربُ هي نفسها. وهنا، لم يكن لنا بُدٌّ من الشعور بالنقصان وعدم الكمال، كما يحدث في كل شيء، بطريقة حادة. أليست مياه نهر ساو فرانسيسكو عكرةً على الدوام؟ وكان أكثر ما نتحدث عنه غالباً هم النساء. كنا نشعر بحاجة ماسة إليهن. كان كل واحد منا يريدهن، لا يفكر سوى في ذلك. الفتيات المناسبات كي نلمسهن، أو شارعٌ مبتهج يفيض مرحاً - هذ الشيء الجميل، الأحسن كل مرة. أو مَبِيلينو، أحد أصدقائي، كان يقول بما أنه ليس هناك من نساء، يجب أن نتذكّر كثيراً. كان يتحدّر من سيروبيم، مكان على النهر، وراء الشلالات. كان رفيقاً جيداً، بارعاً في استعمال السلاح. ورغم قصره، فقد كان ماهراً. يتذكّر كثيراً: - لقد حظيتُ بامرأةٍ لطيفة لي أنا وحدي فقط في ساو روماو، شارع رومارو، وأخرى في شارع دو فوغو... - أحاديث تمضي في حرارة كبيرة. تلك الحرارة التي تُخرج فيها الكلب لسانه، كما تعرف، يا سيدي. هل رأيت ذلك هناك؟ في جانوازيا كما في ساو فرانسيسكو، كان هناك فصلٌ من العام لا يمكن أن نحفظ فيه ببيضة واحدة: لا تمرُّ ساعتان أو ثلاث ساعات حتى تفسد. كانوا جميعاً يحكون قصص فتيات غير ممانعات: من تلك الوقحات. لكن، ليلاً - من يصدق ذلك - كنا نعرف من يبحث عن مواساة دنيئة وكافية. كانوا محاربين شجعان خطيرين، لا يعرفون نوعاً آخر من الحياة... تلك الأمور. فيما يتعلق بالغناء، كانوا يغنون، طوال اليوم، ولم يكن أي واحد منهم يحفظ بيتاً شعرياً صحيحاً، أو لا يريدون أن يُعلّموا الآخرين، فلا يغنون سوى تلك المرتجلات، ويخنّون في الغناء. أو كانوا يمضون الوقت في المزاح والسخرية كأنهم أطفال صغار. ومن فرط هذا الفراغ وقلة ما نفعل، كنا نأكل أكثر، فقط من أجل التسلية. كان البعض يذهبون لقطع الجّمّار، وقطف المنيّهوت في الحقول الصغيرة المهجورة، لأن

صاحبها كان قد هرب من هناك منذ مدة. بدأت أحبُّ أكل الفولِ البرِّي، وكنتُ أكل كثيرًا ثمرات فاكهة السَّبُوتة، وفواكه أشجار الجاكا والكيسابَّا. كان فونفريدو يملك كُرَّة قَرْنٍ فنتسلى باللعب بها. نلعب ونراهن بقليل من المال. لكن، كان هناك بعض الدُّهاة الذي يراهنون حتى بالتائم المعلقة حول أعناقهم، مع كل الاحترام لك، يا سيدي. وكانوا يتاجرون بتلك التائم، بل كان البعض يجد تائم زائفة. هل يسامح الرَّب؟ يمكنك أن تطرح هذا السؤال: إنَّ الرَّب، بالنسبة لأي جاغونسو، كان سيِّدًا متقلب المزاج، أحيانًا يمنح العون، ولكنه في أحيان أخرى، من دون سبب، يتركك هناك - انتهت الرعاية - فتزل الضربات قاسية! كانوا يصلُّون. بل أنَّ جوي بيشيغيتنو ذهب إلى حدِّ دفع الكثيرين إلى الانخراط في صلاة تُساعِيَّة؛ تُساعِيَّةٌ كانت تُؤدى بشكل سيء، تشريفا لقديس يَخْصُه بولاءٍ خاص، لكنه لم يملك ما يكفي من المثابرة ليكمل عدد الأيام المحددة لذلك.

و - لكن - هِرْمُوجِينِسْ؟ تابعٌ وصفي عن كُتب، يا سيدي: كان يأتي، ضاحكًا مازحًا مع الآخرين، دون عجرفة، لكنه ماهر كالثعلب. في تلك الأيام، كان يمشي حافي القدمين، وفوق ذلك، كان يرتدي سروالًا قصيرًا ضيقًا عند ربلتي الساقين وقميصًا مَسْخًا. بلحيته الطويلة، كان يبدو مثل متسوّل تقريبًا. يمشي بخطوات واسعة، وكثيرًا على أطراف الأصابع، يحوم وابتسامة غبية على شفتيه، يتجسس في كل مكان. هل كنتُ لا أزال أراه شخصًا كثير الادِّعاء؟ هكذا كان يبدو، كان كل الوقت يدبّر واحدة من حيله.

طرحْتُ سؤالا على نفسي. كيف كان ذلك الرجل فعلاً في حقيقة أمره؟ قال أحدهم إنه متزوج، له امرأة وأطفال. كيف يمكن أن يكون كذلك؟ مسكين أنا، الحريص دومًا على فهم طبيعة هذا الرجل، التي تحولت أكثر

من طبيعة كل الرجال الآخرين، براءة ذلك الخبث. طبيعة تجعلني أجنّ. هِرْمُوجِينِسْ، في مكان ما، داخل بيت رفقة زوجته، يلهو مع أطفاله في سن صغيرة، ويعلمهم بعض الأمور. ثم يرحل. هل صار رجلاً ذنباً؟ أمام من كان يجري، وماذا كان وراءه؟ ارسم علامة الصيب، يا سيدي! هنا، تمّنت فعلاً لو أنه ذهب إلى الجحيم، جحيم؛ كان ذلك ضرورياً. وسيكون الشيطان: مخبئاً، مجنوناً تماماً - هكذا بشكل لا رجعة فيه.

آه، هل جننت؟ هِرْمُوجِينِسْ، غريب الأطوار، مختلف. بدأت أفاجئ نفسي كثيراً، وأنا أحوم من حوله، أريد أن ألاحظ كل ما يقوم به، أستمع لملاحظاته. شيئاً فشيئاً، بحافز من وخز اللائقين، ما عدت أفكر في شيء آخر. هِرْمُوجِينِسْ - كان يثير الشفقة، كان يثير الخوف. لكن، في بعض الأوقات، كنت أجدس: نحن لا يمكن أن نشفق على الشيطان، أي شفقة وليس هناك من سبب لذلك. إن الشيطان يتوقف بلطف، بلطف كبير، حزينا جداً، فتقف بالقرب منه لترى - وفي تلك اللحظة، يثب، يطفق يقوم بلفات ويتلوّى، يقول كلاماً بذيئاً، يحاول أن يعانقك وهو يقوم بتكشيرات فظيعة - فمه متسع جداً. لأنه - لأنه مجنون لا شفاء له. كله خطراً. في تلك الأيام، كنت بدوري مضطرباً جداً.

- هل كان هِرْمُوجِينِسْ بدوره يحب النساء؟ - أردت أن أعرف، فسألت. - إيه، لا يمكن أن نقول إنه يقدرهن. إن كان يحبهن، لا أستطيع أن أقول... - قال أحدهم. - أعتقد أن ما يحبه أكثر هو ما يشعر به من متعة شخصية، أكثر من أي شيء، أكثر من أي شيء... - تدخل آخر قائلاً. إذن، كان كذلك - بقيت منذهلاً من ذلك: هل كان كل الرفاق يعرفون ذلك، ويعتبرون أن فعلاً من ذلك النوع كان ممكناً وطبيعياً؟ كيف أنهم لم يصدموا لذلك؟ حتى أنه، من أجل إطلاعي على الأمر، أضاف أحدهم: - على بعد ستة فراسخ من هنا،

يوجد وادي بُريجينيو - وثمة فتيات هناك... - أعتقد أن دوتي هو من قال ذلك؛ أو شخص آخر. لكن كاتوشو نفى الأمر: ذهب إلى هناك، لم يكن ثمة أثر لأي من بنات الهوى، ولا أثر، فقط محلٌ بقالة بائس في القرية، وفي انفراج باب أحد البيوت امرأة طاعنة في السن، تدخن غليونًا وتنسج غرايل. أرادوا نساءً لهذا الغرض، هذا شيء طبيعي، وأنا أيضًا كنت أريدهن لذلك. كنتُ أريد ذلك بكل وجوه جسدي، لكنني كنتُ أرغب أيضًا في فهم شيء من الحنان واحترام أكبر - وكنت دائمًا ممتنًا لمن تجدن بهذا العسل، ولا أبخل عليهن بالمديح. لا أتذكر لمن تتعاملن معي معاملة حلوة؛ فقد كنتُ طوال حياتي، حمدًا للرب، أقدر كلّ المومسات، تلك النساء اللواتي هن شقيقاتنا تمامًا، ونحن بحاجة إليهن كما نحتاج كثيرًا إلى طبيتهن. لكن ليندوريفيكو كان يتذكر حفلة، في قرية، بعيدًا بعض الشيء: إيقاع الطبول، موسيقى الأكورديون المتصاعدة، الكاشاسا الوفيرة، والنساء يرقصن رقصة شرقية، يخلعن ملابسهن، ورجال يأخذون نساء إلى الغابة، تحت جناح الظلام؛ وآخرون يبحثون عن شجار. لماذا؟ لماذا لا نستمتع بكل شيء، لكن بأدب، دون خشونة؟ كان تعلم كل ذلك يصيبي بالحزن. هناك أمور ليست سيئة في حد ذاتها، لكنها تثير الشر لأنها انحرفت عن طبيعتها وصارت مختلفة عما كانت عليه. تمامًا مثل عصير قصب السكر الذي يصبح لاذع المذاق. الحياة أمرٌ في غاية الخطورة، لقد قلتُ لك ذلك من قبل، يا سيدي. أما الباقي، فلا أذكره جيدًا، لكنني أعرف أنني، كلّ تلك الفترة، كنتُ غافلاً جدًا. أين كان ممكناً أن أجد ما يُسلّيني؟ في الصباح، وأنا أستيقظ، كنتُ أستعيدُ غضبي دائمًا. قال أحد الرفاق إنني كنتُ أكثر اخضراراً، أبدو مريضاً - وأن ذلك لا بد أن يكون من داء الكبد. هذا ممكن، وكذلك كان. كان بأسبُ يعد الطعام فحضر لي شايًا بالأعشاب - ينسون، شيح، بابونج. ألم. شعرتُ بألم حقيقي كما لم أعرف مثله قط. كنتُ أسقم فقط.

حدث مرة أنه، لعلمي الشخصي، فهمتُ قشرة شيء ما. أنه، حين أكون غاضبا هكذا كل صباح ضدَّ أحد ما، يكفي أن أغير وأرغب في أن أفكر في شخص آخر كي أصبح بسرعة غاضبا ضدَّ هذا الشخص الآخر أيضًا، بنفس الطريقة تمامًا. وكان كل الأشخاص، واحد تلو الآخر، ممن أتوقف للتفكير فيهم، أشعر نحوهم بحقدٍ يصعد بداخلي، حتى وإن كنتُ صديقًا مقربًا منهم ولم يسبق لي في أي لحظة أن شعرتُ نحوهم بأي ضيم أو شكوى. لكن رواسب تفكيري تُغيّر الذكريات، فأنتهي دائمًا بأن أجد أن ما قالوه في يومٍ من الأيام كان بنية إهانتِي، فأعطي لكل الأحاديث والأفعال معنى مُذنبًا. هل تصدّقني، يا سيدي؟ وحينئذ وضعتُ الإصبع على الحقيقة الحقيقية: إنَّ هذا الغضب في نفسي ينبع من ذاتي وليس من أي شخص آخر، مثل شيء أعمى وعفوي. لم يكن للناس ذنبٌ فيما كانت أفكارِي تدور حوله في مثل تلك اللحظات. اليوم، وأنا أتأمل جيدًا هذا الترتيب السري للوجود، أتساءل: هل يكون نفس الشيء حقيقيا تحت نشوة الحب؟ جنونٌ. ساعِني مرة أخرى، يا سيدي. لكني، في تلك المناسبة، تذكّرتُ من جديد نصيحة أسداها إليّ زي بيبيلو في نيانفا. قال إنه يستحسن أحيانًا أن نتظاهر بالغضب، لكن الغضب الحقيقي لا ينبغي أن نسمح لأنفسنا أبدًا أن نشعر به. لأنه، حين نشعر بالغضب تجاه شخص ما، فإن ذلك يكون مثل السماح لذلك الشخص أثناء ذلك الوقت بالتحكُّم في إحساسنا وأفكارنا؛ فنقد بذلك سيادتنا ويكون ذلك بلادةً من طرفنا، وهذا حقيقة. كان زي بيبيلو يتحدث دائمًا مثل آلة يقين - ذكاء خالص. فهمتُ. عملتُ بنصيحته. أي أنني قاومتُ، فبقيت ثابتًا حتى لا أنساق وراء مزاجي السيء. أتذكّر أيضًا أنه في ذلك الصباح كان الحرُّ أقلَّ وطأةً، والهواء أكثر لطفًا. كنتُ في سلامٍ مع نفسي - برغبة في الفرح - كأنني أتلقي رسالة ما. تأخرت كثيرًا وأنا أتلكأ، وحيدًا على حافة الماء،

أصغني لزقزقة طائر: شحور أو وقواق. فجأة، أعتقد أنني صدقتُ ما رأيته عيناى: ذىادورىم، كان ذىادورىم يصل، وقد توقف بالقرب منى.

بل قال لى بنفسه، وهو يستم ابتسامة صادقة:

- كيف كانت أمورك، يا زىوبالدو؟ ألسَ مسرورا لرؤيتى؟

مفاجأة سارة، عاد ذىادورىم كأنه معجزة بيضاء. علمتُ ذلك من نبضات قلبى. لكن، هنا كانت بقية من الشك: هذا الشك العميق، الذى يقوّضنى حقا، رغم سعادتي. كنتُ أنا المانح وكان هو الآخذ. فبقيت متحفظا، لا أظهر له شيئا. انتظرتُ أولى كلماته. أن يقول أكثر- انتظرتُ قبل أردّة، وتنحنحتُ.

- حسنا، بخير. أين كنتَ، إن كنتُ أستطيع السؤال - قلتُ، فى النهاية.

كانت تلك الصداقة الدقيقة، المختارة مدى الحياة، بادية فى عينيه الواسعتين وهو يقول:

- أنت أيضا، حالتك الصحية ليست أحسن حالا، كما أرى يا زىوبالدو.

ألم تكن على ما يرام فى الأوقات الأخيرة؟

- أعيش قدرى، بين صراعات وحروب!

وهنا مدّلى ذىادورىم يده، التى تقبلتها على مضض. ثم راح يحكي. قضى تلك الأيام فى عزلة داخل الأدغال ليعالج نفسه من جرحٍ على إثر طلقة نارية أصابته فى الساق، قرب الركبة، لكنها خدشته بالكاد. زاد ذلك من حيرتى وارتباكى. فى الحقيقة، لو كان جريحا، لماذا لم يعد إلينا كما كان ينبغي له، ليتلقى المساعدة والعلاج؟ إن مريضا لا يهرب إلى مكان بعيد، أو إلى الغابة، ليتوحّد مع نفسه، كما تفعل الحيوانات. هل كان يقول الحقيقة؟ أظنُ أنني، هنا، كنتُ أراكم الشكوك: أين ذهب ذىادورىم، ولأى غاية خبيثة كان يبتكر تلك الحكاية؟ تلك الشكوك التى داهمتنى، ولم تدهمني. وهو، لطيفا،

كان يتحدث بصراحة، من دون أن يشك في شيء؛ وعيناه، كما كانتا تريان وتُظهران، كما كانتا تعشقان، لم تكونا تتركان مجالا لأي تظاهر. كان نحيفا، متهالكا، شاحبا جدًا، بل كان لا يزال يعرج بعض الشيء. أي حياة صعبة كان يستطيع أن يعيشها طوال كل تلك الأيام المتتالية، من دون مساعدة أي كان، يداوي جراحه فقط بالأوراق وجذور النباتات، وماذا كان يأكل؟ لا بد أنه عانى من الجوع ومن كل أنواع الحرمان. وفجأة، كنتُ أحبه بطريقة هائلة، أحبه أكثر من قبل، قلبي تحت قدميه؛ وقد أحببته طوال ذلك الوقت - حبٌ أحببته - وآمنتُ بذلك يومئذ. قل لي، يا سيدي، أليس ذلك هكذا دائمًا؟

بالإضافة إلى هذا، كانت ذلك وقتا مناسباً لإحساس هادئ: شيء تساومه الحياة أكثر من أي شيء آخر. الحياة لا تمهلنا وقتاً. كان علينا أن نعود، في الأيام الموالية، لنستأنف الحرب، وندخل في مواجهات جديدة. وهكذا فقدت خيط المناورات والتنقلات، والسبب الحقيقي لما كنا ننفذه من تعليمات وأوامر. لكنني سرعان ما صرتُ قاسيا، كي أضمن حصتي من شخصية الجاغونسو، وصرت أتعقها. وكان ذبادوريم الآن على مرمى حجر من حُبِّي، وهو ما كان أكثر قيمة من كل تلك الأخطار الفعلية. ثم إن الحظ كان إلى جانبنا أيضًا، وهناك رأيتُ: كان الموت لمن يموتون. حقاً؟

هكذا، تحت قيادة جَواو غوانيا، انطلقنا حوالي خمسين فرداً، لنلقي القبض على قافلة من الدواب لرجال زي بيبيلو، كانت تمرُّ ليلاً دون أي احتياطات كبيرة، في ينتو بيدرو، في خليج نهري به حقول رُز. لم يكلفنا القبض عليهم كثيرَ عناء، أصيب المراقبون بالهلع فلم يطلقوا صيحة لاستعمال السلاح وجعلناهم يفرُّون. كانت الشحنة كبيرة جداً، ضعف ما كان متوقعاً، ثورة حقيقة - وكان بها كل شيء، حتى الكاشاسا، من صنف خاضع للضرائب، صناديق يحتوي كل واحد منها على ثمانٍ وأربعين قنينة. ثم أخذنا قافلة البغال

لنخبثها في كَبَابُ دوسْ أوسوسْ، حيث كانت هناك أشجار البلوط وطرق
وسط النباتات، مع بحيرات جفّت مياهها: طحالب مخضرة. بعد ذلك، في
بوسو تريستي، تلقينا أمرا بركوب خيولنا من جديد. كان ذلك فرحا حقيقيا.
كانت روعي مبتهجة: الخيول تركض، ما تثيره من غبار وكيف كانت تصهل.
شربتُ عمداً الماء من داخل زهرة نبات الغرافاتا. بيوتُ عناكب نُسجت
عبر سنوات طويلة كانت تربط الأشجار ببعضها. كان يبدو أن الحرب قد
وضعت أوزارها نهائيا. - وأخيرا! - قال أحدهم - لنستمتع بالحياة الآن... -
لكن - وزى ببيلو؟ - سألتُ. جاء فيديريكو شيشيو يحمل رسالة، وقال خيرا
محبطا: - إيه، زي ببيلو في الطريق، رفقة جحافل من الناس... - وعلى بعد
عدة فراسخ من هناك، كانت الحرب مستعرة. والأخبار تتقاطر علينا. فجأة
- وصل سيلٌ من الفرسان، جاؤوا يركضون، منبطحين على الأرض. - إيه،
ها قد وصلوا! - لم يكونوا هم، كان فقط سو كانديلازيو، على حين غرة. ظهر
مع ذلك العدد الهائل من الرجال.

توقف الحصانُ فجأة حتى أن جسده تقلّص إلى النصف. كان سو
كانديلازيو طويل القامة، داكن البشرة، أزرق دакن تقريباً، وله شاربان
أصفران. رجل مقاوم. رجل حماسي. كان قائداً حقيقياً. في ساعة النار، كان
يندفع أمام الجميع، ويصيح مثل حمار. كان قد أخذ زمام القيادة العامة، وكان
هزموجينيس، تحن أوامره، يبدو رجلاً مسكيناً. لذا فإن سو كانديلازيو كان
هو الرجل المناسب لمواجهة زي ببيلو. مُنقذٌ في كل الحالات. ترجل وظلّ
يُديرُ إلينا ظهره بعض الوقت.

حيثُ فافافا، الذي كان أيضاً من رجاله: كان ألابي وفافافا قد ظهرا
من جديد مع جماعة سو كانديلازيو في نفس الوقت. فافافا: ما قاله لي
لاحقاً، في مناسبة فظيعة... آه، ولكنني لم أحك ذلك بعد: قصة السجين.

أولاً، كيف حدث ذلك، بينما كنا مختبئين في مخابئ آمنة، في تيمباتوفاكا، في بيت أحد المزارعين، بيت طُلِّي بالجير، وُعُطِّي بالقرميد. كان جزءٌ من رجالنا في الكهوف، وجزء آخر فوق الأشجار، بل منا من كان في زريبة الخنازير، يتمرَّغ في الوحل. وهنا، وصل رجال زي بيبيلو- حوالي ثلاثين؟ اغتمنا تردُّدهم وأطلقنا عليهم النار، فقتلنا منهم من قتلنا، وهرب الآخرون. ألقينا القبض على واحد منهم. لم يكن به أي جرح. - ماذا سيفعلون به؟ - تساءلتُ. أَلن يقتلوه؟ - هذا صحيح، أظن ذلك. هل تتصور، يا صديقي، أننا نملك وسائل تسمح لنا بأن نحتفظ بسجين؟ كنا نقطع رؤوسهم ونحن ننحرهم من الوريد إلى الوريد... - هذا ما أجابني به فافافا. وكان محققاً فيما قال. لكن، من سيتكلّف بإنهاء حياة ذلك الشاب المسكين؟ هِرْموجينيسُ؟ لا يمكن أن يكون أحداً آخرَ سواه؟ فركتُ عينيَّ، كنت أريد أن أعرف ولا أريد أن أعرف. لم أكن أعرف حتى اسمه، اسم ذلك الشاب المسكين الذي سيموت هكذا مجبراً - لأنه لو أطلقنا سراحه سيهرول ليلتحق بالآخرين، ويوشي بنا. نزلتُ نحو ضفة الجدول. رأيت كيف اقتادوا الشاب، وكيف كان هذا الأخير يتوجه نحو ما ينتظره على قدميه، يمشي عادياً. لا يمكن لظلم كهذا أن يوجد! أمّا مَنْ رأيتهُم يمرّون بعد ذلك ليقتلوه بكل تأكيد، فقد كانوا آخرين: لكني لم أرَ هِرْموجينيسَ. واحد يدعى أديليسيو، قادر على القيام بأي عمل خبيث، طاووسٌ مزهو بنفسه على الدوام. والآخر، لويس باجييو. قلتُ مع نفسي، المسكين سوف يقتلونه، هكذا، هناك تحت أولى أشجار الغابة. من فرط القلق والشفقة، تحسّستُ تفاحة آدم في عنقي، وشعرت بنفسي أحترق. لا يمكن أن يكون هذا إلّا حلماً، كابوساً فظيعاً؛ أو إن لم يكن كذلك، فقد كنتُ بحاجة لواقع أكثر واقعية، دون هذيان! جثوتُ على ركبتيَّ في ضفة الجدول، انحنيتُ، شربتُ، فمي في الماء، وباقِي وجهي،

مثل كلب، مثل حصان. فلم يطفأ ظمئي، وانتفخ بطني وتمدد مثل بطن ضفدع، وصار مثل كيس واسع. على بعد مئات من الأذرع نحو العالية، في المكان الذي يعبر فيه الجدول الغابة، كانوا يسفحون الشاب، فراقبتُ الماء، أنتظر أن يجري ممزوجاً بدمٍ أحمر. ولم أكن أستطيع أن أتوقف عن شرب ذلك الماء. أظن أنني كنتُ أعاني من الحمى.

تلك الصيحة الفظيعة التي تصيبُ بالقشعريرة. سَحَبَنِي ذِيادوريمُ نحو الخلف. ركب سو كانديلازيو من جديد على صهوة حصانه، وراح يعطي أوامر سريعة: كان يريد مجموعة من الرجال، ليذهبوا إلى إيّجّا، وراء نهر برو، في الحال. - هيا بنا، يا زيوبالدو، إنه من أجل انتظار جوكا راميرو... - هكذا سَحَبَنِي ذِيادوريمُ. ركبْتُ الفرس. وضعتُ ساهياً قدمًا في الرّكّاب، لكن قدمي الأخرى لم تجدِ الرّكّابَ. - أسرع، يا زيوبالدو! - كان ذِيادوريمُ يقرّعني. وكانت كُلُّ تلك الحكاية تشغل بالي - لكن، هنا، من رأيتُ؟ الشاب، نعم، ذلك السجين، حيّاً يرزق. على صهوة حصانٍ هو كذلك. وحكوا لي: لن نقتله، لن يموت. شمله سو كانديلازيو بعفوه، بالنظر إلى صِغَرِ سنه. - إنه من باهياً، سيعود إلى هناك. سوف نرافقه قليلاً أثناء الطريق، كي نطلق سراحه، بعيداً بعض الشيء... - فرحتُ فرحَ النجوم في السماء. بهذه الطريقة، شرحوا لي بمزيد من التفصيل، لم يعد ذلك الشاب يشكل أي خطر ليلتحقَ برجال زي بيبيلو ولا ليرفع السلاح ضدّنا مرة أخرى: لأنهم رتلوا على مسامعه صلاة تزيل شجاعة الحرب، والفعل، تعويذة تصيبُ المرء بالبله. كُلُّ شيء يثير الضحك. لكن، هل رأيتُ فعلاً أديلييسيو ولويس باجييو؟ صحيح، لأنها مرّاً فعلاً يحملان مُدينتين كبيرتين، لكنهما اتّجها لتقطيع الخنزير، وأخذ تلك الحصة التي سنأخذها من اللحم والسّحم الطري. آه، وقد شربتُ جرعات كبيرة من ذلك الماء. ركضنا فوق الخيل. بدا

لي أنه انطلاقًا من تلك اللحظة، لن يكون أي شيء في المستقبل غير جنون طائش. كان سو كانديلازيو يركّض في مقدمة الجميع - ملكًا على الرياح.

في إيّجا، ذلك المكان الذي توقّفنا فيه مباشرة بعد القنطرة الخشبية، التي كانت محطمة، قطعنا معبرًا عند الأسفل، وسط تيار مائي يتدفّق ويجري فوق أحجار ملساء تغطي سرير النهر. حين وصلنا، لم يكن هناك أحد؛ حتى أنني أُصبتُ بخيبة. لكن كل شيء من حولنا كان عشبًا أخضر على الضفة المنعشة المسقية جيدًا، ومروجًا جيدة. تجرأت وقلتُ: - وجوكا راميرو؟ - لكن ذيادوريم قال كأنه لم يسمعني: - هذا هو المكان، يا زيوبالدو: إن جاء العدو، سنموت، لكن لا أحد من رجال زي بيبيلو له الحق في اجتياز هذه النقطة بكل هدوء! - وكان ذيادوريم متبجّجًا جدًّا في كلامه حتى أنني سخرتُ منه قائلاً: - آه، لا يهمني ذلك، ألم نأت لنرى جوكا راميرو؟ إذن، ها أنا أرى! - فقال: - لا تغضب، يا زيوبالدو. في هذه الساعة، لا بد أن جوكا راميرو يهاجمهم، يقطعهم إربا... - بعد ذلك، غضبتُ فصحتُ: - لأنك تعرف، تعرف الأسرار الكبيرة... لكن، كالعادة، في مثل هذه المواقف، كان ذيادوريم يتفوّق عليّ. وبّخني قائلاً: - إنني لا أعرف شيئًا. لا أعرف أكثر مما تعرف، مما تستطيع أن تعرف، يا زيوبالدو. لكنني أعرف جوكا راميرو جيدًا، لأنه يفكر لوحده في الأمور. أعرف سو كانديلازيو - الذي لا يظهر سوى ليتخذ قرارًا كبيرًا في النهاية.... -

وكذلك كان. يوم اضطررنا لتسلك تلك الصخور والتلال، خبرتُ مميزات ذلك الرجل. سو كانديلازيو، كيف أشرح لك ذلك، يا سيدي؟ كان فريدًا من نوعه. أعتقد أنه لم يكن ينام، لم يكن يأكل، على عجلة من أمره، يدخن طوال الوقت. كان دائمًا يرقب الآفاق، من دون صبر نحوها، كأنه لا ينتظر شيئًا آخر غير الحرب، دائمًا الحرب. من أين جاء، وما أصله؟ أخبروني

بذلك: كان يتحدث من صحاري ولاية باهيا. كان يمر ولا يراني. وذات يوم، استغلّ ذيا دوريم فرصة سانحة، وقدمني له: - أيها القائد، هذا هو صديقي زيوبالدو... - وهناك تفحصني سو كانديلازيو، ورآني لأول مرة. لم يكن يعرف الضحك ولا الابتسامة - لكن شيئاً ما هداً في عينيه اللتين اتخذتا شكلاً جدّياً وكفّتا عن تلك النظرة المتوحشة: كان ذلك أشبه بابتسامة. أنه كان يعرف ذيا دوريم ويقدره أيما تقدير، هذا ما لاحظته على الفور: - زيوبالدو، تاتارانا، أعرف... - قال - أنت بارع في إطلاق الرصاص، ماهر في استعمال السلاح... - ثم ذهب؛ وأظن أنني سمعته أيضاً يقول: -... - الصداقة في الحفلات...؟ - لم يكن يستقر في مكان. وبسبب نقطة أو نقطة أخرى من ملاحظه، لم أميزها جيداً، كان له أسلوب ما، شيء من الشبه مع زي بيبيلو تحديداً.

لكن الأريبي هو من حكى شيئاً كان يعرفه الجميع، وكانوا يتحدثون عنه. ما كان يطاردُه سو كانديلازيو هو الموت. كان دائماً يقرعُ الكاشاسا القويّة. لماذا؟ سوف أحكي لك، يا سيدي: كان يخشى أن يصاب بالجدري. كان والده يعاني من هذا الداء، وإخوته أيضاً، واحداً تلو الآخر، إخوته الكبار. الجدري - ليس هناك ما يُقال أكثر عنه: هنا يعرف الإنسان لعنة العقاب. عقاب، بأي جريرة؟ أكيد أن هذا هو ما ولّد حقداً في نفس سو كانديلازيو. كان يعيش في نار تلك الفكرة. إنّ الجدري يدوم لسنوات، يتأخر كثيراً في الجسد، ثم يظهر فجأة؛ يمكن أن يظهر في أي وقت، وبأي طريقة. كان سو كانديلازيو يعاني من هوس: لا يتوقف عن تشمير كُمّي قميصه، مراقبة ذراعيه، طرف مرفقه، ويحكّ جلده حتى يدمي. وكان يحمل في جيبه مرآة صغيرة لا يتوقف لحظة عن النظر إلى نفسه فيها. غاضبا من العالم بأسره. كنا نعرف أنه يتناول بعض الأدوية - ينهض مع حلول الفجر، قبل أي واحد

منا، يتناول شراباً محضراً من الأعشاب، ثم يذهب ليستحم في حوض، ينزل
 بالقرب من الجدول، عارياً، عارياً تماماً، مثل ساق طائر اللقلق. على هواه
 تماماً. وأنا أفكر اليوم في الجميع، يبدو لي أن سو كانديلاريو هو أحسن من
 أفهم. كان يطارد موته عبر العالم، بسبب الجُدري الذي سيأتي؛ وفي الوقت
 نفسه، بنفس الطريقة، يفعل كل شيء من أجل أن يشفى من المرض. بما أنه
 كان يريد أن يموت، فإن النتيجة الوحيدة هي أنه كان يأمر بالقتل، ويقتل.
 هل كان مجنوناً؟ من ليس كذلك؟ حتى أنا وأنت أيضاً، يا سيدي، ألسنا
 كذلك؟ لكنني كنتُ أقدر هذا الرجل. لأنه، على الأقل، كان يعرف ما يريد.
 كان العدو يأخذ كل وقته ليقرر أن يأتي حتى أننا بدأنا نفقد أعصابنا. إلا
 البعض منا. مثل لوزي، الذي كان يغني غير مبالٍ، صرّاراً تحت وابلٍ من
 المطر. طلبتُ منه مرة أن يغني لي أشعاراً، تلك التي لم أنسها قط، صدّقني،
 يا سيدي، من أغاني سيرؤيز. أشعار كانت تذهب بي بعيداً. حين كنتُ
 أسمعها، كنتُ أشعر برغبة في أن أغنيها بنفسي. أمي هي التي كان بوسعها
 أن تغني لي تلك الأشعار. عذوبة الرمي في النسيان بأشياء كثيرة - أشياء
 سخيفة، تلك التي نعيش فيها سجناء من فرط القيام بها أو من كثرة التفكير
 فيها. ذبادوريم، حين يتدبّر أمره ليبقى وحيداً، كان يدندن بصوت جميل،
 أعتقد. لكن، حين نكون بجانبه، لم يكن يرغب في ذلك قط. لا بد أن أقول
 إنني في النهاية أدركتُ أن الآخرين لم يكونوا يجدون في أشعار سيرؤيز ما
 كنتُ أرى فيها أنا من جمالٍ. حتى ذبادوريم: - هل تحن إلى زمن طفولتك،
 يا زيوبالدو؟... - سألني وأنا أشرح له ما كنتُ أشعر به. كلاً، لا شيء من
 كل هذا. لم أكن أشعر بأي حنين. ما كنتُ أودّه هو أن أصبح طفلاً من
 جديد، لكن على الفور، في تلك الساعة، إن استطعتُ. كنتُ قد سئمتُ من
 انحرافاتهم جميعاً. ومنذ ذلك الوقت، كنتُ أرى أن حياتنا تسير خاطئة، مثل

حكاية غير منسجمة، يعوزها الفرح والحكمة. ينبغي أن تكون الحياة مثل خشبة مسرح، وأن يلعب كل واحد دوره بمتعة، من البداية حتى النهاية، وأن يؤدي مهمته. هذا ما كنت أراه، وهذا ما كنتُ أعتقدُ.

وماذا عن تصرفات سو كانديلازيو؟ كان هذا الرجل متقلب المزاج. - اللعنة، يا له من نحس، إننا من دون أخبار، لا أعرف، يجب أن نذهب لنبحث عن الأخبار، حتى لو كلفنا ذلك أن نقلّب العالم بأسره! - هذا ما كان يصيح به سو كانديلازيو تقريبًا. أرسل ثلاثة رجال راكبين على أحصنتهم، فرسخًا نحو الأعلى باتجاه الطريق، من أجل التجسّس على الجواسيس. وبعثني أنا أيضًا. لكن، في الحقيقة، أنا من أردتُ ذلك: في اللحظة المناسبة، تقدمتُ خطوة، ونظرت إليه مباشرة، بإلحاح. - اذهب، أنت يا تاتارانا... - وحين كان يقول «تاتارانا» أفهم أنه يقدر عاليًا براعتي في الرماية. قفزت فوق السرج، وانطلقت في خببٍ خفيف. كان ذيادوريم وكاسانج قد تقدما بعيدًا، حوالي مئتي ذراع تقريبًا. لا بد أنها لاحظا أنني كنتُ قادمًا، فالتفتا فوق السرجين. رفع ذيادوريم يده ملوِّحًا. كنتُ أريد أن أحثّ الخطى، فهمزتُ الحصانَ كي يُغذَّ السَّيْرَ وألتحق بهما بسرعة. لكن الحصانَ قفزَ، تنحَّى على جانب الطريق إلى اليسار، وكاد يطرحنى أرضًا. ما حدث وأفرغَ الحصانُ هو أن ورقة يابسة طارت وجاءت لتخط فوق عينيه تقريبًا. بسبب الريح. ربح كانت تهب في دوّامة. دوّامة، أتعرفُ - صراعُ الرياح. حين تصطدم الرياح، وتلتوي ببعضها البعض، يكون مشهدًا مذهلًا. يرتفع الغبار حتى أنه يخلق الليل هناك في الأعلى، دوّامة، لولب من الأوراق والأغصان المتكسرة - في انفجار من الزقزقات والصفير - تمتزج، تلتوي وهي تدور حول نفسها مثل خذروفٍ. أحسستُ بحصاني مثل جسدي. مرَّ ذلك وانتهى. شكرتُ الرَّب. لكن ذيادوريم وكاسانج كانا قد توقفا هناك في الأمام، وظلا ينتظران أن

أصل. - الدَّوَامَةُ! - قال كاسانج وهو يرسم علامة الصليب على صدره. - تلك الريح التي تأتي منحرفة، وتهب قوية من البحر... - قال ذيادوريم. لكن كاسانج لم يُرد أن يسمع شيئاً: كلاً، الدَّوَامَةُ تأتي منه هو - الشيطان. الشيطان ينسلُّ إلى هناك، يسافر بداخلها. أطلقتُ قهقهة عالية. الشيطان! سأحكى لك، يا سيدي. هل ضحككُ أم لا لحظتها؟ فكَّرتُ. فكَّرتُ في هذا الأمر: الشيطان، في الشارع، وسط الدَّوَامَةِ... أعتقد أن أفزع لحظة في حياتي كانت تتلخص في تلك الكلمات، التي لا يجب أن تكررَها أبداً. لكن، استمع إليّ. سنصل إلى ذلك الأمر. بل حتى ذيادوريم وكاسانج راحا يضحكان بدورهما. ثم انطلقنا من جديد.

حتى بلغنا ملتقى النهرين، هناك حيث شلال متدرِّج. لم أعد أفكر في دَوَامَةِ الريح، ولا في سيدها الذي - كما يُقال - يسكنها، يسافر بداخلها، القَدْرُ: ذلك الذي يتقبل كلامنا الخبيث وأفكارنا السيئة، ويجعل من كل شيء عمله؛ ذلك الذي يمكن أن نراه على صفحة مرآة سوداء: ملاكُ الظَّلام. وصلنا، كما قلتُ، إلى الشَّلَال، عند ملتقى النهرين؛ حيث بقينا حتى غروب الشمس. كيف سوف نستطيع أن نُطلعَ سو كاندِيلاريو بالأخبار؟ هل الخبر شيء نخرجه، بالتمني، من غروب الشمس؟ كانت هناك أجمة صغيرة. أو ربما غابة قديمة جداً. كانت حيوانات القُواطِي قد أنهت قيلولتها فوق الأشجار، وراحت تنزل وهي تعطس، وطيور الغُوان تحلّق لتجثم فوق أشجار أخرى، من أجل نومها الليلي، وهي تصنع لنفسها هُماً. هل الحزنُ خبرٌ؟ كان قلبي منقبضا من الإحباط أمام قدري، وبى رغبة للعيش في مدينة كبيرة. لكني لم أكن أعرف أي مدينة كبيرة، يجب أن أقول ذلك. كما اغتنمتُ الفرصة للنظر إلى الجهة التي تُمتع بضوء الأصيل. أتذكّر الفضاء، والأفكارَ في ذهني. النهرُ، كلب يلحسُ كل ما يراه. شجرةُ الجوز الهندي منطوية على نفسها. إن كنتُ

أهذي الآن في هذا الحديث، أوقفني، يا سيدي. وإلا، أخبرني، هل الأسود أسود؟ هل الأبيض أبيض؟ أو: متى تبدأ الشيخوخة وهي تبرز من رحم الشباب؟ مع حلول الليل، عُدنا. كنتُ أستطيع أن أصيب بطلقة واحدة أوّل بومٍ قد تنعُب.

لكن سو كانديلازيو لم يكن بليدًا في حساباته. الأخبارُ، توصلنا بها ابتداءً من اليوم التالي. ويا لها من أخبار! مُذَّاكَ، تقاطرت وتكاثرت كمًّا وكيفًا. جاء شخص يدعى سوسيفري فوق حصانه، لاهثًا، وقال: - أطلق السيد ريكارداو النار من جهة نهر فيداو. ألقى تيتاو باسوس القبض على حوالي ثلاثين رجلًا من أفراد العدو بعد معركة حامية الوطيس عند حافة الجبل... - كان رجال زي بيبيلو مفزوعين أمام هذه الإنجازات الرجولية ووابل الرصاص. مثل هذه الأخبار تفرح القلب وتسره. صعد سو كانديلازيو فوق منصة من الأخشاب - كان قد أمر بوضعها وهناك كان ينام دون أن يرتاح - ومن هناك في الأعلى راح يراقب دون أن يتعبه مرور الوقت، يتفحص الآفاق الجامدة، كأنه نسرٌ يستعد للتحليق. هذه المرة، كانت الحربُ فعلًا، وسوف تتعالى الصيحات وعبارات هَلَلُويا هنا وهناك. وحينئذٍ، جاء أدا الجيزيو: - لقد مرّ السيد هرْموجينيس على بعد حوالي ستة فراسخ، سوف يستهل القتال... - كانت ساعة النار وشيكة بالنسبة إلينا. هكذا، فإن رجال زي بيبيلو عند انسحابهم سيكونون مضطرين للمرور من هنا، في إيّجّا، بالقرب منّا. لم يعد سو كانديلازيو قادرًا على تمالك نفسه، كان يبكي ويقول إنه لم يسبق له أن قاد رجالًا بهذه الشجاعة مثلنا، يتمتعون بكل تلك القدرات. وكان يريد أن يرى العدو يصل في الحال، وبكل سرعة. كانت المناوشات في كل ساعة وحين؛ وعند الليل نذهب لننام بعينٍ واحدة، وأسلحتنا لا تفارقنا. مع صلاة التبشير الملائكي عند الفجر، سوف نضاعف عدد المراقبين. تندلع

المعركة كأنها صاعقة تسقط من السماء. كان كل شيء يثير الإنذار، والهلع: ركلة في جرة مشتعلة، حفنة تراب تُرمى فجأة لإطفاء النار، صافرات في كل الاتجاهات. بل كانت هناك طلقات نارية في لحظة ما: لكن لم يكن أي شيء، فقط ثور جائع لم يشعر بالنوم، فجاء لوحده يرعى العشب بخطمه الطويل في وقت غير مناسب. - كل ما هو غريب يظهر وقت الحرب... اللعنة! هيا، ارحل من هنا - قال أحدهم. وهناك من ضحك من هذا الأمر حتى الصباح. أعجبني كل هذا، وكل يوم كان يعجبني أكثر. شيئاً فشيئاً، بدأت أستحلي القلق. تعلّمت كيف أقيس الليل بأصابعي. اكتشفت أنني قادر على الشجاعة في أي وقت وحين. تلك الشجاعة التي تأتيك، هادئة تماماً، وسط ضحك مفرط، أثناء جرعات من الكاشاسا، ونومٍ يفاجئك وأنت تستند إلى عقب بندقيتك. ما نحتاج إليه هو رفقة الجميع، بكل بساطة، مثل إخوة. كنا، ذيادوريم وأنا، ظليّن يشكلان ظلًا واحدًا. الصداقة، وفق قوانينها. وكما كنا، كنا بخير، وكان سو كانديلازيو قائداً في نظري، كما تخيلته من قبل. آه، وجوكا راميرو؟

قبل ذلك، حدث شيء مفاجئ: ضجّةٌ وخيول كثيرة. عالمٌ من الرجال يحمل تباشيره، ويحرّك الفضاء، قادماً من الشمال. - جوكا راميرو! جوكا راميرو! - صاح الجميع. قفز سو كانديلازيو فوق سرج حصانه، كما يفعل دائماً: زنبركٌ معدنيٌّ. انطلق راكضاً نحوهم. أمّا نحن، في البداية، فبقينا مذهولين. رأيتُ شمساً من فرجٍ عارم في عيني ذيادوريم، حتى أنني تضايقتُ من ذلك تقريباً. هل كنتُ أشعر بالغيرة؟ - زيوبالدو، سوف ترى كيف هو! - صاح ذيادوريم، وهو يعانقني. كأنه طفل صغير، يفيض فرحاً مكتوماً. كيف كان ممكناً أن أغضب من ذلك؟ وفي هبة ريح، وصل ذلك الحشد من الفرسان، مستقيمين فوق سروجهم وحديد حوافر الخيل يصبطك

بالحجارة. كانوا حوالي مئتي فارس، كلهم تقريباً أصدقاء قدامى من باهياً، مع بعض المجندين الجدد. وجوكا راميرو. قامته. كان هو، يمتطي جواداً أبيض - جوادٌ ينظرُ إليَّ من زهو عليائه. يجلس على سرج مطرز، من جيكي، بالأبيض والأسود. والزماء جميلة، قوية، لا أدري بأي شيء ضفرت. كان رجلاً عريض الكتفين، حادّ الوجه، محمّرة، بعينين جذابتين. كيف أستطيع أن أصفه لك، يا سيدي؟ الشعر الأسود، المجعد؟ القبة الجميلة؟ كان رجلاً صافياً. وسيماً. لم يكن هناك من شيء آخر يستحق الملاحظة. كنا ننظر إليه، من دون أن نحدق فيه بعيوننا. كنا شبه خائفين، مع كل تلك الخشونة التي تميز أهل السّرتاؤ، خشونة الحياة، من أن نخدش ذلك الرجل السامي، نغضبه، نزعجه. وحين كان يرحل، فإن ما يتبقى في نفوسنا بشكل أقوى، ويخلد في ذكرياتنا بشكل جميل، كان هو صوته. صوت لا يشوبه شكٌ، ولا حزنٌ. صوتٌ يبقى مستمراً.

وسط كل ذلك الضجيج، كان قليلاً ما سمعتُ ورأيتُ. ترجّل القائدان عن حصانيهما، وكان الرجال جميعاً منشغلين منظمين. لم يكن سو كانديلازيو يفارق جوكا راميرو قيد أنملة، ويشرح له مختلف الأمور، بحركات كبيرة، يكاد لا يترك له المجال ليفتح فمه. كان الأجل قصيراً جداً. لأن الجماعة بكاملها سوف تستأنف السير بخطى حثيثة - كانوا في الطريق لبدأ المعركة، في ساعة ومكان محدّدين - وفق ما علمنا. وقتٌ يكفيهم فقط لتناول فنجان قهوة. لكن جوكا راميرو تقدم بخطى وثيدة واسعة، يريد أن يجول في المعسكر، يحبي هذا أو ذاك، ولو بكلمة بسيطة، أو جملة تقدير واستحسان. كانت مشيته - كما لاحظتُ جيداً - متعالية ومهيبة، أكثر من أي شيء آخر. كان ذيادوريم ينظر؛ وكانت الدموع تنهمر من عينيه بالمناسبة. عازماً، تقدّم خطوة، أمسك يد جوكا راميرو وقبلها. حدّق فيه جوكا راميرو متأملاً، لحظة واحدة فقط، لكنه

فعل ذلك بعذوبة واضحة، وبدفء صداقة مختلف. كم كان يحبُّ ذِيادوريمُ! - لَفَّه بذراعيه وعانقه. بعد ذلك، التفت نحونا نحن الذين كنا هناك. وفعلتُ كما فعل ذِيادوريمُ - لا أعرف تمامًا لماذا: أخذتُ يد هذا الرجل، وقبلتها بدوري. وكان الجميع، من الشباب، يقبلونها. كان الأكبر سنا ينجلون من تقيلها. - هذا هو زِيوبالدو، أتعرفُ؟ إنه صديقي. بعضهم ينادونه تاتارانا... - قال ذِيادوريمُ كل هذا. وهو يلتفتُ نحوي باهتمام، نطقَ جوكا راميرو وقال: - تاتارانا: الرجل الشجاع. يا بُنيّ، عليك أمارات الإيجاز والشجاعة. زِيوبالدو... زِيوبالدو - ثم أضاف: - انتظر، أعتقد أنَّ معي شيء ما لك... - ثم أمر أن يُحضروا ذلك، فذهب أحد رجاله، يدعى جُواوُ فُرييُو، لبحث عنه في الشحنة وجاء به. كانت بندقية من بنادق جنود الخيالية. أخذتها. كان جوكا راميرو يشترُفني بتلك الهدية! أقول لك، يا سيدي: كانت سعادتي تتجاوز كل الحدود. قد يحسدني الآخرون على ذلك، قد يحسدونني! نظر إليّ ذِيادوريمُ بسرورٍ. ناداني جانبًا. لاحظتُ أنه، حتى وأنا أحظى باختيار جوكا راميرو وتقديره، فقد كان يتصرف محافظاً على شيء من المسافة، حتى لا يجد أحد ما يقول، وألاً يتخللوا أن المسألة فيها شيء من المحسوبية. - أليس هو الزعيم فعلاً؟ أليس هو القائد؟ - سألتني ذِيادوريمُ. وكان كذلك. لكنني لم أنتبه كيف انقضى الوقت بسرعة. كانوا يستعدون للرحيل. راكبًا فوق صهوة جواده الأبيض، قام جوكا راميرو بحركة وداع من يده. رأيتُ كيف كان يبحث عن ذِيادوريمُ بعينه. وحده سو كاندِيلازِيو صاح: - المجدُ ليسوع، طريق السلامة، وحالفكم النصر في الحرب! وبدفعة واحدة، همز الجميع خيولهم، وذهبوا. ارتفع الغبار، وملأ السماء. كان ذلك يشبه موسيقى تُعزفُ.

منذ أن توقف جوكا راميرو بيننا، لم نكن نتحدث عن شيء آخر غير ذلك. ورفعنا أسلحتنا في أجواءٍ من الاحتفال. كان جوكا راميرو ينخرط

شخصيا في القتال، وكانت الحرب هذه المرة، ستضعُ بالفعل أوزارها! - كان سو كانديلاريو يريد أن يذهب أيضًا، لكنه امتثل لأمر البقاء... - قال لي ذيادوريم. وكما قال - وحده سو كانديلاريو، بتسرعه وعادته في التقدّم والهجوم دائمًا، يمكنه في هذه المرحلة أن يحدث خللا في التوازن العام للأمر. كان يجب أن يبقى منتظرا في مكانه، يقطع طريق العالم على من كانوا يرغبون هنا في اكتساح العالم. كما أنَّ جوكا راميرو قد أصدر أوامره لنفس السبب: أن تنقسم مجموعتنا إلى ثلاث أو أربع كتائب، حتى نراقب كما ينبغي الممرات والمعابر. وجدنا نفسيّنا، ذيادوريم وأنا، في واحدة من تلك الكتائب، تتشكل من حوالي خمسة عشر رجلاً، تحت قيادة جَواو كوزيول. نزلنا نحو أومبوزيروس، أرضٌ خفيضة بها نباتات يغطيها الغبار وبعض المرتفعات الصخرية. انطلقا من ذلك المعبر، وجدنا أنفسنا في هضبة صغيرة - هضبة سيرِيما كورِيندو. كأن اسم هذا المكان كان مقصوداً^(١). فهناك تحديداً رأينا رأس الطريدة يطلُّ. شيء مريعٌ. سأحكي لك كل شيء دفعة واحدة، يا سيدي.

شيء مريع، أقول، بسبب السرعة التي وقع بها ذلك الأمر. المفاجأة التي نشعر بها دائماً، إنَّك تعرف ذلك، حتى ونحن نتوقع الأمر: لا نرى شيئاً، كالبلهاء، فإذا بالأمر هنا، أماناً. لا نصدق. بشكل مفاجئ جداً. كانت ريح قوية تهب من الجهة التي سيأتون منها، فسمعنا عَدُوَ الخيل من بعيد. تأهّبنا. كانوا حوالي عشرين رجلاً. عبروا النهر بسرعة كبيرة، حتى أن الماء تدفّق غزيراً، وكان منظرًا رائعاً تحت الشمس. أطلقنا النار.

(١) «سيرِيما» عبارة عن طائر يكثر في مناطق السّرّتاو و«كورِيندو» صيغة اسم الفاعل من فعل جرى أو ركض، أي أن الهضبة تسمى حرفياً «هضبة طائر سيرِيما الرّاكض». (المترجم)

ثم حدث ما حدث. رأيتُ الرجال يسقطون والخيول تتهاوى! كانت فوضى شاملة. وحدها الخيول كانت تستطيع أن تهرب، أما الرجال، فكانوا على الأرض، يكشطون التراب، ويكشطون. كنا نطلق عليهم النار، فيموتون، نقتلهم، نقتلهم؟ الخيول، لا نقتلها. لكن حصانًا جمح وحنّ جنونه، فجاء يقفز والفارس لم يعد يتحكم في الزمام؛ اقتربا منا كثيرًا، وهناك ماتا معًا فجأة. خسارة كبيرة، يا سيدي. لكنهم كانوا رجالًا! وبقدر ما استطاعوا، ما إن قفزوا على الأرض حتى زحفوا وردُّوا على نيراننا. آه، نجحوا في الاختباء خلف منحدرات صخرية أخرى، فلم نعد نسيطر عليهم. كانوا حوالي اثني عشر رجلًا، ربما ثمانية. يصرخون لاعين، في حقد محموم، وينعتوننا بكل الصفات. كنا نفعل الشيء نفسه. آي، كانت نيراننا تزار كلما ارتعشت يدُ إنسان بإشارة بسيطة. الرصاص يشقُّ الحجارة، ويكسرها شظايا. ظهر واحد منهم، فسقط فورًا. كانت ذخيرتهم محدودة. الهرب، حقًا، لم يكن ذلك في وسعهم. كنا نطلق النار. لا بد أنه قد بقي منهم حوالي ستة - نصفهم - إيه، هل تعرف من هناك، من يقودهم؟ - قال لي روكي، كشافنا. - هل تعرف من هو؟ - نعم، كنتُ أعرفُ! منذ البداية، كنتُ أعرفُ. كان ذلك الذي ما كنتُ أرغبُ أن يكون هو: زي بيبيلو!

هكذا كنتُ مجبرًا على القتل.

وهنا لا أعرف أكثر ما تعرف أنت أيضًا، يا سيدي. - أطلقوا النار! - اقتلوهم جميعًا! - هذا ما كان يصيح به جواو كوزيول. بعد ذلك، كنا سندخل في ملاحتهم بالأسلحة البيضاء. - أيها الحثالة! خذ هذه، يا كلبُ، يا وجه الشيطان - كان هذا هو صوتُ زي بيبيلو، يصيح. لم أكن أصيح. كان ذيادوريم يطلق النار في صمت، بدوره. ذخيرتهم - كانت شبه منتهية. لم يعد عددهم يتجاوز ثلاثة أو أربعة. كانت فوهة بندقيتي تسخن أكثر من اللازم.

- هذه لك، أيها المخصي! - فرييتاس، واحدٌ من رجالنا أطلق صيحة، وسقط بجراح بليغة. كانت الرّصاصة من زي بييلو. أطلقنا ناراً كثيفة. ردّوا علينا. كانوا يردّون قليلاً. لا بد أنه قد بقي منهم البعض... كم؟ لقد قلتُ لك ذلك: كنتُ أحب زي بييلو. أقول لك ذلك مرة أخرى - كنتُ أطلق النار أقل مما كنتُ أظنُّ. هل كان من الممكن هكذا، من دون مساعدتي، أن يموت زي بييلو؟ رجل من هذا الطراز، بجسده، بأفكاره، كان ما أعرف عنه وفيه. كنتُ أفكر في هذه الأمور. دون توقف - مع زي بييلو - كان يجب أن أفكر. رجلٌ، شيء هشٌّ في حد ذاته، بل رقيق أيضًا، يتأرجح بين الحياة والموت، وسط هذه الحجارة القاسية. شعرت بغصّة في حلقي. هل أستطيع أن أعيش حاملًا عبء ذلك الذنب؟ صحتُ لألقي عليهم القبض: - جوكا راميرو يريد هذا الرجل حيا! جوكا راميرو يلحّ على هذا الأمر!... - شيء لا أعرف كيف اندفعتُ لأقوله - زائفٌ، حقيقي، مبتكر...

صحتُ بحزم، كرّرتُه.

وافق الرفاق الآخرون على ذلك، وكانوا يردّون معي، بما فيهم جواو كوزيول: - جوكا راميرو يريد هذا الرجل حيا! - هذا أمرٌ من جوكا راميرو! - توقفوا عن إطلاق النار في الجهة الأخرى. فقط رصاصة أو أخرى، طلقة نادرة. - أيها القائد، هل نذهب وننازلهم بالخناجر؟ - سأل سائغي دي أوترو. قال له جواو كوزيول لا. لا بدّ أنهم احتفظوا ببعض الرّصاص لنهاية القتال. قلتُ مرة أخرى: - أمرٌ من جوكا راميرو: يجب إلقاء القبض على هذا الرجل حيا... هكذا، كنتُ سأنقذ زي بييلو. وافقوا جميعًا. هل أعرف، هل أعرف؟ إنك لن تفهمني الآن، يا سيدي. كيف هي الأمور. وافقوا جميعًا على اقتراحي - وهنا، بشكل غريب، خطرت على بالي فكرة. لكن، ما هي؟ حينئذ، ألم أفكر في كل شيء، في الحقيقة؟ ما كنتُ أقوم به، ما كنتُ أريد - هل كنتُ أريد أن

يقبضوا على زي ببيلو حيا، بلحمه ودمه، كي يعاملوه معاملة سيئة بعد ذلك، ويقتلوه بأفطع الطرق وأسهلها؟ ثار غضبي. عضضت نفسي، كنت ألوم نفسي، وأشعر بالقرف من ذاتي. كل شيء في النهاية يكون بسببي! وعليه فقد عدت تمامًا إلى بندقيتي وخراطيشي. رحْتُ أطلق النار، وأطلق: كنتُ أريد، بكل الوسائل، أن أصيب زي ببيلو كي أضع حدًا لحياته، وأُجنِّبه عذاب معاناة أخرى. - هل جُننتَ يا زيوبالدو؟ - صاح دِيادوريم وهو يزحف حتى بلغني وأمسك بذراعي. - جوكا راميرو يريد هذا الرجل حيا، هذا أمر! أمرٌ من جوكا راميرو! - كان الآخرون يصيحون الآن في وجهي. كانوا جميعًا، جميعًا حقًا، ضدي. هل كنتُ أستطيع أن أنكر ذلك؟ ولم أر فورًا ما سيحدث بعد ذلك. ما رأيْتُ هو أن زي ببيلو وقف فجأة، متعجرفًا كأنه ديك. كان في إحدى يديه خنجرٌ، وفي اليد الأخرى مسدس كبير، يطلق النار من فوهة مركزية. لكنه أفرغ المسدس وهو يطلق النار على الأرض، قرب قدميه تقريبًا. ارتفع الغبار. ظهر من جديد وراء الغبار، وكان يثير هذه الأفكار - متوازنًا، متوتر العضلات، يبحث عن شجار... جعل خنجره يلمع وانتظر. كان يريد فعلًا أن يموت شجاعًا، وبسرعة. نظرتُ، ونظرتُ. أن أطلق عليه النار، من أين لي الشجاعة للقيام بذلك؟ آه، كانت تعوزني الشجاعة! فقام واحد من رجالنا، لا أعرف من يكون، وألقى بحبله. ضرب زي ببيلو مرة أخرى بقدمه، بخرق، حتى يحافظ على التوازن، ثم سقط، يجرجر جسده على الأرض، وصاح بأعلى صوته: - الجبان! الجبان! - لكنهم انقضوا جميعًا عليه، وانتزعوا منه الخنجر. بقيت جامدًا، بعيدًا، فشعرتُ أنني غريب. لم أكن أريد، آه، لم أكن أريد على الخصوص أن يتعرَّفني زي ببيلو.

وفجأة، ملأ صوتُ الخوافر الأجواء ووصل عددٌ من الفرسان. كان جوكا راميرو رفقة كل رجاله. سُحبٌ وسُحبٌ كثيرة من الغبار ارتفعت،

كثيفة، تخنق الأنوف وتحجب العيون. قبعْتُ في مكاني، جالسًا هناك، خلف قطعة من حجر. ما كنت أشعر به هو الخجل. ازدادت حدة الضجيج. لأن الكتائب الأخرى وصلت بدورها، فسمعتُ صيحات سو كانديلازيو. جولة كل أولئك الفرسان، في الهضبة، دائمًا أكبر فأكبر. نفخ أحدهم في قرن ثور. كانوا يدعون للالتحاق بالمعسكر. لكن ذيادوريم كان يبحث عني، كما جواو كوزيول، لأنه كان لدينا نحن أيضًا أموات وجرحى، ولا بد أنه فقد شيئًا مَلَكَهُ. - رجلٌ لعين! - قال أحدهم. حدثتُ بعيني في الأرض، فانتبهتُ إلى أنني كنتُ أرتعش. - يا إلهي! أيها الناس، لقد فاز زي ببيبلو بميدالية. كل ما تسبب فيه من خسارة! - ثم، ونحن ننتظر، أضفتُ: - هل فعل ذلك؟ - على الأقل، كان ذيادوريم يشعّ فرحا، يكاد يرقص، فقال: - لقد انتصرنا، يا زيوبالدو! انتهت الحرب. ثم أن جوكا راميرو استحسن أن نلقي القبض على الرجل حيًّا... - ولم يكن ذلك أمرًا يطمئني. وماذا بعد؟ - لماذا، يا ذيادوريم؟ هل سيقتلونه الآن؟ هل سيقتلونه؟ - بالكاد كنتُ أسأله. لكن جواو كوزيول التفت نحوي وقال: - لن نقتله. سوف نحاكمه...

- محاكمة؟ - لم أضحك، لم أفهم.

- أراهن على ذلك. بل هو من رغب في الأمر. رجل غريب الأطوار! ذهب ليقف أمام جوكا راميرو، وهو سجين في حالة يرثى لها، وصاح غاضبا: - أيها المحتال! إما أن تقتلوني الآن فوراً، أو أطلب بمحاكمة عادلة، قانونية!... - ثم أدار ظهره. وهنا وافق جوكا راميرو على طلبه ووعد بمحاكمة فورية... - هذا ما قاله جواو كوزيول ليشرح لي الأمر.

كان هذا شيئاً قليلاً، لكنني فرحتُ، لأنه أزال ثقلًا كان يجثم على صدري. انطلقنا من جديد مع جواو كونكلش لنجوب الضواحي، ونحذر الغائبين. تجمّعُ عام. كان رجال تيتاو باسوس وهرموجينيس قد أرسلوا يُخطرون أنهم

في الطريق. وكان رجالٌ ريكازداو قد بدأوا يصلون بأعداد كبيرة. ذهبْتُ مع رجال جَواو كُونكَلِش. ذهبْتُ. كنتُ مصراً على ذلك. لم أكن أريد أن أعود سريعاً مع الآخرين، مفضلاً ألا ألمَح زي بييلو. ركبنا الخيول واختفينا في تلك الحقول، تلك الطريق، وسط أشجار البيكيزيرو. - يا له من رجل غريب الأطوار، ويا له من مجنون! - كان يقول ذِيادوريم. - هل تعرفُ ما قال، وكيف حدث ذلك؟ - ثم قال لي أخباراً.

حدث ذلك كما يلي: وصل جوكا راميرو، كأنه ملكٌ، على صهوة جواده الأبيض الكبير، ووقف أمام زي بييلو الذي كان واقفاً على قدميه، متسخاً، بملابس ممزقة، من دون قبعة، ويداه مشدودتان إلى ظهره، يمسكه رجلان. لكن، حتى وهو على هذا الحال، رفع زي بييلو ذقنه، وبكل شخصيته، حدّق بعينه في الآخر ونظر إليه من قمة رأسه إلى أخمص قدمه. ثم قال:

- أَلتِ التحية عليّ، أيها القائد. إنك أمامي، أيها الفارس العظيم. لكني نَدُك. أَلتِ التحية عليّ!

- هدى من روعك. أنت سجين... - أجابه جوكا راميرو، دون أن يرفع صوته.

لكن، أمام استغراب الجميع، غيّر زي بييلو أيضاً نبرة صوته، ليسخر بوقاحة مثيرة للضحك.

- سجين؟ آه، سجين... نعم، أنا سجين. لكن ما تراه ليس هو ما تراه، يا رفيقي: بل ما سوف ترى...

- أرى رجلاً شجاعاً وقع في السجن - قال جوكا راميرو حينئذ، ونطق ذلك بكل احترام.

- نعم. هذا صحيح. أما أن أكون سجيناً... فهذا أمرٌ آخر...

- ماذا، يا صديقي؟

... إنه، إنه العالم رأسًا على عقب - كانت تلك آخر كلمات زي ببيلو. وأطلقَ كلُّ من سمعوه قهقهات عالية.

كما قلتُ لك، يا سيدي، أليس كل هذا مجرد حماقات؟ لا، وألف لا. أنا بدوري لم أكن أتخيل أن يكون زي ببيلو سجينًا. لم يكن شخصًا نقبض عليه هكذا، شخص مثل أي شيء نحتفظ به في اليد؛ بل زئبقًا يتبخّر. وستكون هناك محاكمة.

عدنا في الوقت المناسب، في اليوم التالي، كنا هناك باكرا في المعسكر، مصطفىين. لكن، كيف المحاكمة؟ كيف ستكون، لاحظت فوراً أنه لا أحد كان يعرف ذلك حقا. سمعني هُرموجينيس، فأعجبه ذلك: - نعم، نعم. سوف نرى، سوف نرى، هذا ليس هذا أمراً معتاداً... - هذا ما قال - إيه! والآن هناك محاكمة، هناك محاكمة - سمعتُ الآخرين يقولون مازحين.. - هذا من العدل، هذا صحيح. جوكاراميرو يعرف ما يفعل... - قال تيتا وباسوس. - بل هذا أحسن. يجب القضاء نهائياً على المجموعة - قال ريكاردو. أما سو كانديلازيو، الذي لم يكن يبرح صهوة جواده، فقد جاء يقول: - محاكمة! هذا ما يلزم! لنعرف من يعطي الأوامر، ومن يستطيع ذلك!

كانوا كلهم الآن متجمّعين، كل الرفاق، في معسكر إيجّا، الذي ضاق بأعدادهم الكثيرة، مع المعدات وقوافل البغال، والخيول التي ترعى، رجال الجاغونسو من كل الأعراق والصفات، كانوا يأتون ويذهبون، يأكلون ويشربون، ويتحدثون. كان سو كانديلازيو قد أرسل رجلين بعيداً، إلى ساو جوزي، فقط ليشتريا مفرقات نارية، سنطلقها في النهاية. وأين كان زي ببيلو؟ منعزلاً، بعيداً عن أنظار الجميع، تحت خيمة من قماشٍ - الوحيدة

في المعسكر - لأنه، بسبب الحرّ الخانق، حتى جوکا راميرو فقدَ عادة النوم تحت خيمة. فكان ممكنا أن نرى السجين هناك، تحت حراسة مشددة. راجت أقوالُ بأنه كان يقبل الطعام والشراب، وأنه يقضي وقته في التفكير والتدخين، مستلقيا فوق جلد حيوانٍ. أعجبني ذلك. كل ما كنتُ أرغب فيه هو ألا تقع عيناهُ عليّ. كنتُ أحترم كثيرًا هذا الرجل، ولا ينبغي الآن أن يصبح كابوسًا يقضُّ مضجعي. - إلى أين نسيرُ؟ ومتى ستكون المحاكمةُ؟ - سألتُ ذيادوريم، عندما اكتشفتُ جلبة الاستعدادات التي تسبق المغادرة. - لا أعرف، يا صديقي... - لم يكن ذيادوريم على علم بالأمر. فقط بعد ذلك، شاع الخبر. أننا كنا سنذهب إلى فازيندا سيمبُري فيرُدي، بعد فازيندا بُريجينيو دو بُريجو، التي كانت ملك السيد ميرابو دي ميلو.

لكن، لأي سبب كانوا سيقومون بجولة كبيرة كهذه مع ذلك الرجل؟ هل كان ذلك ضروريًا؟ لم يجبني ذيادوريم. لكن، انطلاقًا مما قال وما لم يقل، كوّنتُ فكرةً عن الأمر. هكذا، كان جوکا راميرو يكلف نفسه عناء السفر ثلاثة فراسخ أخرى، باتجاه الشَّمال، رفقة كل هذا الموكب من الجاغونُسو، والملازمين، والقواد، إضافة إلى السجين المحمول على حصان أسود، وكل الجنود، مع الذخيرة، والغنائم، والمؤونة - كل هذا من أجل المجد. والمحاكمة، أيضًا. هل كان على حقّ؟ انطلقنا وسط صخب كبير. كنا نستطيع أن نرى هناك ملخصًا لكل جيل من أنواع الخيل. كان زي بييلو يسير هناك، محاطًا بفُرسان الحراسة، رجال تيتاو باسوس، في مقدمة الطابور. هل كان يمشي مكبل اليدين، وفق العادة؟ لم يكن تقييد يديه يغير في الأمر شيئًا. أبيتُ أن أرى ذلك. كان ذلك يترك في نفسي مذاقًا مُرًا، ويصيّني بالكآبة. تدبّرتُ أمري لأبقى في المؤخرة. زي بييلو يُساق هكذا، سجينًا، كان ذلك شيئًا فوق طاقتي. انضاف هذا إلى ذلك - فتقلّصت أفكارِي. لدرجة أنني

أمضيت الرحلة في مؤخرة الموكب، قرب مجموعة الحمير الصغار اللطفاء بأذانهم الكبيرة، وهم يسرون في المؤخرة. كان فقرهم الطبيعي يواسيني - حميرٌ صغار يشبهون الأطفال. لكنني فكرتُ أيضًا: أكان ذلك شيئًا جيدًا أم قبيحًا، بأي حق يمكنهم أن يقضوا على زي ببيلو؟ من كان مؤهلًا لمحاكمة زي ببيلو؟ لذا شعرتُ بإحباط عميق. من دون زي ببيلو، فإن آخر عزاء يبقى لي لن يكون حقًا سوى هذه الحمير من باهيّا التي تعرف منذ ولادتها كلَّ الطُّرقات.

هكذا، عبرنا نهر بُريجينيو دو بُريجو ووصلنا إلى فازيندا سيمبُري فيرُدي. ما الذي أصابني فجأة؟ همزتُ الحصان وانطلقت راکضًا، أكثر سرورًا، متجاوزًا كلَّ قلقي. كنتُ أركض في مقدمة الطابور. فجأة، أردتُ أن أكون هناك قريبًا جدًّا، وأن أرى بأمّ عيني كل ما سيحدث من أمور مهمة. لم يعد يهمني الآن إن كان زي ببيلو يستطيع أن يراني. تقدمتُ أمام كلَّ الآخرين تقريبًا. لا بدَّ أنهم ظنوا أنني كنتُ أحمل رسالة. - ماذا هناك، زُيوبالدو، ماذا هناك؟ - صاح ذِيادوريمُ نحوي. لم أجبه. لا أحد هنا كان يفهمني. الوحيد الذي كان قادرًا فعلاً على أن يفهمني هو زي ببيلو.

كانت فازيندا سيمبُري فيرُدي بيتًا واسعًا، ولجنا إليه بعد أن غادرنا الطريق ودخلنا في الأماكن المحاذية للحظائر. ذلك الكمُّ الهائل من الناس كان مثل جسد كبير. كأنه موكب جنازة. تقدمتُ الطابور، صرَّت البوابةُ وحينها ملأنا الحظائر بخيولنا. كان بيت السيد مغلقًا. - لا داعي لفتحه... لا يجب فتحه... - كان ذلك أمرًا يردُّدونه بينهم، من صوتٍ إلى آخر. لتكن مشيئة السماء ألا يكسروا الأبواب، لأن كل هذا يوجد في ملكية أصدقاء، ولو غائبين، في حوزة السيد ميرابو دي ميلو. أفضينا إلى باحة فناء، ناعم، واسع، مساحة كبيرة. كانوا قد أنزلوا زي ببيلو من على حصانه، ويدها لا

تزالان مكبلتين، أمام جسده مصفدتين. - كَبُلْ قدميه أيضًا! - صاح أحد المهتاجين. جاء آخر مسرعًا يحمل حزامًا من جلد الخنزير البرّي. فيمّ كان يفكر هؤلاء الناس؟ ماذا أرادوا؟ هل جنّ جنونهم؟ تجمّع جوكا راميرو، سو كانديلازيو، هُرموجينيس، ريكازداو، تيتاو باسوس، وجواو غوانيا في الباحة للتّشاور فيما بينهم. لكن زي ببيلو لم يكن منكسرًا. وقف، باستقامة - مثل ديك حبشي حين يتنفخ ويتنفّض - تقدّم نحوهم. رغم قصر قامته، بدا أنيق المظهر: رجل مدهش. تقدّم دون تردّد. - عجبًا! - في الباحة، أمام جوكا راميرو، وضعوا منصّة، نسوها هناك: كانت كرسيًا بثلاثة أرجل، ومقعدًا جلدي. جلس عليه زي ببيلو بخفة. - عجبًا! - صاح الجميع. اقترب رجال الجاغونسو وتحلّقوا في دائرة، كما يفعلون حين يأتون بالقطيع - أغلقوها بالكامل، ولم يتركوا غير المركز حيث جلس زي ببيلو كأنها هو في بيته، بينما ظلّ جوكا راميرو واقفًا. ظلّ ريكازداو واقفًا، ظلّ سو كانديلازيو واقفًا، كما ظلّ الآخرون واقفين؛ جواو غوانيا، تيتاو باسوس! نعم، كان هذا استفزازًا حقيقيًا؛ وإلا سيكون حماقة خالصة. هو يجلس وحيدًا، فوق المنصة، وسط الجميع كلهم. وحينئذ، شبك ساقيه. ثم:

- اجلسوا... اجلسوا، أيها السّادة. اعتبروا أنفسكم في بيوتكم... - أضاف مُنحنيًا بطريقة ساخرة، فيها كثير من التبجيل والمبالغة، وهو يشير بإصبعه إلى الأرض من حوله، بوصفه صاحبها.

كانت حركات غريبة لم يسبق لأحد أن رأى مثلها قطّ. وأمام ما رأوا، استشاط الآخرون غضبًا وقطّبوا حواجبهم. قلت في نفسي سيقتلونه، لا يمكن أن يتركوا أنفسهم عرضة لإهانة كهذه، لن يتحملوا تهكّمًا من ذلك الحجم. ثم ران الصمت في كل مكان. وجاء أمر بتوسيع الدائرة أكثر من ذلك، حتى يصبح الفضاء في المركز أكثر اتساعًا. وهو ما تمّ.

لكن، فجأة، مأكراً بطبيعته، قبلَ جوكا راميرو العرض السخيف بالجلوس: جلس على الأرض، باسمًا خفيفًا، أمام زي بييلو. نظر الرجلان إلى بعضهما. جرى كل ذلك بسرعة، وسرت هم جوكا راميرو يملك جوابًا لكل شيء: كان جوكا راميرو سيّدًا، رجلًا معروفًا بشجاعته.

وهكذا - زي بييلو - أتعرفُ ماذا فعل، يا سيدي؟ نهض، دفع الكرسي ذا الأرجل الثلاث بضربة قدم، وجلس بدوره، بمجهود واضح، أمام جوكا راميرو. مثل هذه الأمور، المتهورة، ألم تكن لتثير إعجابنا؟ قام الزعماء الآخرون بدورهم، واحدًا تلو الآخر، بتغيير وضعياتهم: لم يجلسوا بدورهم، بل تراخوا وقرقصوا، ليكونوا في نفس المستوى دون نشاز. أثناء ذلك، كان كل الجاغونُسو، متشوقين لرؤية وسماع ما يمكن أن يحدث، يتزاحمون من حولهم، دون أن يتركوا أسلحتهم. ذلك الرعاعُ-النهرُ الذي ينتفخ، الذي يرتعش من حين لآخر، منتظمًا، كأنه عيون ببغاوات ترمش. تابعتُ هِرْموجينيسُ بعينيّ. كنتُ أعرف: لا يمكن أن يأتي الأسوأ إلّا منه. وهكذا، تجمّد الجميع، وعمّ الصمتُ. بين الفينة والأخرى، هل سينطق جوكا راميرو بما يناسب الظروف من كلام؟

- لقد طالبتُ بمحاكمة - قال بصوتٍ قويٍّ، به جمالُ الهدوء.

- في كل لحظة، أنا في محاكمة.

هكذا كان جواب زي بييلو. هل كان لذلك أي معنى؟ لكنه لم يكن وقحًا ولا قلقًا، مستعدًا للمشقة. حتى الخنزير البري، حين يجلس، فهو يفعل ذلك ليفكّر - لا ليحزن. التفتَ برأسه عاليًا، يتفحص وجوه كل الرجال. نفخ صدره ورفع ذقنه، ممتلئًا بنفسه. هذا النوع من المخلوقات يصبح كل شيء، في لمح البصر، في طرفة عين. كنتُ أثق به.

- إنني أحذرك: يمكن أن تُعدم، مباشرة. لقد خسرت الحرب، وأنت سجيننا... - قال جوكا راميرو.

- تمامًا! إن كان الأمر يتعلق بذلك، إذن، فلماذا كل هذه الشكليات - أجاب زي بيبيلو بنبرة لا تقل حدة.

وأنا أسمع ذلك، ميزتُ الجَدَّ من الهزل. انظر إلى ذلك! كان هو نفسه من طالب بالمحاكمة، وها هو الآن يردُّ السبب: كما لو أنه لا أحد سيُعدم عند نهاية المحاكمة... مجنونٌ، كلاً، لم يكن كذلك. لكنه هنا كان يلعب مع الموت، ويفسح له المجال في كل لحظة. يكفي أن يفقد جوكا راميرو ذرَّةً من صبره، ذرَّةً واحدة. بيد أنه، لحسن الحظ، لم يكن جوكا راميرو يفقد صبره أبداً؛ بل اكتفى بنزيرٍ قليل من السخرية:

- فيمَ تفيد معرفة كثير من الأمور؟ لقد كنت تعرف كثيراً هناك، في الأعلى - أخبروني. لكنك، فجأة، وصلتَ إلى هذا السُّرَّتاو، ورأيت آلاف الأشياء المختلفة، التي لم يسبق لك أن رأيتها قط. وكل هذه المعرفة لم تفدكَ في شيء... أم أنها كانت مفيدة؟

- كانت مفيدة، أيها القائد، دائماً: لقد خسرتُ - أعترف أنني خسرتُ. وأنتم الرّابحون. هل أنت واثق من ذلك؟ ما هو الرّبحُ الذي جنيتموه؟ هذيانٌ خالصٌ. وكثير من العجرفة. من حولهما، لم يكن رجال الجاغونسو يفهمون شيئاً مما يسمعون؛ بعضهم يشيرون بحركات إلى أن زي بيبيلو كان مخبولاً، ولذا آخرون أثناء ذلك بصمتٍ مشؤوم. إلى أن نبسَّ أحدهم قائلاً: - هذا أمرٌ مُفحِّمٌ! - كما يقال. لم يرد جوكا راميرو على الفور. قطَّب حاجبيه. فقط: - لقد جئتَ لتُضللَ أهل السُّرَّتاو وتبعدهم عن الطريق الصواب، وعن عاداتهم القانونية القديمة...

- إن القديم قديمٌ في حد ذاته لأنه زاغ عن الطريق. وكان القديم ذا قيمة طالما كان جديدًا...

- أنت لست من السَّرتاؤ، لست من الأرض...

- فهل أنا من الهواء؟ هل أنا من النَّار؟ أصل الدودة من تراب، والدجاجة تأكلها وتنقرها: التراب الذي تنبشه!

لو رأيتَ الرجال، يا سيدي: لوحة معبّرة. كان كل أولئك الرجال بكاملهم، من هنا ومن هناك، يكملون الدائرة حول ذلك الفراغ، أعقاب بنادقهم على الأرض، وكل تلك الوجوه، كأنهم يحركون رؤوسهم، تحت قبعات مطوية الحواشي. كان جوكا راميرو يملك سلطة عليهم. كان جوكا راميرو هو الأمر والنَّاهي. يكفي أن يصدر أمرا موجزا وأن يرفع صوته قليلاً. أو أن يرسم على وجهه تلك الابتسامة الطيبة، تحت شاربيّه، بطريقته اللطيفة، الفعّالة للغاية: - يا أطفالي... يا أبنائي... - لكنهم، الآن، كانوا هادئين. يا سيدي، لا تثق أبداً، أبداً بهذا الهدوء! لأي سبب، لأدنى شيء، يمكن أن يدخلوا على الفور في غليان، في شجار، في طنين: مثل الزنابير. كانوا يستمعون دون أن يفهموا شيئاً، يتابعون القدّاس. كل واحد، على حدة، لم يكن يعلم شيئاً؛ لكنهم جميعاً مجتمعين، قد يعرفون كل شيء. كان القوَّادهم من كنتُ ألاحظُ منهم.

في تلك الساعة، يا سيدي، لو كنتَ هناك ماذا كنت ستلاحظ؟ لا شيء، فعلاً. إنَّكَ لا تعرف جيداً أهل السَّرتاؤ. في كل أمرٍ، يقدِّرون شيئاً من التأخّر. أما أنا، فرأيتُ: هادئين كذلك، مطمئنين، كان كلُّ أولئك الرجال المأجورين لا يهتمهم شيء آخر غير التسلية الحقيقية. لكن زعماء الجماعات، على خلافهم، لم يكونوا كذلك تماماً: كانوا يبدوون نوعاً ما متزعجين، أم أنني مخطئ؟ كان كل واحد يتآمر في ذهنه بخصوص ما سيقع بعد ذلك، وعادة

ما كانوا ينفذون خططهم، ويتحملون مسؤولياتهم. وكان البعض منهم، في قرارة أنفسهم، يتخلون عن تضامنهم مع الآخرين. كانوا يفكرون. حسب ما رأيتُ. سو كانديلازيو، في جانبِ قرب جوكا راميرو، مع تيتاو باسوس وجواو غوانيا؛ وفي الجانب الآخر، ريكازداو مع هزموجينيس. أثناء ذلك، دخل زي بيبيلو في حديث طويل لا ينتهي، من ذلك النوع الذي يروق له - وهنا هم ريكازداو بتثاؤب؛ ومطّط تيتاو باسوس ساقيه، ثم رفع يداً إلى كتفه التي لا بد أنها كانت تعاني من أي كدمة. لوى هزموجينيس شفتيه. جواو غوانيا، بشكله الماكر، شبه الوقح، المرتسم على وجهه. كان هزموجينيس يلقي، خلصة، نظرة عابسة على الوجوه. ظلّ سو كانديلازيو واقفاً، يرجّ خدرَ ساقيه.

لا بد أن جوكا راميرو قد لمس ذلك التغيّر الطفيف. إذ سرعان ما التفت نحو سو كانديلازيو ليسأله:

- ما رأيك في هذا، يا زميلي؟

تمتمّ سو كانديلازيو وسرعان ما بدأ يقوم بتلك الحركات الخرقاء التي تميزه. كأنه يريد أن يحرك رجله فلا يستطيع ذلك: كم كان ذلك الرجل طويلاً ونحيفاً! وتلك العينان الصفراوان مثل عيني صقير! لم يجد ما ينطق به من كلمات، فقال:

- سأنظر في ذلك! أنا معك، أيها القائد...

وسريعاً جداً، وافق جوكا راميرو بحركة من رأسه، كما لو أن سو كانديلازيو قد أكد للتو أمراً ذا أهمية صريحة. فتح زي بيبيلو فمه على آخره، وأطلق شخيراً، مقصوداً على ما يبدو. فضحك بعض الرجال على الفور. لم يضحك جوكا راميرو، بل انتظر لحظة:

- يمكن أن نمرَّ إلى التُّهم.

وافق الجميع، كلُّهم. بما فيهم زي ببيلو. فاستأنفَ جوكا راميرو كلامه، بشكل طبيعي، واثقًا من فعله، ليفرض نفسه أكثر؛ وكان كلامًا يَمْطُهُ عمدًا. قال إنه هناك، تحت أعينهم، كان يوجد فقط عدوٌّ مهزوم في المعارك، سيرى الآن بقية مصيره. سيُحاكم، الآن. أما هو، جوكا راميرو، كما جرت العادة، فسيترك رأيه إلى النهاية وينطق بالحكم. الآن يمكن لمن شاء ذلك أن يوجه اتهامات عن الجرائم المرتكبة، وعن كل الأفعال التي ارتكبها زي ببيلو، وعن دوافعها؛ ويقترح حكمًا.

فمن كان متلهفًا لبدأ؟ تنحى هِرْموجينيس. منذ البداية، عرفتُ ذلك - كان هِرْموجينيس بحاجة إلى انتقامٍ كبير.

كان شخصًا يتحدَّر من المستنقعات، من الحجارة والشلالات، رجل هجينٌ. إنَّ كلَّ ما يصدر عن هذه الطينة من الناس يتلوَّن بأطياف الخوف أو الحقد. لقد لاحظته، أقول لك ذلك، يا سيدي. من المهم جدًا ألاَّ نفقد الألفة مع وجه الآخر: العينان. بكل برودة، فكَّرتُ: ماذا لو أخرجتُ مسدسي وأطلقت عليه النار؟ ستكون نهاية شخصٍ يدعى هِرْموجينيس - كان هناك سليماً معافى، وفي ثانية قد يصبح عسيده دم - وسيعود إلى الجحيم! ما الذي قد يحدث لي؟ هل سأقتل على يد رفاقي؟ كما يحلو لهم. لست خائفًا. إلَّا أن هذه الفكرة الجيدة لم تغلغل بقوة في ذهني: خرجتُ بسرعة كما دَخلت. اكتفيتُ برغبتِي في سماع ما سيلي ورؤيته. كان كل شيء يشي بأنَّ أمورًا هامة سوف تحدث. حينذاك، شقَّ ذبادوريم لنفسه طريقًا وسط الحشد، التحق بي واستندَ إليَّ: قريبًا جدًا، حتى أنه من دون أن يتكلَّم، وهو يتنفس، كأنَّها فاحَ فمه بعطر قوي. وفي الأخير، أخيرًا! - نهض هِرْموجينيس ليتكلَّم:

- التَّهْمَة، نرى أنه ينبغي ربط هذا الشيطان، كما لو كان خنزيرًا. أن نذمِّيه... أو أن نلقيه أرضًا في الطريق وندوسه بالخليل - ونرى إن كان سيبقى فيه شيء من الحياة، لن يبقى فيه منها شيء!

- ماذا؟ - قال زي بيبيلو ساخرًا، وهو يمدُّ عنقه ويضرب ضرباتٍ خفيفة برأسه نحو الأمام، عدة مرات، مثل نقّار خشبٍ يمارس حركاته على جذع شجرة. لكن هِرْمُوجِينِيسُ لم يكثرث لذلك، وتابع:

- الكلبُ، يستحق الذبح. لأنه لم يستفزه أحد، لم يكن عدوًّا، ولم نذهب لنبحث عنه. لقد جاء بنفسه، ليقتل، ليحدث المجازر، رفقة رعاك كثير. فهل هذا الشَّالُ ملكه؟ جاء مأجورًا من طرف الحكومة. إنه أفضع كلب، أفضع حتى من الجنود... لا يستحقُّ أن يكون على قيد الحياة. هذه هي التهمة التي أوجهها إليه، تهمة القتل. الشيطان، الكلبُ!

- إيه! يا إلهي! - هذا ما صاح به زي بيبيلو. ودون أن يتوقف لحظة عن الرَّد تظاهر بتكشيرات فظيعة أنه يخاف من هِرْمُوجِينِيسُ.

- هذا ما أظنُّ! هذا ما أظنُّ! - راح هِرْمُوجِينِيسُ يصيح تقريبًا، ليختم قائلاً: - هذا الشخص وغدٌ حقيرٌ!

- هل يمكن أن أجيب، أيها القائد؟ - سأل زي بيبيلو، بجِدٍّ، جوكا راميرو. فوافق جوكا راميرو:

- لكن، لأنكلمَ أنا بحاجة ليفكُّوا قيود يدي... لم يكن ذلك يستوجب تردُّدًا ولا نقاشًا. أمر جوكا راميرو بفكِّ قيود يديه. لم يكن جواؤُ فريو يفارقه قيد أنملة، فجاء مسرعًا وقطع الشريط عند ملتقى المعصمين. فماذا كان بوسع زي بيبيلو أن يفعل الآن؟ هذا فقط:

- اقترَب قليلًا من هنا، اقترَب أكثر، أكثر من هذا المرفق - قال وهو

يضرب بكلتا يديه، في حركةٍ مستفزّة. ثم ضحك ونخرَ مثل خنزير، وكشّر وجهه كالقرد. هل كان يريد حقًا أن يُغضب الآخر، بدل أن يكون محترزًا؟ رأيتُ أن كل شيء كان خداعًا؛ لكنه يمكن أن يسوء. تقدّم هِرْموجينيسُ خطوة إلى الأمام، ولوّح بخنجره. إن تحكّم في نفسه، فقد كان ذلك بفضل قوة عادته. كما أن جوكا راميرو، من جهته، أوقفه متدخلًا: - حذرٌ وسلم، يا صديقي، إنك ترى، يا زميلي، أنه ما زال مشوشًا جدًّا...

- على مهلك! مع احترامي لك، أيها القائد، لا أتفق! بتاتا! - قال زي بيبيلو - أعرف أن ذهني هادئ، قانوني، ولديّ حجج. إن أظهرتُ ردّ فعل فلاحتج. أكسّر الحصار! إن التهمة يجب أن تُقدّم بكلام معقول - وليس عن طريق الإهانة والإذلال - ثم تفحص هِرْموجينيسُ - إنَّ الرجل لا يسبّ الرجل. ولا يرفع عليه صوته!...

لكن هِرْموجينيسُ، وهو يغلي من الغضب، كأن نوبة حكمة داهمته قال، متوجها إلى جوكا راميرو - وإلى كلّ من كُنّا هناك جميعًا - قال بصوتٍ مصدوع، صوتٍ ملتوٍ:

- هذا الحثالة، هذا الجبان الحقير أهانني! أهانني وهو مهزوم، سجين لدينا... من حقي أن أتخلّص منه، أيها القائد!

رأيتُ يدَ الخطر. كثيرون من كانوا متجمعين هناك، متحلّقين في عشرين أو عشرين دائرة، تلك الخواتم من رجال الجاغونُسو، دمدموا في إشارة إلى موافقتهم. بالقرب منا، ذهب رجال هِرْموجينيسُ إلى حدّ الحديث عن الإعدام دون محاكمة، كلام خطير. هل تحدثنا عن ذلك؟ كان هناك ضجيج في الأصوات. حتى زعماء الجماعات كانوا يهتممون فيما بينهم. بيد أن جوكا راميرو كان يعرف كيف يسيطر على التجاوزات. كان جوكا راميرو هو الزعيم الكبير حقًا. اكتفى بتهدئة الوضع:

- لكنه لم يذكر أملك بسوء، يا صديقي...

وكان ذلك صحيحًا. الجميع، حسب ما لاحظتُ، وافقوا على ذلك. لأن عبارات «ابن العاهرة» أو «اللص» فقط هي التي لا حلَّ لها، لأنها تعتبر أبشع الإهانات. قام جوكا راميرو بهذا الشرح، لأنه ليس هناك من جاغونسو لا يتقبل حكمة اترانه، وما ذكَّر به. بل أنَّ هِرْموجينيس نفسه، لأنَّ في حيرته، واضطرَّ لئيجاري الآخرين في رأيهم. لم يقل شيئًا: لكنه فتح فمًا كالفرن، ورسم تكشيرة من تذوق للتو حجر ملح. استغلَّ زي بييلو بدوره الفرصة لغير طريقته - يبدى شيئًا من الحيلة. كان ذلك يظهر من خلال دورانه، وهو يفكر في طريقة يُخرجُ بها نفسه من المأزق، في موقف سيء كهذا. عملُ تفكيرٍ تحت الضغط، قصد الحصول على طريقة لإنقاذ حياته.

بعد ذلك مباشرة، وحتى يتفادى أي مقاطعة تفسح المجال لبلبله أخرى، أعطى جوكا راميرو الكلمة إلى سو كانديلازيو: - إيه، أنت يا زميلي، ما هي التهمة التي لديك؟

على إثر ذلك، اندفع سو كانديلازيو إلى الأمام، وراح يقفز بجسده الطويل، وأزارار سترته مفتوحة. كان الكلام يفيض من فمه: - فعلا! فعلا!... - قال. ثم تقوى صوته: - لدي فقط سؤال واحد: إن كان يوافق على أن نحلَّ الأمر نحن معا، بالخنجر. أطلب أن ننازل بعضنا... هذا ما أراه! لا داعي لمزيد من النقاش... نحن معًا لا غير - زي بييلو وأنا، ننازل بعضنا بالخنجر!...

لم يكن سو كانديلازيو قادرًا على قول أكثر من ذلك، لم يكن يقوم سوى بترديد تحدّيه ويتحرك أكثر فأكثر، كأنه خنفساء أو كأنه يؤدي رقصة ساو غيدو. من دون أي غضب - لاحظتُ؛ لكن من دون أدنى صبر أيضًا. لكن، هنا، أخذ جوكا راميرو بزمام الأمور، وقال، حازمًا، وهو يخفي ما يثير ضحكته:

- لنترك الحكم والنتيجة إلى النهاية، يا زميلي. صبرًا، سوف ترى. أما الآن، فيجب توجيه التهم وفق ما ارتكَبَ من أفعالٍ. فأَي جريمة تدين بها هذا الرجل، يا زميلي؟

- جريمة؟... لا أرى أية جريمة. هذا ما أراه، شخصيًا، وأقول: إنني لا أتأثر برأي الآخرين. أية جريمة؟ جاء ليخوض الحرب، مثلنا جميعًا. خسرها، هذا واضح! نحن جاغونُسو، ألسنا كذلك؟ في هذه الحالة: جاغونُسو يواجه جاغونُسو - صدرًا الصدر، كلامًا بكلامٍ. هل هذا جريمة؟ خسر، تحطَّم، مثل نخلة التهمها ثورٌ من منتصف الجذع... لكنه قاتل بشجاعة، واستحقاق... الجريمة، حسب ما أعرف، هو أن يرتكب خيانة، أن يسرق خيولًا أو ماشية... وليس أن يفِي بما التزم به...

- إنني أفي دائمًا بما التزم به! - صاح زي بييلو من مكانه.

لحظتها فقط، نظر إليه سو كانديلاريو وتفحَّص وجهه، كأنه في اللحظات السابقة لم ينتبه إلى أنَّ زي بييلو كان هناك، على بعد ثلاث خطوات. ومع ذلك، تابع:

... حسنًا، نظرًا لما آلت إليه الأمور، ما أرى هو أن نطلق سراح هذا الرجل، مرة أخرى شريطة أن يعود ليحشد من جديد رجاله ثم يعود إلى هنا في الشَّمال، حتى تستمر الحربُ أكثر، كاملة، متنوعة...

ولما سمع الرجال ذلك، اندهشوا ودمدموا كلامًا موافقًا هنا وهناك: كانت الشجاعة دائمًا شيئًا يثير الإعجاب. أمسكني ذِيادوريم من ساعدي، همس لي: - هذا الجنون من سماته هو لا غير، يا رُيوبالدو. وحده سو كانديلاريو مجنون إلى هذا الحد... - هذا ممكن. لكنني فاجأتُ بنظرة خاطفة خيطًا من الحقد في عيني سو كانديلاريو وهو ينظر إلى هُرموجينيس يتحدث؛

فأدركتُ أنه لم يكن يحبُّه! من الممكن ألاَّ يعرف شيئاً، ألاَّ تكون لديه فكرة واضحة عن كونه لا يحبُّه، لكن ذلك كان هو الحقيقة الجليَّة. باختصارٍ، فقط لهذا الأمر وحده، قدَّرتُ كثيراً اندفاعه.

كفَّ سو كاندِيلازيو عن الكلام، وجفَّ فمه. كان لاهثاً جدًّا، وهو يهدأ، وواضح أنه بذلَّ مجهودًا كبيرًا. كان تائهاً في مستويات عُليا:

- ماذا تقول، يا زميلي ريكارداو؟ - طلب جوكا راميرو، وهو يسأل الشخص الموالي.

تأخَّر هذا الأخير وقتاً طويلاً قبل أن يبدأ الكلام، حتى ظننتُ أنه سيظلَّ صامتا إلى الأبد. كان هو ريكارداو المعروف، رجل ضفاف نهر فيزدي بيكينو. صديق مقرب من سياسيين مهمين، وصاحب عدة ممتلكات. رجل بدين، قوي البنية. لم يكن بدينا تماماً، ولكن لأنه لا يوجد في السَّرتاو أي رجل بدين. لكن لا شيء يمنع من أن نندهش لوزنه وضخامة جسده، كأنه ثور دربانيّ. بلحمه الكثيف، كان يبدو كأنه يأكل أكثر من الجميع - يأكل مزيداً من الفاصوليا، وطحين الدُّرة، مزيداً من الرُّزِّ والفاروفا - وكل شيء فيه متراصٌّ، متراكم، صحن طعام فوق صحن طعام آخر. وأخيراً، تكلم: كأنه الأميرال بالاو^(١):

- زميلي جوكا راميرو. إنَّك أنت القائد. ترى ما رأيُّنا، وتعرفُ ما نعرفُ. لم يكن من الضروري أن يدلي كل واحد برأيه، ولكنك حرصت على أن تقيِّم كلامَ الجميع، ونهنتك على هذا التقدير... ونحن ممتنون لك عن ذلك، كما ينبغي. الآن، أنا مع رأي زميلي هُرموجينيس: إنَّ هذا الرجل، زي بيبيلو، جاء يطاردنا في السَّرتاو، أرضنا في السَّمال، بتكليف من الحكومة والسياسيين، بل

(١) أحد فرسان الملاحم القديمة. (المترجم)

يُقال إنهم يدفعون أجره... وأما أنه خسر الحرب، فقد خسرها، لكنه تسبب في كثير من المشاكل وخلف كثيرًا الأضرار. كثيرًا من الأخطار الكبيرة التي واجهنا؛ كما تعرف ذلك يا زميلي. أقدم لائحة الزملاء الذين قتلهم، الذين ماتوا على يد رجاله. هل يمكن ذكر ذلك؟ وكلُّ من صاروا مقعدين، جرحى، والكثير الكثير... إنَّ دمهم ومعاناتهم تطالب بالجرم والإنصاف. الآن، بعد أن انتصرنا، دقَّت ساعة الانتقام. أتساءل لو كان هو المنتصر وليس نحن، أين سنكون في هذه الساعة؟ قتلى حزاني، جميعًا، أو سجناء، يقتادوننا مكبلي الأقدام إلى ثكنة ذيامأنتينا، وإلى سجون أخرى كثيرة، بما فيها سجن عاصمة الولاية. نحن جميعًا، بل وأنت أيضًا، من يدري. إنني ألحّ على ذلك، أيها القائد. ليس لدينا سجن، وليس لدينا ملف آخر يتعلق به؛ إلّا هذا الملف: إنَّ رصاصة رحمة، من مسافة قريبة، تضع حدًا لهذه القضية، وانتهى الأمر. ألم يكن يعلم حين جاء إلى هنا أن النهاية ليس شيئًا آخر غير هذا؟ ألم يحدث الأمر نفسه مع الآخرين؟ قانون الجاغونُسو هو قانون اللحظة، بأقل قدر ممكن من البذخ. كما أذكرُ أيضًا بما نتحملة من مسؤولية: تجاه السّادة سول دي أوليفيرا، ميرابو دي ميلو، العجوز نيكو إشتاسيو، الزميل نيو لاجيس، والملازم كائتانو كورديرو... يعاني هؤلاء من مطاردة الحكومة، لأنهم اضطروا لترك أراضيهم وفازينداتهم، مما ترتّب عنه خسائر كبيرة، وما زال كل شيء في حالة كبيرة من الفوضى... وعليه، باسمهم جميعًا، فأنا مع نفس الرأي. أن يُنفذ الحكم، دون تأخير! إنَّ زي ييبيلو رجل مجنون، ليس مسؤولًا تمامًا، مشؤوم، خطير للغاية. إن الحكم الصائب هو أن يُعدم بالنار. هذا ما أقول، أيها القائد، وهذا صوتي!...

مُنْذهلين لما سمعوا للتوّ، كان حشد الجاغونُسو يتحرّكون ويصفقون، موافقين. هنا، هناك وهنالك، من خلال من كانوا يصفقون أكثر، قسْتُ

العدد الكبير من رجال ريكازداو. كانت نهاية زي بيبيلو - قلت مع نفسي - لأن أدنى شائعة بسيطة في صالحه كانت تتقلّص، ولم يعد هناك من أمل في نجاته. انظر، يا سيدي، وفكر جيداً: أفضع ما في ذلك كله أنني أنا أيضاً كنت مضطراً لأجد أن منطق ريكازداو كان صحيحاً، أن أعترف بحقيقة كلامه الذي نقلته لك. فكّرت في ذلك، فأصابني بالحزن شيئاً ما. لماذا؟ إن كل ذلك كان صحيحاً، لا شك في الأمر. لكنه، من وجهات نظر أخرى - لا أعرف جيداً ما هي - لم يكن كذلك. هكذا، وأنا أغربل أفكاري جيداً، كان صحيحاً ما فعله زي بيبيلو، وخاطئاً ما يتعلق بما كانه ولم يكنه زي بيبيلو. من يعرف حقاً مَنْ هو شخص ما؟ بما أن كل حكم ناقص دائماً، لأن ما نحكم عليه هو الماضي. نعم. لكن، من أجل كتابة الحياة، لا يمكن الاستغناء عن الحكم؛ هل هو أمر ضروري؟ هذا ما تفعله فقط بعض الأسماك التي تسبح ضدّ التيار، من مصب النهر نحو منبعه. هل القانون هو القانون؟ كذب! من يحكم، مات أصلاً. الحياة أمرٌ في غاية الخطورة، فعلاً.

أثناء ذلك، كان جوكا راميرو قد أعطى الكلمة لتيتاو باسوس - وكان هذا مثل ابن جوكا راميرو، يتقاسم معه الأسرار الصغيرة والكبيرة مثل صديقين حميمين. فتحتُ أذنيّ. خطر لي أن ما سيقوله سيكون له وزن كبير. وكان كما يلي:

- بدوري، أيها القائد، أقدرُ تشريفي للإدلاء بصوتي في مثل هذه الظروف. إنني لستُ هنا لأكون ضدّ رأي أيّ واحد من رفاقي، ولا لأعترض. لكني أعني مسؤوليتي. أعرف أنني تحت القسم تقريباً: أعرف ذلك لأنه سبق لي أن شاركتُ في هيئة من المُحلفين، في جانوازيا... دون رغبة في أن أهين أحداً - سوف أعرض وجهة نظري. ما أرى هو التالي: لا توجد جريمة يمكن أن تنسب إلى هذا الرجل. إنّه مجرم، يمكن أن يكون كذلك بالنسبة للحكومة،

لمفوض الشرطة، لقاضي المحكمة، للملازم في الجيش. لكن، هل نحن في السَّرْتَاوْ أم لسنا فيه؟ أراد أن يخوض حربًا، فجاء - ووجد محاربين! ألسنا أهل حربٍ؟ الآن، لعبَ كل أوراقه وخسر، وهو يخضع الآن للمحاكمة. طبعًا، لو أننا في لحظة الحرب الساخنة، تحدثنا معه بلغة الرصاص وقتلناه، لكان الأمر منتهيًا. لكن جوهر المسألة انتهى. إذن، ما هذا، هل هذه مجزرة أو مذبحه؟... آه، أنا، لا. لا يمكن أن أقتل بدم بارد. اسمحوا لي...

استعدتُ قلبي وأنا أستمع لكلام تيتاؤْ باسوس. رجل حقيقي، يمكن أن يُعوَّلَ عليّ. بحثت عن وسيلةٍ لأبتسمَ له، ووافقت بإشارة من رأسي؛ لا أعرف إن رأني. لم يكن هناك أي احتجاج آخر. إلّا أنني لاحظتُ ما يمكن أن يوجِّجَ الوضع - الرجال وهم يتغيَّرون. صاروا الآن أكثر قلقًا وتلهُّفًا لمعرفة ما ستقرره الرؤوس الكبيرة. كان رجال تيتاؤْ باسوس يشكِّلون أقل الجماعات أهميةً. لكنهم كانوا رجالًا غاية في الشجاعة، شجعانًا مثل هذا القائد الشهم. - إلى أي جماعة أنتمي؟ - تساءلتُ مع نفسي. لم أكن أنتمي إلى أي جماعة، أدركتُ. لكن، من هناك فصاعدًا، كنتُ أريد أن أكون تحت أوامر تيتاؤْ باسوس. - إنه صديقي... - همسَ ذيادوريمُ في أذني - هو حفيد بيدرو كاردوزو، وابن حفيد مارياداكروش! - لكن، لم يخطر لي أن أسأل ذيادوريمُ عن رأيه في الأمر. كان جوكا راميرو الآن يريدُ صوتَ جَواوْ غَوانيا، آخر متداخل، اقتربَ بصعوبة.

قام جَواوْ غَوانيا كأنه ينهض، بيد أنه ظلَّ مُقرفصًا. وهو ما جعله يتأخَّر قليلًا في أن يقول ما قاله، كما أُورِدهُ:

مكتبة

t.me/soramnqraa

- أيها القائد، أنا مع ما تقررته...

- ولكن الأمر ليس كذلك، يازميلي جَواوْ. كل واحد يدلي بصوته، وأنت أيضًا يجب أن تدلي بصوتك... - شرح له جوكا راميرو مرة أخرى.

وهنا نهض جَواوُ غَوانِيا، وفركَ أنفه بأصابعه. ثم أمسك وسَحَبَ أسفل كل واحد من كُمَيْه. رفع حزامه، مع الأسلحة، بحزمٍ. سمعتُ صلصلةً: رمشت عيناى.

- حسناً، إننى أضم صوتى لصوت صديقى سو كاندِيلازيو، وصوت صديقى تيتاو باسوس. هذا الرجل لم يرتكب أي جريمة. لا ينبغي قتله. بالطبع لا!

أقسمُ أنه حين تحدّث ذلك الفلاح المشعر بذلك الشكل، انبعث الفرخُ في نفسى من جديد. أشهد أنه تحدّث بصرامة، كأن الأمر يتعلق بمسألة حرب خطيرة. تجسّستُ على هِرُموجينيسُ خلسةً، فرأيتُ أنَّ عينيه اسودّتا من الغضب. أما ريكاردأو، بوجهه الكبير كالضفدع، فلم يتوقف عن الغفو. حتى أكون دقيقاً، كان ريكاردأو هو من يتحكّم في هِرُموجينيس. يتظاهر بأنه يغفو، وكنتُ أعرف ذلك. الآن؟ أي شيء آخر كان يمكن إضافته؟ ألم يكن كل شيء قد انتهى بالفعل؟

آه، كلاً، انظر واسمّع، يا سيدي. لم يكن جوكا راميرو رجلاً يعرف ما هي العجلة. كان يروّح عن نفسه بقبّعته. بسلطةٍ لا يشوبها أي تصلّب، جال بنظراته عبر دائرة الجاغونسو، ثم قال بصوتٍ عالٍ:

- إذا أراد أي واحد من أبنائي أن يأخذ الكلمة ليدافع أو يوجه التهم، يمكنه أن يتقدّم بذلك!

هل ثمة من يرغبُ في ذلك؟ لا، لا أحد. كان الجميع ينظرون بعضهم إلى بعضٍ، حائرين، كل واحد - كما يقال - يخبئ رأسه وراء السّرج. لم يكونوا هناك من أجل الكلام. وهذه واقعة ضمن كثير من الوقائع الاستثنائية.

عندما رأى ذلك، كرّر جوكا راميرو السؤال:

- هل يوجد هنا ضمن محاربٍ الشجعان من يريد أن يتحدث ليوّجه التهم إلى زي يبييلو أو ليدافع عنه، يقول كلمة في صالحه؟ يمكنه أن يفتح فمه دون حرج يذكر...

أدافع عن طريقته - هنا رأيتُ ذلك. هل أرادَ أحد أن يتكلم؟ أشك في ذلك، وهذا ما حدث. أقول لك، يا سيدي: كان هناك أكثر من خمسمئة رجلٍ تقريبًا، إن لم أكن مخطئًا. ارتفع الصمتُ منهم جميعًا. ذلك الصمتُ الأفظعُ من الصخب. لكن، لماذا لم يطلقوا صيحات، لماذا لم يتكلموا جميعًا، كلهم دفعة واحدة، واحدًا تلو الآخر، حتى يطلق سراح زي يبييلو؟... شعرت بغضبي يكبر. هيا، قلتُ مع نفسي، وأنا أشعر بقوة تدفعني. ولحظتها، يا سيدي - في تلك اللحظة القصيرة - راودتني فكرةٌ كم هو جيد أحيانًا أن نكون قادرين على التحكم في الجميع، وأن تتحرك حشود العالم بأسره وفق أهوائنا وتُحقّقها. قطرةٌ، نعم، قطرة واحدة. أعتقد أن العرق كان ينساب فوق جبيني. أو أن - هذا ما تَمَنَيْتُ - تندلع معركة في الحين، شجار عنيف: نصف الجمع في جهة، والنصف الثاني في جهة أخرى، البعض يصارع من أجل العدالة، والآخرين يركبون ذيلَ الشيطان! لتكن النار والخناجر، ولتتحرك سواعد الرجال حتى ترتفع أكوام من القتلى ويسود الصفاء والسلم... كان الملح الذي أكلته مرّ المذاق.

وهناك، مرة أخرى، كرّر جوكا راميرو سؤاله:

- هل هناك من أحد... كذا وكذا، وما إلى ذلك.

فجأةً، شعرتُ باندفاع. لماذا لا أكون أنا؟ سأتكلم هذه المرة - لماذا لم أكن أتكلم؟ نهضتُ من جديد. آه، لكنهم كانوا أكثر سرعة مني: بدأ رجل آخر. شخص يُدعى غو، من رجال النهر، بدين لكن له وجه طويل. تحدث كما يلي:

- بعد إذنكم، أيها القائد، أقدم رأيي. ورأيي أنه، لو كانت أوامركم هي إطلاق سراح زي بيبيلو، فهذا جيد... وهذا الفضل، إن تمّ، سيكون في خدمتنا، لاحقاً، ربها، عند الحاجة... ولا أقول هذا من أجلي، أشير إليه من أجل القادة، بعد إذنكم. نحن رجال سلاح، مع مخاطر كل يوم وكل الأشياء الدقيقة في الهواء. لكن، إذا ما حدث في مناسبة ما، مستقبلاً، وقانا الربّ ذلك! إذا ما حدث وسقط أحد قادتنا سجيناً بين يدي ملازم من ماسكي كلاب الحكومة - فمن الأكيد أنه سيلاقى معاملة محترمة، ولن يعاني من الإهانة والقسوة... هكذا، ستكون الحرب تربيةً جيدة، ومعاملة لائقة.

كان كلاماً حكيماً. وانظر، يا سيدي، كان ذلك سهلاً للغاية، بل إن جو كا راميرو، في بعض اللحظات، كان يحرك رأسه موافقاً. استجمعتُ مزيداً من الشجاعة وفتحتُ فمي. لكن، حينها، سبقني إلى الكلام شخصٌ آخر. يدعى دوسنو، أو دوسمو، رجل من أهالي الغابة، يتحدّر من كاتيريانغونغو، بعينين قلقتين، يعاني من الحول. ما لدى رجل من أهالي الغابة ليقوله، نموذج لكل أهل الغابة في منطقتنا الشمالية؟ أصحّت السَّمع:

- بعد إذنكم، أيها القادة. لا أرى ضرراً في إرهاب عقلي بقليل من التفكير. ذلك أنني، أني... أرى أنه قبل إطلاق سراح هذا الرجل أو إنهاء حياته، لا بد من أن نجعله يقرّ بما يملك من ثروة، وما لديه من مالٍ... فحسب ما يُقال، كان يملك كثيراً من المال، مخبأً في مكان هنا... هذا كل ما عندي، كل ما عندي، إن سمحتم... إن سمحتم.

انفجر البعض ضاحكين. لماذا كانوا يضحكون؟ ليضحكوا. تقدّمتُ خطوة، رفعتُ يدي وفرقتُ أصابعي مثل طفل في المدرسة. بدأتُ أتكلّم. حاول ديا دوريم أن يوقفني، مفزوعاً بكل تأكيد: - انتظر، يا ريو بالّدو -

شعرتُ بهمس صوته في أذني. لكنني كنتُ قد بدأتُ. ما أعتقد، وما قلتُ،
كان هو ما صغته في هذه الجمل:

- بعد إذنكم، يا قائدنا الكبير جوكا راميرو! لديَّ حقيقة كبيرة أريد أن
أقولها، ولا يمكن أن أظل صامتاً...

يجب أن أقول لك، يا سيدي: لا حظتُ بنفسي أنني كنتُ أتحدث بقوة،
لكنه لم يكن لدي وقت ولا طريقة لأعدل من حدة كلامي - كنتُ قد بدأتُ.
وأثناء ذلك كله، كان قلبي يخفق بقوة. شعرتُ بنارٍ أخرى تحرق وجهي،
هجوم من كل تلك العيون التي كانت تحرق بي. لذلك، رفضت أن أنظر
إلى أي أحد، وخاصة ألا أرى هرْموجينيس. ألا تقع عيناى ولا فكري على
هرْموجينيس - ألا يكون في العالم بأسره ولا هرْموجينيس واحداً، لا لأجل
نفسه، ولا لأجلي أنا! لذلك، ركزتُ نظري على رجل، بالصدفة، لم أختره،
فقط لأنه كان هناك، خُلاسي كان أمامي. المسكين، حين رأى أن كل ذلك
النظر يستهدفه، خفض رأسه، مُخرجاً لأنه لا يستطيع أن يقوم بشيء آخر.
أثناء ذلك، رحّتُ أقول:

.... إنني أعرف جيداً هذا الرجل، زي بيبيلو. كنتُ إلى جانبه، لم أكذب
لأقول عكس ذلك، والكلُّ هناك يعرف ذلك جيداً. بعد ذلك، رحلتُ،
هربتُ بطريقة ما. رحلتُ، لأنني أدركتُ ذلك، وجئتُ لأخوض الحرب
هنا، تحت أوامر هؤلاء القادة المعروفين، أنتم... ومع هذه الجهة حاربتُ،
وقدّمتُ يدَ مساعدة مخلصه، عيني على الهدف ويدي على الزناد... ولكني
الآن أؤكد: إن زي بيبيلو رجل شجاع وطيب، رجل نزيه يفي بوعوده!
إنه قائد جاجونسو من الطراز الأول، لم يرتكب أي عمل وحشي: لم يقتل
من أسره من أعداء، ولم يسمح لأحد أن يعاملهم بسوء... أؤكد ذلك!
رأيتُ ذلك بأمّ عيني. بالنظر إلى كل ما ذكرتُ، فإنه يستحق تبرئة مناسبة،

ولا يستحق بتاتا أن يموت بالإعدام عشوائيًا هكذا... وإنني أقول هذا لأنه كان عليّ أن أقوله، باسم الواجب والضمير، مُشرفًا بذلك هذا الإذن الذي منحني قائدنا الكبير جوكا راميرو، وقائدي المباشر تيتاؤ باسوس!...

استعدتُ أنفاسَ أنفاسي. أعرف أنني لم أعد أتعرفُ نفسي. تابعتُ:

... كانت الحربُ قاسية، استمرّت ما استمرّت من وقت، واشتعلت في كل أنحاء السّرتاؤ. سوف يتحدث عنها الجميع، عبر شمال الشمال، عبر ميناس جيراييس بكاملها وعبر ولاية باهيا، وحتى في مناطق أخرى، لسنوات طوال. وسينظمون أغنيات كثيرة، تروي ملاحمها... هل يجب، إذن، أن يُقال إنه هنا، في فازيندا سيمبُري فيرُدي، اجتمع كل قادة جماعة من الجاغونسو، رفقة كل محاربيهم الأشاوس، وتحت قيادة جوكا راميرو العظيم، فقط لغاية القضاء على رجلٍ وحيد: من أجل الحكم بالموت على زي بيبيلو كما لو أنه ثور يجب ذبحه في مجزرة؟ هل يشرفنا فعلٌ كهذا؟ أم أنه خزي؟...

- هذا خزيٌّ، في رأيي... - سمعتُ وأنا في غاية السعادة: وكان المتحدث كذلك هو تيتاؤ باسوس.

- الخزي! خزيٌّ من كل الشياطين! خزيٌّ كبير! أفضع خزيٍّ من كل شياطين الأرض!... - من تكلم هكذا وصاح بهذا الشكل كان هو سو كانديلازيو.

وكلُّ شيء ينفجرُ، فجأة، وأنا لا أزال في اندفاعي، لا أدري كيف لامستُ فكرةً ذهني: لقد ارتكبتُ للتو حماقة كبيرة، ستُعقّد كل شيء بكل تأكيد - ذلك أنني قلتُ إنَّ زي بيبيلو لم يقتل أحدًا من سجنائه؛ فلو قتلناهم من جانبنا لن يرضوا بسماع ذلك من طرفي، لأن ذلك قد يبدو مثل إدانة خطيرة. وأمام صيحات سو كانديلازيو، خشيتُ أن أقول كل شيء. وحينئذٍ، لم أنظر

إلى جوكا راميرو - كأني أتخيل، بسرعة، أن جوكا راميرو لم يكن يوافق على اندفاعي. لذلك، ولأن الوقت كان يدهمني - لأني شعرت بوجوب أن أكمل كلامي، على الفور، فقلتُ:

... لنر - قلت - لكن، إذا صوّتنا بالتبرئة: نطلق سراح هذا الرجل، زي بيبيلو، فارغ اليدين، عقابُه الوحيد ما لحقه من هزيمة - ستكون سمعُتنا كبيرة، ومجدُّنا عظيمًا: أولًا، لأننا انتصرنا، وثانيًا، لأننا أطلقنا سراح العدو... - وهنا بلغتُ حدود فكري: كانت تخوفاتي سخيفة: فالجاغونسو، كما هو، لا يفكر أبدًا تقريبًا بشكل صحيح، في صفوفنا، يمكن أن يروا أنه من الطبيعي أن نقتل السجناء، لكنهم يقدرُون أن يترك زي بيبيلو رفقاءنا السجناء على قيد الحياة. قومُ بلهاء!

- ليكون مجدًا خالدًا! هذا كل ما أعرفه... يا جراح المسيح!... - صاح سو كانديلازيو ثانية، وهو يقاطعني. ثم انفجر غاضبًا! كان رجلًا ذا مزاج فظٍّ، فضرب بقدمه، كالمجنون: من كانوا بالقرب منه تَنَحُّوا بسرعة، ليفسحوا له المجال. هل كان لدى هرْموجينيس الآن ما يقوله؟ كان هرْموجينيس يضغط على شفّتيه بأسنانه. وكان ريكاردأو يتظاهر بأنه يغفو. كان سو كانديلازيو رجلًا يثير الخوف.

إلا أنه، بدل ما يُتوقَّع منه من فظاعات، فقد رفع سو كانديلازيو نظره إلى السماء، كأنه مبتهجٌ ثم تلا - ملهمًا، بصوت عميق - بهدوء رائع، وهو يرتل تقريبًا:

- نعم، مجد عظيم!... سيتحدث عنه الجميع، لسنوات طوال، وسيثنون على شرفنا، في عديد من الأماكن والمناطق. سينظمون ذلك في قصائد يتغنون بها في الأسواق، وسيكون ذلك خبرًا يملأ صفحات الجرائد في المدن... كان مثقفًا حقيقيًا.

هل فكَّرتُ، حينئذٍ، هل اكتشفتُ؟ كلاً. لقد قلتُ، قلتُ الحقيقة، ذلك الأمر المستعجل الذي لا يسمح بالتأجيل: - ثم، أين هو الخطر؟ إن وعداً بالآل يعود ليحاربنا مرة أخرى، فسيفي بوعده، هذا أكيد. بل لن يرغب هو أيضاً في العودة إلى ذلك. هذا أمر مفهوم. من الأفضل أن يعطي وعده بأن ير حل عن تلك الولاية وأن يذهب بعيداً، شريطة ألا يظل في تلك الأراضي ولا في أراضي ولاية باهياً... - قلتُ - وقلتُ ذلك بنبرة عذبة مثل نبرة أم حنون، نبرة وديعة، فيها شيء من مناورات الأفعى.

- لديّ أقارب في غويّاس... - قال زي بيبيلو، وهو يعود فجأة ليشغل الجميع. تحدّث حين لم يكن أحد يتوقّع ذلك، وبرغبة كبيرة في الكلام أثارت ضحك العديد من الرّجال. لم أضحك. التقتط أنفاسي، ورأيتُ أنني قد انتهيتُ. يعني أنني بدأت أرتعش. وفي لحظة رعشة، في رمشة عين، لبسني الخوف. رأيتُ للتو جوكا راميرو - هل كان يقوم بذلك طوال حديثي؟ - وهو يشير لي بحركة أن أغلق فمي تماماً؛ لم يكن لي الحق في الحديث عن شيء ليس من شأني. فرغبتُ، فجأة، أن أكون لا أحد، شخصاً متواضعاً ومجهولاً. لكن تيتاؤ باسوس أخذ المبادرة، أيها الشاب. رفع تيتاؤ باسوس جبينه. من كان عادة لا يتحدث كثيراً، هل يقدر على كل هذا الكلام الآن؟

قال تيتاؤ باسوس: -... في هذه الحالة، إن رَحَل بعيداً، فقد نال العقاب. هذا ما أصوت له من أجل العدالة. هل ارتكب جريمة أكبر؟ إنني أشفق على رفاقنا، ممّن ماتوا أو ممن يعانون جروحاً بليغة...

قال سو كانديلاريو: -... ولكن الموت في القتال شيء عادي من نصيبنا؛ وإلا لماذا نحن جاغونسو؟! من يذهب إلى القنص، يفقد ما لا يحُد...

قال تيتاؤ باسوس: -... وكل هؤلاء القتلى، إنه ليس ذنب أي قائد من

القادة. أقول. ثم أن هؤلاء الكبار الذي يحظون بصداقتنا: السيد ميرابو دي ميلو، العقيد كاييتانو والآخرون - لا يسعهم سوى أن يوافقوا على القرار الذي ستتخذه شريطة أن يكون قرارًا جيدًا يصبُّ في مصلحة الجميع. هذا ما أراه، أيها القائد. تحت أوامرك... - ختم تيتاو باسوس كلامه.

كان الصمتُ كله قادمًا من جهة جوكا راميرو.

لم يعد أحد يهتمُّ بي، ولا يشيرون إليَّ بصفتي ذلك الذي تحدَّث للتو بشكل واضح ووقور. الآن، ألم يعد لي وجود في نظر كل أولئك الناس، ألم يسبق لي أن كنتُ موجودًا؟ وحده ذيادوريم كان يعانقني تقريبًا: - لقد قُلْتَ كلامًا من ذهبٍ، يا زيوبالدو. أنت رجل شجاع... - لكن الآخرين، إلى جانبي، لماذا لم يهنؤوني، لماذا لم يقولوا شيئًا؟ - أعجبني ذلك، يا تاتارانا! هكذا! هذا ما يجب قوله! - لكنني كنتُ قد نطقت بكلام جيد، وعاد ذيادوريم يقول مرة أخرى: كان ذلك الاندفاع الذي تحدثتُ به معبرًا، أكثر من الكلام الذي قلته، عن نوع من السلطة التي تملكُني. لم أنظر ولا مرة واحدة إلى زي بيبيلو. ما الذي كان بوسعه أن يفكر فيه بخصوصي في تلك اللحظة؟ وجوكا راميرو؟ كان الاثنان يواجهان بعضهما، الواحد أمام الآخر، وفي هذه المواجهة كانا يتباريان.

أكيد أنه فيما بقي من الوقت، تبادلا كلماتٍ لم أستطع سماعها. لأن زي بيبيلو تلقى أمرًا بالكلام؛ لا بد أنه قد تلقاه. الإذن. بدأ. راح يتكلم دون عجلة من أمره، دون أن يتحدث عن شيء محدّد. رأيتُ ما رأيتُ: كان يكتفي بتحسس الطريق. الماكر. كان يستطيع أن يفهم أيَّ طنينٍ في الهواء، ويلتقطه - كانت أذناه لهذا الأمر، ورأسه يسبحُ. كان شيئًا ما أشعث. لكن سرعان ما هدا، مع مرور الوقت.

... أشكر من كل قلبي، السيد القائد جوكا راميرو، عن هذه المحاكمة

الصادقة، وعن هذه الشهامة... أشكره دون أن أرتجف خوفاً، ودون أن أرتبك في الشاء! أنا، جوزي، زي بييلو، كما ينادونني: جوزي رييلو أذرو أنتونيش! كان جدُّ جدِّي فرانسيسكو رييلو أذرو أنتونيش قائداً في خيالة الجيش... عمري واحد وأربعون عاماً، وأنا الابن الشرعي لجوزي رييامار بادو شيكو أنتونيش وماريّا ديوليندا رييلو؛ ولدتُ في القرية الشاخحة كارمو دا كونفورزاو...

بحقّ كل القديسين! لماذا كل هذا الهراء، وكل هذه الفلسفة؟ لكنه كان ينطق بها بعزة نفس، دون مزح البداية، ومن دون لفّ ولا تأنيب.

... أشكر كلّ من تحدث لصالحي ودفاعاً عني... سوف أدلي بشهادتي. جئتُ إلى الشّمال، وجئتُ لأحمل الحرب والدمار، على رأس رجالي. حربى... ترعرعتُ رجلاً شجاعاً، وأردتُ أن أقاتل رجالاً شجعاناً... هل من عيب في ذلك؟ كنتُ أريد أن أحتذي بأمثلة وأسماء مثل جوكاراميرو، جواوزينيو، بيم-بيم، سو كانديلازيو!... وقادة آخرين معروفين، بعضهم يحضر هنا، وبعضهم يغيب... بدأتُ بشكل متواضع، ولم أرتكب ظلماً ولا خبثاً من أي نوع كان؛ ولم يلمني أحد قطُّ عن شيء كهذا. أبتعدُ عن الجبناء والمحتالين! لا علاقة لي، أو علاقتي قليلة جداً، بالحكومة، كما أنني لم أرث هذا الميل إلى الجيش... ما كنتُ أريده هو أن أعلن عن حكومة أخرى، لكن بمساعدتكم أنتم أيضاً، بعد ذلك. إنني أرى الآن أننا قد واجهنا بعضنا بسبب سوء فهم... أنا لا أخضع لأوامر القادة السياسيين. لو نجحتُ، لدخلتُ مجال السياسة، وطلبتُ من العظيم جوكاراميرو ليحشد كل رجاله كي يصوتوا لأجلي لأصبح نائباً... آه، هذا الشّمال الغارق في التخلف: تقدم شامل، الخير الوافر للجميع، والسعادة الوطنية! لكن، شغف السياسة، كان عندي ولم أعد أشعر به... يجب أن نخرج من السّرّتاو. لكننا لن نخرج من السّرّتاو إلاّ بتحمّل مسؤوليته من الداخل.

الآن، خسرْتُ الحرب، وأنا سجين. تغيّرتُ لأسيرَ قُدَمًا. خسرْتُ - فهل يعني هذا أنَّ ساعتِي لم تَحِنْ؟ لا أعتقد ذلك. إهمال كبير من الآخرين... إنني أهنيء نفسي وأهنتُكم لأنَّكم احتفظتم بي سجينًا ولأنني مثُلْتُ أمامكم للمحاكمة. هذا دليل على أنَّكم، يا جاغونُسو الشَّمال، أناسٌ متحضرون شامخون: لا تقتلون بيد لاهية أسرى عدوكم. إننا لسنا هنا في إسطبلات... أنا في منأى عن أوامر مشؤومة. قدَّرتُ ذلك كثيرًا. أصفق لجوكا راميرو وقادته الآخرين، المسؤولين عن كتابتهم. أصفق لهؤلاء الجاغونُسو البواسل! ولكني رجل. أتمتع بأدب في المعاملة. إلَّا أنني لا أخاف؛ أبدًا، لا أعرف الخوف ولو في الحرج...

لقد قام، حقًا، بشيء جميل. ثم تحمَّس. بعد ذلك، صار عظيمًا نهائيًّا.

... نعم، جنْتُ لأقاتل، بقلب خالص، وصخبٍ كبير. لم آت تحت ألوان ذرائع متنكرة، ولا تحت أسرار وخُدع. خسرْتُ، لقلَّة الاحتراز. وليس لأنني أسأتُ القيادة. ما كنتُ لأرغب في قتال جوكا راميرو، وما كان ينبغي لي ذلك. إنني لا أقرُّ ولا أنكر أي خطأ، لأن قاعدتي هي: كل ما فعلته استحقَّ العناء لأنني فعلته بإتقان. هذه هي طريقي. لكنني اليوم أعرف: ما كان ينبغي لي ذلك. بمعنى: إن هذا يتعلق بالحكم الذي سأناله من هذه المحاكمة النبيلة. محاكمة، أقول، طالبتُ بها وأنا لا أزال أحمل السلاح في يدي؛ وحصلت عليها من جوكا راميرو العظيم، من نُبله الشامخ... محاكمة، هذا ما يجب دائمًا أن نطالب به! لماذا؟ لكيلا نشعرَ بالخوف! وهذا ما يحدث لي. إنني بحاجة إلى هذه المحاكمة فقط لتروا أنني لستُ خائفًا... إن كان الحكم قاسيًا، سأستعين بشجاعتي، وإن أنقذت المحاكمة حياتي، فإنني أشكركم بشجاعتي. العفو، أطلبه، كلاً لا أطلبه: لأنني أرى أنَّ من يطلب العفو لينجو بحياته، يستحقُّ نصف حياةٍ وموتًا مضاعفًا. لكنني أشكر بقوة. كما أنه لا يمكن أن أعرض خدماتي تحت شعار جوكا راميرو - لأن ذلك قد يكون شيئًا سعيدًا بقدر ما

قد يكون أمرًا غير ملائم. لكن وعدي، ما إن أعطيه، فإنني أفي به ألف مرة ومرة! لم يسبق لزي ببيلو مرة أن قترَّ أو انحرف. ودون أيِّ إضافة، أنتظر حكمكم المميز. أيها القادة. أيها القادة.

أقول لك، يا سيدي، كانت لحظة مثيرة.

بعد الانتهاء من كلامه، جلس زي ببيلو من جديد قصيرًا جدًا، وظلَّ قصيرًا، متفوقًا إلى أقصى حدٍّ. وكان قد صار أشعث بعض الشيء. كان كرة بشرية صغيرة. رجلٌ انغلق على ذاته. نظرتُ، نظرتُ. بالكاد كنا نميز فقط الهمس الغامض للجميع من حولنا - كان مناسبًا، شعرتُ بذلك: يا إلهي! إنه رجل ذكي! - إنه مجنون... لكنه يستطيع أن يخصي عجلًا بأظافره... لم يقل ذيادوريم شيئًا - لكنه صار شاحبًا للغاية. حسنًا، ثم رأيتُ القادة. كانوا يتحدثون فيما بينهم، في لجان صغيرة، على عجلة من أمرهم. هُرموجينيس وريكارداو - وجوكا راميرو يتسم لهما، لزميليه القديمين. هُرموجينيس وريكارداو، كانا لا انفصالان. سو كانديلازيو - مستعد ليهجم، وفق عادته - ابتسم له جوكا راميرو. وجواو غوانيا سمجَّ، كعادته. وحده تيتاو باسوس كان يراقب، بعينين مخفضتين، متأملًا جدًا، طيبًا للغاية، جدًّا تمامًا: يجمع يديه عند أسفل بطنه - ينتظر فقط أن يصبحَ العدم شيئًا أو أشياء. وليكن ما سيقرّره جوكا راميرو. في آخر لحظة، بما أنَّ هُرموجينيس سيذهب وينحني عليه ليهمسَ شيئًا في أذنه، فقد توقف جوكا راميرو فجأة بحركة من يده. كانت اللحظة المناسبة. وهو يتوجه مباشرةً وبقوة إلى زي ببيلو، أخذ الكلمة وقال: - هذه المحاكمة هي من أعمالي، وما أنطقُ به من حكم تنطبق على كلِّ هذا الشَّمال. إنَّ شعبي يُشرفني. أنا صديقٌ لأصدقائي السياسيين، لكني لست تابعًا لهم، ولا أشتغل مأجورًا لديهم. الحكم صحيح. القرار. هل تعترف به، يا سيدي؟

- أَعْتَرَفُ بِهِ - وافق زي ببيلو، بصوت حازم، وقد صار شعره مشعثاً بشكل أكبر. بل كَرَّرَ ذلك ثلاث مرات: - أَعْتَرَفُ بِهِ! أَعْتَرَفُ بِهِ! أَعْتَرَفُ بِهِ!... - طقطقة الزناد على القادح - كما يقال: طَلَقَتْ نَارَ.

- حسناً. أوافق على ذهابك إلى غويّاس. هل تعطينا وعدك، وتذهب؟ جعلهم زي ببيلو ينتظرون جوابه. لكن ذلك لم يدم غير دقيقة قصيرة. ثم قال:

- أعطيكُم كلمتي وأذهبُ، أيها القائد. أطلب فقط أن تضمّنوا رحلتي بطريقة لا ثقة، وفق ما تضطلعون به من مسؤولية. - ماذا تعني؟

- أعني: لا يزال هناك رجال أحياء من أتباعي في هذه المناطق، بالإضافة إلى سجناء، أرجو أن تعطوا أمراً بإطلاق سراحهم، أو تسمحوا لهم أن يأتوا معي، أيضاً...

وهو ما أجاب عنه جوكا راميرو قائلاً: - صافِخني! صافِخني! -... وإذا لم يكن هناك مانع، أريد أن أغادر من دون حرس ولا مراقب، لكن أودُّ أن تزودوني بدابّة ركوب مُسرّجة، أحمل عليها سلاحي، أشياء أخرى نافعة وبعض المؤونة، تغطي أكل ثلاثة أيام، بشكل قانوني... وهو ما أجاب عنه جوكا راميرو قائلاً ثلاث مرات: - صافِخني! صافِخني! صافِخني!

-... في هذه الحالة، أغادر بشرف. والآن، بعد إذنك، أطرح هذا السؤال: كم من الوقت ألتزم بالآل أعود إلى هذه الولاية ولا إلى ولاية باهيّا؟ عامٌ، عامان، ثلاثة أعوام؟

- طالما بقيتُ على قيد الحياة، أو لم أصدر أمراً ينقض ذلك... - قال جوكا

راميرو، في النهاية. ثم نهض بقفزة واحدة. آه، حين ينهض، كان يسحب أشياء معه، على ما يبدو - الناس، والأرض، والأشجار المتناثرة. وكل هذه الأشياء جميعًا، بحركة واحدة منه - مثل ثور معزول، أو قطيع مجتمع أو سهيل فرس: تفرّق الجمع. ثم ساد ضجيج من الفرح: كان الجميع قد ملّوا من المشاركة في المحاكمة، وكُنّا نشعر بجوع أكيد.

نادى عليّ ذيادوريم، ورحنا نمشي جيئةً وذهابًا وسط ذلك الجمع. بل رأيتُ هرْموجينيس أيضًا: كان يتلع الطعام بفم مغلق، ومرارة تعلو وجهه. - ذيادوريم - قلتُ - إنَّ هرْموجينيس هذا أخضر، على مشارف الحسد... - لكن ذيادوريم، أكيد، لم يفهمني، لأنه قال فقط: - حمدًا للرَّب!... - لم أطمئن. كان الرجال يكذّونَ في كل مكان. فتح حارسُ فازيندا سيمْبُري فيرْدي المطبخ: قدور وأواني طبخ من أحسن ما يكون. وفي كل وقت وحين، كان هناك دائمًا من يضرب بالمدقّة. قلتُ، ليس لأنه لم يكن لديّ ما أقوله، ولكن توخيًّا للدقة: كانت دائمًا في عينيّ ذكرى هرْموجينيس، ساعة محاكمة كما في البداية، بوجه متجهّم، لم يظهر واكتفى بفتح ساقين واسعتين، الخنجر الكبير في يده؛ لكن، كيف أنه، بعد ذلك، راح يتحايل، فعلاً حزنٌ أسودُ طرفيّ عينيّه، مثل كلب يتخمّر السُّعار في ذاته. وريكارداو؟ هذا: مزاج ثقيل يعلو وجهه، وحين كفَّ عن الغفو بعينيّه المتدحرجتين، كأنهما مصابتين، لم يكن يعدُّ بأي شيء جميل. حُسِمَ كل شيء، انتهى، الماضي. هل انتهى فعلاً؟ هنا، طلبتُ من ذيادوريم أن ينتظرني عند ضفة النهر، لأنني أردت أن أعطني بحصاني، أحرره من السَّرج وأنظف جسده بالفرشاة. صادفتُ هرْموجينيس. في الحقيقة، تدبَّرتُ أمري لأجد هرْموجينيس، ووقفتُ إلى جانبه لحظةً. أردتُ أن أبقى هناك أدور حوله وأستمع، كدتُ أرغب في ذلك. سمعتُ كلمةً: - حيلةٌ... - ماذا كان يقصد؟ لم يكن هرْموجينيس أبله،

لدرجة الخطأ في أن يرجع عن قرار جوكا راميرو... حيلة... لكنني لم أسمع،
أذكر أنني لم أكن أعرف جيدًا. قريبًا جدًا، سيودُّعنا زي بيبيلو. رأيناه، راكبًا
حصانًا جميلًا بلونين، وعليه سرجٌ رائع من ميناس فيلياس. سمحوا له بأن
يأخذ بندقيته، أسلحته الأخرى، وجعاب الخراطيش. كان قد تناول العشاء.
وحقيبة الظهر بها كثير من المؤونة. امتطى حصانه. ثم ذهب. سار في خبٍ
خفيف، دون أن يلتفت خلفه، بينما كانت الشمس تنأى نحو المغيّب. وحده
تُريول كان عليه أن يرافقه، مسافة فرسخ واحد، حتى حدود المنطقة تحت
هايتنا. أصابني ذلك بشيءٍ من الحزن. لكنّ ارتياحي يغلبُ حزني.

كنا جميعًا لحظتها نأخذ ما نأكل، وكان الطعام وفيرًا. حساء طحين الذرة
والكرنب، قرع مطهي، لحم خنزير مقلي، وقطع لحم كانت تُشوى على
موقد النار. من رغبَ في الحساء، فما عليه سوى أن يذهب ويأخذ منه حصّةً
عند باب المطبخ. كان ينقصنا عددٌ كافٍ من الصحون. شربنا ما شئنا من
الكاشاسا، لأن جوكا راميرو أصدر أمره بأن يقدموا لنا الكاشاسا حسب
الرغبة - كاشاسا من الدرجة الأولى. كنتُ ستُسّرُ، يا سيدي، برؤية ذلك
الحشد من الناس، وما كانوا يفعلونه ويقولونه، طريقتنا في الضحك، وكيف
كنا نتسكّع، بعد أن أكلنا جيدًا، وشربنا حتى شعبنا. ثم حلّ الليل. انهارَ
الرجال من التعب، وانطرحوا أرضًا، حتى تحت بول الخيول التي ترعى.
أما أنا، فكنتُ ثملًا، أرغب في نومٍ جيد. لذلك، توجّهتُ رفقةً ذيادوريمُ
نحو البستان، على طول النهر. ومع حلول الليل، كان تيار الماء يغني، باردًا،
متفخًا وسط المجرى، فشمّنا رائحة الزبد فوق الأشجار. ذهب زي
بيبيلو من غير رجعة فوق حصانٍ بلونين، فأثار قليلًا من الغبار. كنّا هناك،
متعافين، ننشرُ أسرّتنا المعلقة. ألا أنسى هذ الأشياء؟ لا أنسى. كنّا نفيض
فرحًا في العراء، مثل أطفال صغار.

جئتُ قادمًا إلى هنا، إلى سِرِّتاوُ الشَّمال، كما يأتي كل واحد في يوم أو آخر. جئتُ من دون أن أنتبه للأمر تقريبًا - لكنني جئتُ بدافع الحاجة إلى تنظيم بقية حياتي بشكل أفضل. والآن، ماذا لو طردوني؟ بنفس الطريقة، أي كما طردوا زي بييلو؟ تذكرتُ ما قاله، كلماته: «أصبح العالمُ رأسًا على عقب...»، فقلتُ ذلك لذيادوريم. لكن ذيادوريم لم يرد على هذا. وبدل ذلك، قال لي ما يلي: - هل ترغب، يا زيوبالدو، أن تذهب لتعيش في فازيندا أوس بوركوس، فالمكان هناك جميل على الدوام - وثمة نجوم كثيرة تلمع؟ ... - فقلتُ نعم. تصوّر، يا سيدي، كيف لي أن أجيء بطريقة أخرى وأوس بوركوس هي الأرض التي ترعرع فيها ذيادوريم؟ لكن، وأنا أقول كل هذا، فكَّرتُ أنَّ ذيادوريم ربما كان بوسعه أن يجيبني بهذا الشكل: - العالم رأسًا على عقب؟ ولكن، يا زيوبالدو، لقد كان العالمُ دومًا هكذا... - حماقة، أعرف، حماقات كبيرة. كلما قلتُ شيئًا أو فكَّرتُ فيه، يردُّ عليَّ ذيادوريم بشيء مختلف. - زي بييلو، ذيادوريم. ما رأيك في هذا الرجل؟ - سألتُه مرة أخرى.. بالنسبة إليه، الآن، لم يعد هناك ليلٌ ولا نهار: يسافر بلا هدف، عبر الطرقات... كان محظوظًا! تعامل مع جوكا راميرو - وتعامل مع طبيته الكبيرة... - هكذا أجبني ذيادوريم. وبقي، بقينا معًا غارقين في أفكارنا. وحين بلغتُ نهاية سيجارتي، سألتُه مرة أخرى: - لنرى، من أنقذ زي بييلو من الموت؟ - ما أراد ذيادوريم أن يقوله لي كان سِرًّا كبيرًا جدًّا، حتى أنه سحبَ طرفَ سريري المعلق كي نتكلم وجهًا لوجه تقريبًا: - آه، من أنقذ زي بييلو من الموت؟ حسنًا، دون احتساب جوكا راميرو، هناك، أولًا، زي بييلو نفسه. بعد ذلك، انطلاقًا من تفصيل ذكره زي بييلو ظهر سو كانديلازيو - رجلٌ غريب الأطوار وواثق من نفسه، لكنه مخلص وفيٌّ، ويجلب معه أكثر من ثلاثمئة رجل مسلح. رجال شجعان ينطلقون بإشارة بسيطة منه، فيقتلون ويُقتلون... - كنتُ أودُّ

أن يشرح لي الأمر بطريقة أخرى، لكن ذبادوريم تابع: - لا بد أنك لاحظت هِرموجينيس وريكازداو، رجلان ينخرهما غضبٌ باردٌ... الآن، هذان معًا يثيران قلقي، ومخاوفي... أرجو من الرب أن... ثم ختم كلامه قائلاً: - طالما أن جوكا راميرو بحاجة إلينا، كما وعدتني بذلك يا زيوبالدو، سنظل هنا - فأكدت ذلك وجددت له وعدي. ومنذ تلك اللحظة، في هدوء الليل، لم نتحدث مرة أخرى، لا أذكر ذلك.

كان ذبادوريم حزينًا، صوته كان كذلك. صرتُ حزينًا بدوري. لماذا؟ - طبيعيٌّ أن ترغبَ في معرفة ذلك، يا سيدي. لأن زي بييلو رحل، فهل كان هذا هو السبب؟ بعد نهر باراكاتو، يبدأ العالم... رحل زي بييلو وأنا لا أعرف حتى سبب ذلك، وكان هذا الأمر يحرمُني من القدرة على تنظيم أفكاري، وكنتُ أشعر كأن بطني ممتلئ أكثر من اللازم بكل تلك المشروبات وكل ذلك الطعام. الشيء الوحيد الذي كان يواسيني هو تلك المحاكمة حدثت، وحصلَ الاعترافُ بحياة زي بييلو وسمعته. المحاكمة؟ أقول: كانت في رأيي شيئًا جديًا وذا أهمية. لذلك حرصتُ على أن أخبرك بكل شيء، وأن أبذل كثيرًا من الوقت وأحرص على تدقيق في الكلام. قد تقول لي: - لم تكن تلك المحاكمة قانونية بتاتا: لا شيء غير لعبة يانصيب مجنونة، غريبة، جنون غير معقول حدث وسط السِّرتاؤ... - حسنًا، لهذا السبب بالضبط. لم يكن زي بييلو متهمًا في الحقيقة. لكن، في قلب السِّرتاؤ، ما يُعتبر جنونًا يمكن أن يكون أحيانًا هو أكثر الأسباب وجاهةً وأكثرها قربًا من الصواب! ومنذئذ، آمنتُ بجوكا راميرو. بسبب زي بييلو. لأن زي بييلو، في تلك المناسبة، تبين أنه أعظم منّا جميعًا. كنتُ أحبه كما أحبُّ اليوم عرَّابي كيليمين؛ كنتُ أحبه لأنه كان يفهم بسرعة. لذلك فقد منحنتني المحاكمة سلامَ الذهن - أو بالأحرى سلام القلب. نعمتُ، وداعا كل هذا. كيف كنتُ

لأستطيع أن أحْدس أشياء فظيعة حدثت بعد ذلك، كما سترى، يا سيدي،
بما أنني أحكي لك؟

باختصار: انطلاقاً من فازيندا سيمبُري فيرُدي، وبعد مرور يوم آخر،
افترقنا. إنَّ جماعة كبيرة جدًّا من الجاغونُسو، ليست تنظيمًا مفيدًا في الأوقات
العادية. لا تفيد سوى في تأخّر الجنود والإنفاق غير العقلاني. كانت تروج
شائعات بأنَّ جَواوُ غَوانيا سيتوجه مباشرة نحو باهيَّا وأنَّ أُنْتينور، رفقة حفنة
من رجال هِرْموجينيس، سيسيرُ على ضفاف نهر رامالِيادا. أوامرٌ جديدة،
أوامرٌ من كل الأشكال. سوف يذهب أَلاريبي مع تيتاو باسوس. استدعانا
تيتاو باسوس: أنا وذيادوريم. المسارُ الذي يجب احترامه سيكون هو هذا:
نمشي بمحاذاة نهر ساوُ فرانسيسكو حتى جيكييتاي وما وراءه. هذا، لماذا؟
ألا نذهب رفقة جوكا راميرو، ونبقى إلى جانبه إذا ما احتاج إلى مساعدتنا؟
لكننا اكتشفنا أن مهمتنا كانت سرّية وفي غاية الأهمية: كان علينا أن نتوقف
في بعض المواقع، بغرض تسلّم بعض المشحونات؛ وحتى نراقب، عند
الاقترضاء، أيّ غارة يقوم بها جنود يتوغّلون في الشّمال. أسرّجنا خيولنا،
ركبناها وهمزناها مسرعين. في نفس الساعة، انطلقَ جوكا راميرو عائداً إلى
ساوُ جَواوُ دو بارايسو. وكان هناك فوق حصانه الأبيض وإلى جانبه يسير
سو كاندِيلازيو وريكارداو. كانوا يركضون جميعًا. كلُّ القادة يغادرون - كل
طابور من الجاغونُسو يسير ببطء حلزوني، وسط صيحات وأصوات عالية.
كان شيئًا جميلًا يتلأل. نظر ذيادوريم إلى ذلك ورسم صادقًا علامة الصّليب
على صدره. - هكذا، أعطاني مباركتّه... - هذا ما قال. إنه لأمر دائمًا ما يثير
الحزن، حين يتفرّق حشدٌ كبير من الناس ويتلاشون. لكن، في ذلك اليوم،
على متن خيولنا الجيدة، قطعنا تسعة فراسخ.

تسعة فراسخ، بالإضافة إلى عشرة أخرى حتى بحيرة لاغوادو أمرغوزو.

وسبعة فراسخ حتى نبلغ شلالاً غوروتوبا. وعشرة فراسخ بعد أن خيمنا بين كائِن-كائِن وسوليداو؛ ومسافات أخرى قطعناها: دائماً في السَّرتاؤ. هذا هو السَّرتاؤ: تتركه وراءك، لكنه سرعان ما يعود، فجأة، ليحيط بك من كل مكان. السَّرتاؤ هو حين لا ننتظره: هذا ما أقول. لكننا سِرنا، سِرنا وسِرنا. ثم صعدنا. إلى أن توقفنا ذات يوم في أراضي هادئة وناعمة. الماء في كل مكان. كانت الخضرة قد بدأت تصفرُّ. ومن جديد، تذكرت تلك الطيور. طيور الكناري، طيور الوقواق في المستنقعات، دجاج الماء، وطيور النورس. فارس الرمال الصغير! وذيادوريم إلى جانبي. طيور مالك الحزين تبسط أجنحتها. النهر غير مكترث يجري حراً طليقاً. وهناك توقفنا، لبعض الوقت، في حقل منعزل، وسط مرجٍ عارٍ، به مراعي وكثير من القطعان.

مكانٌ قريب من غوارارافاكا دو غواييكوي: تابيرا نيا، كما كانوا يسمونه. هل كان جيداً؟ كان هادئاً. لكن، ثمة لحظات أتساءل: ألن يكون من الأفضل ألا نخرج أبداً من السَّرتاؤ. هناك، يا سيدي، كان جميلاً. لم تكن هناك أخطار تلوح في الأفق، ولم نكن بحاجة لنقوم بأي شيء. كنا ثلاثة وعشرين رجلاً. اختار تيتاؤ باسوس منهم فرقة صغيرة - على رأسها ألاريبي: ليذهبوا إلى الجهة الأخرى من التل، وادي غوارارافاكا نفسه، وينتظروا ما لا يحدث. وبقينا نحن في عين المكان.

في البداية، حالفنا الحظ، وكانت أياماً جميلة. نستيقظ دون عجلة من أمرنا، نتسكع، نستمع لطيور الرِّيكْسُنكساو^(١) تغني سعيدة - كانت تصل صادحة في أسراب سوداء، شبه لامعة، تبرز من جبهة في الغابة، وتمرُّ فوق رؤوسنا دون أي حاجة لذلك. ثم هناك قطعان البقر، والثيران، التي تتناوب

(١) نوع من فصيلة الشُّحور البرازيلي. (المترجم)

على الظلال، بعد الانتهاء من النوم، وأجسامها الضخمة معلقة دون ضجيج يذكر فيما يشبه العتمة، لتذوب كالسكر في الحقول. حين لا تهبُّ الرياح، كانت الشمس تضرب بقوة. كنا نأكل كل يوم سمكا طازجًا، صيدًا سهلًا: مرجان أو سمك كوريما تا؛ كان الطباخ هو باسبي - يُحضّر كميات كبيرة من المرق، ويوزع كؤوسًا كثيرة من الكاشاسا. كما كنا نقوم بشيء من القنص. كانت الحراسة تتم بالتناوب، بين الأصدقاء الإخوة، ولا ينقصنا وقت لنبقى دون أن نفعل شيئًا. نمْتُ حصصًا طويلة من القيلولة، تكفي لحياي بكاملها. كان النسر يطلق صيحات حتى اللحظة التي يصبح فيها النهار حارًا جدًا. وهي الساعة التي تأتي فيها القطعان متمهلة إلى ضفاف النهر، فتملأ الحيوانات الشاطئ، جامدة، أو تلج إلى الماء لتتنعش. كانت تصل أحيانًا وهي تسبح حتى تبلغ جزيرة طويلة، حيث العشب ينمو أخضر يانعا. وما هو هادئ يكبر وينمو من ذاته: لسماع الثور يخور أكثر فأكثر، يخطر لي أن كل شيء ليس سوى ماضٍ في المستقبل. تخيلتُ تلك الأحلام. أتذكر أنني لم أكن أعرف. ولم أكن على علم بأخبار أي شخص، ولا أي شيء من هذا العالم - يمكنك أن ترى كيف كان. كنتُ أرغب في امرأة، أي امرأة. هناك فترات تُليّن فيها الحياة الناس، لدرجة أنه حتى عودة شعله رغبة سيئة، في لحظة انهيار، تكون مكسبًا وربحًا.

ذات يوم، دون أن قول شيئًا لأي كان، امتطيتُ حصاني وذهبتُ، دون هدف، هاربًا. في الحقيقة، كنتُ أبحث عن أشخاص آخرين، مختلفين. قطعْتُ فرسخين. كان العالمُ فراغا. ثيرانٌ وثيرانٌ. ثيرانٌ وثيرانٌ، وحقولٌ. كنتُ أسير مقتفيا آثار مسارات الأبقار. عبرتُ نهرا صغيرا أخضر، حيث تنحني طيورُ الأُمبوزيرو وطيورُ الإنغازيرو - وكان معبرًا خاصا بالماشية. - كلما مشيتُ بحثًا عن الناس، بدا أنني أتيه وحيدا... - فكَّرتُ لحظتها.

فاحتقرت نفسي وأنا أفكر بهذا الشكل. كنت مذنباً مسؤولاً عن كل شيء في حياتي، ولم أكن أعرف كيف لا أكون كذلك. فاشتد عليّ إذن ذلك الحزن، من أقطع نوع، حزنٌ من دون سبب ولا علة؛ حتى أنني انتبهتُ إلى أن رأسي يؤلمني، وأدركتُ أن حزني كان بسبب ذلك بكل تأكيد، وكان ذلك سلوى وعزاء لنفسي. ولم أكن أعرف حتى أهمية ما أريد، ولا إلى أي حدّ أريد أن أذهب. لدرجة أنه، حين وصلتُ إلى جدول صغير - جدول دقيق أبيض - فنظرَ إليّ وقالَ لي: - لا... - اضطررتُ لأطيعه. قال ذلك ليمنعني من أن أذهب أبعد من ذلك. طلبَ مني الجدول الصغير أن أباركه. ترجّلتُ عن حصاني. أحسنُ ما في الحياة هو أن فرسك يرى العشب ويأكله. حينئذ، تمددتُ وغطيت وجهي بالقبعة. كنتُ متعباً. نمتُ، ممدداً فوق جلد خروف. حين ننام، نصبح نحن العالم: نصبح حجراً، نصبح زهرة. إنّ ما أفكر فيه وما أجهد نفسي لأقوله لك، وأنا أعيد تركيب ذكرياتي، لا أفلح فيه؛ لذلك ألجأ إلى هذه التخيّلات. لكنني كنتُ أنام كي أؤكد قدرتي. اليوم، أعرفُ. أعرفُ أنه عند كل منعطف حقلٍ، وتحت ظل كل شجرةٍ، ليلاً ونهاراً، هناك شيطانٌ لا يقوم بأي حركة ويسهر على كلّ شيء. هناك شيطانٌ، هو المُتَشَيِّطُ، عبارة عن شيطانٍ طفل، يطفقُ يجري أمام الناس، يضيئهم بمصباح صغير، وهم غارقون في أعماق النوم. نمت، تحت الرّيح. حين استيقظتُ، لم أصدق عيني: كل ما هو جميل عبثٌ - الرّب خالداً. من فضّة وذَهَبٍ، ظهرَ دِيادوريمُ هناك، على بعد خطوتين مِنِّي، كان يراقبني.

جِدِّيًّا، هادئًا، يشبه ذاته، لا يُضاهيه غير نفسه في هذه الحياة. لاحظَ رغبتِي في الهروب، فاقتفى أثري، ووجدني. لم يتسّم، ولم يقل شيئاً. لم أتكلّم بدوري. كان حرُّ النهار يخبو. وفي تينك العينين اللَّتين هما دِيادوريمُ بكامله، كان الأخضرُ يتغير باستمرار، مثل مياه كل الأنهار في الأماكن الظليلة. ذلك

الأخضر الرَّملي، لكن الشاب جدًّا، المسن جدًّا، كأنه أرادَ أن يحكي لي أشياء لم يكن فكرُنا مهياً لفهمها - وأعتقد أننا نموت لهذا السبب. أن يأتي ذِيادوريم ويتوقف بالقرب مني، ينتظر أن أستيقظ وهو ينظر إليَّ نائماً، كان شيئاً مُسلِّياً، شيئاً يثير الضحك والسعادة. لم أضحك. لم أستطع ذلك ولم أكن قادراً عليه. ما أدركتُ كان صمت إحساس، يشبه أمراً: - طوال حياتك المستقبلية، عليك يا زيوبالدو أن تظلَّ مرتبطاً بي، إلى الأبد!... - كأن ذِيادوريم كان يقول لي ذلك. امتطينا الحصانين مرة أخرى، وأخذنا طريق العودة. أقول لك، يا سيدي، كيف كنتُ أحبُّ ذِيادوريم: ذلك أنني لم أشعر في أي لحظة، في أي مرة، قطّ، برغبة في أن أضحك منه.

غوارارافاكا دو غواييكوي: سجِّل هذا الاسم، يا سيدي. لكن، لم يعد له وجود، لن تجده؛ مؤخراً، كان اسمه كايشير وبوليس؛ ويقالُ إنَّ الناس هناك يصابون بالحمى في هذه الأيام. لم يكن الأمر كذلك، في تلك الفترة. لا أتذكّر. لكن، في ذلك الوقت، في ذلك المكان، حُسم مصيري. هل لأن هناك نقطة معيَّنة، وأنه لا يمكننا الرجوع إلى الوراء؟ رحلة حياتي. غوارارافاكا - اسمعْ هذا الاسم وسجِّله. الأمور العظيمة، قبل أن تحدث. إنَّ العالم اليوم يريد أن يبقى من دون السُّرتاؤ. أعتقد أن هذه الأمور لم تعد تحدث. لو حدثت، في يوم من الأيام، سينتهي العالم. اسمعْ جيداً، يا سيدي.

ذلك المكان، الهواء. أولاً، أدركتُ أنني أحبُّ ذِيادوريم - حبًّا هو الحبُّ نفسه، متنگراً بشكل سيء في الصداقة. من نفسي إلى ذاتي، هذا ما اتَّضح لي فجأة: حدثتُ نفسي. لم أندesh، لم أرَ شراً في ذلك، لم أُلْمُ نفسي، لم أخف - في تلك اللحظة. أتذكر جيداً. كنتُ لوحدي، في ركن من كوخ، كوخ قديم لأحد البغالين، وكنت ممدداً فوق حصير من الخيزران. وبالقرب مني، أسلحتي. بفضل أسلحتي، وفوهات التي تلمع من فرط عنايتي،

كنتُ أتَحَكَّم في موت الآخرين، من مسافة عدة باعات. كيف يمكننا، بنفس الطريقة، أن نتَحَكَّم في الحب؟ كان الكوخ على حافة الغابة. أثناء الظهيرة، وكان الوقت كذلك، كان الحرّ يخبو بعض الشيء، تحت تأثير ريح خجول - تلك التي تأتي من جبال إسبانيا - ريح تجرفُ كل الأرواح. رعشةٌ قريبة جدًا، مُجَعَّد الأوراق، وتذهبُ، هناك أمامي، في عمق النهر، تَارجح اللحي البيضاء المُنسَلَّة لنباتات المرنطة. وهناك، على الضفاف، كان يغني طائر الإيلانيّ، الرمادي، الذي يعشق الماء. فأنار في نفسي حينًا إلى غابةٍ من غابات البوريتي، على طريق فسحة خالية من الأشجار، خضراء بأعشاب هي الأكثر اخضرارًا في أقصى الهضبة. حين من ذلك النوع الذي يستجيبُ لنداء الريح؛ حينُ الأراضي العليا. ها أنت ترى، يا سيدي، حركة الريح في أشجار نخيل البوريتي حين يهْدِد الجو بالعاصفة. من يستطيع أن ينسى ذلك؟ الريحُ خضراء. ثم، أثناء ذلك، تُمسكُ بالصَّمت وتلفه بذراعيك. أنا من المكان الذي ولدتُ فيه. أنا من أرضٍ أخرى. لكن، هناك في غوارارافاكا، كنتُ سعيدًا. والماشية، بالقرب مني، كانت ما تزال ترعى، ورائحة الماشية دائمًا تثير الفرح في النفوس. وكانت طيور الزَّاغ تجري أزواجًا، وسط الثيران، تنقرها، تصطاد وتصيح. وسمعتُ، قادمًا من وسط الغابة، ضجيجَ حجلٍ - طائرٌ مأكّرٌ على الدوام. كان ذلك هو الشهر الذي يهيم فيه الحجلُ وحيدًا - الذكر والأنثى، كل واحد لوحده، غير مقترنين. وكان طائرُ الحجل يأتي متهاديًا، يُحدِّث نفسه: ينش التراب، مثل دجاجة حُمّ. ضحكتُ - انظر إلى هذا، يا ذيادوريم! - قلتُ؛ كنتُ أعتقد أن ذيادوريم بجانبني، على مرمى السَّمع. لم يكن هناك. نظر إليّ الحجلُ، يرفع مزهوا رأسه الصغير. جاء واقترَب مني كثيرًا، بل كاد يدخل إلى الكوخ. نظر إليّ، حرَّك عينيه. ما الذي كان يبحث عنه ذلك الطائر؟ هل جاء يحمل لي شؤمًا؟ كان بوسعي أن أطلق

عليه رصاصة لا تخطئ. لكنني تمهلْتُ. لم أطلق النار. أخذت فقط مهمازا وألقيت به نحوه. فزع، حرَّك جناحيه نحو الأمام، كما لو أنه يريد أن يحمي رأسه، وكادَ ينقلبُ ساقطا. وحينئذ، تراجع، يدير ظهره أولا، ثم هرب، دخل من جديد إلى الغابة، وبحث لنفسه عن مجثم ينام فوقه يوما هادئا.

اسمُ ذِيادوريمُ، الذي نطقْتُ به، ظلَّ في نفسي. عانقته. إننا نشعر بمذاق العسل حين نلحسُه. - ذِيادوريمُ، يا حُبِّي... - كيف يمكن لي أن أقول شيئا كهذا؟ سأشرحُ لك، يا سيدي: كأن ذلك كان عن قصد، كي لا أشعر بكثير من الخجل، فكان تفكيري فيه، حين تخللني، يجسِّدُه لي مختلفًا، ذِيادوريمًا فريدًا جدًّا، شبَّحًا بالأحرى، منعزلًا تمامًا عن الحياة العادية، منفصلاً عن الجميع، عن كل الأشخاص الآخرين - تمامًا كما يحدث حين يعزُّلُ وابلٌ من المطر الحقول. ذِيادوريمُ لي أنا لوحدي فقط. لكل شيء أسرارُه. لم أكن أعرف ذلك. لكن، في ذهني، كنتُ أعانقُ ذِيادوريمُ بجسدي - ولم يكن هو حقيقة. ألم يكن كذلك؟ ربما لا نستطيع أن نفسر مثل هذه الأمور. لا بدَّ أنني بدأتُ أفكر فيه، بكل تأكيد، كما تفكَّرُ حيَّةٌ وهي تحدِّق في طائر صغير لتنفِضَ عليه. لكن، من أعماق ذاتي: حيَّةٌ. وكان كل هذا يثير تحوُّلاً في نفسي، يجعلني أكبر بطريقة فيها أُمُّ وممتعة. في تلك اللحظة، كان من الممكن أن أموت، لكن ذلك لم يكن يهمني.

أعرفُ الآن ما حدث: طوال كل تلك الشهور من الفتنة والحروب، وسط كل أولئك الجاغونسو، ومن دون تسليحة ولا هوادة، ظلَّ الإحساس دوماً بداخلي، لكنه كان مخفِّفاً، محبوباً. لقد أحببتُ ذِيادوريمُ في غفوةٍ، دون أن أنتبه لذلك، في دفءٍ عادةٍ مريحة. لكن ذلك كان ينفجر الآن، لما حان وقته، متدفقا في واضحة النهار. كان وكان. بقيتُ كذلك لحظة، بعينين مغمضتين، أتلذَّذ بذلك مع قواي الأخرى. ثم نهضتُ.

نهضتُ بدافع الحاجة إلى أن أتأكد، وأعرف إن كان ذلك صحيحًا في الحقيقة. فقط ما نفكر فيه ونحن واقفون على أقدامنا - هذا فقط هو ما يستحق العناء. ذهبتُ لألتحق بهم، حول موقد النار، حيث كان يجلس ذيادوريم رفقة درومو، باسبي وجيزو والدو. نظرتُ إليه، تأملتُهُ، من لحمٍ ودم: كنتُ بحاجة لأنظر إليه حتى أقضي على تلك الصورة الزائفة عن ذيادوريم الآخر، التي كنت قد ابتكرتها. - إيه، زيوبالدو، إيه؟ نعم، هل أنت بحاجة إلى شيء ما؟ - سألني ما إن رأني، بشيء من الدهشة. طلبتُ جمرًا، وأشعلتُ سيجارة. ثم عدتُ إلى الكوخ، بثقل، أعدتُ خطواتي. - إذا كان الأمر حقيقة - فكَرْتُ - فإنني شبه تائه... - رَتَبْتُ أفكارِي: لم أكن أستطيع، وفق القانون السائد، أن أتقبل حقيقة ذلك الأمر. لذلك، كنتُ سأجبر نفسي على نسيان ذلك، من باب الاحتراز وتوخيًا لسلام شرفي. وإلا، لن أتمكن من ذلك، آه، سأضطر لأنسفَ دماغي وأقتل نفسي! أطلق رصاصة على صدغي، الآن، فوراً! أضع حدًا لكل شيء في لحظة واحدة. أو أنني سأهرب، أتبه عبر العالم، أطأ الفضاءات، أجري في الطرقات. بقيتُ أجتُرُ هذه الفكرة - عزاءً جعلني أقرر. آه، لحظتها، كنتُ في منتصف طريق النجاة! شحنتُ مسدسي، كنتُ بحاجة لإطلاق رصاصة - في الغابة - طلقة قوية تردّد صداها - إيه، ما الذي يحدث؟ - راحوا يصيحون، لأن طلقة نارية من دون سبب كان دائماً أمراً يثير الضحك لديهم. - لا بُدَّ أنه كان قردًا صغيرًا، أعتقد أنني أخطأت الهدف... - شرحتُ. وفي الوقت ذاته، كان ذيادوريم أمامي، وكنتُ أرقبه، بقسوة، في صمت، وأنا أقول مع نفسي: - أنكر أنني أحبك، بطريقة سيئة. إنني أحبك، لكن بوصفك صديقًا لا غير!... - قلتُ ذلك مع نفسي وكرّرتُه مع ذاتي. ومنذئذ، صار من عاداتي أن أكرّره على نفسي كل مرة، عندما أكون قرب ذيادوريم. وآمنتُ بذلك، نعم يا سيدي! - كما لو أن طريقة طاعة

الحب ليست دائمًا هي العكس... انظر، بعيدًا في الأراضي العليا: إذا ألصقنا آذاننا بالأرض في بعض الأماكن، نسمع ضجيج مياه قوية تجري هادرة تحت الأرض. هل تنام فوق نهر، يا سيدي؟

كما أقول، دام وقت توقفنا في غوارارافاكا دو غياكوي شهرين. مكان مقفر. ومن هناك، عبرنا كل المناطق المجاورة، وقمنا بجولة واسعة. كنا نتبادل الرسائل كل يوم مع رجال ألابيبي. المستجداث، ولا واحدة. لم يكن يصلنا شيء في المراسلات التي كنا ننتظر وصولها. في الجهة الأخرى من النهر، بدأت عملية إحراق الحقول: كانت الريح، حين ترتد، تحمل دخانًا حزينًا. وليلاً، كان التلُّ يشعُّ بضوء أحمر، ويتوهج باللهيب والجمر. في الجهة التي كنا فيها، على بعد فرسخين تقريبًا، كانت هناك ضيعة صغيرة، ملك رجل لا يزال شابًا، كان صديقًا لنا. - آه، لو أنه أجّرنا زوجته، سندفع له ثمنًا جيدًا... - كان يقول بأسبي، ثم يتنهّد. لكن، من كانوا يأتون هم أطفال صاحب الضيعة على متن حصان ضامر، يحملون حزمات من قصب السكر لبيعوها لنا. أحيانًا، كانوا يأتون على متن حصانين، لا يقل أحدهما ضمورًا عن الآخر، وكانوا خمسة أو ستة أطفال صغار، متراكمين، يمسكون ببعضهم البعض، لا نعرف كيف يثبتون هناك في الأعلى لفرط صغرهم. وكان هؤلاء الأطفال، كلهم، يريدون دائمًا أن يروا أسلحتنا، ويطلبون منا أن نطلق النار. كان ذبادوريم يحبهم كثيرًا، ويأخذهم، كل واحد في يد، بل ويحمل أصغرهم بين ذراعيه، ثم يأخذهم ليُرِيهم طيور الجزر في النهر. - انظر جيدًا، أريت، لقد غيّر طائرُ فارس الرمال ريشه. ذات يوم، قنصنا حيوانًا باكا سمينًا جدًّا، فملحَ بأسبي قسطًا كبيرًا منه ومدّه للطفل الأكبر: - لكي تأخذه هديّة، اعطه لأُمّك، وقل لها إنني أنا من أرسلتُ لها هذا... - أوصاه. ضحكنا. كان الأطفال يخشون الثيران: كانت هناك ضمن القطيع حيوانات

شرسة للغاية، وذات مرة هاجمت بقرةً واحدًا منهم وأرادت أن تنطحه. لكن، مع حلول الفصل الجاف، كانت الثيران، من فرط هزلها ونحافتها، تسيخُ في المستنقعات، وكان بعضها يموت من جرّاء ذلك. عندما تتلبّد السماء بالغبار، كانت النسور تصيرُ نادرة في الأجواء. تحطّ فوق حُرُيجات أشجار الباندايا التي تبرز من المستنقعات. كان جَواؤُ فاكيرُو ينادي علينا، حين يذهب لإخراج الثيران من الوحل. كانت بعض الحيوانات وديعة، تقترب منا لتأكل حفنة ملح، فتلحس الأرض عند أقدامنا. كان جَواؤُ فاكيرُو يعرف كل شيء. يمرّر يده على ضرع بقرة - عشب جيد، هل تتصور ذلك، يا سيدي؟ - وكانت بعضها ما تزال تحتفظ بشيء من الحليب. - ما ينقصنا هو أن نطلق النار، نخرج ونحارب - كان أحدنا يقول بحكمة. لأنّ الجاغونُسو يلين، حين لا يعاني.

في منتصف الطريق تقريبًا، بين الشّمال والشرق، أي ما يعادل أربعة فراسخ من المشي البطيء، كان هناك محلُّ بقاله ريفي، عند مدخل الأعرّاش بالضبط. وهناك كان يُباعُ شراب الموز وجوز الهند، القوي جدًّا، خثيرة رجل العجل المحلاة، تبغ من النوع الجيد، مربى الفواكه، ولحم الخنزير المملح. كنا دائمًا نرسل واحدًا منا، حتى لا نثير الانتباه. جيّز والدو هو من كان يذهب. نسلمه النقود ويطلب كل واحد ما يريد. كلفه ذيادوريم بأن يشتري له كيلو غراما من صابون جوز الهند، لينظف به جسده. كان لصاحب المحل بتان، وكل مرة كان لا بدّ لجيّر والدو أن يشرح لنا، عند عودته، ليل نهار، كيف هما، وكم كانتا جميلتين. - آه، عندما يمحن الوقت، وتسمح لنا الحرب بذلك، آه، وكان ذلك البائع ضدّنا، آه، سأذهب إلى هناك، آخذ إحدى البنتين، وأجعل من الفتاة امرأة... - قال فوفي. - لا تفعل شيئًا كهذا. لأنني أريد أن أقوم بما هو صحيح ومناسب: أذهب، أطلب يد البنت للزواج، ونصبح خطيبين...

- قال ثريول محتجًا. وكان أدميتو وليدوفينو يشدان أغاني عاطفية، يغنيان من أنفيهما. حينئذ سألتُهما: وماذا عن أغنية سيرويز تلك؟ لكنهما لم يكونا يعرفانها. - لا أعرفها، لا تُعجبني. أغاني قديمة جدًا... - لم تكن تعجبهما.

وهنا سُمع هديرٌ رعدٍ خفيف. ثم سرعان ما هدر رعدٌ آخر. امتلأت الأجواء بالنمل الطائر. زخَّ أوّل وابلٍ من المطر. قطعنا خشبًا وسعوفًا من أشجار جوز الهند كي نوسع الكوخ. وجاء الرعاة ليتفقدوا القطيع، ويجددوه، فأخذوا العجلات التي توشك على وضع صغارها. وكان هؤلاء الرجال غاية في السذاجة حتى أنهم حسبونا من الباحثين عن الذهب. ثم بدأت تتوالى أيام المطر الكثيف. دائمًا نفس الشيء - وكان ذلك أحيانًا شيئًا غير جذاب تمامًا. كانت طيور مالك الحزين هي من تستمتع بذلك، بقهقهاتها وضحكها، ومالك الحزين الأبيض يطلق صراخًا ثاقبًا. وهناك، وراء أشجار البيندايبيا، كان كل شيء عبارة عن مستنقع يعج بالضفادع. كانت تنقُّ بحزن سخيف فتجعلنا نضحك في الفترات الباردة بين زخات المطر. ومع بداية فترة الضحل، عاد بارزنابي على متن حصانه البني: جاء يحمل لنا جبة بيضاء كنا قد كلفناه بشرائها، ودفعنا له مبلغًا سخياً مقابل ذلك. - يجب أن تتحسن حياتنا في يوم من الأيام - كنا نقول. الجبة البيضاء مع القهوة الدافئة، لا شيء أحسن من هذا. وعاد هذا الراعي بارزنابي عدة مرات.

آه، وذات يوم مشؤوم، ظهر هناك عند مدخل الطريق يبرز من الغابة، رأيناه يظهر على متن حصانه البني القصير وهو بالكاد يحرك رأسه. اعتقدنا فعلاً أنه هو. لكننا مخطئون. كان واحدًا منّا، خلاصًا ذا سحنة داكنة، يلقب باسم غافياو كوجو، جاء من أقصى الشمال. سقط عليه مطر كثير، وكان كله ملطّخًا بالأوحال، من الشكيمة إلى أعلى الحذاء، بل وحتى جانبنا الحصان. توقف فجأة وقفز مترجلاً، ورأينا أنه كان مبعوثًا مفوضًا. فماذا كان يحمل

معه؟ فتح غافياو كوجو فكّي فمه، لكن الكلام لم يخرج، بل تَتم، واختنق - أكيد أن الخبر كان مستعجلا وفادحا - حسنا، ما وراءك؟ - سأله تيتاو باسوس. - هل رموك بعين شريرة؟ - رفع غافياو كوجو ذراعه، يطلب مهلة. وفجأة، صاح تقرّيبًا:

- لقد قتلوا جوكا راميرو! ...

وهنا حدث انفجار - سمعتُ وسطه صيحةً مجنون أطلقها ذيادوريم -: أخذ كل الرجال أسلحتهم. آه، الوحوش! وفي السماء رأيتُ كل شيء هادئًا؛ سوى غيمةٍ تهدّبت. علا الصياحُ - جمعٌ من البيغاوات. كانت منحدرات الأعشاب المخضرة تتحرك كأنها أشخاص من لحمٍ ودم. صاح تيتاو باسوس مطلقا أوامره. كاد ذيادوريم أن ينهار على الأرض، بالكاد أمسكه جواو فاكيزو.

سقط، شاحبا مثل الشمع، مثل ميت. كان يرتدي ملابس جلدية ضيقة، فأسرعتُ لإنقاذه. كان يأسا هذه المرة. أخذ باسبي ماءً من قرع، وراح يرشه بأصابعه على خدّي صديقي. لكن أن أساعده، لم يسعفني الوقت: ما إن تقدمت بيديّ لأفكّ سترته حتى استعاد ذيادوريم وعيه، مفزوعا، فصدّني، بشراسة. رفض مساعدة أيّ كان، جلس، ونهض لوحده. استعاد ألوانه، وصار وجهه أكثر احمرارا، غاضبا كأنه تلقى صفعة. واغرورقت عيناه الجميلتان بدموع غزيرة. أعطى تيتاو باسوس أوامره، وكان غافياو كوجو يتكلّم. وكل الرفاق مندهشون. الآن، بعد أن لم يعد هناك من قائد ولا بوصلة، كان العالمُ يسير إلى الهاوية.

- أعد ما قلت، يا غافياو!

- أيها القائد، أيها القائد: لقد قتلوا جوكا راميرو.

- مَنْ؟ أَيْنَ؟ احْك!

يا للْبؤْس! فاجأتُ قشعريرة تسري في ذراعيّ. وجفّ كلّ الريق بين فكّتي فمي المشدودتين. بل وشعرتُ بطعنة ألمٍ في بطني. ولكنني أكثر ما أشفقتُ على ذيادوريم غريباً عن كل ما من حوله، كان يتوقف، بين تنهيدةٍ ونحيبٍ، ليهمهم بتهديداتٍ، فرأيت عينيّن مختلفتيّن في وجهه. سقط كل شيء على رؤوسنا، كما تنزل الصاعقة بالفعل.

... من قتله هو هِرْموجينيس...

- الكلبُ! ابن العاهرة! الشيطان! خيانة! سوف يدفع لي الثمن!...
- لم يكن هناك واحد منا لم يصح. كان حقدنا، عندئذ، يزداد، في الحقيقة، على وشك أن ينفجر. هل يمكنُ أن يموت جوكا راميرو؟ كيف استطاعوا أن يقتلوه؟ كنا نصيح، وكان ذلك مثل ثور أسود، يخور وحيداً في قفار غوارارافاكا، وسط العواصف. هكذا، إذن، مات جوكا راميرو. وكنا نصدق بغصبنا، كي نأجل بروز الخوف - الحزن العاري - الذي لم نكن نعرف له سبباً، لكنه كان يضمنا جميعاً، متّحدين، تعساء.

... هِرْموجينيس... رجالُ ريكازداو... أثنين... كثيرون...

- ولكن، أين؟! أين وقع ذلك؟!

- وقعت المصيبة في مكان في جيرارا، قرب النهر، في أرض كُسانكسيري - هناك حيث ينزل جدولُ جيرارا من تلّ فوؤو ويصبّ في النهر... نهر لابّا. يقالُ إن ذلك حدث فجأة، ولم يكن أحد يتوقع ذلك. مات الكثيرون، ممن أرادوا أن يظلوا مخلصين. وهناك مات جواو فريّو، بيكاليو، ليونسيو فينو، لويس باجييو، كامبو، لييتي دي سابو، زي إنوسينسيو... حوالي خمسة عشر رجلاً. بل حدث إطلاق نار فظيع؛ لكن رجال هِرْموجينيس وريكارداو

كانوا أكبر عددًا بكثير... والمخلصون، ممن استطاعوا ذلك، هربوا بشرف. تمكن سيلفينو سيلفا من الهرب، رفقة عشرين وأكثر من الرفاق... لكن تيتاو باسوس أوقف فجأة، وبقسوة، الرواية، وأمسك غافياو كوجو من ذراعيه:

- لكن، هل بقي منهم من هم على استعداد لحمل السلاح لمهاجمة ريكارداو وهزموجينيس، ومساعدتنا في الأخذ بثأرنا ومحو هذا العار؟ إن كانوا، فأين هم؟

- آه، نعم أيها القائد. هناك كل الآخرين: جواو غوانيا، سو كانديلازيو، كلوريندو كامبيلو... يوجد جواو غوانيا رفقة جماعة من رجاله في جبال كواتي. هو من بعثني حاملاً إليكم هذه الرسالة... ما زال سو كانديلازيو في الشمال، لكن معظم قواته توجد غير بعيد عن بحيرة لاغو دو بوي، في جوراميتو... وقد انطلق رسول متوجها إلى هناك. بما أننا أرسلنا أيضًا مبعوثا ليخبر مديرو فاش، في الأراضي العليا، في الجهة الأخرى من النهر... أعرف أن السرتاو حمل السلاح، لكن الرب عظيم!

- حمدًا للرب! آه، لنشكر الرب! إن كان كذلك، فهذا جيد... قال تيتاو باسوس خاتماً كلامه.

وكان كذلك. حربٌ أخرى. شعرنا بالارتياح. وشعرنا بسعادة كبيرة.

- يجب أن نذهب إلى هناك... يجب أن نذهب إلى هناك - أعلن تيتاو باسوس، فوافقنا رأيه بحماس كبير. كان علينا أن نلتحق على عجل بجبال كواتي، في مكان يدعى أموييرا، القريب من غراو موغول. أثناء ذلك، ظل غافياو كوجو يحكي، بكل التفاصيل - ويبدو أنه كان خائفًا من أن يتوقف عن الكلام - كيف أن هزموجينيس وريكارداو ربما خططا لهذا الجريمة فيما بينهما

منذ وقت طويل، وكان ذلك أمرًا معروفًا. كان هرْموجينيس قد أبعد جوكا راميرو من سو كانديلازيو، تحت ذرائع واهية، ودفع بجوكا راميرو لوحده تقريبًا، وسط رجاله هو، الذين التحقوا برجال ريكارداو. وهنا، أطلقوا على جوكا راميرو في ظهره شحنة ثلاث مسدسات... مات جوكا راميرو دون معاناة. - وهل دفنوا الجثة؟ - سأل ذيادوريم بصوت ينم عن ألم كبير ويشي بما يعتره من قلق. فأجابه غافياو كوجو - إنه لا يعرف: لكن، لا بد أنهم قد دفنوه، بكل تأكيد، وفق العادات المسيحية في عين المكان في جيرارا. صار ذيادوريم شاحبا تمامًا: طلب جرعة كاشاسا. شرب. شربنا جميعًا. رفض تيتاو باسوس أن تظهر الدموع في عينيه. - إنَّ رجلًا طيبًا للغاية، يعيش وسط أشخاص في غاية الشر، لا يمكنه سوى أن يتعرض، عاجلاً أم آجلاً، لخطر الموت... - قال لي، وقال ذلك بطريقة يبدو معها أنه ليس جاغونسو بدوره، كما كان، بالطبع. لكن، الآن، بدا كل شيء منتهيًا، ولم تعد ثمة غير الحرب. يد الرجال وسلاحهم. كنا نذهب معهم، كمن يبحث عن حلاوة الانتقام وهو يحرك قدرًا كبيرًا. مات جوكا راميرو فسنَّ موته قانونًا جديدًا.

الآن، كان ينبغي لأحد منا أن يذهب إلى ما وراء التل، ويخطر رجال الأريبي. - إذن، هيا بنا إلى هناك، يا زيوبالدو - اقترح ذيادوريم. لاحظت أنه كان يغلي، من البقاء هناك، دون أن يتحرك. أشرجنا الحصانين. ركضنا حتى بلغنا قمة الجبل. أثناء الركض، كان كل واحد منا يبتلع كلامه. كانت السماء ملبدة والجو ثقيل، تمامًا كما كنا معا. لكن أثناء النزول، استوقني ذيادوريم، ومدَّ لي طرف مطوله لأمسكه. - إنَّ الناس ينسون كل شيء في هذه الحياة، يا زيوبالدو. فهل تظن أنهم سيُقبرون ذكرأه بسرعة؟ - سألني. يجب أن أقول إنني تأخرت كثيرًا في الرد عليه، وأنا أبدو كأنني لم أفهم سؤاله. لأن ذيادوريم استكمل كلامه قائلاً: - حياة المرحوم، مجده. حياة ذلك الذي لم يعد بيننا...

- وكان يقول ذلك بمزيج من الرقة والغضب، من اليأس الذي لم يسبق أن رأيت مثله. ترجّل من على حصانه وتوغّل دون التحكم في خطواته تحت ظلال الأشجار والأجمة. بقيت أحرس الحصانين. تخيلت أنه اختفى لقضاء حاجته. لكنه تأخر كثيرًا فقررت أن ألحق به، لأرى ما يجري، فهمزتُ حصاني وتقدمتُ أسحب حصانه من المطول معي أيضًا. وهناك رأيتُ ذيادوريم منبطحًا على بطنه فوق الأرض. كان ينتحب ويعضّ عشب الحقول. الجنون. أحسست بمرارة على طرف لساني. - ذيادوريم! - ناديتُ. دون أن ينهض، أدار وجهه، وأغلق عينيه على دموعه. تحدثتُ، وتحدثتُ، قلتُ كلامًا مواسيًا، فكان يسمعني، وهو يئنُّ ويطلب مني أن أتركه لوحده، أن أتركه هناك حتى أعود مرة أخرى. - هل كان جوكا راميرو واحدًا من أقربائك؟ - سألتُه بحذر شديد. - آه، لقد كان كذلك، نعم، ... - أجبني بصوتٍ من دون جسدٍ تقريبًا. - عمك، ربما؟ - وافق بحركة من رأسه. أعدتُ إليه مطول حصانه، وتابعتُ طريقتي. بعد مسافة معينة، وحتى أخطر رجال الأريبي، وأتحاشى ضياع مزيد من الوقت، توقفتُ وأطلقتُ النار في الهواء عدة مرات. وصلتُ إلى هناك، ولحسن حظي كانوا كلهم مجتمعين. كانت السماء تمطر، في انسجام مع ذلك الجو الثقيل. - جئتُ أحمل لكم نعي رجلٍ عظيم! - أعلنتُ، دون أن أترجّل عن حصاني. خلعوا جميعًا قبعاته ليستمعوا لي. وحينها صحتُ: - لتحيا سمعة قائدنا جوكا راميرو... - ومن الحزن الذي كان يلفّ صوتي، فهم الكثيرون قصدي. بما أنهم جميعًا تقريبًا طفقوا بكون. - لكن، الآن، يجب أن ننتقم لموت المرحوم! - أعلنتُ مرة أخرى. فاستعدّوا في وقت قياسي ليأتوا معي. - أيها الصديق القديم، تاتارانا، أتعرف، أنك تملك كل المواصفات لتكون قائدًا، أنت شجاع... - قال لي الأريبي في الطريق. نفيتُ ذلك. أن أكون قائدًا، هذا آخر شيء كنتُ أرغب فيه.

لكن، في اليوم التالي، ما إن تلاشت فلول الليل حتى غادرنا. كان
ذيادوريم بجانيبي، متغيراً من الحزن، شاحباً جداً، دوائر بيضاء تحت عينيه،
وفمه مهزوم. تركنا ذلك المكان وراءنا، وقد كان بالنسبة إليّ، أقول لك يا
سيدي، مكاناً لا يُنسى - لم أر قط مرة أخرى غوارارافاكا دو غواييكوي منذ
ذلك الحين.

جمعنا زمام الخيل، وانطلقنا في الطريق، نحمل سلاحاً وأمتعة، عبر الجبال
والسهول - سوف نغزو السّرتاؤ، بحار الحرّ. جرتِ الجداولُ بمياهٍ متسخة.
وهناك، بعد ذلك، كلما تقدّمنا زجرَ نهرٍ، فائضاً بالمياه، وقد تحولت ضفافه
إلى مستنقعات، وكل تلك الجبالِ من المطر التي تُجمّد قممَ الجبال. انتشر
الخبرُ الفظيع على نطاق واسع، وفي كل مكان أجبرنا السكّان أن نتحدث
عن المرحوم بكل إجلال وتقدير. لكننا كنا نمرّ، كما السهم، كما السّكين،
كما النار. عبرنا كل تلك الأرياف الخاصة بالماشية. كنا ندخل إلى القرى
والبلدات في واضحة النهار، نشغل كل الطرقات على طولها، دون أن نخبأ
شيئاً: كنا نريد أن يرى الجميع ذلك الانتقام! وحين بلغنا ألتو دي أموييرا،
كانت خيولنا مرهقة. جَواؤ غَوانيا، بقامته القصيرة، حين رأنا قادمين، جاء
وفتح لنا ذراعيه. كان هناك مع ثلاثمئة من المحاربين. وكان آخرون يأتون
دون توقف. - أخي، تيتاؤ باسوس... أخي، تيتاؤ باسوس... - قال وهو
يرفع صوته أكثر فأكثر. - وأنتم، أيها المحاربون البواسل... الآن ستكون
المعركة العظمى! - ثم أضاف أنه، بعد ثلاثة أيام، سيكون مستعدّاً للخروج
إلى الحرب. كان جَواؤ غَوانيا رجلاً عملياً: لا يحبُّ المماطلة والتأخير. وسو
كانديلازيو، أين كان؟ كان سو كانديلازيو يعاني أكثر فأكثر من المرض، ولا
بد أنه كان لحظتها في لينسويس، حيث ذهب رسولٌ ليستدعيه على وجه
السرعة. ومع ذلك، لم يكن جَواؤ غَوانيا بحاجة لينتظره كي يبدأ القتال ضدّ

الخائنين. وهو ما لمسنا فيه نصيحةً جيدة. وكان آخرون يتوافدون، يتطوعون للمساعدة بالجسد والروح، وبأكبر قدر من الفضل. بل جاء حتى من لم نكن نتصور أنهم سيأتون، مثل السيد نيا فيراساياً، رفقة خمسة وثلاثين رجلاً تحت قيادته - وهو الذي ذاع صيته على طول نهر فيرُدي غراندي. والعجوز لودوجو فيلغيراس، من مونثيس كلاروس، رفقة اثنين وعشرين قنّاصاً. والعقيد ديغُنو دي أبريُو، صاحب الفازيندات الكبير، الذي أرسل بدوره رجاله، حوالي ثلاثين رجلاً من أتباعه، تحت قيادة لويس دي أبرووزينيو، ابنه غير الشرعي. بلغ حجمُ الماشية الحية التي بحوزتنا، لغرض الذبح والأكل، حجمَ قطيع كبير. بالإضافة إلى أكياس من الطحين، وعلب من الملح، والسُّكر البُنّي والقهوة - بل حتى مؤونة من دقيق المَنيهُوت، والرُّزُّ والفاصوليا، توصلنا بها في عربات تجرُّها الثيران. فقط كميات الذخيرة لم تكن توحى بالبذخ، وكان تيتاو باسوس يعضُّ أصابعه ندمًا لأنه لم يجلب ذخيرتنا، التي ظلت تنتظر دون جدوى في غوارارافاكا. لكن ليست الوسائل هي التي تملّي قانون الرجال. خرجنا إلى الحرب. آه، ومن الشَّمال، من منطقة لاغوا دو بوي، جاء أيضًا عدد كبير من شبان باهيّا، تحت قيادة أليبيو مُوتّا، صهر سو كانديلازيو. سوف نحاصر الخائنين حصارًا شديدًا، ولن يكون أمامهما من مفرٍّ. وحتى إن نجحنا في أن يفرّا نحو الغرب، وتمكّنا من عبور النهر، سيلاقيان هناك تحية الحديد والنار: هناك كان ميديرو فاش - مَلِكُ جيراييس!

انطلقنا، نلاحقهم. لكننا دخلنا، يجب أن أقول هذا، يا سيدي، في سلسلة من سوء الحظ. انقلبت علينا الأمور، وحانت ساعة الأداء والخسارات، وما كان علينا أن نتحمّله، كما يُقال. قمنا بكل ما كان في وسعنا، وفي الأخير ساءت كل الأمور. ألا ينبغي للرّب أن يكون في عون من يخرج بحثًا عن

انتقام مقدس؟! ينبغي له. ألم نكن أقوىاء بشجاعة هُزمت الحصان كما ينبغي؟
كنا كذلك. لكن، إذن؟ آه، إذن: إذن، هناك الآخر، الوجه، الوطواط، ذو
القرن، صاحب قدمي التيس، ذو الوجه القبيح، ذلك، ذلك الذي لا يوجد.
الذي لا يوجد، كلاً، ثم كلاً، ثم كلاً؛ هذا ما تنطق به روعي. أحمي نفسي
من وجوده، وأقبل، جاثياً على ركبتي فوق حجارة مسننة، هُذب رداء سيدتنا
العذراء في الكنيسة. آه، هي وحدها من تمدني بالعون؛ لكنها تعينُ بحرًا
لأنهاية له... السَّرتاؤ. لو وضعت أُمنا المقدسة عينيها عليّ، فكيف يمكنُها
أن تراني؟! أقول لك هذا، يا سيدي، وأقول: سلام. لكني، حينئذ، لم أكن
أعرف. كيف كان بوسعي أن أعرف؟ وكان أولئك الوحوش هم الآخر.
يأتي في صفة الكبير والصغير، ويسمونه الشرير الكبير والجرو الصغير. إنه لا
يوجد، ولكنه يتظاهر بالوجود. وهو يشتغل بلا ضمير، ما دام أجله قصير.
حين يحمي، يأتي، ويحمي الشخص. يصعد، مهتزاً، فوق كتفي هُرموجينيس،
مشيراً إلى كل الاتجاهات. بحجم حبة أَيْفيم، داخل أذن هُرموجينيس، حتى
يسمع كل شيء؛ صغيراً جداً، مدوراً للغاية في حدقة عين هُرموجينيس كيف
يرقب بداية الأشياء. هُرموجينيس الذي أصابته اللعنة، وصارت روحه
خواءً. بعد أن كان أشجع الشجعان - حتى نهاية الزمان وإلى يوم القيامة. كنا
نسير ضده. هل نستطيع السير ضدَّ الشيطان؟ من كان بوسعه ذلك، مَنْ؟
لكن، تحدثُ بعضُ هذه المعجزات التَّعيسة. تمامًا كما الطريقة التي تمكنا أن
يفلتا بها من مخالبنا - هُرموجينيس وريكارداؤ - الخائنات. لأنهما أفلتا: مرّاً قريباً
جداً، على بعد فرسخ واحد، ربع فرسخ، فلم نر شيئاً، لم نسمع شيئاً، لم نعلم
شيئاً، ولم تكن ثمة وسيلة لتطويقهما، ومنعهما من ذلك. تسلاً، في صمت،
وسارا عبر الغابة باتجاه الغرب، نحو ساو فرانسيسكو. اخترقا صفوفنا، دون
أن ننتبه لذلك، كما يخترق الليل النهار، من الصباح إلى المساء، ويُفترض أن

سوادهً يختبأ في بياض النهار. حين علمنا بذلك، لم يعد من الممكن اللحاق بهما. لم يعد لدينا غير الهواء لنقبض عليه. أمرٌ محبط حدّ القسوة، أليس كذلك؟ لكن، انتظر، يا سيدي، فالأسوأ هو ما سيأتي: ما حدث فوق ذلك!: جنود الحكومة. الجنود، الجيش، جيوش مجيشة. برزوا من كل مكان، على حين غرة، ظلوا يتعقبوننا عن كثب، مهتاجين، مثل مجموعة من كلاب القنص. جنود الملازم بُلينيو، كتيبة نشطة. وأخرى تابعة للملازم ريبس ليمي. بعد ذلك، جاء جيش كامل، تحت قيادة قائد يدعى كارفاليانيس، ذائع الصيت، وكان يشرب القهوة في قرعٍ ويصق الفلفل الحار مع البارود. عانينا معهم الأمرين، نهرب من مكان إلى آخر. إن الحياة تعجُّ بمظالم من هذا القبيل، عندما يرفع الشيطان لواءه. لأنّ - هذه الجيوش المجيشة، إن حلتّ بالشّمال فبهدف الانتقام لزي ببيلو، بينما زي ببيلو يتسكّع منفياً، بعيداً جداً: ولذلك انقلبوا ضدّنا، نحن رجال جوكا راميرو، وهو الذي أنقذ حياة زي ببيلو من خنجري هِرموجينيس وريكازداو: لذلك فإن كل ما كانوا يفعلون فيه من خلال أعمالهم هو أنهم كانوا يساعدون هذين اللّصين بشكل غير مباشر. لكن، من كان يستطيع أن يشرح لهم كل هذا، وقد جاؤوا مُدجّجين بآلة الحرب، لينفذوا الأهم والطارئ، يمدّدون مخالبهم إلى أعناقنا لكن تفكيرهم بعيد عن أذهانهم، لا يُحلّل الأمور إلّا في عاصمة الولاية؟

أمتنع عن سرّ كل ما حدث، لأنّك، يا سيدي، تعبّت من الاستماع لروايتي، ثم أن أمور الحرب هذه تتشابه كثيراً، دائماً نفس الشيء. قاتلنا بقدر ما استطعنا ذلك - هذا كل ما في الأمر. منذ أن بدأ ذلك، في كورّال دي فاكاس، قرب تلّ كوكوروتو، حيث باغتونا ونحن نستريح. أفلحنا في الهرب، بعد تبادل قوي لإطلاق النار. ومن هناك، هاجمناهم في كوتيكا، فوق هضبة سيباو غيديس: لكنهم حاصرونا، بشجاعة كبيرة. وعند جبال

ساودادي: تمكنا من أن نتفرّق، ونهرب بسهولة. آه، و: بين نهري إستريلينا وماليا دا غراندي ونهر تراسادال - كان كل شيء مروّعا. أتلو عليك، يا سيدي: هل هي لائحة أسماء؟ بالنسبة إليّ، ظلّت مرتبطة بالمعاناة والرعب المتكرّرين. لم أشتك قطّ. فالمعاناة التي انقضت مجدّ، ملحّ فوق الرّماذ. كان ذيادوريم يعيش معي ذلك بطريقة قوية، كما تنغلق أزهار شبّ الليل. كنتُ أبذّر حضوري من ذاته، وأفهم أجمل ما في الحياة من خلاله. الجنود، وهم يسلبون وقتنا، كانوا يقلّبون هذا العالم رأسا على عقب. كانت الذرة تنمو في الحقول، الشحرور يفرّخ، تركت شجرة الكرز البرّي المطر ليسقط من ثمارها الصغيرة، نضجت حبات الجوز فوق أشجارها، وحلّ موسم الحرّ، فانتشرت الببتانغا والبلاذر في الحقول. وهنا ظهرت العواصف من جديد، لكنها كانت وسط تلك الليالي المرصّعة بالنجوم. ثم، بعد ذلك، بدأت الرياح تدور، أكثر قوة - لأن موسم الأمطار أوشك على نهايته. كان الملازم رييس ليمي يتعقّبنا: يريد أن يقاتلنا بحراب البنادق. قتلنا عددا هائلا من جنوده الشجعان. كنا في الأراضي المتاخمة لولاية باهيا، ودخلنا إلى باهيا ثم خرجنا منها، خمس مرات، دون أن نسلم السلاح. ما أقوله أعرفه عن ظهر قلب: خضنا معارك في تلك القفار الشائكة حيث ينعق الغراب الأزرق. الأرض حارقة بيضاء! وذلك الزجاج، أحجار زجاجية مثل الدم... بلغنا حدّ العالم. وأنا أتذكّر هذه الأمور، أطرّد الأرواح الشريرة من نفسي. هل يبدو أننا كنا سننقضي ما تبقى من حياتنا نحارب الجنود؟ لكن شأننا كان مختلفا، كان الدم يستحثنا - تلك الحرب حتى الموت ضدّ الخائنين، وهي التي كانت معركتنا الخاصة. لكن قوتنا لم تكن كافية. آه، كان ذيادوريم يجترّ أفكاره. حين يُعذبك الحقد والحب، لا يكون الغدّ هو العزاء. كنتُ أفعل مثله. لكن، ذات يوم، توصلنا ببعض الأخبار: أن رجال هرّموجينيس كانوا يعسكرون

أسيادًا للمكان في الجهة الأخرى من نهر دو شيكو: على المنحدرات في الجهة اليمنى من كارينيانا، في هضبة أنطونيو بيريرا. تساءلنا. فكّرنا، تحدّثنا عن كل ما يجب فعله وما لا يجب فعله. وكانت هذه هي النتيجة: كان الأهم هو أن نرسل تعزيزات إلى ميديرو فاش، بين خمسين ومئة رجل، متفرقين على مجموعات صغيرة، يمكن أن يبحثوا عن طريقة ليصلوا وهم يتحاشون الممرات الخطيرة. أثناء ذلك، كان على جواو غوانيا، ألييو موتا وتيتاو باسوس، كل على حدة، أن يعملوا على طمس آثارنا في الكاتينغا^(١)، ثم بعد ذلك، يختبئون، لبعض الوقت، في الفازيندات التي يملكها أصدقائنا، حتى يتشتت الجنود ويتفرقوا. كان ذلك أمرًا جيدًا وصائبًا. كان صحيحًا. كان الرّب مُسلّحًا يحمينّا.

أما أنا، فقد ذهبتُ مع ذيادوريم، ألابريي، جيزوالدو، جواو فاكيرو، وفافافا. توجهنا نحو الجهة الأخرى، أي نحو موطني في جيراييس، فكنتُ أمشي مسرورًا. وانطلقنا نتبع هذا المسار: إمبيروسو، جبال باو داركو ومينغو، بحيرة مارواس، دومينوس فويسكوم، كروزيرو داس إمباوباس، تراس داس دواواس سيراس، مستنقع مارتيرس، شلالات روشا، موكو، فازيندا رياشو بايشو، سانتا بولونيا، وبحيرة جابوتيكابا. ومن هناك أخذنا المختصرات: نهر أسومبرادو، ساسوبو، بوسو دانجو، باريزرو دو موكيم. أثناء الطريق، انتقمْتُ لذاتي: منحت نفسي متعة الحياة. تهتكتُ. نمْتُ مع أجمل النساء. في مآليادا، اشتريتُ بعض الملابس. إنّ مغبر العالم هو المرح! لكن ذيادوريم، الصارم على الدوام، لم يكن يلمس أي امرأة، ماعدا في الحلم، ربما. كنتُ أحبه أكثر. وحينئذ، وجدنا أنفسنا أمام بحيرة كلارا. وكانت تلك

(١) كل ما ينمو من شجيرات وأحراش في مناطق السرتاو البرازيلي. (المترجم)

هي مياه نهر دو شيكو - قُوَّتْها - عريضة - تسير نحو مصيرها. وكانت العبارة تلوح قريبة من هناك. في ذلك المكان، قد يكون العبور محفوفًا بالمخاطر، مع كل أولئك الجنود في الجوار. هل كان ينبغي أن نتفرق؟ آه، لكن، كان يكفي أن ننادي صاحب العبارة: - إيه!، يا ملاح! يا ملاح!... - وسيأتي. هكذا، خطرت علينا فكرة: بما أن صاحب العبارة لا يرى غير جَواوُ فاكيرو وفافافا - فإنها معًا سيمران دون صعوبات، رفقة الخيول الخمسة، وسيقولان إنها يريدان الالتحاق ببعض القناصين. وحين يصلان إلى الضفة، سيقود جَواوُ فاكيرو وفافافا الخيول حتى يبلغا مكانًا، فوق المرفأ، على نهر أورو كويًا، يسمى أوليو دا أغوا دازوتراس. وهناك، سنلتقي جميعًا.

بقينا فقط مع حصانٍ واحد، أنا وألاريبي، ذيادوريم وجيزوآلدو، وسرنا على ضفة النهر متناقلين. بقينا ننتظر ما سيحدث... وهناك، بعيدًا بعض الشيء، كان مرفأ لنقل الخشب. - هل تشعر بالخوف، يا زيوبآلدو؟ - سألني ذيادوريم. أنا؟! معه يمكن أن أركب أي زورق أو سفينة! - إنَّ معبرَ العالم هو الشجاعة - قلتُ. ثم، لَوْحنا بينادقنا لقارب كبير - وكانت شارته في المقدمة عبارة عن رأس ثور، ربما قد تجلب لنا الحظ. نفخَ الملاح في القرن مطلقًا صيحة طويلة، ثم رسوا. نحن الأربعة، مع الحصان الصغير، لم نكن نزن الكثير - بضعة كيلوغرامات زائدة. ثم ركبنا، بعد أن حيَّانا صاحبُ القارب، باسم سيدنا يسوع المسيح، وقال: - أنا، هنا، صديقٌ للجميع، نظرًا لظروفي... - فقبل ألاريبي جرعة كاشاسا، وكذلك فعلنا جميعًا. فقال جيزوآلدو ردًا على ذلك: - الجميع؟ بالنزول عبر النهر في القارب، من يحكم هو المُجذِّف. - في الحقيقة، كنا نتجه نحو عالية النهر، لكن بواسطة مجذِّفين أقوياء. كانت الريح تدفع الشراع، دائمًا - حتى أن من يجذِّف لم يكن بحاجة ليُظهر كلَّ موهبته. سألونا عن أخبار السُّرتاؤ. كان هؤلاء الناس بعيدين

عن كل شيء، فلم أفلح في التكهّن بأنهم كانوا شرفاء. السّرّتاؤ لا يُعطي أخبارًا أبدًا. قدّموا لنا مهروسة غنية من المنيّهوت. - من أين عبرتم؟ - سألنا صاحب القارب. - جئنا عبر جبال رومبيّ ديبًا... - أجبناه. كذبة غير مؤذية. كان بوسعنا أن نقول أيضًا إننا قد وصلنا عبر ساو فيليبي. لم يصدقنا صاحب القارب، وهز كتفيه قليلًا. لكنه سهّل عبورنا وهو يمرُّ أمام مرفأ أوروكويا. آه، أوروكويا، نهري! ومياهه الصافية الآمنة. عبره سرنا، صعدنا نحو عاليته مسافة فرسخ ونصف، مقابل إكرامية سخية. الأنهار الجميلة هي تلك التي تجري نحو الشّمال، وتلك التي تأتي من الغرب - في طريقها لمعانقة الشمس. ورَسَوْنَا فوق جسر عائم، في مكان من دون شاطئ، به أشجار سامقة - أشجار البغونية ذات الأزهار البنفسجية، التي تكثر على ضفاف نهر أوروكويا. أشجار الأوراق السوداء الظليلة، نهر أوروكويا، وضفافه. ورأيتُ جيراييس، موطني!

وهناك، لم تكن غابة فحسب، بل أدغالًا حقيقية! صعدنا مباشرة نحو أوليو دا أغوا دارؤثراس فوجدنا أول بستانٍ - يفرق الهضاب -: حفيف الرّياح المعلق في أشجار البوريتي، يوشح هامات الخيل العارية، أوراق أشجار السّاسافرا - التي تفوح برائحة الخزامى، فتلطف الأجواء؛ وتلك المياه التي تحيط بها على الدوام. هذا النسيم الذي كان يسوط جسدي حدّثني بصيحات الحرّية. لكن الحرّية - أراهنُ - ما تزال فقط هي فرحُ طريق صغير، يشقُّ بين القضبان سجونا واسعة. ثمة حقيقة ينبغي تعلّمها والاحتفاظ بها سرًّا، ولا يلقنها لنا أحد: الطريق نحو الحرية. أنا رجل جاهل. لكن، قل لي، يا سيدي، أليست الحياة شيئًا فظيعًا؟ ترهّات. سرّنا، سرّنا.

وكذلك كان، كما قلتُ، تقدّمنا بخطى ثقيلة، بصعوبة وسط الهضاب، ندوس أعشاب السّابيّ في الحقول أو الرّمال الملونة المتراكمة مثل الإسمنت،

لا نلاقي غير الماشية المتتجعة أو ثورا مجنونا يمشي لوحده. وكان كل بستانٍ من أشجار البوريتي، حين نقرب منها، يمنحنا هدوءً خفيفاً من دون أخبار - أشجار بوريتي غابوية يعلوها ضجيج النخيل: أغصان وشفاف ماء. ثم، تابعنا، رغم تعبنا الكبير، ومن دون أن أعرف، مسارنا الرباني عبر جبال جيراييس، فبلغنا فجأةً فازيندا سانتا كاتارينا، في بوريتيس ألتوس، عند منابع أحد الأنهار. يا لها من أعداد كثيرة من الفراشات! كان شهر أيار فتوقّفاً هناك مدة يومين، وكان كل شيء مزهراً، كما كان كل شيء عذبا ورقيقا، في لقائي مع أوتاسيليا. لقد قلتُ لك ذلك. كيف أعجبنا أنا وأوتاسيليا ببعضنا البعض، كيف تحدثنا، كيف قررنا خطوبتنا، وكيف ودعّتها في اليوم التالي، هي برأسها الصغير الذي يشبه رأس قطة، بيضاء في أعلى الشرفة، تمنحني ضوء عينيها؛ بينما أنا أرحل مع ذيادوريم والآخرين. وكيف تابعنا سيرنا، بحثاً عن العدد الأكبر من رجال ميديرو فاش الذي كان يقوم بدوريات على بعد خمسة عشر فرسخاً من هناك، بين راتراغاجين وفيريدا فوندا، فالتحقنا به ووفرنا قسطاً من الطريق حين بلغنا مكاناً يدعى بون-بوريتي. أذكر ذلك جيداً، لأنه مِنِّي. رأينا منظرًا رائعاً: السماء عند الغروب، بذلك اللون، عند المساء، وهي تتخذ لوناً وردياً. وهناك في تلك الأعالي: طيور الدُّغناش تحب تلك البرودة. وكيف كانت تغني! في سانتا كاتارينا. أرى ذلك مرة أخرى. تلك الأزهار التي تُسقطها الريح. عندما أصلي، أفكر في كل هذا. باسم الثالوث المقدس.

ما حدث بعد ذلك كان كما يلي: لقائنا مع ميديرو فاش، في بون-بوريتي، في فسحة واسعة وسط الأشجار، كما قلتُ من قبل، وهو يتوسط رجاله، الأقوياء، المنضبطين، في ذلك الوادي المنخفض. ميديرو فاش، وجه، بلحيته، وقبعته التي ينزلها على جبينه، هذا الشخص المحترز، الحكيم،

حكمة الكبار، دون أن يكون عجوزًا. وبشأنه، قلت مع نفسي: - هذا الرجل صالح... - ثم قبل جبين ذيادوريم، وقبل ذيادوريم يده. يمكن أن نطلب المباركة من أحد مثله، ونفتخر بذلك. كان ميديرو فاش ينشق السعوط. ميديرو فاش، الذي كان يعطي التعليقات التي يجب نقلها إلى الآخرين. وكان له ضابط صفّ. خرجنا من هناك، كلنا أمل، عبر الجبال والوديان. السّرّتاو المتوحش: البيغاوات. الشيء الوحيد الذي فرضه علينا ميديرو فاش هو هذا: - هَلُّويا! - كان ذيادوريم قد اشترى منديلًا كبيرًا أسود، منديلًا جنائزياً يحتفظ به فوق قلبه. هضبة عسيرة. بعد ذلك، عبرنا نهرًا به شاطئ رملي - نهر ذو ضفاف منخفضة بها فقط أشجار بوريّتي، أشجار بوريّتي صامّة. وزهر البغونية أورو كويّا - بنفسجية لازوردية، لون بنفسجي يصعد نحو السماء. في تلك الطريق - أذكر ذلك جيدًا - التفت ذيادوريم نحوي، ووجهه يشبه تقريبًا وجه طفل صغير، بملامحه الرقيقة. - زيوبالدو، أنا سعيد... - قال لي. أجبْتُ بنعم كاملة. وهكذا بدأنا تلك الحكاية الحزينة من السير الكثير والمعارك القليلة، ومن المعاناة، وهو ما حدّثك عنه من قبل، إلى غاية الآن، إن لم أكن مخطئًا، حيث ظهر زي بييلو مرة أخرى، رفقة خمسة رجال، بعد أن نزل عبر نهر باراكاتو على متن عبّارة من جرائد سعف نخيل البوريّتي، وحيث ورث قيادة مجيدة؛ وما فعلناه بعد ذلك، نحصد الانتصارات، تحت أوامر زي بييلو، أظن أنني قد حكيتُ لك ذلك إلى غاية تلك المعركة التي خُصناها بشراسة وربحناها كما ينبغي، في فازيندا ساو سيرافين. لكن، هذا، أنت تعرفه من قبل، يا سيدي.

كيف، أهذا كل شيء؟ آه، يا سيدي، ولكنني أظنُّ أنّك تعرف فعلاً كل شيء - لقد بُحْتُ لك بكلّ شيء. لتعرف النهاية، كي تطلّع على البقية التي تنقصك، يكفيك، نوعا ما، أن تكون متبها لما حكيتُ لك، وأن تحرّك

صَلَبَ مَا قَلْتُ لَكَ سَابِقًا. لِأَنِّي لَمْ أَحْكُ شَيْئًا مِنْ بَابِ الصَّدْفَةِ: رَكَزْتُ عَلَى الْأَهَمِّ، أَعْتَقَدُ مَوْقِفًا. إِنِّي لَا أَبْذُرُ الْكَلِمَاتِ. وَقَرْدِي يَرْتَدِي لِبَاسًا. فَكَّرَ جِدًّا، سَتَجِدُ. ضَعْ لَذَلِكَ حَبْكَ. فِي انْتِظَارِ ذَلِكَ، تَصِلُ قَهْوَةٌ أُخْرَى، وَنَدَخْنُ سِجَارَةً جَيِّدَةً. إِنِّي أُنْسِجُ أَيَّامِي بِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ: أَفَكِّرُ فِي الْمَاضِي. وَأَنَا جَالِسٌ فِي هَذَا الْكَرْسِيِّ الْكَبِيرِ الْعَتِيقِ، مِنْ كَارِينِيَانَا. لَدَيَّ كَيْسٌ صَغِيرٌ مِنَ الذِّكْرِيَّاتِ. أَنَا رَجُلٌ جَاهِلٌ. يَنَاسِبُنِي ذَلِكَ. أَلَا نَلْمَحُ الضُّوْءَ الصَّغِيرَ الْمُنْعَزَلَ فِي الظَّلَامِ فَقَطْ؟ أَرِيدُ أَنْ أَرَى تِلْكَ الْمِيَاهِ، أَنْ أَرَى ضَوْءَ الْقَمَرِ...

أَوْ رُوبُو؟ مَكَانٌ، قَرْيَةٌ فِي بَاهِيَا، بِشَوَارِعِهَا وَكُنَائِسِهَا، قَدِيمَةٌ جَدًّا، جَدًّا - كَيْ يَسْكُنُ فِيهَا النَّاسُ مَعَ أَسْرِهِمْ. تَفِيدُنِي أَفْكَارِي. تَفِيدُنِي فِيمَا أَقُولُ لَكَ: أَوَدَّ لَوْ أَشْعُرُ بِالذَّنْبِ؛ لَكِنِّي، لَا أَشْعُرُ بِهِ بِخُصُوصِ هَذَا الْأَمْرِ. لَكِنِ الشَّيْطَانُ لَا يَوْجَدُ فِي حَقِيقَةِ الْأَمْرِ. إِنَّ الرَّبَّ هُوَ الَّذِي يَتْرَكُ الْأَلَةَ لَتُضْبَطَ حَسَبَ رَغْبَتِهَا، إِلَى أَنْ تَحِينَ سَاعَةُ الرَّقْصِ. رَحَلَةُ الرَّبِّ فِي مُنْتَصَفِ الطَّرِيقِ. مَتَى صَرْتُ مَذْنَبًا؟ هُنَا مِينَاسُ: هُنَاكَ بَاهِيَا؟ لَقَدْ ذَهَبْتُ إِلَى تِلْكَ الْبُلْدَاتِ، إِلَى تِلْكَ الْقُرَى الْقَدِيمَةِ الْمَعْلُوقَةِ... السَّرْتَاوُ هُوَ مَكَانُ الْإِنْسَانِ الْوَحِيدِ. يَقُولُ عَرَّابِي كَيْلِيمِينُ: إِنِّي مِنَ السَّرْتَاوُ حَتَّى النِّخَاعِ. السَّرْتَاوُ: إِنَّهُ يَسْكُنُنَا. أَتَتَّهَمُنِي، يَا سَيِّدِي؟ لَقَدْ قَلْتُ لَكَ كَيْفَ اخْتَارَنِي هِرْمُوجِينِيْسُ، وَكَيْفَ اسْتَسَلِمْتُ لِلْأَمْرِ. لَكِنِ سَيِّدَتِي هِيَ الْعِذْرَاءُ، وَالنَّدَى الَّذِي يَنْزِلُ عَلَيَّ. هَلْ كَانَتْ حَيَاتِي بَيْنَ بَيْنٍ؟ إِنْ الْوَطَاوِيْطُ لَمْ تَخْتَرْ لَتَكُونَ بَارِدَةً وَفُظِيْعَةً بِذَلِكَ الشَّكْلِ - يَكْفِي أَنَّهَا اخْتَارَتْ أَنْ تَرْفُفَ فِي الْعَتَمَةِ وَأَنْ تَحِبَّ مَصَّ الدَّمَاءِ. الرَّبُّ لَا يَنْقُضُ كَلَامَهُ أَبَدًا. الشَّيْطَانُ يَشْتَغُلُ بِاسْتِمْرَارٍ. رَحَلْتُ، غَادَرْتُ جِيرَايِيْسَ، مَوْطَنِي: عَدْتُ رَفَقَةً ذِيَادُورِيْمَ. أَلَمْ أَعُدْ؟ رَحَلَاتٌ... ذِيَادُورِيْمَ، الْأَنْهَارُ الْخَضِرَاءُ. الْقَمَرُ، ضَوْءُ الْقَمَرِ: أَرَى أَوْلَثَكَ الرِّعَاةَ يَقْدُودُونَ الْقُطْعَانَ عِنْدَ الْفَجْرِ، وَالْقَمَرُ لَا يَزَالُ فِي السَّمَاءِ، يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ. أَسْأَلُ الْبُورِيَّتِي عَنْ بَعْضِ الْأَشْيَاءِ، فَيُحْيِيْنِي: شَجَاعَتِي.

يريدُ البوريتي أن يكون كل شيء أزرق، ولا يفارق ماءه - تعوزه مرآة. ليس المعلم من يعطي دروسًا على الدوام، بل ذاك الذي يتعلم فجأة. لماذا لا يتحدثون جميعًا، ليعانوا ويتصروا جميعًا، بشكل نهائي؟ أود أن أشيد مدينة دينية. هناك، في تخوم الهضبة، عند منابع نهر أوروكويًا. لكن نهر أوروكويًا ينبع صافيًا في العتمة. ثم يأتي ليصب في ساو فرانسيسكو، النهر الرئيسي. لقد قسم نهر ساو فرانسيسكو حياتي إلى شطرين. في بيغري، قطعت أمي وعدًا على نفسها؛ هل كان ينبغي لعراي سيلوريكو مينديس أن يذهب ليشتري الرُّز، في مكان ما، بسبب موت أمي؟ استولى ميديرو فاش على السلطة بعد أن أحرق بيت صاحب الفازيندا. مات ميديرو فاش فوق الحجارة، مثل ثور وحيد يخور خوارًا قبيحًا؛ وقد قارنته بالثور مرة من قبل: ثور أسود بالكامل يخور وسط العاصفة. أضاء زي ببيلو طريقي. كان زي ببيلو يذهب ويعود، مثل كائن حيٍّ كله من ريحٍ ونارٍ، زرزز... مثل البرق، سريعًا مثل فكرة - لكن التراب والماء ما كانا يرغبان في أن يعرفا عنه شيئًا. عراي كيليمين، مختلف تمامًا، لا يُعرف له قريب، ويتحدّر من أرض بعيدة - جبال أوروبو في إندايا. أما جوكا راميرو، فكان مختلف جدًا ومسيطرًا، حتى أنه وهو على قيد الحياة، كان يُحسب في عداد الموتى. سو كانديلازيو؟ غضب سو كانديلازيو يائسًا. قلبي هو من يفهم، ويساعد فكري على الالتماس والوصف. وها هو جوكا راميرو يرقد مهزوما، مدفونا وسط أشجار الكارناووبا، في أرضٍ من الرمال والملح. سو كانديلازيو، ألم يكن بشكل من الأشكال، قريبًا من أقرباء عراي كيليمين؟ جاءني ذبادوريم دون علمٍ مني ودون إرادتي - كنتُ أحدثُ ذلك. هل كان حلما سيئًا؟ كما فكرتُ كثيرًا ودائمًا في أوتاسيليا؛ لدرجة أنني كنتُ أرى أعشاب البكريل تصفرُّ في مياه النهر الزجاجية - الطحالب، والزنابق بمختلف أنواعها. لكن، أوتاسيليا، بالنسبة إليّ، كأنها كانت في بيت القربان.

نُيورنيا - في أرويرنياس - بنتُ آنا دوزوزا. آه، ما كانت تستحق الازدراء... هل أرادت أن تنقذني؟ في أكثر المياه صفاء، يسكن ضفدع يشخر. شيء تافه! ثم، تلك العظمة، تلك البساطة: نُيورنيا عاهرة وجميلة. كانت تلمع بالنسبة إليّ كما يلمع حجر إيتاموتينغا. تمائم. والفتاة ميوزوتيس؟ لا. رُوزُورْدَة. تذكرتها؛ كنتُ أريد كلَّ ذكرياتي معي. الأيام التي انقضت كانت تسير نحو السَّرْتَاوْ في طابور واحد. تعود، مثل الخيل: الفرسان عند الفجر - تلك الساعة التي تحظى الخيول بحصتها من الأكل. هل تذكر أغنية سيرُوز؟ وتلك الشيطان الرملية وجزر النهر، التي نلمحها ثم بعد ذلك نحفظ بها وراءنا. كان ذِيادوريمُ يعيش إحساسًا واحدًا في الوقت ذاته. السَّرُّ الذي منحني الحياة: دوخة الأماكن المرتفعة. أولاً، أدركتُ جمال تلك الطيور، طيور نهر فيلياس - أدركته إلى الأبد. طائر فارس الرمال. هذه الأشياء، هل يمكن أن أبيعها؟ إن بعثُ روحي، فأنا أبيع الأشياء الأخرى أيضًا. الخيول تصهل من دون سبب؛ ماذا يعرف الرجال عن الحرب؟ الجاغونُسو هو السَّرْتَاوْ. أنت تسألني، يا سيدي: من كان ذلك الذي كان هو الجاغونُسو زيوبالدو؟ لكن ذلك الطفل، فالتّي، بينما كان الأب والأم يقسوان عليه قانونيا، كان هو يستنجد بالأجانب لينقذوه. بل حتى جازيفيداو، لو كان هناك، لجاء بكل وحشيته، لينقذه. هل جنّوا جميعًا، في هذا العالم؟ فنحن نملك رأسًا واحدًا، وكل ما يحدث الآن من أمور وما سيحدث، وكلها مهمة جدًا، مختلفة تمامًا، سنضطر لنزيد من حجم رأسنا، كي تتسع لكل شيء. كل ما يجري من أحداث، أحاسيسنا القويّة - ما يُحدثُ الرّياح. لا يمكنك أن تعيش بالقرب من شخص ما، وتعرف شخصا آخر، من دون خطر الحقد، إلّا إذا كنتَ تحبُّ. فالحبُّ شيء من الصحة، استراحة في الجنون. الرّب هو من يعرفني. ريّنالدو كان هو ذِيادوريم - لكن ذِيادوريم كان إحساسًا أشعر

به. ذبادوريم وأوتاسيليا. أوتاسيليا كانت قرية مثل السّلام، تمامًا كما هذه المياه الشاسعة النائمة في أورو كويّا، هذا النهر الغاضب. البعيد على الدوام. والوحيد. تتذكّره، يا سيدي، وأنت تسمع قيثارة تُعزف. موسيقى هادئة حتى أنه لا يمكن الرقص على نغماتها - لحنٌ متناثر، صاف جدًا، لازمة موسيقية... - الرّب في كل شيء - حسب الإيمان؟ لكن كل شيء يعيش أكثر من اللازم. الرّب، يمكننا أن نلمحه، يمكننا ذلك، لو توقّف كل شيء نهائيًا. كيف يكون بوسعنا أن نفكر في كل لحظة وحين في المستجدات الجديدة، ونحن منشغلون دائمًا بهذه الأمور العامة؟ فكل ما كان من قبل هو بداية ما سيكون مستقبلًا، لأننا في مفترق الطرق في كل لحظة. أفكر هكذا، عن طريق القياس. الشيطان في الشارع... الحياة أمرٌ في غاية الخطورة؛ وهي ليست كذلك في الوقت ذاته. لا أعرف كيف أشرح هذه الأمور. فالإحساس يعني شيئًا معينًا لمن يتلقاه، لكنه شيء مختلف لمن يُعطيه. ما أريده مرسومٌ في كفّ يدي. تمامًا مثل ذلك الحجر الذي جلبته من جيكيثينونيّا. آه، لم يكن هناك ميثاق. أيّ ميثاق؟ تخيل، يا سيدي، أن أكون كاهنًا، وأن أضطر يومًا ما لأستمع إلى فظاعات هرّموجينيس في غرفة الاعتراف. ميثاق أن يموت الواحد بدلًا عن الآخر - وميثاق أن يعيش الواحد بدل الآخر؟! أرفض ذلك. لو أردت أن أعقد ميثاقًا مع الرّب نفسه - هل أستطيع؟ ألا يَحْتُ هذا من الجذور كلّ ما وقع من قبل؟ أقول لك: الشعور بالذنب؟ كما حدث لذلك الرجل الذي أكل النمر ساقه؟ ما ذنب النمر؟ ما ذنب الرّجل؟ أحيانًا، حتى شرح عرابي كيليمين لا أتقبله؛ لأنني أرى أنه ينقصه شيء ما. لكن، الخوف، أشعر به، بشكل معتدل. الخوف الذي أشعر به هو الخوف من الآخرين. لا بد لنا من وجود الرّب، تمامًا؛ وأن يشغلنا الشيطان بعدم وجوده الكامل. ما هنالك أمرٌ واحد أكيد - وحيد، يختلف من شخص إلى آخر، ويتنظر من الرّب أن نقوم به. في

هذه العالم أشرار وطيبون - كل درجات الناس. لكن، إذن، كلهم أشرار. لكن، ألا يكونون كلهم طيبين؟ آه، من أجل المتعة والسعادة يجب أن نعرف كل شيء، ونشكل الروح، في الوعي؛ ولا حاجة لنا بذلك لنكون تعساء: فالحيوان حين يتألم، يعاني من دون أن يعرف لماذا. أقول لك ذلك: كل شيء ميثاق. كل الطرقات زَلَقَة. لكن، في الوقت نفسه، السقوط لا يضرنا كثيرًا - نهض، نصعد من جديد، ونعود! هل ينزلُ الرَّبُّ؟ انظر واسمع. هل أنا خائف؟ كلاً، إنني أقاتل. يجب أن ننفي وجود «ذلك الذي يمكن أن يُذكر». ما الذي تقوله الرعشة الخفيفة عن الأوراق؟ تلك الأراضي العليا الشاسعة، في الرياح، تحت جحيم البرق، غضب الرعد والنمور الفظيعة. السَّرَتَاوُ يخاف من كل شيء. لكن في يومنا هذا، أعتقد أنَّ الرَّبَّ شجاعَةٌ ومَرَحٌ - إنَّه طيبة قادمة، أقصد. هل تسمع، يا سيدي، غابة أشجار البوريتي؟ ويرافقني قلبي. الآن، سوف تسمع لي، يا سيدي، فيما أخطأتُ وأذنبْتُ.

لنعد إلى ما سبق. إلى بوريتي بيتنادو، أوي مائي، نهر سونينيو، فازيندا ساو سيرافين؛ وأماكن أخرى، منسية نوعاً ما. عند أقدام الهضاب، فيما بين حمولة تلك الأنهار، أو حين نصعد وننزل بسرعة عبر طرقات موحلة غير صالحة، مبلّلة بالمطر ومزيد من المطر، كنا نغلي - تحت القيادة الرائعة لزي بيبيلو - ونستمتع بالحرب. زي بيبيلو فاش راميرو - المجد لهذا الاسم! كنا نتعقّب آثارهم، آثار رجال هرْموجينيس - حتى نقتلهم، نقضي عليهم، ونطاردهم. وكان هرْموجينيس يركض في الزوبعة، بعيداً عن عنا، دائماً. كم كانوا يتفتّنون في الهروب! ولكنني كنتُ قد تعودتُ على كل ذلك. كان شيئاً سيئاً وجيداً.

ثم، حين فتحت الرِّيحُ القويّة عنان السماء، وتحسّن الجو؛ كنا في الأعشاب العالية على تخوم الأراضي العليا. كنا بين عشرين وثلاثين جاغونسو، وزي

ببيلو يسير بسرعة جنونِيَّة. وأعني أننا كنا نُحلِّق فوق الهضبة. الهضبة وحيدة - الاتساع. الشمس. والسماء التي لا نستطيع أن ننظر إليها من فرط لمعانها. الأخضر المتناثر في المروج. الرمال الصلبة. أشجارى الصغيرة المتقرَّمة. ومن حين لآخر، كانت تمر أسراب من الببغاوات - كثيرة جدًا - الثرثرة. كانت الببغاوات الصغيرة تعلن عن نفسها، صائحة. هناك، هل كانت تمطر؟ تمطر - لكنها لا تُخلف بركا، لا ترفعُ سيولا، ولا تصنع وحلاً: تمتصُّ الأرض عميقاً كلَّ المطر في دقيقة واحدة، وتتغلغل كما تفعل بقعةُ زيت. ثم سرعان ما تتصلَّب الأرض، ويصبح الماء نادرا. مرَّ شهر شباط. الهضبة، الهضبة، الهضبة.

النهار، حرٌّ فظيع، لكن مع حلول الليل، ينتعش الجو، وعند الفجر نرتعش من البرد، إنَّك تعرفُ ذلك، يا سيدي. كنا نحرق أوراق أشجار الأراباكافا لنطرد الزنابير. وهو ما كان جميلا، حين يقطع الجمر المشتعل شرارات لا تنتهي - يتطايرُ ألسنةُ من اللهب. كان ذيادوريمُ سعادتي. نفخ معاً على النار، جاثيين على رُكبتنا، متقابلين. نضحك. رغم أن شباط هو أقصر الشهور: لكن أثناء ذلك تنضج كل حبات جوز الهند فوق أشجار البورييتي، وحين تتوقفُ السماءُ عن المطر، نكتشف النجوم مجتمعةً بالكامل. كنتُ أضحك في كل مرة. كان رجل ينام ورأسه إلى الخلف، يضع إصبعين على ذقنه. إنه بيتولو. كان بيتولو هذا، حسب ما أعرف، مجرماً خطيراً، في سجله جرائم ارتكبها في مزارع المطاط، فوق جانوازيا؛ لكنه وُلد في السهل. في كارينيانا، نهر شبه أسود، ضخم جداً، طويل ومأهول. ثم إنه كان يروي قصصاً فيها دائماً كثير من الحبِّ. كان ذيادوريمُ يحبُّ ذلك أحياناً. لكن ما يعرفه ذيادوريمُ هو الحرب. أنا، كانت فكري عن الحب أنه يتحول إلى فسوق. ارتبكتُ لذلك أيما ارتباك. - طائر السنونو الذي يأتي ويذهب، ما يريد هو أن

يحط فوق بُرجي كنيسة كارينيانا... - كان يقول بيتولو. فتجتاحني رغبة من تلك الرغبات الجارحة في أن أمّر على مهل يدي فوق الجلد الأبيض لجسد ذيادوريم، الذي كان شيئاً مخبأ. وأوتاسيليا، ألم كن أفكر فيها؟ لماما، فكرتُ فيها. كنتُ أفكر فيها زوجة لي في المستقبل، وفي متعتي معها. سأعود يوماً إلى سانتا كاتارينا، سأتحول معها في بستان أشجار البرتقال. أوتاسيليا، عسلُ إكليل الجبل. هل كانت تصلي لأجلي؟ كانت تصلي. اليوم، أعرف. وفي تلك اللحظات الجميلة كنتُ أستدير على جانبي، لأنام نومًا حكيمًا فوق حالات مجهولة.

لكنني تحمّلت قدري. العالم، ذلك الذي كنا فيه، لم يكن عالمًا لنا: كان فضاء لمن يملكون نصفَ عقل. هل لنسمع النسر يضبّح، طيور السّرّيبا تنقّ، النعام والغزلان تجري بل تدخل أحيانًا وتخرج من الحظائر القديمة التي نجتمع فيها القطيع، في قرى فقيرة مهجورة؟ هذا، حين تتحسن الأراضي الوعرة فتصير مقفرة بشكل أقل. وُجدت الهضبة من أجل تلك الأزواج من حيوان التابّير التي تقطع طرقًا لا نهاية لها، عبر أحراش وأدغال، وتنفضُ قدرتها المتوحشة دون اكتراث بأي أحد. في بعض الأماكن، طيور طوقان مثل الأسياد، تسكن الأشجار، في متناول طلقة من مسدسي - كل هذا، ألخصه لك، يا سيدي، بشكل سيء. أو الحجلة، التي تنادي على كتاكيتها، كي تنبش التراب وتستخرج معهم حشرات صغيرة صالحة للأكل. وأخيرًا، أكُل الذباب وساكنُ الكهوف وأصواتها المزعجة. آه، والشحورور الأسود الذي يشدو لحنا جميلًا. بساتين. لا شيء غير ذلك، ولا إنسانًا فان. عدمٌ لأيام كاملة، كلُ العدم - لا طريدة، لا طائر، ولا سمّان. وأنت تعرف، يا سيدي، كيف أن تُبحرُ في السّرّتاو ونستيقظ كل صباح في مكان مختلف، دون شعور بانعدام الجذور. لا شيء تتعود عليه العين، وكلُّ صلْبٍ يذوب. هكذا هي

الأمور. منذ طلوع الشمس يهذي السَّرَتَاوُ. المساحات الشاسعة. أرواحها. لكن زي ببيلو، الهائم، كان يُقَوِّض صلابتنا. إِنَّ هِرْمُوجِينِسْ لم يكن يفعل في حياته شيئاً آخر غير الهروب، هذا ما لم يكن يفهمه - تابع حفر قبرك، هيا، سوف ترى! - دمدّم، وقد نفذ صبره. رغم أنه، في تلك الفترة، لم يتكلم كثيراً؛ أو، حين كان يتكلم، كنتُ أرفض أن أسمعه. أقول إِنَّ كل شيء تافه عند المدنيين. كان زي ببيلو يُزْعِجُنِي، ويقرّني بعض الشيء. كنتُ أفضل حديثاً، بسيطاً جداً، مع أَلَارِيْبِي، أو مع فافافا الذي كان يحب الخيول حباً أخوياً، يفهم كل شيء يتعلق بها، وكان محترفاً في تربيتها وترويضها. كان زي ببيلو يكبر في عيني فقط عشية الأحداث العظمى - في القرارات الحاسمة والمنعطفات الكبيرة - لحظات الفعل. الممارسة. ما عدا هذا، كان هذا العقل التافه قد بدأ يزعجني.

وأنا أتحرك في الجبال، أنتظر ما سيأتي، جدّدتُ أفكاري. كنتُ أفكر في الحبّ. بحُبّ. بصراحة، هل كانت أوتاسيليا خطيبتني؟ ولكنّ ما كنتُ بحاجة إليه امرأة تعتنني بصحّتي، إلى بقرةٍ وحليب. ومع ذِيادورِيم، كان عليّ أن أحافظ على شيء من القرف. تجاه نفسي، أم نحوه بالأحرى؟ تلك السجون المستقرة بثبات في أعماق نفوسنا، في الغموض. وسرعان ما اكتست أفكاري طابعاً أكثر عدوياً، مثل لحظات الاستيقاظ في الحلم: وكنتُ أرى ما أثارني - كيف كان ضحكه يبدأ، دافئاً، في عينيه، قبل أن يخرج من ذلك الثغر؛ كيف كان ينطق اسمي بمتعة صادقة؛ كيف كان يمسك الزمام والبندقية، بيديه الدقيقتين جداً تينك، وذلك البياض. تلك الأراضي العليا بقممها المسطحة، جميلة لأنها شاسعة للغاية، فيصير الناس فيها صغاراً جداً. كما لو أنني كنت أضع في قدميّ نعلين مرّنين جداً؛ وأنا أريد لزقة خردل: جزمة عسكرية صلبة، لم تتعود عليها قدماي بعد.

الآن - والآخرين؟ - قد تسألني، يا سيدي. آه، يا سيدي، المحاربون بدورهم لهم أوقات الفراغ، لأن الرجل الوحيد من دون شريك يلبي أيضًا حاجياته. فاجأت واحدًا، كونسيسو، الذي كان يرقد ممددًا كسلان، يختبئ وراء أحراش كثيفة؛ لحظة نراها لماما، كما تفعل الدابة حين تتغوط. - إنها الطبيعة البشرية - قال؛ لم أطلب منه تفسيرًا. ما كنت أريد هو تسليية تخفف عن نفسي. هناك، معنا، لم يكن أحد يغني، لا أحد يملك قيثارة ولا أي آلة موسيقية أخرى. وفي الثقل الخبيث لجسدي، هل كنت أرى كيف كانت تضع شيئًا فشيئًا رعشة كلمات أغنية سيرؤيز؟ لذلك، قمتُ بمجهود كي أتغير، ألا أعود ما كنته في أحداث الماضي. هل تفهمني، يا سيدي؟

لم أكن أفارق ذبادوريم قط. ليتني آكل وأشرب ما يفضل عنه من طعام وشراب. أريد أن أضع يدي على ما لمست يده. لماذا، إذن؟ كنت ألوذ بالصمت، أبقى هادئًا. ارتعش من دون ارتعاش. لأنني كنت أرتاب من ذاتي، ولا أريد أن أعيش في توتر دنيء. لم أكن أقول شيئًا، لا أجروء على ذلك. هل كان لي أمل؟ أتوقف أحيانًا لأفكر في امرأة لاقيتها: نيورينا، صديقتي رُوزُورْدة، الفتاة ميوزوتيس. لكن العالم كان يتكلم، ونشوة الحلم تتلاشى بداخلي، كما يتمزق ضباب رطب ومنعش في برودة شهر آب كلما صعدت الشمس في السماء.

و ذات ليلة، كنت مضطجعًا، أعترف، ولم أكن نائمًا؛ كبحْتُ بيدٍ حازمة اندفاعي، قوتي المهدورة؛ بقيت مرهقا من ذلك. فتملكني القلق. شعرت حينئذ برغبة في أن أغتسل من رأسي إلى قدمي في مياه الشلال البيضاء، أن ارتدي لباسًا نظيفًا، وأنترع نفسي من كل ما كنت، لأدخل في مصير أفضل. فنهضتُ لأتمشى حول المعسكر، قبل أن تبزغ أولى ساعات الفجر. خرجتُ إلى الندى الذي يقطر. الطيور فقط، الطائر الذي نسمعه دون أن نراه. هناك،

كان الفجر يطلع بسماء مخضرة. كان بوسع زي ببيلو أن يقدم سلسلة من الشروح لكل شيء: كيف نلحقُ برجال هُرموجينيس ونلحقَ بهم هزيمة نكراء؛ استطاع أن يقول كل شيء عن طريقة الحرب واتباع سياسة مناسبة مع ما يترتب عن ذلك من فوائد في المستقبل. فيمَ كان ينفعي كل ذلك؟ كان ذلك يصيبني بالملل. توجهتُ نحو غابة أشجار البوريتي، قرب الماء، وصلت وسط البرد، وانتظرت أن يبتعد الظلام. لكن، حين طلع النهار، كنتُ أمام غابة أشجار البوريتي الضخمة. أشجار البوريتي - جمال رائع. وهناك أبدعتُ أبياتا أخرى لأضيفها إلى الأبيات القديمة، لأن ذلك الرجل الذي لم ألتق به قطُ - سيرويز - كنتُ أفكر فيه. وكانت الأبيات هي هذه كما لا أزال أحتفظ به في ذاكرتي، مستاءً لأنها ليست ذات قيمة مقبولة:

جلبتُ كثيرًا من المال،
كل ما حملتُ في خُرْجي،
كي أشتري نهاية العالم
وسط هضاب السَّرْتَاو.

أورو كويًا - نهر متوحش
يغني كما أشتهي:
كلامُ مياهه الصافية
هو ما يدفعني نحو الضَّلال.

الحياة قدرٌ خطير
يتخلله الواجب:

كلُّ ليلةٍ نهرٌ جافٌّ،
كلُّ نهارٍ ظلامٌ.

لكن هذه الأشعار لم أكن أغنيها لأيِّ أُذنٍ، لم تكن تستحق العناء. بل إنها لم تمنحني أي سلوى. ربما لأنني أبدعتها بالكامل لوحدي. والحسنة الوحيدة التي يمكن أن تميزها تراجعت نحوي، كما يحدث للماشية التي تُطلقُ للتو، فتهرولُ متمرّدةً خائفةً في الحظيرة، تتدافع وتجرح نفسها عند الحاجز الضيق. إحساسٌ يمكن أن أطرده من نفسي؛ لأنني لا أقرأ نفسي بوضوح في هذه اللازمة - ما كنتُ أريدُ، ما لم أكن أريدُ، حكاية بدون نهاية. مجرى الحياة يشوش كل شيء - هكذا هي الحياة: تسخن وتبرد، تُكره ثم تُحرر، تُطمئن ثم تُقلق بعد ذلك. ما تطالبنا به هو الشجاعة. ما يريده الرّب هو أن يرانا نتعلم كيف نكون قادرين وسط الفرح على أن نكون أكثر سعادة، وأكثر من ذلك كيف نكون سعداء في عزِّ الحزن! وبهذه الطريقة فقط، منذ البداية، في اللحظة بالذات التي نقرّر ذلك، عن قصد - بفضل الشجاعة. هل هذا ممكن؟ هذا ما كنتُ أعتقد أحيانًا. عند طلوع النهار.

وهنا كان لا بدَّ أن ترى الرفاق واحدًا واحدًا، يستمتعون حول القهوة. لهذا الأمر، أيضًا، كنا نتحمّل ذلك، بسبب حسن الرفقة، وهذه الحركة الدائمة. معهم جميعًا، جميعًا تقريبًا، كنتُ أتفاهم، ولم تكن لي أي مشاكل. أشخاص يُعوّل عليهم. من بينهم، هناك أولًا، اسمعني جيدًا: زي بيبيلو، قائدنا، دائمًا في المقدمة، الذي لم يكن يمنح نفسه هدنة ولا راحة؛ ريينالدو - الذي كان هو ذيادوريم سابقًا: إذا عرفته، يا سيدي، فأنت تعرف حياتي؛ أالاريبي؛ الذي كان من حديدٍ وذهبٍ بقدر ما كان من لحمٍ ودم، وكنتُ أقدره أيما تقدير؛ مارسيلينو بأبنا، قائدنا الثاني، أول منفذٍ ورجل قوي محترم؛ جواو كونيكلش، الذي كان يتشاجر مع سيسفريدو ويقلّد كل أنواع

الطيور، لم يكن ينسى أي شيء؛ كيبس، رجل سريع، لدرجة أنه يستطيع أن يقطع خمسة عشر فرسخًا في يوم واحد، ولا تهمه حالة الخيول؛ جواكيم بييجو، مستكشف، وعارفٌ دقيق بكل مناطق السّرتاؤ في الأراضي العليا؛ تيوتو، الذي كان يعرف كيف يجد نقط الماء مثل ثور أو شجرة بوريتي في هذه الهضبة المقفرة؛ سوزازتي، مستكشف آخر، مثل كلبٍ مدرب، شخص طيب؛ كيكبي، الذي كان يحنّ دائمًا إلى حقوله السابقة، وليس له من رغبة سوى أن يجد قطعة أرض يغرسها؛ ماريونودو، الذي كان يلعب بالخنجر، ويصبح خطيرا حين يشرب أكثر من اللازم؛ أكاوا، زنجي غريب الأطوار، ما إن تراه حتى تُبصر سواد الحرب يرتسم أمامك؛ ماودي ليشا، ماهرٌ في استعمال الهراوة، لا يترك أبدًا العصا التي تصبح في يده أفضع سلاح؛ فرييتاش ماشو، من غراو موغول، يحكي لك أيّ كذبة تناسبه، ويصفها بطريقة تجعلك في النهاية تصدق أنها حقيقة؛ كونسيسسو، الذي كان يحتفظ في حقيبة بصور كل النساء اللواتي كان يجدهن، حتى صور أولئك اللواتي يجدهن في كُتب التقويم والجرائد؛ جوزيه جيرفازيو، قناص ماهر؛ جوزيه جيتيرانا، يتحدث من قرية تدعى كاييلينيا دو شومبو: وكان دائمًا يقول إنني أشبه أحد أعمامه، المدعو تيميتيو؛ بريتو مانغابا، من كاشويرا دو شورو، وكان يُقال إنه يخبر كل أنواع السحر؛ جواو فاكيزرو، صديقي منذ مدة طويلة، وأنت تعرف، يا سيدي؛ جاكاري، طبّاخنا الأول؛ كافالكاثي، رجل مقتدر، لكنه كثير الادعاء - كان يغضب عند أقل مزحة نضحك بها أو لعبة بالكلام بيننا؛ فيليسيانو، الأحول؛ مارواس، رجل ذو قوة خارقة: يستطيع كبح ساقبي فرس؛ غيما، الذي كان يربح كل مقابلات لعب الورق ويتحدّر من سرتاؤ أبييتي؛ جيريبيني، طفل تقريبًا، ابنٌ للجميع بحُبّ أبوي؛ موسامبيكاو، عملاق أسود، كان أبوه وأمه عبدّين في إحدى المزارع؛ جيزوالدو، شاب حكيم - بقيتُ مدينا له بمبلغ

ثمانية عشر ألف ريال، ولم أذكر أن أعيدُهُ إليه؛ جيكييتيناو، سائق بغال سابق، لا يتحدث إلَّا بواسطة الأمثال؛ نيلسون، الذي كان يطلب مني أن أكتب له رسائل إلى أمه، التي لم أكن أعرف حتى أين كانت تسكن؛ ديهاس دوييدو، أو المجنون، الذي لم يكن يعاني من أي جنون البتَّة، متهور جامح؛ سيدورينو، أي شيء يقوله كان يضحكننا؛ باكاما دي بُريزاس، الذي كانت أمنيته الوحيدة هي أن يذهب يوما ليشعل شمعة ويحثو على ركبته أمام تمثال يسوع الطيب في لابا؛ رازغا إن بايشو، الذي كان أحول بدوره ويتميز بخرق نادر، كان يقول إنه لم يعرف قطُّ في حياته أبًا ولا أمًّا؛ فافافا، الذي كان يفوح بعرق الحصان طوال الوقت، يتمدّد على الأرض فيأتي الحصان ليشتّم وجهه؛ جوي بيشيفيتو، الملقَّب بـ«النَّعل»، وقد حدثتكَ عنه سابقا؛ جوزيه كيتريو، كان يأكل كل شيء، السحالي، الأفاعي، الجراد؛ ترسيزيانون، إنسان تعيس؛ جوزيه فيليكس، تعيس آخر؛ لييراتو؛ أو سُموندو. وأولئك الرجال من أورو كويّا الذين جلبهم زي بيبيلو: بانتالياو، هذا، واحد يدعى سالوستيو جواو، والثلاثة الآخرون. آه، كدتُ أن أنسى: رايموندولي، الشافي، الخبير في معالجة أي مرض، وكيم كيروس، الذي كان مكلفا بالذخيرة؛ وأخيرًا، جوستينو، البيطريّ والبيطار. بالإضافة إلى كل الآخرين، الذي أعدّهم على رؤوس أصابعي: بيتولو، جوزيه ميكويم، زي أونسا، زي باكيرا، بيدرو بيتادو، بيدرو أفونسو، زي فيتال، جواو بوغري، برييراو، جالاتا، زي ييسودو، نيستور. وديدولفو، دوزيتوس، جواو فيريدا، فيليسبيرتو، تيستا إن بي، ريميجيلدو، جوزيو، دومينغوس ترانساودو، ليو كاديو، باو نا كوبرا، سيمياو، تريغوزو، كاجويرو، نيو فايُسكا، أراوتا، دوزفال فوغيستا، دو شيكو فوسو، أكريسيو وتوسكانينيو كارامي. أستعرضُ أسماءهم عليك، يا سيدي، كي ترى أنني أتذكّر. دون احتساب من نسيتهُم - أي: عددٌ لا بأس

به. إن اجتمعوا كلهم، فإن ذلك يبعث على الاطمئنان. هذه هي الحرية، إنها الحركة. ومات منهم الكثير، في النهاية. ذلك السَّرتاؤ، تلك الأرض.

الحقيقة أنني كنتُ دائماً مع ذيادوريم؛ كنا نحن معاً، وكان الآخرون. وكان زي ببيلو هو القائد فوق الجميع: - هيا بنا، يا بني، هيا يا أستاذ: لنحاصر هؤلاء الرِّعاع عند النهر ونُرعِم هِرْموجينيس على القتال... -

كان زي ببيلو يقول، الشرر يتطاير من عينيه وهو يحرك رأسه الضخم. بما أنني لم أكن أواقف رأيه فوراً، تخيل أنني لم أكن أصدقه: - الآن، تخلص من شكوكك، أنا سيّد مشاريعي. فكّرتُ في كل شيء وتأملت فيه، وأحتفظ هنا بملخص كل شيء مسطراً واضحاً! - وكان يشير إلى جبينه بالإصبع. أصدّقه، كنت أصدقه، ولا أشكُ فيما يقوله. ما لم أكن أستطيع معرفته هو كيف كانت تجري ظروف حظي.

أقول لك هذا، يا سيدي، لأنه في منعطف من نهر ريبيراؤ دو غاليو دا فبدا، صادفنا مجموعة من الأعداء، عادوا إلى هناك من أجل التجسس. كان تبادلاً قصيراً لإطلاق النار، لكنني تلقيت رصاصة خدشت عضلة ذراعي، ففقدت كثيراً من الدم. وضع عليها رايموندو لي قشرة من شجر الروبينية، فخفّ الألم على الفور. ثبتها ذيادوريم بقوة، مستعملاً قطعة قماش أخذها من قميص ممزّق. استحسنْتُ لُطفَهُ. في الحقيقة، أبدوا جميعاً تجاهي أفعالاً وتصرفات ودّية، وهو ما خلف عزاء كبيراً في نفسي. إلّا أن ذراعي، بعد ذلك بيومين، كانت متفخخة بالكامل وتؤلّمني، أعرف أن الالتهاب كان يُتعبني، وكنتُ دائماً أريد أن أتوقف لأشرب. - إن أردت أن أطلق النار، كيف أفعل؟ لا أستطيع... - كان ذلك تخوفاً آخر يشغلني. كنتُ مندهشاً، لأنّ جوزيه فيليكس أُصيب بدوره بجرح في الفخذ وفي السّاق، لكنّ بنته كانت سليمة، وجرحه جفّ تلقائياً، ولم يعد له أثر يُذكر. هكذا، حين حصل لي أول مشكل،

اتخذ ذلك شكلاً يزعجني. وصل الألم حتى أعلى صدري ولأصابعي، مما منعني من أي حركة. خشيتُ كثيرًا على جسدي. - آه، أوتاسيليا، عزيزتي - كنتُ أئنُّ وحيدًا - ربما لنُ ترينني ثانية، ولن تكوني أرمَلتي... - أوصاني بعضهم باستعمال نبات الأرنيكاء، بينما نصحني آخرون بجيرة بلسم البيرو، الذي يشفي في الحال. حينئذ، أكدي رايموندو أن شفائي مضمونٌ بأعشاب طبية. لكن، أين نجد أعشابًا طيِّبة؟

بلغنا فازيندا توكانوس، حيث توقفنا - وهي على ضفاف بحيرة رابوزا، بعد تجاوز وادي إنكسو. تفقدنا الفازيندا الشاسعة والفارغة، فلم نرَ فيها بشرًا. ولم نكن بعيدًا عن نهر دو شيكو. في هذه الحالة، لماذا لا نتابع فورًا سيرنا بخطى حثيثة كي للهجوم؟ - إنني أعرفُ ما أعرفُ، أعرفُ... - كان كل ما قاله زي بيبيلو، دون شرح. تجاهلتُ ذلك. بحثتُ لنفسي عن سرير معلق، سرير في غرفة من دون ضوء تقريبًا، ولم أشغل نفسي بأي شيء آخر. - احتفظ بقواك، يا زيوبالدو، سأذهب لأبحث عن ذلك العلاج في الغابة... - قال ذيادوريم. قضينا يومين في فازيندا توكانوس، وبقينا هناك نأكل لباب النخل، ونجفف لحمَ ثورين تحت أشعة الشمس.

في أول يوم، مع نهاية المساء، ظهر راعي بقر، يسافر رفقة آخرين. كانوا قادمين من كامبو كابو ريدوندو، متجهين نحو مورّينوس. لماذا اختاروا ذلك الطريق الطويل جدًّا؟ - هل تتركونا نمُرُّ بسلام، أيها القائد؟ - سأل الراعي. - السَّلام، إنني أعدكم بالسَّلام، أيها الأصدقاء... - أجابه زي بيبيلو. اطمأنَّ الراعي ورأى أن عليه أن يحكي المستجدات. كنا وسط أخطار كثيرة. نعم. الجنود! - أي جنود هؤلاء، يا صديقي؟ - جنود على استعداد للحرب، جنود الحكومة، أكثر من خمسين رجلًا. لكن، أين كانوا؟ - هؤلاء في ساو فرانسيسكو وفيلاريزونيا، وآخرون قادمون في الطريق، أيها القائد؛

هذا ما سمعته... - كان زي يبيلو يستمع، كله آذان صاغية. لكنه أراد معرفة المزيد. هذا الأمر وذلك. إن كان الراعي يعرف اسم المدعي العام في فيلا ريزونيا، بالإضافة إلى أسماء قاضي المحكمة، مفوض الشرطة، جامع الضرائب، والكاهن. فيما يتعلق بقائد القوات، كان الراعي يخطط للأسماء. كان ذلك الراعي رجلاً جدياً، موثوق الكلام ومهتماً بأن تكون علاقته جدية مع الجميع. يحمل قنينة كحولٍ مُطَهَّر في متاعه، فقدم لي منها جرعة، وهو ما أفادني. قضى الليلة هناك، وفي اليوم التالي رحلوا باكراً جداً.

أثناء ذلك، تحسّنت ذراعي، وصرتُ أكثر استعداداً. استطعتُ أن أذهب وأعود، واستكشفت بيت تلك الفازيندا. كان شاسعاً - ممرٌ طويل من عدة خطوات واسعة. كانت هناك السيّنزالات^(١)، على امتداد الفناء الداخلي، ومن حولها، باتجاه الفناء الخارجي، كانت الطاحونة، الحظائر، عدة غرف خاصة بالعمال المداومين، والمستودعات؛ كان الفناء الخارجي شاسعاً جداً، وثمة صليب غُرس في وسطه تماماً. لكن العشب كان ينمو بانتظام، يزيّن ذلك الهجران. لم يكن هجراناً كاملاً، مع ذلك. فقد بقي هناك قطٌ، منسيٌّ، جاء واقترب من جاكاري، الطبّاخ، يتوسّل طعاماً. بل بعض البقرات والثيران كانت تتسكع في الباحة، هادئة، قطيع يحبّ مجاورة البيوت. في تلك اللحظة، رأى جواو فاكيريو قرن نداءٍ جيّد معلقاً على أحد جدران القاعة الكبرى؛ فأخذه، تقدم نحو الشرفة، ونفخ فيه: فهتمت رؤوسُ الماشية ذلك، فلبّى بعضها النداء، ثم دخلت إلى الحظيرة، متوجهة نحو المذود، على أمل الظفر بقطعة ملح. - قبل شهر فقط، كان أهل الفازيندا لا يزالون هنا... - أعلن جواو فاكيريو. كان ذلك حقيقة، بالفعل، لأننا اكتشفنا في حجرة

(١) صيغة جمع لكلمة «سيّنزالا» وهو الاسم الذي كان يطلق في البرازيل، وبخاصة أثناء فترة العبودية، على المبنى المخصص للعبيد ومرافق سكنهم بجوار بيت السيد. (المترجم)

المؤونة كثيرًا من المواد الغذائية التي ما زالت صالحة للاستعمال. استحققت فازيندا توكانوس العناية. صار اليومان ثلاثة أيام، انقضت بسرعة.

عند الفجر، يوم خروجنا من هناك، استيقظت باكراً جداً، والظلام لا يزال مخيماً حولنا. استيقظت بتلك الطريقة بسبب ضجيج، ربما كان سيمياو، الذي ينام في نفس الغرفة معي، هو من أحدثه وهو يستيقظ ملتئماً طريقه. لكنه ناداني: - سذهب للبحث عن الخيول. هل تأتي؟ - قال لي. لم يعجبني ذلك. - أنا مريض. هل أذهب؟ من سيُسَرُّ المنيهُوت؟ - أجبتُه، بنبرة لاذعة. انقلبتُ إلى الجهة الأخرى؛ ومع ذلك أحببتُ ذاك السرير الجلدي. أكيد أن سيمياو سيذهب، كما سيذهب فافافا ودوريستينو، وهذان الأخيران مستعدان دائماً للذهاب إلى ندى المراعي. كان ذيادوريم ينام في سرير، مستنداً إلى الجدار المقابل، فنهض واختفى من الغرفة. فأصررت على متابعة غفوتي. كان ذلك البيت مضافاً للغاية - كما أصحابه - لنا فقط لا غير. عالم الفازيندا، الغارق في الهمسات، الأثاث الضخم، رفاهية صناديق الملابس، الطلاء على الجدران، والتعفن! ما كان يدهش حقاً هو الهدوء. ربما لأنني، هناك، كنتُ أفكر أن كل شيء غريب جداً عني: ذلك الوسخ القديم المحترم، وبيوت العناكب في السقف. كنتُ أفكر في ألف حماقة وحماقة. إلى أن سمعتُ صفيراً وصيحات، وخيولاً تدوس الأرض بحوافرها؛ - آه، الخيول في الصباح، الخيول! ... - وتذكرتُ فجأة المشهد القديم، كان يجب أن أراه ثانية. أسرع، متحمساً، نحو النافذة - كان النهار يطلع وقُضبان الليل تذوب في الأفق. يصل الرجال مع الخيول التي تتدافع مرحة، لتملاً الحظيرة الكبيرة. كان أحسن شيء هو أن أتنفس، وأشتَمَ كلَّ الروائح. أتنفَسُ روح تلك الحقول، وتلك الأماكن. ثم سَمِع دويُّ إطلاق رصاصة.

سَمِع دويُّ إطلاق رصاصة، من بندقية، آتٍ من بعيدٍ. هذا ما عرفته.

أعرف دائماً متى يكون سماع دويّ إطلاق الرصاصة خطراً - أي - عندما تتلوها طلقاتٍ أخرى. أطلّقتُ عدت طلقات. شددتُ نطاق بندقيتي. شددته فوق حزامي، وكان الشيء الثاني الذي أدركته هو أنني لا أعرف كيف وقع ذلك. قبل أن أعرف ذلك، كنتُ مُسلّحاً بالكامل. ما كنتُ أشعر به هو الجوع، وقد كنتُ مجهّزاً، ومستعدّاً تماماً.

هنا، كان عليك أن ترى ذلك، يا سيدي: فوضى من دون فوضى. تنحّيتُ من النافذة، صدمني رجلٌ يجري، وراح آخرون يصيحون. آخرون؟ فقط زي بيبيلو الذي كان يصيح معطياً أوامره، بصوتٍ عال. ما الذي كان يحدث؟ وأين؟ هل كانوا كلهم أسرع مني؟ لكنني سمعتُ: ... لقد قتلوا سيمياو... - سيمياو؟ سألتُ: ودوريسينو؟ - إيه؟ آه، لا أعرف شيئاً، يا رجل... - أجبني أحدهم. - لقد قتلوا سيمياو وأدوفالدو... - فقاطعتهم: - كفى! - لكنني سرعان ما التفتُ: - آه، وفافافا؟ - فسمعتُ: - فافافا، لا. ما يقوم به فافافا هو القتلُ! وهكذا حصل، حقيقة، فعلياً، ونزل علينا المطر من المساء: عنفُ الحرب؛ أعداء مروّعون يهجمون. - إنهم هم، يا زيوبالدو، رجال هِرْموجينيس! - قال ذيادوريم، الذي برز أمامي، فجأة. أطلقوا النار، شيء فظيع، طلقات مجتمعة، أطلقوا علينا طلقات نارية وطلقات نارية كانت تقصفنا. وكانوا يطلقون النار على البيت. ذيادوريم يضحك، اللّثيم، هزّ كتفاً واحدة. نظرتُ إليه، ونظرتُ حتى اسودّت صورته في عيني. لم أكن أنا. كنتُ أتنفس بصعوبة. - هذه المرة، هذه المرة نحن هالكون بلا رحمة... - خمنتُ في ذهني. فكرت في سرعة ما كان يجري: - أن نقع هكذا، في كمين، شيء لا يشبه أي شيء آخر، إنه جنون... - وفي الوقت ذاته، كنتُ أسمعُ في جوف أذني، التفاصيل الدقيقة التي يمكن تمييزها: خطوات الرفاق في الممرّ، صفير الرصاص وضجيجهِ - مثل ضجيج كيس قمع يُفرّغ. كأنهم يبصقون - باف

وباف! شعرتُ بالرصاصُ كأنه في ذاتي يخرب بيت تلك الفازيندا التي لم تكن لي. لم أشعر بالخوف، لم يكن لديّ وقت لذلك - بل كان إحساسًا آخر، مختلفًا. ما أنقذني كان فكرة عبرتني: ذبادوريم، مقطّبًا جبينه، كان سيأمرني أن أتحمّل بالشجاعة. لم يقل شيئًا. نهضتُ من جديد، خفيًا سريعًا، دفعة واحدة: إيه، هيا، هيا بنا! حان الوقت! - قلتُ، ووضعتُ يدي على كتفه. كنتُ أتنفس بسرعة كبيرة. تلك الدهشة - صدّقني، يا سيدي - لا بدّ أنها لم تدم أكثر من دقيقة واحدة. وفي ومضة واحدة، استعدتُ صفاء أفكارِي، ومزيدًا من هدوئي، ذلك الهدوء المعتاد. ومن هناك، كنتُ أعرف تمامًا ما يحدث: كنّا محاصرين.

لمستُ شيئًا خاصًا في طريقة قدوم جواو كونكليس، محتزًا والقلق يعلو وجهه. الطريقة التي يتصرّف بها بعضهم - في مثل هذه المناسبات - وهو في حرج - أنت، تبقى هنا، وأنت أيضًا، وأنت... في هذه الجهة... أنت، هناك... وأنتم، هنالك... كان ينظّمنا في مواقع معينة. - ريو بالدو، تاتارانا: تكفّل بهذه النافذة. حذار، لا تبرح هذا المكان تحت أي ذريعة... - وهناك، في الأسفل، لمحتُ مارسيلينو بامبا: كان يتوجه نحو السيّنزالات رفقة خمسة أو ستة من الرفاق. رفقة رفاق آخرين، كان فرييتاش ماشو يركض نحو مخازن الحبوب؛ وآخرون مع جوي بيشيغيتو، الملقّب بـ«النعل»، يتخذون مواقعهم في الطاحونة. وسط هذا الغليان، كان قلبي يخفق بقوة كبيرة. أخذت بندقيتي، لامة، سلاحِي العزيز. مع ذلك، تعرّفتُ ديهاس دويدو وأكاوا، منبطحين على أرضية الفناء خلف الصليب. ظهر أحد الرجال من أورو كويّا، ثم تلاه آخر، يحملان سلّة كبيرة بها قطن خام. تلاهما آخرون، يحملون أكياسًا من أكواز الذرة المدروسة؛ ثم ذهبوا يبحثون عن أكياس أخرى، كانوا يحملون صندوقًا أيضًا. كانوا يحملون كل هذا من أجل بناء مئذنة على طول الفناء

الخارجي: ألواح خشبية، كراسي، سلال حمل، سُروج، مقعد خشبي. استعدادات الحرب - وهذه دائماً تُنجز بحماس مختلف، لا علاقة لها بشكل أعمال أيام السَّلام - لاحظتُ ذلك؛ بل انظر بنفسك، يا سيدي: رجال ورجال يجذُّون بنفس الجهد جميعاً، كلهم إرادةٌ حسنة، كأن شيطاناً لطيفاً يهمسُ في آذانهم، أو ربما تكون أرواحاً! تنهَّدتُ، بغباء. لحسن الحظ، نفخَ أحدهم ولمسني لمساً خفيفاً، كان هو الزنجي مانغابا، الذي أرسلوه إلى هناك ليعزِّز الموقع معي. مدَّ لي مانغابا شريحة عجينة البوريتي، اقتسمها معي بكل ودٍّ. وفجأة، تذكرتُ أنني كنت جائعاً جداً. لكن كيم كيروس جاء يحمل مزيداً من الذخيرة، بمساعدة بعض الرجال. كان يسحب كيساً جلدياً، وكان الكيس مملوء بالذخيرة، يسحبونه فوق الأرضية الخشبية في الممر. ألقى نظرة من النافذة في الجهة الأخرى، وتأملت الآفاق البعيدة، احتقارَ العالم. ومن جديد، نزل علينا رصاصُهم كالطرر، وأصاب كل فضاء البيت. عدوٌ خسيس لا يظهر. كنت أريد أن أعرف على الأقل إن كنتُ أستطيع أن أستعمل السَّلاح، وكيف كنت أشعر بذراعي. رفعت يدي لأحك رأسي، وهناك اتخذتُ قرارِي: وبكل وقار، رسمتُ علامة الصليب على صدري. أعرف أن المؤمن لا يؤدي ما عليه بدافع من الحياة السيئة التي عاشها، بل من أجل موتٍ جميل - إذ يتجلَّى الرَّب عند الموت، بغزارة.

أطلقتُ النار، فردُّوا علي بنيران أخرى.

مكتبة

t.me/soramnqraa

أليس هذا هو ذلك؟

شيء سخيف.

النَّسيم. ذيا دوريم، أين كان ذيا دوريم؟ علمتُ أنه كان في مكان آخر، في موقع القتال الخاص به. كان يقف صامداً، قرب فافافا، مارواس، غيما وكافالكانتي، وراء درابزين الشرفة، يقصف كل الأهداف التي أمامه. ألم

يكن كل مكان مكانًا؟ إنه لا يمكن أن نقف في هذا التدفق، في هذه الدواليب الحربية. هكذا، في تلك اللحظة، ظهر من جديد جواو كونكليس، منشغلًا، رفقة ألابي، جوزيه كيتيزيو ورازغا إن بايشو. - انتظر! - صاح نحوي. لأن بيتو وموسامبيكاو جاءا يسحبان بعض جلود الثيران. تلك الجلود كانت من أجل تثبيتها هناك في الأعلى، في العتبات، وتركها تسدل مثل ستائر مرنة، عند فتحات النوافذ. بعد ذلك، قام باكاما دي بريزاس رفقة كونسييسو، مُستعينين ببعض الأدوات، بفتح كَوَات يمكن أن نطلق منها النار. هذه الحرب، هل ستستمر مدى الحياة؟ طلقاتي، أصبحت أسمعها أقل. لكن طلاقات الآخرين: صفير فطيع، طقطقات حديد هذ المرة - رجم بالرصاص. أنا وأنا. إلى أن تنفجر طلقاتي، كل مرة، في القلب تمامًا. تصويب وقذف حبة موت بكل دقة في خيوط الدخان النادرة تلك التي تراقص. هكذا، هكذا كان الأمر.

آه، وهنا، وصل زي بيبيلو فجأة، في ظهور مباغت، دنا مني تقريبًا. - زيوبالدو، تاتارانا، تعال معي... - قال لي، بصوت خفيض، عميق - نبرة فيها صوت الاستشارة، لا صوت السلطة. تساءلت ما الذي كان يريد مني؟ ليرسلني إلى موقع متقدّم، مكان أقتل أو أموت فيه موتًا أكيدًا، لا مفرّ منه؟ تحركت، أسرع الخطى، وأنا أعرف أنه مع زي بيبيلو يجب أن يُنجز كل شيء بسرعة كبيرة. وبالفعل، أخذني. لكنه أخذني إلى غرفة أخرى. غرفة أصغر، لا يوجد بها سرير، وكل ما نراه مائدة فقط. مائدة من الخشب الأحمر، ضخمة، تفوح بالروائح. لم أفهم شيئًا. كأنّ الحرب لا تدخل إلى هذه الغرفة. لكن تفكير زي بيبيلو - القلق كما كنت أعرفه - كان شيئًا ما يقطع، قويًا وخلاقًا.

- لكن، أولًا، اترك بندقيتك هناك. ضَعْها... - أضع بندقيتي؟ حسنًا،

وضعتها عرضًا فوق ركن من المائدة، وتركتها هناك بأكبر قدر من العناية. كان هناك ورقٌ وقلم رصاص. - اجلس، يا أخي - إنه هو، هو. قدّم لي كرسيًا، كرسيًا عاليًا من خشب، له مسند. إن كان لا بدّ من الجلوس، فقد جلستُ، على طرف المائدة. وزى يبيلو إلى جانبي، مسدّسه مشحون في يده، لكنه ليس موجهًا نحوي. فالمسدّس كان هو السلطة، تقلبات الحرب وحركاؤها. لم ينظر إليّ حتى، قال لي:

- اكتب... -

اندهشت. أكتب في ساعة كهذه؟ أطعتُ ما أمرني به وشرّحه لي: الطاعة أسهل من الفهم. هل هذا صحيح؟ أنا لستُ كلبًا، ولا شيئًا. أولًا، هناك هذا الأمر، كي تكره الحياة، لا شيء أحسن من إجبارك على أن تكون الابن الصغير لشخصٍ غريب عنك... - آه، ما لا أفهم، هذا تحديدًا ما يمكن أن يقتلني... - تذكرتُ تلك الكلمات. لكن تلك الكلمات، من قالها في ظروف أخرى، كان هو زى يبيلو، نفسه.

- اكتب... -

كانت طلقات النار المتواصلة تمنعني من التفكير بشكل صحيح. وزى يبيلو، ألم يكن هناك لهذا الغرض، ليفكر من أجلنا جميعًا؟ على أي، لم يكن الورق كافيًا للقيام بما كان يجب القيام به. كان لا بد من العثور على مزيد من الورق، أي ورق، لأنه لا بدّ أن يكون ثمة ورق هناك. في انتظار ذلك، يجب أن أستمّر في الكتابة، مضطرا تحت ضغط الحاجة إلى ذلك.

ثم سمعنا صيحة ألم.

- ما الذي حدث؟ - أنين متقطع، وشكوى. - زميل جريح. ليو كاذيو...

- سمعنا. تركني زى يبيلو هناك، وأسرع ليرى ما حدث. وحتى قبل أن

أقرر أي شيء، هرعْتُ أجري خلفه. الرَّجُل، الجريح الأول، كان جالسًا على الأرضية، رجلاه ممدَّتان إلى الأمام، وظهره مسند إلى الجدار. كان يمسك رأسه بيده اليسرى، لكنه يحتفظ بسلاحه في يده اليمنى، ببندقيته الوقحة، التي لم يتركها. كان بعض الرفاق يَصْلُون من المطبخ، يجلبون الماء في علب، بتعليقات من رايموندو لي. كان رايموندو لي ينظف وجه الرجل، وجه ليو كاذيو المدرج بالدماء. جُرحَ ذقنه، وقد هَشَّمت رصاصة عظامه، فانبجسَ منه الدم متقاطرًا. - هل تستطيع مواصلة القتال، يا بنيّ - سأله زي ببيلو. علت تكشيرةُ وجه ليو كاذيو، وقال نعم: - أكيد، أستطيع ذلك. باسم الرَّب وباسم ساو سيباستياو، القديس المحارب، أستطيع ذلك! - دائمًا بنفس التكشيرة دون مزاح؛ لأن الكلام هو ما كان يؤلمه ويؤذيه. - وباسم القانون... القانون، أيضًا انتقمَ لنفسك! - ألحَ زي ببيلو. كأن كل ما يهيمه هو نتائج الأحداث. كان الشيطان يسكن جسد زي ببيلو.

أمسكني من ذراعي، متلهفا ليعيدني إلى المائدة كي أكتب، ناسخًا ما يقول. من طريقة كلامه، والمسدّس في يده، كنتُ أتحيل، في ذهني، أنه يهدّدي. - حسنًا، لنرى ذلك. أنا بحاجة إلى كتيبة عسكرية: وهؤلاء الجنود هم من سيشكلون دفاعاتي الخلفية! - قال في البداية. وكان عليّ أن أكتب بسرعة. رسائل - رسالة إلى قائد القوات العسكرية، رسالة أخرى إلى سعادة قاضي محكمة ساو فرانسيسكو، رسالة أخرى إلى رئيس بلدية فيلا ريزونيا، ورسالة أخيرة إلى المدعي العام. - أسرع.. حجمُ هؤلاء يعطيهم قيمة أكبر... - قرّر. فهمتُ. كتبتُ. وكان موضوع الرسائل واحدًا: لو جاء الجنود على الفور، بخطى سريعة، سيصطادون هنا في فازيندا توكانوس قنصًا ثمينًا - ذئب، نمور، وقطط برّية - أكبر عصابة من الجاغونسو تَعُوْثُ فسادًا في كل أنحاء السَّرتاؤ في الأراضي العليا. وفي الأسفل، عبارة ختام تقول: نظام

وتقدّم^(١)، ليحيا السّلام والدّستور! توقيع: جوزيه ريبيلو أذرو أنتونيش، مواطنٌ ومرشّح.

في رمشة عينٍ، فقدتُ خيط أفكاري واستعدته، ثم توقفتُ. أمامي، كان يمثلُ أمامي، لامعًا الآن، تفسيرٌ احترازي وشكوكي. هكذا. لذلك كانت الفكرة التي داهمتني هي: ألا يمكن أن يكون ذلك خيانة؟ خفيّة، اضطرتُّ لأحرج زي بييلو بنظرة، وأحدّق في بياض عينيه. وهنا، بسرعة ووضوح، فكّرتُ - المقدمات. ذلك الرجل كان مأجورا من الحكومة، والآن سوف يلتقي جنودُ الحكومة بجنوده وينضمّون إلى بعضهم. ونحن، كل الآخرين؟ ذيادوريم وأنا، الأحران والمعاناة السعيدة التي قضيناها، الموت المشهود لميديرو فاش، ثأرُ جوكا راميرو؟ لم أكن أعرف شيئًا تحديداً، بعد كل تلك الشهور المنصرمة، المعنى الحقيقي لحياة زي بييلو، ما قام به حقاً، إن كان قد قام حقاً بتلك الرحلة إلى غويّاس. وحين سأعرف ذلك، أقطع شيء معه، أنه، بسبب مهنته أو طبيعته، لا يمكن أن يتوقف عن التفكير، ولا يستطيع لحظة واحدة أن يتوقف عن ابتكار المستقبل، دون هواده، دائماً يأتي بشيء آخر. كنا تابعين له - وعليه، لم يكن لدينا وقت للتنفّس. كان قد جلب رجاله إلى هنا، وجاء بهم قريباً من ساو فرانسيسكو، وحرص على قضاء ثلاثة أيام في تلك الفازيندا المُعرّضة للهجوم. من يدري، في هذه الحالة، إن لم يكن قد حرّر بنفسه منذ مدة طويلة تلك الرسالة المتعلقة بقدوم الجيش؟ كانت تلك هي فكرتي. وحذار من المفاجآت - آه، كما يحدث حين يقفز النمرُ جانباً، ينقلب الزورق أو تسوطك الأفعى. وماذا لو كان كذلك؟ على طريق الجحيم - نهائياً! هنا، كنتُ بحاجة لأستعيد هدوئي. كانت طلقات النار تزداد حدة. سمعتُ الحزبَ.

(١) «نظامٌ وتقدّم» هو الشعار الرسمي لدولة البرازيل منذ العام ١٨٨٩. (المترجم)

أكيد أنني كنتُ أبالغ. فزي ببيلو كان بالأحرى هو القائد المناسب للظروف. لم يكن يشعر بالحرج: - إيه، ألا تنقصكم الذخيرة؟... - قال مازحا لما اشتدَّ وابل الرصاص واسترسل أكثر قوة - الصغير والطقطات. آه، ذلك الرصاص الذي كان يصيب الجدران فتتكسر القراميد. كانت الشظايا تمطر هناك، في الأعلى. - أسرع يا تاتارانا، لأنه يجب علينا، نحن الاثنان أيضًا أن نطلق النار! - قال بمرح. هنا أيضًا، على النافذة، علّقوا واحدًا من تلك الجلود: تضرب الرصاصة، ساك ساك، ثم تذهب لتسقط، رصاصة ضائعة، على الأرض. ومع كل رصاصة، كان الجلد يتسع، بهدوء، تحت الصدمة، يتأرجح ثم يعود إلى مكانه، وبه فقط خدش بسيط، من دون أن يتمزق. هكذا، كان الجلد يخفف وقع كل الرصاص، وكان هذا هو دور الجلود. - خيانة؟ - لم أكن أرغب أن أفكر في ذلك. كنتُ قد ملأت ثلاثة رسائل. لم يكن طنين الرصاص ولا طقطقاته هو ما لا أنسى مما كان في ذهني في ذلك اليوم؛ بل طقطقة الجلد الأسود، مُرفرفًا في الهواء - كأنه حفيف أجنحة.

جاء أحدهم وحمل لي مزيدًا من الورق وجده في مكان ما داخل الغرف، وهو يفتش الجوارير. فقط أوراق كُتبت عليها من قبل، بحبر واضح؛ لكن الفضاء السفلي، أو الجهة الأخرى، أو الصفحة الخلفية، كما يقال، يمكن الاستفادة منها. ما الذي كان مكتوبًا على تلك الأوراق القديمة؟ رسالة شكر وامتنان، من الفترة الماضية، تحمل تاريخ ١١ شباط من ذلك العام، يوم كان الإمبراطور لا يزال على العرش^(١)، ويُذكر اسمه باحترام وتقدير. وتذكر الرسالة التسليم شخصيًا لإرسالية تتشكل من أدوات وأدوية، ومن القطن المصبوغ. فاتورة نقل بعض العبيد، عمليات شراء، توصيلات، حررت باسم نيكولاو سارزايوا دا روشا. رسائل أخرى... - اكتب، يا

(١) بيدرو الثاني (١٨٣١ - ١٨٨٩)، آخر إمبراطور على عرش البرازيل. (المترجم)

بُني، اكتب، بسرعة... - إذن، الخيانة؟ كنتُ أسمع بقوة صيحات الرفاق، شتائمهم، وذلك التفريغ الذي يحدث حين نتقاتل، في النار. وهنا تحديداً، على بعد خطوتين منا، عالقين في النافذة، كان دورزيتوس ورازغا إن بايشو يحملان أسلحة على كتفيهما ويطلقان النار بالتناوب. ومرة أخرى، لم أستطع، فتوقفتُ - وتفحصت طويلاً زي بييلو.

- ما هذا؟ ماذا وراءك؟ - سألني. لا بدّ أنه استتج من نظراتي أكثر مما كنتُ أعرف شخصياً عن نفسي.

- حسناً... لماذا لا تُوقع في الأسفل: زي بييلو فاش راميرو... كما أعلنت من قبل؟... - سألتُه بدوري، وأنا أبحث عن معاكسته.

على ما يبدو، فاجأته، بالنظر إلى ملامحه، التي عادةً ما تظهر على وجهه حائراً. تعرّفته. أحياناً، أيضاً، يخون أحدهم نفسه دون أن يعلم ما يقوم به - آه، الزيف! لكنه لم يفهم عمق سُؤالي ولا ما كنتُ أقصد بكلامي. وعليه، فقد أجابني راضياً عن نفسه، وهو يخادعني:

- آه، نعم... فكّرتُ في ذلك أيضاً. بل فكّرت فيه ملياً؛ لكنه ليس أمراً ممكناً... إن ولائي كبير وصادق، ولكن ما يفرضه احترام آداب السلوك شيء آخر: ما يفرض نفسه هو الصرامة القانونية...

وحينها، استأنفتُ الكتابة. استأنفتُها، لأنني بكل بساطة استأنفتُها؛ آه، لأن الحياة بائسة. كانت الحروف تخرج مرتعشة، متثاقلة. وعادت ذراعي الأخرى لتؤلمني شيئاً ما. - خيانة - دون رغبة مني، كنتُ ألقى الكلمة على الورق؛ لكنني أشطبتها. صفقت رصاصةً الجلدَ مثل لكمةٍ، تلتها أخرى، اخترقت الجلد الممزق، وذهبت لترطم بالجدار في الجهة الأخرى، ارتدت وجاءت لتسقط، حارقةً، بالقرب منا. وهناك، على الجدار، كان ثمة قرن ثور

لتعليق الملابس؛ في هذا البيت حتى الخطافات لتعليق الأَسِرَّة كانت قرون
ثيران. انتظرتُ، راغبًا جدًّا في سماع أزيز رصاصة أخرى. هل كنتُ أعرف
لماذا؟ كانت تزعجني طريقة التفكير الصامتة جدًّا لزي بييلو.

لكنه قال: - ما هذا؟ - ثم انحني - هل ارتكبتَ خطأ؟ - لم يرَ شيئًا، لأنني
كنتُ قد شطبتُ ما كتبتُ. لكنه، حينئذ، أخذ يتكلم. ويشرح. هذا المساء،
حين يحل الليل وينزل الظلام، سيرسلُ رجلين، من أكثر الرجال خبرة في
هذا النوع من الأسفار، كي ينسلَّا، ينفذا عبر حاجز العدو، ويحمل كل واحد
منهما حزمة من نفس الرسائل. هكذا، وبعون الرَّب، لو تمكن كلاهما أو واحد
منهما من النجاح في مهمته، ستكون النتيجة مضمونة: سيأتي الجنود قادمين
بسرعة. وحينها، سيظهرون فجأة ليوقعوا برجال هِرْموجينيس ويهلكوهم.
- ونحن؟ - سأله.

- إيه؟ نحن؟ هيا، إنك لم تفهمني. سنبحث، وسط الفوضى، عن طريقة
لنهرب...

بداية، لن يكون هذا الأمر بالهين - لاحظتُ.

- صعب جدًّا، أكيد، يا بُني. لكني أخاطر، لأنَّه حلُّنا الوحيد. وإلا، فأبي
حظٌّ آخر لدينا؟ - ثم استمتع زي بييلو بجوابه الحاذق.

وحينها، بكل احترام، قلتُ إنه بوسعنا أن نقوم بنفس الشيء فوراً:
نخترق مخرجاً، عبر رجال هِرْموجينيس، بالقتال والقتل. هذا ما قلتُ. لكني
نسيْتُ أنني كنتُ أتعامل مع زي بييلو. ومن يستطيع شيئاً مع أفكار ذلك
الرجل؟ من يكون كفؤاً له؟ هكذا كان جوابه:

- أعتقدُ ذلك، يا تاتارانا؟ اسمع: انظر، فكّر شيئاً ما - إنَّ رجال
هِرْموجينيس ليسوا أكثر شجاعة منا، ولا يفوقوننا عدداً؛ ولكنهم في الحقيقة

جاءوا خلصة وحاصرونا، استولوا على أحسن ما يوجد، واتخذوا لأنفسهم مواقع هناك. إنهم يحاصروننا جيدًا. الآن، بالنظر إلى ما آل إليه الوضع، فإن فُتَحَ مخرج، يمكن أن يحالفنا الحظ في ذلك - لكن، رغم ذلك ستتكبّد عددًا كبيرًا من القتلى، ومن دون وسائل تسمح لنا بالردّ عليهم، ودون إمكانية قتل قدر قليل من هؤلاء الأعداء. هل تفهم؟ لكن، لو وصل الجنود، سيضطرون لإطلاق النار على رجال هرّموجينيس أولًا، وبذلك سيُحدثون ضررًا كبيرًا في صفوفهم. وحينها، نهرب، لا نشتغل سوى بسلامتنا... على الأقل، نربح من ذلك شيئًا ما... آه، هل تدركُ قصدي؟ آه، هل تريد هذا أم لا تريده؟!... كان زي ببيلو منطقيًا، ليس في طريقة تفكيره، ولكن في أسلوب كلامه. ضحك، يُشبه ذاته. هل ضحك؟ لو كنتُ ماءً، لشربني؛ لو كنتُ عشبًا، لداسني؛ ولو كنتُ رامادًا، لنفخَ عليّ. آه، لا! إذن، هل كنت هناك، على الأرض، محاصرًا عاريًا؟ اندفاعٌ من الدّم أشعل النار في وجهي، وغزا أذني، شلّالًا يضربُ متدفّقًا. وضعتُ قدمي في النعل، وضغطت بقوة على ألواح الأرضية الخشبية. نسيّتُ ما فات وما سيأتي - أرقتني قرارٌ حازم. ثم رأيتُ، فهمتُ كل شيء: يمكن أن يحرقوني بالنار، فأعطي لهيبًا رائعًا. آه، ليتني أعطي لهيبًا رائعًا! هل تظن، يا سيدي، أنني أفكر تفكيرًا وضيعًا؟ لم أقل شيئًا آخر. لم أفعل شيئًا آخر. بل انظر، كيف فكرتُ: إنَّ ما سيلي سيكون، وكان قرارًا صلبًا كالحجارة، فكّرت فيه مليًا: ما إن يأتي الجنود، فلن أبرح زي ببيلو أبدًا، ولن أفارقه قيد أنملة؛ وأنه لو حاول أن يخون، سأرفع فوهة بندقيتي في وجهه. أنفذ ذلك وأقتله. أقتله دون إنذار. وبعد ذلك... بعد ذلك، أتولى القيادة؛ أتولّاها - أنا بنفسِي - بكلّ كفاءة؛ أتولّى القيادة وأجبر الرفاق على النجاة المستحيلة. سأفعل ذلك، حُبًا في الصرامة القانونية، سأكون قادرًا: باسمِ الاستقامة التي يجب أن تكون عليها الحياة.

رغم أنني لا أحب أن أكون قائدًا، رغم أنني أخشى ضجر المسؤولية. لكنني سأفعل ذلك. - هناك، أمسك خنجرًا ومُدِيَّة... بدأتُ أفكّر من جديد. في انتظار اللحظة الحاسمة، لن أتكلّم مع أحد، ولا حتى مع ذيادوريم. لكنني، كنتُ عازمًا، وسأفعل ذلك. وشعرت أنه كان قرارًا عادلاً، قويًا، غمرني بالفرح: كنتُ أنا، زيوبالدو، زيوبالدو، زيوبالدو! كدتُ أصيح بهذا الاسم، بقدر ما صاح به قلبي عاليًا. بعد ذلك، وبعد أن صككتُ أسناني وانتهيت من كتابة آخر رسالة، شعرت بهدوء كامل وأحسستُ أنني أنا تمامًا، وكنتُ عازمًا بشكل معقول حتى أنني أعتقد أنه، في حياتي، كان ذلك هو النقطة، والنقطة، والنقطة. سلّمتُ الكتابات إلى زي بييلو - فلم تصدرُ أيُّ رعشةٍ من يدي. تملّكتني شجاعة ناقصة، وغضبٌ لأقول باحتقارٍ؛ ما قلّته:

- أنت، أيها القائد، صديقٌ جنود الحكومة...

ثم ضحككتُ، ضحكةٌ ساخرة، مباشرة؛ ضحككتُ لأثبت بذلك أنني لا أهابُ أي رجل أو أي قائد. قفز، وعلت وجهه دهشة:

قال: ليس عندي أي صديق، والجندي لا صديق له...

قلّت: إنني أستمع لك.

قال: ما عندي هو القانون. وما يملكه الجندي هو القانون...

قلّت: إذن، أنتما معًا.

قال: لكن، اليوم، قانوني وقانونهم يتعارضان: الواحد ضد الآخر.

قلّت: حسنًا، نحن، الجاغونُوسو المساكين، لا نملك شيئًا من هذا، لا شيء على الإطلاق...

قال: قانوني أنا، أتعرف ما هو، يا تاتارانا؟ إنه مصير الرجال الشجعان تحت قيادتي...

قلتُ: أكيد. لكن، لو اتفقتَ مع الجنود، فإنَّ الحكومة ستقدرك وتجازيك.
لأنَّك رجل سياسة. ألسن كذلك؟ تريد أن تصبح نائبًا برلمانيًا...
وهنا ضحكك ضحكةً قبيحة، لأنني كنتُ أرغب في ذلك. فكَّرتُ أنه
سيريد فورًا أن نتقاتل. كنتُ أقامر بحظي يومذاك. لكن الأمور لم تمضِ
نحو الأسوأ. اكتفى زي ببيلو بأن تجهَّم، مرهقًا. أغلق فمه، واستغرق في
التفكير.

قال: اسمع، يا زيو بالدو، تاتارانا: اعتبرُك صديقًا، وأقدرك، لأنني لمستُ
فيك معدنًا صافيًا. الآن، لو علمتُ علم اليقين أنَّك تشكُّ في ولائي، أو أنَّك
تقترح شيئًا دنيئًا يكون في صالحك وفي صالحِي... لو علمتُ ذلك، أكيد،
اسمع...

قلتُ: أيها القائد، لا يموت الإنسان سوى مرة واحدة.
سعلتُ.
سعلَ.

جاء ذيودولفو يجري وقال: - جوزيو يموتُ، تلقى رصاصة هنا، في
العنق...

دخل ألابيِّي وقال: - إنهم يحاولون السيطرة على حظيرة الخنازير ومخازن
الحبوب. لقد جنَّ جنونهم!

قلتُ: أعطِ الأوامر، أيها القائد!

قلت ذلك بمحض إرادتي؛ لم أفعل ذلك بشكل زائفٍ.

أعرف أن زي ببيلو ابتسم، مرتاحًا.

وضع زي ببيلو يده على كتفي؛ في الجهة التي كانت تؤلني. - هيا، هيا
بنا مع الأسلحة والمتاع! من هنا، عبر قاعة الأكل، يا بُنيَّ... - قال مُلحًا.

عند النافذة. انحنيتُ، أمسكتُ بندقيتي، سلاحي الأول. الآن، حان وقت الفعل. وهؤلاء الناس، هل جنّ جنونهم؟

برز رأسٌ، مدوّر مثل ثمرة جوز الهند، فوق قمة شجرة من أشجار البوريتي التي تغطي بيت أحد الرعاة. أطلقتُ النار: رأيت قشرة ثمرة جوز الهند تتطاير أشلاء. ولذلك، استيقظ الألم في ذراعي، فعضضت شفتي. لكنني تابعت إطلاق النار. وسرعان ما أسقطتُ جنديا آخر برصاصة مباشرة في الصدر، برصاصتين. يا إلهي، يا لهم من متهورين! كلما ازداد أنيني، أطلقت مزيدًا من النار. وكانوا يسقطون الواحد تلو الآخر، يستسلمون لسلطة الموت التي كانت بين يديّ. قمت بحساب سريع: ستة - أعرف، ستة إلى غاية وقت الغداء - نصف دزينة. هذه الأشياء، لا أحبُّ أن أرويهما، إنها أشياء لا ينبغي أن أتذكرها؛ لا ينبغي أن أفعل ذلك، كلاً. لك أنت، لك أنت فقط أحكي هذا اليوم، نعم: هذا إقرار، ومن أجل نحو أكثر الأحلام مرارة... لأنني، هنا، أُسرّعُ. أعرف متى يتظاهر رجل فقط، أو متى، عكس ذلك، يسقط منهارة بالفعل. أشكال موت مختلفة، أشكال موت تتشابه. هل شعرتُ بالشفقة عليهم؟ هل نشعر بالأسى على النمر، ونلتزم بالأدب تجاه العقرب؟! كنتُ سأشعر بالحزن لو أخفقت في إصابة أحدهم، هذا ممكن؛ آه، ولكنني لم أكن أخفق في إصابتهم. كان يكفي أن يكشفوا فقط عن إصبعين لا غير من الجسد - فتقوم رصاصتي بعملها. أثناء ذلك، كانت ذراعي تؤلمني ألماً شديداً، ألمٌ يتزعّني، كأنّ ناراً تقتلع كل شيء بداخلي ويمتد أثرها حتى إلى بطني. كلّما أطلقتُ النار، كانت تكشيرة وجهي تزداد، وأئنّ. بعد ذلك، أضحك. - أشدّد هذا الجزء من جسدي بزمام، بقطعة ثوبٍ، أيها الرفيق! - كنتُ أتوسّل. خدومًا، مزّق ألابريي غطاءً سرير، ووضع عدة طبقات من الثوب على ذراعي، فيما يشبه الضمادة. وفي الوقت ذاته، يمكن لذراعي

أن تؤلمني أيها ألم، فيما يهمني ذلك؟ - من حولي، كانت مجزرة حقيقية. بعد ذلك، أسقطتُ جنديًا آخر، أقرب إلي. ثم جنودًا آخرين. كان أحدهم قد صار طعامًا للنسور. كان آخر يقفز ليختبئ في ركن من الحظيرة، قفز آخر في الهواء، وأطلق آخر صيحة معزولة. ولم يكن ذلك، صدقني يا سيدي، إنني كنتُ أأخذ من الأشخاص أهدافا، كأني سأنال عن كل رأس مكافأة تساوي آلاف الريالات. بل، على العكس، كنتُ أنقذ حياة العديد منهم. نظرا لما كنتُ أزرع في نفوسهم من خوف، لم يكونوا يتقدمون أكثر - بسبب القصف. أطلقنا مرة أخرى، نارا أخيرة قاتلة. حينئذ، استسلموا وانسحبوا. هكذا، توقفوا، وتوقف القتال في الوقت المناسب، قُبيل وقت الغداء بالضبط. وسأحكى لك الآن لماذا ضحكْتُ، ما الذي أضحكنا كثيرا: فراشة جميلة دخلت الغرفة لحظة من قبل، في نفس الوقت الذي كان الرصاص يرفع جلود الثور. جاءت ترفرف؛ ثم استأنفت تحليقها، تطيرُ في لفات، كأنها لم تجد ما جاءت تبحث عنه - وكانت فراشة بأجنحة من ذلك اللون الأزرق - الأخضر: - آه، لتحيا العذراء، إنها تجلب الحظ - صاح جيريسبي. كأنها تستطيع أن تسمعه هناك، في السماء. كانت هي السَّلامُ، تقريبا.

طعامي، كانوا يأتونني به إلى هناك، في عين المكان، وكانوا جميعًا يقدرّون قيمة طلقاتي النارية. لا تتصور، يا سيدي، كم كنتُ أجده لذيذاً ذلك الطعام، من فرط شهيتي: فاصوليا، لحم محفَّف، الرُّزُّ، سَلطة نبات الرِّجلة، ومَنِهْوتُ مهروس. شربتُ كثيرا من الماء، كما شربتُ خمرًا. وارتشفتُ القهوة. ثم ظهر زي بيبيلو مرة أخرى، وهنَّائي: - أنت رائع، يا زيوبالدو، تاتارانا! ثعبان طائر... - وبالأخصَّ أنَّ زي بيبيلو قدَّم لي مزيدًا من الخمر، ثم شرب منه كأسًا هو الآخر، نخبَ صحتنا. هل كان بذلك يُغطِّي فقط على أمرٍ ما بسبب شعور بالذنب؟ إنَّ أحسن ما نعرف عن إنسان ما هو ما يخفيه. - آه الثعبان

الأبيض، ينبغي أن يقبوك بهذا الاسم... ونحن أصدقاء... انتظر، يومًا ما سوف ندخل معًا، منتصرين، إلى مدينة جانوازيّا... - قال مخادعًا. لم أجه. صديق؟ صحيح، أنا هنا كنتُ إلى جانب زي بييلو؛ لكن زي بييلو لم يكن إلى جانب أي أحد. زي بييلو - قاطعُ الطريق - صديق؟ نعم، يا سيدي، أنا كنتُ له صديق. كان ذلك الرجل يعرفني، يفهم مشاعري. لكنه يعرفها فقط إلى حدّ ما - لا يعرف ما بعد النهاية، النتيجة. ومثله تمامًا، كنتُ أفكر. فكّرتُ: رأيتُ أنه لو خان، سيموت. سيموت على يد صديق. أقسمتُ على ذلك، صامتًا. ومنذ تلك اللحظة، تحوّلت أفكارى نحو المدينة الكبيرة، هناك، في جانوازيّا، حيث كنتُ أريد أن أظهر، لكن دون أعجاد الحرب، ودون رفقة. تذكرتُ أنه في الفنادق وبيوت العائلات، في جانوازيّا، كان الناس يستعملون المناديل لمسح أقدامهم؛ ويتجاذبون أطراف الحديث. شعرت بالرغبة في أن ألقى أشخاصا عقلاء، وأن أجدني بين أشخاص يعيشون هناك، منشغلين، بعضهم يزاول أعمالًا مدفوعة الأجر، وآخرون يرتاحون كما يحلو لهم. جولة الفتيات الجميلات السمراوات، مجتمعات، بشعر لامع، يفوح برائحة الصّراوة، تلك الزهرة الهوائية التي تزين روح ذلك الشّعر الأكيد. كنتُ أراني في جانوازيّا رفقة ذيادوريم أتابعُ وصول الباخرة تصفّر وحشود الناس تنتظرها في الميناء. هناك، حيث الشباب يشتغلون في معامل التقطير ويعتنون بالأنابيب عناية كبيرة، كما ينبغي. تلك الكاشاسا المعروفة - رقم ٢٦ - التي تستمد رائحتها ولونها المحترق من البراميل المصنوعة من خشب الأومبورانا.

بعد ذلك بقليل، نهضتُ من موقعي وذهبتُ إلى الرواق لأطلع على أحوال ذيادوريم؛ واحتفظتُ لنفسي بالحق في الذهاب والعودة كما يحلو لي، لأن الطلقات الصائبة من بندقيتي هي التي حالت دون غزو الحظائر ومخزن

الحبوب في البيت أثناء الهجوم. كان ذبادوريم يقاتل في موقعه، دون انزعاج، دون هودة. ولحد الساعة، كان الرب الذي أنقذني يحمي صديقي أيضًا من أبسط الأخطار. كان الرصاص يصل غاضبا إلى تلك الشرفة، وهناك ينزل وابلًا، كما رأيت. طلاقات مستقيمة، عالية جدا: أسراب من الرصاص. وكان هناك رجل ممدد على الأرض، عرضًا، فقلت مع نفسي إنه يرتاح قليلًا. - لنحمله إلى الكنيسة - أمر زي يبييلو. والمسألة أن الأمر كان يتعلق بأكريسيو، الميت وسط الجميع؛ ملتويًا تمامًا. لا بد أنه مات دون معاناة. هل سيذهبون الآن ليلحثوا عن شمعة يشعلونها من أجله؟ - من لديه سبحة؟ - لكن، فجأة، صاح كافالكانتي:

- إنهم يقتلون الخيول!...

يا إلهي! كان ذلك صحيحًا. في الحظيرة الكبيرة، حيث كل دوابنا الجميلة، خيولنا المسكينة التي نغلق عليها هناك، السليمة تمامًا، والتي لا ذنب لها في أي شيء: وهم، هؤلاء الكلاب، دون خوف من الرب ودون عدل في القلب، يصرون على تعذيب وقتل تلك القطعة الممزقة من روحنا - يطلقون النار كما اتفق، عن كثب، في أجساد الخيول! منظر قبيح للغاية. كانت الخيول رأسًا على عقب - تدرك دون أن تعرف جيدًا أن الشيطان قد ظهر - وأخذت، يائسة، تحوم، مندفعة في ركض محموم؛ بعضها تقفز، جامحة بمستوى قاماتها، ترفع حوافرها في الهواء، ثم تسقط ممددةً بعضها فوق بعض، وتشتبك في لفافة تتحرك في الهواء، دوامة من الرؤوس، والمسامير والأعراف المتحركة، المسحوبة، الشائكة: لم تكن غير منحنيات متشابكة! وأثناء ذلك الوقت، القصير جدًا، كان يعلو صهيل حاد، غاضب، يثقب الأذان ويرتفع أجشً وشديدًا، مثل زخمة النمر، وهو يخرج من مناخرها المتوسعة عن آخرها. كانت تحوم في الحظيرة، ترتطم بالحواجز، تتسارع دون كابح في كل الاتجاهات

- فرأينا في كل ذلك حاجتها الأليمة لأجنحة مجنونة. كانت ترفع الغبار من كل حجر! تسقط، تنبطح على الأرض، مفتوحة الأرجل، فلا يبدو منها، وهي ترتعش هائجة، سوى الفكوك وخصلات الشعر العالية. كلها تقريبًا، كلها، كانت تسقط؛ من كانت تتأخر في لفظ أنفاسها كانت تصهل محافظةً على الألم - كان صهيلًا عاليًا هادرًا؛ بدا صهيلُ بعضها كما لو أنها تتكلم، وبعضها الآخر بدا صفيرًا مشدودًا بين الأسنان، تُخرجه بصعوبة كبيرة؛ صهيلٌ لا يتنفس، فيفرغ الحيوان من كل قواه فلا يعدو غير ضغط، واختناق.

- الملاعين! الحقراء!

كان فافافا يبكي. كان جواؤ فاكثيرو يبكي. وكنا جميعًا بأعين باكية. لم تكن لدينا أي سلطة على مثل تلك القسوة، ولم يكن هناك من حل. تحت الحصار، كان رجال هُرموجينيس يقتلون، ويمارسون القتل كما يحلو لهم، يريقون الدماء، فقط من أجل متعة الدمار. بل كانوا يطلقون النار حتى على رؤوس الماشية، ماشية الآخرين، بقراتٍ وثيرانًا لطيفة، لدرجة أنها، في البداية، كانت تأتي لتبحث لنفسها عن ملجأ قرب البيت. وهناك كنا نرى خيولنا تموت مكدسة! وبدأنا الآن نرتعش. وحانت لحظة معاينة وسماع أحزن وأفظع شيء لم يسبق ابتكاره - لأنه لا يتسع له ضيق الزمن. كان الحاجز عاليًا، فلم تستطع أن تهرب. سوى حصانٍ واحد، حصانٍ أسود، من ماوُدا ليشا واسمه سافيريئتو. نهَض، متوازنًا على ساقيه الخلفيتين، وظلَّ معلقًا، كأنه يغفو منحنيًا على السياج - كأنهم يأخذون قياس وزنه فوق ميزان - أدار لنا كِفله العريض، عضلاته المشدودة؛ ثم سقط في الخارج، انغمس في الجهة الأخرى، فلم نستطع حتى رؤية كيف انتهى به الأمر. شرٌّ خالص! أقسمنا أن ننتقم. عندئذ، لم نَر حصانًا واحدًا يجري، كانوا قد قتلوا جميع الخيول؛ واحدًا تلو الآخر!

كان شيء كهذا يستوجب من الرب أن يأتي بلحمه ودمه، ليرى ذلك بأم عينه. كنا نسأله اللعنة. آه، ولكن الإيمان لا يرى الفوضى من حولنا. أعتقد أن الرب لا يريد أن يصلح أي شيء، إلا إذا تعلق الأمر بإعادة النظر في بنود العقد بكامله: الرب مزرعة. ونحن - حبات رمل. كان أصعب شيء بدأنا نتحمل سماعه: ذلك الصهيل المشؤوم، تلك المعاناة الهائلة، ذلك الصهيل المرعوب للخيول شبه الميتة، والذي كان هو سيف الحزن: كان لا بد لأحد منا أن يذهب إلى هناك، وبتصويب رحيم، واحداً تلو الآخر، يضع حداً لمأساتها، ويطفئ قلب ذلك الألم. ولكننا لم نقدر على ذلك! اسمع، يا سيدي، واعلم - إن الخيول المضرجة بالدماء، والزبد الأحمر، ترتطم، تصطدم، تموت ولا تموت، وصهيلها كان بكاء طويلاً ممتداً، صوتها، الذي يهز أحشاءها، صوتها الذي فيه شيء من أصواتنا: عانت تلك الخيول مستعجلة، ولم تكن تفهم ما تعاني منه. كانت تستجدي الشفقة، تحديداً.

- اللعنة! سوف أذهب إلى هناك لأخلص تلك الكائنات المسكينة من الحياة!... - راح يصيح فافافا. لكننا منعه، لأن ذلك قد يكون جنوناً خالصاً. لن يمشي خطوتين في الباحة قبل أن يسقط ميتاً، معدماً وقد اخترقه الرصاص، آه! أمسكنا فافافا. كان علينا أن نبقي داخل البيت، نقاتل ما استطعنا، بينما تلك الفظاعة الخبيثة مستمرة. ما لا تعرفه، يا سيدي: صهيل الحصان، حين يعاني بهذا الشكل، ينتفخ فجأة ويتخذ ثقباً عميقة، وأحياناً يشخر كما الخنزير تقريباً أو يهذي، يأتي ليضع فيك لعنته، أله، فتظن أنه قد صار حيواناً من نوع آخر، محروماً من حقه في رحمة الرب. تفتح فمك، فيتنفش الشعر واقفاً في جسدك المرتعب، ويحتاجك بردٌ يجمد الأوصال. حين تسمع كل هذه العدد من الحيوانات البائسة، في هذا الوضع، في هذا العذاب الأليم، فإن الفكرة التي تخامر ذهنك هي أن العالم يمكن أن ينتهي.

آه، ما الذي فعله الحيوان؟ أي شيء يدفع الحيوان ثمنه؟ بقينا في تلك القفار من الوحدة. نتذكر كم كانت جميلة وطيبة تلك الخيول قبل وقت قليل، كانت خيولنا الباسلة في السَّرتاو، والآن قُتلت بهذه الطريقة دون أن تحصل على مساعدتنا. كُنَّا عاجزين عن ذلك! وما الذي كان يريده رجال هِرْموجينيس؟ هل كانوا يقصدون، بكل تأكيد، أن يتركونا نسمع صهيل الحزن يحوم من حولنا، ليلاً نهاراً، نهاراً ليلاً، ليلاً نهاراً، حتى لا نستطيع أن نتحمل ذلك، بعد فترة من الزمن، وندخل إلى الجحيم؟ لذلك، كان ينبغي أن ترى زي ببيلو: كان يفكر بشكل فظيع في كل شيء - كأنه زوج من الثيران يجهد نفسه لإخراج العربة من الوحل. مع ذلك، كان يصدر الأوامر على طريقته بمهارة عالية: - لنُحسِّن إطلاق النار... نحو الأسفل... - نار، من هنا، من هناك، وقد تملَّكنا غضب حيال الشفقة. لم يكن ذلك مجدياً. كنا نستطيع أن نستنفذ كل ما لدينا من ذخيرة، والحظيرة بعيدة من تلك المسافة، لم يكن ممكناً تماماً أن نصيب الحيوانات بطريقة لائقة. وقصف العدو المختبئ بوابل من الرصاص، لم يكن مفيداً أكثر من ذلك. كنا فيما كنا فيه: العجز. أصعب ما في اليوم. وفجأة، ارتفعت فوق الواقع: صليتُ! هل تعرف، يا سيدي، كيف صليتُ؟ هكذا: لأنَّ الرَّب كان عادلاً جداً - لكن فقط في الجزء الثاني من الأحداث؛ فبقيتُ أنتظر، أنتظر، وأنتظر، كصخرة تنتظر. - هذا لا شيء، لا شيء، الصهيل لا وجود له، ليست الخيول كلها هي التي تصهل هكذا؛ من يصهل هو هِرْموجينيس، المنبوذ، في جلده الداخلي، في غياهب جسده، في أعضائه الممزقة، كما سيحدث يوماً ما، حين تأتي ساعتِي، سيكون كذلك... هكذا، من اليوم فصاعداً، علينا أن نكون دائماً: هو، هِرْموجينيس، لي أنا حتى الموت - هو المحارب وأنا المُقتص. - هكذا ينشطر الصهيل ثلاث مرات، فوآقا، وتلك الخيول تتصبَّب عرقاً من آخر آلامها.

أمسكنا فافافا بقوة، كما قلتُ لك، يا سيدي. لكن، فجأة، صاح مارواس:-
 - انظروا، انظروا هناك! - وما حدث أنهم - من يصدق ذلك؟ - كانوا يطلقون
 رصاصة الرحمة على الخيول الجريحة جدًّا، ليركوها في سلام. هذا ما كانوا
 يفعلون - حمدًا للرَّبِّ!... - صاح زي بيبيلو مشرقًا من ارتياح رجل طيب. -
 آه، هذا رائع! - صاح الأريبي بدوره. لكن فافافا لم يستطع أن ينطق بكلمة
 واحدة، لم يكن قادرًا على ذلك: وكل ما استطاع هو أن جلسَ على الأرض،
 وجهه بين يديه، وراح يبكي بغزارة، مثل طفل صغير - كان الآن يبكي
 بشجاعة، ويحظى باحترامنا.

وحينئذ، انتظرنا. أثناء قسط من الوقت، تركنا أسلحتنا لتستريح، ولم
 تخرج أدنى طلقة نار. فترة كافية كي نترك لهم متسعًا من الوقت ليقتلوا نهائيا
 خيولنا المسكينة. حتى بعد آخر أنين ارتفع في الهواء وتلاشى، بقينا مرعوبين،
 جامدين، لوقت طويل. ثم جاءت صيحات أنينٍ أخرى أطول - حتى تلاشى
 وذهب بعيدًا الصوت والصمت وذكرى كل تلك الأشياء التي كابدناها.
 بعد هذا، ومن جديد، بدأ كل شيء مرة أخرى، بشكل أكثر وحشية. وفيما
 أحكي لك من أمور، يا سيدي، نرى سرّتاو العالم. إنّ الرّب موجود، نعم،
 ببطء، ببطء شديد، وبسرعة. إنه يوجد - لكن فقط تقريبًا بواسطة فعل
 الناس، الطيبين والأشرار. أشياء العالم الواسعة. السرّتاو الكبير هو السلاح
 الأقوى. هل الرّب زناد؟

بيد أنني أحكي نصف ما حدث: النصف، حتى لا أحكي مضاعفا. من
 أجل أن تكوّن عن ذلك فكرة، يا سيدي. مآسينا الكبيرة. حتى أنا - وأنا، كما
 رأيت، أقلب ما أتذكره بمرآة مضاءة مئة مرة، وأحتفظ بكل صغيرة وكبيرة
 - حتى أنا لا أفلح في وصف ما حدث، ما عايناه، محاربين نقاتل، داخل
 فازيندا توكانوس تحت نيران أتباع هرّموجينيس. بُعدًا أيها الشيطان! - لم أعد

أذكر كم دام ذلك من ليالٍ وأيام. إن قلت ستة، أعتقد أنني كاذب؛ إن ملئت إلى خمسة أو أربعة، ألا أكذب؟ كان ذلك لمدة طويلة من الزمن. لكنه طال وامتد لمدة سنوات - فكّرتُ في ذلك أحياناً؛ أو أحياناً بسبب انطباع مختلف، أعتقد أنه انقضى في لمح البصر... في لحظة عابرة: صراع بين طائري طنان. اليوم، وقد بلغتُ من الكبر عتياً، وصارت تلك الأحداث بعيدة، فإن قيمة تلك الذكرى تتغير - تتحول، تنتظم، فيما يشبه ماضياً جميلاً. تمكّنتُ من أن أفكر بشكل صحيح: أعتقد أنه هكذا يجري النهر: والأشجار على ضفافه، بالكاد أراها... من يسمعي؟ أرغبُ في الكثير. أحداث الماضي تطيعنا؛ وما سيأتي من أحداث، أيضاً. هل قوة الحاضر وحدها هي التي تثير حفيظتنا؟ كلاً. إنها تطيعنا أيضاً، وهي ما هي. هذا الأمر، تعلمتُ هذا من مدة طويلة. غباء؟ حسناً، سأقول لك، يا سيدي، ما يعنيه ذلك لي - غسلُ الذهب. إذن، أين هو المصباح الحقيقي للرّب، الحقيقة الصريحة والحقة؟

هذا يعني أن تلك الأيام والليالي قد تشابكت وانسدت، ولم تصلح سوى لذلك الشيء الفظيع. كانت زمناً داخل الزمن. كنا نسكن في هدف مختبئ، ضيق. هل تعرف، يا سيدي، ما معنى أن تظل مستقراً بتلك الطريقة الدائمة؟ لا أعرفُ كم من آلاف الطلقات النارية أُطلقت: انتفخ ذلك في أذنيّ - وهو ما كان دون انقطاع يصعق ويهدر، يقطع، ويتفرّع. الجسّ والحواجز، العارضات والقرايميد في ذلك البيت القديم كانت هي درعنا ودفاعنا. قد يقول آخر في روايته - وأقول هذا كي تُصدّقني - إن البيت الكبير بكامله كان يشعر بالغضب، يئنُّ بالشكوى، ويزداد حرارة في أعماقه المظلمة. بالنسبة إليّ، فكّرتُ لحظة أنهم، في نهاية المطاف، سيهدمون كل شيء في هذه الفازيندا البالية. لم يحدث ذلك. لم يحدث، كما سترى ذلك لاحقاً، يا سيدي. لأن ما ستفعله، يا سيدي - هو أنّك ستستمع للحكاية حتّى آخرها.

مات بيروزيو أيضًا. مات كاجويرو. جاء موسامبيكاو وكيم كيروس وجلبا لنا كمية كبيرة من الرصاص، كي ننجو بأنفسنا. كان زي بييلو في كل مكان وقريبًا في الوقت ذاته، يأمر بإطلاق الرصاص بشكل صائب ومقتصد. كان يقول مازحا: - آه، يا أبنائي: لا للتبذير. لا تقتلوا غير الأحياء! أو يقول: - تشجعوا، انظروا جيدًا، لأن الميت القليل لن يهاجمكم بعد... - وكان كل واحد يطلق صيحات تشجيع، ليمنع الخوف من الاستقرار في النفوس. وكنا نلعنُ الخونة. كي لا نشعر بالخوف؟ آه، كي لا نشعر بالخوف، نمشي نحو الغضب. الأوغاد! مع حرارة الانتفاخ، كان ألمُ ذراعي يزداد حدة. سلّمني ألابيبي، بكل طيبة، قارورة ماء بارد، حملها إليّ؛ وبين الطلقات النارية، كنتُ أبلّل كما ينبغي قطعة قماش، أعصرُها، وأقطر فوق ذراعي برودة ذلك الارتياح. وكان أحد الزملاء، يتطوع دائمًا ليساعدني، فشكرته. رجل من أوروكويا، واحد من أولئك الخمسة الذين جاؤوا رفقة زي بييلو. فجأة، بدا لي ذلك أمرا غريبا. لاحظتُ، فجأة، أن ذلك الرجل ظل يتبعني منذ مدة، لا يفارقني.

ارتبتُ للأمر. ظلّ هذا الرجل الحاضر باستمرار؛ هل كان مجرد صدفة؟ واحد، إذن، من رجال أوروكويا، اسمه سالوستيو. ذلك الذي كانت له عينان ضيقتان صغيرتان وسط وجه مدوّر، فمٌ رخو وسبعة خيوط من الشعر تتدلى من لحيته على ذقنه. منزعجًا، قلت له: - ما ذا هناك؟ هل تريد أن تكون صديقي؟ ابق في مكانك، يا حيوان المدرّع... - ضحك شبه جاد. رجل تافه من أوروكويا، بعينين خضراوين، قبيح المنظر. لم ينطق ببنت شفة، وحكّ بطنه بظهر يده - حركة خاصة بأهل أوروكويا. ضربتُ يدي اليمنى بيدي اليسرى، التي تمسك البندقية ووضعتها هناك - حركة خاصة بالجاغونسو. حاصرته: ماذا تريد، قل لي؟ فكان جوابه: - جئتُ أرى كيف

تفعل، يا سيدي، وأعين شجاعتك... أنت قنّاص ماهر! والمرء لا يتعلم إلاّ بالقرب ممن يعرف أحسن منه... - كان يمدحني، حقيقةً. ضحك، بكل صدق. لم أكره رفقته، بسبب الصمت الكافي. فقلتُ: - عندما تطلق الطلقات هناك أمامنا، ثم تسكت فجأةً - يخلق ذلك ثقلًا، فيداهئك. ثم فكرتُ مع نفسي: رجال هِرْموجينيس كانوا أشخاصًا مثلنا، في حقيقة الأمر، وكانوا رفاقنا حتى وقت قريب - إخوة كما يُقال؛ الآن يتخلون عنا، بدافع الرغبة في الانتصار علينا. لكن، لماذا؟ إذن، هل كان العالم كثيرًا من الجنون وقليلًا من العقل؟ عن كُتب، الجنون ليس واضحًا. لأنني كنتُ ألاحظ أكثر هذا الرَّجل، سالوستيو جواو من أوروكويا. وهناك، جاثيًا على ركبتيه فوق الأرض، كان يطلق النار. يطلق النار ويغمض عينيه. هل كان يريد أن يرى أحدًا ما حيًّا حين يفتحهما مرة أخرى؟

هدأتُ. صحيح، ما كان لي أن أشغل بالي بكل تلك الأفكار. فالتفكير هكذا لم يكن يأتيني بأي شيء جيّد - كان فقط بابًا أشرعه لأستدعي القلق. إذن، لماذا كنتُ على الهامش، أخبو لوحدي؟ كان عليّ فورًا، من أجل كرامتي، أن أفعل كما يفعل الآخرون، لأن قوة الجميع متحدة كانت تتغذى على فيض الغضب. الكراهية، من دون وجهة تقريبًا، من دون بوابة. كراهية هِرْموجينيس وريكارداو؟ لم أكن أفكر فيهما حتى. ما كنتُ أفكر فيه مرة أخرى هو خداع ذلك الرَّجل من أوروكويا. الآن، كان يتخذ لنفسه موقعًا، منحنيًا، ركبةً بعيدًا نحو الخلف، وأخرى بعيدًا نحو الأمام. هذا الرجل - قلت مع نفسي - أرسله زي بييلو ليتجسّس على أفعالي.

والدليل على ذلك: إنّ زي بييلو كان يُحَصّر لخيانة. وكل ذلك الزبد الذي يثيره كان يستفزني. هل كان سالوستيو هذا هناك ليُحَيِّدني عند أول غفلة مني؟ ربما، لا؛ راهنتُ. كان زي بييلو يريد أن يتجسّس عليّ عن كُتب،

حتى لا أحكي الحقيقة للآخرين. أكيد أن كثيرًا من الزملاء رأوني أكتب تلك الأوراق - شيء غريب ساعة بداية إطلاق النار؛ لكن لا بد أنهم كانوا يعتقدون أنها موجهة إلى أصدقائنا من أصحاب الفازيندات، لأنهم يملكون رجالا لهم؛ نطلب منهم أن يأتوا من الخلف ويدعمونا. كان زي بييلو الآن يخشى أن أخطط لأمرٍ ما. لذلك أرسل ذلك الرجل من أورو كويًا ليكون لي ظلًا. بيد أن زي بييلو كان يحتاجني، طالما استمرَّ حصار ذلك القتال. و، مهما كان خائناً، ألم أكن بدوري بحاجة إليه - إلى ذلك الذهن الذي يفكر بشكل صحيح؟ لأنني، وقتئذٍ، لم أكن أعرف كيف أفكر بكل وضوح. هل كنتُ أتعلم؟ لم كن أستطيع أن أفكر بكل وضوح - لذلك كنتُ أقتل. أنا هنا - وأولئك قبالي، في الجهة الأخرى. كانت قوى شريرة ترمينا بجحيم من الرصاص، رصاص ينسف الأسطح، والأبواب. آه، كان ذلك مصيبة من دون يد تسيرها، إهانة - مطر من الحجارة تقريباً، الصاعقة، البرق، العاصفة التي تضربنا - من دون أن يظهر فاعلها؟ هل يمكن أن أشعر بالغضب من هؤلاء الرجال الذين لا أراهم؟ كنتُ أستطيع ذلك وأشعر به كاملاً تجاه من كنتُ أقتلهم قتلاً. لكن ذلك لم يكن غضباً حقاً؛ كان تأكيداً فقط.

وهكذا حلَّ الليل، وأغمضت الشمس جفنيها؛ فقدنا يقين الساعات. لهاث القلق، فقط. نزل علينا التعب. ومع تقدم الليل، كان الخطر يزداد. أَلن يستغلَّ رجال هِرْموجينيس الظلام ليهجموا ويختنموا المعركة في الداخل بالسكاكين وأعقاب البنادق؟ مات كيابو بدوره. وكان آخرون جرحى، كما يظهر. وبما أننا كنا بحاجة إلى المصلّى، فقد نُقل الموتى إلى غرفة صغيرة من دون نوافذ، تطلُّ من أعلى سلَّم على الممرِّ. ظهر أَلاريي يحمل شمعة، أشعلها، وثبَّتْها في قنينة. شمعة وحيدة، من أجلهم جميعاً. ألم تكن المصابيح والفوانيس هناك كافية؟ تحت ضوء شمعدان شاحب، كان زي بييلو يشير

لي. أكيد أنني فهمت على الفور. أمرَ بحضور جواكيم بينجو وكييس لأمرٍ سرّي.

كان الأمرُ الآن يتعلق بأن يشق كل واحد منهما طريقًا وهو يزحف، على بركة الرَّب، ويحمل كل واحد حزمة من الأوراق المرسلة. واحد في جهة، والآخر في الجهة الأخرى؛ وما سينال رضى الرَّب، هو ما سيكون. هكذا، قبل المهمة ولم يطرحا أسئلة. كل ذلك في سرّية تامة. إذن - لو كان زي ببيلو رجلًا نزيهاً فعلاً - لماذا لا يُطلع الجميع، قولاً وفعلاً، بخطّته؟ انتظرتُ لمزيد من الوقت. لكن - قد تقول لي، يا سيدي - لماذا لم أقم من جهتي بفضح كل شيء، الآثار والمشاريع، وأحكي على الأقل لذيادوريم وألاريبي؟ أعترف أنني لا أعرف. الأخطار، الأخطار، لم أكن أعرفُ متأكدًا إلا شيئًا واحدًا... إنني لن أتوقف عن مراقبة زي ببيلو عن كثب. لكن، أن يخون وهو حيٌّ، لن أسمح له بذلك. كان زي ببيلو ذا طبيعة خاصة - نتخدم أم نخون؟ آه، سوف أرى. سوف أرى، في ساعة الحسم، إن كان سيفلت بجلده على حسابنا أم لا.

أخذ كييس وجواكيم بينجو وقتها وذهبا إلى المطبخ لأخذ بعض الطعام معها. أثناء ذلك، كان جاكاري بدوره يقاتل، في الأوقات التي لا يطبخ فيها، فيطلق النار، من حافة نافذة رفقة ميجافوغو. كان الليل يزداد ظلامًا؛ وسوف يستقر كذلك قبل الساعة العاشرة تقريبًا، وبعده يمكن أن تطلع قطعةٌ من القمر. شيئًا فشيئًا، رانَ صمتٌ وقور، ولم يعد هناك من طلقات نارية تصدر من هذا الجانب ولا من ذاك، بل كنا منتبهين جدًّا كي لا نثير أي ضجيج، ولا نتحدّث مع بعضنا من دون حاجة إلى ذلك. ليلاً، يشي وميضُ البارود بموضع من يُطلق النار: - الظلام يليق بتنفيذ الخطط والمفاجآت، الظلام يناسب الحيوانات - قال ألاريبي بصوت خفيض جدًّا. ألاريبي الطيّب من ولاية سييارا: يظلُّ كما هو في كل ظرف وحين، لا يمكن لنا أن

نشعر معه بالذنب، والقتال معه يصبح واجباً طبيعياً، واجباً بسيطاً يقوم به إنسانٌ حيٌّ. من أجل أشخاص مثله، كنتُ أقتصُّ. من أجل أشخاص مثله، كان عليّ أن أكون مخلصاً تماماً، أن أكون أنا. لكن، كان عليّ أن أحاصر زي بييلو، أن أجبره ليتكلم بصراحة. وأن يعرفَ قانوني أنا: ألا يدمّر نفسه بمصيبة دون سابق إنذار. ولو من أجلنا نحن - لأنّ زي بييلو كان هو الهلاك، لكنه قد يكون أيضاً هو خلاصنا. أيضاً، سوف أتحدث معه، تحدّ هادئاً. هل سيُفيد ذلك في شيء؟ في هذه الحالة، عليّ أن أتسلّح بقوة ما، يجب أن أفرض نفسي على هذا الرجل. يجب أن أملاً جيوب زي بييلو بالخوف. كان ذلك هو الشيء الوحيد الفعّال.

ضدّ كل هذا، كان يفكّر بحزم، يفكر في كل شيء، لا يهمل أي قاعدة من القواعد. حدّد أدوار الرجال، فحدّد من ينام، ومن يقوم بالحراسة، بالتناوب. قرب أيّ رجل نائم، رجلٌ مستيقظ. وسيقوم آخرون بدوريات مراقبة. وزى بييلو، ألا يذهب لينام؟ هذا الأمر كان سرّاً عنده. كان يعطي الانطباع بأنه يريد أن يعرف العالم والكون، يُدير كل شيء. أو كل شيء، أو تقريباً. كان الماء المستعمل في البيت يصل عبر جدول صغير، يمتدّ على جانب المطبخ ثم ينزل ويمرّ أيضاً داخل قناة: كان بوسعنا أن نملاً الحاويات دون خطر. - ما لن يترددوا في فعله هو أنهم قد يُحوّلون مجرى الجدول هناك في العالية، فيتركوننا من دون ماء، بكلّ سهولة... - فكّر زي بييلو. أمر بملأ احتياط كبير من الماء: أن نملاً منه كل الأباريق التي قد نجدّها هناك. وفعلنا ذلك. لكنّ تغيير مجرى الجدول لم يقع ولو مرّة واحدة. حتى النهاية، ظلّ الماء يجري طوال الوقت، منعشاً، كافياً، يغرّد. وماذا لو سمّموا الماء الذي نشربه؟ أيها الأبله! أين بوسعهم أن يجدوا تركيبة السم ليفسدوا بها المياه الجارية؟

الرَّب لا يُولَفُ غير الكتب المقدَّسة. في تلك الليلة، خرج زي ببيلو، انسلَّ زاحفًا حيث كان الظلام أكثر حِدَّةً، وهو يرتدي ملابس داكنة جدًّا، استعارها من هذا ومن ذلك. بل لا بدَّ أنه ذهب بعيدًا جدًّا، مثل الفأر الذي يحوم حول الحظيرة - فتأكَّله البوم. ما كان يريدُ هو أن يتفحص المكان بأمِّ عينه. عاد، وأمر بشيء آخر: أن يغتنم الجميعُ غياب ضوء القمر ويذهبوا لقضاء حاجاتهم الطبيعية في الخارج، في مكان آمن. فذهبنا إلى خندق حُفر قرب السِّينِزالات، بيوت العبيد القديمة. هذا ما نصَّح به زي ببيلو، ثم التفت نحوي: - إنَّ قوام العدوِّ نفس عددنا، أو ربما أقل قليلًا. لذلك لا يجرؤون على مهاجمتنا، بالإضافة إلى أنهم لا يعرفون داخل هذا البيت... - وحدَّثني كثيرًا عن ذلك. لماذا كان يختارني ليهمس لي بأسراره؟ هل كان يحسبني متواطئًا معه؟ - الأغبياء، لا أفكار لهم... ليسوا أعداء في مقامي أنا! - ثم لوى شفته، خائبًا تقريبًا. والحال أنني فقدت كل ثقتي تقريبًا في زي ببيلو. صداقته، كنتُ قد طويَّتها ورائي - بالإضافة إلى أنه يمكن في حالة الشُّك أن أضطرَّ لأقتله بيدي. كنتُ واضحا، ملأت كل الرسائل والأوراق، وكنتُ أنقاسم معه الأخطاء. تخیلات طموحه. - زيوبالدو، تاتاراننا، تعال معي لأنَّك بارع في إطلاق الرصاص، أحفظ بك ضمن أركان جيشي... - قال لي بنبرة مفخَّمة. فكَّرتُ في الأمر مليًّا. حان الوقت المناسب.

وكان ذلك مثل حبلٍ مدَّه لي لأفعل وأقول ما قلْتُ من قبل، تلك الفكرة التي كانت في ذهني. كنتُ أفكَّر فقط: - عليَّ أنا الآن أن أسرع... - ثم أجبتُه: - نعم. سأذهب معك، وسيأتي معي ذلك الرَّجُل من أوروكويا، سالوشثيو. سأذهبُ معك، وسيأتي سالوشثيو معي، لكن فقط عند ساعة الأحداث... عندما يحين الوقت، الوقت المناسب، سأكون إلى جانبك،

لأراك. لأرى كيف، كيف ستكون الأمور... ما سيكون وما لن يكون...
- سمعتني أتكلم مُتمتًا. هل تعرف لماذا، يا سيدي؟ لسببٍ وحيد، وهو أنه
تفحصني بعينه، بعينٍ أكثر حدة، فبقيت هناك شبه مرعوب - خائبًا، حائرًا.
أحرق؟ لا أعرف شيئًا. لم أشعر بالخوف. إلا أن شجاعتي توارت، إلا أن،
نعم، كأنها نارٌ خَبَتْ. فصرتُ من جديد عاديًا أكثر من اللازم؛ وهو ما كنتُ
أرفضه. لم أشعر بالخوف. شعرت بالإحباط، والخيبة، نعم. لم أجد الشجاعة
لأقول أكثر من ذلك.

قصفتني زي ببيلو بشرارة من عينيه.

- اسكُت، يا زيوبالدو، تاتارانا! ألسْتُ القائد؟

اعلم، يا سيدي، أنني لحظتها، انتابني دوارٌ - كما يُقال - ولمحتُ أخطاري.
لمحتُها وأنا أغمض عيني، من دون أن أبصرها. أثناء ذلك، كانت ساقاي
ترتعدان على وشك الانهيار. ألم أفلح في أن أكون شخصًا أمام سلطة زي
ببيلو؟

الآن، إذن. لكن لم يكن أمامي الآن من حلٍّ آخر. آه؟ لكن، يومذاك،
لا أعرف لماذا، لم أعد أطيع أن يحدّق في زي ببيلو بعينه. - لا يوجد أيُّ
زي ببيلو على الأرض، في هذا العالم. كان يوجد، لكن لم يعد له وجود...
بل إنه لم يوجد قط... هذا القائد لا وجود له... لا يوجد وجه، ولا مخلوق
في العالم بهذه الهيئة الحاضرة ويحمل هذا الاسم... - قرّرتُ، وقد هدأت
أفكاري. عيناه، أنكرتهما، وعلّقت نظري على مكان صغير، مكان صغير
جداً، على ذلك الصدر، مكان تافه - هناك حيث يمكن لرصاصة أن تستقرَّ
بشكل أكيد، في شريان القلب الكبير... هذه التخيلات، القصيرة جدًا. لا
شيء آخر، لا شيء غير هذا. لم أشعر بالخوف. فقط ذلك المكان المميّث.
نظرتُ متوتّراً. بكل هدوء. كنتُ جالسًا على قمة تلٍّ صغير هادئ جدًا. كنتُ

أكون. إلى غاية اللحظة التي سمعتُ فيها سعالِي؛ ثم سمعتُ صوتِي، الذي كان ينطق بالجواب المقبول:

- أنتَ على حق، أيها القائد. أنا لا شيء، أنا لا شيء، لا شيء... أنا لا شيء حقًا، قليل من لا شيء، لا شيء تمامًا. بل لستُ حتى ذلك الشيء الصغير جدًا، أتعرف؟ بل لستُ حتى أصغر الأشياء الصغيرة جدًا، متتهى الصغر. أتعرف؟ لا شيء. لا شيء... لا شيء.

وكما قلتُ، تكلمتُ؛ لماذا؟ لكنَّ زي ببيلو استمع لي، حتى النهاية. مذهولًا. بدا مرتابًا، غير واثقٍ. لوى شفته. حرَّك رأسه ثلاث مرات. ألم يكن خائفًا؟ عرفتُ ذلك في الحين، عرفتُ. كنتُ قد أصبتُ هدي. وحينئذ انفجر زي ببيلو ضاحكًا، ضحكة عالية سخيَّة. هل كان ذلك يفيد في شيء؟ ثم قال: - آه، أنت يا تاتارانا. أنت أحسنهم. أنت الرجل الذي أعولُ عليه!... - وكان أكثر استعراضًا في كلامه. همهمتُ بأكثر الأشياء مَلَلًا، ولم يكن ذلك كلامًا حتى. - حسنًا، هيا بنا نشجع هؤلاء الشبان... - آمين، قال بنبرة مسرحية. وهناك افترقنا، توجَّهتُ نحو المطبخ، وتوجَّه هو نحو الرواق. ما الذي فعلته؟ ليس لأنني كنتُ لا أعرف. بل فقط لأنني كنتُ أريد ذلك. سجَّلتُ نقطة لصالحِي. الآن سوف يفكرُ بي، ويتأملُ في ذلك مرَّتين. بدا لي. لن يستطع أن يخون مرة أخرى، بل يجب عليه أن يفكر أحيانًا، ويكبح جماحه - وهو يسير في طريق الخيانة. كان وضعه شيئًا ما مُسلِّيًا. كنتُ أملكُ أوراقًا لعب رابحة.

في تلك الليلة، نمتُ كثيرًا؛ ومع أولى صيحات الدِّيك استؤنفتُ إطلاقُ النار، متجددًا. لكنها كانت طلقات متفرقة فقط - حفاظًا على الذخيرة، ولتؤتي العمليَّات أَكلها - لأنهم كانوا يتصرفون مثلنا، مباشرة تمامًا. حربٌ دقيقة، حذرة، كأنها تطريزٌ داخل إطار. ذهبْتُ لأرى طلوع النهار: بياضٌ.

أنت تعرف، يا سيدي: جهة الشرق، لمعت السماء مع أولى أشعة الشمس الصاعدة في الأفق. لكن الحظيرة الكبرى كانت قد امتلأت عن آخرها بالنُور، التي جاءت كعاداتها وانتشرت في كل مكان - النُور، طيور الاضطرابات. وحين تدور الرياح، كانت الحظيرة تفوح برائحة تزكم الأنفاس. لكن، حيث كانت الرائحة تزكم الأنفاس أكثر كان داخل البيت، بل كانت رائحة قوية: الرفاق الموتى. أغلقنا باب الغرفة بالقفل، وسددنا فتحات الباب بالقطن الخام والممسحة. وكانت الرائحة التنتة تعود دون توقف، وتخرق الحواجز. في لحظة ما، سمعنا مواء. - اللعنة! القط هنا... - صاح أحدنا. آه، نعم، كان القط. أطلقنا سراحه، فخرج خلسة وذهب ليندس تحت فراش ما في غرفة أخرى. كان علينا أن نعطيه ما يأكل، لأن معاملة القط معاملة جيدة أمر جالب للحظ. دون انتظار، في القاعة المفتوحة على الباحة، التحقت بموقعي، وأطلقت النار. بشيء من التوفيق، حسب الطلقات، أسقطت أكثر من واحد، وراح الرجل يتدحرج، قُضي أمره، أعرف أنني أصبت الهدف. على ما يبدو، لم تعد النُور منشغلة بتحاشي الطلقات، كانت تنزل بما يكفي، عند أسفل الحظيرة، تنقب كما يحلو لها، ثم تذهب لتحط في صفوف فوق الحاجز، متيقظة بالمرصاد. وحين تحرك أجنتها كانت تُهوي المكان طاردة تلك الرائحة التنتة. مع تقدم النهار، كانت رائحة الهواء الكريهة تزداد حدة. حينئذ، رفضت أن أبتلع أي شيء مملح، مضغت شيئاً من الطحين، مع حفنة من السكر البني. ولم تكن هناك من وسيلة للعثور في البيت على لتر واحد من الجير، أو عبوة من روح القطران، نستعملها لطرده تلك الرائحة القبيحة. مات كيم بيداو، فوضعنا جسده على مقعد في القاعة الكبرى، مؤقتاً: لم يعد أحد يجرؤ على أن يذهب ويفتح غرفة الموتى. كان اليوم يشيخ. تسللتُ خلسةً بالقرب من ذيادوريم،

فقط لأراقبه، من دون أن أكلّمه تقريبًا. من مُشاهدة ذِيادوريم، باستمتاع، بدأت شجاعتي تفتّر. بدأت أرى مخاوف جديدة. الوقت الذي سنضطر لنقضيه هنا، نستحمل وزر الحرب. ربما سنضطرّ، مع طول المقاومة، ألا نأكل غير الجلود المشوية - كما حدث لدوثرا كونيّا، ذلك الشيطان الذي قام من داخل الفازيندا بمقاومة الحصار الذي ضربه حولها كلٌّ من كوسمي دي أندراي وأولفينو أوليفيانو. كان دوثرا كونيّا رجلًا بعينٍ واحدة. كان زي بيبيلو يعرف حكايته حق المعرفة. يمكنني الآن أن أضحك من زي بيبيلو. هل يمكن أن تحدث أشياء أخرى، بعد تلك التي وقعت عند الفجر، في انتظار نسيم المساء؟ لكن، لا أحد كان يتحدث عن جواكيم بيبجو ولا عن كيبيس. في هذه الساعة، إمّا أن العدو قد أسقطها، أو أنها ما زالا يسرعان عبر الطرقات، نحو المدن. هكذا - بينما كان المساء يحلّ، والليل قادم - كانا يركضان ربما على متن حصانٍ وجداه هنا أو هناك وسط الحقول، فظلاً يُمطّطان انتظارنا. والجنود، هل سيأتون؟ في هذا اليوم الثاني، مات أسير يجو بدوره. وفي كل مكان، كانت تسود رائحة الموت القديم. - هذه الرائحة النّتنة سوف تُعدّينا في نهاية المطاف... - كان يقول هذا أو ذاك دون توقف. تلك الرائحة الموبوءة، حتى الماء الذي نشربه كان مشبعًا بها في أفواهنا، فيصيرُ لاذعًا. كان بيت توكانوس يتحمل المعارك، بيت واسع كبير جدًّا، به عشرُ نوافذ من كل جهة، وأسس عميقة قوية من حجارة متينة. أظنُّ أن البيت كان يتحدث بلسانه - يجيب بالصفير - وحين تصطدم الطلقة مرتين، يكون هناك جوابان. كانت الرصاصات تحترقه متتالية، تترك وراءه خيطًا من الهواء. إليه، وكانت تهاجمنا أيما هجوم! لكن ذلك كان يُضحك الرفاق، بشكل عشوائي، فلا يضيفون مزيدًا من الإكراهات لما يواجهون من صعوبات. حتى حين يستمرُّ ضحكك، كان من هم بعيدون عنه يطالبون بمعرفة سبب الضحك أو

يصيحون متسائلين وسط همى المعركة. أما الآخرون، فقد تعرّض رجل يدعى زي فيتال لنوبة: كانت نوبة قيحة تبدأ ما إن يشتكي من أن أنفه أصبح ساخناً، كان يعرف بنفسه لحظتها مسبقاً - وحينها يطلق صيحة خنزير يُذبح ويسقط منبطحاً على الأرض، صلباً كأنه فوهة بندقية؛ لكنه كان يُعيقنا وهو يحرك ساعديه وساقيه، يبحث في عذابه عن شيء، عن مخلوق، يتشبث به، بينما هو يقلّب عينيه، وفمه يرغي ويزبد، سائلاً باللعب. قال أحدهم: - إنه مرضٌ قديم يعاني منه، وليس بسبب الحرب... - تلك النوبة حالة تشبه الموت، والخبيل، لكنهم مدّدوا زي فيتال داخل سلّة من الجلد. حدث ذلك عند المساء، مع حلول الليل. كان كل شيء يسبح. كان البيت يمتلئ بالذباب، من ذباب الجنازة الذي يتكاثر. عناقيد، أسرابٌ سودّ من الذباب الذي يجد قذارةً تلو أخرى. لا نستطيع، مع هذه الأشياء الفظيعة، أن نغلق الأبواب. بقيتُ بعيداً عن ذيادوريم. أتخاشى أن أشاهده محموراً وهو يريد أن يُصوّب ويقتل، فلا يتخذ أي احتياط يذكر، منشغلاً فقط بالانتقام - انتقاماً رائعاً. ذيادوريم، نعم، بوجهٍ شاحب جدّاً، روح يصعب التعرف عليها، وعينين غائرتين تتخلّلها خطوطٌ حمراء. كان ذلك من فرط إيمانه بالحرب. فما السبب؟ لأنّ موتَ جوكا راميرو أصبح من باب المؤكد؟ لم يكن هناك أي سبب عادي حقيقي مناسب. نبذتُ من يملك القوة - ولم نكن نعرفه - أشباحاً تسكن الليل. كان موطني بعيداً عن هناك، فيما تبقى من العالم. السّرّ تاؤ لا مكان له. بيغري، تلك المرأة أمّي، لم تُلق عليّ اللعنة. مع طلوع النهار - كان كل شيء يتكرّر متطابقاً تماماً: أغنية إطلاق النار، صعود الرائحة التّنة من الأموات والخبيل، أسراب الذباب، المنتشرة. رغم كل رغبتني في السّلام والراحة، وجدّني منجرّفاً وسط كل ذلك، في قلب كل ذلك التنوع، الإفراط، الموت في يدي اليمنى وفي يدي اليسرى، والموت الطازج أمامي، وأنا مجرّدٌ من كلّ

يقين. من دون أوتاسيليا، خطيبي، الموعودة لتكون سيدة كثير من الأراضي الزراعية، دون احتساب المراعي، فوق العديد من التلال وكثير من البساتين وغابات البوريتي. ما هذا الذي كانت فوضى الحياة تستطيع القيام به أكثر منا؟ ومتأكد، في الوقت ذاته، وأنا منغمس في ذلك الجحيم، أنني لا أريد أن أقبله. كنت بحاجة، حين تأتي لحظتي، لأن يتوقف كل شيء، حتى تكون هناك بداية جديدة. هذا ما كان. لآخر مرة، للمرار الأخيرة. كنت أريد حياتي لي أنا، أتحكم فيها بإرادتي. كنت حزينا من أجل ذيادوريم: لأن حقه المشؤوم، الذي يمليه الانتقام، كان يتخذ شكل حقدٍ لأشخاص مُسنين - من دون جلدٍ فوق العين. ذيادوريم، من أجل ذلك، كان بحاجة إلى دم هُرموجينيس وريكارداو. هل كانا نهرين مختلفين - كنا نعبهما معا؟ بقيت بالقرب من ذيادوريم لحظة طويلة عاجزا عن استعمال بندقيتي. لم نكن نرى العدو قط، ولو لمحة خاطفة، أثناء الدخان المنبعث مع كل طلقة بارود. مناورة، دسيصة: كانوا يقتربون الآن، بكل تأكيد، متنكرين في هيئة مبابا، أتعرف، يعني أنهم يرتدون أغصانا وأوراقا. وبهذا التمويه كانوا دائما يفلتون من عيوننا وتصويب بنادقنا. لكن طلقاتهم تستمر، وتتوالى طقطقات الرصاص، وضجيج القرميد المتساقط. أمنا الموت. هل يلقاها من يستحقها أكثر؟ - أيها الناس! لقد أصابوني، إنني أموت، وأصير أعمى - صاح إفاريسو كائيتي، حين أهمل حماية نفسه من الجانب، فتلقى طلقة كاملة. وكان جسده قد صار دون حركة، وشلَّ البردُ ساقه. كان ينطفئ مبتسما تقريبا؛ وظل يحدق بعينه. - ما الذي يراه؟ إنه يرى النصر! ... - قال زي بيبيلو بعجرفة. النصر! وتلك النسور التي تأكل بشرهة، وطائر فارس الرمال، حصاني الرمادي الصغير، الذي لن أركبه أبدا. ما كان يخيفني هو تهيج الرفاق، ما عادوا يريدون الذهاب للنوم، كانوا مُسوسين مضطربين. لدرجة أنه كان لا

بد من كبح جماحهم، تهدئة أعصابهم، لأنهم كانوا يريدون أن يسرعوا نحو
 الخارج، ويندفعوا بطريقة عشوائية. جنون تلك الاندفاعات العادية، التي
 تعرض الفعل العادي للخطر. - الحزْم، يا أبنائي. النَّفْس والصبر، دائماً معنا
 - ينبغي فقط أن نريد وندفع بإصبع تلك الإصبع المطوية... - كان زي ببيلو
 يُقيِّم طرق النجاة. حلُّنا الوحيد، بالنظر إلى ما آلت إليه الأمور، وأملنا
 الرائع. هل كانت هناك من طريقة نفلتُ بها من هناك سالمين؟ بخصوص
 هذا الأمر، كان زي ببيلو هو حظنا الوحيد، لأنه كان يفكر في ذلك، يعيد
 التفكير فيه، ولا يتوقف عن الفعل. صدَّقته. زي ببيلو كان يفضل دائماً أن
 يترك كل شيء ليسوء ويتعقد، في البداية. مدَّتني جرعة كاشاسا بنصيحة
 جيدة. من دون قدوم الجنود - إن جاؤوا - ألم نكن هالكين؟ ألم يكن زي
 ببيلو هو من بعث في طلب الجنود؟ آه، ولكن زي ببيلو لن يخون مرة
 أخرى، لن يفعل ذلك - وذلك بسببي أنا. كان زي ببيلو بحاجة إلى سلطة
 أخرى مختلفة وإلى حسّ قوي، يُحدِّره، ويُريه الطريق. كنتُ هناك لهذا
 الغرض، أعرف. حتى عندما كان يحدِّجني بطرف عينه، كان زي ببيلو
 يتظاهر بأنه لا يعرف أنني أراقبه. لكنه كان ينكمش أمام قدرة رصدي، عن
 وعي. كان الآن مضطراً ليفكر، ليستعمل دماغه، ليجتهد كي يتخيّل شيئاً
 آخر، ليعثر على شيء آخر يبتكره - حتى يضمن نصرنا النهائي بكل نجاح -
 من دون خيانة، ولا تبجّج. آمنتُ بكل هذا، وصدَّقته تصديقاً. كنتُ أعرف
 أنَّ زي ببيلو كان ذا قدرة هائلة. إلّا أنني لم أضحك. - أريد أن أرى إن كنتُ
 أستطيع أن أسقط على الأقل رجلاً آخر من رجال هِرْموجينيس قبل حلول
 الليل الهادئ... - فكَّرْتُ. لم يسعفني الوقت لذلك. ما حدث، ما تلا ذلك،
 هو أنَّ زي ببيلو أمسكني من كتفي. غيرَ مكانه، وجاء ليضع وجهه تحت
 الضوء تماماً. - آه، هل تسمع، يا تاتارانا زيوبالدو، هل تسمع؟ - وقال لي

ذلك بابتسامة مشرقة، لم تكن خبثاً ولا طيبة. حدث ذلك ذات يوم، ربما كان ذلك حوالي الثالثة بعد الزوال، حسب وضع الشمس في السماء. سمعتُ!

لكن، إذن، هل أخطر الجنودُ، وهل كانوا قادمين؟ نعم، نعم! أحدثَ ذلك بلبله كبيرة في صفوفنا، لأن الآخرين لم يكونوا على علم بالسبب، ولا يعرفون شيئاً عن نوايا زي ببيلو. الجنود؟ طلقاتهم النارية، مفاجأة قاسية، ضربت رجال هرْموجينيس من الخلف على حين غرة. أطلقت رشاشاتهم رصاصًا متتاليًا: ... رصاص، رصاص، رصاص،... رصاص، رصاص، رصاص، رصاص، رصاص، رصاص، باف! وكان ذلك يقطع مثل عاصفة. هل سيلحقون أضرارًا بالبيت في نهاية الأمر؟ - لا بأس، أيها الشبان. امتياز الشُّجاع هو صمتُ الضحيج... - كان زي ببيلو يقول. كان زي ببيلو يتسلَّق جبلاً عالية. لا يشك في أي شيء. كان ينتصر! من ينتصر، من الصعب ألا يبقى بوجه الشيطان.

لم أكن أفارقه، وكان يوصي بالنظام الحذر. هل كانت فوهة بندقيتي هي الوصية عليه؟ لم يكن بوسعي، قبل ساعتى، أن أبني شكوكي لا على رده، ولا على كلامه، مهما كانا. لكن ما سيأتي كان ينخر قواي منذ البداية. دون أن أرغب في ذلك، ولأنني كنتُ أعرف أكثر من الآخرين - وجدثني في موقع رجُلِه الثاني. إذا ما مات زي ببيلو أو خان، هل يجب أن أتحمّل القيادة، أشرط وأفرض؟ ليقم بهذا شخص آخر - أنا، لا؛ أبداً، مُطلقاً! أولاً، لن يطيعني الرجال؛ وكانوا غير قادرين على فهمي. وحده زي ببيلو كان بوسعه أن يفهمني، لا أحد غيره! فكّرتُ - بكل حق - إنَّ زي ببيلو كان هو الوحيد الذي يمكن أن يكون رجُلِي الثاني. غريب هذا الأمر، إنَّ كنتُ أنا نفسي لا أعرف لماذا كنتُ بحاجة إليه. كنتُ بحاجة إليه: من دون أن أعرف السبب. وإنَّ تظاهرتُ بمعرفة ذلك سيكون الأمر أفضح. الإنسان،

ما الذي يوجد حقًا خلف ثقب أذنيه وعينه؟ كانت ساقاي غير ثابتتين. آه، تملّكني القلق. الخوف يستمر من ذاته، تحت ألف شكل وشكل. الشيء الوحيد الذي تبقى ليُحفّزني - هو أن أكون في أحسن ما يمكن أن أكون عليه، في تلك الأوقات. يدي، بُدقيّتي. الأشياء التي كان لا بد أن ألقنها لذكائي.

الآن، ما الذي كنا ننتظر؟ وحده زي ببيلو كان يملك الجواب، لكنه لم يكن يعطي أدنى إشارة تغيير. كل شيء عادي. وكنا نرى من ألوان الشمس أنّ النهار قد أشرف على نهايته. كانت بعض طيور الغواكس تُحلّق. من جانب الجنود والخونة، لم نكن نسمع أي طقطقة سلاح تقريبًا، عدا عن طلقات متفرقة، هنا وهناك، كأنه لم تعد لديهم رغبة في القتال. ونحن على أهبة واستعداد، نتعلم الدرس من النمر، والخونة من حولنا. مناوراتهم، لا بد أنهم يدققونها في الخفاء، من ورائنا وعلى جانبنا، حتى يستولوا على المواقع المغطاة، كي يحاصروا الآخرين ويشنوا الهجوم النهائي. - الجندي، ما يطلب هو الحماية والأجر المضاعف... - أظنّ أنّ أحداً ما قال هذا. كانت تلك المناسبة هي الأكثر خطراً. الجاغونُسو كذلك - يمكن أن تسجل هذا الأمر وتدونه في لوح. مكان يحفظ فيه بُدقيته، وحزام ممتلئ بالذخيرة، هذا يكفي. لم يكن أيّ من الرفاق قلقاً، لم يكن أي واحد منهم ضحية للمخاوف. لم يكن أحد يتحدث ليعرف الطريقة التي نخرج بها أحياء من فازيندا توكانوس. وصول الجنود، ما يعني هلاكنا، كان احتفالاً بالنسبة إليهم. لدرجة أن بعضهم راحوا يصيحون مثل ذكور البيغاوات. تصور، يا سيدي! مثل أطفال صغار. مما جعلني أفكر: أنني كنت مختلفاً كثيراً، كثيراً عنهم. إذن، أنا لم أكن جاغونُسو بكامل الصفات والأوصاف، كنتُ هناك وسطهم أرتكب خطأ. شعرت بخوف شديد. لم يكونوا يفكّرون. أما زي ببيلو، فكان يفكر طوال الوقت، لكنه يفكر في حلّ أمور عملية. وأنا؟

رأيتُ الموتَ بوجوه متعددة. شعرت أنني لوحدي - هل تعرف، يا سيدي. لكن، في هذا الأمر، أكتفي بالوقائع، لأنه حدث شيء غير متظر تمامًا. من جهة الغابة، فجأة، فوق شجيرات اللوبيليات، رفع أحدهم منديلاً أبيض، فوق طرف عصا.

لم يكن مسموحاً لنا بإطلاق النار على ذلك المندبل. هل كنا سنقبل بالتفاوض مع الخائنين؟ بالنسبة إليّ، كان هذان الاثنان يحملان سِمة الغدر على الدوام، وكل ما يمكن أن يجلبا لنا هو اللعنة. لكن زي بييلو، سريعاً وماهراً، كان قد ربط منديلاً أبيض إلى طرف بندقيّة، وأمر ماو دي ليشا أن يرفعه ويُلَوِّح به في الهواء. - القاعدة هي القاعدة! - قال زي بييلو - وكرامة السّفير يجب أن تُحترم دائماً، حتى لو تعلق الأمر بزنديق، حتى لو تعلق الأمر بشخص فظّ... - وافقه الآخرون، وأكدوا صواب كلامه. ظننتُ أنهم كانوا يريدون قبل كل شيء أن يعرفوا الأخبار، وما سيأتي مستقبلاً. ما أدهشني أكثر: رسالة تلك المناديل البيضاء، بين هنا وهناك، دامت لبعض الوقت. مما يعني أن كل شيء في هذه الحياة بحاجةٍ لئُنجَزَ بنجاح.

بعد ذلك، ظهر شخصٌ، خرج من بين الأعشاب، وتقدّم، لا بد أنه انسلّ من فتحة ظهرت في الحاجز. كان في الباحة، على مسافة معينة، فتعرّفه أحد رجالنا، وقال: - آه، إنه رودريغيس بيلودو، من رجال ريكازداو الأوفياء... - وكان هو بالفعل، - أكد ذلك الزملاء الآخرون. وبعد هذا الأخير، وهو يزحف تقريباً، ظهر شخص آخر: - إنه لاكراو! - فالتفت رودريغيس بيلودو، قال شيئاً ما للآخر، ويبدو أنه أمره بالمغادرة. لكن لاكراو ظلّ عنيداً، واستمرّ في التقدم خلف الأول. - إيه، أنتم، من أين خرج لاكراو هذا؟ منذ مدة لم نسمع عنه شيئاً... - قالوا إنه من بولور، من الأراضي العُليا في جيكيّتينوينا، ورجل ذو شجاعة خاصة. خلاسي ذو بشرة صافية. رغم أنه فيما مضى، أثناء

محاكمته عن جريمة ارتكبتها، طعن أحد محامي الادعاء في المحكمة. وأنا أرى هذين الرجلين، هناك، مُسمرين قريباً جداً أمامنا، عند أعلى السلام، في هذه الظروف المعينة، وجدتُ الأمر غريباً. رفع رودريغيس بيلودو عينيه، كما لو أننا جالسون في السماء، ثم حياً بطريقة عادية. بعد ذلك، قال:

- سيدي القائد...

- أيها الرجل، استدر! - أمره زي بيبيلو.

وسرعان ما أطاع الاثنان أمره، الأول كما الثاني. لكنهما كانا مدججين بالسلاح. في اللحظات المואلة، أعجبتُ بالشجاعة الهائلة لهذين الاثنين، لأنه من أي ركن بعيد، كان أي جندي من جنودنا في ظروف تسمح له بإسقاطهما من أجل المتعة لا غير. لأن الجنود لم يكونوا على أي علاقة بهذه المراسيم. أصف ما فكرتُ فيه.

سألها زي بيبيلو، وأجبرهما على الجواب: ما هي المهمة التي جاء من أجلها؟ كان ذيودولفو إلى جانبه يصّر بأسنانه، وفق عادته، فهمس جوزيه جيرفازيو: - إنها خدعة... - لكن زي بيبيلو، ويده على المسدس، كان يدير كل شيء. أن يقول رجل مهمته، مديراً ظهره، وسط خصوم، وتحت فوهات كل تلك الأسلحة - هل سبق لك، يا سيدي، أن عاينتَ ظروفًا كهذه؟ فتحدث رودريغيس بيلودو، من دون أدنى رعشة في صوته.

- بعد إذنك، أيها القائد، ووفق الأعراف، جئتُ أحمل إليك هذه الكلمات التي كُلِّفْتُ بإعادتها على مسامعك: - بالنظر إلى هؤلاء الجنود، وإلى بقية الأمور التي تعاكسنا، ألن يكون من الأنسب، لهذا الجانب كما للجانب الآخر، إبرام اتفاقية سلم، لفترة من الزمن... ومن أجل هذا العرض جئتُ بأمر خاص. إنني - إن كان الاقتراح مناسباً أو ذا قيمة - أطرح السؤال؛

وحسب ما إذا كنتَ موافقا أم لا، وبعد أن تعطيني الجواب الذي يرضيك، سأنقله إلى قائديّ.

- أيّ قائدين؟ - سأله زي بيبيلو، بنبرة خالية من أي مكر.

ظلّ رودريغيس يلودو متردّداً، يريد أن يدير وجهه، لكنه تخلى ذلك في الوقت المناسب. ردّ قائلاً:

- السيد ريكاردأو والسيد هرّموجينيس.

- إذن، هما يريدان السّلم؟

- إنها يقترحان اتفاقية مناسبة...

على مسافة بعيدة، من داخل الغابة نحو الأسفل، لعلت طلقة نار، كانت طلقة بندقية. تلتها طلقات كثيرة أخرى. بدا لي ذلك انعداماً للاحترام. طلقات لم تكن قادمة من صفوفنا. لكن، مع ذلك، قال زي بيبيلو:

- أيها الرجال، يمكنكما أن تحنيا جسديكما الآن.

انحنى رودريغيس يلودو وهو لا يزال يدير ظهره. ثم وضع بندقيته على الأرض. أما لاكراؤ، فظلّ جاثياً على ركبتيه. كانا الآن بين خندقين.

من جهتنا، الآن، تجمع عدد من الرفاق، شرسين، رائحة الكاشاسا تفوح من أفواههم: أشار مارواس بإصبعه إلى الكتيّفة على صدره، جهة القلب؛ صدمني الزنجي مانغابا وهو يغيّر موقعه - أعرف ذلك وأتذكره، لأن ذراعي ألمتني؛ وبصق ديودولفو بصقة ثقيلة أمامه - جشأً خرج من معدته. احتجّ فافافا: - السّلم، ومن يعيد الحياة إلى خيولنا؟ - وهنا، من ورائي، همس موسامبيكاو، كأنه ثورٌ تعرّف ظهري. لكنّ يدي، من محض حركتها، أمسكت بيد ذيادوريم، ولم أدر حتى رأسي، وحدها تلك اليد كانت تستحق كل التفاهم. يدي، البعيدة كذلك عن كل شيء، بطريقة كيّانٍ

هادئ من ذاتي، دفء، شيء حنون بكل بساطة. هل توجد الكلمات؟ لكن، لحظتها، ألقى نظرة على ذيادوريم، فاستيقظ مما نسيه، وانساق وراءه، ثم سحب يده من يدي، فيما يشبه قفزة اشمترازٍ تقريبًا. كان متجهًا، بعينين مثلمتين، متجهًا من بقايا غضب قديم، وشعره مبعر تعبث به الريح. قلت في ذهني: الحقد هو أن نتذكر ما لا ينبغي لنا أن نتذكر؛ الحب هو الرغبة في العثور على ما في حوزتنا. - كلام جميل، يقوله هذان الرجلان! - همهم ذيادوريم بين أسنانه. كان ذيادوريم يريد دمًا خارج العروق. لم أكن أتفق مع أي حزن. كنت فقط أتجاوز دهشة وعزاء سريعًا؛ لأن الحرب كانت هي تلك الجلبة الدائمة في السُّرتاؤ، كأنها ريح الجفاف التي تلتوي معه الريح أكثر. لكن التفكير في مَنْ نُحب مثل الرغبة في الجلوس على ضفة الماء ننتظر أن يهدأ الجدول، في يوم من الأيام، ويتوقف عن الجريان. فَتَشُّ الأريبي حقيقته، وكان يشحن من جديد جعبة الخراطيش. لكن كل ما أحكي لك هنا، يا سيدي، يتوزع على بضع دقائق من الزمن. ويجري بطريقة ليس فيها من فواصل. لأن زي بيبيلو، يدها على الحزام، كان يتدخل، بهدوء ودقة، كأنه أفعى. وكان كل ما قاله:

- هل من شيء آخر، يا رجل؟

- لقد قلت كل شيء، أيها القائد. وأطلب جوابك لأحمله معي. وإذا ما كان هناك أي اتفاق، اتفاق محترم، لديّ أوامرٌ بأن أبرمه تحت القسم... - كان هو الجواب الذي قدّمه رودريغيس بيلودو بصوت واضح لمن ينفذ أكثر مما يريد. حتى أنني حسدته على ذلك: لأنه كي نعيش بشكل كاف، لا يحدث ذلك إلا في ظروف كهذه.

- حسنًا، لكن، أولًا - قال زي بيبيلو - مَنْ يحاصر الآخرين، يزعجهم

ويهاجم؟

- عادة... نحن... أعني... - قال رودريغيس بيلودو وهو يزن كلمات اعترافه.

- هكذا. وماذا، إذن؟

- جئتُ لأتوصل إلى اتفاق. من أجل سلامة ومصلحة الطرفين. كلاً الطرفين. إذا ما تفضّلت، أيها القائد ووافقت...

دون أدنى وقاحة، ومن دون أن يرفع نبرة صوته. لكن، رغم كل شيء، وهو ما أدهشني أيضاً عند رودريغيس بيلودو، هو أنه حافظ على ولاءاته القائمة. فبوصفه عدواً لنا، ما زال يتصرف مثل عدو فقط، لكنه عدو شهم؛ حادّ وندّ، خصم لا يلين أبداً. ويمكن أن يحتفظ في ذهنه برأيه الخاص، وإن كان مختلفاً. تماماً، مثل مَنْ هم في الجهة الأخرى - الخائنون - لا يمكن أن يكونوا فقط كلاباً مجنونة؛ بل أشخاصاً، مثلنا تماماً: جاغونُسو في وضع معين. ويمكن النظر إلى ذلك بطريقة أخرى: هل سنقوم، ونحن ننتقم لموت جوكا راميرو، مهما كان فظيلاً، بقضاء كل وقتنا في الحروب ومزيد من الحروب، نموت ونقتل، خمسة، ستة، عشرة، كلهم من خيرة رجال السُّرتاؤ؟ تناثر غبارُ شكٍّ على ذهني - كأنه أدقُّ ما يوجد من حبّات الرمل: تلك التي يُدحرجها نهرُ أوروكويّا في مياهه الشاسعة، أثناء فيضانات فصل الشتاء. وهناك، كان عدد كبير من الموتى من بين رفاقي. رفاق بالصدفة؛ وما يترسّب منهم الآن مادةٌ لذكرياتٍ مستقبلية، وتلك الرائحة التّينة التي كانت ترشح من حين لآخر. بما أنهم كانوا يفوحون بها، رغم أنهم مكّدسون في غرفة الموتى، التي سدّدنا شقوقَ بابها بالخرق، رغم أننا قد أحرقنا في هذه الجهة جلوداً ممزوجة بالأوراق. أكيد أنه من خلال كمّ تلك الروائح سيقوم رودريغيس بيلودو ولاكراؤ بتقدير عدد القتلى في صفوفنا، دون احتساب الجرحى المصابين بجروح خطيرة وخفيفة. لكن زي بيبيلو كان قد أمر بحضور مارسيلينو بامبا، جواؤ كونكليس، والعديد من الآخرين،

وكان تجمُّعنا ونحن في الغرفة، كتفًا لكتف، يعطي الانطباع بأننا جماعة مهمة، كثيرة العدد. فبالأحياء نخفي الموتى. هؤلاء الموتى - جوزيو، المتصلب والمحطم، وخيوط دم جاف تخرج من أذنيه وأنفه؛ أكريسيو، الممدد في هدوء تام لم نره عليه قطُّ في حياته؛ كيم بيداو، بنزاهته الساذجة، الذي لم ير قطُّ قطارًا في حياته، وكان يسأل طوال الوقت كيف يكون؛ إفاريسنتو كائيتي، بعينه الحازمتين، كان على الدوام ذا رفقة مرحة وسط الآخرين. من يتحمل ذنب هذا كله؟ تعساء السَّرَتاو. ألم يكن لأحدٍ أمُّ هناك؟ أقول لك ذلك مرة أخرى، يا سيدي: حين تضرب الصاعقة وتقع الكارثة، يردُّ السَّرَتاو بهذه الصيحات. هل كان ذنب رودريغيس بيلودو، مثلًا؟ أنفي ذلك. كان حقد دِيادوريم يخلق أشكالًا من الزَّيف. الحقد الذي يتحرك ويوجد بطريقة صحيحة وأكيدة، كان هو حقدي؛ ولكنني وقتها لم أكن أعلم من ذلك غير الجهل. وحين كنتُ أفكر في هِرْموجينيس، كنتُ أفعل ذلك بشكل عرضي، تقريبًا - فقط بالحاجة إلى شخص أقارنُ به نفسي. لأنني لم أعد أستطيع أن أقارن نفسي بزي بييلو. الآن، صار زي بييلو هو أنا - أنا نفسي - الذي أقوم بالحُكم عليه. هل كان يعرف ذلك؟ في تلك الجُمجمة التي يفكر بها زي بييلو لم يكن هناك من مكان سوى للنافع، للمستعجل والسريع. تحدَّث باختصار، واضعًا حدًّا للموضوع:

- أحسمُ الأمر. إن كانت الضمانة جدِّية، أقبلُ هدنة في استعمال السلاح، لأجلٍ محدَّد في ثلاثة أيام. أقول: ثلاثة أيام! والآن، يا رجل، يمكنك أن تنصرف - وتبلِّغ قائدك، أيَّا كان.

- سأهذب... - وعده رودريغيس بيلودو.

- إذا كانت الضمانة جدِّية، من هناك حيث أنتم، ليُطلق أحدكم ثلاث طلقات، حتى نبرم الاتفاق. انطلاقًا من هذه الليلة: مع ظُهور أول نجمة في السماء.

- سأذهب.... -

وضع رودريغيس بيلودو من جديد بندقيته على كتفه ثم أدى التحية وذهب. لاحظتُ من همهمات الأصوات أنه، بما أنهم كانوا لا يعرفون إن كان قرار زي ببيلو صحيحًا ومناسبًا، لم ينطق أحد بكلمة موافقة أو شك. وهناك أيضًا، في عَيْنِ الصَّمْت، كان ذلك هو الشيء الوحيد الذي يلائمني. تَأَبَّطَ رودريغيس بيلودو بندقيته، وكان يقرفص كي ينزل السلام. كانت إرادة شخص واحد، يعي ذاته، هي التي تحكم. زي ببيلو كان يحكم، وكانت له نظرة قبيحة لمن يفكر في كل شيء. كان الجميع يطيعونه. عداي؛ فقد احتفظتُ بشكوكي.

لكن، وبعد أن ظلَّ هادئًا طوال الوقت، كأنه يتابع خطبة القدَّاس على بعد خطوتين من المذبح، ظهر لاكرأو، فجأة، استدار، وانفجر مُرتجلاً:

- أنا، سأبقى هنا معكم، أيها القائد! - بما أنني جئتُ لهذا الغرض. أنا الرجل الذي كنتُ على الدوام: إلى جانب جوكا راميرو - رجلٌ وفيٌّ لألوانه... اليوم، أعرض عليك ساعدي، أيها القائد. لكل شيءٍ وفي كلِّ وقتٍ وحين، إن كنتَ مستعدًّا لتقبلني...

الاندهاش الذي خلفه ذلك الإعلان، القوي، الصريح. خروجٌ يجمِّدك من الدهشة؛ بقينا مذهولين، فاغري الأفواه، من دون كلام. بعد أن قال كل ذلك، نهض لاكرأو واقفًا. هنا ترك الصمت يستكملُ سؤاله السابق، طلبه المثير. لم يكن ذلك شيئًا بسيطًا، أقول لك، يا سيدي: انظر، واسمع. من القلب إلى القلب! بخاصة وأنَّ لاكرأو لم يكن يتصرف دون وعي ونضج، في حبه المعلن، لينضم آمنًا إلى خندقٍ ما؛ بل، على العكس من ذلك، ونحن محاصرون كما كنا، فقد رغب في أن يكون شريكنا. هل تفاجأ أحد بذلك؟ زي ببيلو، لم يتفاجأ.

- هذا أمر يعجبني، إنني أقبلُكَ، أيها الشاب! - قال زي ببيلو مُدليا برأيه.
الحرب لها أمور كهذه، بيد أنَّ الحكي ليس منطقيًا. لكن، من يقول كل الحقيقة بالكاد يكذب. بعد ذلك، توقف رودريغيس بيلودو لحظة، لكنه صلَّب رأسه كي لا يلتفت ويحدق في لاكراؤ. بينما نظر لأكراؤ عابرا إلى بندقيته، وقال: - أنا في وضع قانوني، يا صديقي، أنا في وضع قانوني بوصفي مسؤولا عن أفعالي، ضدَّ أيِّ أحد كانت هذه الأفعال. أما البندقية، فقد كانت ملكي على الدوام، سلاح لم أستلمه من أي رئيس. أنا ناصع السمعة... - لم ينس أحد بينت شفة. بما أنَّ رودريغيس بيلودو امتنع عن الرَّد، وفُضِّل أن ينصرف، يدفع بجسده نحو الأمام، وذهبَ.

انتظرنا متحلقيين في دائرة، جامدين، إلى أن قاموا في الجهة الأخرى، من أعلى طريقٍ مُنحدر، بإطلاق ثلاث طلقات نارية، تُبرِّم ما اتَّفَق عليه. وهو ما أجبنا عليه بإطلاق ثلاث طلقات أيضًا. وحينئذ، التفت زي ببيلو نحونا وقال: - هل أنا مجنون؟ هؤلاء الناس، لا يملكون حتى القدرة على الملاحظة، إنهم لا يستحقون ذلك الوعد الذي أعطيناهم. ما قمْتُ به هو أنني أعطيت انطلاقة ما سنقوم بتنفيذه الآن. لقد أقرَّرتُ بانتصارنا!

سواء فهموا ذلك الأمر أم لا، فقد وافق الرفاقُ عليه. كما وافق عليه ذيادوريم. أو ربما كان زي ببيلو يثير الفكرة العظيمة، الكلمات الممتعة، فكرة تطول وتتمدَّد. مسرح العالم: واحد فوق العرش، والآخرين يتابعون الدَّرس في صمت. مهما يكن، لم يتوقف زي ببيلو عن النظر إلَيَّ خلسة، بين خِشية واحترام. كنتُ الوحيد هناك، باستثنائه، من يمزجُ العناصر. أنا فقط كنتُ أحتفظ بأملٍ راسخ، وهو ما أضفى أهمية على ذاتي. ما الذي كان زي ببيلو ينوي فعله في تلك الساعات المسائية في حالة ما إذا؟ هل سيستطيع أن يتراجع عما التزم به وفكر فيه - ما نسجه ليخون - ويجد، الآن، في هذه الظرفية

خلاصاً آخر؟ لكنني لا أنكرُ، ولو من أجل تقديره، أنني كنتُ أتمنى أن يختار عن وعي التصرف المناسب ويكون جديراً بكل شيء. كنتُ، بسبب ذلك التفكير، أكنّ له الحب والإعجاب في الوقت ذاته؛ وبدافع الضرورة. كنتُ أجد أنه أمرٌ لا يصدق وشيءٌ مُروع أن أكون مضطراً لأقتل زي ببيلو نهائياً. كيف يمكن؟ لكنه كان يفتح مكاناً أفسح من اللازم وقریباً جداً، ويقوم بدورٍ، في نظري، لم يكن يناسبه. ولهذا السبب كنتُ بحاجة لأحرّر نفسي من تلك الحركة التي لا نهاية لها والتي لا تترك لي لحظةً لأستمتع بأمور أخرى. هل تفهمني، يا سيدي؟ عليك أن تعرف ذلك: هذه الأمور، بالكاد كنتُ أفكر فيها وأنا في لحظة استجمامٍ.

- يا أصدقائي، إنني أهنئكم الآن وأثني على كل واحد منكم أكثر من الآخر. ولنعد الكرة: هيا بنا نبصق عليهم شيئاً من النار، نجازيهم بها، في انتظار أن يحل الليل بكل نجومه! - قرّر زي ببيلو، عملياً كعادته. بالإضافة إلى هذا الأمر، وبما أننا نتوقّر على ما يكفي من الذخيرة، من الأجر بنا، كي نخلق مزيداً من الرعب والدمار، أن نركز أولاً على ما يمكن أن نصيبه في الغابة، والمروج والسهل، كما على التلال الصغيرة، التي تتخلّلها الأحرّاش والوديان. أثناء ذلك، طبقاً للأوامر التي صدرت، سيعود مارسيلينو بامبا إلى السّينزالات، وسيقوم كلّ من فرييتاس ماشو وجواو وجوي بيشيغيتو، الملقّب بـ«النعل»، باتّخاذ موقعين، الأول قرب مخازن القمح، والثاني قرب الطاحونة. لكن زي ببيلو احتفظ بي لأبقى معه، رفقة ألابيبي، كي نخضع لأكراو لحديثٍ على انفراد.

وهناك تبيّن أنّ لأكراو هذا ليس لديه الكثير ليقوله. أخبرنا عن كلّ ما سألناه. قال إنّ العدوّ ناهز المئة فرد، ولكن معظمهم من الجاغونسو غير المؤهلين، ممن لا وزن لهم؛ وكانوا ينتظرون مزيداً من الرجال، والتعزيزات،

التي لم تكن تصل في الوقت بكل تأكيد، بسبب الجنود الذين يُحْمَلون دون ذلك. وبخصوص هذا الأمر، لم يكن يعرف شيئاً عن الرجال، ولا عن الدوافع الحقيقية لهزموجينيس وريكارداو؛ وبخصوص موت جوكا راميرو، لم يُصَف أي شيء خاص أكثر مما كان في علم الجميع. بعد ذلك، عندما ابتعد زي بيبيلو وألاريبي داخل الممر، تنفس لاكراو الصُعداء، انبسطت أسارير وجهه وقال: - يا له من رجل ذكي زي بيبيلو، قائدنا! لم أر له مثيلاً قادراً على أن يزرع الرعب في النفوس ويتصرف بشكل مناسب،... - حصافة. وقت الحقيقة القبيحة.

ذهبنا. ذهبْتُ. نحو ركن نافذة، في تلك اللحظة. لأطلق النار. ألم تكن تلك هي الأوامر؟ إرادة زي بيبيلو. بعجالة، كلما ضغطتُ على الزناد، كنتُ أتذكر جملة لاكراو: ما كان زي بيبيلو. أيُّ إنسان يكفي حضوره ليُخرج من الآخر حليبَ الخوف. حتى ذيادوريم، الذي كان الأكثر شجاعة، هل كان يعرف ذلك؟ الخوف هو: شيءٌ يحدث داخل النفوس، يترسَّب؛ ولكنه في أوقات معينة يتحرك، يغلي، فنظنُّ أن هناك أسباباً وراء ذلك: لهذا السبب أو ذاك، أشياء لا تقوم سوى بتقديم مرآة. وُجدت الحياة لتُذيب هذا الترُسب من الخوف؛ الجاغونسو يعرف ذلك. سيقول آخرون ذلك بطريقة مختلفة ربّما.

أعلنَ جاكاري أمرَ تناول العشاء. أكلتُ المنيّهوت الخالص. أخذتُ منه المزيد. - الجنود؟ - هذا ما كنا نتساءلُ أكثر. كانوا قد توقفوا عن إطلاق النار، فلم نعد نسمع نيرانهم. انقضى اليوم وقد حُدِّدَتْ أجزاءه؛ كانت لحظة القرار وشيكة. فكَرْتُ. - ذيادوريم، هذا المساء، حين تأتي اللحظة، تأتي، تبقى معي، بالقرب مني، لا تفارقني - لكن ذيادوريم رفض أن يعرف أي شيء عن طريقي، عن كل تلك الأشياء الغريبة. فكرتُ إذن في ألاريبي. التفتُ

نحوه: - مقابل هذا، أيها الصديق، انظر... - استغرب ألابريي لأمرى. من منهم، الآن، سأستمد منه العون؟ أكأوا أو ماؤ دي ليشا، أم ذيو دولفو؟ كانوا جميعاً يتابعون حياتهم العادية؛ لا يستطيعون التوجه نحو الجديد. مسكين، مسكين أنا. هل كنت عائقاً بينهم؟ لم أكن أملك أي فكرة واثقة لأكون القائد؛ لا أملك المهارة العليا ولا ثقة الآخرين ولا رأس المال السلطة - السلطة العادية التي تُحوّل لنا أن نسوس الناس وفق هوانا. حتى جراح ذراعي، الذي كان قد تحسّن لوحده، عاد بشكل غير عادل، وسط كل هذا، ليؤلمني. كما لو كان ذلك عن قصد، مع تقلب الريح، ميّزت رائحة خيولنا، الرائحة التنتة للعظام، كلها أسى وحزن. هل كان قدرى المحتوم أن أشك في الناس؟ آه، كان الوقت ضيقاً جداً كي أشرح لهم أشياء غريبة جداً، والتي يمكن أن يتبيّن أنها لا تستند إلى أي أساس. لأنه - أقول لك ذلك، يا سيدي - حتى أنا لم أكن متأكداً من أي شيء. كنت مضطراً لأراقب عن كثب زي بيبيلو، وأن أحول دون تحقيق مشروعه، عند الاقتضاء، فكيف سأواجه رجلاً كهذا؟ آه، ذلك الحكم الذي صدر في فازيندا سيمبري فيردي كان غامضاً جداً، لينا جداً - كي يكون له ثمن. هل كان زي بيبيلو لوحده، من دون دعم الجيش، يملك المقومات ليتحكم في ارتجافات السّرّتاو؟ - لا يهمني... لا يهمني!... - قرّرت، بكلمات من نفس القبيل. هناك، كنت لا أحد. من، هناك، كان سينادينى يا ملكي وسيدي؟ هناك، كنت لا شيء، سوى الطمأنينة. هل أحكي أقصى الأمور؟ فقط كنت أنتظر زي بيبيلو - ما سيبتكره من أفعال، مزهواً بنفسه، ببطولاته ومغامراته.

اقترب مني. - زيوبالدو، تاتارانا... - قال وحدّ بي، يرمش بعينه الحاذقتين. هذا الرجل، كان يفهمني؛ هل كان يخشاني؟ - زيوبالدو، تاتارانا، تعال معي، أريد أن أسمع رأيك، بشكل موضوعي... - ثم أخذني نحو

إحدى نوافذ المطبخ، حيث كانت الرؤية بعيدة على التلّ وغابته. أخذ زي ببيلو كأسًا مملأها بهاء من الجرة. شربْتُ بدوري. واستمعتُ إليه في الوقت ذاته: كان يحدثني بنبرة الصديق. مكتبة سُر من قرأ

- أيها الشاب، أنت ممن يقبلون أن يقتلوا أو يموتوا، بنفس البساطة، أعرف ذلك؛ بل أنت أحسن، لأنك شجاع بلا حدود - وهذا من ثمار شجاعتك... -

لم أظهر له غير كتفيّ.

- كل هذا جيد: والآن، ما الذي سيقوم به أفراد الجماعة المناوئة لنا؟ - سألني حينئذ.

- حسنًا، ما لا أعرفه وأريد أن أعرفه هو ما الذي سنقوم به - نحن - الآن؟ - أعدتُ إليه السؤال. ثم واصلتُ: - لا أعرف شيئًا. أنا في حالة شك. أقضي وقتي كله في ذلك... - هكذا قلتُ.

إلا أنّ زي ببيلو أبى أن يصغي لي، من باب الاحتياط:

- ضع نفسك مكانهم، إيه؟ ما يقومون به، في هذا اللّحظة، هو أنهم يحاولون الخروج من المأزق، عبر هذا التلّ، وهو المكان الذي لا يمارس فيه الجنود حصارًا قويًا. ومن هناك، ينزلون بسرعة نحو الجنوب، عبر طرق ملتوية؛ وعند الفجر سترى أنهم سيظهرون من جديد هناك، في بوريتي أليغري. الآن، ما هم الأهم؟ - الجنود؟ إنه يحمون المكان، أي كل النواحي، باستثناء سفح التل، وما جاوره - الوادي الصغير - لأنهم هنا، كانوا تحت نيراننا. كان ذلك واضحًا!

لم أقل شيئًا.

- حسنًا، ماذا إذن؟ - سألني زي ببيلو مرة أخرى.

لم أعطه الجواب. وضعتُ كل ذلك جانبا.

- آه، حان وقت الخروج. نحن، نحن من سنذهب مباشرة نحو ذلك الوادي الصغير، يا زيو بالدو، يا بُنيّ. دون أن نضيع مزيدًا من الوقت - لأنه هنا والآن سوف يظهر القمر، وضاحًا جليًا...

وفعلا، كان الوقت قد حان. حلّ الليل. كانت نجمة تلوح في الأعالي حيث يتلاشى الظلام، رأيتُ ذلك بكل بوضوح. النجمة الصغيرة، بصيصٌ، بصيصٌ. هكذا، من منا كان أكثر قدرة؟ زي ببيلو أم أنا؟ هل كان واحد منا هو المنتصر؟

تركتُ الأمر ليقدره القدرُ.

ضجيجُ أقدام كثيرة. قريبًا سوف يبدأ الرجال بالتجمع في فضاء هذا الممرّ - كانت صفوفهم تتمدد في تدافع من القاعة المفتوحة على الشرفة حتى المطبخ، وسط صمتٍ من التواطؤ، وحركات كلها طاقة وحماس. مُسهبًا كعادته، كان زي ببيلو يعرضُ توصياته. كان مصباح صغير يشتعل دائمًا هنا وهناك، يضيء وجوها شاحبة. سوف نذهب هذه المرة مشيا على الأقدام، من دون أي وسيلة أخرى، وما يُؤسَفُ له هو كميات الذخيرة التي سنضطر لتتخلّى عنها هناك، كي نجد لأنفسنا مكانًا نحتمي فيه. أخذنا منها قسطًا كبيرًا، على الأقل، كل ما استطعنا أن نحمل من علب وورصاص: ملأنا الأكياس، والحقائب، والقراب، وجعاب الخراطيش. لكن ذلك لم يكن كافيًا. وحينئذٍ خطرت على أحدهم فكرة استعمال غطاء وسادة: يُشدُّ بحبل أو حزام، ثم يُحمل فوق الكتف، ويمكن أن يستوعب كمية كبيرة من الذخيرة؛ فاعتنم الكثير تلك الفكرة ولم يبقَ أي غطاء وسادة رهن الإشارة. وكان يتعين أيضًا على كل واحد أن يحمل معه، من باب الاحتياط، كيسًا صغيرًا من المؤونة.

بعد القيام بذلك، خرجنا، جنباً إلى جنب، عبر أحد الأبواب. كان الليل ينتشر قويا وكثيفا. أرسل جَواوْ كُونْكلِشْ، موسامبيكاو وسوزازتي أَوَّلا لاستكشاف إن كانت الطريق، نحو هروبنا، خالية دون عوائق. ذلك أن بعض الجرحى في صفوفنا، كانوا يشكون من الوضع، بل حتى نيكولاو كان يتكى على بندقيته ويتأخر أحيانا. ولم يبق في البيت غير الموتى، الذين لم يعودوا بحاجة لصلوات وداع من طرفنا. وما على الجنود الذي سيأتون غدا سوى أن يدفنوهم. كنا قد شكَّلنا من جديد عدة مجموعات، خمساً أو ستاً. دخلتُ أنا وديادوريم في المجموعة الأخيرة، تحت قيادة زي بيبيلو نفسه؛ ورفقة فافافا، أَلاريي، أكَاوَا وسيسْفريدو، الذين كانوا يرافقونني في أي مكان. من كانوا في المقدمة تحركوا أولا، وساروا الواحد أمام الآخر - كأنهم نهر يسير في مجراه، كأنهم كلبٌ يشمُّ كلباً. استغرق ذلك وقتاً طويلاً. ذلك المطبخ الكبير، في مؤخرة البعثة، كان يفيض بالناس؛ فأحصيتُ الرفاق، والأنفاس. ذهبوا، هؤلاء وأولئك. من الأوائل، لم نكن نسمع ضجيجاً. كنتُ أتوقع في كل لحظة وحين طَلْقَةَ نارٍ أو صيحة: توقَّفوا! لكن لم يكن هناك غير رعشة ذلك السَّلام المعقول. أُعجبتُ بزي بيبيلو. جاء دورنا، فكان علينا أن نعوِّد أعيننا على تغيُّر آخر. نزلنا وانطلقنا بدورنا. سِرنا في طريقنا.

نجونا! تحت جناح الظلام، وبشيء من الحظ، فتحنا الطريق. كان علينا أن نمشي لوقتٍ طويل، في صمت اضطراري، نلهثُ كي تبرد دماؤنا؛ حتى تأكدنا من عدم وجود أي خطر، بفرح من نجوا من هجوم أو أي كمين. توقفنا كي نستعيد أنفاسنا، ونأخذ قسطاً من الراحة لبضع لحظات. - ألم يبق القطُّ هناك... قال أحدهم مازحا. - ليس القطُّ من بقي هناك. - قال آخر. فازيندا الموت في توكانوس. فجأة، أيقظت الرائحة الثقيلة للأوراق وأعشاب الحقول في ذاكرتي، رائحة الأموات المقرفة، التي لم تعد الآن في

أنفي. انحنى زي ببيلو ثم همس في أذني، وهو ينظر خلفه ويشد يدي: - زيوبالدو، اسمع، لقد أهدرتُ آخر فرصة كي أغتني على حساب الحكومة، وأنال الشرف والجزاء في السياسة... - وكان ذلك حقيقة، فشطبتُ ما تبقى لدي من شكوك: كان يلمس وتراً حسّاساً من شخصيتي. ومن حولنا كان الضوء يزداد - قريباً سيكون البدر كاملاً - زيتُ القمر. انطلقنا من جديد. اعلمْ ذلك، يا سيدي، يجب أن تعرف ذلك: وسط ضوء القمر ذلك، تذكرتُ سيّدتنا العذراء.

ثم، دائماً بحذر شديد، سرنا جهة اليسار، نحو الشّمال. مباشرة، منذئذ، نحو الغروب. بين غروب وشروق، كنا من جديد في الرّيف. وقبل الفجر، كنا نعبّر مرة أخرى فيريدا غرّاندي في فاو دوس مأكاكوس. ثم، مع طلوع النهار، وصلنا إلى مزرعة شخص يدعى دودو فيريّرا، حيث شرب كل واحد منا حليباً وراحت عيناى تقفزان فوق الأشجار. هكذا، حقاً، استعدتُ نفسي - مثل ثور تحرّر من نيره وراح ينفض الغبار عن نفسه مستمتعاً. وبهذه الطريقة، في هذا البريق الفوري، استجدّ ولعي بديادوريم، بفرح الحبّ المُسترجع. هذا هو التحرّر. إنّ المشي عبر طرقات الأراضي العليا، حتى وأنا أحمل المتاع على ظهري، وعلى على الأقدام، لم يعد يبدو لي شيئاً مُتعباً جداً. ذيادوريم - الاسم الخالد. لكن الطرقات ترقد في كل مكان في الأرض، دائماً الواحدة قرب الأخرى؛ فتذكرتُ أنّ أكبر أشكال الشيطان زيفاً تتناسخ. كلما استمعت لي، يا سيدي، فهمتني أكثر.

هناك، في مزرعة دودو فيريّرا، سيأوي نيكولاؤ وليوكاڤو حتى يشفيا تماماً. أما نحن، فلن نبقى هناك. من هناك، والبنادق على الأكتاف، انطلقنا بسرعة نحو كورّايس دو باڤري، كي نجهز أنفسنا من جديد؛ لأنه كان لدينا هناك عدد مهم من الخيول. بسيقانٍ ترتعش وأقدامٍ متنفخة من شيء

لم يكن حتى رحلة: بل سيرا مثقلا، يُذكر بالعبودية، ويثير الجنون من الغضب. طريق كارثية، اجتمعت فيها كل حجارة العالم، وكل ما قطعَتْ من فراسخ التوبة. ما الفائدة من أحكي بالتفصيل - لك، يا سيدي، أنت المحظوظ الذي لم تُعانِ مثلي؟ حتى تعرف تناوب الأعشاب في المراعي؟ حسناً، كذلك كان: البرسيم، الثَّفّ، الشعير، الدّرة البيضاء. كان السير كذلك، يعني: مجهود كبير، قلق واضطراب. وغضباً عني تقريباً، أتذكر تلك الدروب الوعرة. نعم، وأقطع من دروب الكاتينغا، كان الصعود عبر الهضاب الصعبة عند النهاية، نحو أراضٍ أكثر انبساطاً. حقول لا تنتهي، حيث الجزمات، مع الأسف، كانت تناسب الأقدام أقل من النعال. اشتدّت الرياح. وهناك مرّ النسر، وجمع كل صيحات سلالته - وصيحات صغار النور. وهناك كان بوسعك، يا سيدي، أن تلاحظ حكمة أسراب البيغاوات. كلما نزلنا في واد خصب به ماء يجري، كنا نحیی أشجار البوريتي ونتوقف لشرب. حتى عندما انقضت مؤونتنا، لم نعان من الجوع، لحسن الحظ: قنصنا ثورا. ثم إنه كان هناك تفاح بري أصبح ناضجاً. لكن، لقنص رأسٍ من الماشية خارج القطيع، كان لا بدّ من شيء من الحظ والعمل الشاق، لأن الأمر يتعلق بحيوانات متوحشة، هائجة. وفجأة انتهى السعوط الذي نشمه ولم يتبق منه شيئاً في أكياس هؤلاء ولا أولئك، فلم تنفعنا غير سخاوة الرفاق. ثم هبت تلك الرياح التي تحمل رسالة: كانت تجلب الأمطار. اختبأنا، متفرقين، تحت أشجار البيكيزيرو، في انتظار أن تمرّ العاصفة. أما النوم، فكنا ننام مبلّلين، في برد الوحل. بعد ذلك، ما نكتشف حين نستيقظ، كانت هي آثار أقدام النمر من حولنا. ثم نستأنف السير وسط الأعشاب العالية، محبطين. أرض لم توجد لهذا الغرض؛ والأمل، في تلك المناطق، لا يرافقتنا. كنت أعرف، وأعرف الآن.

المسكين لوحده، من دون فرس، يبقى مثل جزيرة أو شطّ رمل، على هامش الدرب. الرجل على قدميه، تأكله الأراضي العليا.

كان ذيادوريم يأتي دائماً ليلتقي بي. هل كان يأتي حزينا، كئيباً؟ كلا، لم يكن كما ظننتُ لمدة يومين، وكنتُ مخطئاً. بعد ذلك فقط، أدركتُ أنّ الحقود الحقيقي هو أنا. حين الصدّاقة. كان ذيادوريم يمشي بطريقة مستقيمة، بتلك الخطوات السريعة التي تميزه، وكان يحرص بكبريائه على الرفع من إيقاعها. فهمتُ أنه كان متعباً، يعاني أيضاً. حتى وهو كذلك، بابتسامته النادرة، لم يكن يجرّمني من التقدير، ولا من قيمة عينيه. كما لو بشيء من الحدس: أحياناً، كان ينتابني شعور صعب بأن شيئاً ما يؤلمه ما إن يضع قدميه على الأرض. لكن هذه الفكرة التي كانت تخطر عليّ، كان تنبُع من حُبّي. لدرجة أن رغبةً سيطرت عليّ: لو استطعتُ، خلال كل هذا المشي، لحملتُ ذيادوريم على كتفيّ بكل حرّية. بل كان ذلك حلمًا يجعلني سعيداً، كأنه بطريقة ما، كان يدرك اهتمامي ويشكرني بلطفه. ما كان ينبع ويفيض مني: تجاوزات قلبي. باستمرار، كأنها شيء جميل، دقيق، لا يثير في نفسي أي قلق، بما أن همها الأول هو محبة الآخر، وكل واحد يحتفظ به لنفسه، متحاشياً أي تفكير، يمكن لوعيه أن ينتبه ويخاف؛ ولنفس السبب تخلّيتُ عن التشريح والتعرّف على الوجه الحقيقي لهذا الحبّ، بقوته وأسراره؛ وكان ذلك هو ما كنتُ أظن على الأقل. لكن، حينئذٍ، في لحظة ما، قلتُ:

- ذيادوريم، لدي هديّة أخصك بها، ولم يسبق لي أن حدثتُك عنها من قبل... - وكانت عبارة عن حجر ياقوت أصفر، كنتُ أحمله معي منذ أراسواي وأحتفظ به بكل عناية ترقّباً لفرصة مناسبة، ألّفه في شيء من القطن، داخل كيس صغير بحجم تيمية، وقد خيطَ داخل بطانة أصغر جيّب في حقيبة الظهر.

وما إن تحدثتُ عن ذلك حتى رغب ذيادوريمُ بكل قوة في أن يعرف أي هدية كانت، فحاصرني بالأسئلة التي تحاشيتها، دون حرج، حتى المساء، حين توقفنا. وكانت وقفة - وفق ما تبقى لي ومن ذكريات حية - في وادٍ صغير لا اسم له ولا شهرة، نهرٌ صغيرٌ نائمٌ جدًّا... تجري فيه مياه شديدة الصفاء. حينئذٍ، لم يكن هناك من شخص يرانا، فأخذت كيس الظهر، فككت الخياطة بطرف السكين، وسلَّمته الهدية الصغيرة، وخاطبته بالصمت على سبيل الكلام.

رسم ذيادوريمُ ملامح حركة تراجع إلى الوراء بمفاجأة جميلة، ودون قصد تجمَّد فاغراً فمه، بينما عيناه، كلتا عينيه، ظلَّتا تتأملان طويلاً حجر الياقوت الأصفر في راحة يده. ثم، كمن يشدُّ على الزمام، استجمع نفسه بجدٍّ، زمَّ شفَّتيه، ومن دون أي سبب وجيه، أعاد لي الحجر قائلاً:

- أشكرك من أعماق قلبي، يا زيوبالدو، لكنني لا أظن أنني أقبل منك هدية كهذه الآن. احتفظ بها إلى مرة أخرى، بعد شيء من الوقت. إلى اللحظة التي نكون قد انتقمنا فيها لموت جوكا راميرو. يومها، إذن، سأقبلها منك... -

هذا الأمر، أخذه حرقاً؛ بل حتى قبل ذلك، عندما صعد ما يشبه الشحوب وشقَّ في وجهه مكاناً وسط الحُمرة. أمسكتُ الحجر، المهدى والمردود، في يدي. ثم قلتُ:

- اسمع، يا ذيادوريمُ، هيا نرحل، ولنترك حياة الجاغونسو، لأن الغد صار هو اليوم، ولأن الأحياء يجب أن يحيا لأنفسهم فقط، أما الانتقام فلا هو وعد للرَّب، ولا هو سرٌّ من أسرار الكنيسة. ألا يكفي من مات من رجالنا ومن قتلناهم من الخونة لتخليد نهاية جوكا راميرو؟! -

آه، تلك الطريقة التي استمع لي بها ثم انكمش، تلك القساوة التي تعرَّفْتُها فيه، مثل العظام. تصلَّبَ كمن يحتفظ بالإهانة غصَّةً في حلقة -

وعيناه تنطقان بما يحدّجني به. دام ذلك مدة ثانية واحدة، وهو الوقت الذي كان كافياً ليضبط مزاجه، مختصراً كأنه تنهيدة؛ لكنه ردّ علي مع ذلك، ساخرًا:
- هل أنت خائف، يا زيوبالدو؟

أخذت الأمر دون شعور بالإهانة. لكن قراري، الذي كنت قد اتخذته، وطوّرتَه هناك، في فازيندا توكانوس، كان قرارًا لا رجعة فيه، كنت فقط أنتظر كي أنفذه وفق القواعد، حين نصل إلى كورّايس دو بادري، وفق طريقة تصرّف في.

- الخوف؟ كلاً، لستُ خائفًا! أنت، تصرّف كما يحلو لك. أمّا أنا، فأنسحب وأرحل...

هكذا: شرٌّ بشرّ. كان الحقّ إلى جانبي. دسست الحجر الصغير في جيبِي، وضعته كما ينبغي في الكيس، في حزامي؛ ورحت أعدّ نقطي، وأعيد عدّها. تنفّس ذيادوريم بقوة. هو من استأنف الكلام:

- زيوبالدو، أنت تفكر بطريقة صحيحة: أقسمت أن تنتقم، وأنت وفيّ. ما تخيلتُ أبدًا نهايةً كهذه لصداقتنا... - ثم تقدّم خطوة - زيوبالدو، انتبه جدًّا لما أطلبه منك: ابقَ هنا! ثمّة ما لم أقله بعد، لكن ما أخذتُ أستشعره في الآونة الأخيرة: إنك تقدر - لكنك تخفي ذلك، وأنه يوم تقرر بنفسك أن تضع قدمك على الرّكاب، سوف تتخذُ الحربُ وجهًا جديدًا.

تراجعتُ إلى الوراء: - إنك تضيع وقتك، يا ذيادوريم. هذا لا يجدي معي...

بتلك الطريقة وبذاك الكلام الجميل؛ كان يراودني كي يثنييني. هل كنتُ سأصدقُه؟ ألم يكن يعرفني؟ بذلك التحفظ الذي يميزني، منذ نشأتي، وعدم قدرتي على التملق إلى الآخرين أو امتلاكهم - كنتُ أبعد ما أكون عن

التسلط. والآن، ما معنى حكاية أن أتصور نفسي أحمل السلاح غضبًا ضدَّ هِرْموجينيس وريكارداو، بوصفي قائدًا؟ أعيد صياغة السِّرْتاو، بوصفي سيدًا؟ ولكن السِّرْتاو كُنَّا نخضع له شيئًا فشيئًا، لا نُطوِّعه بالقوة، ونُعَدِّله. فمن لا يتقنون ركوب الخيل يأتون إلى السِّرْتاو ليشدوا الزمام لمسافة قليلة فقط؛ لأنَّ السِّرْتاو المخاتل يتحول إلى نَمِرٍ تحت السَّرج. كنتُ أعرف ذلك، كنتُ أراه. قلتُ: لا، نهائيًا، لا! تَمَرَّدْتُ. كل ما كنتُ أملك من موهبة كان نهاية جيدة بعد تصويب محكم، بأي سلاح كان. ما إن يسمعوني حتى يحسبوني محتالًا أو معتوِّهاً، أو متسكِّعًا مجنونًا. لم أكن قادرًا حتى على الكلام على نحو مناسب. كان الحديث مع الآخرين حول المواضيع المهمة بالنسبة إليَّ شيئًا يضجر الآخرين، ويزعجهم. لم أكن واثقًا من أي شيء قطُّ.

قال ذيادوريم: - إيه، فكَّر في الأمر! الشجاعة تخلق الشجاعة...

فأردفتُ قائلاً: - هل أنا القائد الأعلى؟!...

استعملَ كلَّ الحِيل ليشدَّنِي ويقنعني بعدم الرِّحيل، كي أبقى مشدودًا بقدميَّ ويديَّ إلى عجلة هذه الحرب، التي لا بداية لها ولا نهاية، لا رأس لها ولا ذنب، والتي كانت تصيِّبني بالسَّأم. هزرتُ كتفيَّ. وضع يده، لطيفة، على يدي. خشيتُ كثيرًا أن أضعُفَ فأنهار. وكان جوابي قاسيًا وأنا أهزُّ كتفيَّ مرة أخرى:

- أنا ذاهب وذاهب. سأرافك فقط حتى كورَأييس دو بادري. هناك سأبحث عن حصانٍ جيد. ثم أركض، وأرحل...

كان ذلك هو هدي في الحقيقي، كما قلتُ. لم أكن عنيدًا. أنا هكذا، الحبُّ بالحبِّ، والجحودُ لا أعرفه. ولذلك لم يُلجِحْ ذيادوريم عليَّ بنصائحه اللطيفة؛ لكنه في النهاية، قال مازحًا:

- بما أنك مصرّ على ذلك، اذهب. أعرفُ أين أنت ذاهب، يا زيوبالدو: تذكرتُ أن ترى مرة أخرى تلك الفتاة ذات البشرة الصافية والوجه الطويل، بنتُ صاحب الفازيندا الكبيرة، في الأراضي العليا، هناك في سانتا كاتارينا... اذهب وتزوَّجها. إنكما تشكّلان معًا زوجين متناغمين...

لم أقل شيئًا عن ذلك. لم أفكر حتى في أوتاسيليا. ولم أشتمُ ذيادوريم بكلامٍ سيءٍ، لأنه رفض أن يصمت. بل إنه قال ساخرًا:

- هيا، اذهب، خذ هذه الحلية هديّة، احملها لها هدية خطوبة...

دون تسرّع، لففتُ سيجارة. كنا على حافة الغابات الصغيرة المتناثرة، في الجهة البارزة التي تنطلق منها المنحدرات، تحت شجرة من أشجار الباراتودو - أو شجرة الكاراييبا، كما يقول أهل غويّاس، - تلك الشجرة التي تنمو أخواتها بعيدًا على ضفاف نهر أورو كويّا. هناك، كان البستان. مع الجو البارد، ونسمات الهواء، كان البوريتي يصير أشجار نخل سامقة. غير بعيد من هناك، كنا نسمع ضجيج الرفاق. أكيد أنني كنتُ أشعر بالأسى على ذيادوريم، بعد كل تلك الأيام من المشي. وكان المساء يحلُّ فعلا. وكان يحلق آخر طائرٍ من البيّغاوات.

... أو، من يدري، ربما تفضل أن تبعثها تذكارا إلى تلك المرأة الصغيرة الخاصة، امرأة رامادي أورو، بنتُ الساحرة... نعم، هذه، يا زيوبالدو، تمنحُ المتعة للأرض بكاملها، وتقدم الملح والسكر لكل المارة...

لم يكن ذلك في رامادي أورو، بل في قرية أرويرينيا. لكن، لماذا كان ينطق اسم نيورينيا بذلك التذكّر الخاص جدا؟ هل كان يعرف أحسن مني ما كنتُ أشعر به في قلبي، ما أخفيه وما نسيْتُ؟ نيورينيا - زهرة صغيرة أرضية صفراء، تقول - أنا جميلة. وكل شيء في هذا العالم يمكن أن يكون جمالًا،

لكن ما اختاره ذيادوريم هو الحقد. لهذا السبب كنتُ أحبه أيضًا في أوقات السلم؟ كلاً: كنتُ أحبه من باب القدر، ربما من أعماق ذلك الكيان الذي يصعد منه مجموع المعاناة والمتع. كذلك كنتُ أحب نيورنيا - التي لا تعرف الوضاعة، وتفتن الجميع، مومساً ترتدي تنورة صفراء بلون الليمون. إلا أن نيورنيا، بنتُ أنا دوزوزا، لم أكن أعرف إن كنتُ لا أزال أحبها. لاحظُ هذا الأمر، يا سيدي: تنمو أشجار البوريتي قرب المياه: تترك حباته لتسقط في البستان - فتحملها مياه النهر - التي تتكفل هي أيضًا بغرسها من جديد؛ ومن هنا تنشأ الواحة، بأشجار مصطفة على هذا الجانب وذاك، في طابور واحد، كأن ذلك يحدث عن قصد.

... تزوّج، يا زيوبالدو، تلك الفتاة من سانتا كاتارينا. سوف تتزوّجان، أعرف ذلك من أعماقي، أعرف؛ إنها جميلة جداً، أعترف بذلك، فتاة متميزة، لطيفة، أرجو من الرب أن تشملك دوماً بحبها الكبير... إنني أراكما معاً، منسجمين معاً، هي تضع زهرة ياسمين في شعرها. آه، كلُّ ما ترتديه النساء: قميص كتّان أبيض به كثير من التخاريم... والعروس، بخمارها من قماش التول الأبيض...

كان ذيادوريم يضيفي حناناً حقيقياً على ذلك الكلام. كان يدهنه بعسل الأزهار. وكان يسحرني به - وهو يُعلّمني كيف أحبّ أوتاسيليا. أحقاً؟ كان الآن يتحدث بثاقل، مثل مواء، كأنه يتخيّل، يحكي لنفسه حكاية. كأنني لم أكن هناك بالقرب منه. كان يتحدث عن أوتاسيليا. عن أوتاسيليا وهي تعيش حياتها اليومية. أوتاسيليا تسرح شعرها الطويل، تعطره بزيت الياسمين حتى أجد متعة أكبر وأنا ألمسه بيديّ. أوتاسيليا منشغلة تعتني بالبيت، وبالأطفال الذين سُرّزق بهم لا محالة. أوتاسيليا جاهزة في غرفتها ترتدي قميصاً رقيقاً وتجتو على ركبتها أمام صور القديسين. أوتاسيليا بين أحضانِي، ترافقني إلى

الحفلات المنظمة في المدينة، فخورة بفرحها وبكل شيء، ترتدي ثوبًا جديدًا بلون الرغوة. وظل يتحدث هكذا، دون نهاية. كنتُ قد نسيت بداية حديثنا، لم أعد الآن غير مستمع، وأنا أنزلق في حلم من أحلام اليقظة. بقلب ينبض بقوة حمامة صغيرة. لكنني أذكر أنَّ قلق دُيادوريمُ المفاجئ كانت تتلوه حالة غريبة - كأنها ناتجة عن شيء يخشاه ولم أكن قادرًا على إدراكه. حزنٌ لطيف، واضح جدًا. لم أرَ ذلك بشكل واضح، حينئذ. كان كما كان. إلى أن التحقنا بالرفاق، مع جَواوُ كونكليس، سيدورينو وجَواوُ فاكييرو، الذين جمعوا الحطب وأشعلوا نارا تمامًا تحت شجرة باراتودو. ارتفعت ألسنة اللهب فتأججت ألوان الأغصان وأوراقها هناك في الأعلى، وراحت تعكس ألف بريق وبريق، من ذهبي، وأحمر، وبرتقالي بلون الجمر، روعة بلمعان أحجار أراسواي، وجيكيتينيونيا ودَيامانتينا مجتمعة. هل كان ذلك عيد ميلاد تلك الشجرة؟ لما حلَّ الليل، كان الأمر كذلك. إننا فقط نعرف جيدًا ما لا نفهمه. انظر، يا سيدي: عن دُيادوريمُ، أريدُ، اليوم بالذات، أن أتذكر كثيرًا من الأشياء؛ مهما كانت قيمتها، غريبة كانت أم تافهة؛ لكنني لا أستطيع. أشياء ترسبت، ونسيتهُ الآن بعد أن لم تعد نافعة. أن أحياها من جديد، أن أتملكها، مهما حاولتُ، لا أستطيع ذلك. لأنه، أعتقدُ، كان قريبًا جدًا مني، وكنتُ أحبه أكثر من اللازم.

ومع طلوع نهار اليوم التالي، انطلقنا من جديد، نحو آخر محطة في مسيرتنا. في لحظة ما، نادى عليّ زي بيبيلو. رغم أنه كان في المقدمة، لا بدّ أن زي بيبيلو كان يعاني الأمرين؛ أعتقدُ أنه كان يدفع ثمنًا باهظًا مقابل النصر الذي ابتكره. وهو يفكر في أعدائنا يستولون على ذخيرته، دوابه وما تحمله، يستفيدون من كل ما كانوا في حاجة إليه. - إنَّ هِرْموجينيسُ هذا يريد أن يسيطر على سِرِّتاو الأراضى العليا... - أخذتُ حرّيتي وقلتُ. بل دسست

له أقوالاً أخرى، غير مباشرة أقوى من هذا القول؛ وكان الكلام يخفف عني، قليلاً فقط، لأن ما كنتُ أقول كان من باب المشاحنة لا غير. لم يرد زي ببيلو على كلامي: كان يفكر في ألف شيء وشيء. غارقاً في تأملاته، كان يهمسُ بسرعة كبيرة بين شفتيه، ويرمي يمينا ويسارا الجناحين المتفتحين من قبعته؛ ومن حين لآخر كان ينفخ من دون أن يكون ذلك بسبب تعب السير. كان ذلك نتيجة لما يفكر فيه، فيقول: - لحدّ الساعة، لا أفهم... لحدّ الساعة، لا أفهم... إلى حدّ الآن، أعترف بذلك، كان محظوظا... الضفدع من دون عنق، ملكُ الكرنفال... لكن، لنتركه يجري، سوف يدفع الثمن غالبا... - وكان يتحدث عن هِرموجينيس - عن حظّ هِرموجينيس. وأنا أسمع أنّ هِرموجينيس كان محظوظا بالفعل، كنتُ أتأسف كثيراً لذلك، لأن ذلك كان تأكيداً قوياً بالنسبة إليّ. وحينئذ، شعرت بالخيبة. لم أعد أرغب في إثارة حق زي ببيلو. لكنه، في رأيي، كان يسير في الطريق الخطأ: كان يبالغ في الخطوات والحركات، لأنه كان يجب ممارسة الحرب، التي يستمد منها متعة عنيفة؛ ولذلك فإن النتيجة النهائية لم تكن هي الأمر الذي يحفزه. هذا ما فكرتُ فيه وأنا أتطلع إلى السماء العالية، التي تقاسمتها السحب والنسور. أعترف: فيم كان يفيدني كل هذا؟ وفوق ذلك، سقط المطر مدرارا. وهناك وصلنا إلى كوراييس دو بادري.

مكان لا قسّ فيه ولا حظيرة: فقط غابة من أشجار البوريتي، بها ساكنٌ واحد. لكن، من حوله، على امتداد مروج واسعة، كانت تنمو أحسن فصيلة من البرسيم - الكلاّ الوحيد الذي، نظرا للموسم، كان ممتلئاً بالزيوت الحلوة، باستثناء بعض أعشاب القديسة لوسيا الزرقاء وياسمين الجبال. خيولنا، أي تلك التي كانت ملك ميديرو فاش وورثناها الآن، كانت تخرج من هناك سميئة، متجددة. استمتعتُ بذلك. اخترتُ منها حصاناً كميّتا، حيوان

رائع، حاجبه كُثُّ أبيض، ترك في نفسي انطبعا جيدا؛ وكنت مخطئا لأنه كان مخاتلاً صعب المراس. ومن هنا جاء اسمه «العَرَّاب سيلوريكو». لكن صاحب المزرعة، الذي لا يعرف القراءة ولا الكتابة، كان لديه كتاب مجلد يحمل عنوان «سأنت كلير الجُرُز»^(١)، فطلبتُ منه أن أقرأه في أوقات الراحة. وكانت تلك أول رواية من هذا النوع أصادفها، لأنني لم أطلع من قبل سوى على الكتب الدَّرَاسية. فوجدت في هذا الكتاب حقائق أخرى، رائعة جداً.

عدا هذا، كل ما كان عليّ أن أجد له حلاً في حياتي، أَجَلْتُهُ إلى ما بعد. ذات يوم، كان المطر يهدد بالنزول: الثيران في الرمادي! والطيور العابرة مجبرة على الصياح عاليًا فيما بينها. كان دُيادوريم يباعد المسافة بين المناسبات التي يتحدث فيها معي ويراني، منكسًا فيما يشبه القلق، خائفًا؛ اعتقدتُ. ألم أقل لك، يا سيدي؟ - يومًا بعد آخر، كانت الأيام مشرقةً، وجميلةً. ثم جاء المطر، مدرارًا، وأجبر النُسور على الطيران نحو أعشاشها. مرَّت الخيول بسرعة أكبر. لم يسبق لي، طوال حياتي، أن رأيتُ فصلَ شتاءٍ يطول إلى هذا الحدِّ. كان لا بدَّ من الانتظار. ومع ذلك، أعطى زي بيبيلو أمره بالخروج. بما أننا كنا نركب خيولا من دون سروج، فقد كان لزاما علينا أن نسرع كي نصل إلى كورّال كاييتانو، حيث كان هناك احتياط مهم من السروج. ومن هناك ننتقل إلى فيرجين ماينُ لناخذ الذخيرة. لم تكن نضيع وقتا. مشينا عبر طرقات في الأودية، كأنها قوالب سكر أسمر مبللة، تذوب. انطلقنا وسط الوحل، مثل مخلوقات تائهة، نثير الضحك، نثير البكاء. وهل تعرف ما معنى ذلك، يا سيدي؟ - تلك الخيول كانت من دون حدودٍ.

وإلى أين أيضًا، وراء ذلك؟ وراء ذلك، توجهنا نحو تلك المرتفعات الجميلة: هضبة أورو كويّا الواسعة حيث تخور كثير من الثيران. لكننا لم نبلغ

(١) رواية للكاتبة البريطانية إليزابيث هيلم (١٧٤٣ - ١٨١٤). (المترجم)

قطُّ فيرجينُ ماي. أظنُّ أنني كنت متوجسًا منذ البداية، وأنا أعتقد أننا كنا مخطئين. مسارات بالكاد كنتُ أعرف أنها سالكة. مثل الجبل الذي كان يتقدَّم نحونا، بينما كنتُ أسير نحوه، طوال أيام كثيرة: بعيدًا هناك، تلمحُ العيونُ فجأة ارتعاشًا غيرَ أكيد: ما نراه خيط أسود يصبح رماديا مع توالي الفراسخ التي نقطعها، ثم يصيرُ أزرق - وفجأة، يصبح هو جدار الجبل. ونحن نلفَّ حول هذا الجدار، نأخذ أول طريق نجدها، لنمرَّ عبرها. نزلنا لمدة طويلة. كانت الأنهار متسخة، يعلوها الزبد. وفي غياب مساعدة جُواكيم بييجو، كنا نشعر بقسوة كم كنا نفتقدُها. كان زي ببيلو حائرا، بل حتى أصابعه لم تكن تتوقف عن الذهاب والإياب، وهي تمرر حبات المسبحة قرب الزمام. كنا نمشي في طريق خاطئ، من دون أن ننتبه إلى ذلك. علمنا ذلك لاحقًا - لأن من كان يدلنا تشابهت عليه الأسماء: ظنَّ أنه، بدل فيرجينُ ماي، كان عليه أن يأخذنا إلى فيرجينُ دا لاجي، مكان آخر، وادي بعيد جدًا نحو الجنوب، مزرعة صغيرة بها طاحونة. لكنه كان قد فات الأوان.

هدرَ الرَّعدُ، وهبَّت الرياح. ولحسْتُ بلساني كمًا هائلًا من المطر. لن أسهب في الحديث عن هذا الأمر. لكن، حين صار الجو جميلًا بصورة نهائية، أتساءل إن كان ذلك هو الأفضل: لأنه اجتاح كل الهضاب العليا حرًّا فظيع. من عاش ذلك ولم يمت على إثره، فهو لا يزال يذكره. كانت الأجواء لا تطاق خلال تلك الشهور. أمراضٌ عقبَ أمراض! بدأت الجروح تغطي كثيرًا من رجالنا. ولكنني سأحدثك مرة أخرى، يا سيدي، عن كل هذا، لاحقًا. بما أنَّك استمعتَ لي إلى حدِّ الآن، فسوف تستمر في الاستماع. فقد اقتربت اللحظة التي سأضطر فيها لأحكي لك أشياء غريبة جدًا.

تابعنا السير عبر تلك الأماكن التي لم نكن نعرف أسماءها. بلا نهاية. طريقُ شيءٍ لا ينتهي. السَّرتاؤ - كما يُقال - يمكن أن نبحث عنه، يا سيدي،

فلا نجده أبداً. بل هو من يأتي إلينا، فجأة، حين لا ننتظره. لكن، هناك حيث كُنّا، كان السُّرْتَاو القَدْرُ، الحقيقي، السُّرْتَاو العميق. ذلك الذي لا يكف عن زرع الخوف في نفوسنا وتضخيم الشك في أذهاننا. نزلنا عبر أخاديد ووديان، وسط منحدرات وتلال تغطيها أشجار عريقة. منحدرات جبلية تَخْتَقُ سَيْلاً، نهراً محصوراً. لم يكن هو نهر أبايتي، وإن كان يشبهه: نهر أبايتي واسع ينفتح فجوةً بين ضفتين صفراوين. لكن ذلك النهر كان يرسم منحني كبيراً هناك، أكثر وضوحاً، تظهر فيه بعض أشجار جوز الهند. مكان بعيد في الأفق، يبدو أنه يُلَوِّحُ لي بإشارة. بيد أننا لم نمضِ نحو تلك الوجهة، بما أنَّ المسار المحدد كان مختلفاً، بل ركضنا ونحن ننعطف بعيداً. كانت أراضي أكثر وحشةً. وكان العثور على إنسان حيٍّ هو الأمر النادر بعينه. رجل صغير يظهر في الأفق، يعزق الأرض، يقطع الخشب، وامرأة صغيرة تجلي وهي تدير مغزها أو تنسج على آلتها الخشبية، عند باب كوخ من سعف أشجار البوريتي. أراد رجلٌ آخر أن يبيع لي ببغاءً مروّضاً، ينطق بكل الكلمات التي تضم حرف «ألف». عجوز أخرى كانت تدخن غليوناً من فخار. لكنها لَفَّت وجهها في شالٍ، فلم نستطع أن نُكوِّن فكرةً تُذكر عن عينيها. حتى الماشية صارت نادرة: بقرة فقط أو ثور، معزولين، وبالصدفة أيضاً حيوان متسكع لا مالِكَ له. الغزلان، نعم، رأيتُ منها الكثير: أحياناً كانت تقفز، كما في الأحلام، تعبر الحقول، كثيرة - أحياناً اثنان، ثلاثة، عشرون، في جماعات - من غزلان الغابات وغزلان المروج. ما كان ينقصنا في كل ذلك الصمت هو الطمأنينة، كان ينقصنا أثر الكلام البشري. كان ذلك يحيرني، يصيبني بالغمّ. سريعاً بعد ذلك، بعد مسيرة ثلاثة أيام، لم نلمح شخصاً آخر. واستمرَّ الأمرُ كذلك حتى وصلنا إلى المكان حيث ينتهي الجبل. كنا قد بلغنا عُمقَ الأعماق.

يعني، السفوح. كانت هناك طريق، وهناك، في الأعلى، أشياء. أغصانُ أشجارٍ مرتَّبة - أغصانُ أشجارٍ متراكمة - على شكل إشارة تمنعنا من المرور. لكن ذلك التحذير لا بد أنه كان خاصًا، موجَّهًا لآخرين، وليس لنا نحن. لم نحترمه، بأي شكل من الأشكال. تابعنا السير. عند مدخل واد صغير، صادفنا من جديد تلك الأغصان الخضراء، التي لم نحترمها. كنْتُ أسير في المقدمة، رفقة أكاوَا ونيلسون، كي نفتح الطريق. كنا قد شددنا زمام الخيل لنشرع في صعود منحدر آخر: لكننا، حينها، سمعنا نباح كلاب. ثم لمحنا رجلًا - عند أعلى المنحني - مجموعة من الرجال. وكان هؤلاء يحملون بنادق. كلُّ أولئك الرجال، بشكلهم الغريب، كانوا يشيرون إلينا أن نعود من حيث أتينا. أكيد أنهم كانوا يجهلون من نحن؛ وكانوا يعتقدون أنَّ ثلاثة فرسان لا يشكِّلون خطرًا. لكن، لما أدركوا أننا لن نحيد عن طريقنا بدأوا يفقدون وجهتهم. رأيت أحدهم يعطي أوامر، كان قرويًا فظًّا، يجرجر سروالًا ومهمازًا. أما الآخرون، فرقة صغيرة، فكانوا صعاليك مساكين، بالكاد يضعون على ظهورهم ملابس لائقة. كان أحدهم يرتدي أسفالًا: ما يشبه مئزرًا ممزقًا لأشلاء، وبدلَ القميص، كان يضع ما يشبه صدريةً من جلد ثعلب الماء. كانوا حوالي عشرة رجالٍ أو خمسة عشر رجلًا. لم أدرك معنى تهديداتهم، ورأيتُ أنَّ أصابعهم كانت على الزناد. هل كانوا يريدون استخلاص حقوق المرور؟ هل كانوا يفتعلون مواجهة ليقتلونا؟ لم يكن من الحكمة أن نبادر بمهاجمتهم، لكنه لم يكن من المعقول أيضًا أن نتراجع لأن ذلك قد يكون أمرًا مُحجَّلًا. توقفنا حيث كانوا تقريبًا. سننتظر هناك وصول بقية رجالنا. وهم، هناك، أماننا، لا يشرحون شيئًا، ولا يقدمون أي حجة. فقط واحدٌ منهم بادر بالقول:

- يمكنُ لا... يمكنُ لا...

مكتبة

t.me/soramnqraa

وكان يحرك رأسه، ذلك المسكين، وهو يتكلم بنبرة صوت مختلفة، عادية في ذلك المكان من الأرض؛ وكان الآخرون يحركون الرؤوس بدورهم - يمكن لا... يمكن لا... - في صخبٍ مشؤوم.

لا بد أن الأمور كانت هكذا في الأزمنة القديمة.

قومٌ بهذه الغرابة، كما لم أر قط مثلهم ولا سمعتُ بهم في حياتي. ذهب صاحب المهماز ليركب بغلاً - وهو الدابة الوحيدة التي كانوا يملكون. ما فعل، أظن، كي يمنح نفسه شكلاً يفرض مزيداً من الاحترام، هو أنه راح يضرب بكف يده ردف البغل وتقدم نحونا، كي يقدم نفسه. تفحصت وجوههم، جميعاً. كان أحدهم ذا لحية سوداء حالكة، وله عينان من تلك العيون التي تخرقك. والآخر، حتى في يوم اشتدت ساعات قيظه، سيرتدي رداء كاهن طويل، أحمر، لعدم توفره على لباس آخر مناسب، أظن. كانت له هيئة الكاهن، تماماً! - إيه، هؤلاء القوم بهم قمل... - قال نيلسون، بصوت خفيض. وكانوا جميعاً يحملون نوعاً من السلاح: مسدسات عتيقة، بنادق قديمة، بنادق منفرجة، طبنجات، مسدسات وبنادق - أسلحة من عصور أخرى. كانوا جميعاً بملامح سوداء، وجلد مدبوغ تماماً، لكن سوادهم كان مهترئاً ووسخاً، اصفر من فرط تناول لب نخل البوريتي لا غير، وأنا متأكد أنهم كانوا ثملين من فرط شرب الساييتا، أو ماء الحياة الذي يُحضّر من هذا اللب. كان أحدهم، خلاسي قصير القامة قوي البنية، يحمل فقط هراوة، لكن لا بد أنه يملك ذراعاً خفيفة، حين يستعمل تلك العصا. وكان قبيح الوجه، يثير الشفقة، نظراً لأنفه الأفطس وفمه المهذم الواسع المشوه. وكان آخر، مسلحاً بمنجل له مقبض طويل، وقارورة معلقة بمعترشة على كتفه، يهمس إلى بقية الجماعة بخطاب في غاية الجدّة - ما يشبه السحر. كان يصرخ أحياناً كأنه الشيطان يثن. كان هذا يسمى كونستانتينو. وبأكياسهم

الثقيلة، أخرجهم الجلدية، بقرون البارود، وسلاحهم البائس، كانوا جميعاً، مع ذلك، يبدون كأنهم غير خائفين تماماً من بنادقنا. في نظرنا، كانوا مجانين. كيف يمكن لقوم في هذه الحالة من الفقر أن يختاروا أن يكونوا قطاع طرق؟ لم يكونوا كذلك. ما كان هو أنهم كانوا رجالاً من دون وسائل ولا موارد تائهين في هذه الأصقاع النائية من العالم، قرويون مساكين من السَّرتاؤ، فلاحون من تلك الأرض. كان أكاؤا على علم بذلك، فشرح لنا الأمر. كانوا يعيشون هكذا، في غفلة من الرَّب، في الكهوف. لا يبرحون أكواخهم، فكَّرتُ، مثل الحيوانات التي تلد الصغار في أوكارها. لكن، لا بدَّ أن لهم هناك بيوتاً ونساءً، وأطفالاً صغاراً. أوكارٌ في ثنايا المنحدرات الجبلية، أو في أعماق الوديان، قرب المستنقعات؛ تشكل أحياناً قرية بائسة. يستصلحون قطعة أرضٍ، وغالباً ما لا يملكون ملحاً ولا شحماً. أشفقتُ لحالهم، شفقة كبيرة. كيف لهم أن يظهروا على هيئة رجال بشجاعة حقيقية؟ كانوا يُحْضَرُونَ بأنفسهم البارود الذي يستعملونه، يكشطون صخور الملح البارودي في كهوفهم، ويهيئونه في قدور. مما يعطي باروداً أسودَ، كريه الرائحة، يتفرقع محدثاً ضجيجاً عالياً، ويتصاعد منه دخان كثير. أحياناً كان ذلك البارود البدائي ينسف الأسلحة، فيحرق من يطلق النار ويقتله. كيف كانوا أجادوا القتال؟ كيف استطاعوا العيش؟ وأخيراً، برز الرَّفاق يصعدون أول منحدر، تلك الحشود المحاربة بأعداد كبيرة. وكدتُ أطلق قهقهة وأنا أفكِّر في الدهشة المرتسمة على وجه أولئك الفلاحين البسطاء. لكن ذلك لم يقع، لأنهم لم يتحرَّكوا قيد أنملة من مكانهم، فقط راحوا ينظرون إلى الأرض في صمت، وأظن أنها طريقتهم للتعبير عن الدهشة. تيوؤُراسيو، الرَّجُل الذي يركب البغل، وهو قائدهم، همسَ بشيء ما إلى الرجل الذي يحمل منجلاً، واسمه دوزأنجوس: وكان هو من تقدَّم ليُحيي زي بيبيلو ويشرح له الأمر.

- نطلبُ عفوك، يا سيدي، جئنا عبر الحقول... نطلب عفوك، يا سيدي...
عظامٌ وفكّانٌ في الفم؛ هذا الصوت الذي كان الرجل يحتفظ به في قرارة صدره كانت له نبرة الرّد على ترانيم القديسين وصلوات الجنائز، نبرة المَرَدِّ، كلامُ الفَرَضِ الكَنَسِيِّ.

- نطلب عفوك، يا سيدي،... هذا ليس من عادتنا... ليس من عادتنا أن نحرس الطرقات... كي لا يأتي أحد من هذه الجهة: إن سكان سوكرويو قد أصابهم المرض، الذي ينتقل إلى الجميع. أنت قائد كبير، وهذا يرضيك. هل أنت، يا سيدي، هو الأسقف؟ الجدري... لكن قريتنا هي بوبو - وتقع في الجهة الأخرى من المستنقعات، أنت، يا سيدي، ورجالك مررتم قريباً جداً منها، على مسافة نصف فرسخ. بقيت النساء هناك لتعتني بالبيوت. ونحن جئنا عبر الحقول. منذ ثلاثة أيام... نضع الحواجز على الطرقات. إن أهل سوكرويو - حسب ما يُقال - لا يدفنون حتى موتاهم... يمكن أن يأتي أحد يحمل رسالة، ولهذا السبب... لقد جاء واحد يطلب النجدة، يقول تفاهات، هراء وحماقات... لكنه اضطر ليعود أدراجه، وقد عاد بالفعل لأننا لم نسمح له بالمرور. لقد أصابتهم اللعنة، ونزل عليهم الجحيم. وعقاب الرّب يسوع! أهل سوكرويو قوم قساة أشرار... يجدر بكم، يا سيدي، أن تغيروا الطريق ولا تمرّوا من سوكرويو، تجنّبوها... الجدري!

ذلك الرجل، دوزانجوس، ترك المنجل يسقط فوق الأرض، ووضع عليه قدمه؛ ثم فتح ذراعيه وضَمَّ يديه، أظنّ أنه كان يلقي تعويذة، وهو يغمض عينيه بقوة. وكان نحيفا، نحيفا، بالكاد يُرى. ثم اقترب الآخرون، شيئاً فشيئاً. وحتى لا ينفجر ضاحكاً، ويفسد الشفقة، اتخذ زي بيبيلو وجهها فظاً، وملامح جدية؛ فتوجسوا من ذلك. لأن أحدهم، عجوزٌ قصير القامة يضع قبة تبنية تآكلت جوانبها، تقدّم يحمل في راحة يده قطعة نقدية ليقدمها

إلى زي ببيلو، ثمناً مقابل عفوه. وكانت القطعة دُبْلُونًا فضيًا من عهد الإمبراطور، من ذلك النوع الذي كان يُضْرَبُ بقيمة تسعمئة وستين ريالاً، مع ميزة أنَّ قيمته تبلغ حتى عشرة آلاف ريال في العاصمة. لكن زي ببيلو، بكثير من المجاملة، رفض القطعة المهداة، ولا بدَّ أن العجوز القصير المسكين لم يفهم ذلك، لأنه ظلَّ لحظةً والقطعةُ المهداةُ في يده. بينما الآخرون لا يقولون أي شيء فيما بينهم، ينظرون بأعينٍ جواحظ، ولا يقومون بشيء آخر غير مراقبة زي ببيلو والنقود، كأنهم انتبهوا إلى طمعهم الكبير. وكانت تلمُّ بهم، أحياناً، رعشةٌ خاصة، من الرأس إلى القدمين؛ لكن ذلك كان أمراً طبيعياً من أمور الجسد، وليس من الرعب - لأنه حين يصيبهم الخوف، يصبحون أكثر تجهماً فيحدث تنفسهم صوتاً يشبه صوت كور الحدّاد، من دون أن يتحركوا، هناك، أمامنا. مثل هؤلاء الرجال، قلتُ مع نفسي، حيواناتٌ ضارية رُوِّضَتْ، أي أنهم كانوا يخافون من كل شيء في هذا العالم.

لو رأيت، يا سيدي، كيف كان يضحك سكان الغابة! صاحب المنجل أمسك من جديد منجله، ومن كان يركب البغل احتفظ بالقبعة في يده تعبيراً عن الاحترام، أما العجوز المعتوه نوعاً ما فأخفى القطعة النقدية في قاع جيبه. ثم راح الآخرون يضحكون ملء أشداقهم، بأفواه واسعة لم يعد بها أي سنٌّ تقريباً. هل كانوا يضحكون الآن من دون سبب معين، فقط ليكونوا لطفاء معنا؟ مُتَوَجِّسًا، تشجع صاحب المنجل وسأل:

- لا أريد إساءةً بسؤالي هذا، ولكن، يا سيدي القائد، من أين جئتَ رفقة

كل هذا المتاع وهذا العدد الكبير من الرجال؟

- إيه، من البرازيل، يا صديقي! أنشدَ زي ببيلو جواباً بدعابة إيجابية

عالية. جئتُ لأُمَيِّرَ خيمة القائد من ساحة الميدان: قانون جديد - في كل ركن قصيٍّ، وفق مقاييس هذا السَّرْتَاو...

رسم العجوز علامة الصليب على صدره. كان سيرد بشيء ما، لكن زي ببيلو، لما سمع ما سمع وري ما رأى، قال لا بيده وأعطى إشارة انطلاق السير. أقلعنا معه. فتمكَّنتُ، إذن، من رؤية آخر وجوه أولئك الفلاحين البسطاء، الذين بدوا مندهشين منا جدًّا، ولهم رغبة في طرح ألف سؤال وسؤال، لكنهم لم يطرحوها خشيةً من أن يبدوا وقحين. إلَّا فيما يتعلق بالبنادق: - يا إلهي! هل هذه بندقية عصرية؟... - بعد هذا، قام أحدهم، من كان يركبُ البغل، وصاح بنصيحة أخرى: أن نعود أدراجنا ثم نأخذ اتجاه اليمين أولًا، عبر أشجار نخيل البوريتي، على ضفة بحيرة صغيرة - كي نتفادى المرور عبر سوكرويو -: وحين نبلغ الطريق، بالانعطاف يسارًا، عبر معبر قريب من الغابة العذراء، يكفي أن نقطع سبعة فراسخ لنصل إلى أراضي شخص يدعى السيد أبراو المعروف بكرمه وحسن ضيافته... قدم لنا الرجل هذه النصيحة، وفهمْتُ من نبرة صوته ومن طريقة كلامه أنه قام بذلك ليس ليُسدي لنا خدمة، بل ليرى رفاقه الآخرين أنه يملك بدوره الشجاعة على رفع صوته في حضورنا، أمام كل هؤلاء الجاغونُسو العظام المدجَّجين بمثل تلك الأسلحة الكثيرة. لكن زي ببيلو، غير عابئ بالتصديق والخوف، وما يقولونه عن القرية التي ضربها الجدري بقوة، أعطى أمره بمتابعة السير، مباشرة نحو الأمام تمامًا.

ضحكنا كثيرًا. أن نحتاج في تلك الظروف من المشقة والعجز ونلجأ إلى جماعة من الأشخاص الذي لا يبقون على قيد الحياة سوى من خلال تقليد أشياء لا يعرفونها حتى. المساكين.

لكنني لم أضحك. ومنذئذ، لم أضحك قطُّ في حياتي ضحكة صادقة. لأنني فكَّرتُ: بعد أن لاقينا هؤلاء الفلاحين البسطاء، تحدثنا معهم، ولم نعمل بنصيحتهم - لا يمكن لهذا الأمر، كما حدثتُ، إلَّا أن يمثل بداية شقاء كبير.

كان عِرْقُ أولئك القوم بعيدًا ومختلفًا، وعاداتهم وتقاليدهم غير معروفة.
 وكان أولئك الناس، حتى في الأمور العادية، قادرين على حقد كثيف واسع
 النطاق، لا يكلفهم أي مجهود تقريبًا؛ بالإضافة إلى ما يمدهم به العيش في فقر
 مدقع ومعزول؛ فكانوا بذلك أقل ابتعادًا عن الحيوانات مما كنا نحن: لأنهم لم
 يكونوا ينشرون أي خدعة من خدع الشيطان المهيمن. حتى مجرد مصادفتهم
 كانت تثير حدسًا مشؤومًا. تصيب المرء بما يشبه التعويذة. خصوصًا أنهم لم
 يفلحوا في الحصول على أحسن ما لدينا بأي طريقة من الطرق، لا بد أنهم
 رمونا بسحر. فقط بالتفكير في ذلك، كنتُ أرتعش؛ وما كان يرتعش في
 ذاتي: الجانب الأرضي من جسدي، حيث تمدّ الروح جذورها. كان لأولئك
 الرجال آذان كبيرة، يتحكم القمر فيهم وينامون وهو يشتّمون الرياح. أما
 أعمال السحر، فكانوا يعرفونها، علمتُ ذلك من القدامى. يستطيعون أن
 ينفخوا الحقد على الأوراق لحرق الشجرة؛ أو أن ينطقوا بتعويذة داخل أي
 ثقب صغير يحفرونه في الأرض ثم سرعان ما يغلقونه: حتى تنتظر الطريقُ
 مرور أحد ما وتصيبه بسوء؛ أو أن يحتفظوا في أياديهم مدة ثلاثة أيام وليال
 متتالية بحفنةٍ من تراب، لا يتركونا تنفلت، من دون أن يفتحوا أياديهم؛
 وحين يلقون، بعد ذلك، بذلك التراب في مكان ما، في أجل ثلاثة أشهر،
 ينفتحُ هناك قبرٌ... يا سيدي، خذ حذرَكَ من الرجل الذي لم يملك قطُّ مالا،
 ولا أي سلطة! بل أقول أكثر من هذا: ينبغي ألاّ تحالط أشخاصًا مختلفين عنكَ
 جدًّا! حتى إن كانوا من دون شرٍّ شخصي، فإنهم يعيشون في حياة محصورة
 في عاداتهم الخاصة، فتكون بذلك معرضًا لأخطار خفيّة. ثمة طيات جلد
 كثيرة عند الناس. تعلّمتُ ذلك من القدامى. والموقف السليم هو أن يبقى
 المرء بمنأى عمّا لا ينتمي إليه. نحفظ بالطيّ بعيدًا عن الخبيث، بالسّليم
 بعيدًا عن المريض، بالحيّ بعيدًا عن الميت، بالبارد بعيدًا عن الساخن، بالغني

بعيداً عن الفقير. كن حريصاً على ألا تفرطَ في هذه القاعدة، وامسك زمام الأمور بيدك معاً. ضع الذهب في يد، والفضة في اليد الأخرى؛ بعدها، لكيلا يتمكنَ أحدٌ من رؤية ذلك، أغلق راحتك بإحكام. هذا ما كنتُ أفكر فيه. كان أولئك الفلاحون البسطاء يطلبون نزول اللعنة علينا، فكيف لي أن أكفَّ عن التفكير فيهم؟ أكيد أنهم لو وجدوني لوحدي، مترجلاً في ظروف صعبة، سيقتلونني دون ترددٍ، كي يسرقوا مني سلاحي، ويسلبوني ملابسي وأغراضي. كانوا سيقضون عليّ بشكل مؤسف، من دون شعور بالذنب، يمكنُ أن تصدّقني، يا سيدي، بما أنني كنتُ مجهولاً، غريباً. وإذا ما وجدتنِي مريضاً، أو جريحاً يسيل الدم من جسدي، هل سيمدّني أحدهم بجرعة ماء؟ كنتُ شديد التوجُّس منهم. لا أثق بفخاخ العالم. لماذا يجب أن يوجد في العالم كل هذه الأنواع من الناس - لماذا بعضهم لطفاء على الفور في طريقة إحساسهم وتصرفاتهم، مستقرين في الحياة، بالقرب جدّاً من آخرين، لا يعرفون شيئاً مما يريدون، ولا يفقهون الأسباب الأصلية التي تدفعهم للقيام بما يفعلونه أو ما لا يفعلونه؟ لماذا؟ أليكونُ ذلك خوفاً، كي يراقبوا الآخرين دون هوادة، ويُعاقبوه؟ كان أولئك الرجال قادرين، فجأة، على أن يصبحوا حشوداً، حشوداً كثيرة، يظهرهم بالملايين، بمئات آلاف الملايين، من أعماق الغابة، يخرجون من أوكارهم، يغزون كل الطرقات، ويسيطرون على المدن. كيف لهم، حتى لو رغبوا في ذلك، أن يعرفوا كيف يجدون القدرة على أن يكونوا طيّبين، وفق القواعد والأعراف؟ هذه القدرة، لم يكن بوسعهم اكتشافها. لن يكونوا قادرين سوى على الرغبة في الاستمتاع بأسرع وجهٍ ممكن من كل الأشياء الجميلة التي قد يرونها، قادرين فقط على الصياح وفقدان الصواب. آه، وسيشربون، أكيد أنهم سيشرّبون كاشاسا جانواريا الجيدة. وسياخذون النساء، يسحبونهن في الشوارع، وقریباً لن تكون هناك

شوارع، ولا ملابس صغيرة للأطفال، ولا بيوت. ينبغي أن تُقرع بسرعة أجراس الكنائس، توسلاً لعون الرب السريع. فهل يكون ذلك مُجدياً؟ أين سيجد السكان كهوفاً وأماكن قصية يختبئون فيها - ليخبرني الرب بذلك؟ لا تقل لي عكس هذا، يا سيدي - هناك كنتُ أفكرُ في الجحيم القبيح لهذا العالم: في هذه الدنيا، لا يمكن أن نرى القوة تحمل العدل فوق ظهرها، كما لا يمكن أن توجد السلطة العليا فقط بين أحضان أكبر شكل من أشكال الطيبة. هذا ما كنتُ أفكر فيه وسط قيظ ذلك الجو الخانق. وبقيت على ذلك الحال مدة ساعة تقريباً، أمتطي حصاني الرديء المسمى بأدريم سيلوريكو، عبر طرقات سيئة، حتى بلغنا مشارف قرية سوكرويو، حيث يتفشى المرض المريع، فوق أظفَع شكل من أشكال البؤس. هل كنتُ أهذي؟ لأن رفاقي، كل واحد في عالمه، لم يكونوا منشغلين بمثل تلك الأفكار. إذن، هل كنت وحيداً؟ نعم، كنتُ وحيداً. فريسةً لانتطاع سيء تركه في نفسي أولئك الفلاحون البسطاء من السُّرتاؤ. من أعماق السُّرتاؤ. السُّرتاؤ: إنَّك تعرف ما هو، يا سيدي.

لكني، لحظتها، تعلَّقتُ بفكرة زي بيبيلو - استعرتُ من زي بيبيلو أملاً، قبساً من العزاء. بدأتُ أرى بوضوح. كان زي بيبيلو، في المقدمة، يأخذنا، قائداً حقيقياً، كما قال. أثرُ رجلٍ من هذه الطينة كان دائماً فالاً حسناً. كان إعجابي به يزداد يوماً عن يوم، وكان تقديراً وإخلاصاً، كان احتراماً. أدركتُ أنه فقط على شخصه، وعلى دماغه الكبير، يمكن أن تعتمد حمايتنا ودعمنا. لأن زي بيبيلو خطط طويلاً ليأتي إلى هنا، ليتوغَّل في السُّرتاؤ المظلم، وما كان يفكر فيه، يريده، ويفرضه، كان قد حَطَّط له: كما هذه الحرب، من خلال المواجهة؛ وحتى يتراجع السُّرتاؤ، كان يدفعه دفعا تقريباً، يجعله ينكمش! وهذا ما كنا سننجزه. بالنسبة إليّ، كان بمقام قائد المركب، يناورُ، والمجذاف

في يده، ليعبر تَمَرْدَ نهرٍ ارتفعَ منسوبُ مياهه. - لا بدَّ من قدرٍ كبير من الشجاعة... - تذكَّرتُ: - لا بدَّ من قدرٍ كبير من الشجاعة... - كنتُ أملك تلك الشجاعة. كان قد دنا مني ذيادوريم؛ الرَّجُلُ الشَّاب ذو الوجه الوردى فيما مضى، منهك لكنه حازم، تمرَّس على سوء الأحوال الجوية وصعاب أخرى. هل أعرف إن كنتُ أحبُّه، لا أحبُّه؟ الآخرون، الرفاق الآخرون كانوا يبدوون أطفالاً مهجورين تماماً - يجب التكفل بهم. كان زي بييلو على يميني، وذيادوريم على شمالي: لكن أنا، من كنتُ، أنا؟ لم أكن أحداً بعدُ. كنا نمشي، ونمشي. كان حصان زي بييلو الأبيض هو المتميز، والأكبر بين كل الخيول. حصان مسرج، فوقه فارس، وأمامه اتَّساع الأرض. السَّفَرُ! - لكن بطرُقٍ أخرى - تنقلُ نَعَمَ التي تنطقُ بها هذه الآفاقُ!...

ومع ذلك، بالنظر لما قطعته حوافر الخيل من فراسخ، كُنَّا نتوغل في ضواحي سوكرويو، وكان لا بد أن نرى ما سيأمر به زي بييلو، إما أن نستمر مباشرة أو أن نسير عبر طريق مختصر. آه، كان علينا أن نستمر مباشرة. لكن، لم يرتعب لذلك أي واحد منا. فما كان، كان. تلك القرية التعيسة لا بدَّ أنها كانت تقع في تلك الجهة العليا من الريف، إلى الأبد. على بعد طلقةٍ نارٍ. ولا بدَّ أنهم كانوا يطبخون الأكل فوق مواقد نار كثيرة، لأنه كانت تتصاعد كومة من الدخان نحو قطعة من السماء، كما لو أن أشخاصاً كانوا منهمكين في تجديد المراعي، خارج الموسم. كان يسود قيظ كبير. لكن، في الجدول الصغير، بين المنحدرات، وهو يتحرك مثل ذيلٍ خفيف بين ضفاف أرض سوداء، قطعناها، وحدها الخيولُ شربت حتى أطفالُ ظمأها: لأننا نحن، كنا نتوجس حتى من المياه الجارية. الوباء، من أين يأتي؟ حتى الهواء كان يبدو مشبعاً به. الغبار، البؤس. كانت السماء بلون أزرق باهت، من دون بريق. والشمس قد بدأت تجعل النباتات تشيخ قبل الألوان - وكانت أولى

أيام حزينان تعطي الانطباع بأنها من أواخر شهر آب. شهد ذلك العام على أنه لن يكون هناك برد كبير، كما ينبغي. فيم كانت فائدة كل تلك الأمطار التي هطلت؟ هنا، كان عالم السَّرْتَاوْ هالِكًا. قُلْتُ مع نفسي. ونحن نستعدّ لنعبر قرية سوْكَروِيُو؛ كنا قد وصلنا. كان المكان عبارة عن أكواخ يلفها الدخان. تلك الأكواخ. الناس؟ لم نَرَهُم أثرا. ولم نشعر بأي خوف كبير، بكل تأكيد. كان كل واحد منا يحرص على النظر عن كثب، وهو يمر، ليرى حقيقة ذلك الأمر. إلَّا أنهم جميعًا كانوا يثقون في تمائمهم. وفجأة، انتشرت إشاعة تقول إنَّ جويَّ بيشيغيتنو وباكاما دي بُريزاس كانا يعرفان أي صلاة تتلى تقربا للقديس سيسيتيَاوْ والقديس كاميلو دي ليليس، اللذين يحميان من كل الأوبئة. كيف نحصل على هذه الصلاة، كيف نحفظها أيضًا؟ كان الوقت يداهمنا. لكن - حسب ما تناقلناه من واحد إلى آخر، ونحن نعود لنركب خيولنا: لم تكن هناك حاجة لحفظ تلك الصلاة. سيقوم رفيقان بتلاوة صيغة مختصرة منها: أثناء ذلك يكفي أن يردّد كل واحد منا مع نفسه تلاوة قوية من الصلاة الرَبَّانية والصلاة المريميّة. وهذا ما قمنا به. تلوّثُها بدوري.

يومًا ما، بعد هذا اليوم، يجبُ أن أنسى. كانت القرية كبيرة شيئًا ما، لكن بالكاد نميز البيوت. أنا أصلي بكل ما في وسعي، أنظر إلى الواقع أمام عيني - رأيتُ. بيوتًا - بشرًا. أمام كل بيت كانت هناك أكوام من روث الأبقار المجفّف يحترق. ومنه كان يتصاعد، متثاقلاً، دخانٌ مخضّرٌ، يميل إلى الرمادي. امتزج ما رفعناه من غبار مع تلك النفثات من الدخان، حتى انسَدَّ كل شيء بقتامة. هناك، سعلتُ، بصقتُ، أثناء صلواتي. لم نسمع صوتًا ولا بكاءً، ولا أيَّ ضجيجٍ، كما لو أن قانون موتٍ قد أباد العالم. لكن، بقي بعض الناس: خلف الغبار، وراء الدخان الأبيض، ظهرت وجوههم المشوومة، التي تبيضُ كأنها أقنعة كثيرة. هؤلاء الرجال والنساء، المنزلون الغريبون جدًّا، في الصمت،

لا بدَّ وأنَّهم هم من كانوا يرمون دون توقف شرائح من روث الأبقار على النار - وربما كان ذلك هو كل ما يملكون من وسيلة. لم يظهر أنهم انتبهوا لوصولنا، لم يتحركوا من مكانهم، ولم يَحْيُونَا. كانوا يعون تمامًا ما يمثله الوباء من خطرٍ. يعيشون على أمل ألا يموتوا. تساءلتُ أين يوجد المرضى الذين يئنُّون. وأين هم الأموات؟ أصبح الأموات هم الأشرار، الذين يحكمون على الآخرين. عدت لأصلي من جديد، بورع. لم تدم تلك الرحلة غير لحظة قصيرة عصيبة. حتى خيولنا كانت تتقدم متثاقلة، كما يحدث حين يُصلي كل واحد منكمشًا فوق سرجه، على إيقاع موكب يسير بطيئًا. لم أنزعج لأدنى كلمة. من هنا برزنا في النهاية - من الغبار الهائل ومن دخان روث الأبقار، من بريق رماد دون لهيب، من الرطوبة. فليتذكَّر الرَّبُّ أن يشمل بعنايته أهل سوكرويو، السُكَّانَ المترعجين.

نظرتُ إلى وهج المساء. أن أنجو من أهوال محتملة كان أمرًا يعطيني إحساسًا يشبه الحرية. رأيتهُم جميعًا مرة أخرى. خاصة ذيادوريم، الذي كان تجسيدًا لصفة اللطف. لم أُطلِ النظر ورائي، لكيلا أحتفظ بمشهد البيوت الأخيرة، وسط اللون الرمادي الأزرق الضبابي، المتصاعد. ما كنتُ أصلي من أجله كان أشياء مهمة للغاية، الحاجة الماسَّة للخلاص. وددتُ الرحيل من هناك في أقرب وقت، نحو أراضٍ أخرى، حيث لا يسود ضغط اللَّائِقين، أراضٍ ليست من ذلك الريف البائس. وسأخذ معي ذيادوريم... لكني، في البداية، لم أرَ شيئًا، لم أشعر حتى أنني أريد أن أتمكن من أن آخذ معي أيضًا أوتاسيليا، والصغيرة نيورينيا، بنتُ أنا دوزوزا، وزِي بيبيلو، وألاريي، وكل الرفاق. ثم كل الأشخاص الآخرين، بعد ذلك، من معارفي، ناهيك عن الجميلة الحلوة رُوزُورْدَة، بالإضافة إلى الصغيرة ميوزوتيس، مُعلِّمي لوكا والسيدة ديدينيا، صاحب محل البقالة أسيس

وابابا، فوبيس - فوسبس... كلهم، بما في ذلك عرابي سيلوريكو مينديس. كلهم، وكنت بحاجة لعدد كبير من الساعات كي أستعرضهم في ذاكرتي. آه، سأخذ أيضًا سكان سوكرويو، وسكان بوبو - أولئك الفلاحين البسطاء أصحاب الوجوه الداكنة. وإلى ذلك المكان أيضًا، سأخذ ما تبقى من الخيول، والثيران، والكلاب، والطيور، والأماكن: سأختم أيضًا بأخذ هذا الرّيف، هذه الحقول الغارقة في الحزن، حيث كنا في تلك الساعة... كلهم، هل سأخذهم؟ كلاً، كان هناك شخص واحد فقط لن آخذه، لا أستطيع: هذا الشخص هو هرْموجينيس!

هنا، تذكّرته فجأة: كم كنت أكره هرْموجينيس هذا! فقط ذكرى حقد - كأنه قانونٌ منغرس في ذاتي، عادةٌ هادئة نهائية، في أعماق ما يقبّع ساكنًا في ذواتنا. كان مثل غثيان، مستقر. ولم أكن بحاجة لأشرح ذلك الحقد في ذهني أو أجد له مبرّرًا، كان كذلك، كنت كذلك. ما هو هذا الحقد الذي لا يحتاج لأي مبرر؟ لأجيبك، يا سيدي، على هذا السؤال، هذا ما أظنه: الإهانة السابقة، يمكن أن نمحوها؛ لكن، كيف نغفر العداوة أو الإهانة الآتية والتي لا نعرفها حتى المعرفة؟ كنت أجدس ذلك. أقسم أن ذلك حقيقة. آه، أنا.

هل كنت خائفًا؟ كنت خائفًا من اضطراب الأشياء، من هذه القلاقل المستقبلية، لأنّ كل شيء فوضى. وما دام هناك كائنٌ حيّ يعيش الرعب، وطفل يرتعش، فالجميع في خطر - في خوف من العدوى. لكن، لا يحقُّ لأحد أن يثير الخوف في نفوس الآخرين، لا أحد. حقّي أنا، أوّل حقوقي، الذي أطالبُ به، وأطلبُه: لا يحقُّ لأحد أن يثير الخوف في نفسي.

إنّها لحظات فقط، أعرف ذلك. كنت أشعر بإرهاق. كنا نتقدم بسرعة، بعد تجاوز معبر الغابة العذراء، ونحن نرقب ما قد يأتي. كانت الشمس تنحو

للمغيب. رأيتُ السماء بألوان بنفسجية، وحمراء. توغلنا في سهل خفيض، وسط أعشاب من النجيليات. بعد القطع الأرضية المحروثة. ومن هناك، كنا نصل إلى خلوة أبرأو، ذلك المكان الذي يتسع فيه الرِّيف. كان بيتًا جميلًا. لكن، من داخله، خرج فجأة رجالٌ يهرولون، يهربون عبر الأبواب، كأنهم فتران تفرُّ من سلَّة لحمٍ مُقدَّد.

أثناء ذلك، كان زي يبيلو دائمًا يسير ممتطيًا حصانه في المقدمة، فأمر ألا ننطلق لملاحقتهم، وألا نطلق عليهم النار لأجل المتعة فقط. كانوا يسرقون بالفعل، عرفنا ذلك؛ بل كانت معهم أكياس لحمل أشياء بداخلها. في رمشة عين، تخيلتُ ما يمكن أن تكون. كنتُ مصيبًا في ذلك. لأن أحدهم أخطأ وهو يهرب، أضاع الوقت وفرصة الإفلات؛ وصل إلى جهتنا، تائهاً تمامًا، تحت خيولنا تقريبًا. كان زنجيًا قصير القامة.

شاب زنجي، ذو بشرة سوداء مثل خشب الأبنوس، طفل بالكاد، يمكن أن نقول. عارٍ من منتصف جسده حتى الذقن. سرواله، المُشرع بالثقوب، كان يسقط أكثر مما كان ثابتًا؛ شدَّ ساقيه واحدةً إلى الأخرى. كان يلهث، كأنه ابتلع للتو، مستعجلًا، جرعةً قهوة ساخنة جدًا. صوتٌ كهذا يصدره، أحيانًا، العجلُ المصاب بداء الجمرة الخبيثة. حريصًا على ألا يسقط ما تبقى من سرواله، لباسه الوحيد، جثا على ركبتيه - تمامًا على الأرض، كان منبطحًا أكثر من كونه جاثيًا. ثم: - مباركتكم! - قال لنا. ثم فكَرَّ بسرعة، وقبل أن ننتبه إلى ذلك، كان قد رمى بما يتنفخ به كيسه: نعلٌ رَجُلٍ، مصباحٌ صغيرٌ، من تلك المصابيح التي تأتي من باهيا، مقشدة مطبخ وشيء من الجلد الأسود المطلي، ما يشبه حمالة سيفه - ثم رمى كل ذلك، إلى أقصى ما يمكن. بعد ذلك، أَرانا كيسه الفارغ، وهو يقول لاهثًا:

- لم آخذ شيئًا، لا،... لم آخذ شيئًا... لم آخذ شيئًا... -

كل هذا بسرعة، بقدر ما يستغرقه ضفدع ليبول؛ وبطريقة فيها كثير من البراءة، حتى أن منظره كان مضحكًا. كان شيئًا جنونيًا، يؤكد به بكل ثقة بالنفس، صدقناه تقريبًا، لما ينطوي عليه من عبثية مذهلة.

- من أنتم، ومن أين جئتم؟ - سأله زي يبييلو.

- نريد أن نعود إلى بيوتنا... نحن، نعم، نحن، من سوكرويو، يا سيدي... ثم اغتنم الطفل الفرصة ليربط على أحسن وجه طرف الحبل الذي يستعمله حزامًا يشد به الأسماك التي يتخذ منها سروالًا. كان ينكمش، مرتعشًا؛ ويضحك. أي اسم يمكن أن يكون له؟

- غوريغو... هو اسمي... أنا ابن زي كانسيو، خادمك، يا سيدي،...

نحيفًا جدًا، وحزينًا للغاية، غير معتنٍ بنفسه، لا بد أن هذا الطفل قد ذاق كل ألوان العذاب. عيناه تبرزان من رأسه، والحدقتان وسط بياض بلون المنيهوت المَقْشَر. جلده الأسود يرتعش بالكامل، دون توقف، يرتعد من أي شيء تافه، كما لو أنه خائف مما لا يمكن أن يكون صالحًا في نفسه. حين ينظر إلينا، كان يفعل ذلك بكلتا شفتيه، يظهر لسانه الغليظ، الملتصق بقاع فمه، كما لو كان لسانًا هائلًا جدًا لا يمكن أن يتسع له الفم: نرى هذا الأمر أحيانًا لدى العجل المصاب بالطاعون. طفل خاص جدًا. يمكن لأي جاغونسو شارد الذهن، يصادف بهذه الطريقة شخصًا مثله، أن يرديه بطلقة نارية من باب الرحمة، وهو يتخيل أنه يعاني من ألم فظيع ولا يطلب سوى من يخلصه من ذلك.

- غوريغو، ما الذي جئت تبحث عنه هنا؟ تكلم!

- نعم، ما الذي جئنا نبحث عنه هنا؟ جاء الآخرون، فجئت أنا أيضًا... أبحث عن شيء آكله...

- هذا جيد، أيها الصغير! من يراك تأكل ما تحبته في ذلك الكيس...

انبطح الزنجي الصغير على الأرض، حرك رأسه، لا، لا، وكان يبدو كأنه يستمتع بالقدرة على النفي بعناد. - ولكننا أتينا على كل ما كان لدينا من طعام... - كان لا بد أن ينفي، ولا يتوقف عن النفي: لديه بالفعل أم ولدته، والمرض الخبيث كان يفتك بكل أقاربه، وبكل أهل قرية سوكرويو. كنا نود أن يكون ذلك الفتى الحقيق حزينًا، عن كل ما ألمَّ به من شقاء، ولو للحظة قصيرة لا غير. لو فعل، لوجدنا عزاءنا على الفور، وارتحنا من حزننا. لكن لا شيء، ظل الزنجي الصغير مُصرًّا على النفي. ما كان يؤكده بكل وقاحة تصرفه أنه لم يكن أحدًا، لا يقبل بأي قاعدة تنظم هذا العالم، وأنه لم يكن هناك تحت حوافر خيولنا تقريبًا. آه، كان يريد أن يفلت بجلده، أن يهرب. كان يتمسك بالغبار. ما عدا هذا، لم يكن يريد أن يعرف شيئًا. حسنًا، يمكنك أن تذهب الآن - قال زي بيبيلو، وهو يقبل طلبه. ثم رمى إليه بقطعة سُكَّر بني، التقطها الطفل بأسنانه في الهواء، مثل كلب. - كي تحلي بها بطنك الأسود الفارغ! - قال له زي بيبيلو. دون أن ينطق بكلمة، ومن غير أن يلتفت وراءه، قفز الطفل بخفةٍ سريعًا، واختفى في الجهة التي سيذهب منها؛ لم يسبق لي أن تخيلته دقيقًا بذلك الشكل، وقد كان كذلك، بالفعل.

- طفل مسكين، كانت أسنانه تلمع من شدة البياض... - قال ذيادوريم.

- ماذا؟ ماذا؟ - قال زي بيبيلو - ما أطلبه هو أن نُعلِّم أطفال هذا السُّرتاؤ

ونُنقذهم!

كنت أتأهب لرسم علامة الصليب على صدري، لكن يدي لم تطاوعني، لأن ذلك بدا لي، وأنا أفكر في الزنجي الصغير، انعدامًا للشفقة.

وكما كانت عادتنا، في توزيع المراقبين على كل الأركان، فضلًا عن الرغبة

في البحث عن مرج مناسب ومُسَيِّج، تصرَّفنا كما لو أننا في بيوتنا ودخلنا إلى البيت، كي نرى ما ينبغي أن نراه ونشعل النار لنُحَضِّرَ العشاء على موقد المطبخ. أيتها العذراء! - أقول لك، يا سيدي: في الداخل، لم أرَ في حياتي شيئاً منهوباً ومبعثراً مثل ذلك البيت. كان ينقص كل ما يمكن وضعه ونقله في الصناديق والرزم، وكل ما يمكن أن نجده في بيت صغير عادي. لم نجد هناك ولا قطعة لباس واحدة، ولا يومية من اليوميات التي تفصل أوراقها، ولا خطأً خاصاً بالسَّرير المعلق أو رسناً معلقاً على الجدار، بل ولا مكشطة ولا حصيراً، ولا أيَّ وعاء، أو أدنى شيء يمكن نقله. لم يتبقَّ غير الموائد، ولا هياكل أسرَّة، ولا مقاعد. لقد نظفوا ذلك الهيكل من كل لحمه. صاحب البيت، أين كان؟ لكننا علمنا أن اسمه الحقيقي ليس أبرأو، بل هاباو، وكذلك كانوا يُنادونه. وفق ورقة الطريق المختومة التي اكتشفتها على الأرض في ركن، مصاغة بكل أبهة وتشهد على أن المدعو هاباو كان هو قائد الحرس الوطني. كان ذلك المكان يسمى فالادو. لو أمهلنا أهل سوكرُوئو بضعة أيام أخرى، لهدموا البيت وأخذوا الدعامات والعوارض الخشبية. ناهيك عن رؤوس الماشية، والدجاج والخنازير، والكلاب وما إلى ذلك، التي لم نعد نرى لها أثراً. لم يتبقَّ غير الطيور الصغيرة، الطليقة، كما هو الحال في أي مكان آخر، والتي كانت تفرقز في بعض الأوقات، عند نهاية المساء، فرحةً هكذا في ذلك المكان المدمَّر.

حسنًا، في غرفة منزوية، في عمق البيت، وسط الظلام الذي حلَّ، وجدنا مُصلًى داخل دولاٍبٍ مُدمجٍ في الحائط؛ كان هناك مع بضعة تماثيل صغيرة، وشمعة تُشعل، شمعة مباركة. لم يتجرؤوا على لمسها. حينئذ توالينا، واحدًا بعد الآخر، على الدخول إلى الغرفة كي نُقبِّلَ القديسة الكبرى، التي كانت ترتدي رداءً جميلًا كأنها دمية رائعة، وكانت هي أمُّنا العظيمة، أمُّ كل القديسين. أكلنا، وذهبنا لننام.

استيقظنا، صدَّقني، يا سيدي. كل يوم، يوم مختلف. وانتعش الجو. حياة الجاغونسو حزينه - قد تقول، يا سيدي. آه، هذا أمر يضحك. لا تقل لي شيئاً. «حياة»، هذا مفهوم نريده أن يكون مستمرًا، لكن ذلك بسبب فكرة خاطئة فقط. كل يوم، يوم مختلف. هكذا، فإنَّ الأوامر التي يجب تنفيذها قبل طلوع الفجر، كان زي ببيلو قد أعطاها. وعلمنا أنَّ: على سوزارتي وتيبوتي، رفقة جواو فاكيزو، أن يستكشفوا الأرجاء من الألف إلى الياء، يمَشُّطوا العالم بأنوفهم وأعينهم. عليهم أن يسكتشفوا كل شيء، ويسجلوا كل شيء؛ وعلينا نقله في أسرع وقت. في بعض المواقع، كانت الأرض تحتفظ بآثار حوافر عدة دواب، تسير في اتجاه واحد - طريق معين. كانوا يقرأون كمِّية ما نزل من مطرٍ من خلال العشب والأخاديد، ومن خلال علوِّ مياه الفيضان التي نزل منسوبها من جديد، ليظهر المجرى الأصلي بين ضفاف النهر. كانوا يجمعون كثيرًا من المؤشرات الأخرى من خلال الكلاء الذي تستهلكه المواشي. ومن خلال آثار الكلاب والفرسان. كان أهل البيت قد غادروا باتجاه الغرب. لكن القطيع انساق وراء حدسه، دون أن يسوقه أحدٌ، فلمَّا خرج توجَّه نحو الأعالي نحو فضاءات أوسع بها أراضٍ جيدة والكثير من الملح. ثم اكتشفوا، هكذا، أشياء كثيرة أخرى، ينظرون، ويرقبون ما لا نراه عمومًا. بل كانوا قادرين حتى على أن يكشفوا عادات وتقاليد الأشخاص الغائبين، هكذا، يا سيدي؛ ويمكن أن يقولوا إن كان هاباو هذا نحيفًا أو بدينًا، بخيلًا أو سخيًا، جبانًا أو رجلًا صالحًا. لأنه فقط من خلال آلاف الملاحظات غير القابلة للجدل التي تبدو سحرًا من عمل كشَّافين مثل سوزارتي وتيبوتي، لدينا ما نملأ به كتابًا بكامله. بالإضافة إلى أنهما، حتى قبل أن تبلغ الشمس كبد السماء عند منتصف النهار، عثرا على عجلتين سميتين لنأكلهما. إنَّ كشَّافًا جيدًا، ضمن الجماعة، شيء ضروري جدًّا.

هذا المكان، فالادو، أحببته - يا سيدي، اسمع جيدًا: أن أبقى هناك لبعض الوقت كان شيئًا يناسبني. حدثت ذلك، قدري. أحيانًا، أثناء الليل، وبينما أنت تنام، ثوبٌ مبلل على عينيك وتحت رقبتك شفرة سكين، يتكلم قدرُك، يهمس لك، يشرح، بل يحدث أحيانًا أن يطلب منك ألا تُعقد المحتوم، بل أن تساعدَه. تطيرُ؟ أليس القلب هو نصف القدر؟ ومع ذلك رغبتُ أن أبقى هناك. لكن زي بييلو تردّد في البقاء. ثم قرّر، كأنه يفعل ذلك عن مضض، أن نستأنف السير. كان خائفًا. رأيتُ ذلك جيدًا.

بدأ زي بييلو يشعر بالخوف! لماذا؟ يأتي يوم، فيصيبُك الخوف. خوفه كان خوفًا من الجدري، خطر المرض والموت: كان يخشى أن يجلب أهل سوكرويو الوباء وينشروه في الهواء، فيقلق لأن قرية سوكرويو كانت قرية جدًا. ضحكْتُ كثيرًا. لكنني ضحكْتُ في دواخلي، وتصرفتُ بجدّ كأني قطعة من خشب. حتى بهذا الشكل، كنتُ مخطئًا: ولم أكن أعلم. لكن مجموع الحياة خليط من حيوات الجميع، يصعب تفصيلها، والأمور تسير وفق قواعدها. مثلاً، لو سيطر الخوف على أحدٍ بالقرب منك، فإن هذا الخوف لا يتأخر كثيرًا في الانتقال إليك: لكن، لو صمدتَ وقاومت كي لا تشعر بالخوف، بأي خوف إطلاقًا، فإنَّ شجاعتك تتضاعفُ مرّتين وثلاث مرات، حتى أنها تُبهرُك. فزي بييلو، الذي كان واثقًا من نفسه على الدوام، متأكدًا من كل شيء، بدأ الآن يتأرجح. وبدأتُ أنا أيضًا أتأرجح في أعماق ذاتي.

قطعنا مسافة خمسة فراسخ. بنفس الطريقة، تقريبًا، التي هرب بها السيد هاباو. هل كان ضروريًا؟ أن نستفيد مباشرة من أسبوع من الراحة على الأقل، هذا ما كان مناسبًا: لأنّه ما عاد أحدٌ منا يتمتع بصحة جيدة. وحدهم أهل سوكرويو، ومن جاورهم، في الجهة الأخرى، الفلاحون البسطاء، هؤلاء، نعم، يمكن أن يجدوا لأنفسهم فضاءً في تلك البقاع. أما نحن، فلا.

أعرف أن هناك من يتحرك بكل سهولة مثلما تهبُّ الرياح؛ وأن الإحباط يُخْتَبِئُ وراء مظاهر من التعب. لكن ما كنتُ أرغب فيه، حقاً، هو وقت نقاهةٍ بعد مرض طويل، أحتسي فيه جرعات من حساء الذرة، وأتدفأ خلال شتاءٍ بأمطار باردة قرب جمرات موقدِ نار، بينما في حُمْ ما يرتفع صياحُ أوّل ديك. هل كان ضروريّاً أن نستأنف السير؟ انطلقنا من جديد. لم يكن ذلك ليروقي. نزلنا عبر وادي أوريسو-كُويم، أو وادي القنافذ، الذي لم يكن يحمل هذا الاسم من قبل، ولكننا أسميناه كذلك لأنه مرّ من هناك واحد من تلك الحيوانات الصغيرة. هضاب من دون كثير من المنحدرات. بعد ذلك، هضبة بها أحراش، وعند نهايتها وصلنا إلى مكان له بعد الامتيازات، لكنه قبيح، قبيح، كما لم نَرَ قطُّ - إنها دائماً الأراضي العليا... - قلتُ لنفسي مواسياً. كان هناك رجل قصير القامة يحمل فأساً في يده ويضع قارورة على كتفه منهمكا في استخلاص العسل من خلية نحل في جدع شجرة، فزوّدنا بكل المعلومات وذكر اسم المكان الذي كنا فيه: كورُوجا، مزرعة مهجورة. وهناك، وأنا أعيد قول ما كان هو حدسي الأول، استنتجتُ: كان ذلك هو المكان المحدّد في قدري، بداية متاعب كبيرة وأنا أرتكب ذنباً عظيمة. هناك، ما كان ينبغي لي أن أذهب؛ هناك، ما كان ينبغي لي أن أبقى. هذا ما قلته مع نفسي على الفور، وأنا أسكتشف الجوار، وقَدَم البيت. كان فعلاً كوروجا، أي بُومًا - لكن من ذلك النوع الذي له أذنين ضخمتين، وضحكة كئيبة؛ بينما اليوم البيضاء جميلة، وكل ما فيها، فوق خطوطها البيضاء الحريرية، ألوانٌ لا نظير لها. هذا المكان لم يكن ينفي أي حزن. كان خيطُ ماءٍ ضئيل يبكي في مستنقع من تلك الفسحة من الغابة. حتى أشجار البوريّتي كانت حبيسة. ما الذي تقوله شجرة البوريّتي؟ تقول: - أعرفُ ولا أعرفُ... - أما الثور فيقول: - ما كنتُ أعرفُ، علّمهُ لي... - مجرد حماقات. لا تتذكر

شيئًا آخر غير هذا: كان هناك جدول ماء آخر في ضيعة أخرى، على بعد نصف فرسخ من هناك، سكنت مياهه وكانت بلا لون لأن قاع المجرى كان من صلصال أسود. كانت الفسحة من الغابة مزدوجة، بها بحيرتان الواحدة قرب الأخرى، تتسعان بسرعة، فتشكّلانِ مستنقعًا كثيبًا، منسدًا بكل أنواع الأعشاب ومتعفنًا، لدرجة أنه كان معتمًا: مستنقعانِ يرفضان الخلاص. حملًا اسمًا مشتركًا - هو الضيعتان الميّتان، البحيرتان الميّتان. تذكرُ ذلك جيدًا، يا سيدي. وسط أراضي السُميسم، آه، وسط أراضي السُميسم، إذا أردت أن تصل إلى إحدى البحيرتين كان يظهر مفترق طرق على شكل صليب. هل كان فأل شؤم؟ إنني أومن بهيبة بعض الأماكن. بعضها، ما إن تضع راحة يدك عليها ترتعش وتبدأ في التراجع، أو أن الأرض هي التي ترتعش هاوية نحو الأسفل. ترمي حفنة تراب من تلك الأرض على ظهرك - فتسخن: تراب قد تشتهي أن تأكله؛ يفوح برائحة الأزمنة الماضية... مفترق طرق، نعم! - تذكرُ ذلك جيدًا، يا سيدي... هنا، كن حذرًا: الضيعتان الميّتان... هناك، بلغتْ نهايتي الأكيدة.

أيام حالكة، عقاب كل ذلك الوقت من التوقف حيث استرخينا في كوروجا، أحكي عنها بشكل سيء. إن أي رواية من هذا النوع تقدم شهادة زائفة، لأن حجم ما عانيناه يتلاشى من الذاكرة. وأنت لم تكن هناك، يا سيدي. لم تسمع، عند الغروب، نحيب البوم المسماة «أُم القمر». لا يمكنك أن تقدّر في ذهنك حجم كآبتي. حتى الطيور، حسب الأماكن، تصير مختلفة. أم أنها الأزمنة، الرحلات التي نعيش؟

وهناك، انتشر البرد نهائيًا. فمرض كل الرفاق تقريبًا.

لم يصبهم الجدري، أخبرك، يا سيدي، بل أمراض أخرى. الحمى. في لحظة ما ربما، لأنه لم يُنبّهنا أحد لذلك، خيمنا في مكان موبئ بالمalaria.

كان معظم الرفاق يرتعشون في فترات، مع نوبات من الحمى. كنا نفتقد تمامًا لأي دواء نافع. كان وقع ذلك المرض يصيب بالوهن، يوما عن يوم؛ فيفقد الرجال مزاجهم. بالإضافة إلى وباء الزكام الذي ضربني أنا أيضًا. لم تكن إصابتي خطيرة؛ لكنني أنا، بالنسبة إليّ، أعرف. قبل ذلك، كانوا جميعًا يعتبرونني شخصًا عاديًا، وهو ما كنتُ بالفعل، لكنني، فجأة، بدأت أغير يوما عن آخر. صرْتُ متوترًا، أغضب من كل شيء حولي. - إنه داء الكبد... - كانوا يقولون لي. كنتُ أنام قليلًا، وبصعوبة كبيرة. أثناء تلك الساعات من الليل، وأنا متيقظ، كان ذهني يعج بكثير من الأفكار. كنتُ أفكر، وأفكر مثل غرابٍ يُقلّب روثَ بقرة. وكل ما كان يخطر ببالي كان فقط يزودني بأفكارٍ خُطّة معينة. خُطّة كانت مثل نسخة منقولة من حلم، كنتُ أحضر مختلف أجزاءها، واعتبرتها في البداية خيالًا؛ لكنها، مع توالي الأيام، أخذت تتجسد وتحتل مزيدًا من فكري؛ كان ذلك المشروع يرغب في الفعل والوجود. وما كان ذلك المشروع، لن أقوله الآن، سوف أوّجل روايته. شيء راسخ. كنتُ أفكر فيه، في الحمى أو في الهدوء، تمامًا كما يتظاهر الماء بالتراجع إلى الوراء على ضفاف النهر، تمامًا كما ينزل لعابُ الثور في سبعة خيوط محسوبة تمامًا.

لكن ذلك الأمر، مهما كان فظيعةً، كان عليّ أن أقوم به، كان عليّ أن أفعله. كنتُ أعرف بشكل كامل، كيف يجب أن أتصرف، تعلمت ذلك، وتعلمت كلّ الحيل الجدّية. كيف ذلك؟ شيئًا فشيئًا، في أجزاء صغيرة، بالحديث مع البعض وسؤالهم، بالاستماع إلى آخرين، بتذكّر حكايات سمعتها قديمًا. أقوم بذلك دون أن أعرف تقريبًا ما أفعل، ولا ما أريد. منذ مدة طويلة. لا يمكن أن يكون أسوأ من هذا، بل عكس ذلك تمامًا. ولا يتطلب ذلك أقل من غضب حادّ بارد، أسنانا صلبة، ودفعة قوية من الشجاعة. كان ذلك، إذن، شيئًا ينبغي الاحتفاظ به في قلب الظلام: أكبر مسؤولية مثيرة للخوف

- فعلٌ لا يجده الإنسان إلا نادرًا، نادرًا جدًّا، في هذا السِّرِّ تاو الواسع، الإرادة الضرورية لتنفيذه.

ثم، ذات يوم، رغبتُ في ذلك. إلى حد تلك الساعة، لم أقم سوى بتأجيله، تأجيله لاحقًا. رغبتُ في ذلك، دون أن أطيل التفكير، بل وحتى دون أن أستجلي دوافعي وخطواتي. نظرًا لما كنتُ عليه من لامبالاة، فقد بقيت محترزًا. قلتُ! وبدأتُ. كانت هناك قاعدة. وهي - أولاً، لا تأكل، لا تشرب؛ ما يُشرب: الكاشاسا... جرعة كانت نارًا تُطلق في الحلق والأحشاء. لم أكن أقطع صيام الشيطان. هناك كنتُ على استعدادٍ لأمضي قدمًا: فيما كان من أعمال الأرض والظلمات. وهو ما كنتُ مخطئًا بشأنه. في انتظار لحظة الحقيقة، كان عليّ أن أحرص على ألا أترك أدنى فكرة من أفكارٍ لتطير مُحلقة. لم تكن غير لحظة واحدة: كان ذيادوريمُ إلى جانبي، بشخصيته الحيّة، وتلك الرقة الحازمة التي تتبعث منه. تحدّثَ معي ذيادوريمُ، وقبلتُ رفقته. ثم سرعان ما ضعف عزمي، وتراخيت في قراراتي. بحثت عما أكل. أكلتُ كثيرًا، بالغت في الأكل، فكان جسدي مُمتنًا لذلك. ذيادوريمُ، بأهدابه الطويلة، والشباب في عينيه. ومنذ تلك اللحظة أبيتُ أن أفكر في تلك الأمور الأخرى، فضحكتُ، وثرثرتُ، ونمتُ. كانت الحياة عادية، وهذا أمر عادي جدًّا، وكانت على حق تمامًا.

الخطأ الفادح. بعد ثلاثة أيام، استأنفتُ كل شيء، تلك القرارات، بشيء من وخز الضمير. حلمتُ بأشياء قاسية جدًّا. وكان الأمر أسوأ الآن، لأنني كنتُ أشعر بخجل قاتم لأنني بدأتُ وأنا لا أملك ما يكفي من الجرأة كي أذهب حتى النهاية. وإرثُ تظلماتي القديمة. هكذا كنتُ أفكر: كل هذ الأشياء التي عشتُها؛ وأنا، ماذا كنتُ؟ مجرد جاغونُسو قنّاص، أتسكع كالكلب في هذا السِّرِّ تاو. أحسن ما يمكن أن أكون وأفعل، مقاتلٌ جيد،

ولم أكن أتمكن من ذلك حقاً. أُنسَكعُ، أُنكاسلُ، أحتال على الفراغ، هذا كل ما كان عندي لأقوم به. لكن، لماذا؟ - كنتُ أُنساءلُ. آه، هنا، انتبهتُ للأمر: بسبب طريقة تصرُّفي، بسبب الآخرين. الآخرون، الرفاق، الذين كانوا يعيشون بلا هدف، من دون قيود؛ وكنتُ أعيش قريباً جداً منهم، هم الذين، في كل لحظة وحين، كانوا يُحوّلون انتباهنا، وما نكونه من فكرة عن ذاتنا، تلك الثقة التي لا تعرف خوفاً ولا لوماً، وما ينتظرنا من قدرٍ محتمل. فيما تفيدنا، إذن، وضعية الجاغونُسو؟ آه، كان ذلك. كان ذلك هو سبب ذلك الاحتقار الذي كنتُ أشعر به تجاه نفسي، سبب توجُّسي من العالم. منعزلاً. بعيداً عن زي بييلو وعن أيّ كان.

لم يكن زي بييلو مريضاً. مريض، هو؟ شخص مثله لا يمكن أن يسمح لنفسه بذلك؛ إلّا إذا فقد صوابه بالكامل. أو بسبب هذا الوباء. لأنه، فعلاً، كان يعاني من السحر والشعوذة. لاحظتُ ذلك بسرعة. وكان ذلك هو سبب هلاكنا الكبير، وتأخرنا العام. بالنسبة إليّ، كان زي بييلو قد أهدر كل امتيازاته. كان زي بييلو يذبل، يفقد ألوانه، ولم تعد له خضرة حماقاته، لم يعد أي شيء مما يقوله يبدو حقيقياً، تجاوزاته الجميلة واكتشافاته المعروفة. لم يعد يعرف شيئاً آخر سوى أن يكرر إنه يتعين علينا ألا نتحرك، وننتظر هناك حتى يشفى المرضى. كان هكذا، تحاصره مجموعة من الأمور المستحيلة. كل ما كان يقع كان نحساً. لا أقول ذلك عن زي فيتال، الذي كان ضحية لنوبات جديدة، حين يلتوي فمه فيرغي ويزبد، ثم تهتز كل أطرافه الأربعة، وتتصلَّب ذراعاه وساقه كالخشب. لكنَّ ثعباناً من نوع جاراراكاسع غريغورِيانو؛ من تلك الثعابين التي تزحف تحت العشب والأوراق المتساقطة، ولا يتجاوز طولها أربع بوصات - لكنها تملك قوة فتك كبيرة - وفي غضون سويحات قليلة مات غريغورِيانو المسكين. كما أحكي لك أيضاً ما وقع لشخص آخر

يدعى فيليبسبيرتو. كان يتمتع بصحة جيدة على ما يبدو، لكنه كان قد تلقى رصاصة في الرأس قبل عدة سنوات؛ رصاصة مسدس - نحاسية، حسب ما يُقال - استقرت منذ ذلك الوقت في حياة جسده ومفاصله، على عمق لا تستطيع أداة أي طبيب أن تذهب لتبحث عنها. هكذا، قبل شهرين تقريبًا، فجأة، ودون سبب مفهوم، صار فيليبسبيرتو أخضر تمامًا، حتى أسنانه صارت رمادية خضراء، وشعر بآلم كبير. تورّمت عيناه، وغطاهما لون أخضر من بقعة واحدة، كبيرة جدًا. انسَدَّ أنفه، وانتفخ كثيرًا. كان يسعل. كان منظرُ ذلك الاخضرار مثل المعدن شيئًا مقرفًا. ثم، مثل زهرة المَرْنُطة البرّية تحت شمس حارقة، بين منتصف النهار ونهاية المساء، حين تتحول من الأخضر إلى الأزرق. هل كان ذلك كي يشفى من المرض؟ لكن، متى؟ كان سعاله مثل سعال عجل صغير يعاني من داء السل. كان يقول إنه في مثل تلك الأوقات يفقدُ البصر، ولا يرى شيئًا. وكانت أكبر سعادته أنه لا يستطيع أن يعرف من أصابه بتلك الرصاصة، بأنه ليس بحاجة ليتخيل أو ليجد ذلك الشخص، ولا أن يضطر ليعيش مع الحقد الدائم في التفكير فيه.

لكننا، كنا نعيش هناك، نراوح مكاننا، نجعل الأيام تشيخ في كوروجا، كما لو أن الأمر لا يتعلق بشيء آخر غير الاستمتاع باللحم الطري والشمس التي نبحت عنها في الحقول، وثيران ذلك السَّرْتَاو. وزى ببيلو لا يتخلى أبدًا عن الثروة، عن ضحالة مشاريعه وأحلامه الجوفاء. مثل رحي الطاحونة، التي، وإن لم يعد تحتها ما تطحن، تستمر في الدوران، فتطحن، وتطحن. هل تُعالجُ الأمراض؟ لديّ شكوك. هناك، من لم تُصبه بالمalaria كان يعاني من شيء آخر - أورام، التهابات الشعب الهوائية، آلاف من الأمراض الصغيرة؛ بل هناك من أُصيب بسكتة دماغية. مع مرور الوقت، مرضتُ بدوري. حَكَّةٌ، كما لو أنني أكلتُ العمود الفقري للخنزير وهو في موسم التزاوج.

لا بد أنه الكبد الذي كان يؤلمني؛ لكنني لم أتأكد من الأمر: فتحسّس جزء من جسدي، بسبب المرض، كان شيئاً يصيبني بإحباط أسوأ. حضّر لي رايموندو لي شراب شاي بالتين الأحمر.

كان بلسما خفف عني الآلام وكان مُحضراً بكلّ لطف. وهذا ما قلت لـلي رايموندو، معترفاً بجميله: - إنه بلسم خفف عني الآلام وكان مُحضراً بكلّ لطف... - وراح أـلاريبي يمدح الفضائل العلاجية لعدة أوراق وجذور نباتية أخرى. - حتى هذه هنا، ربها، باحترام المقادير، يمكن أن تكون علاجاً لأي مرض، إلّا أننا لا نعرف... - قال لي، وهو يريني أجمة من نبات الرّاهب جوزجي، ذي الأشواك الكثيرة، وإكليل الجبل الذي ينمو إلى جانبه. لاحظت، حينئذ، كم كان عادياً، ونحن مجتمعون، أن نقدر الرفاق. ذيادوريم - الذي كان يتصرف على أحسن وجه، حمداً للرّب - كان يشملني، لطيفاً، بكلّ عنايته. ثم قال سيدورينو: - ما نحتاج إليه الآن هو تبادل جيد لإطلاق النار، يكون تدريباً حتى لا نفقد قدراتنا على القتال... في واحدة من قرى السّرتاؤ، وبعد ذلك نتسكّع، لا نبالي بشيء... - وصفّقنا جميعاً لفكرته، متفقين معه، ووافقْتُ بدوري. لكنني ما إن تكلمتُ حتى سرت في جسدي رعدة خوفاً، توجّس: كأنها لسعة حية. أولئك الرفاق كانوا، بالفعل، أصدقاء طيبين، يُؤازرون بعضهم البعض بكل صدق في كل مناسبة وحين، ولا يتوانون في التضحية من أجل إنقاذ بعضهم. لكن، في الحقيقة، بالنظر إلى وضع سياسي معين، أن يطلقوا النار على قرية عزلاء، على ناس آخرين، مثلنا، لهم أمهاتهم وعزّاباتهم - يرون الأمر طبيعياً يمكن أن يذهبوا لينفذوه في واضحة النهار، بسبب طاعة صحّة ومن واجب العمل على تمديد الأذرع والسيقان. ما شعرتُ به من رعب بسبب ذلك - هل تفهم، يا سيدي؟ كنتُ خائفاً من الإنسان البشري.

وفي لحظة واحدة تجلّت أمامي حقيقة هذه الملاحظة، بكل نتائجها:
 الكمّ الهائل من الجنون المتشابه الذي قد ينتج حياتنا، لم أكن قادرًا على
 التعرف عليه نهائيًا! فانتهى بي الأمر - ولا أجد حرجًا في أن أصارحك
 به، يا سيدي - أن كان لديّ إحساس بأنني الوحيد المسؤول والجلدي في
 هذا العالم؛ ولم أعد أثق في أي أحد. آه، وما كنتُ أشكر الربّ عليه أنّه
 منحني تلك الامتيازات، أنني كنتُ بارعًا في الرمي، وكانوا يحترموني
 لذلك. لكنني كنتُ أتحيلُ: ماذا لو كان قدري مختلفًا، لو كنتُ ساكنًا
 مسكينًا في واحدة من تلك القرى، معرضًا لأفعال ونزوات هذه الجماعات
 من الجاغونُسو؟ حينها، سيأتي هؤلاء، رفاقي الآن، مُحيفين، ينقَضون عليّ
 ويرتكبون فظاعات. ماذا، إذن؟ لكن، لو كان شيء كهذا ممكنًا، فكيف
 لهم أن يكونوا أصدقائي الآن؟! ساعني، يا سيدي، إن أطلتُ الكلام،
 ولكن هذا هو ما فكّرتُ فيه، فكّرتُ فيه بسرعة. آه، كل ما كنت أريده
 هو أن أولد، مثلك يا سيدي، في المدينة، حتى أنجح في أن أكون شخصًا
 متعلّمًا وذكيًا! إنني أحكي كل شيء، كما أقول. لا أحبُّ أن أنسى أي شيء.
 فالنسيان بالنسبة إليّ مثل فقدان المال.

وهذه الأفكار تدور في خلدي، دون أن أرغب في ذلك، قلتُ بصوت
 عال: ... وحده الشيطان... ثم - ماذا!... - سألني أحدهم، مندهشًا. وهنا،
 ألححتُ وأكملتُ كلامي: - وحده من - لا - يقول - كلمة، من - لا - يضحك،
 الجديّ - تمامًا - الكلبُ الأسمى! - فوجدوا هذا غريبًا. رسم أحدهم علامة
 الصليب على صدره. فعلتُ ذلك أنا أيضًا. لكن دُيادوريم، الذي لا يتزحزح
 عن مكانه حين يكون مقتنعًا بفكرة ما، قال: - العدو هو هِرْموجينيسُ.

قال ذلك ونظر إليّ. ربما فعل ذلك ليُهدئ مزاجي. والحال أنه، بكل
 هدوء، ما لم أكن أفكر فيه، كنتُ أردده، بصوت حازم:

- نعم، صحيح، العدو هو هِرْموجينيس...

راقبتُ ذِيادوريم؛ رفع وجهه. رأيتُ، رأيتُ كلَّ ما تستطيعُ العيون فعله. كان ذِيادوريمُ يشعُّ بنورٍ. أعيدُ تركيب المشهد: كان اللَّيل قد حلَّ ونزل الظلام؛ وكانت تلك الظلمة تدعو الآخرين ليغادروا المكان. كيف كان ذِيادوريمُ يشعُّ بنورٍ، أذكرُ أنني سأذكِّره طويلاً، طالما أن الرَّب هو الرَّب. لكن، بيننا نحن الاثنين، دون أن يعلم بذلك أحد، حتى ولو بطريقة غير دقيقة، ما قمنا به للتو، ونحن نذهب إلى أقصى العمق، هو أننا حكمنا بالموت على هِرْموجينيس.

هِرْموجينيس سارانيو رودريغيس فيليبيس - كما كان يُسمى: اليوم، في هذا السَّرتاو، كل واحد يعرف ذلك، بل إن اسمه قد ظهر في الجرائد. لكن من علمَ بذلك الآن كان هو لاكرأو، هو من نجحَ في توكانوس في أن ينضمَّ إلينا، راكبا كثيراً من المخاطر، كما حكيْتُ لك، يا سيدي. رحْتُ أطرح عليه كثيراً من الأسئلة حول أمور عديدة... وكان يجيبني بفرح فظ. هل صحيح ما كانوا يحكون؟ نعم، صحيح - أكَّد لي لاكرأو: أبرم هِرْموجينيس ميثاقاً إيجابياً مع الشيطان. كان ذلك معروفاً، منذ مدة. موطنه، لم يكن أحد يعرف أين كان؛ لكنني أعيد ذلك، كان يملك أراضي وقطعان ماشية خلف ألتو كارينيانا، وعلى ضفاف نهر ريو بورا، وضفاف نهر ريو داس فيميَّاس، في الأراضي العليا من ولاية باهيا. وانظر، يا سيدي، كيف نتعرف على علامات فعل اللعين لصالحه، إلى هذه الحماية الهائلة؟ آه، ذلك أنه لم يكن يعاني أبداً من التعب ولا يشعر به، لا يخسر أبداً ولا يصيبه مرض؛ وما يرغب فيه، كل ما يرغب فيه، يحصل عليه؛ بما أنه، مهما كانت الصعوبة التي تبرز أمامه، ومهما كان الوضع، دائماً ما يحدث تحوُّلٌ يُصلحُ كل شيء. وماذا كان سبب هذا السر؟ - آه، هذه أمور مؤجلة إلى حين... وقَّع الميثاق ودفع روحه ثمناً.

الآن، ما قيمة ذلك؟ ماذا نفعل بالروح؟... وكان لا كُراؤ يسخر من ذلك، كما استنجت من نبرة كلامه. كان يقول لي إن طبيعة هِرْموجينيس كانت تتغير، فلا يشعر بالشفقة على أحد، ولا يحترم أي نزاهة في هذا العالم... حين يتعلق الأمر بالقتل، تجده دائمًا في الموعد... كما يُقال. لأن الذي -لا- يُذكرُ أعاد تعميد جمجمته بها يلزم من الدَّم: دُم إنسان سليم وطيب، يُراق من دون سبب... لكن قيمة ذلك كانت هائلة بشكل غير منطقي، أكثر أهمية بشكل مرعب من قدّاس أسود، ومناسبة بشكل أفضل من أي سحر يجعل الجسد منيعاً محصّناً. كان قد أبرم ميثاقاً، فجعله ذلك فوق الجميع. - أنت، يا لا كُراؤ، بما أنّك لا تعير أي أهمية للروح، هل تستطيع أن تبرم مثل هذا الميثاق؟ - سألتُه. - آه، لا، يا أخي، إنني لا أريد أن أجري وراء مثل هذه الأمور، أبداً!... شجاعتي، أستعملها لأقف ندّاً في وجه رجال من طينتي، وليس كي أذهب في منتصف الليل لأنتصب عند مفترق الطرق، وأقابل وجه الشرير... - فكّرتُ مع نفسي في صمتٍ. كان لا كُراؤ هذا يستخلص الحكمة من الجنون. كما زوّدني بمعلومات أخرى. ألسَت مثلي أنا، يا سيدي؟ صدّقتُ، من دون أن أصدّق.

تفاهات، كلام فارغ. الخوفُ الذي كان الجميع يشعر به في النهاية من هِرْموجينيس هو ما كان يولّد هذه الحكايات، ويزيد من شهرته. والأحداثُ تولّد الأحداث. لكن، إذن، هل كان هذا يعني أنه في كل سَكّان السَّرْتاؤ لم يكن ثمة رجلٌ أكثر رجولة منه، إن صحَّ التعبير؟ ومن بين الآخرين، البقية، تلك المخلوقات؟ وحده هِرْموجينيس: مارقٌ، جَسُورٌ، شخصيّة. خبيث، لكنه كامل، قانوني، واثق من نفسه، الشرّ الخالص. هو الذي لم يتردّد في أي شيء، حتى في قتل جوكا راميرو، لما حانت اللحظة. كنْتُ أميز هذه الأمور، بدقة، بكثير من التفحص. لم أكن عنيداً ولا معادياً في هذا الاحتراز. أعترف

بصورة إجمالية: إِنَّ هِرْمُوجِينِسْ كان ذا مكانة خاصة جدًا، مثل قمة جبال إيتامبي، التي تُرى حين نصل من جهة مايّ دوزُومِينْس - وتبرز رائحة من بين السحب، في الأفق. كان بوسعه أن يكون صديقًا: كان ثمة إنسان. لكن ذيادوريم هو من كان على حقّ: الحدث الذي ينقصنا هو نهاية هذا الرجل. ذيادوريم، رينالدو، أذكّره طفلًا، في ملابسه الصغيرة الجديدة وقبعته الجلدية، يحفزني ويشجعني كي أكمل عبور نهر شيكو، في ذلك المركب الذي يتسرب إليه الماء. هذا الطفل وأنا من كُنّا معًا منذُورين للقضاء على ابن الشيطان، مُوقّع الميثاق! هذا الحقّ، كان لنا. ما فكرتُ فيه صار بهذا الشكل.

لكن، في كل هذا، في كل هذه التغيرات والأحداث، وفي اجتهادي في نقلها إليك، يا سيدي، وكما أقوله لك - ألا أذكرُ اسم أوتاسيليا؟ كنتُ أريد أن أفكر فيها أحيانًا، لكن ذلك كان يبدو كل مرة أكثر فأكثر صعوبة. كأن مادة الذكرى كانت تتشوش، فيصبح الجمالُ في طيّ النسيان. هكذا، فإن حديثنا الغرامي، هناك في سانتا كاتارينا، لم يعد غير حكاية غريبة، نستمع إليها على لسان شخصٍ آخر. أعرفُ أنني كنتُ أبحث عن ذكرى للحنين. ومن أجل ذلك كنتُ أصلي متوسّلاً إلى كل سيداتنا العذراوات في السّرتاو. لكنني ألقيت بكل تلك الصلوات في مياه العيون وهواء الرياح. لم تكن تعود عليّ بأي فائدة تذكر، كما لو أن اجتهادي كان شيئًا زائفا. لا شيء غير الخجل، من ولادتي، من شخصي: اليقين بأنه ما كان لوالدها أن يسمح لي أبدًا بالزواج، ولا أن يقبل بأن أغرق طابعَ الجاغونسو في الضياع، من دون الشرف المعهود. وكل ذلك المبلغ الذي كنتُ مطالبًا بأدائه! ما أقول له، يا سيدي، هنا، كما فهمتُ، هو مُلخّص وموجز؛ لأن الأشياء تتطلب دهاءً كبيرًا: يسود الأمل يومًا، وفي الغد يهيمن الحزن. لكن هنا، اكتشفتُ الإمكانية المتاحة، السبب. السبب الأعظم، كان هناك واحد. ألا تريدُ، ألا تريدُ أن تعرف، يا سيدي؟

ذلك الشيء، الذي لم أستطع بعد أن أنجزه. ذلك الشيء، ذلك الشيء وليس غيره، حتى أتمكن من مواجهة نفسي. - آه، في يوم من الأيام القادمة، في وقت من الأوقات القادمة... - هكذا كنتُ أبرمج نفسي. في يوم من الأيام، في ليلة من الليالي. عند منتصف ليلة من الليالي. فقط كي أواجه قراري، أعني، كي أحلّ مشكلة هذا الضعف. يعني، هل ثمة من شيء جوهري في كل ذلك؟ الحقيقةُ الحقيقيةُ لذلك المارق، ظهوره المعروف، لم أكن أصدق ذلك. لا أصدق منه شيئًا. والآن، بعد ما قلت لك للتو، ألسْتُ على علم بالأمر، يا سيدي؟ هذا الشيء، البقية... الشيء - كان هو أن أذهب إلى مفترق الطرق، أنتظرُ الشَّرير - أمضي العقد، وأبرمُ الميثاق.

أرى أنَّك لم تضحك، يا سيدي، رغم أنَّك تشعر برغبة كبيرة في ذلك. أنا أيضًا شعرتُ برغبة في الضحك. واليوم، آه - ليتني أشعر بها! إننا نغصُّ إذا ضحكنا قبل الأوان. استعددتُ لأمر جدّية. كنتُ بحاجة إلى شيء واحد: أن أقيم قواي، كمن يُقدّر عرض خندقٍ سيقفز فوقه، كمن يُخرج خنجره ليلمع بكلّ بريقه.

ثم جاء صباح آخر، من دون أي شيء خاص، فقرّرت مع نفسي - هذا هو اليوم. لكنني غيرتُ رأيي هذه المرة أيضًا. من دون أي سبب وجيه يُقوّي نَعْمَ على حساب لا. في الحقيقة، أَجَلْتُ الأمر. لم يكن، كلاً لم يكن الخوف. بل لم أكن أعتقد حتى أنه يمكن أن تحدث رؤيا، حين أذهب إلى هناك. أما أنا، فلم يكن لدي سوى أن أبتكر شجاعة لنفسي. شيء بسيط أبداً به. ما فعله فلان وفلان، لماذا لا أستطيع أنا فعله؟ ما عدا هذا، مجرد خزعبلات! أن يأتي ذو القرنين ليتفاوض في شؤونه عند مفترق الطرق في الظلام، في ساعات الليل المتأخرة، في هيئة حيوان ذي شعر داكن، وسط بكاءٍ ووجوم صارم، ويقف هناك أمامك، حقيقياً، أهذل، مشقوق القدمين، يعرجُ على أقدام تيسٍ، يلوح

بقبعته الريشية الحمراء، مخيفًا كما تنص على ذلك الوثيقة الموقعة بالدم الحيّ، وبعد ذلك يختفي في ضجة كبيرة ودخان من الكبريت! لم أكن أصدق ذلك، حتى وأنا أرتعش. كلاً!

مع هذا كله، كان الزمن يتوقف لمزيد من الوقت. فمِنذ أكثر من شهر، يجب أن أقول، ونحن هنا في ذلك المكان المهجور المسمى كوروجا، بسبب واحد من تلك الأمور المستحيلة التي تميز زي بيبيلو. وماذا حدث أيضًا في ذلك المكان؟ حسنًا، مرّت أسرابٌ من البيغاوات، ف شعرنا كأنها تجلب شيئًا من التسلية. لكن البيغاوات كانت تحلق بعيدًا؛ وراح ضجيجها، مع الريح، يبدو كأنه يعود إلينا. أما ذيادوريم، فلم يشعر بالإحباط ولو للحظة واحدة. كنتُ دائمًا أحبه حبًّا هائلًا. إلّا أنني لم أكن أتكلم، طوال تلك الفترة، لم أكن أفتح فمي لأتحدث.

و ذات يوم، من غير المتوقع، جاء رجلان، فرأينا أن أحدهما كان هو السيّد، والآخر راعي بقر في خدمته. ف همتُ على الفور: كان الأمر يتعلق بصاحب المكان، ذلك المكان في فالادو، تحديدًا؛ وكان اسمُ ذلك الرجل، كما قلتُ سابقًا، هو هاباو. حين انتبهتُ إلى حضوره، كان قد ترجّل ووضع قدمه على الأرض؛ كان منحنياً على الأرض، لكنه لا يزال يحتفظ بزمام حصانه في يده اليسرى. كان رجلاً متقدِّماً في السن، يرتدي ملابس أزرق داكن محبوكة النسج، ويتعل جزمة سوداء تصل حدَّ الركبتين. حين رفع عينيه من جديد، رأيتُ أنّه وسيّم الهيئة. لكنَّ الحصان! - هذا الحصانُ أثار حماسي: كان حصانًا أشقر، ضخماً وهائلاً، مهيبَ المظهر، كثَّ الذيل؛ وسترى لاحقاً، يا سيدي، أي نوع من الدواب كان؛ حصان يرفع خطمه عاليًا، بشفتين وديعتين، ويشرب من الأحواض وهو يبلّل جبينه. كان يعرف كيف ينظر من حوله، يتفحص بلطفٍ أو بازدراء، فيسحب إلى

دواخله، برثيئه، كل كمية الهواء التي يريد لها من منخريه الواسعين. حسنًا، سأحدثك عن ذلك لاحقًا.

كان هاباؤ في حديثٍ مع زي بيبيلو. أعجبتُ بهيئته: كان يتمتع بهدوء معقول ومتناغم، ينضاف إلى تصرفات دقيقة. وكان يتفحص أبسط مظاهر الأشياء من حوله، لا يفوت فرصة ليسجّل كل شيء والحالة التي كان عليها وهو لا يزال قائمًا. عينُ السَّيد والمالك - أتعرفُ. وهكذا قال لزي بيبيلو إنَّ الظروف فاجأته، وأنه لا يحمل معه مبلغًا ماليًا محترمًا. لكن، لو أننا تفضّلنا وسرنا معه حتى الفازيندا الكبيرة التي يملكها على ضفاف نهر ريسبلاندور، على بعد عشرين فرسخًا، فإنه مستعد ليقدم لنا مساعدة إضافية، تزين حياتنا اليومية. وقال ذلك بكثير من الصراحة المضبوطة - حتى أننا أدركنا الأهمية التي لا بد أن قيمة المال تكتسيها بالنسبة إليه. ومن ذلك، استنتجتُ أنه رجل حكيم ومتبصّر. لأنَّ الرُّوحاء، في الهضبة، هي أول من يسمع، فتتفص وتجري - وغالبًا ما تكون على حقّ.

لكن، بطريقته الحربية، قام زي بيبيلو بحركة نبيلة، لا تسمح للآخر بأن يشترط كثيرًا:

- آه، هذا لا، يا ابن بلدي، يا صديقي، على الإطلاق. لسنا رجال فوضى... إننا ممتنون لك أصلًا بأفضال كثيرة - بسبب أرضك التي توقفنا فيها ورؤوس ماشيتك التي اضطررنا لذبحها، مضطرين لنسدّها رمقنا.

سارع الرجل ليقول إن ذلك يسعده، وأن كل قطيعه كان رهن إشارتنا؛ لكن، من باب العادة ليس إلا، سأل كم من رؤوس الماشية استهلكنا. هكذا، كان يقيم الحصيلة، ويلاحظ كل شيء بعين المُسَيّر، كما لو من واجبه أيضًا أن يهتم تجاريًا بالسما وريح الجنوب. فكّرْتُ: يمكن أن نكون واثقين من أنَّ العالم لن ينتهي طالما أن هذا الرجل على قيد الحياة. وهل كان من السَّرَتاؤ؟

أمام اندهاشي، كان كذلك. جبال تبعد لتفسح للعيون منظر جبال أخرى. هناك أنواع كثيرة من الأشياء. إننا نتعلم ونحن نحيا؛ لكن ما نتعلمه، على وجه الخصوص، هو فقط أن نطرح مزيداً من الأسئلة الكبرى.

بقيتُ ألاحظ. كيف كان زي ببيلو يتقدم شيئاً فشيئاً بنثره، يغتنم الفرصة لإبراز قيمة ما صرح بامتلاكه، بوصفه قائد جاغونسو معروف؛ وهنا كانت تُلاحظُ عنده، غير محسوسة، رغبةٌ ما في أن يكون لطيفاً مع الآخر. بما أن الآخر كان مختلفاً، معتاداً على شكل آخر جدي من الانشغالات. وبعد أن ظل يستمع بكل احترام، أخذ السيد هاباو شيئاً فشيئاً يطرح أسئلة، وباله منشغل بأمور الحقول، والمحاصيل الضائعة خلال العام، بسبب الأضرار الناجمة عن أمطار العواصف، والشمس الحارقة، ونظراً لما تعاقب على المنطقة من أمراض. مما خلف في نفسي قلقاً، أنني انتبهت: آه، رأيتُ كيف أن صاحب الفازيندا رجل مرتبط بالأرض ارتباطاً نهائياً، بينما الجاغونسو ليس سوى إنسانٍ مؤقت جداً.

حتى زي ببيلو نفسه تعب، في النهاية، من إظهار نفسه وهو يتحدث. لأن السيد هاباو، هادئاً جداً، من دون أي مجد، كان قطعة خشب حقيقية، لا يلين أبداً، مشدوداً دائماً إلى أموره. لم يكن يفقه غير أمور بسيطة، لكنه كان يجتهد فيها بقوة بطيئة، حقيقية، كأنه ثورٌ يرفس بقوائمه. ما عدا هذا، ورغم مجاملته المليئة بالاحترام، لم يكن يصغي حتى عندما يتحدثونه عن جوكا راميرو، أو يحكون له عن هِرموجينيس وريكارداو، أو حين يحكون له عن المواجهات بين الجنود والسيطرة، بفضل خمسمئة فارس، على مدينة ساو فرانسيسكو الجميلة - وهي ما يراه النهرُ بكل حبّ. والنتيجة أنه، حتى من دون أن ينتبه إلى ذلك، حتى زي ببيلو نفسه اضطر ليتبادل معه أطراف الحديث عن كل الأمراض التي تصيب القطيع، عن تلك الأراضي الخصبة

على ضفاف النهر، عن محاصيل الفاصوليا السوداء، عن زرع الرُّزِّ في الحقول التي تحوم فوقها آفة «طيور الرِّب». في الحقيقة، لا أعرف جيدًا ما كان يفكر فيه أو يشعر به في فترات توقُّف ذلك الحديث المشترك. أما أنا، فقلت مع نفسي: إنَّ رجلًا مثل السيد هاباؤ، من الأحسن أن نتمنى أن يكون بعيدًا عنا، أو أن نجبره ونطرده بسرعة. وإلا، يستحيل أن نتعامل معه بشكل صادق: لأنه كان من طينة عنيدة جدًّا في اختلافه معنا، ومُجَرَّدُ حضوره، هناك، أمامنا، كان تقييماً ومقارنةً، وانتقاداً.

لكن، بسبب حاجة مقيِّته، ربما، لأرى جيدًا إن كان صحيحًا ما أفكر فيه، الحقيقة أنني لم أتوقف إلَّا عندما وجدُّني أمامه وجهًا لوجه، قريبًا جدًّا منه، وقد افتعلتُ سببًا للحديث معه. ولم يكن ذلك بالأمر الصعب تمامًا، لأنه قضى بيننا عدة ساعات، يومًا كاملاً تقريبًا. تدبَّرتُ أمري، ودون عناء، دخلتُ معه في حديث. نظر إليَّ السيد هاباؤ بطريقة غير معتادة جدًّا، فشعرت بكامل زيفي. نسيتُ الكلمات الأولى التي حضَّرتُها لأقولها:

- أيُّها القائد هاباؤ - بدأتُ؛ وبسرعة، أدركتُ أنني كنتُ بدوري أتحدَّث معه لأرضيه.

هكذا، ما قلتُ هو أنني كنتُ أعرف أنه كان يحمل لقب قائد، لأنني قرأت ذلك في الدبلوم الذي وجدُّته في بيت فالادو، الذي تعرَّض للنهب والتخريب على يد سكَّان سوكرويو. كما حكيتُ له أنني لم أترك تلك الوثيقة مُلقاةً في الأرض، بل التقطتها بعناية ووضعتها خلف تماثيل القديسين في المصلَّى.

لم يُعر أي اهتمام لهذا التفصيل، لم يشكرني على ذلك؛ ولم يسألني عن أي شيء. قال:

- لقد انتهى وباء سوكرويو الآن. أعرف عدد الموتى: فقط ثمانية عشر شخصًا...

وما سألني عنه هو إن كنت أستطيع أن أخبره إن كانوا قد خلّفوا كثيرًا من الأضرار في حقول قصب السكر... ما تركوه قائما، وما لم يقرضه الذئب أو الخنزير، سيعطي دائما ما نملا به بضع عربات، إن كانت الطاحونة تشتغل... وظل ينظر بنظراته التي لا ترى، بعيدا، وفكره منشغل بهذه الأمور. قال إنه سيستعين بأهل سوكرويو لحصاد قصب السكر، ومن أجل صناعة السكر البني. بما أن هذا السكر البني كان سيبيعه إلى أهل سوكرويو، الذين يدفعون له ثمن ذلك عملا مضاعفا. وأنا أسمع ضيف ذلك بنفس النبرة، من دون أي إحساس، جعلني أفقد أعصابي، فجأة. كما لو أن أهل سوكرويو هؤلاء ثيران ترزح تحت النير، مخلوقات تعدم أي شكل من أشكال الرعاية. لكنني لم أكن غاضبا من السيد هاباو، أقسم لك، يا سيدي، لأنه لم يكن شخصا سمجا. ما كنت أشعر به كان بداية نوع من الاشمئزاز، الذي يدعو للتأمل. - في العام القادم، بمشيئة الرب، سوف أحرث، هنا وفي فالادو، قطعاً أرضية كبيرة... سأزرع الفاصوليا، والذرة، وكثيراً من الرز... - قال، وقال مرة أخرى إن ما يمكن جنيه من الزراعة كان شيئاً ضخماً. فشعرت أنه كان يرقبني بعينه الشاحبتين. وهناك أدركت ما كان يدور في خلده: أن نقوم نحن، زي بيبيلو، أنا، ذيادوريم، كل الرفاق، بمساعدته في الحقول، فنزرع الأعشاب الضارة، نعزق الأرض، نزرع، ونجمع الغلة، أي أن نشغل عنده مياومين. وهو ما أصابني بالغثيان، تقريباً. نحن الجاغونسو المغامرون، نخاطر بحياتنا، والسيد هاباو ينظر كمن ينظر إلى تمساح وسط القصب: يطمع أن نكون عبيداً لديه! لا أعرف حتى إن كان يعرف ما يريد. أعتقد أن فكره لم يكن يرتب المسألة بشكل واضح تماماً. لكن طبيعته هي التي كانت تريد، وتحتاج للجميع

عبيدا. مرة أخرى، أعترف لك، يا سيدي، دون حرج: لم أشعر بالغضب من السيد هاباؤ. لأنه كان رجلاً على مسافة بعيدة مني. إننا لا نغضب من البؤاء. البؤاء تخنق ضحيتها لكنها لا تنفث فيها سُمًّا. كان السيد هاباؤ يكمل قدره، ملخصاً كل شيء فيما يجنيه من فائدة. لو كان بوسعه، لاقتصد حتى في الشمس، وفي المطر. كان يلفُّ التبغ في راحة يده، وأؤكد لك، يا سيدي، أنه لم يكن يضيع ولا ذرة واحدة من تلك الألياف. كانت سعادته تكمن في العَدِّ وإعادة العَدِّ، بكل عجرفة: عشرون، ثلاثون عربة من الذرة، آه، ألف هكتار من الرُّزِّ... وهو يسمع مشاريع من هذا الشكل، كان زي بيبيلو قادراً على أن يقع تحت تأثير قوي: أن يصيح إنه هكذا بالفعل سوف نغير وجه السُّرَّتاؤ بكامله، وعلى المناطق النائية، من خلال تحسينات، من أجل حكومة جيدة، من أجل رفاهية وطننا البرازيل! يا له من أمل! فالسيد هاباؤ لم يكن، مثله هو، من ذلك النوع الذي يتحمّس بسرعة. لم يكن يرى أكثر من ثورين يجزّان عربة محملة بقصب السُّكر... ويُعطي الأوامر. والأمر الذي يُوجِّهه ينبغي أن يكون مكتوماً وآلياً، مختلف عن الأوامر التي يتبادلها الجاغونُسو فيما بينهم. كل شخص، كل حيوان، كل شيء، كان يطيع الأمر. كنا سنصبح فلاحين. نحن؟ أبداً! لكني، كنتُ أفضل أن أرى هِرْمُوجِينِسُ ورجاله، يركضون نحونا صائحين، بينادقهم التي تنفث النار، لمن يريد أن يسمع الأنين، لم يرغب في أن يرى الدم. وهنا نريهم من كانوا فعلاً: بلطجيّون! وعلى سبيل الانتقام، شددت على حزامي، وقلتُ:

- هل تعرفُ، من دون شك، والدي، يا سيد هاباؤ، المزارع السيد العقيد سيلوريكو مينديس، من ساو غريغوريو؟!

ظننتُ أنه لن يصدقني. لكن، أقسم لك، يا سيدي: نظر إليّ بعينين مختلفتين تماماً. وبما أن الأمور أخذت منحى أحسن، فقد تحملتُ تلك النظرة.

كان السيد هاباؤ يحرك رأسه الضخم، آه، نعم، مندهشا، لكنه ظلّ متيقظا:
 - سمعتُ به... سمعتُ به... - قال شبه نادم. لا أدري إن كان يعرف كم
 كان عَرَّابي سيلوريكو مينديس، كما كان، مشهورًا جدًا وغنيا، كما كان يُحكى
 حتى في هذه الأراضي العليا من السَّرتاؤ. استمتعتُ وأنا آخذ كل وقتي، لكن
 متعتي لم تكتمل. بسبب ما اكتشفتُ: لو حدث أن شخصا من طينة السيد
 هاباؤ سلبه وجردّه من كل ما يملك - لن يفعل شيئا آخر سوى أن يتباكى،
 مثل طفلٍ لا أم له، ويتحسس الطريق حياته بكاملها، كأنه أعمى يبحث عن
 عصاه في الأرض كما ندفى أيادينا فوق نارٍ كثيرة الدخان. كدتُ أشفق عليه.
 لا يتسع أي يقين لطبيعتنا. وأنا أرى الرجل، واقفا أمامي - حسب ما بدالي
 - أحيانا يكبرُ وأحيانا أخرى ينكمش، لا أعرف أيهما نسيته وأيها أذكره. بعد
 ذلك بقليل، مع نزوع الشمس إلى المغيب، ركب سرج حصانه الأشقر من
 جديد، وذهب، منطلقا في الطريق المتعرج لفالادو.

أثناء ذلك، عمّت حركة محمومة وسط رجالنا، وهو أمر تأخرتُ في
 نقله إليك، يا سيدي: لأنّ رواية كل الأحداث مرة واحدة، حتى راوي
 ماهرٌ لا يستطيع أن ينجح في القيام بها. وكان ذلك الراعي، الذي يرافق
 السيد هاباؤ، وهو يتحدث ساهيا مع هذا أو ذلك، هو من ذكر بشكل
 عابر أن جماعة من عشرة رجال، جاغونسو بدورهم، حسب ما يُرى
 وما يُقال، كانوا يجوبون المكان، كأنهم يبحثون عن مصير، بين الفازيندا
 الكبيرة فيليسيو - المحاذية للطريق الكبرى، باتجاه الغرب تمامًا - وبورتو
 فيليو، في نهر باراكاتو، هناك حيث يصل الجميع في النهاية، في يوم من
 الأيام. وبسرعة ذهبوا وأبلغوا بالأمر زي بييلو، الذي تعرّفهم من خلال
 الوصف: - يا جراح المسيح! آه، إنهم هم. في وضع يائس! لا يمكن أن
 يكونوا إلّا هم، جواؤ غوانيا وبعض من رجاله... - وسرعان ما أرسل إلى

هناك اثنين من رجالنا، وأمرهما أن يسرعا، دون تماطل، وأن يعودا جالين معهما رفاقنا وأصدقاءنا. وقد سُمع ذلك بنوع من الفرح، لأن الأمر كان شيئاً جديداً يحدث.

بقيتُ في الخارج. وجدتُ نفسي. القرار النهائي، الذي اتخذته عن وعي. ذلك الشيء. آه، لكن - سوف أذهبُ هذه المرة! لا بد أن أحداً كان إلى جانبي: أبُ الشر، المُفسدُ، فحمُ الدّنس. من لا وجود له، الملاك السّاقط. هو... لماذا الآن؟ هل يمكن لمناسبة أن تختلف عن مناسبة أخرى؟ أقول لك، يا سيدي: أن الأوان. سوف أذهبُ. لأنني كنتُ أعرف - أنه إن لم يكن في تلك الليلة لن أجد أبداً شجاعةً اتّخاذ القرار. شعرتُ بذلك مثل إنذار. بسبب بعض الأفكار الصغيرة التي بدأت تثير أعصابي، وبسبب عدد كبير من الأحداث التي لن تتأخر في التعاقب، عاجلاً أم آجلاً. كنتُ أفكر في وصول جواو غوانيا، وأنه علينا أن نستأنف الحملة، عبر الأراضي والحروب. هل كنتُ أفكر في السيد هاباو مثل انتكاسة؟ لم أعد أعرف. وكانت هذه الأمور تصطدم في ذاتي على شكل حاجة ملحة: الحاجة إلى ألا أبتعد من هناك طائشاً - عن فيريداس مورّتاس.

ظلاً بعدَ ظلٍّ، حلّ المساء: عمّ الظلام. وهنا، هل كنتُ بلا خوف، رائعاً؟ لم ترتجف يدي المشعّرة. منذ مدة طويلة لم أشعر بهذا القدر من الاندفاع. أقسم لك: لم أشعر كذلك كما شعرتُ في ذلك اليوم، في تلك الساعة. في أوقات الفرح فقط ننفذ أفعالنا كما ينبغي - حتى ما نقبل عليه من أعمال سيئة. تواريتُ عن الجميع. تحديداً عن زي بيبيلو: كان هو الرجل الذي يتوجّس، وقد يقول إنها أمور مشوّشة لا يفكر فيها العقل البشري. تحاشيتُ ذيادوريم. آه، كيف كانت مياه المغارة تبقّبُ في هدوء! وفي أعماق قلبي، أشهد: أحبيتُ ذيادوريم كثيراً حتى أنني شعرتُ بتأنيب الضمير - وددتُ تجنيبه تلك

الأخطار والاضطرابات. هذه الذكرى الحلوة لأفعالي، لتضعها سيدتنا العذراء في رصيدي. وليشمّلني الرَّبُّ برحمته!

مع حلول الظلام، حين يستيقظ خنزير الماء ويخرج من مخبئه ليرعى - آخذ الطريق، عبر الحقول. إِنَّ الرَّبَّ لكثير التناقض. تركني الرَّبُّ لأذهب، مشياً على الأقدام، كما أردتُ، كما ذهبتُ.

مشيتُ باتجاه فيريداس موزتاس. عبرتُ الأحراش؛ وبعد ذلك، كانت أشجار البوريتي. طريق مرسومٌ. بعد ذلك، برزت غابةٌ كثيفة. هناك كانت تحلق بعض طيور البوم الصغيرة. كنتُ أتفحص كل شيء. مكاني كان عند ملتقى الطرق. جاء الليل يلفّ كل شيء. وكان هناك برد خفيف. ثم أختار أين أبقى. من الأفضل أن أبقى تحت شجرة من أشجار باؤ كارذوزو - ذلك السرخس الضخم ذو اللون الأسود والأخضر العميق في الريف حيث ينمو بأغصان هوائية جداً، كما تعرفُ، يا سيدي، أحسن من أي شجرة أخرى يمكن ذكرها. وأحسن من ذلك قد يكون تحت شجرة كابّا روزا لأنه هناك، تحتها، يرقص ذو القرنين، ولهذا السبب تبقى في الأرض دائرة صغيرة من التراب نظيفة جداً، لا تنمو فيها أدنى نبتة؛ ولهذا فإنها تُسمى كابّا روزا يهودا. لم يكن هناك هذا النوع من الشجر. كان ملتقى الطرق فقيراً فيما يتعلق بهذا النوع من النباتات. حين وصلتُ إلى هناك حلّ الظلام. كان القمر يُخفي جماله. خوف؟ شجرة الموز ترتعش بكل أوراقها. لكن من أعماق خوفي أخرجت كلمات مرعبة. كأنني إنسان جديد. أبيتُ أن أستمع لأسناني. تجشّأتُ أسئلة أخرى. ألم تكن قناعتِي صلبة من حديد؟ كان بوسعي أن أقطع عارشة، أضعها في عنقي وأشنق نفسي لأموت معلقاً في تلك الأغصان: من يمنعني؟ لن أشعر بالخوف. الخوف الذي كنتُ أشعر به هو الخوف الذي كان يشعر به هو مَنِي. من كان الشيطان، الجدّي - على الدوام، أبُّ الكذب؟

لم يكن لحمه من قوت الأرض، ليس له دمٌ يمكن أن يُراق. إن جاء، إن جاء، فسأتي ليطيعني. ميثاق؟ لكنه ميثاقٌ ندٌّ لندٍّ. بدايةً، أنا من سيعطي الأوامر. هل كان يأتي ليتزعزع الفطير من أذهاننا؟ بأيِّ حق؟ أنا، كنتُ أنا - ألف مرة أنا - وكنتُ هناك بمحض إرادتي، لأواجه وحشية ذلك المنظر. فوقعت عيناى على عالمٍ من العدم.

الانتظار، هنا كانت تكمن قوتي؛ فيما جئتُ أبحث عنه. ولم أكن أميز شيئاً. بمعنى أنه، رغم الظلام ومع أشياء الظلام، كل شيء يجب أن يقف هنا، في هيئته وشكله. أزيز الحشرات. عجبا، من يستطيع تقليد نعيب اليوم؟ شيء ينتفش له شعر الإنسان.

لم أشعر بأيِّ استرخاءٍ ولا تعب.

كان عليه أن يأتي إن كان موجودا. وفي تلك الساعة، كان موجودا. لا يمكنه إلا أن يأتي، متأخراً أو مسرعاً مهرولاً. لكن، في أيِّ هيئة؟ عند ملتقى الطرق، هو سيد المكان وصاحبه، ساحة صغيرة حيث تأتي الحيوانات لتتمرَّغ في الغبار. يمكن أن يبرز أمامي، فجأة، في جلبية مُنذرة، أو في صمتٍ ظرفي من صنع دهائه. في هيئة تيس أسود؟ على شكل وطواط عملاق؟ على شكل حيوان شو؟ وفي مكان ما - من مكان قريب ومنعزل، من أعماق الجحيم - لا بد أنه كان يرقبني، كلباً يشمُّ رائحتي. كيف يمكننا أن نظل عُزلاً تماماً، مستسلمين لما يريد أن يفعله الآخر بمحض إرادته، حين يبرز دون كابح من الثقوب المغلقة، ويأتي ليتجسَّد؟ كان كل شيء قد وُضِعَ ليشير الرعب، ليزرع الخوف والهلح في النفس؛ وكان ذلك هو الهدف. لذلك لم يكن يُسمح لي ألا أكون أنا، أن أرتاح قليلاً. لم تضعف إرادتي. لم تكن هناك أفكارٌ أخرى في ذهني. لم أرغب في أن أتذكر أشياء أخرى، ولا أي شيء مختلف، لأنني كنتُ مؤقتاً من دون ذاكرة؛ وكنتُ قد نسيت السبب الأول الذي جعلني أظهر

هناك. هل نسيْتُ ما كنتُ أريدُ؟ آه، أعتقد أنني لم أكن أرغب فعلاً في أي شيء، من فرط ما كنتُ أرغبُ فيه من أشياء. شيءٌ، الشيءُ، هذا الشيءُ: كل ما كنتُ أرغب فيه لم يكن سوى: ألا أكفَّ عن الوجود!

وهكذا توالى الساعات - تجاوز الوقت منتصف الليل - أردتُ أن أقول. كان البرد يشدني بقبضة خانقة. حتى عندما أسعل. تحدثتُ لوحدي. - هل أنا مبحوح؟ - شيئاً ما - أن تكون قوياً هو أن تبقى هادئاً: وتستمر. قدَّرتُ الساعة - بملاحظة السَّماء فوقِي: ليست هناك الثَّريا، ولا الجوزاء - كانت قد تناثرت؛ لكن كوكبة صليب الجنوب كانت لا تزال تلمع على بعد شبرين، بل وبدأت تنزل. خلف ظهري تقريباً، ظلٌّ غامضٌ، شجرةٌ قليلة الأوراق؛ همس بأغصانها. وشيءٌ ما لا يأتي. لم يكن هناك من شيء غريب يظهر للعيان.

ما لم يكن يأتي - هبةٌ ريح في عاصفة هوجاء، وهو جالس، يترَّبَع على صدر عرشها. هذا ما كنتُ أريده الآن! آه، ما كنتُ أعتقد أنه لي، ولكنه كان هو المجهول، المستبعد. كنتُ أريد أن أكون أكثر من نفسي. آه، كنتُ أريد ذلك، أستطيع ذلك. كان ضرورياً. - الرَّب أم الشيطان؟ - كنتُ أعاني من معضلة قديمة: لكن، كيف كنتُ أريده، على أي هيئة؟ مثل الهواء الذي أنفسه، مثل شيءٍ يشبه أي شيء آخر: في هذه الحالة، لا يمكن إلا أن أفضِّل الموت، وأنهى هذا الأمر تماماً، إن لم يكن ذلك متشكلاً أمامي. ثم أترك عربوناً على ذلك ما أملك، كل لأشياء الأخرى: الروح وراحة اليد، والروح السقيمة... الرَّب والشيطان! - القضاء على هِرْموجينيس، التخلص من هذا الرجل!... ؛ وكنتُ أذكر هذا وأنا بحاجة لسبب جيد مهما كان. أمّا هِرْموجينيس في حد ذاته، فتذكرتُ هكذا ليس إلا - كما لو أنه بالنسبة إليّ طفل صغير ماكر كثير التبول، يأتي أفعاله الماكرة؛ النملة الصغيرة، حين تمرُّ تحت قدم أحدنا

فنسحقها. كنتُ أصفقُ لساني. أتحمّك في ذاتي، أشدُّ أسناني. لكن هو - اللعين - ما الذي كان ينتظر: ليظهر أمامي - أنا، الأقوى منه؛ أقوى من خوفي منه هو - وليقبل الأرض، ويطيع الأوامر؟ استجمعتُ أفكارِي. هل تشعر الأفعى بالحق قبل أن تلسع؟ ليس لديها وقت لذلك. الأفعى تضرب وانتهى الأمر. كنتُ هناك، أي أنني كنتُ أريد، كنتُ أستطيع، وكنتُ مُصرًّا. مثله هو تمامًا. نحن الاثنان، ودوامة هبة ريح - وشخير العاصفة من أقصى إلى أقصى طرف في العالم، دوران من هذه الدوامات التي تنشط، والقمع النهائي: ... الشيطان في الشارع، وسط الدوامة... آه، ضحكتُ؛ هو، لم يضحك. آه، أنا، أنا، أنا! - الرّب أم الشيطان - للجاغوثسو زيوبالدو! - بقدمين راسختين. كنتُ أنتظر، إيه! من هذا المُلخّص ومن العالم الواسع، بلغت القمم، وذلك الحزم الذي كان يغطيني: نَفْسُ نَفْسِ النَّفْسِ - من أعظم قوة، من أقوى شجاعة. تلك التي تأتي، مستخلصة تحت الطلب، من عمق ستين مرة ستين مسافة من أعماق ذاتنا. كيف حدث ذلك؟ لم أكن على علم، في فترة الأحداث العظيمة؛ هكذا، كنتُ أفزعُ أيّ طائر.

ضربتُ الأرض بقدمي، واندeshتُ لأنه لم تنزل ولا قطرة واحدة من أي شيء، وكان الوقت يمر سدى. إذن، ألم يكن يرغب في أن يوجد؟ فليوجد، فليأتني! فليظهر، من أجل نهاية هذا الأمر. كنتُ حقًا، سوف أقول لك: مُتَشَيِّبًا بذاتي. آه، هذه الحياة، مرة أو مرة أخرى، جميلة حدّ الفظاعة، بشكل مخيف، هذه الحياة عظيمة. ومرة أخرى، عضضتُ الهواء.

- إبليس! إبليس!... - صحتُ، مُتَجَشِّئًا.

لا. لا شيء. ما يحتويه الليلُ صرخةُ كائنٍ واحد - تبدأ مثل أصدقاء، طقطقات، مع نقيق الضفدع، وتذمره. وينتهي بأنين طائر صغير يقرقر بصوت مرتعش بعد أن يستيقظ بشكل سيء من نوم عميق.

- إبليس! الشيطان! ...

لا شيء، غير صمت آخر. أتعرف ما هو الصمت، يا سيدي؟ إنه نحن، بشكل مفرط.

- إيه، أيها الشيطان! يا إبليس جحيمي!

كان صوتي ينهار، وكان كل شيء في ذاتي حبالاً وأفاعي. وهناك. هناك أدركت أنه غير موجود، لا يظهر، ولا يُجيب - لم يكن غير زئف متخيل. لكنني كنت راضياً لأنه سمعني. سمعني، وفق علم الليل ومجال الفضاء، الذي يقبضه. وكما أنه قد سجل كل كلامي، فقد اعتبر الموضوع مطوياً. ومقابل ذلك تلقيتُ خفق أجنحة، ولذة ضغط و- فجأة - الهدوء. تذكرتُ نهراً قد يملأ بيت والدي. رأيتُ أجنحة، في تلك اللحظة القصيرة، فاندفعتُ بقواي. كنتُ ما أزال قادراً، قادراً على المزيد؟ كذب، أن أرغب في أدائه: هذه أمور لا تُقال. لا يمكننا أن نقبض عليها ولا أن نفهمها. يريق الليل هو الذي يتسع لها. نسيم مقدس. نجومٌ مُطلقة!

تأخرتُ كثيراً، جامداً في ذلك المكان الوقح. لكن، كأني كنتُ بأحشائي في الخارج، مفرغاً من دواخلي. - والليل الذي لا ينتهي! ... - هكذا، بقيتُ هناك، في الحقيقة، بسبب افتقاري إلى أدنى ذرة من الشجاعة لأبتعد: لم أستطع أن أركز على أي شيء. كم كانت الساعة؟ وذلك البرد الذي كان يشلني. لأنه كان لا بد أن يكون الليل هو جسد أُمي - لا يتكلم، مستعداً ليلد، أم أنه، حين يتكلم، لا نسمع ما يقوله؟ فقدتُ الإحساس. استمر ذلك ثقباً عميقاً من الزمن.

بعيداً، هناك عند المنحدر، كانت تلمعُ بيضاء تلك الأسرابُ من الهواء، تنزل رذاذاً، تسقط مطراً خفيفاً. وفوق المستنقعات، فيريداس موزتاس. رذاذُ

الصباح. وإجمالاً، ذهبتُ، عدتُ عبر طريق المدرسة. كنتُ أتجمّد من البرد، لكنني كنتُ شديد الظمأ في نفس الوقت. في عودتي، نزلت على طول أشجار البوريتي، هناك حيث كانت صفحة ماء. كان ضوء النجوم يشير إلى سطحها الصقيل. هناك كانت تأتي الغزلان والنمور لتشرب. انحنيتُ، وشربتُ، وشربتُ. ولم يكن الماء كما ينبغي أن يكون حين يشتد البرد: لم أحس بالدفع الذي ينبغي أن يكون عليه، إن كان الجو باردًا فعليًا. كان جسدي هو الذي يخرج منه ذلك البرد، برد قارس يأتي من الداخل، نحو الخارج، فيُصلّبني. لم يسبق لي مرة أن شعرت بوحشة برّدٍ مثل ذلك البرد. كأن ذلك الجليد، قطعة واحدة، لن يتركني أبدًا.

نزل الطلّ. شيئًا فشيئًا، صارت عزلة المكان تبدو واضحة، بينما راحت تتلاشى نجمة الصباح. تراجعت قضبان الليل. أسندتُ فمي على الأرض، وكنتُ قد أنهكتُ قواي جسدي. وقرب الماء، استفحل ذلك الخدر الناتج عن البرد. عانقتُ شجرةً، جذع شجرة بريو برانكو. ومن حولها، كان التأثير قد كسّر الأغصان وتبرّز. - هل أستطيع أن أختبئ من نفسي؟ ... - بقيت هناك، نعسانا. لا أعرف كم من الوقت. لم أسمع الأغاني التي تغردها الطيور الصغيرة مع طلوع النهار. رقدتُ هناك، خاملاً فوق الأرض، فوق الأوراق الساقطة، كأنّ الوطواط الضخم في ذلك المكان قد امتصّ دمي. ولم أنهض في الأخير إلّا بسبب الجوع. أذكر ذلك جيدًا، لمحت خلية نحل أبيض طبيعية، عند الجزء الأسفل من جذع شجرة، وكان عسلها يقطر فوق الأرض يثير الشهية، كأنه نبع، وسط الأوراق الخضراء واليابسة. وكان سينهرق، ويضيع. سيدي، يا سيدي - لا تطلب السماء قبل الأوان! أقول هذا، لا أقوله؟

التحقّت بالآخرين عندما كان جاكاري ينتهي من تحضير القهوة. - إنك ترتعش من البرد. هل أصابتك الحمى؟ - سألني أحدهم. - هذا ليس من

شأنك! - أجبته. ورغم أن شمسًا دافئة أشرقت، فقد ذهبتُ أبحث عن غطاء وسرير معلق. - لا شيء - في نهاية المطاف، لم يحدث لي أي شيء، وأردت أن أتخلص بأقصى سرعة من تلك الذكرى، من جنون تلك الليلة. أمضيتها بيضاء وكنتُ مرتعدا. وهناك، في تلك اللحظة، خطرت على بالي هذه الفكرة: إنَّ حياة الجاغونُسو لا معنى لها ولا هدف. كلما عشنا، كلما ازداد تفكيرُنا. الحلم، فقط، هذا لا. الشيطان هو شيطان التُّخوم، المتقشَّف، الصارم جدًا. آه، كفى! مع العلم أنني لن أحلم بعد، من الآن فصاعدًا، لن أحلم أبدًا. فقدتُ تلك الطريقة البسيطة التي كنتُ أستشرف بها أيامي وليالي. هل كان ذلك تحذيرًا؟ لأن الآجال بدأت تتحدَّد... وما كنتُ أقوم به هو أنني كنتُ أفكر من دون إرادتي، أفكر في المستجدات. كان كل شيء الآن يلمع بوضوح، يشغل فكري، ورحت أبتكر ذكرى ألف شيء متنوع مضى، أحداثًا منسية منذ زمن بعيد، وجدتُ لها علة أخرى: حتى دون أن يكون ذلك بمحض إرادتي. كنتُ أقوم بذلك دون أي جهد يذكر، وأفكر في تلك الأشياء، هكذا، دون توقف، طوال الوقت.

في البداية، أكيد أنني وجدتُ الأمر غريبًا. لكني، مع مرور الوقت، تعودت، فقبلت بذلك النظام شيئًا عاديًا، صحيحًا. فلاحظتُ أنني كنتُ أتوغلُّ، شيئًا فشيئًا، في فرحٍ حازم، مسرورًا بالوجود، لكن في قلقٍ. يجب أن أقول إنني لم أتسرع لأومن تمامًا بذلك الفرح، كأني أخشى أن أعود إلى الحزن المعتاد. آه، إنه لا يعود؛ لحدِّ الآن، إنه لم يكن يعود.

- إيه، تاتارانا، كيف تصمتُ وأنت كثير الكلام بطبعك؟ يا له من تحوّل... - سألوني؛ سألني الأريبي. ربما كانوا يسخرون مني.

كنتُ، بالفعل، قد بدأتُ أحكي بكثير من التفاصيل بعض الفترات من حياتي، ثم أصف، بعد ذلك، من باب التسلية، المنافع التي يمكن أن يجنيها

بعض حيتان الحكومة وتماسيحها من العمل على إنقاذ السَّرَتَاو من الإهمال. وأثناء ذلك الحديث، كنتُ أكرّر ما كان يقوله زي ببيلو في كثير من خطابه. لكنّ ما كنتُ أجتهد في القيام به هو أنّي كنتُ أقلد من أجل الضحك، بعض العرّات الصوتية لزي ببيلو. لكن الرفاق لم يفهموا قصدي. والدليل أنهم ما إن فهموا حتّى انفجروا ضاحكين. وكانوا يضحكون ملء شدوقهم، هذه المرة.

- كلام جميل، يا صديقي، أكيد... - قال الأريبي.

- صحيح، هذا صحيح، يا أخي... - قال آخر، رازغا إنبايشو، مُبالغاً.

لم أستحمل ذلك. هذا رازغا إنبايشو، برأسه المائل، الذي يفسد كثيراً من الهواء وهو يتنفس ثلاث مرات أكثر مما يجب، يلوي أنفه ويشخر. نظرتُ إليه بازدراء، وبحثتُ عن شجارٍ معه.

- أكيد ماذا في هذه الحياة؟ الأكيد هو أنني أحترز كي لا أنعت أيا كان بابن هذه أو تلك، مخافة أن يكون ذلك هو الحقيقة بالفعل...

هذا ما قلتُ لهم. ولما رأيتهُم يضحكون على ذلك الشكل، ويستمتعون بالاستماع إليّ، حكيتُ لهم مغامرة ذلك الشاب، من قرية آياس، غير بعيد من فيريدا دا ألدنيا، الذي جنّ شيئاً فشيئاً: لأنه رفض أن ينام، بسبب خوفٍ ألمّ به من أنه قد لا يعرف في ليلة أو أخرى كيف يستيقظ من نومه من جديد، فظلّ سجيناً داخل نومه.

وكانت تخطر عليّ كثير من هذه التخيلات. كانت مثل الإلهام الذي ينزل فجأة، فقلتُ ما كنّا بحاجة إليه.

- يجب أن نبعث حالاً رسولاً منا إلى أقرب صيدلية، ليطلب ويشتري الدواء المناسب، الذي يوجد، كي نقضي على الملاريا، بشكل نهائي!

قلتُ ذلك، فوافق الجميع. زي ببيلو، أيضًا، وافق على الفور. وذهب الرسول.

كنتُ مشمئزًا من كل ذلك الخمول. تحدثت مع زي ببيلو.

- أيها القائد، هذا ما ينبغي القيام به: أرسل رفيقا شاطرا منا، يتدبر أمره ويندس في صفوف جماعة الخائنن، يراقب كيف تجري الأمور ويترك لنا عن ذلك إشارات في الأماكن المناسبة. بل يمكنه أن يجد طريقة ليُصَفِّي هِرموجينيس بيديه - بأن يدس له السم في الطعام أو الشراب، مثلاً...

- هذه حماقة، يا تاتارانا، ما تقترحه هنا!... - أجابني زي ببيلو.

- الحماقة - هي الفكرة التي لا تفيد. ولا تكون الفكرة حماقة إلا بعد أن يتبين أنها لم تكن مفيدة! - قاطعته؛ لأنني وجدت أن زي ببيلو هذا المرة كان دون المستوى؛ ولأنه جواب أحدهم على ما قلته للتو كان أمرًا يثير غضبي.

استغرق زي ببيلو وقتًا طويلًا ليردّ عليّ. وأخيرًا، قال:

- رجلٌ يستطيع القيام بملحمة من هذا الحجم، لا أرى حقًا...

- ما تبحث عنه الشمس هو طرف الحديد - قاطعته، دون أن أفكر مليًا فيما أقول. أثناء ذلك، أتمّ زي ببيلو قوله:

-... فقط أنا... أو أنت، يا تاتارانا. لكننا موسومان بحديدٍ ساخن مثل رؤوس الماشية.

لكن، هنا، أوضح أنه يفهمني، فختم قوله:

- زيوبالدو، أنت رجل ذو شجاعة فريدة...

كان اعترافًا صادقًا، هذا ما أحسستُ به. لأنه الآن صار من مصلحة الجميع أن يكون صادقًا في حضوري. فقط في عيون الناس كنتُ أبحث عن عذوبتهم؛ فقط في أعماق عيونهم.

كان جوزيه فيريدا يدخن الغليون، جالسًا بالقرب من أغراضه. كان بلَسْمًاو بالقرب منه. وكان هذا الأخير ذا عادات فظّة، رجلًا ذا مزاج متجهّم. أصبحتا صديقَيْن في الآونة الأخيرة، لأنهما يتحدّران من نفس الوطن - كلاهما من السهول. سيطرت عليّ رغبةٌ خبيثة لأقول لهما شيئًا، فقلتُ: - هل لديكما من موضوع تتحدثان عنه؟ من وُلد مُلتويًا، مات بعييه... كونا حذرَيْن، إن كان لأحدكما امرأة جميلة في البيت، فحين يعود إلى البيت... - وكان ذلك كافيًا ليشعل فتيل شجار. هل كنتُ أبحث عن شجار؟ إنني أحرص على أن تعلّم ذلك: لم يكن ذلك، ولم يكن قطُّ من عاداتي. كل ما في الأمر أنني بدأت أجد متعة كبيرة في مثل هذه الوقاحات والتصرفات غير اللائقة. وعندما كان البعض، يوم الأحد، يريد أن يذهب ليصلي، لم يكن هناك من شيء يمنعني أن أقول: - الصلاة هي بداية الصوم... - من كان هذا الأمر يُضحكهم، يضحكون. فيتخلون عن تقواهم الكنسيّة. وبالتفكير مليًا، ما الذي كان يمثله ذلك بالنسبة إليّ؟ أينما حشرتُ أنفي، كنتُ أجد ما أقوله وأكرّر القول.

ومن هنا اندهشَ ذِيادوريمُ نفسه من تصرّفاي الغريبة. جعلني أفهم ذلك، لكنني رفضتُ، لم أزنْ كلامي: كأني سأسمح أن يُناقضوني أو أن يقدموا لي نصائح. كنتُ عنيدًا بكل صرامة. لكن ذِيادوريمُ ألحَّ بعينه الكبريتين الواسعتين دون تحفُّظ، فاستسلمت لحظةً إلى هذا السّحر - فيما يشبه هيا- تعال-يا-حبّي. هذا هو الحبُّ - الفأر الذي يخرج من جحر صغير: جردُّ ضخم، نمرٌ أسد!

أؤكد أنني لم أشعر بأي خجل. ألا يشعر المرء بالخجل بوصفه رجلًا، هذا أمر سهل: الأحسن والأصعب من ذلك هو أن نقدر على ألا نشعر بالخجل على طريقة الدواب والحيوانات. ما لا أقوله، سوف تراه، يا سيدي: كيف

يمكن لذيادوريم أن يكون أكبر سرّ في حياتي؟ في نفس الصباح، من ذلك اليوم تحديداً، تحدثنا، فقال لي:

- زيوبالدو، كان بودّي أن تولدَ قريباً من أقربائي...

كان هذا مصدر سعادة، كان هذا مصدر حزن. قريب من أقربائه؟ شيء كان يعني أن أرغب في اليقين من اللّايقين. فالقريب لا يُختار - إنه مُقدَّر. لكن الشجرة تفتح كثيراً ذراعها لأنها حبيسة قَدَر الجذور. كان ذيادوريم ينتمي إلى قَدَرٍ مختلف. لقد ذهبْتُ واخترتُ لنفسي حُبّاً، حُبّاً أوتاسيليا. أوتاسيليا - حين كنتُ أفكر فيها كأني تماماً أكتب رسالة. أما ذيادوريم، هل تعرف كيف يجري النهر المتوحش؟ من بعيد جداً، دون هواة، يدحرج أذرعه المائية، من جهة إلى أخرى، هارباً، عبر السُّرُتاو. وقد قال نفسه مرة: - نحن، أنت وأنا، يا زيوبالدو، نحن الاثنان... لماذا يجب أن يكون فراقنا قوياً جداً؟... - كان ذلك ثقيلاً للغاية. لكن ذيادوريم كان يفكر في الحبّ، لكن ذيادوريم كان يشعر بالحق. كان هناك اسمٌ يحوم: جوكا راميرو - جوزيه أوتافيو راميرو بيتانكور مارتينس، القائد، والدّه؟ مهمةٌ حقّ. حسب علمي. لم أكبت هذه السّهام المريرة، وأنا أذكره:

- ذلك، في هذه الساعة، لا بد أنه يتسكع في مكان ما بين أورو كويّا وباردو... هرّموجينيس...

صار وجهه من رماد. ارتعش، مع تينك النقطتين الصغيرتين، وسط عينيه تماماً. فرأيتُ مرة أخرى ريّنالدو، الذي كان يحارب بلطف وفضاعة، قويا في المعارك. ذيادوريم، كان ذا هيئة أنثوية، لكنه دائماً مثل الشيطان نفسه، وكذلك كنتُ سعيداً برؤيته في تلك اللحظة. تماماً كما كان: الرجل الوحيد الذي تومض شجاعته أبداً؛ وهو الذي كنتُ، لهذا السبب، أحسده أحياناً على هذه الشجاعة كلها. وكانت شجاعة من حديد وصلب.

وفي زخمٍ جديد، دفعتني الحاجة إلى أن أخبر الرفاق بكل الأخطاء التي يؤدون ثمنها، لأنه، مؤخرًا، وبفضل براعتي، انتبهتُ إليها. تحدثت عن ذلك أيضًا بأدبٍ مع زي ببيلو، فسمع مني ما يلي:

- دون قصد الإهانة أو الإساءة للسمعة، أيها القائد، أشك فيما إذا كان أمرًا جيدًا أن نبقى جميعًا هنا، نشترى دواء هذه الأمراض. أليس من المنطقي أن نكون قد أرسلنا نصف دزينة من الرجال الأقوياء، ليذهبوا ويبحثوا عن الذخيرة حيث توجد، في فيرجين ماى، كي يأتوا بها؟ ستكون الذخيرة هنا، وسنكون أكثر أمانًا...

متضايقًا، حرّك زي ببيلو ذقنه، مع حركات خفيفة من رأسه. بعد ذلك، بسرعة شرح لي السبب الرئيس، بصوت خفيض. لأنه كان يعرف كل شيء مسبقًا: فقال لي إننا تُهَنَّا في الطريق بشكل تام؛ أخذنا طريقًا خطأ، ولم يكن هو الطريق نحو فيرجين ماى، بل الطريق إلى فيرجين دا لاجي. استمعتُ إليه. إنَّ خبرًا كهذا، في ظروف مختلفة، كان بوسعه أن يزعجني. لكنني وجدتُ ذلك مسليًا، في تلك المناسبة. أشرح لك، يا سيدي: من الآن فصاعدًا، كل ما سيحدث سيكون جديدًا ومفيدًا في خلق مزيدٍ من الحركة. بهذه الخفة كنتُ أعيش حياتي.

وحينئذ جمعوا كلّ الحيوانات؛ حشدوا كل الخيول. كان الصباح يطلع هادئًا، والشمس في أعالي السماء، بينما الخيول تدور بشكل جميل - استعراض كبير يثير الغبار، نظرا للضجة التي تحدثها الحوافر العديدة. هل أثرتُ بلبله؟ أعترفُ بما حدث: كانت خائفةً مني أنا. ما إن رأيتني أقترَب، حتى جفلت كل الخيول. الحصان، ماذا يعرف؟ كانت بعض الخيول تصهل من الفزع: والحصان دائمًا يصهل ويبالغ في ذلك. تلك النبرة الحادة مثل ضحكة صغيرة، كأنها لا تستطيع أن تهرب بعيدًا، وكانت كثيرٌ منها تتصبَّب عرقًا،

تربّد، ترتعش بكل أطرافها، تُبرّزُ آذانها. وظلت الخيول على ذلك الحال، إلّا أنها خففت من حدتها وأصبحت تطيع، فاجتاحني غضبٌ مفاجئ، وقفزتُ وسطها: - بعل زبوب! هدوء! يا جماعة الأغبياء! - صحت. فهمتني الخيول. مرّرت يدي على ظهر واحد منها، كان قد نحف بشكل واضح، فأدخل رأسه وخفضه، ثم رفع لبدته، وتنفّسه الأَجَشُّ لا يتوقّف.

لاحظتُ أن الرفاق قد انتبهوا إلى غرابة كل ذلك، إلى تصرّفي وإلى تصرّفات الخيول. إلّا أنهم كانوا يضحكون، على طريقة الجاغونّسو، التي تنطوي على كثير من اللامبالاة. - بعل زبوب! - أيها الناس، كأن ثقتي تأتي من الظلمات! وكنتُ ثابتًا هناك، وسط الخيول، التي هدأت من روعها وقبلت حضوري. - هل أصبحت مروّض خيول؟ - قال لي راغازيو متهمكًا. لكنني استدرتُ، إذ كانت تُسمع أصوات حوافر خيل أخرى: كان السيد هاباؤ عائدًا. يصل، راکضًا، رفقة ثلاثة رجال آخرين - من الناس البسطاء الذي يشتغلون كثيرًا. وجاءت دابته، حصانه الأشقر الجميل، وتوقف أمامي تحديقًا. وما إنُ ترَجَّل السيد هاباؤ وقفز إلى الأرض، حتى احتاج الحصان: طوى ساقيه وكنس الأرض بذيله؛ المطول، حُرًّا في يد صاحبه، ساطعًا عاليًا في الهواء. - بعل زبوب! - صحت. فرفع الحصان الجميل، الجميل، ساقيه نحو الأمام ودفع جسده نحو الخلف، كأنه أنثى نمرٍ تطلبُ السِّفاد. كان يطيعني. وهذا الأمر، أقسم لك يا سيدي، كان حقيقيًا.

هناك أمامي، أدار السيد هاباؤ عينيه. احمرّ لونه. لكنني أعتقد أن الرجال المهتمين فقط بشؤون البيع والربح هم أحيانًا أول من ينتبهون إلى جوهر الأشياء، بخفّة أكثر دقة. لم يتلعثم، بل قال لي:

- إذا أعجبك هذا الحصان... إذا أعجبك هذا الحصان... وهبتك إياه، أهديه لك بكل محبةٍ وسرور: كما هو، أيها الشاب، إنه لك...

هل صدَّقْتُهُ؟ أؤكد لك ذلك: لم ينبض قلبي بأدنى شك. شكرته بكل حرارة؛ وأخذتُ طرف المطول. ومنذ تلك الساعة، صار حصاني العظيم، ببقعه وخطوطه. - كان يطاء الأرض بحزم، وكأنه يشغل فضاء واسعاً! بل إنني لمست وجهه بكل حنان، ومررت يدي على عنقه. كان دابّتي، ملكي، مسرّجاً بتلك الطريقة: سرج خفيف جيد، ومهمازان مشدودان عند موضع القدم. لكن، بعد مرور تلك اللحظة، سرعان ما تساءلت: ما السبب الذي جعل السيد هاباؤ فجأة ينعم عليّ بهدية بهذه الأهمية، وأنا لست قريباً من أقربائه ولا صديقاً من أصدقائه، وهو لا يدين لي بأي شيء، بل يكاد لا يعرفني؟ أي مشاريع كانت تدور في خلده، وأي قُدراتٍ لمسها في شخصي؟ حسناً، ليكن. هل كان خائفاً مني؟ إعجابٌ كل الرفاق، أدركته من خلال الهمهمات من حولي. أكيد أنهم كانوا يحسدونني على ذلك. ليكن! دعهم يحسدونني!... إنَّ أول شيء يجب أن يتعلمه المرء وهو يكبر في هذه الحياة، أن يبقى ثابتاً أمام حسد الآخرين... تحكّمتُ في نفسي، صرْتُ قاسياً. بسبب ذلك الحصان، تقريباً، ازدادت سمعتي، وكنتُ أعرف ذلك. لم يسخروا مني.

- يا له من حيوان! كبير، قوي، جميل المنظر...

- هذا هو الحظ. أن نحصل على ما نستحق...

- أمر جيد أنه وقع بين أيادي مناسبة...

هذا كل ما قالوه. كنتُ أخفي سروري. ما قلته فوراً كان الأفكار الكبيرة التي كنتُ أحلمُ بها - كم كنتُ دائماً أرغب في عُدّة حصانٍ كهذه، في ذلك السّرج، سرج على طريقة الغاوشو^(١)، بصدر من الفضة على شكل نصف قمر، ومهمازين تزينهما صفائح معدنية جميلة.

(١) رُعاة البقر في البرازيل وبلدان أخرى من أمريكا الجنوبية، خاصة في الأرجنتين والأوروغواي.
(المترجم)

- إذن، حسب ما سمعتُ، يا تاتارانا: أحقًا سوف تطلق عليه اسم بعل زبوب؟ - سألني أحدهم ساخرًا.

- إيه، أيها الرفيق الخبيث! اهتم بشؤونك الخاصة. إنَّ الاسم الذي سأطلقه عليه، من الآن فصاعدًا - ومن أراد أن يعرف ذلك، فليعرف! - هو: الحصانُ سيزويز - هكذا أجبته، دون أن أمنح نفسي وقتًا لأفكر في ذلك. ثم امتطيتُ الحصان.

آه، إن الأشياء المؤثرة في الحياة تحدث مخادعةً، مكرّةً. ذلك أن زي ببيلو كان يصل؛ وهُنا، في رمشة عين، أدركتُ شيئًا لم يخطر على بالي. هذا الأمر: تقديمُ وأخذ هدايا من هذا الحجم، في مثل هذه الظروف، كان إهانةً كبيرة لزي ببيلو. فهديةٌ بهذه الروعة ينبغي أن تكون من نصيب القائد. هناك، أدركتُ ذلك. لكنني لم أترجّل. بقيت راكبًا. وهو ما يعني أنه، في تلك اللحظة، وفق منظوري، كنتُ أنظر إلى زي ببيلو بنوع من الازدراء. وليقع ما يقع، لم يكن ذلك يهمني. أيّ قائدٍ من قادة الجاغونُسو يجب أن يتحلّى بالقدرة على مواجهة تلك الضربة من القدر. انتظرتُ. وماذا لو كان قصد السيد هاباؤ من هديته هو إشعال نار الفتنة بيننا؟ فكّرتُ في ذلك لحظة. فكّرتُ وتفكيرِي منشغل بسلاحي.

لكن زي ببيلو، الذي علم للتو بما وقع، اكتفى بالنظر إليّ، مع ضحكة بسيطة:

- تبدو أنيقًا، أيها المعلّم، وأنت على صهوة هذا الحصان الجميل. كل ما تتمنى هو أن نراك جميلًا، تخوضُ معارك رائعة... يوم يحين الوقت!... - هذا ما قاله لي، رغم أن ذلك لم يرق له في نظري. وكان ذلك ماءً يروي عطشي. آه، في الحقيقة، الذكاء، الذكاء فقط، هذا ما كان هذا الرجل. ترجّلتُ.

بالحدسِ تقريبًا، اهتديتُ إلى الحلِّ، وسلّمت زمام الحصانِ إلى فافافا.
- إنزع السّرج عن الفرس، اغسله ونظّفه ثم اعطه حصّة من الذرة، اغتنِ به... - قلتُ، وفعلتُ ذلك لأنّ فافافا، الذي يحب الخيول كثيرًا، كان دائمًا على استعدادٍ ليهتمّ بأي حيوان، حتى إن لم يكن ملكه. لكنني أعطيته أمرًا. وهكذا، استعدتُ وضعي. كان السيد هاباو قد جلب بدوره كمية كبيرة من أدوية ضدّ الملاريا، وكانت أقراصًا من أشدّ ما يوجد مرارّةً. كان الجميع يتناولونها.

ابتعدتُ بضعة خطوات. أدرتُ ظهري لزي ببيلو. كان بوسعه أن يعتدي عليّ ويقتلني، يطلق عليّ النار من الخلف... - تخمّنت. توقفت عن المشي، وبقيتُ كذلك بدون حركة، لا أتحرك قيد أنملة. ودون أدنى شعور بالخوف: كنتُ حرا، رائعا، واثقا من نفسي: من ذا الذي سيتجرأ ويطلق عليّ النار؟ جرأتهم جميعًا لا يمكن إلّا أن تخبو، وتضعف قواهم؛ يمكنني أن أدير ظهري لهم جميعًا. هذا ما قال لي إبليس - الشيطان - هل كان ذلك هو كل ما قال لي؟ رفعتُ بصري: كانت أيادي زرقاء قد حملت الغيوم بعيدًا من السماء. هذه القوة الهادئة؛ بقيتُ كذلك، لبضع الوقت، مُشتعلًا. خفيًا، خفيًا أستطيع أن أجري حول العالم بكامله. إنني، فقط أحكي لك، يا سيدي، كيف كان يوم طبيعي جدًّا. وهل كان من الممكن أن أنسى أشياء مصيرية كهذه؟ وكان ذلك اليوم عشية يوم آخر.

بعد ذلك، تناول السيد هاباو العشاء معنا. وزّع رايموندو أقراص العلاج على من كانوا بحاجة إليها. كان صديقي ذبادوريم وديا. أخذني زي ببيلو جانبًا، ليشرح لي بالتفصيل عدة أشياء كان يريد أن يغيّرها. تحدّث الألابيّ معي بعض الوقت. وأحرصُ، يا سيدي، على أن أخبرك بفحوى هذا الحديث. لأنني كنتُ أريد أن أعرف، فدفعتُ بالحديث، وكان هناك

كلام كثير عن تلك الصلوات التي تنقذ الشخص من رصاصة قاتلة، وعن الأعمال السحرية التي تجعل الجسد حصناً منيعاً. فحكى لي الأريبي عن حادث وقع، منذ وقت طويل، في منعطف من منعطفات السّرتاؤ. وكان ذلك كما يلي.

ذات يوم، كان المدعو جوزيه ميزوزو، يُعلّم الشاب إيتلفينيئو، مقابل أربعين ألف ريال، الوصفة السحرية التي تجعل العدو يخطئ بكل تأكيد الطلقة التي يوجهها لنا، فقدّم له هذه الوصية: - الشيء الوحيد الضروري هو رباطة الجأش النابعة من الإيمان - لهذا، في اللحظة الحاسمة، يجب النظر إلى الآخر في وجهه، والتفكير في هذه الصيحة، فقط: ستخطئ هذه الطلقة، ستخطئ، تخرج الرصاصة وتتحرف، لا تصيبي، تخطئ، تخطئ، تخطئ، يا ابن الكلبة! ... - هذا ما علّمه ميزوزو للشاب إيتلفينيئو. لكن، هنا، استاء الشاب وقال: - إيه، إيه، هذا فقط، فقط هذا الشيء القليل، كنتُ أعرفه من قبل، من دون أن يعلمه لي أحد - ونقّذته كذلك عدة مرات... - فسأله ميزوزو غير مصدّق: - وهل قمت بذلك هكذا تماماً، طبقاً لما حدّدتُ؟ - فأجابه ميزوزو: بكل دقة، تماماً. إلّا أنه في النهاية، كانت الشتيمة التي فكرتُ فيها هي: ابن العاهرة! ... - فقاطعه جوزيه ميزوزو: في هذه الحالة، يكفي أن تدفع لي عشرين ألف ريال...

ضحكنا جميعاً ضحكا كثيراً. كانت أوقات فرح وسعادة غامرة. مزحنا، شربنا، وأنشد أحدهم أغنية القديس سيباستياؤ. ثم حلّت أمواج الليل، وديعة، أموميّة. نمّت ووجهي نحو القمر.

استيقظت. كان الفجر مع ضوء القمر، أذكر. استيقظت بسبب الضجيج الذي أثاره الفرسان الذين وصلوا على متن خيول تُهملج، ثم توقفوا فجأة، حين ارتعشت الخيول: بررررر، بررررررر. قدّرتُ: حوالي عشرة. هذا ما

كانوا. نهضتُ، قفزتُ من سريري المعلق، من يكونون؟ كان كل الرفاق يضعون أياديهم على البنادق، ولم أسمع الحراس يقولون «من هناك؟». فجرّ واضح مضىء. ضوء قمرٍ لا نراه سوى في السّرتاؤ. وأنا منه.

- إنه صديقنا جَواؤ غَوانيا ورجاله... - قال ذِيادوريمُ، الذي كان سريره المعلق على بعد خطوات قليلة من سريري. نعم، كانوا هم جَواؤ غَوانيا، باسبي، ذروموؤ، عرّابي سيريل، بوباديلّا، وإيزيدورو... أن نلتقي من جديد برفاق من هذه الطينة، هذا ما كان يمنح معنى للحياة، يمدّدها ويقصّرها. جَواؤ غَوانيا، بدين، قوي البنية، طويل اللحية. كانت لحيته كثة، قائمة. وصل مع ضوء القمر، فألّ حسن. كان الجميع يتحدثون أو يتعاقنون. وسرعان ما أشعلنا النار لتحضير القهوة، وإعداد عشاء مرتجل. أثناء ذلك، كان زي ببيلو واقفا، بأكبر قدر ممكن، يطلب الأخبار وي طرح ألف سؤالٍ وسؤال.

أولا، الأخبار الحقيقية، أخبار الأشياء العادية، تمامًا كما وقعت. ماذا أعرفُ أيضًا؟ لم تكن لديّ فكرة واضحة في ذهني، لأنني بالكاد خرجتُ من نومي. كان ذِيادوريمُ هو أكثرنا تعبيرًا عن الفرح: لا يفعل ذلك إلا حين يشربُ. ذِيادوريمُ، يا حُبي - ضع قدمك فوق الشمع الأبيض، وسأقتفي زهرةَ خطواتك. أتذكّر أنني تأكدت من الرصاص في مسدّسي. كنتُ أريد كثيرًا من الحركة، أوقاتا جديدة. تمامًا مثل الأنهار التي لا تنام. إن النهر لا يرغب في الذهاب إلى أيّ مكان، كل ما يريد هو أن يستطيع أن يصبح أكبر قوة، أكثر عمقًا. أورو كويّا نهرٌ، نهرٌ في الجبال. يستقبل مياه الجداول، أخضر بأخضر، ويمتصّ المستنقعات، والبساتين، وواحات أشجار البوريتي. يجمع الرمال وينثرها. هل عشتُ سجينًا لأصبح حُرًّا؟ بركة ماء تطفئ ظمأي، ونخلة واحدة تصنع بيتي. ذلك البيت الذي بنيتُه صغيرٌ جدًّا - أيها الناس! - حتى يعمه الهدوء. ونهر أورو كويّا من حوله، الأراضي العليا. هذه

الأشجار، تلك الأشجار. تكلم، يا زي ببيلو، تكلم مع طيور البط التي تحضن بيوضها وسط النباتات المتسلقة والقصب. حتى عندما تحين ساعة موتي، أعرف أن أورو كويًا سيبقى إلى الأبد، إنه يجري. ما كنت، ما كنت. وتلك الهضاب - هضابته. هضبة أنطونيو بيريرا، هضبة أرنيادوس، هضبة كوتو، هضبة أرنيغادو. الرجل داكن تحت ضوء القمر - شظية سوداء. في ذاتي، يكبر نوم، وخارج ذاتي أرى حلمًا - رأيت حلمًا. نهاية المجاعات. إيه، أي ماء يطفى ظمأي. مشيت مستقيماً نحو الأمام. وهنا، أيها الناس، خطوت خطوة أخرى: صار كل شيء ممكناً الآن.

لم يكن ذلك عن قصد، لا تظن ذلك، يا سيدي. لم يندهشوا. لم أتعجب، لم أرفع صوتي؛ فقط قلت:

- والآن، من القائد هنا؟

سألت فقط. هل أعرف لماذا؟ فقط لأعرف، وربما، من يدري، من فرط هوسي الأخير، بأن أتميز من خلال حماقات غريبة، من باب العجرفة. لم يكن قصدي بأي حال من الأحوال أن أواجه أيًا كان. بل كنت أشعر بشيء من الكسل. الحقيقة، رغم ذلك، هو أنه كان لا بد أن يكون أحد ما هو القائد. زي ببيلو أو جواو غوانيا. تفحص كل واحد منهما الآخر.

- والآن، من القائد؟

هل كنت الوحيد الذي لم يتفاجأ بالأمر؟ زي ببيلو - المفكر المتعجرف، واثق من فعله. جواو غوانيا - رجل فظ وبسيط، جاء من الضفة الأخرى للنهر، رغم المسافات والصعوبات، ليكون معنا وفق قوانيننا، كأنه يتبع عادة ضرورية من عاداته، ولا يمكنه أن يشعر بالانتهاء من دورها. وضعت الوضع تحت مراقبتي.

- من القائد؟ - كررت.

نظرا إليّ. كانا لا يعرفان ولا يجدان كيف يردّان على السؤال: لأنه لم يكن أي منهما هو القائد. هل كان زي ببيلو لا يزال قائداً؟ صار وجهه رمادياً. أما جواو غوانيا، هذا المعلم الهادئ، فرأيتُه يتحرك، يحمّرُ شاحباً، تحت أنظاري - لم يبق فيه غير العظام: كان كل شيء فيه ينكمش - الحركة، الكلام، النظر، الحضور. لا أحد منهما. وأنا - كنتُ أعرف أقل منهما - بها أن القائد صار الآن: أنا. كنتُ أنا القائد! نظرا إليّ!

- من هو ...

وراحت الجماعة الآن بكاملها، كل الرفاق، يشكلون دائرة. كنتُ أنا سيد الوضع. ألم يفهموني؟ وهنا بدأ بعض الرجال يتذمّرون. وكان أولهم هو رازغا إنبايشو، لأنه كان، على ما يبدو، عدوّي الخفي - حمل يده إلى سلاحه ... فلمع السكين، صاخبا، حاقدا ... فتكلّم مسدّسي ولم تخطئ الرصاصة وجهتها. انهار رازغا إنبايشو مثل كتلة، وسرعان ما صار من دون حركة، ولا روح في جسده. وحينئذ، تمايل أخوه جوزيه فيليكس، وسقط جانبا؛ كنتُ قد أطلقت رصاصة أخرى ...

... من القائد؟! ...

ظلّوا كلهم هادئين، جامدين، واجمين أمام تلك الصدمة. لكن، كان اسمي هو تاتارانا! وديادوريم، مثل نمّر، متوترا أكثر من أيّ أحد آخر، قفز إلى جانبي، مثيرا أكبر خوف في نفوسهم. كان رائعا. فهموا، شعروا، أكيد أنهم فهموا من خلال هيئتنا نحن الاثنين؛ ولأن ألابريي، أكاوّا، فافافا، سيدورينو، عرابي سيريل، وباكاما دي بريزاس كانوا قد انضموا إلينا. يجب أن أتحمل القيادة - كنتُ أقول مع نفسي، كنتُ أريد. كنتُ أشرط ذلك. نعم. ابتسم لي جواو غوانيا. هزّ زي ببيلو كتفيه.

هذه المرة، آن الأوان. وتوجّهت مباشرة نحو زي ببيلو، حياة أمام حياة معه. لم يكن زي ببيلو يعرف الخوف. إذن، سيكون هناك دمّ أو دماء، إلى آخر ذلك مما قد يقع. لم أكن أطيع كثيرًا من الكلام.
- من هو القائد؟ - سألتُه.

ألححتُ على الأمر، بكثير من الهدوء. أخذ زي ببيلو كل وقته. وأنا، ودي، هادئ. انتبهتُ إلى أنه كان يتأخر ويفكر ليرى ما يفعل بكلّ هدوء.
- من هو؟ - ألححتُ عليه بكلّ هدوء.

كنتُ أسمع أنفاسهم. لو استمر ذلك لحظة أخرى كنتُ سأتحلّى عن الأمر، من فرط التعب، ولأنني كنت قد بدأت أن أضجر بقوة. فتملّكتني رغبة طفولية في التمويه: - سيّد زي ببيلو، أيها الصديق، لو سمحت... - ثم سكّنتُ. انكمش زي ببيلو قليلًا، فقط. ثم، دون أن يرتعش، ظلّت عيناه ثابتتين.

- أنت يا رُيوبالدو! أنت القائد! - وستظل القائد! هذا هو المناسب... - قال هذه الكلمات القليلة، عاليًا، وبنفس النبرة الاحتفالية، نافخًا فيها شيئًا من الحماس. لكنني، خشيتُ عليه أن يبيكي. أعني أنني لم ألح على وجه رجل من الجاغونُسو كل هذا الحزن.

- أما أنتم، أيها الرفاق... - قلتُ متوجها إلى الجماعة من حولي.

كل أولئك الرجال، ذلك الحشد، بينادقهم، وتقبلوني. وافقوا. القائد رُيوبالدو. وافقوا مُطلقين صيحات عالية. ومن جديد، كانوا يلتزمون. يؤيدون تلك النتائج. وكانوا يفعلون ذلك بكل وقار وصدق. كل شيء في سلام. باستثناء ذينك الشقيقين اللعينين، اللذين قُتلا بالرصاص، دون نقاش. كان دفنهما يعني قلة احترام لشخصي. آمين. وُهبْتُ كل شيء. لاحظُ

جيدًا، يا سيدي، يا سيدي: إننا نحكي الحقيقة الآنية لحدث ما بكل تفصيل، ولا أحد يصدقنا. يعتقد الناس أنك تحكي شيئًا زائفًا. الآن، أنا أعرف كيف يحدث كل شيء. إن الأشياء تقع لأنها كانت مهينة من قبل، في فضاء آخر، كأنها في جذر الظفر؛ وحين تقع بالفعل، في لحظة عادية جدًا، تكون مجّانية. هكذا. هكذا، أصبحت قائدا. هكذا، تمامًا، أقسم لك أنه هذا الأمر وقع هكذا. لكن آخرين يحكونه بطريقة مختلفة.

في النهاية، عندما وافق عليّ جواو غوانيا، رأيت الأمور مرة أخرى من وجهة نظر زي بيبيلو. أردت أن أتفاهم معه.

- وأنت، الآن... - بدأت قولي.

- لا، يا زيو بالدو... - قاطعني - يجب أن أبتعد، وأرحل. لا أعرف كيف أكون أنا الثالث، ولا حتى الثاني. سمعتي بوصفي رجلًا من الجاغونسو وصلت إلى نهايتها... -

وهنا ضحك وقال، بأدب فوق ذلك:

- ولكن أنت الرجل الآخر، سوف تجعل السّرتاؤ رأسًا على عقب... أنت فظيع، ثعبان أبيض حقيقي...

كان النعت الذي وصفني به اسمًا، اسمًا جديدًا أطلقه عليّ، وكان هو اسمي. سمعه الجميع، فانفجروا ضاحكين. وفي نفس الوقت، هتفوا بحماسي:

- الثعبان الأبيض! إيه، الثعبان الأبيض!...

هكذا، كانوا متفهمين جدًا، رغم فظاظتهم. ما دام أنه لم يعد ممكنًا الآن أن يأتوا وينادوني زيو بالدو، أو بذلك اللقب، تاتارانا. هذا ما بدا لي. ما كان يبدو لي.

حسنًا، أنا الذي كنتُ قد تخيلتُ، في لحظة عابرة، أنه، من أجل راحة أكبر

لمستقبل حُكمي، كان عليّ أن أقتل زي ببيلو، شعرتُ بالحزن تقريبًا وأنا أراه يرحل. الأمر المسلي ربما كان هو أن آخذ معي زي ببيلو، بوصفه ملازما ثانيا، عبر كل ما ينتظرنا. آه، رجل كهذا، لا نقتله. رجل كهذا لم يولد ليطيع الأوامر. أمرتُ بأن يزودوه بحصانٍ إضافي، وبغل لحمل الأثقال - مع ما يلزمه من مؤونة، وأحسن ذخيرة. وبعد ساعة، انطلق دون انتظار. سار نحو الجنوب. رأيت أنه ودّع وانصرف - يحظى باحترام من الجميع؛ فتذكرتُ تلك المرّة التي ذهب فيها لوحده إلى غويّاس، مطرودًا بقرار من المحكمة، في هذا السّرّتاؤ. هل كان كل شيء يتكرّر؟ لكن الحكم، هذه المرة، كان من فعله هو، كان زي ببيلو نفسه هو من أصدره ونشره. وعليه، فقط كان يرحل. من الآن فصاعدًا، حان الوقت ليكون حيوانًا حُرًّا يبدأ حياته من جديد.

بعد ذلك، بقيتُ متوقّفًا، ألتقط أنفاسي. ألاحظ كيف كان رجالي يطيعون أوامري، وينهمكون في العمل قبل الأوان. كيف كانوا يركضون ويتحركون استعدادًا للخروج، ينفضون في الهواء أغطية السروج، ويسرجون الخيول. كانوا كثيرًا، وكنتُ أعرف اسم وعيب كلّ واحدٍ من هؤلاء الرجال، وذراع وبندقية وشجاعة كلّ منهم. صرتُ أنا من يسوسهم. صرتُ حُرًّا، نظيفًا من ماضيّ الحزين. القرارات بيدي. أشارَ ذلك إلى أن كلّ أراضي جيراييس هذه قد سلّمت لي، وصارت ملكي. زادتِ الأخطارُ التي قد أواجهها لاحقًا من نشوة سعادتي. في الحقيقة، عندما كنتُ أمرُ بشيء فلا بدّ له أن يُنجز. - قرّرتُ أن! - ثم قفزتُ من فوق السرج وأنا واثق تمامًا من نفسي. كان علينا أن نغادر، كما ينبغي، دون انتظار. أخذتُ الطريق. لم أنظر ورائي. هل كان الآخرون يتبعونني؟ كانت القبّة تغرد. أطلق طائر ببغاء صبيحة قبيحة؛ كاد ينال رصاصة على ذلك. ورائي، كان الرجال يهتفون. كانوا قادمين، قادمين. كنتُ أحصي، مسرورا، وقّع الخوافر.

انطلقت راکضاً فوق حصاني. بما أننا كنا نعود أدراجنا، فقد وصلنا من جديد إلى فالادو. راکضين، كما قلت. أشخاص، رجال وأطفال، التفوا من حولنا؛ كانوا فلاحين منهمكين في أشغالهم. بمن فيه السيد هاباؤ، الذي بدا مرعوباً. توقّفنا. ما كنت في أمس الحاجة إليه هو لحظات لي أنا، لوحدي، كي أرتب أفكاري. كانت أول رحلة خروج تقوم بها جماعة الجاغونسو الجديدة، وكنت مضطراً لأقوم بأروع الأشياء التي سيراها الجميع ويُعجبون بها. رأيت تلة صخرية ملساء؛ فصعدت إليها. أمرت رجالي أن يظلوا في الأسفل، فظلوا منتظرين. فعلت ذلك حتى لا يتعرض استعجالي المعدي وفرح أفعالي لعراقيل حشد من الناس. نظرت باحتقار: لم يكونوا بحاجة إلى أسماء - لا يصلحون سوى للحياة والموت، وفق هواي. لقد وضعوا هذا العالم لعبة بين يديّ.

بقيت هناك في الأعلى، لحظة. عندما نزلت، كنت قد حلت بعض الأمور. أين سنذهب: نظاردُ هزموجينيس؟ آه، كلاً. أولاً، نتوجه نحو الهضبة العليا لأورو كويّا، حيث تخور كثير من الثيران. وليتبعوني كلهم. آه، ولكن ليس بهذه الطريقة، كلاً. هذا ما فكرت فيه، دون أن أقوله: ليس بهذه الطريقة، كلاً...

سبق السيد هاباؤ الآخرين، وجاء ليقدم نفسه: منهمكاً، وديعاً، كان قد بدأ يهمس لي. يا له من رجل! كان يريد أن يعطيني مالا، يسهل عليّ الأمور بفضل وسائله الخاصة. هذا لا، وخاصة هذا الأمر! هو من عليه أن يستلم مني، يأخذ ما أعطيه. أمسكت الطوق حول عنقي، نزعته، بكل ما فيه من ذخائر. الأوسمة، كنت أملك بعضها مذ كنت طفلاً صغيراً. قمت بهذه الحركة: قدّمتهُ إليه. كنت ستستمع، يا سيدي، وأنت ترى وجه السيد هاباؤ، مجبراً على أن يقبل أجراً ما لم يكن قطعاً تخرج من الخزائن الملكية، بل

قرايين نقدّمها تمجيدًا للقديسين. كان مرتبًا تمامًا - مثل أولئك الأشخاص الذين لا يخجلون من إظهار خوفهم، ما داموا قادرين على طلب العفو بكلّ جدية. أقول لك، يا سيدي: لقد قبّل يدي. لا بد أنه كان يعتقد أنني جُننتُ. لكنه شكرني بشدة ووضع الأوسمة في جيبه باحترام كبير: ربما لأنه لم يجد وسيلة للقيام بشيء آخر. إنَّ قتلَ هذا الرجل لا يفيد في شيء. من أجل البدء في إصلاح هذا العالم، فيمَ كان سيفيدني ذلك؟ لو أخذنا منه كل ما يملك، ثم نتركه في مكان بعيد من البلاد، هناك في تلك الأراضي الغريبة، حيث لا أحد يعرفه من قريب ولا من بعيد، فسيضطر ليتوسل الصدقات... فكرتُ في هذا الأمر، في تلك اللحظة، يجب أن قول ذلك. آه، لا! لن يغير ذلك في الأمر شيئًا: حتى متسول، حزين وتعيس، لا يمكن سوى أن يتبع عادته في جمع الفئات وتكديسه حتى تحين ساعة موته.

الأوسمة والذخائر، ليضعها أو ليحتفظ بها، بخيلًا، لجهنم. لم يبق لي غير الكتفية. وفي هذه الكتفية كنتُ أحتفظ ببتلات أزهار، مخيطة في قطعة من ثوب مذبح الكنيسة، ذكرى طلب مباركة من سيدتنا العذراء في الأبرشية. ولاحقًا، علّقته حول عنقي من جديد، بواسطة خيط مجدول ومدهون بالزيت. لم أكن أستطيع أن أتخلص من هذه الذخيرة، آه، لم يكن بوسعي الآن أن أتخلّى عنها؛ حتى لو ظلت توبخني، في كل ساعة وحين، عن سيئات أعمالي، حتى لو ظلّت، وهذا هو الأفظع، تحرق جسدي وتعيد حرقه تحت جلدي، فيلتوي صدري تحته كأنه قطعة من أفعى خبيثة.

وفي لمح البصر، كنتُ قد بدأت أفكر: فيما يمكن أن أهديه للسيد هاباؤ، وما أستطيع أن أقدم له على سبيل المكافأة. كان يستحق ذلك، وأنا مدين له به. فهو أول من اعترف بسُلطتي؛ وتلقيت منه هدية أميرية تتمثل في هذا الحصان الجميل، سيريزوز، الذي كنتُ أمتطيه.

وهنا، خطرت عليّ فكرةٌ، فكرة شيء ما، وكانت تمامًا هي المهمة المناسبة له، وهو المؤهل لينجزها. تذكرتُ الحجر: ذلك الحجر الكريم، الجميل جدًا، الذي جلبته من أراسواي، قبل مدة طويلة. أخرجتُ العلبة الصغيرة من جيب حزامي. مددتُها له، وقلت:

- سيد هاباؤ، اسمع، وقم بهذا الأمر: هذه الحلية، إعتنِ بها كما تعتني بقرة عينك... ومنذ الآن، حاليًا، خذ الطريق، امتطِ حصانًا جيدًا واذهب نحو بوريتي ألتو، حيث توجد فازيندا سانتا كاتارينا قرب بداية الجدول...

ثم شرحتُ له: إنَّ عليه أن يسلم هذه الحلية من طرفي إلى الفتاة في ذلك البيت، واسمها أوتاسيليا، وهي خطيبي الأبدية. من دون أن يذكر شخصي بها أحمل من ألقاب تشريفية، ودون أن يشير إلى أنني كنتُ أقود الجاغونسو... وأن يقول فقط إنني رُيوبالدو، وأني رفقة رجالي كنا ننشر المجد والعدالة في تراب الأراضي العليا حيث تجري تلك الأنهار التي تمتد من المغرب إلى المشرق، منذ أن وُجد العالمُ وطالما ظلَّ الرَّبُّ في السماء!

آه لا: عن الرَّبِّ، لا يجب أن أتحدث. استمع لي السيد هاباؤ بكل انتباه: مضطربًا لكنه متأملًا، يفكر. ما كان يقوله، كان يجب أن يكرره، يقلِّبه كأنه قطع نقدية بين أطراف أصابعه، بكل تركيز. هل الغنى نوع مختلفٌ من أنواع العذاب؟ كل هذه الاحترازات التي ينبغي اتخاذها كانت تُوترُّ أعصابي. ماذا كان يظنُّ نفسه؟ ما لاحظت في المرة الأولى: الأذنان الكبيرتان، الضخمتان، لديه؛ وعلى الفور، دون إرادتي، رفعتُ يدي لأتحسس حجم أذني. أليس من الأفضل، ربما، أن آخذ هذا السيد معي، أحتفظ به قريبًا جدًا مني، حتى أستطيع أن أراقبه، في كل مكان؟ كلاً، من الأفضل أن أفكِّك حضوره في مسافات نهائية. - لن آكل صدرك، ولا أنفك، ولا عينيك القاسيتين الرَّخوتين - فكَّرتُ. بيد أنه كان يملك بدوره نوعًا من السلطة. أدت له

ظهري، مشيتُ ثلاث خطوات فصادفتُ ذِيادوريمَ.. ما لا أستطيع أن أتقبَّله وأفهمه عند هذا الرجل: هو لماذا لا يمكن أن نغضب منه ولا أن نشفق عليه... - قلتُ. لكنني رأيتُ ظلاً أسود يلفّ صديقي، وكان ضحية حزن يرفض الاستسلام للدموع. هل كان كل هذا بسبب ذلك الحجر الكريم؟ - اعترفتُ. لم أعزّ اعتباراً للشعور ذِيادوريمَ.. - دُعْ عنك هذا، ما زال هناك وقت، يا ذِيادوريمَ، ما زال هناك وقت... - فكَّرتُ، بشكل غامض. كنتُ أثق ثقة كاملة في صداقة ذِيادوريمَ. ولم أؤرق نفسي أكثر من ذلك. هل نتوقف في الصباح، حين نستيقظ، لنقول إنّ الليل قادم؟ إنّ الحب الذي يكنه لنا أحد ما، قويا، يدهشنا ويفاجئنا، كأنه شيء دائماً غير متوقع. كنتُ غارقاً في ذلك القلق. لدرجة أنه حتى بخصوص أوتاسيليا لم أكن منشغلاً بأنني لا أشعر بأي شيء، أو أشعر بالندم. كانت أوتاسيليا شكاً - قضية بدأت منذ وقت طويل. وليقع ما سيقع. كان السيد هاباؤ يغادر، يحمل الحجر الكريم، العالمَ يعيش حياته، والقلب يثير كل هذه التقلبات؛ كنتُ أدفع الثمن. إنّ الطائر الذي ينفصل عن طائر آخر، يرحل مع تحليقه ويودع إلى الأبد. آه، لا - أنا، لا - اجرّ أيتها الأنهار والجداول! - لن تضعف معنوياتي. حزنُ ذِيادوريمَ هذا، لم أتقبله، لم أستفد منه شيئاً. إلى اللقاء، أيها الجحود!

لكن السيد هاباؤ لم يكتف بذلك: كان الأمر ما زال يتطلب توضيحاً. سألني، مخادعاً: ... هل يسرني أن أغتني الفرصة لأرسل معه في الوقت ذاته رسالة إلى والدي سيلوريكو مينديش، صاحب فازيندا ساؤ غريغوزيو وعدة فازيندات أخرى غنية؟ ... أعجبتني الفكرة، فوافقتُ بإشارة من رأسي: قلتُ له أن يذهب ويبلغه سلامي... وحينها رفع السيد هاباؤ أنفه، مطمئناً - بل علّت ابتسامةً شفتيه. لذلك، وحتى أكسر بشيء من المنطق هذه الطمأنينة، قرّرتُ: - اذهب، اذهب حالا، وبسرعة... ولا تُعد إليّ بجواب،

لا أريده.... قلتُ ضاحكًا وأنا أرى كيف كان يسرع ليطيعني دون أن يُظهر مزاجه.

وما إن تخلصت منه، حتى صحت مناديا على الآخرين، من أجل الخدمة. أعطيت أوامر: ستمشطون المكان، وستأتونني بكلّ الرجال...

أيّ رجال؟ كل الرجال، أيّا كانوا وأينما وجدوا. - من يملك آلة، فليأت ويعزف! من يحب الرقص، هذا أحسن! وفيما يخص الاستعدادات، فليُحضروا النساء أيضًا... مع الموسيقى، ثرا لا لا لا... - يجب أن يظهر كل شيء محتفلا. إذن، من كان يستمتع، ومن كان يقود؟ أنا، يا سيدي، أنا: من خلال اسمي، الثعبان الأبيض... حفل؟ آه، لا. كنتُ قد قرّرت عكس ذلك. أن أستجمع ذلك الحشد، وأصنع منه محاريب. وأن يسيروا معنا جميعًا. هل كان من قيمة لذلك؟ لم يقل الآخرون شيئًا، لكن أكيد أنهم فكروا، فاعتقدوا شيئًا أو آخر. أما رجالي، فكانوا يتحركون فقط لإرضائي، وهو كل ما كانوا يرغبون فيه؛ وكان ذلك القانون الذي سنتّه مُسليًا. تفرّقوا ذاهبين للقنص، في ضجّة عارمة.

لكنهم لم يرجعوا بأيادٍ خاوية. عادوا جالينَ معهم حشدًا من الرجال، كل من وجدوه منهم. من سوكرويو، عدد قليل - بعضهم بوجوه تحمل علامات قبيحة، كأنها بُقع بُول على الرمال؛ بعضهم الآخر، هنا وهناك، بوجوه ناعمة طرية، هم من أفلتوا من المرض. من كانوا يتظاهرون أنهم ليسوا خائفين مني، فضلوا أن يُظهروا أنهم جاؤوا بمحض إرادتهم: يفتحون أفواههم بضحكات مصطنعة. أمرتُ أن يقدموا لهم جميعًا على الفور جرعة كاشاسا. كان أولئك الناس يعطون الانطباع بأنهم عانوا كل ألوان الفقر والمحن. لذلك كان لا بد من عنف ناعم حتى ينضموا إلينا. هل كان ذلك تصرّفًا منحرفًا من جهتي؟ أبدًا - ما كنتُ أريده هو أن أخرجهم من بؤسهم

وأفصلهم عنه. نجحتُ في ذلك. آه، لكن، من الأفضل أن تسمع: كانت أكبر مجموعة هي التي تضم الفلاحين البسطاء - رجال بوبو. لا يمكن أن تتصور حالة الانزعاج الصامت الغريبة التي كانوا عليها، لأنهم حين استُدْعُوا وحُشِدُوا؛ كان ذلك إعلانَ خوفهم الشديد. وبعد ذلك، عندما صحتُ، أرادوا أن يصطفوا مسرعين، كأنهم يعتبرون أنفسهم جنودا. هل سيعرفون وبنفس الطريقة، في حالة صعوبة ما، كيف يصطفون في تشكيلة متراصة؟ كان الجميع يضحكون، وكان رجالي من الجاغوثسو يريدون أن يُحوّلوا ذلك إلى ضجيج. آه، سيقوم الفلاحون البسطاء بدعمنا وتعزيز صفوفنا. سيأتون مثل نمور جائعة! لم يكونوا يفهمون شيئا، مذعورين تماما، يستمعون في رعب لقراراتي. - أبناء العاهرة! - قلتُ. فجأة، وضعتُ ثقتي في هؤلاء البؤساء المزودين بأسلحة من زمن آخر، يحملون حبات قرع فوق أكتافهم، أو عيتهم المملوءة بالبارود الأسود ورائحة دخانهم التي تصيب بالعمى. قدّرتُ مدى خبثهم: عرفتُ أنهم يحترموني، يرون في شخصي صورة المجد. كانوا يرفضون أن يكونوا من الحاسدين. رجال متسخون، بجلد متسخ، وأفعال قذرة. هل يكونون بنفس قوة المجرمين؟ - إن العالم، يا أبنائي، بعيد عن هذا المكان! - شرحتُ لهم - هل كانوا يريدون أن يأتوا هم أيضًا؟ - سألتُ. كان صخبا عاليا: قول لا معنى له، وهو يتحدثون جميعا في نفس الوقت، فكان من الصعب تمييز ولا كلمة واحدة من ذلك. آه، هؤلاء نفهمهم أحسن حين يظلون صامتين. أطلقتُ صيحة. سألتُ أحدهم. لا بدّ أنه ذهب يبحث بعيدا عن شجاعته قبل أن يجيبني. كان شابا، يضع قبعة ذات حافة على شكل قَمْع. أجباني فقال إنَّ اسمه سينفرونيو؛ وأشار إلى شخص آخر - هو أبوه. هذا الآخر، أبوه، كان رجلا من دون عنق. قال لي إن اسمه أسونسيانو. ثم أشار لي إلى رجل آخر. لم أتركهم ليتابعوا ذلك. لو تركتهم

ليفعلوا، كانوا سيأخذونني من إصبع إلى أخرى حتى يصلوا إلى ذلك الرجل
 ذي الساقين العاريتين، وكان هو أوزيرينو، ساقان يغطيها وحلٌ يابس؛ أو
 ذلك الذي يحك ظهره على جذع شجرة كأنه خنزير أو عجل. لمستُ الخبث
 الملتوي في تصرفاتهم. ناهيك عن الرجل صاحب البغل - الراكب جانبًا على
 ذلك البغل الداكن - وكان اسمه تيوفراسيو؛ لم يكن ينزل من فوق البغل
 فقط بسبب الأمر الذي كنتُ قد أصدرته قبل أيام. قال لي: - كل الشناء لك،
 أيها القائد. نحن رهن الإشارة... - وحين قال ذلك، حرَّك البغل خطمه
 الصغير الأبيض. أما الرجل، تيوفراسيو، فتنحى وقال باحترام: - إن كان
 ذلك يمتعك، أيها القائد، فإننا نطلب أن تباركنا - وأعطيهم مباركتي - لأن
 تيوفراسيو هذا، الراكب على البغل، كان هو زعيمهم إلى حد ما، وجاء جالبا
 معه البغل. لكن، هنا، حدث أمر عائق. لأن أحدهم، الرجل من دون عنق،
 حدّ من الحماس، وقال ملاحظة سلبية: -... من سيتكلف بعائلتنا في هذا العالم
 من الغياب؟ من سيعتني بحقولنا ويعمل ليعيل من هم تحت مسؤوليتنا؟...
 - ومن قال ذلك، تحدث بلسان الجميع. -... والمزارع؟... والنباتات؟... -
 كما أن رجلا ثانيًا، يجمع يديه كأنه يصلي، قال متباكيًا: - إنني أطعمُ زوجتي
 وثلاثة أولاد صغار، في كوخٍ... - وكان رجلًا طويلًا جدًّا، منحني القامة،
 تتخلل أسنانه رقعٌ كثيرة. - ما اسمك؟ - سألتُه. كان اسمه بيدرو كوفريدو.
 لكن، هنا، كنتُ قد فكَّرتُ. هيا! الأسرُ تعزُّقُ وتجنّي المحاصيل، وتقوم بكل
 شيء، بينما ستكونون في حملة، محاربين أمجاد، من أجل فرض السَّلام التام في
 هذا السَّرتاؤ والعمل على الانتقام لجوكا راميرو الذي مات غدراً وخيانة!...
 - قرَّرتُ. - آه، أيتها العذراء الطيبة، لو رأيتنا مسيحيين جاغونسو... -
 سمعتُ من رجل آخر... وحينها أضفتُ: - سوف نجوب هذا العالم، نأخذ
 المال ممن يملكونه، ونسلبهم ممتلكاتهم وامتيازاتهم ذات القيمة العالية...

ولن يرتاح لنا بال قبل أن يشبع كل واحد منا، ويلمس امرأتين أو ثلاث نساء، فتيات جميلات يجدد بهن فراشه أو سريره المعلق! - كان لا بد من رؤية ذلك، أيها الناس: كانوا جميعًا يوافقون بوجوه متهللة مشرقة. حتى رجالي. قمتُ بحركة تنم عن الرضا. كنتُ فقط أريد ما كان ينقصنا - أن أسمع شحيحَ بغل ذلك الرجل. كنتُ سأغير مسار تلك الامتيازات. دعوتهم جميعًا لحمل السلاح. - وماذا عن بوروميو؟ وماذا عن بوروميو؟ - كانوا يسألون أيضًا. من كان بوروميو هذا؟ أمرت أن يحضروه. رجل أعمى؛ كان أصفر تمامًا، ترايبا، أُرْقَط. - أنت، أيها العجوز، أَجْنَبِي: ما عملك؟ - - إني هنا، في ركني، يا سيدي... أعود على اللحظة القصيرة لموتي... - ورغم أنه أعمى، فقد كان من حقه ألا يرتعش. - هل أنت مؤمن تقي؟ - أفضع مُذنب. مذنب لا كفارة له، اسأل الزنجي، اسأل الكاهن... - وأشار بإصبعه. نظرتُ. لم أر شيئًا. فالعمي يقومون عشوائيًا بمثل هذه الحركات. كان ذلك هو الاتجاه الصحيح، نحو الشمال. - آه، يا سيدي، إني أعرف أنني أطلب صدقات كثيرة... - إذن، فليأت أيضًا بوروميو هذا. أمرتُ أن يُركبوه على حصانٍ وديع، وأن يسير دائمًا في مستوى حصاني، على يميني. لكن، أكيد أنهم لو ضحكوا فلا أنهم لا يعرفون - فرجل كهذا يسافر رفقتنا، يتكهن بالآفات التي يتمنى الآخرون أن تصيبك، وأن أمثاله يملكون القدرة على طرد كل تأثيراتها الخبيثة، وفق ما تعلّمتُ من الأولين. ولا أعرف كيف تذكّرتُ، فجأة، ذلك الطفل الزنجي، الذي باغتناه في بيت فالادو يسرق ويضع في كيسٍ كل ما بدا له سهل الحمل. وكان عليهم أن يقطعوا الريف ليعثروا من جديد على الطفل. كان قد ظل طوال ذلك الوقت مختبئًا، فمه إلى الأرض، وسط حقل من حقول المنيهوٲ. حين قبضنا عليه، وصفنا بكلّ النعوت، كان يعضُّ، ويركل. اسمه غيريغو. لم نر منه غير العينين اللتين تفيضان مكرًا ودهاء. -

غيريغو، هل تريد أن تأتي عاريًا أم مُرتديًا ملابسك؟ كيف له ألا يأتي؟ أعدوا له حصانًا خاصًا به فقط، وكان يجب أن يسير أيضًا بموازة حصاني، على يساري. هيا، بنا، يا رجالي! ثم انطلقنا. لم نكن نملك ما يكفي من الخيول المُسرَّجة: لكن، في الطريق، قد نعثر هنا وهناك، على بعض الدواب، نستولي عليها، بالحبال أو الأيدي العارية. كان العديد يسرون مشيًا على الأقدام، من بينهم الفلاحون البسطاء الذين كنا لا نزال نراقبهم شيئًا ما. كانوا يتساءلون عمَّا هو آتٍ. كنتُ أريد أن أصل إلى الحقول. توقفنا ليلًا، بعد عشرة فراسخ من المشي، على هذا الحال. أن أنام، مع ما يعتمل في نفسي من حماس وما يدور في خلدي من أفكار متضاربة، كان أمرًا مستحيلًا، رغم التعب، فلم يغمض لي جفن طوال الليل. لكنني تحدثتُ تباعًا مع من كانوا ينتشرون مراقبين، كما أشعلتُ نازًا صغيرة أشوي عليها المنيهُوت، وأخرى أكبر من أجل الإنارة. آه، قريبًا سوف نملأ الفضاءات الفارغة في هذا العالم أمامنا.

إلى أين يذهب الجاغونُسو؟ إلى الفراغ، إلى الفراغ. كانت رغبتني أن أكون في كل مكان. لكن الأنسب في المقام الأول هو أن نصعد نحو الشمال: باتجاه الهضبة العليا من أورو كويًا، هناك حيث تخور كثير من الثيران. كانت الذكرى التي أرغب في رؤيتها مرة أخرى هي نَهري - وعلى ضفافه السوداء بمياهها الوافرة... آه، وتلك الطرقات بأرضها البيضاء، التي تُبرزُ ضوءَ النجوم. فكَّرتُ في ذلك، واتخذتُ قراري. وماذا عن هُرموجينيسُ والخائنين؟ انظر، يا سيدي، ما إن تخطو خطوة واحدة، في أي اتجاه، حتى يبرز أمامك العدو، وتصادف الشر... ألم أكن أملك كل وقتي؟ المحصول واعد، وأنا مثل السيد. حتى وأنا مضطجع، كنتُ أشعر بنفسي أسير، راکضاً بسرعة. وما إن يُحرَّك الفجر جناحيه حتى أكون أعمل على تثبيت مهمازي الفرس. أقول مرة أخرى: يمكن لجزمة جديدة أن تكون مرنة ويكون حذاء قديم صلبا.

كان اليوم، بالنظر إلى ضفاف السماء، يعدُّ بجوٍّ جميل وخفيف. ملأنا بطوننا؛ وخرجنا في الصباح، مع ذلك الضباب الخفيف الذي يأتي بالطلّ. ما كنتُ أراه: قمة الغابة وما وراء ذلك! كل الأشياء العديدة التي كنتُ أفكر فيها، ولا واحدة منها أَلقت بظلالها عليّ. لم يرتعش أي خوف بارد وراء عيني؛ ولذلك، في صمتٍ غريب، كنتُ قائدَهم جميعًا. ونحن نسير كذلك، وصلنا إلى فازيندا باربارانيا، الواقعة في بّي دا بيدرا. على بعد سبعة فراسخ تقريبًا. وما وقع هناك، سوف أحكيه لك، يا سيدي.

في الوقت ذاته، استغربتُ كيف أنَّ الأريبيّ، جواو غوانيا، مارسيلينو بامبا، جواو كوكليش، بل وحتى ذيادوريم لم يرغبوا في عقد مجلسٍ. كانت قاعدتي تتمثل في مناهضة كل التوجهات التي رسمها القائدون الذين سبقوني؛ وما كان مفيدًا، بالنسبة إليّ، هو أن أطلق العنان لقانون التآقلم. آه، ولا أريد أن يأتوا ليقولوا لي إنَّ ما لدينا من اللحم الجاف والمَنِهْوث لا يكفي سوى لثلاثة أيام. حماقة. أي ثور يأكل، ما دام على قيد الحياة. فالحسُّ السليم والمؤونة يتجددان كل يوم من أيام الرّب. ولا ينبغي أن تعوزنا الشجاعة: من أجل ابتلاع لبّ أشجار البوريتي ولحم الحيوانات الضارية. سأقطع فراسخَ وفراسخ: وسيتبعونني. - هل ترى حجم العالم، يا غيريغو؟ ما هو الشيء الذي تجده أكثر جمالًا؟ - سألتُ ذلك الشحرور الأسود ذي الساقين، الموشَّح بنفس السّواد اللّامع الذي يغطيه من الرأس إلى أخمص القدم، ويخرج من عينيه الواسعتين اللّتين لا تفارقاني وهو ثابت على صهوة حصانه، على جانبي الأيسر. أجانبي بوقاحة: - من بين كل الأشياء، أجهل شيء هو ذلك الخنجر المعدني الصغير الذي تحمله في غمد حول حزامك، يا سيدي. - هكذا أغرم ذلك التافه بخنجري ذي المقبض الفضي الذي يُطوى. - حسنًا، في أول معركة نخوضها، إن لم تفتح فمك ولم تبك من الخوف،

ستفوز بهذا الخنجر، هدية مني - وعدته. هل كانت قلّة المؤونة ستضطرني لكي أشد زمام الخيل، وأخفف المسير؟ يا لها من حماقة! أما الوصفة الأخرى التي استبعدتها فهي أن أفرق الرجال على عدة فرق. احتياطات... كلاً. لو اتخذت احتياطات، لشعرت بالخوف، على الأقل في البداية. إنّ الشجاعة هي مادة للممارسات أخرى. يكفي أن نؤمن بالمستحيل. - سيد بوروميو، هل تعجبك تلك الهضاب العليا، إيه، سيد بوروميو؟ - أسأل على جانبي ذلك الأعمى، من باب المزح. - آه، أيها القائد، إن النهار يطلع كل صباح، وهنا نحن نستحق كل شيء - الريح هي دائماً نفس الريح... لكنها ريح تهب من الأراضي الهادئة... - أجابني. - ما لا أراه، لا أملكه؛ لا أستهلكه... - تابع قائلاً. كان يجب تبادل أطراف الحديث، لكنه يعرف أيضًا كيف يحترم الصمت. يسير متأرجحاً فوق السرج، في هدوءٍ مختلف. هل كان بوسعه أن يقدم النصيحة؟ - مهنة الجاغونسو، أيها القائد؟ مهنة جميلة، بالنسبة لمن يعيش! - جُمِلُ من هذا الصنف، كنتُ أقبلها لطرافتها فقط. لكن، أن أفرّق رجالي، كنتُ أكره أن أقوم بذلك الآن. لأنّ أكثر ما كان يسرني هو أن أتأمل الحجم الكبير لتحركهم سائرين في كتيبة واحدة.

من طرف إلى آخر. مرّوا كلهم، ومررنا جميعاً في صخبٍ كبير تثيره حوافر الخيل. الخيل والفرسان. موكبٌ يمشي متعرجاً، في تلك الأماكن الموحشة، في تلك القفار، تلك المرتفعات، منظرٌ مزيجٍ من الخيل والناس، امتداد طويل تبرز فيه رباطة جأش الرجال وهم يضعون قبعات دُهنَت بعناية بشحم الثور وقشدة الحليب، وأطراف بنادقهم التي يحملونها على الأكتاف. ما القادم؟ كلُّ ما كنا نتمناه أن نتوقف كي نتناول العشاء؛ ونقوم بجولة تحت نجم المساء. لكن، ما إن يتكلم أحدٌ حتى يسمعه آخر فينفجر ضاحكاً؛ وما يُضحك هؤلاء كان آخرون لا يزالون في حديث عنه. تلك

الثرثرة. كان ذلك يعجبني. كما أعجبني صريرُ جلد السروج، ونشيش اللحم فوق الجمر. الغبار يحمرُّ، ويبيضُ: غبار يجعل الريح أكثر مرارةً. رجالٌ يمتطون الخيل ويحملون السلاح. مَنْ يَرَهُمْ، يلذُّ بالفرار، سيجري: لا بد وأنهم يرقبوننا خائفون بأعينهم المختبئة في الغابة على حافة الطريق. حتى الحيوانات، في الأحراش، التي تسمع بداية كل شيء، قريبًا منها أو بعيدًا عنها، وتعرف كيف تنتظر في تلك اللحظة، مختبئة وكان نادرًا: حتى الحيوانات لم نرها، لم نَرِ حيوانًا واحدًا حتى، لم نصادفها؛ أما الطيور، كالعادة، فقد طارت وحلقت بعيدًا. آه، لا، لحسن الحظ أنني ولدْتُ لأكون جاعونُسو. هذا الأمر الذي وقع لي: - والذي ما زال حيًّا اليوم، كأنه مستقبلي. شعرتُ بقوة البسالة. استيقظتُ على ذلك المزاج. هل أكلتُ لحمَ نمِرٍ؟ ما كنتُ أريده هو أن ندخل، ونحن نسير بتلك الطريقة، إلى مدينة كبيرة حقيقية.

من حين لآخر، فقط، كان الخوف يتملكني فجأة، فبدأتُ أبحث سُدى عن - حضور زي ببيلو الذي كان يشغل ذهني. لا أدري لماذا. كنتُ أخفف من سرعة حصاني وأفكّر. لكني، بعد ذلك، أفقد السيطرة على الزمام فتذهبُ تلك العادة وينتفي زي ببيلو من الوجود. لم يكن هناك غير رجالي. أسمع، أنظر - كانوا هم - من سيذهبون ليزرعوا الفوضى، ليقتلوا أشخاصًا أشرارًا. بالعشرة والعشرات، أقول، أؤكد أنني أتذكّرهم جميعًا. يمرّون ويعودون في ذاكرتي، وأفكّر أن أعدّهم. ليس من أجل أن أتباهي بقوة ذاكرتي التي تحتفظ بهم اسمًا بعد اسم، ولكن لأوضح بقية ما بقي، من هذا الحديث، كي أحكي لك ما أروي. هل تفهمني، يا سيدي؟ يتشابه - من خلال تأمل ركبهم - هؤلاء الجاعونُسو القُساء، في هيئتهم، في تأرجح أوراك خيولهم، يخفضون رؤوسهم، لا يفلحون في إخفاء نحافتهم. كلهم

أبناء مناطق مختلفة، لكنهم جميعاً يحترمون زعامتي. حتى الفلاحون البسطاء والبدو كانوا يقلدون تصرّفاتهم، بعضهم على متون الخيل، والآخرين راجلون، يسرون على نفس الإيقاع. حتى تيوغرافسيو، فوق دابته، يمتطي بغله، ويلتزم بالإيقاع كلّما كان رفقة حيوانات أخرى. بل حتى بوروميو وغيريغو، اللذان أقودهما، أحدهما كالآخر، بأيّ من يديّ. هكذا، دائماً، كما العادة. لكن، وعلى وجه الخصوص ذيادوريم - راكباً، فارساً مزهوّاً، على طريقة أهل باهيّا، المهازان قصيران والزمام مرتخ جداً، على ظهر حصانه الأبيض المتبختر: حصان يرتعش، حصان بعينين سوداوين مثل الليل - كان ذيادوريم هو الشّاب، الذي كان هو رينالدو. وأنا. أنا؟ بهازين من حديد، سرج قوي، سرج رئيس. - وبخرجين! حينئذٍ، أنشدوا:

أوليريري، يا امرأة من باهيّا،

سأذهب ولن أعود ثانية...

مكتبة

t.me/soramnqraa

أفعل ذلك،

أذهب،

إلى هناك، يا امرأة من باهيّا

وأعود أدراجي عند منتصف الطريق...

كنتُ أستمع رغماً عني، وابتسامة على شفتيّ.

ثم جاءت اللحظة التي تبعنا فيها مجرى النهر، تعرّج طابورنا بين الهضبتين؛ ثم وصلنا إلى الفازيندا المسيّجة، المسماة باربارانيا، التي توجد هناك في مكان بسيط ودائري، من يّ دا بيدرا. لقد حدّثتُك عنها، يا سيدي. لكنني أضيف أن صاحبها، في تلك الفترة، كان شخصاً يُدعى أورنيلاس - جوزافا جوميرو أورنيلاس، هذا هو اسمه الكامل.

- قبل ثلاثة أيام كان القديس يوحنا، إذن، غداً سيكون القديس بطرس...
- قال أحدهم بصوتٍ عالٍ.

كنّا نعرف أن أوزنيلاس هذا كان رجلاً يتحدّر من عائلة محترمة، تلقى عدة قطع أرضية مهجورة ليحرثها ويزرعها. فيما مضى، كان ذا شأن كبير، بسبب ماضٍ مضطرب، لأسباب سياسية، وما زال يحظى بنفس النفوذ لأنه كان صديقاً مقرباً من العقيد روتيليو ماندوكا المقيم في مزرعته، فازيندا بالوازتي.

- أعني هذا أنه يملك، يملك حقاً، كثيراً من الشجاعة؟! - تساءلتُ.

- هناك من يتحدث عن ستين إلى ثمانين شخصاً قتلهم، وفق ما أحصي...
- أكّد مارسيلينو بامبا... - ولم يفقد شيئاً من شجاعته بعدُ.

وصلنا، بهيئة واثقة، وكانت السماء هادئة فوق رؤوسنا. كانوا قد نصبوا سارية علمٍ في الفازيندا، عند باب الفناء؛ رأيتُ حركةً دؤوبة. تحرّكت النساء حاملات باقات من نبات السرخس ومكانس أمام باب الفرن المدخن، ويحملن قوالب حوليات ذات لون داكن. فقط تلك الروائح الجميلة للأكل والفرن الساخن الذي يُكنس، كانت تريح بطني. ربطتُ مطّول حصاني في السّارية التي نُصبت تكريماً لعلم القديس بطرس.

لكني لم أكن أحدث أي فوضى ولم أشرط شيئاً، وتجنّبتُ القيام بأي شيء غير لائق. لم أشعر برغبةٍ في إزعاج أي كان. وخرج الفازينديرو، صاحب المكان، من البيت، وجاء ليُحييني، يعرضُ ضيافته، وخصّني بأحسن استقبال. أُعجبتُ بسُلطته، بشعره الأبيض، بطريقته الهادئة. رجل طيب، حسّاس. من أجله، خلعتُ قبعتي وتحدثت معه بكل هدوء.

- أصدقاء في السّلم؟ - تفضل، أيها القائد، كن مرتاحاً: البيت بيتك، أنت في بيتك... - قال.

قلت نعم. لكن، حتى أتحاشى، بعد ذلك، أي إحراج أو سوء فهم، قلت أيضاً: - كل احتراماتي، يا سيدي. ولكننا سنكون بحاجة لبعض الخيل... - قلت له ذلك، هكذا، من الوهلة الأولى، قبل أن تتحول حرارة الحديث الودّي إلى فتور في الوضع وتعيق السير الجيد للأمور.

ظلّ الرجل ثابتاً. ودون أن يتجهّم أو أن يتسم، أجابني:

- سيدي، وقائدي، اطلب وأنا ألبّي، بكلّ سرور... أظن أنه معي ما تحتاجون من دواب، خمسة أو سبعة، في حالة جيدة.

ثم دخلتُ معه إلى بيت الفازيندا وأنا أطلب بصوت مرتفع أن يحميها سيدنا يسوع. وهناك استقبلتُ بكل أنواع الحفاوة المعتادة، ونعمتُ بحظوة الجلوس إلى مائدة أكل غنيّة. فأكلنا دجاجاً ولحم خنزير مع الفاروفا^(١) وعدة أطباق أخرى لذيدة. كنّا هنا، ذيادوريم، أنا، جواو غوانيا، مارسيلينو بامبا، جواو كونكليس، ألاريبي، بالإضافة إلى آخرين، مثل الطفل الزنجي، غريغو، والأعمى بوروميو، الذي كان حضوره تسليّة وممتعة للجميع.

كانت سيدة البيت امرأة في سنّ تجاوز عبارات الإطراء والملاطفة؛ لكن كانت هناك ثلاث أو أربع بنات وقربيّات أخريات، عازبات أو متزوجات، طريات مثل الطلّ. بددتُ مخاوفهن، فلم أقبل ولم أسمح بأي سوء احترام، لسبب رئيسي وهو أنني كنتُ أستمع برؤية سيدات وأنسات تتحركن هكذا بيننا، مطمئنات على شرفهن وحياتهن، بكل ما تتطلبه آداب اللياقة الاجتماعية. عند بداية الأكل، تطرقتُ فقط إلى مواضيع جدّية، مثل السياسة وسير أشغال الزراعة وتربية المواشي. لم يكن ينقصنا غير الجعة وأن يحمل أحدهم جريدة في يده فيقرأ علينا بصوت مرتفع كي نناقش كل ما يتعلق بذلك.

(١) دقيق مَبْهُوت مقلي في زيت أو أي مادة دهنية أخرى، وممزوج بالبيض أو اللحم. (المترجم)

أجلّسني السيد أوزنيلاس على رأس المائدة، وشرّفني بالمكان الرئيسي - هنا كان يجلس ميديرو فاش، عندما كان يمرّ من هنا... - هذا ما جاء على لسانه. كان ميديرو فاش قد ساد في هذه المنطقة. هل كان ذلك صحيحًا؟ كان هذا الفازينديرو العجوز يملك كل شيء. كان جاعونسو غير متفرغ، وهو كذلك مضيف و صديق، وصاحب هذه الأملاك. بما أنه يتحدر من عائلة محترمة، فقد كان يتمتع بتصرّفات مترنة، مدنية، تليق برجل متحصّر؛ وهذه الأمور، رغم أنني اجتهدت دون كلل، فقد فاتني أو أنْ تعلّمها جيدًا. حقًا. وأنا جالس هناك، أستمع لما يقوله، انتابني شكوك. هل كان نوعا من الخوف؟ إذن، فقد كان الخوف إحساسًا خفيًا ومختلًا، سرعان ما يسلك ألف طريق وطريق. وهذه الأمور، شيئًا فشيئًا، كانت تحرمّني من الرغبة في الأكل إلى حدّ الشبع.

- السّرّتاو جيّد. كل شيء هنا يضيع؛ كل شيء هنا يُسترجع... - كان يقول السيد أوزنيلاس. السّرّتاو فوضى في هدوء كبير لا حدّ له.

استمتعت كثيرًا بهذا الحديث. لكنني أدتُ ظهري. وحتى أظهر تفوّقي، كنتُ أظّاهر أحيانًا بأنني لا أستمع. أو أنتقل إلى مواضيع أخرى مختلفة. ألقيتُ بعظام الدجاجة الصغيرة إلى الكلاب التي كانت تنتظرها بالمرصاد قرب المائدة. كان كلّ كلب يمد خطمه، يحرك رأسه، حتى أنه يصفق أذنيه، ثم يلتقط العظم الطائر، مباشرة في فمه. وكان كل أولئك الناس، بعناية كبيرة وكثير من الودّ، يمرّرون لي بالتناوب ما بقي لهم من عظام الدجاج كي أقدمها للكلاب. وهو ما كان يضحكني ويضحك كثيرًا كل من كانوا حول المائدة. كان الطفل الزنجي، غير يغو، قد أكل كثيرًا فغفًا منكمشًا فوق كرسيه، توقظه من حين لآخر الضحكات. هذا الطّفّل لم ينتظر أن يطلب كي يخطوا له يوما قطعة لباسٍ أو أن يوفّروا له قبعة جلدية بحجم رأسه، التي لم تكن صغيرة

جدًّا، وحزام خراطيش مناسب. - إنَّكَ تعرف كيف تعيش، يا غيريغو...
تسعى مباشرة لما تريد - قلتُ مازحًا. ثم مزحتُ متوجها إلى الآخرين: -
إنَّ شككُم في ذلك، اعطوه كيسًا كبيرًا فقط، ونافذة يقفز منها إلى الداخل
ويخرج هاربًا عبرها: سيكون قادرًا على سرقة كل ما يحويه بيتُ سيدٍ يملك
فازيندا مثل هذه، ويهرب... - أكيد أنني كنتُ قد بدأتُ أحبُّ ذلك الوغد.
ومن جهتهنَّ، كانت السيدات والآنسات تتحدثن وتمزحن مع غيريغو،
كما لو أنه لوحده فقط، بما أنه طفل، كن يتجاوزن خجلهن ويتكلمن. لكن
السيد أورنيلاس ظل محافظًا على جدِّيته، وأعتقد أنه كان يتظاهر عن قصد
بأنه لا يهتم بالطفل. فاستتجت من تصرُّفاته كأنه كان يلومني على قراري
في جلب مثل تلك الرفقة إلى مائدة الطعام. الطفل والأعمى بوروميو -
بعينه المتسائلتين. - المحاصيل... - استأنف السيد أورنيلاس كلامه. رجل
منهجي، يغالي في التدقيق. كان متكلفًا في تصرفاته، صارمًا في طريقة تربية
الكلاب، يقوم بكل شيء وفق أسلوب قديم من أرضٍ أخرى - إنني أعرفُ
ما أعرف. لا يأكل أيَّ شيء تقريبًا. يكفي فقط بوضع حفنة من المنيهُوت في
فمه، من حين لآخر.

- بفضل الرَّب، تذهبُ يا سيدي وتأتي... السَّرتاؤ في حاجة إلى ذلك...
أي إلى رجل قوي، جَوَّال، إنه في حاجة ماسة إلى ذلك. عُد متي شئت،
وليَحملك الرَّب إلى هذا البيت مرة أخرى...

احترقتُ خجلًا وأنا لا أعرف جوابًا يناسب موقفًا كهذا - جواب كنتُ
أظن أنه لا يمكن أن يكون إلَّا واحدًا، وصحيحًا، كما في المسرح، في السيرك
أو في مسرحية إيمائية من مستوى عالٍ جدًّا. وهو ما يعادل صممتًا تقريبًا.
بيننا، هذا ما كنتُ أشعر به: كنتُ كأني وقعت في شراك الجهل - لكن الأمر
لم يكن مسألة انعدام التعليم أو الذكاء، بل افتقادي لمعرفة تتعلق ببعض

المواقف. كان ذلك شيئاً تافهاً: تنحنحتُ ثم اتخذت نبرة مختلفة وأنا أوصل:
- كان صديقي ميديرو فاش قد خاض معركة في المكان المسمى كونتا
بوي، على بعد فرسخين من هنا... ضدّ رجال المدعو تولوميو غيّرُمي.
والمرحوم صديق ميديرو فاش، تغمد الرّب روحه... كان يقود دائماً في
الجبهة، ويعطي المثال... لقد دَفَنَّا أكثر أمواتنا بسالة... كان الرجل يصفُ
- أعرفُ! - قلتُ، رغم أنني كنتُ أنوي السكوت. حسناً: ماذا كان يحسبني
هذا العجوز الأصمُّ؟ آه، كان يستعرض شيب رأسه، لكن كانت تنقصه لحية
يداعبها. - اعلمُ، يا سيدي، أن ميديرو فاش شخصياً قد اختارني من بين
الجميع، وهو على حافة الموت، وعيّني لأقود وأحكم. تولوميو غيّرُمي،
الذي أعرفه، لابد أنه هو من يشحن الآن المراكب في مرفأ بيرابورا... أما أنا،
الثعبان الأبيض، زيو بالدو، المعروف سابقاً باسم تاتارانا، هل سمعت بي، يا
سيدي؟ ما يجب أن يستعد هذا السّرُتاو لرؤيته، لشخص يفتح المزيد ويجد
المزيد! - قلتُ، غاضباً شيئاً ما. - إذن، كل الشرف لي، يا قائدتي: لأنه لم يجلس
في مكان الشرف حول هذه المائدة المتواضعة إلّا رجال من ذوي الشجاعة
العالية والقيمة العليا... - قال معلقاً، لا تشوب وجهه سمة اضطراب.
انحنيتُ، مديراً ظهري، وشفقت أصابع يدي منادياً على الكلاب. فعلت
ذلك لأشعره بالخطر من استيائي؛ حتى أجعله يخاف، من جهتي، هذا الأمر،
كما يقال... حين يديرُ لك الحمار مؤخرته!...

وهناك، في تلك اللحظة، لمحتُ عينيّ ذيادوريم وهما تُثيران انتباهي
نحو واحدة من الفتيات الشابات، من بين تلكم اللواتي كنَّ يخدمتنا، وكانت
أجملهن جميعاً. فتاة شابة ترتدي تنورة سوداء ومريلة بيضاء، وتضع منديلاً
أحمر على رأسها. وكانت تلك أنسب طريقة لباس تتخذها امرأة. كانت تقف
جامدة، وسط الأخريات، تسند ظهرها إلى الجدار تقريباً. كانت نظرات

ذِيادوريمُ تدلُّني عليها: كي يذهب كل إعجابي نحو تلك الفتاة. اقتنعتُ، فأومأتُ لها بإشارة: - أيتها الأنسة، تعالي بالقرب من هنا، واشمِّليني بفضل لطفك... - اشتعل خدَّاهَا حُمْرة، لكنها جاءت: لاحظتُ أَنَّ لديها يدينِ جميلتين، رائعتين، يدينِ تصلحان لنسج سريري المعلق. سألتُها عن اسمها. - إنها حفيدتي... - سارع السيد أورنيلاس ليقول. وبالكاد سمعتُ ذلك الاسم الذي قالت لي. كانت متعثرة، فأحببتُ كيف كانت تتحرك لتبقى هادئة - محتشمة، كأنها لبنٌ خائر في صحن.

لكن، في نبرة صوت العجوز أورنيلاس، فاجأتُ قلقَ فَرَعٍ، تراجعاً، ارتعاشَ خوفٍ طفيف. فغمرني ذلك بالرضا والسرور. ذلك الرجل، الوقور المحترم في كل شيء، حين يتعلق الأمر بنساء بيته، أسرته، لم يكن يخفي مشاعره. ولمستُ حتى عند ذِيادوريمُ، كيف كشف عن عَيْنينِ مختلفتين، جاحظتين من الغيرة. وهنا أقول: الحبُّ يولدُ الخوف؛ لكنه يولدُ الشجاعة، أيضاً.

ران صمتٌ. وتمدَّد الانتظار هكذا: كما يمدُّ آكلُ النمل لسانه، كذلك يتقدم من يحظى بخبز بالمناولة. كانت الفتاة الشابة تجذبني، بهدوئها الذي يشبه ماء الحياة؛ وقد نفذَ حُسْنُها إلى جسدي. لمَسَهَا الخطرُ. ابتعد عنها الخطرُ: في تلك اللحظة، فرضت نفسها على ذهني فكرةٌ كنتُ قد استبعدتها، وكانت علةٌ قصوى - هي علةٌ وضع الرجل الشجاع. هذا الجمال، هذا اللطف الرقيق يمكنه أن يكون هنا، في كل أمان، كما لو أنها ابنتي أنا. تلك الفتاة الشابة، رغبتُ فجأة، في أن أمنحها أكبر قدر من الرعاية. لم يكن ذِيادوريمُ ليتخيل ذلك. لم تكن عينا ذِيادوريمُ تلوماني - كانت عينا ذِيادوريمُ تستجدان بي بكل قوة. كان السيد أورنيلاس شاحبا جداً. وأنا، واثق مثل شظية برق - آمين! - كان من الممكن أن يسقط أورنيلاس ميتاً حتى قبل أن يتكهَنَ بما فكَّرتُ فيه،

لو تحدث السلاح. لو اضطررتُ سأجرد ذِيادوريم من السلاح؛ وسيكون رجالي جميعًا هنا، واقفين، يسدّون كل المنافذ. وتلك الفتاة الشابة، التي سأحضرها بين ذراعيّ، ستكون شيئًا جميلًا وصغيرًا جدًا ينتفض... لكنّي لم أرغب في ذلك! آه، كم وكيف لم أرغب في ذلك، يمكن أن أقول لك: والرّب أيضًا يخفضُ رأسه موافقا: آه، كنتُ رجلًا مختلفًا تمامًا، كنتُ - الجاغونُسو ريو بالّدو... فأردتُ إذن أن أعطيها ضمانًا مدى الحياة. صارعتُ، تحكّمتُ فيما كان يلفُ ذهني من اضطراب. هكذا، كبحتُ جماحَ نفسي، هدأتُ وشعرتُ بتحسّن. كما لو أنني، بعد غليان الزيت، ودمي كله نارًا في جسدي، كنتُ أتنعش الآن بذلك البخار البارد، المفعم بالحبّ واللطف.

- أيتها الصغيرة، بكل تأكيد، سيكون لك، عندما يحين الوقت، خطيبٌ مناسب، شخص محترم وكدود، كما تستحقين وكما أعلنُ لك أنني أرغب في ذلك... يومها، لن أكون هنا، لأشارك في الحفل. لكن، إن احتجت لي، تذكّري، في أي لحظة، أن تطلبي حمايتي التي أعدك بها - كما لو أنني عراب زفافك الشرعي.

شعرتُ بالفخر بعد ما قلتُ من كلام. خافتُ مرت أخرى، عاجزةً، أكثر احمرارا. كما التقتُ أيضًا امتنانَ مرحٍ لاح لي في عيني ذِيادوريم المنغرستين في عيني. ألم أنجز ذلك ولم أحللهُ ربما لأرضي عميقا ذِيادوريم؟ أو ربما هذا الرجل العجوز شخصيا، السيد أورنيلاس، الذي اغتئم فترة فاصلة وكان يقول:

- يا ابنتي، اشكّري هذ القائد الكبير على كل ما قاله، لأنه أعلن أنه صديقنا المقدس في كل ما يحبّه لنا هذا العالم من سراء الأمور وضرائها.

في الحقيقة، التفتتُ نحوه. ودون خوف تمنّيتُ لو حظيت بمزيد من الأحاديث معه، وسعدتُ بصدّاقة هذا الرجل من أراضِي السّرتاؤ التي تنعم

بالسلام. طرحْتُ كثيرًا من الأسئلة. وتقبّلت في وعاء كبير مزخرف بعناية الشاي بطعم البرتقال، الذي كان دائمًا يعجبني. كان رجالي إلى جانبي، يستمعون.

- هل لديك فكرة عمّن هو زي بيبيلو؟ - سألتُه، بعد لحظة، حتى يتأكد عمّن أكون.

- زي بيبيلو؟ هذا ممكن، لا أقول... ولكنني أعتقد أن هذا الاسم، لا أتذكر، يا سيدي، أنني قد سمعته... - هذا ما أجابني.

هل كان شيء كهذا ممكنًا؟ لم يكن يعرف. لم يكن يعرف شيئًا، لا عن زي بيبيلو، لا عن ريكازداو، ولا عن هزموجينيس، لا شيء إطلاقًا، ولا حرفًا واحدًا. لكن، إذن، هل كان كل شيء في هذه الجهة من الأراضي العليا أوهاما وجهلا؟ كان لا بدّ للعالم هناك من أن يبدأ من جديد. - علاقتي قليلة بالسياسة، لم أعد أهتم بها... - اعترف. لم يذكر حتى من كان قائده، كأني أجهل من كان. كان معروفًا هو أيضًا - وربما تكون قد عرفتُه أنت أيضًا، يا سيدي، لأنه كان شخصًا يتردد كثيرًا على ريو دي جانيرو، رغم أنه كان يُشغَل جيشًا من الرجال المسلحين ومعروفًا بمناوراته السياسية في عالم الجاغونسو. كان رجلًا نحيفًا، قصير القامة، يرتدي ملابس على طريقة أهل المدن، برجلين قصيرتين ويدين صغيرتين - يبدو كأنه مفزوع على الدوام. عنه، عنه لوحده، يحكون أنه قتل ما يناهز مئتي رجل! هل عرفتُه، يا سيدي؟ العقيد روتيليو ماندوكا - في فازيندا بالوارتي! الآن، السلام.

لكن، هنا، سألتُه عن السيد هاباو، فقط من أجل تغيير موضوع الحديث. فكان هذا ما سمعته منه جوابًا على سؤالِي:

- هذا الرجل قريب من أقرباء زوجتي، من أقربائي البعيدين بطريقة ما... لكن، منذ أكثر من عشر سنوات قطعنا كل أواصر المعرفة بيننا. وبما أنني اختصرت الموضوع، بأحسن طريقة مناسبة ومرغوبة، لأنّ ذكر عدوّ قد يصيبُ أيّ أحد بالاستياء، فقد حكى لنا السيد أورنيلاس عدة حوادث مختلفة. وما احتفظتُ به في ذهني، لأنّه غريب في بساطته، كان هو القضية التالية، كما سأنقلُها لك، يا سيدي.

حدث ذلك في جانوآريا، في ضواحي المدينة، من الجهة الأخرى. في تلك الفترة، كان السيد أورنيلاس على علاقة جيدة بمفوض الشرطة الدكتور هيلاريو، شاب متعلم واجتماعي بطبعه، لكنه يتمتع بمعرفة إبداعية غير متوقعة، وله قدرة على الحديث بقلب مفتوح، فتحلّو معاشرته والتعامل معه. - علّمني آلاف الأشياء... كانت شجاعته مليئة باللطف وحسن التصرف... ودائماً، فقط بعد أن تنتهي الأمور، ندرك كيف كان هذا الرجل يتصرف بكل شهامة أثناء توالي الأحداث...

ذات مساء، إذن - وفق أقواله - كان السيد أورنيلاس هذا في حديث عند باب المدينة، رفقة الدكتور هيلاريو وجندي عادي، يرتدي زيّاً مدنيّاً، بالإضافة إلى شخصين أو ثلاثة أشخاص من معارفهما. فجأة، رأوا رجلاً مسافراً قادماً. كان بدويّاً يمشي على قدميه، من دون أي شيء خاص، ويحمل عصاً طويلة على كتفه: وعند طرف العصا كيس نصف فارغة. - من مظهره، يبدو أن الرجل قادماً من كيبّادا غراندي أو من سامبايبا. لم تظهر على وجهه سيماء إجرام ولا الرغبة في خوض الملاحم. بل إن بؤسه كان عادياً جدّاً، في مظهر مناسب تماماً... - كان السيد أورنيلاس مُقترّاً في الوصف. - إذن، ظهر هذا الرجل وعلى كتفه كيس نصف معبأ مشدود إلى طرف العصا، اقترب من مجموعتنا، وطلب منا بعض المعلومات: - من هو هنا، من فضلكم، لو

تفضّلتم، السيد مفوض الشرطة؟ - وقبل أن يبادر أيُّ أحد آخر بالجواب، أشار الدكتور هيلاريو إلى شخص يُدعى أدوارتي أنطونيانو، الذي كان هناك - شخص شرير، طمّاع نهم وخائن كبير، حسب ما يُقال عنه. - هو المفوض، يا صديقي - قال الدكتور هيلاريو مازحًا. وما إن نطق مفوض الشرطة بذلك حتى انطلق الرجل بسرعة جنونية، استلَّ العصا من الكيس، ونزل بها على رأس أدوارتي أنطونيانو - كأنه يريد أن يشوّهه أو أن يقتله. عمّت جلبة كبيرة: سيطروا على الرجل القصير وسجنوه في الحال، أما أدوارتي أنطونيانو فأنقذوه والدم ينبجس من جمجمته المفلوكة، لكن دون خطورة كبيرة. أمام هذا، استخلص الدكتور هيلاريو درسًا مما وقع، وقال لي فقط: - نعيش قليلًا لكننا نرى الكثير! - وبما أنني طلبتُ منه ما يقصد بذلك الكلام، قال: - شخصٌ آخر يمكن أن يكون أنتَ، ولكنك أنتَ لا يمكنُ أن تكون شخصًا آخر، هذا لا يصح... - أعتقد أن هذا الحادث كان أهمّ وأغنى حدث مليء بالدروس والعبر من كل ما عاينتُ من أحداث في حياتي إلى اليوم.

كانت مثل هذه الحكايات وحكايات أخرى هو ما رواه السيد أورنيلاس بنثر متجدد على الدوام. وعليه، خلال السهرة بكاملها، تركته يأخذ المبادرة؛ رغم أنني كنتُ أتساءل أحيانًا إن كان يصحّ، بما أنني القائد، أن أسمح لشخص آخر أن يخيّط وينسج ويقود زمام الحديث. وبما أن الليل كان متأخرًا، فقد جاءت أيضًا لحظة مغادرة المائدة، فرفضتُ بعناد عرض النوم على سرير داخل غرفة أو قاعة، بل خرجتُ لأكون وسط رجالي؛ وللإشارة إلى ذلك وضعتُ سريرا معلقا قرب الحظيرة بين شجرة بلاذر وشجرة جينيبيايرو، وفي فترة نومي الثانية غيرتُ المكان ووضعتُه من جديد، بين شجيرتين من النباتات الغلاديشيّة، داخل زريبة. لكن، على مائدة الأكل، كان ذلك الطفل غريغو، بما يسمُّ جيلَه الصغير من وقاحة، قد نام تمامًا بشكل مبكر،

فسمحت للنساء أن يأخذن ذلك الشيطان الصغير، ثقيلاً كما لو أنه رجل بالغ، ثم حملنه لينام لا أعرف أين بين فراشٍ وغطاء. الحياة مليئة بالمفاجآت! إننا نبدأ الأشياء، ونحن نجهل لماذا، ومنذها نفقد القدرة على متابعتها - لأن الحياة تعبئة يشارك فيه الجميع، ولكنهم يُحرّكونها ويُتبلونها. هكذا، كنتُ قد جلبت ذلك الزنجي الصغير غير يغو من سوكرويو، وها هو الآن يذهب لينام في سرير نظيف وناعم. إلا أنه لم يكن يعرف شيئاً وهو غارق في نومه، لا يستمتع بما يقع له في حياته. - إذن، ليلة سعيدة، أيها القائد، ونهوض ممتع غداً... - تمنى لي السيد أورنيلاس. وقد رددتُ له ذلك، مسروراً راضياً، بنفس العبارات تقريباً.

إنني أروي لك، يا سيدي، ما وقع أو ما لم يقع من أحداث، هناك في فازيندا باربارانيا، ليس لأنني أريد إطالة أمد الحكاية أو لأهلك عن وقتك. بل فقط لأن عرّابي كيليمين استنتج أن أحداث تلك الفترة كانت لها دلالة هامة في حياتي الحقيقية، بدءاً بالقضية التي رواها السيد أورنيلاس، الذي يدين كثيراً لذلك الدّرس الذكي الذي تلقاه على يد الدكتور هيلازيو. وهنا، أحكي لك ذلك، يا سيدي. فاسمعي وتحمّلي.

في اليوم التالي، استيقظتُ بمذاقٍ حلوٍ مرٍّ في فمي، رافضاً أن أصدر أي أمر كان: ذلك اليوم لم يكن من تلك الليلة. جمعنا ما استطعنا من الخيل - وكانت في المجموع عشرة، بما فيها الحمير والبغال. أوفى السيد أورنيلاس بوعده. دون ذكر أنه ألحَّ كثيراً كي نوجّل أنا ورجالي مغادرتنا، بسبب الحفل؛ لكنني ارتأيتُ أنه لَمَن اللياقة أن نذهب فعلاً، في الوقت المحدّد. زَرَعْتُ ورائي تلك الفرصة السانحة حتى يُمكنني لاحقاً أن أقطفَ فرصاً أخرى جيدة وأحسن منها. شكرناه على تلك الكلمات الصادقة، امتطينا الخيول وانطلقنا في تشكيلٍ جيد - كان الصباح يلمع بأضواء غير واثقة. حيّاً السيد أورنيلاس

خروجنا بطلقات نارية، حوالي نصف دزينة، تذكر أن يعطي إشارتها. أطلق الرجال الهمافات تجاه الساري مع العلم تكريمًا للقديس. بعد ذلك، أخذت المقدمة، همزت حصاني: ضغطت على الزمام والساقين. حازمًا.

قطعنا حوالي فرسخين، عبر طرق فيها كثير من الرمال. ولكنني كنت قد أصبحت مستاء. إنَّ ما يتغيَّر بأفزع سرعة في هذه الحياة هو اتجاه الرِّيح، طريق التَّأبير في شهرَي أيلول وتشرين الأول، وكل ما يتعلق بأحاسيس الناس. هكذا، فجأة، انتهت إلى أن الحديث مع السيد أورنيلاس قد حطَّ من شأني. وأنني تحت سقف بيته، جعلني القدرُ مدينًا له ففقدت السيطرة على صلاحياتي. إنَّ رأي الأشخاص الآخرين يرشَّح منهم، بشكل خفيٍّ، ودون أن نفكر في ذلك أو حتى أن نشكَّ فيه، ويمتزجُ، في النهاية، بطريقتنا في النظر للأمور! وهذه مسألة خطيرة، لذا ينبغي أن نشد أسناننا، نصمَّ آذاننا، ونغمض أعيننا. ونبصق أمامنا. يمكنُ لإلحاح صادر عن أشخاص آخرين أن يصيبنا كما يصيبنا مرض من الأمراض. البقاء بعيدًا - تلك هي القاعدة التي كنتُ أتبعها - سواء تعلق الأمر بظروف حساسة أو عادية. كان أكبر أخطائي عادي في كشف أسرار القلوب. وكذلك تقديري للناس، على الفور، كان عيبًا يعيق خطواتي. خاصةً أن هؤلاء الناس سرعان ما سيخيبُ ظني فيهم: فجأة يبدوون كما لو أنهم جُنُوا. هذه الإهانة، كلما فكرتُ فيها ازداد إحساسي بمرارة في الحلق: يصير اللُّعاب مالحًا مثل عرق النَّير، فلا يستقر في فمي. في تلك اللحظة، أذكر ذلك وأراه، تمامًا كما رأيتُ ألابيِّي غير بعيد عني - وكان معتدلًا في كل شيء كالعادة، يحتفظ فوق الوسادة على السرج بذلك التَّأرجح المتموِّج لراعٍ يقود الماشية - فناديْتُ عليه ليأتي.

- آه، ألم يسلمنا العجوز الخيول، يا ألابيِّي؟ لقد امتلأ قلبه ماءً. - قلتُ مفتخرًا - قام بذلك من أجل السَّلام. أخبرني، يا ألابيِّي، ألا يصيبُك هذا

السَّلام بالغثيان؟ - آه، هذا صحيح، هذا ما يحدث للبعض فعلاً... - ولكن، أليس السَّلام شيئاً جميلاً؟ إذن، كيف يمكن أن يصيبنا بالغثيان؟ - إنها طبيعة الناس، غير المكتملة... - إنَّك ترى كل شيء، يا أَلاريبي: أعتقد أن هذا الغثيان الذي يصيبنا به السَّلام هو نوع من الخوف من الحرب... - هذا ممكن جداً... - ومع ذلك فإن الخوف من الحرب وحده هو الذي يخلق الشجاعة... - لا أفهم هذا جيداً، أيها القائد، لكن لا بد أنه كذلك - أليس كذلك؟ إننا لا نشيّد جسراً إلّا عندما يصير النهر عميقاً ويحفر في الأرض ثقباً...

كثير من هذه الأشياء كنتُ أبتكرها وأنا أتكلّم، كي لا أفقد وجهتي وسيطرتي. إنَّ فم الثور يبحث عن الملح - ملح الطين الأحمر. كنتُ أستخدم شجاعة من دواخلي. كانت قوتي متعلقة بذلك: كنتُ متحمساً لكل شيء. ومشينا في تلك المسيرة الطويلة على متن الخيول. تجاوزنا مجرّى مائياً صغيراً، ضيقاً - لا يتجاوز ستة أذرع. جدول من ذلك النوع الذي يسميه من هم على عتبة الموت نهر الأردن. وقد قطع الجميع هذا النهر قبلي، بعد أن توقفتُ، أي على متن حصاني، عند الضفة.

انطلقنا مسرعين كالهواء: دون أن نتوقف ولا يوماً واحداً في الطريق. والآن صارت المستنقعات هي التي تحفُّ نهر باراكاتو. لكنني كنتُ قد استطعت أن أملأ نفسي بحوافز كبيرة. لم أكن أستطيع أن أقبض على الكلِّ، وإن حاولت جاهداً. لكنني لم أتمكن من أن أخبر الآخرين بما كنتُ أرغب فيه، وحيثُ فقط نظمتُ بضعة أبيات، أبياتي، التي خطرت عليّ كما يلي:

ناديتُ لحمل السلاح، أبرمتُ ميثاقاً

في فيريداس مع «الكلب».

وسرت وراء الحبِّ في قدره،

من أجل نعم، من أجل لا.

عندما يحين وقت الحصار
تصبح كل ماشية جحيماً:
يندسُ الجنون وسط القطيع
وينطلق ملكُ السَّرَتاو...

عبور الهضاب العليا
والسلاح دائماً في يدي...
السَّرَتاو ظلي
وملكه قائدي!...

هكذا كنتُ أغني، وكؤوس الكاشاسا تدور. بعد ذلك، أنشدَ الآخرون
أبياتي في جوقة - حتى دون أن يفهموا معانيها، فقط رغبة في المزاح - لكنهم
كانوا يسألون عن معنى الكلمات ويستعيدون طفرتي؛ يغنون أحسن
فأحسن من فرط الغناء. رأيتهم جميعاً، عدا ذِيادوريم: كان ذِيادوريم
غارقاً في كل أنواع الصمت. لأنه كان حزيناً: فكيف لي أن أحمل ذلك
الحزن؟ وهناك رغبتُ في ذلك، فكنتُ سيلاً جارفاً. ثم سرعان ما تخلَّيتُ
عن الأمر. منذ أن أصبحتُ القائد، رأيتُ كيف كان ذِيادوريم يبتعد
عني. هادئ، إننا نُسَمِّي الحب الهادئ: كما أن الأشياء تُنادينا بكل هدوء.
وكنْتُ قد وقفتُ أمام نهر باراكاتو - الذي كان بدوره راكضاً قليل المياه.
لم أتوقف، لم أتفحص الضفة الأخرى. أطلقت حصاني في الماء. تبعني
الآخرون. هكذا عبرنا النهر.

وكذلك، تابعنا نسير، نسير. كانت أياما كالأمواج. أعرف فقط المنحدرات التي صعدتها، مباشرة. الهضبة العليا: سماء من حديد. وكان القمر جديدا. تلك الحجارة البيضاء التي تبرد كثيرا أثناء الليل. كانت أشجار الكاراييبا تزهر. بكل مسام جسدي كنتُ أقيس قوة الرياح البعيدة. صادفنا هناك راعي بقر يرتدي ملابس جلدية. - صديقي يا صديقي، هل هنا هو هنا؟ - فقال مؤكدا: - هنا، أنتم يا سيدي، أيها السادة، أنتم فوق نُجود نهر أورو كويًا... - السهول العليا. حيثما كنتُ، أستقرُّ. النجمة، إنها تحب أن تلمع فوق الهضبة العليا. هل قمت بحماقة من هذا الحجم؟ في النهاية. هناك، كان النظر ير حل بعيدا مستقيما، بعيدا، لا يتوقف أبدا. هكذا دخلتُ في حريتي. إيه، صخّ أيها الببغاء، لتطلق حبال صوتك. إنّ الهضبة العليا إقامة، مكان للإقامة. لم أعد أعرف غير التنفس. شربتُ من نسغي، الذي لم يكن مُسكرًا. لم أقم سوى في أيامي الخاصة. وحتى هذا اليوم، ما زال حدث قلبي هذا يعكس صدى ذلك الزمن؛ وأي شعرة أنتفها من رأسي المشتعل شيئا تصيح إن تلك الأشياء كانت حقيقية - لا مثيل لها... وأنا، هنالك، أمام أبواب مشرعة، لأسير حرا، نحو الضوء اللانهائي... أظنُّ أن الأمر كان هكذا.

هكذا. لكن أحدهم منعني من ذلك. أم أنه كان لا بد للأمور أن تتخذ هذا المنحى؟ مرت نسورٌ فوق رؤوسنا، وكانت تسير نحو المغيب. نادى عليّ ذيادوريم، وأمسكني من ذراعي. لاحظ تلك التحولات في نفسي فانتابه الخوف. أم أن سيدتنا العذراء في الأبرشية هي من قرّرت أن تتخذ الأمور هذا المنحى؟ لكن ذيادوريم حذف كل مهماز من أفعالي، كبّحني، وسحبني عمداً نحو الخلف. فوق تلك القمم، أدركتُ معنى شيء واحد، سأحدثك عنه لاحقا، يا سيدي. آه، إنّ الهضبة العليا لا تنتهي إلّا في زُرقة الليل عند حلوله.

حدثَ ذلك ونحن ننزل نسيْرُ عبر منحدرٍ. قال لي ذِيادوريمُ: -إنني هنا،
وَألاحظُك جيداً، يا زِيوبالدو!

قلتُ: - آه، حقاً! آه، السَّلام!

قال: - لدي شيء أقوله لك، يا زِيوبالدو...

قلتُ: - حسناً، تكلم.

فقال ذِيادوريمُ، وقد وهن صوته: - أتكلّم لأنني أريد الخير، يا
زِيوبالدو... وكان كلامه همسٌ نخيلٍ في ذلك المساء الهادئ، يلامس هامات
أشجار البوريتي.

قلتُ: - تكلم، هيّا! - وقلت ذلك للمرة الثانية.

كان جبينه يرشح عرقاً، قطراتٍ سميكة - هل كان خائفاً مني حقاً؟ -
عرق لا بدّ أنه كان بارداً. هل كان ذلك تحذيراً يريد أن يوجهه لي؟

هذه المرة، لم أرغب في سماع أي شيء، فجأة لم أعد أرغب، لم أعد راغباً.
تظاهرتُ بالغضب. ألم يكونوا ملزمين نحوي، أنا، ومن كنتُ أنا، بموافقة
من دون تحفظ؟ ألا تجب عليهم طاعتي، كلهم جميعاً؟ من يقود يعرف كيف
يقود. صحيح أن الهضاب العليا لم تكن تساعدنا في عمليّات الجاغونسو التي
نخوضها. الفقر المدقع لهذه الأراضي، فقرٌ لا نهاية له، والمصير الحزين للناس
القلائل. سكّان متفرقون لأن الماء نادر في تلك الهضاب؛ والماشية تبحث عنه
هائمةً حزينه. كانت رغبة رجالي هي أن نعبر نهر دوشيكو وأن نبحت لأنفسنا
عن ضيعة صغيرة أو قرية كبيرة، نحظى فيها بأجر ونستمتع ببعض الملاهي
الكثيرة. وفق ما يمكن أن يكون مفيداً ومتجدّداً: أن نذهب حيث تكون هناك
سياسة وانتخابات. كنتُ أعرف ذلك. لم أكن غيبياً. ما يحتاج قائد ما لمعرفته
هو ما لا يسأل عنه. وقد كنتُ دائماً أشعر في نفسي أيضاً بكثير من الحنين.

أما أنا، فكنتُ أرغب في أن أعود يومًا ما إلى نهر داس فيلياس، بمراعيه الخاصة بالقطيع، بواحته المُشكَّلة من أشجار الماكاووبا على منحدر التل، وسط الغابة، طيور النحام التي تحلق على علوٍ منخفض، وطائر فرس الرِّمال الصغير الذي يستعرض حنانه. ذيادوريم، هل كنتُ أحبه؟ الحب له فترات متعددة. الحبُّ، في متناولنا، من تأجيل إلى تأجيل، يتعقَّل أحيانًا - بالنسبة للرجل ذي اللحية البيضاء. - حان الوقت لنخوض الحرب! - قلتُ مخاطبًا أَلاريبي، كما قلتُ ذلك لباكاما داس بُريزاس، أكاوًا وفافافا: زعماء المجموعات. ألم يكن بوسعي، أينما شئتُ، أن أغرس علَمَ حربي عميقًا؟ وقد صادفنا هناك تلك الرمال البنفسجية نشتمُ اتجاه الهواء من خلالها. لكن ستقول لي، يا سيدي: وماذا عن هِرْموجينيس؟ نعم، ألم تكن تلك الحربُ حربًا على هِرْموجينيس، وعلى الخائنين؟ نعم، أعرفُ. لكن، هم، سوف يأتون، مضطرين. كنتُ أعرف ذلك من العرق على وسادة السرج. بينما كنّا نسير في الأراضي المنبسطة أو في الأعالي، والرمال تلمع ببريقها. ولا يهدأ العالمُ إلَّا في وقت متأخر، مع حلول الليل، حين تغرد طيورُ الجاؤوس. أو في الصمت الشامل، المشرع للريِّح، حين نستطيع أن نسمعَ في أطرافه دقات جرس كنيسة. إذن، ألم يكن ذيادوريم يفهمني؟ هل كان يفهمني؟

هكذا، شعرتُ بالحقْد يكبر في نفسي. كان لا بدَّ لذيادوريم أن يفهمني. لكنني كنتُ أمرًا واقعيًا. مثلًا، جاء قطيع من الأبقار ومَرَّ متهاديًا بالقرب منا. ساق الرعاة القطيع، وهم يلفون الحبال حول السروج، يغنون بأصوات عالية. لاحظتُ كيف عرفوا مواراة الخوف الذي ربَّما أثَّرتُه في نفوسهم. قطع في الطريق إلى باراكاتو على ما يبدو، إلَّا إذا غيروا مسارهم. لكننا كنا نسير في الاتجاه المعاكس. ذبحنا رأسين من ماشيتهم فقط، لنأكلها. شوي

اللحم على طريقة أهل الهضاب العليا: يوضع اللحم في أعواد خُصِر، مما يتطلب وقتًا كي تحمَّر قطعة اللحم وتشوى فتُحمَّص مثل التبغ، ثم ينبعث مذاق هذه الرائحة قويًا جدًّا؛ وكان ذلك مثيرًا للشَّهية. كما قدَّمتُ شيئًا من الكاشاسا إلى الصغير غوريغو وإلى الأعمى بورُوميو: حتى أسمعَهما يقولانِ أشياء مختلفة وليست يقينية، لأنها محيرة بطبيعتها وغير عادية مطلقًا. هل كانا يقدِّمان لي نصائح؟ لا تشبه حقًّا غير تلك التي يمكن أن تقدمها شجرة كاروجو القصيرة وشجرة أراتيكوم التي - كما ستدون في كتاباتك، يا سيدي - تكثر في هذه الأرياف. لكنَّ قدري كان يلمع مُشعًّا - في كل شيء، صدَّقني. تمامًا كما تشير إلى ذلك الوقائعُ.

مثل تلك المرأة - التي نادوا عليَّ من أجلها: لأنها لا تستطيع أن تُخرج طفلها إلى هذا العالم. كانت ليلةً مقمرة، والمرأة تسكن في كوخٍ فقير. بل ليس حتى كوخًا، مجرد مخبأ بائس من سعف النخيل. ذهبتُ إلى هناك. فتحتُ، وارتبُت الباب - الذي كان مسندًا فقط، كان هناك باب؛ إلَّا أنني لا أتذكر إن كان من جلد البقر، أو نسيجًا من أغصان البوريتي. ولجْتُ إلى الداخل، ظلَّ القمر ينتظرني في الخارج. امرأة معدمة: فقيرة لا تملك حتى علبة عود ثقاب. لم يكن يسكن تلك قرية غير أشخاص متعجرفين مدَّعين. رأيتُ المرأة من الحصر الذي ترقد عليه فوق الأرض، فتوقَّدت عيناها من الفزع. أخرجت من جيبي رزمة من الأوراق المالية، وقلتُ: خذي، أيتها المرأة، يا بنت المسيح: اشترِي ما تقمِّطين به هذا الذي سوف يولد معافى وآمنًا، ولَسوف تسمِّينه زيوبالدو... أقولُ لك، يا سيدي: وُلد الطفلُ. قبَّلت المرأة يديَّ مرارًا وتكرارًا، والدموع في عينيها... ثم قلتُ بصوت عالٍ وأنا أودِّعها: - سيدتي، وُلد طفلك - فبدأ العالم من جديد!... - ثم خرجتُ إلى القمر.

ألم يكن ذبادوريم يرى هذا النوع من الأعمال؟ آه، إن نصيحة صديق لا قيمة لها إلا إذا كانت رقيقة، مثل هبة نسيم المساء على صفحة الماء. إن الحب يدير ظهره لكل عتاب. ذلك ما كان ذبادوريم يقدمه لي الآن بشكل مرير.

- يؤلمني، يا زيوبالدو، أنك أصبحت مختلفًا عن أي شخص آخر... إنك تسعى إلى الفوضى والاضطراب...

أدرت اللعاب داخل فمي.

- إنني أتكلم من أجل مصلحتك، يا زيوبالدو، لا تنزعج أكثر من هذا... إن ما يتغير في نفسك هو نموذج روحك - وليس هذا ما يصنع سلطة القائد. قال ذبادوريم ذلك فلفني صوته بأصدائه: الصراحة الأكيدة. هل تفاجئ صداقة الحب أمارات في روحنا، التي تُعتبر خندقًا محصنًا خلف سبعة جبال؟ هنا، أخذت كل وقتي. هل سأقبل منه ذلك التأنيب؟ آه، أبدًا. وبسهولة، وجدت ذريعة أخرى أعاكسه بها: ذلك الحديث العابر الذي أجراه ذبادوريم، على انفراد، مع رئيس البغالين في إحدى القوافل. سألته بطريقة عدوانية:

- ذلك السر الذي تحدثت عنه مع العجوز البغال - هل كان بشأني؟

وكانت تلك القافلة التي صادفناها، قبل بضعة أيام، متوجهة إلى بحيرات أبايتي، محملة بشحنة من التبغ، قطع المطاط، جلد النمر وثعلب الماء، وشمع النخل، أشياء قليلة. لا بد أنهم سيعبرون النهر انطلاقًا من أحد المرافئ؛ ثم سيقطعون أراضي لم أكن أعرفها جيدًا، سرتاوات أقل اتساعًا... الآن، كنت أريد أن أعرف.

- حمل ذلك الرجل رسالة من طرفي. أعطيتُه تعليمات كي يحمل الرسالة...

- رسالة بشأني أنا؟ وماذا إذن؟ هل أسأت التصرف؟!...

- رسالة. ولكن، لا تسأل شيئًا، يا زيوبالدو: ما فعلته، فعلته، وكفى.

قال زيوبالدو ذلك وابتعد، مُصمِّمًا على الصمت. لم يرَ أن ذلك لم يكن مجدياً: كنتُ قد أغلقتُ أذنيّ. لم أكن أرغب في سماع أي شيء وقتئذٍ، أي شيء يحبطني ويبعدني عن الطريق المستقيم. كان ذيادوريم قد أشار إلى الروح. مهما عرف أو لم يعرف، لم يكن على علم، ولا يعرف كيف أنني كنتُ ذهبتُ لالتقي الخفيّ في فيريداس مورتيس، عند ملتقى تلك الطرق المقفرة. ألم يكن ذلك هو سرّي؟ علاوة على أنه، عند فجر تلك الليلة، لم يحدث أي شيء بتاتاً. أي ميثاق - أي صفقة مبرمة. وكان دليلي على ذلك أن الشيطان، الشيطان نفسه، يعرف أنه ليس هناك من ميثاق أو صفقة، يعرف ذلك ويعرف أنه، مع نفسه، يعوزه الوجود. لو كنتُ حراً، بريئاً من أي ميثاق مذنب، سيكون بوسعي أن أحمل تميمة، أرتل صلاةً. بعد تلك الليلة، توالى عدة أحداث أخرى، ولكن هذه هي عجلة العالم التي تدور بهذا الشكل، ولا أحد يمكن أن يقول عكس ذلك. وضعتُ حجراً على حجر، لا أحتفظ بأي ذكرى. كنتُ القائد. جاء دوري لأتحمل القيادة وأكون في أعلى مرتبة. كان زي بييلو قد اختفى تماماً. الآن، ما كان ملحقاً هو الحصول على مزيد من الذخيرة. عليهم أن يطيعوني جميعاً، دون نقاش. هناك شيء وحيد، وهو أنني لم أكن أرغب بأن أشطّ في استعمال السلطة. لماذا لم أكن أرغب في ذلك؟ آه، لنقل أنني كنتُ حائراً. ولذلك تحديداً كان يحدث لي أن أرتعش دون أن يظهر ذلك وأنا أسمع ذكر بعض الأمور. كما لو أنني أمام شيء يهدّدني، يأتي ويذهب مثل غيوم ممطرة. هل يمكن للشيطان أن يترك بصمته في نفسي إلى هذا الحدّ؟ إذ كيف يعقل أن يأتي ذيادوريم ويقول لي ما قاله؟ أعتقد أنني لم أكن قادراً على أن أكون شيئاً واحداً طوال الوقت.

ما كان يستغرب له ذيادوريم، ولا يفهمه، هم ما يلي: طريقة تصرّف في مع شخص يُدعى كونسْتانْسِيو ألفيس، وقد صادفناه في ضيعة شايّو دو

بوي. وكذلك تصرّف في مع الرجل صاحب البغل، الذي يتبعه كلبه، والذي التقينا به ثلاثة فراسخ قبل الشخص الأول. الأشياء التافهة، التي لا قيمة لها.

أن يوجد في العالم شخص مثل كوستانسو ألفيس، ما دخلي أنا بذلك؟ ولكنه بادر وقال: إنه قد ولد عند سفح جبل أليغريس، وهو، بالتالي، من موطني الأول. تعاملنا معه معاملة جيدة. لكنه قال إنه ربما كان يعرفني عندما كنتُ طفلاً صغيراً. هذا ما قاله لي كوستانسو ألفيس هذا. هل كان يبحث عن مكافأة؟ في البداية، لم أشعر بالقرف من الحديث مع شخص عجوز مثله، أنيق المظهر، مُرحباً به، من أبناء بلدي. تناول القهوة معنا. استطاب ذلك حتى أنه بدأ يتصرّف على راحته ويطيل الأجوبة؛ وكنتُ أساعده بنفسي وأشجّعه على ذلك.

إلى أن جاءت لحظة، اقترب فيها ذلك الطفل الزنجي خلسة وهمس في أذني: - إيه، أيها القائد... - كلام ذلك الطفل الذي لا معنى له أحياناً. اللّعين - هل تحدث عن اللّعين؟ أم أنني أنا الذي، بمجرد رؤيته والاستماع إليه، فكّرتُ في اللّعين؟ لكن، إن كان الأمر يتعلق باللّعين، فقد فهمتُ. وهكذا، على الفور، راح أسوأ جانب من ذاتي يفرض قانونه على نفسي. كان ذلك الرجل يحمل معه مبلغاً مالياً كبيراً: شعر بوخز الضمير والمال في الصندوق - هذا ما استنتجتُ. تكهنتُ بالأمر، حدسته، هذا الرجل يستحق الموت عقاباً. بفضل أي قوة: ضوء إبليس؟ كل ما أعرف، على أي حال، هو أنه كان يستحق ذلك. إذ سرعان ما تأججت في نفسي رغبة مجنونة في قتل ذلك الرجل، بسرعة ودقة. رغبة لا علاقة لها بذلك المال: كان يكفي أن أطلب منه أن يسلمني إياه، وسيُنقذ ذلك بكل أدب. لكن القتل، القتل من أجل القتل، وفق قانون الشر. هل كان ذلك أمراً جيداً؟ هنا، فركتُ يديّ جيداً، وهممت

بإمساك سلاحي. وحينها شعرت برغبة في الضحك: لم يكن كونستانتسيو أليفس يشكُّ تمامًا في أنَّ حياته لم تعد بحجم دقيقة واحدة...

آه، لكن، في تلك اللحظة، من أعماقي أفكارى - ولا أعرف حتى إن كان صوتي ذلك الصوت الذي كان مني - جاء صوتٌ صغير، قوي جدًا، رغم ضعفه، وهمس لي همسًا خفيًا. كما أقول لك. وفي الأجل القصير المخوّل له، قدم لي ذلك الصوت تحذيرًا. آه، هناك ركن قصي لا يجد فيه الشيطان فضاءً ينفذ منه إلى قصري الواسع. في قلبنا، على ما يبدو لي. سِرّتاوي أنا، متعتي. وما كان يهمس به ذلك الصوت الصغير كان هو هذا: - انتبه، حذار، يا زيوبالدو: فالشيطان عازم على أن يسيطر على قرارك... - سمعتُ هذا التحذير، سمعته مبثوثًا في السهام؛ فتشبّثت راسخًا بقوتي. لكن، كيف؟ هل هناك من كابح ممكن؟ هناك، كان هناك كابحٌ واحد. قاومتُ حركتي الأولى. خنّنتُ فقط. واللحظة الراهنة، القائمة - نتشبّث بها. هذا كل ما أعرف.

ولكن هذه الرغبة في الشر، كانت بحاجة للتقاسم - ولم تكن كذلك؛ إذن، هل كنتُ أنا هو الشيطان؟ هنا، فقدتُ خيط أفكارى، تقريبًا. هل كنتُ أقتل قدرًا زهيدًا جدًا، فقط؟ وماذا لو لم أقتل باسمي الخاص؟ بذلت كل جهدي حتى يطفو في ذهني أمرُ ذلك الصوت الصغير. على أيّ، كنتُ أعصر شفّتي، أنفجرُ. في نهاية المطاف، رأيتُ أنه يجب أن أقتل، وأن ذلك هو ما كنتُ أريده حقًا. كأنهم كانوا متناثرين، كتفًا لكتف، في كل الأرجاء الخالية من الأراضي العليا، ألف شيطان وشيطان صغير، يعزفون بإتقان آلات القيثارة - ليمنعوني من الحديث مع نفسي، ومن أن أصرَّ على أن أفهم جيدًا، وأغضب في وجه ما قرّره الشيطان - القائد... لأنه، في اللحظات الأخيرة، يجب أن تعرف ذلك، قاومتُ بصعوبة كبيرة. آه، ولكن. لا بد من أن تعرف من كان هذا الجاغونسو زيوبالدو! فعلى الفور، شعرتُ بعذوبة الرّب:

توسَّلتُ للعدراء... تشبَّثْتُ بالظلام - واثقًا بسيِّدتنا العذراء. إِنَّ عطر اسم
العدراء يدوم طويلًا: أحيانًا حياةً بكاملها.

وفجأة، وجدتُ - نعم، إيه، نعم - وجدتُ وسيلة، وخرجتُ من ذلك
المأزق عبر فجوةٍ، مما أنقذني وأنقَذَ في الوقت ذاته ذلك التعيس كُونُستانْسيو
ألفيس. وكان بهذا الشكل: قلتُ مع نفسي: سوف أطرح عليه سؤالًا. إِنَّ
راوغ في الجواب، سيموتُ؛ لكن، إِنَّ كان عكس ذلك، سيحظى بالعفو.
وكان السؤال كمال يلي:

- بما أَنَّك من موطني، لا بدَّ أَنَّك قد عرفت شخصًا يدعى غراماسيدو؟
هل تكونُ، يا سيدي، من أقربائه؟

وانتظرتُ. لو قال إنه كان يعرف الآخر، سيموتُ هناك، بكل تأكيد،
لأنني لا أستطيع ألا أقتل؛ والآن صار خلاصه ينكمش، كأنه فتيل شمعة.
هكذا، وبقرار مني، أوقفته نهائيًا.

لكن السيد كُونُستانْسيو ألفيس كان منذورًا ليربح في تلك المناسبة، لِمَا
جاء على لسانه من جواب:

- غراماسيدو؟ آسف، ولكنني لم أره قطُّ، ولم أسمع به. لا أعرف شخصًا
من أقربائي بهذا الاسم...

كانت يدي قد تقدمت بهدوء نحو المسدّس. أدرك كُونُستانْسيو الخطر
المحدق به. اضطربَ فانكمش قليلًا: لا بد وأنَّه باعدَ بين ركبتيه من فرط
ارتعاش ساقيه خوفًا. هل اعتقدَ بدوره أن عليه أن يموت ألف مرة؟ -
قلتُ مع نفسي، خائئًا. إِنَّ الخوف الظاهر يُحدثُ عقابًا من غضبٍ؛ وهذا
كل ما يصنعه. آه، ولكن - آه، لا! - قرَّرتُ. أنا؟ هل قرَّرتُ أم لا؟ هكذا،
ومن جديد، في رمشة عين: قرَّرتُ أن أي مخلوق لا بدَّ أن يستفيد من شقاء

الحياة وأنَّ هذا الرجل يستحق أن يستفيد من الحياة بسبب جمالٍ عظيم في الكون أدركته فجأة. هل مرَّ ملاكٌ من هناك؟ وللمرة الثالثة، قاومتُ. كان كونسُتَانْسِيُو أَلْفَيْسُ الآن في منأى عن أي خطر. لكنني صحتُ:

- هل معك مالٌ؟

سريعاً، متجدِّداً، فتَّش الرجل بـكِلتا يديه في كيس صغير، فتحه: كان يعجُّ بالأوراق المالية المطوية، الملفوفة في ثوب؛ وراح يقدمها لي هدية. نظرتُ إلى عنقه البائس. ما كان يتلعه من ريق يمكن أن يكون بعدد حبات المسبحة. أخذتُ المال. أما هو، كونسُتَانْسِيُو أَلْفَيْسُ، فتركته يذهب إلى حال سبيله. لم أراقبه حتى - كي لا أرى ظهره. لكن، كي أكون في سِلْمٍ مع ذاتي وأفوز بفضائل الآخر، اضطررتُ لأعلن بصوت مرتفع:

- عفوتُ على هذا، لكن أول من يظهر لي في هذه الطرقات، سيؤدي

الشن!

قلتُ. هل كنتُ سأنفذُ ذلك؟

بعد ذلك بقليل، بعيداً بعض الشيء، ظهر ذلك الأول: حتى قبل أن أقطع ثلاث فراسخ. إليك، يا سيدي، الوقائع، كما حدثت. حدث ذلك في منخفض كانت بعضُ الثيران تمرُّ عبره هادئة. صادفنا شخصاً، يبدو عليه أنه مسافر. يركبُ حصاناً ذا لونٍ جميل، كستنائي، عاليًا نوعاً ما. سرجه في حالة سيئة، يتساقط قطعاً متفرقة. كان طرف من زمامه من الجلد والطرف الآخر من شعر الخيل. وكان الحصانُ يعرج، فوق ذلك. كان للرجل وجه يشبه خطم حيوان، وعظام فكِّه ناتئة: كان من دون ذقن. إنسانٌ تعيس، حسب ما يستشف من هيئته وما نتخيل عن حياته. لم يكن يستحق أن نشفق عليه، هذا ما كنتُ أفكرُ فيه. لكن، خلفه، وهو يرافقه، كان يصل كلب صغير على نفس الإيقاع.

توقَّفا. راح الكلب الصغير ينبح، كما يجب أن يقوم بذلك كل الكلاب،
لأنه من المفروض أن يكونوا شجعانا. تأرجح الرجل فوق الفرس، ومال
من الخوف. وفي ثانية واحدة تغير وجهه ثلاث مرات. فالتفتت نحو الطفل
غيريغو لأسأله:

- وهذا هنا، هل أقتله حقا؟

- تقتله؟ هل ستقتله، يا سيدي؟ - وكانت عينا الطفل تخرجان من
محجرهما.

كنتُ أسمع الآن ذقن الرجل يقطعق وأسنانه تصطك. ولم يكن ذلك
الشخص ينطق بصوت، ولا يتوسل إلي. كان يتكهّن بكل ما لا يعرف. هل
توقع بأنه سيموت فقط كي يعوض عن العفو الذي حظي به الآخر، ويأخذ
المكان الذي كان من المفروض أن يكون هو مكان كوئستانسيو ألفيس؟

آه، كلاً. هذه المرة، انقضت الرغبة في القتل. أعرفُ وعرفتُ: أكيد أن
الشیطان الآن كان يُخفي نواياه، وهو يشكّ في أنني لم أعد أرغب في التنفيذ.
فمعه، يا سيدي، كان الأمر كذلك: هو من يختار أسلوبه. بالإضافة إلى هذا،
كان يعلم أنه لم يعد من المفيد الآن أن يضايقني. كان يعرف أنني أشعُرُ
بالقرف حدّ الغثيان من حالة هذا الرجل فوق حصانه، وأن كل ما أرغب
فيه هو أن أسمح له بالذهاب، معفياً من أي عقاب. لكنه يعرف أيضاً أنني
ملزم إلزاماً تاماً بأن أقتل - لأنني لا يمكن أن أراجع عن وعد نطقْتُ به،
فسمعه رجالي وعلقوا عليه. آه، كان الشيطان يعرفني حق المعرفة! لا بدّ أنه
ليس بعيداً جدّاً، يستمع لي ماكرّاً، ويسخر مني: ينتظر أن يرى، جيداً، تنفيذ
واجبي الإجرامي. والرجل صاحب الحصان يراقب العدم في كل شيء،
يحاول أن يكون في أصغر قدر ممكن، يئنُّ في روح من صمت. أين ذهب
ملاكهُ الحارس، إذن؟ لا بدّ أن يموت. كان لا بدّ أن يموت، لأن الشيطان

كان يشدد عليّ الخناق بلفّات جديدة من أنشودة الالتزام؛ ولأنه لم يعد هنا من حلٍّ آخر، مهما كان ضئيلاً. ومن جهته، فهم الكلب الصغير ذلك، فراح ينبج، ينوح، ويعوي؛ أحسن بكثيرٍ من صاحبه. لكنني فكّرتُ في الأمر مرّتين. هذا التعيس، الذي لا يملك فلساً على ما يبدو، كيف أستطيع أن أقتله، وأقتله عوضَ شخص آخر، غني، ببطن سويٍّ ممتلئ؟ أين العدل في كل هذا؟ من يدري، لم يكن يعرف حتى من هو كوستانسيو ألفيس، ولا يعرف عنه شيئاً. هل كان ذلك عدلاً؟ هل كان ذلك ممكناً؟ فكّرتُ. زي بيبيلو، لو وُضع في مأزق كهذا، أيُّ حلٍّ كان سيّتكّر؟ لم أكن أملك الشجاعة لأطرح أسئلة كهذه.

كان الآخرون، متوقفين من حولنا، ينتظرون ليروا. لا أحد أشفق على الرجل صاحب الفرس، هذا ما لاحظتُ ورأيتُ. كانوا يريدون مراقبة طريقة تصرّفي. وسرعان ما هدّني الانشغال بأن أقول وأفهم كلامي الخاص. لذلك، وحتى أريح شيئاً من الوقت، سألتُ الأعمى بوروميو:

- ما ذا، يا صديقي؟ ما رأيك في هذا الأمر؟

قلتُ بصوتٍ مخنوق. لأنني كنتُ أطلب نصيحة من شخص أعمى، هكذا أمام الملاء، وفي الأمر ما يدعو للخجل.

- هل هو كذلك، أيها القائد؟ هل هذا ما قررت، يا سيدي؟ هل تريد أن يُقتل شخص ما؟ - أجابني الأعمى من دون تحديد، ولا سبب. أكيد أنني أخذته معي من دون فائدة. - ولكن هل ستقتله أنتَ بنفسك؟ - سألني الطفل غريغو؛ فتحدّث الشيطانُ مثل مزمارٍ. - أيها الشيطان الصغير، أغلق هذا الفم الذي يخرج منه الدخان! اخرج من هنا، أيها الشيطان!... - قلتُ موبّخاً. فانفجر الآخرون ضاحكين.

لكن، أثناء ذلك، راح الرجل المحكوم يبكي الآن، دائماً معلقاً على ظهر جواده، بوجه متجهم. كان يبكي حظه: لأنه كبر فخرج من طفولته البعيدة. لم أسأله عن اسمه ولا عن أصله. فشخص في موقفه لا حاجة له ولا واجب. وجهه، من فرط شقائه، بدأ يفقد شكله ولونه، بدأ ينحل - صار كائناً بوجه يتحلل. بإشارة تحذير مني، بدأ أكأوا يراقبه عن كثب؛ لأنه، حتى في أشد حالات الذعر، من الممكن أن يقوم شخص ما، في نوبة جنون، بحمل السلاح وإطلاق النار. كان متشبثاً بالحصان بكل قواه، جاثماً فوقه - المسكين. - ارحل من هنا!... - صحت مرة أخرى في وجه ذلك الشيطان الصغير. على أي، كان من الضروري أن أتخذ قراراً. ودون تلكأ، خوفاً من فقدان ماء الوجه أمام رجالي. أو أمام الشيطان. الشيطان؟ رغم أنني أعرف الكثير. كان يحوم هناك حولي، أعرف ذلك لكنني لا أراه، ولا بد أنه كان قريباً جداً، يسخر مني.

آه، لا! هل أشفقت على الرجل، في نهاية المطاف؟ كان الكلب الصغير يئن. لكن، كيف يمكن أن نطلق النار على شخص ضعيف كهذا، يبدو أنه يقلص كتفيه مع كل هبة ريح؟ كانت الكلبة الصغيرة تزعج الخيول. كنت مشلولاً بسبب الوعد الذي أعطيته وكان عليّ أن أفي به. أم أنني كنت خائفاً من النهم، من المزوج، من المذكور، ذاك الي نصّبته مراقباً عليّ؟ مهما يكن، صرت اليوم أكثر من الصلاة. الرجل على صهوة حصانه الذي كان يحتج الآن في قلبي شديد. معروف أن دابة مطية، حين تشعر بخوف البشر، تضطر لإظهار ازدرائها للفارس. خاصة أنهم بدأوا جميعاً يضحكون، أكثر فأكثر. - ها قد بدأ يتبول! - لاحظ أحدهم. هل كان ذلك يُرى؟ حتى مع وجود السرج الذي يمتص البلل، هل كان الرجل يتسخ بما خرج منه؟ كانوا يتدافعون ليروا ذلك، فتقاطرت النكت. في تلك اللحظة، انقضّ الكلب

على الفرسان ليحمي سيده - كي يراه ينبج ويظهر الأسنان، وكانت كثير من الخيل تهمر الأرض متوترة، مغتظة. أما الرجل، فكان يقطب جبينه، خجولا، لا ينطق ببنت شفة. آه، وزى ببيلو! - تذكرت، فجأة، تلك المناسبات البعيدة. كانت الخيول تستدير بتلك الطريقة، والفرسان يزعمون: ذكريات زى ببيلو. وحده زى ببيلو كان يعرف الطريقة لفك اشتباك وضع معقد كهذا، والخروج من المأزق. أين كان؟ آه، آه، وهنا - هنا فقط، فيما يشبه الانفجار، وجدت أفكارا قوية. اللعنة! جعلت حصاني يقوس ظهره ويرفع قوائمه - ثم قلت، صحت - في حماس يشبه حماس زى ببيلو - صوتي نسخة من صوت زى ببيلو، وسط ذلك الاختلاط الرائع من الحيوانات، الأعراف المتطايرة، في مد من الفوضى والحماس. نطقت:

- اللعنة! لا يجب أن أقتل هذا التعيس، لأن الوعد الذي أعطيته لم يكن له: ما رأيتُ أولاً، وما ميّزتُ، كان هو الكلب الصغير!...

صمتٌ مذهل فقط. ثم هتفوا. فهموا جميعاً، وأبدوا إعجابهم بي. حسب علمي. والآن، أقول لك: كنتُ أنا من يضحك من الشيطان، في تلك اللحظة!

- إيه! أنتم، اقبضوا لي على هذا الكلب!... - أمرت. في رمشة عين، كانوا قد قبضوا على الكلبة الصغيرة، التي كانت تتخط. بما أن الحبل، الشكال أو الزمام لم تكن وسائل مناسبة، فإن باكاما دي بريستيس وجيريبيبي صنعا رسناً مع حبل قصير، وربطوا الحيوان الصغير إلى شجرة أسالييتاو - لا تركوه يصيح... لا تركوه يصيح - قال الأعمى بوروميو حينئذ، لأن صيحات الكلب كانت مخيفة جداً. - حسناً، سوف نشق الكلب... - تجرأ الطفل غريغو. أخذته بعيداً ليبقى بعيداً عن التأثير. نزلوا بصفعات قوية على فخذ الحصان، ثم سحبه جواً فاكيرو، ليعث الاثنين بعيداً على مسافة مناسبة.

- إنَّ الكلب، حين نشنقه، يبكي بدموع حقيقة - لأن عينيه تعملانِ مثل أعيننا نحن البشر... - قال الأريبي بصوت رتيب. فكَّرتُ في كل شيء، كل شيء. هل أقتل الآن تلك الكلبة الصغيرة؟ كان ذلك، بكل تأكيد، آخر شيء كنتُ أشعر أنني أستطع القيام، به، إلَّا إذا أخضعوني للسَّحر. خاصةً وأن الكلبة الصغيرة كانت تتصرف على أحسن وجهٍ ممكن، ولا تنبح كثيرًا. آه، لا! لا! لن أقتلها. لكن، في تلك المرحلة، تعلمت بدوري بعض التفاصيل. قلت عاليًا مرة أخرى:

- ولكن، ماذا!... لم تكن هذه الكلبة، بل هذا الحصان - هو الذي وقعت عليه عيناى أولاً!

هكذا، غيرتُ الموضوع - حتى يكون الأمر واضحًا تمامًا. أنا متأكد أنهم وافقوا رأيي. كانوا جميعًا مستمتعين؛ فمن منهم سيعارضني؟ كنتُ أنا السيد هنا وهناك؛ أتكلَّم عن الشيء فيكون. أمَّا الشيطان نفسه، فلم أعد أفكر فيه. كنتُ الآن منشغلًا بشيءٍ آخر. - هذا الرَّجل، أنزِلوه، أطلقوه ليذهب إلى حال سبيله! - أمرتُ بتنفيذ ذلك... على الأقل، لا أراه لا يفهم شيئًا، ولا يحرك ساكنًا. فجأة، ارتعشتُ من الرُّعب: لو مات الرجل، مصدومًا، مهانًا بهذه الطريقة - هنا، سوف أجذني وحيدًا في قعر جهنَّم... بلطفٍ وشيءٍ من القرف، أنزلوا ذلك التعيس الذي بالكاد كان يقف ثابتًا على رجله. - هيا، اهرب من هنا، اذهب حالا! - قلتُ، واضطرتُّ لأصيح. وهنا، فهم وابتعد. فكَّرتُ لحظةً أنه سيطلق ساقيه للرَّيح. لكنه توقف دون أن ينظر إلى الخلف. الآن استعاد البكاء، ومنافع الدموع: كان يبكي متحجبًا مثل طفل صغير. لم يكن لذلك أي معنى وكان شيئًا يثير أعصابي، مناورة تقوض مقاومتي. مُستائِن، صاح رجالي في وجهه، فراح يركض من جديد على إيقاع الصيحات. توقف مرة أخرى، ومن اهتزاز كتفيه، لابد أنه كان

لا يزال يبكي. كتمتُ غضبي. كان مثل ضربة أمواج البحر: ماج بداخلي بكاءً - كنتُ على حافة البحر. لم أرغب في ذلك ولم أستطع. القلق، لأن عينيَّ بداخلي لم تريا غير الظلام. ذلك الشيء الغريب - أتعرف -: إننا لا نبكي في الظلام لأننا لا نرى، ولا ندخن أيضًا... وهناك، شعرت بالقرع من ذاتي. آه، في نهاية المطاف، هو من كان يضحك في الأخير، الشيطان. السيء! هكذا، بسبب القلق الذي ألمَّ بي لأنني أردت أن أنقذ حياته، فقد تصرف تجاه هذا الرجل فتأخرت كثيرًا. كان من الأفضل أن أقتله على الفور. كيف يعقل أن نستخفَّ بكل شيء ولا نحترم شخصًا تعيش رث الثياب؟ لكن، كيف؟ لم يلتفت الرجل ليحاول أن يرى ما خلفه، ويعرف شيئًا عن كلبته الصغيرة. كانت الكلبة هناك، مشدودة بقوة إلى كرامتها. نسيها الجميع لأنها لم تعد تنبح. هناك، شعرت بإحباط كبير يحتاجني. ذلك أنه، من يدري إن كنتُ لن أضطرَّ، لاحقًا، لدفع ثمن كبيرٍ عمَّا ارتكبته من تجاوزات في حقِّ ذلك الرجل؟

انقضى شيء من الوقت، وكانوا قد سحبوا الطقم عن الفرس، وعلقوا السرج والوسادة على غصن شجرة على حافة الطريق. وكانت الدابة المسكينة هناك، يشدها فافافا من طرف مطوَّالها الطويل؛ وظلوا ينتظرون أن أبث شخصيا في مصيرها، أو أترك ذلك الأمر لشخص آخر، وفق القرار الذي سأأخذه. أما الكلبة الصغيرة، فقلت مع نفسي سأعطيها لذيادوريم، الذي ظل متواريا خلال كل ذلك، وصامتا طوال الوقت. حسنًا، لا يهم الانزعاج، لأنه حان الوقت لأقوم بشيء جيد. بمعنى أنه، بما أنني بدأتُ هذا الأمر بشكل كارثي، فقد كان من الضروري أن أنهيه بطريقة معقولة. هل يكفي أن أخرج المسدس وأصوبه نحو جبهة الحصان الذي سيسقط فاتحًا قائمته، محتضرًا؟ هل يكفي هذا؟

وحينئذ، ضاق فافافا ذرعا بصمته، فالتفت نحوي وقال: - بعد إذنك أيها القائد، أطلب: هل تقبل أن أدفع مالا مقابل هذه الدابة البريئة، وننقذها... إنها ليست فرسا خبيثة...

ولما سمعوا قوله، أيده الآخرون: أن أتخلى عن الأمر. كان أول رد فعل صدر عني هو الغضب: ها هو فافافا يتدخل في شؤني. وكان الآخرون، على ما يبدو، يستهجنون قرارى بقتل الفرس. هل كان رجالي يتمردون؟ آه، لا: لأنه بعد لحظة، أعجبني الأمر أنا أيضا. كنت سعيدا أن أسمع رجالي يعبرون هكذا، بكل هدوء ومنطق، عن اختلافهم معى بشأن الفرس. كانوا يختلفون فى ذلك مع الشيطان! رجال شجعان، متبصرون. إلا أنه، هنا، بما أنهم هم من قرروا ذلك، لم يعد من اختصاصى حل المشكلة. البيع، لا أستطيع بيع حياة الفرس إلى فافافا. آه، لا. وهناك، انتبهت، فابتكرت حلا. هذا ما قلته:

- أؤكد ما بدالى صحيحا: ما رأيته فى البداية كانت هذه الفرس. هي من توجب عليها أن تموت... لكن الفرس ليست شخصا له وجود. فماذا، إذن؟ إذن، قتل الفرس ليس مناسبا، لأن القرار الذى أعلنت عنه كان يتعلق بقتل إنسان! هذا الوعد ليس ملزما لذلك لا أنفذه. انتفى جوهر قولى وتلاشى من ذاته فضاع - أليس هذا هو ما قلته؟ لذا، أقدر وأعلن أن القضية قد انتهت.

فى الحقيقة، وافقوا جميعا على ما قلت بكثير من الفرح. أي أنهم كانوا معجبين بى، معجبين بكل براعة أبنت عنها مقترحا أي حل أبكره؛ مع أنهم لا يعلمون أن حيلي كنت أجنيتها من مكر الغاوى. مسرورا، إذن، وغير راضى عن نفسى، هذا ما كنت أشعر به. لأن هذه الأمور، بطريقة ما، كانت تُجرّدنى من أي سلطة فوق الأرض. لكنى كنت أفرك يديّ الجافّتين.

- ليسرّع أحدكم ويلحق بذلك الرجل... - قلت - أعيدوه إلى هنا، كي نعطيه مالا، نقدم له قهوة يشربها وطعاما يأكله، ونعيد إليه ما كان يملكه...

كنت أتحدث عن إعادة الفرس إليه. فانطلق سوزارتي، جوزيه جيرفازيو وجيريبيبي راكضين على خيولهم يبحثون عنه. كانت الفرس، التي فككنا وثاقها، تبحث عن كُتْل الكَلأ، وترعى. وبما أننا بدأنا نرتاح في انتظار ذلك، وكان هناك ماء جيد في الفسحة المجاورة، فقد وضع جاكاري الحامل الثلاثي وأعد القهوة. جلست تحت ظلّ شجرة سبّوتة، وبقيت أنصتُ لما كان يغدق عليّ به من ثناءٍ من كانوا من حولي، عربوناً على ما سيأتي من أعمال كبيرة في المستقبل.

- مع كل خطوة، يجد القائد حيلًا دقيقة أدهى من تلك التي كان يأتي بها زي بيبيلو... - قال أحدهم.

- أقسم أنه قرر بنفس العدالة التي كان يقرر بها ميديرو فاش... - أضاف آخر، بمزيد من الإطراء.

كان ذلك الإطار الجميل يهدئ من اضطرابي. لحظتها هنأت نفسي على رجالي، لأنهم أحياء يتحدثون. لكن، حتى أرسخَ فكري وأفرض عليهم احتراممي وأبين لهم أنني مستقلٌّ في قيادتي، أمرتهم أن يهدؤوا، لأنني سأغتنم الفرصة لأغفو قليلاً على سبيل القيلولة. كنت أحبُّ الاستماع للنسيم الخفيف في الهضبة وهو يهبُّ هادئاً على الأغصان ويحرّك الأوراق. كانت الكلبة الصغيرة لا تزال مشدودة، لكنها تعودت على ألاّ تنبح: أتصور أن أحدهم كان يقدم لها قطعَ لحمٍ جاف. أتذكّر أنني كنتُ لا أزال قادراً على الاستمرار في ذلك الأحد الهادئ. وأحسن ما في الأمر - قلت مع نفسي، أحسن ما في الأمر - ألاّ يظهر الآخر، روح الشر، ويندسّ في كلّ هذا؛ والشيء الأكيد، بما أنه لا وجود له، هو ألاّ يحشّر نفسه بيننا.

غفوتُ قليلاً. كان سوزارتي، وجيريبيبي وجوزيه جيرفازيو قد عادوا خائبين. - لقد تاه الرجل في الطبيعة وتلاشى معه كل أثر، لأنه خاف خوفاً

مرعباً... لم نجد منه غير الفراغ... قالوا. كيف يمكن حلُّ ذلك الأمر؟
نستأنف السير، دون تأخير. سنترك الفرس هناك، ربما يعود الرجل يوماً ما،
يمر بالمكان مرة أخرى، أو يصله الخبر على لسان أحدهم. امتطينا الخيول
مرة أخرى. والكلبة الصغيرة؟ - رينالدو، هل تريدُها؟ - سألتُ ذيادوريم.
وهو ما ردَّ عليه بجواب أحسن: الشيء الوحيد هو أن نطلق هذه المسكينة،
أُكيد أنها ستعثر على صاحبها أينما كان... - ثم فكَّ رباطها بنفسه. كان شيئاً
يستحق العناء أن تستطيع رؤية ذلك الاندفاع من الحبِّ الذي حرَّك ذلك
الحيوان الصغير: راحت تنبَح من السُرور وتجري كالمجنونة، دون تأخر،
كما لو أنها تعرف مسبقاً أين تجري، ولها أجنحة! اختفت بعيداً في الأفق،
وانطلقنا. ظلت الفرس هناك، ترعى هادئةً، وطقم الرجل والغطاء معلقين
على غصن الشجرة، مثل فزاعة، بانتظار أن يأتي ذباب الحقول قريباً ويتجمَّع
حولها.

شعرت أنني حرٌّ، وقد تخلصت من كل ما حدث. سرْتُ خبيئاً للأمام.
كنتُ أمشي بزمام مرتخٍ، لا أفكرُ، لا ألزم نفسي بأي شيء. هل كنتُ - إن كنتُ
أستطيع أن أسألك - أجوبُ ذلك السُّرتاؤ مع الآخر شريكاً لي؟ خسئتُ أيها
الشَّيطان! لكني لا أملك وسيلة لفهم سبب استغراب ذيادوريم من أحوال
وجهي. ولهذا جرى حديثُ بيننا - بسبب ما حكيتُ لك بكل تفصيل.

ما جرى من حديث بيني وبين ذيادوريم، وما قاله لي في نهاية الأمر، بقي
لي منه أثرٌ. كانت خطوته مهينة لي. كيف أكون؟ كنتُ أريد ولا أريد أن أسمع
- كنتُ أريد ولا أريد. أيُّ بقية جواب، إن جاءت، لا يمكن أن تكون غير
تهمة. فأردتُ. لا أدري ما أصابني، فأسأل مجهداً، حزيناً، وسألتُ:

- تلك الرسالة التي بعثتها، يا ذيادوريم، أخبرني عن فحواها. من واجبك
أن تتحدث بصراحة وأنا ألحَّ على ذلك بكل قوة - أنت مدين لي بهذا.

- أنا صديقُكَ. هذه الرسالة، يا زيوبالدو، طلبتُ من البغال أن يسلمها إلى امرأة...

- إذن، ليسلمها إلى فتاة، إلى فتاة فازيندا سانتا كاتارينا، أي إلى أوتاسيليا، خطيبي. هل هذا صحيح؟

- نعم، يا زيوبالدو. أي عيب تراه في هذا الأمر؟

اضطرت لأضبط نفسي، كي لا ألعن، فشددت الزمام بقوة حتى أن الحصان اندهش. لأنني فاجأتُ العالم البدائي غير المتزن: مالي وما ليس لي. إذا كانت الحياة ترتب الأمور أحيانًا بهذا الشكل، فكيف نكون واثقين من أنفسنا؟ كان ذيادوريم ينظر إليّ. ظلّ ذيادوريم ينتظر، هادئًا دائمًا. كان حبه لي من ذهبٍ خالص: لم يعد يتلعثم من الخوف ولا من الغيرة. قال ما يلي:

- طلبتُ منها أن تُصلي لأجلك، يا زيوبالدو... وباسم الأمل المفعم بشوقها، ألا تتوقف لحظة عن الصلاة، وفق العادة القديمة...

بمرارة، أمام استغرابٍ من الإحباط الذي ألمّ بروحي، أدركتُ أنه، حتى قبل أن يتكلّم، كنتُ أعرف ذلك - لكنه لم يتحاش أن يقوله لي. بيد أنني سألته مرة أخرى، مع ذلك، بكل فضاظة:

- آه، لا! أعتقد أنني بحاجة إلى صلواتها لتساعدني، يا ذيادوريم؟

- أعتقد ذلك، أعتقد ذلك من الصباح إلى المساء، يا زيوبالدو... كثيرًا جدًا. بل أتساءل أحيانًا إن لم يكن أحدهم قد ألقى عليك أذى من السحر... حتى أمك، إن كانت ما تزال على قيد الحياة، ستعتقد ذلك...

عنيفًا، عنيفًا جدًا فارَ الدّم في جسدي وتدفّق نحو وجهي قرب أذنيّ، وسرعان ما بدأت شفتاي تؤلمانني كثيرًا لأنني كنتُ أعصّها عصًا حتى لا

أشتمُ ذِيادوريمُ بأقبحِ النعوتِ التي قد تكون أكبر إهانة له. بضربةٍ على الزمام، أبعدتُ حصاني عن رأسه.

- اهتم بحياتك الخاصة، أيها الشاب! هذا ما أنا بحاجة إليه، نعم، أنا بحاجة لقدر أقل من الصداقة... - زمجرْتُ، وبينما كنت أبُتعد، رحت أُلوك: - وماذا بعدُ! ضدُّ من هذه الصلوات؟ تُطلق الرصاصَ خفيفًا على حيوان التَّابير الصغير... - ثم ضحكْتُ بخبثٍ. ما الذي كان يقلقني، من الوسط حتى النهاية، في كلِّ هذا الكلام؟

وهكذا، بعد ذلك بقليل، حين وصلنا إلى نهاية رحلة ذلك اليوم، فرضتُ على نفسي ألا أقبل حديثًا ولا حضورًا لأيِّ كان، حتى يدركوا كم كنتُ منشغلًا وغاضبًا. وحزينًا. بلغنا نهاية الهضبة العليا، في حدودها الغربية بما أننا مشينا وفق ما أعطيتُ من تعليمات. راجعتُ مع نفسي عدة أمور جدية، عندما كنتُ أستمع ببرودة المساء.

باختصار: سأكون كاذبًا إن لم أقل إنني كنتُ حائرًا. وهل تعرف، يا سيدي، ما كنتُ أتخيل، ومن؟ هل هو موجود؟ هل يستطيع؟ وحتى يومنا هذا، ما زلتُ أعاني العذاب من أجل معرفة ذلك؛ وحتى يومنا هذا، بعد أن تعقَّلتُ مع مرور السنين. هل يوجد الشيطان؟ إن وُجد، فإنَّ ما يوجد هو فقط أسلوبُهُ، من دون صلة، ولا كائن خاص - مثل بقع فوق سطح الماء. صَحَّتْنا تَحترق هذا الخطر، مثل البرد الذي يتوغل في الحرارة. وماذا عني أنا؟ أنا الذي ذهبتُ عند منتصف الليل إلى ملقَى الطرق ذاك، في فيريداس مورتيس. هل اخترقتُ أشباحي؟ هكذا، من فرط التفكير في ذلك النظام، من فرط ذلك، فكَّرتُ فيها أقل. ما كان ينبغي أن يقع، لو أنه وقع، لكنه لم يقع: تلك الصفقة. حسنًا، إن لم يظهر لي الذي لا يُذكر، بينما كنتُ في انتظاره، هل ناديتُهُ؟ هل بعْتُ روحًا؟ هل بعْتُ روحي لمن لا وجود له؟

لكن، هل يكون هذا هو أفضع ما في الأمر؟... آه، لا، أقول لا. لقد زغت عن الطريق، لكنني عدتُ أدراجي. أكيد، هل توافقني، يا سيدي؟ تعثرتُ، لكن الأرض رفضت سَقْطَتي. اليوم، أنا أفكّرُ، وأكفرُ عن ذنوبي. أشفقتُ على لباس الجاغونُسو الذي ارتديه. وأصلي. إِنَّ الرَّبَّ يدير ظهره لي، لكنه يصيخ نصف السمع. أُصلي. أودّ أن أعيش لأرى كنيسة كبيرة بأبراجها البيضاء الجليلة تطلُّ بكل أجراسها على منطقة الهضاب العليا. كيف يعقل أنه لا يأتي قديسٌ ما من تلك الضفاف هناك في أوروكويا؟ والشيطان، ليس هناك من شيطان. ليس هناك أي شيطان. هذا ما أقول وأكرّر. وأنا لم أبع روحي. لم أوقع أي ميثاق. لم يكن دِيادوريمُ يعرف شيئًا. كان دِيادوريمُ متوجِّسًا فقط من مظهري. أسمع ضحكته، تلك الضحكة الصافية التي نادرا ما كان يطلقها؛ أعني أنني أتذكّر. يمدُّني عَرَّابي كيليمينُ بنصائح تزرع الطمأنينة في نفسي. هو من يردّد: ... في الحاضر كما في المستقبل... - أعرفُ.

دائمًا كنتُ أعرف، في حقيقة الأمر. باستثناء ما بحثتُ عنه، طوال الوقت، ذلك الشيء الذي قاتلتُ من أجل العثور عليه، وكان شيئًا - شيئًا كاملاً - كنتُ دائمًا أعرف معناه وألمحه على الدوام. وكان: أنه توجد قاعدة، وصفة طريق آمن، ضيق، يجب على كل شخص أن يعيشه - وكل واحد له قاعدته الخاصة - لكننا، عموماً، لا نعرف كيف نجده؛ فكيف لشخص وحيد، من ذاته، أن يستطيع العثور عليه ويعرفه؟ وإلاَّ فإنَّ حياة كل واحد لا يمكن سوى أن تبقى اضطراباً لهذا الجنون الذي تمثله. بما أنه في كل يوم، في كل ساعة، من بين كل الأفعال الافتراضية، ثمة فعلٌ واحد يفلح في أن يكون هو الصَّحيح. إِنَّ سرَّ ذلك خفيٌّ جدًّا؛ لكن، بعيدًا عن هذا السبب، مهما فعلتُ، مهما فعلتَ، مهما فعلَ فلان أو غيره، مهما فعل العالمُ بأسره، أو لم يفعل، يصبح كل شيء زائفاً، فيكون الخطأ. لأن قانون الحياة الحقيقية مختلف

عن قانون المختفي والمرئي الذي لا نعثر عليه: بالنسبة لأي شخص، يكون استمراره متوقعا، كما هو شأن أي ممثل على خشبة المسرح - يكون دوره مبتكرا سلفا ومكتوبا على الورق...

حسنا، اسمع، يا سيدي. هل نُكفّر عن خطيئة بخطيئة أخرى؟ طبعاً، لا! أعتقد أن عرابي كيليمين يتفق معي فيما يتعلق بهذه الأحلام التي تراوطني. لذا سعيثُ إلى العثور على الطريق الصحيح، وعملت جاهداً من أجل ذلك؛ لكنني بالغت في السعي وببحثُ خطأ. البؤسُ بين يدي. لكن روحي يجب أن تكون صورةً للرب: وإلا، كيف يمكن لروحي أن تكون؟ صلّ معي، يا سيدي. أي صلاة. اسمع: ما لا يمكن أن يكون صلاة، فهو جنون... إذن، هل أعرف أم لا أنني بعثُ روحي؟ أقول لك: هذا هو خوفي. هل كلهم يبيعونها؟ أقول لك: ليس هناك من شيطان، الشيطان لا يوجد، والروح بعثها له... خوفي، هو هذا. لمن بعثها؟ هذا هو خوفي، يا سيدي: إننا نبيع الروح، هذا كل شيء، من دون أن يكون هناك أيُّ مشترٍ...

إنني أفصحُ عن حكايتي. تلك الأشياء كما فكّرتُ فيها؛ لكنني فكّرتُ باختصار. كأنني قد اختلستُ راحةً قصيرة من صلب اضطرابي، من أجل أستجلي أفكارِي - ما يتسع لثلاثة عقائد. وكانت البقية في الطريق. كما سترى. لاحقاً، مع ذلك.

في جبال تاتو يشتد البرد كثيراً حتى أننا، في الصباح الباكر، نحتاج لثلاث أغطية. في جبال كونفيسنس، عند منتصف شهر تموز، تسوّط رياحُ آب بهبات جامحة؛ تهبّ هكذا فتسقطُ الأشجارُ. أينما ذهبْتُ، كانوا يجدون الأمر طبيعياً. القائد قائد. ألم يكونوا يدركون أنني لا أعرف أين أسير؟ بمعنى - لنقل - أنهم لم يكونوا يعرفون البدايات ولا النهايات. كنتُ أسير بطريقة ما، أسير وأعرفُ. هل تتساءل كيف اهتدى البومُ إلى طريقة يطير بها دون أن يفهم

حفيفَ تخليقه؟ كان هذا الأمر يزعجني. على الأقل، لم أكن أشعر بأي ضغينة نحو ذيادوريم، ولا بأي حقد. ما صدر من عدم اللياقة، حديثنا السيء ذاك، لم يترك سحابة: بل، أحسن من ذلك، تبخر نهائيا من ذاكراتي.

ما فكرتُ فيه، في البداية، هو أن أبلغ جبال ميو - بعبور شلالات أوروكويا. لكنني تخلّيتُ عن ذلك، لاحقًا. انحرفتُ مباشرة نحو الشمال؛ وكان العبور في بحيرة لاغامار. لكنني نسيتُ أن أقول: أنه أولاً، في قرية تورو، تزودنا بما نحتاج من ذخيرة. لأنه حدث هذا مرة أخرى، قبل عدة أيام، تلقينا مفاجأة جميلة. كيبس!

كيبس شخصيا، الذي كان يعود بعد عدة شهور. منذ ذلك اليوم الذي قام فيه بمهمته، هناك حيث كنا نقاتل، محاصرين في فازيندا توكانوس - أتذكرُ ذلك، يا سيدي؟ يوم خرج يبحث عن مساعدةٍ من الجنود. كان يعود مرحًا وعازمًا. ونحن نرى رفيقًا ينبعث هكذا من غيابه، استعدنا كثيرًا من الشباب. كان كيبس أنيقًا، يرتدي ملابس جيدة، يمتطي حصانًا جيدًا، ويدخن سجائر مصنوعة ومعلبة؛ ثريٌّ كأنه من الأمراء. لأنه كان يجرُّ حمارا وأتانا من المطول، ويملك كثيرًا من أشياء: بما فيها حامل ثلاثي القوائم وقدر، سُكَّر حقيقي وشوكولاته مُجفّفة. كان راضيًا جدًا عن نفسه، بل رائعًا.

- هيا، انظروا من هنا؟ من أين سمعتَ عنّا؟ - سألتُه مبتهجًا.

- حسنًا. يا تاتارانا: في غياب الأخبار، بدأتُ أبحث لنفسي عن حلّ هناك... لقد مررتُ من إنغازيراس، في بارّا دا فاكا، ومن أوي ماي، في مورينوس... أليس أوروكويا هو مركز العالم؟ - قال متواضعًا.

وهو ما لم يكن بتاتًا كلّ الحقيقة. كان يصل فقط. وخاطبني باسم تاتارانا... كما لو أنه كان طوال الوقت يقنص النُسور، فوصل يجهل تمامًا

أنني أصبحت القائد. أبدى انشغاله بزي ببيلو؛ وبذلك فقد كان لا يعرف شيئاً أيضاً عن زي ببيلو. كما أنه لم يكن يعرف أي شيء عن هرْموجينيس. ولا يذكر أيّ خبرٍ جديد عن جواكيم ببينجو، ولم يأتِ على ذكر أي جديد من مستجدات هذا العالم. الشيء الوحيد الذي تبجّج به، وهو ينهي كلامه، أنه تلقى عرضين ليشغل جاغونُسو مع دونا أديلايدي، في كاباؤ ريدونْدو، ومن العقيد روتيليو مأنْدوكا ليعمل في فازيندا بالْوارتي -

- آه، بل اغتنمت أنني رجل سَلام، فدخلت إلى مدينتي جانْواريا وسأو فرانسيسكو - أضاف متباهياً. لا بدّ أن ذلك كان حقيقة. لأنه، كي لا أخفيك شيئاً، الحمار والأتان وكل ما يملك، أو المال الذي حصل عليه لاقتناء ذلك كله، ما كان ليكسبه بممارسة السرقة في أراضي الأغنياء. وبالفعل، قال: - اشتريتُ كل هذا من محل جوزيه فاسالو... - كان كييس هذا مُبذراً حقيقياً. استمعتُ لكل ذلك، عابساً. هناك حيث كنتُ أجوب العالم، قائداً، لم يكن اسمي محترماً. أنا - الثعبان الأبيض! - كان ذلك هو أن أكون قائد الجاغونُسو. أن أكون ما لا يمنح شهرةً - ما يستطيع أن يحصل عليه أي فازينديرو غنيّ، منغمس في السياسة. ألا يقبل السُّرتاؤ كل شيء؟ كان شخصي لا شيء، وكان مجدُ زي ببيلو لا شيء. ما يصنع الشهرة، يصنع الاحتقار. لم يكن ذلك يهمني كثيراً. ما كنتُ بحاجة إليه هو أن أخوض المعارك. ألّوْح بشجاعتي عالياً، أمام رجالي. أم أنهم كانوا يتلذذون بهذا التسكّع. - هل أنا عجري؟ - تساءلتُ غاضباً. مصيرُنا هو الشَّال. أعطيتُ أمراً بالسير. رفعنا الإيقاع، وسط غبار مجنون. مشينا مباشرة نحو الأمام، فاقتربنا من ضفاف نهر أرييّا. هل كان هذا ما كنتُ أريد أن أفعل؟ انتظر، يا سيدي.

لقد قلتُ لكَ إنني لم أكن أحتفظ بأي ضغينة لما صدر عن ذيادوريم، وأعني تلك الرسالة التي بعث بها إلى أوتاسيليا. لكن، ذات يوم، تملّكني

قلقٌ بخصوص مبادرته العبيثة جدًا والمنجزة بكل دقة، فاحترت في أمري وبدأت أتردد. هذه الاختلالات التي تصيب حياة الناس: كل ما ينفجر بهدوء ويخمد بلطف، ولا تفسير منطقيًا له إلا لمن يبقى حقًا بمنأى عن الأسباب. في لبِّ قلب كلِّ هذا كنتُ متأكدًا من شيء واحد: إنَّ دِيادوريم لن يكذب عليّ. إنَّ الحُبَّ لا يكذب سوى ليوح بحقيقة أكبر. كان دِيادوريم يلفظني؛ بالقوة. لكن، بما أنه بعث تلك الرسالة إلى حبيبي أوتاسيليا فلأنه يعلم، في غيرة قلبه، أن أوتاسيليا كانت تحبني. فهل كان يعرف نفس الشيء عني؟ في تلك الأيام، كان كذلك. لأنَّ قلبي بذكري أوتاسيليا، التي كانت تنتظري صادقة، في بيتها، في وجودها الدافئ. كنتُ في الطريق أعود أدراجي إلى هناك، إلى سانتا كاتارينا، ولكن، كما تهاجر الطيور، كانت أفكارُ حنيني تطير عائدة. كل شيء، في هذه الحياة، جدير بالاحتفال.

ثم حانت تلك اللحظة الدقيقة عندما شعرتُ بقشعريرة خلف جيني. احتمالٌ تولَّد من فرط خيالي، فرسمته شبه مضطرب: بما أنَّ أوتاسيليا كانت تحبني - فوق ما أستحق، وتعتقد أنني أواجه أخطارًا كبيرة - يمكن أن تتهور وتهرب من بيتها لتغامر وتبحث عني، مرحلة بعد أخرى، عبرَ هذا السَّرتاؤ... آه، كانت قادمة تركب حصانًا سريعًا، تظهر فجأة وتنطق اسمي، تسألني. كنتُ أعلن جلالَ عظمتها، وهي تركب الحصانَ إلى جانبي، امرأة نبيلة على رأس الكتيبة الضخمة من رجالي. هكذا، كانت حياتي، بطريقة مختلفة عن العادي، لها معانٍ جديدة وقوية. خطر ببالي ذلك، فرضية عابرة غير متوقعة، والتي لم تكن حتى تفكيرًا إنَّ تمحصناها مليًا. كما لا يمكنها أيضًا أن تكون وهماً في حلم. حينئذ، وأنا أستعيد أفكارِي بكل جدية، انتابني قلقٌ: الخوف من أن يكون ذلك نبوءةً، تحذيرًا مما سيأتي.

أوتاسيليا - كنتُ أتذكّر ذلك الضوء الصغير شبه العسلي في عينيها الناعستين. وتينك اليدين اللتين لم يخبرني أحدٌ أنها يمكن أن تكونا كذلك، خلقتا للمتعة، للإحساس. والجسدُ - بقدهُ وصدره - جميل، حتى أن مجرد رؤيته سرعان ما تصير ذكرى راسخة في الفؤاد. وذلك الصوت الرخيم: بعد ذلك، مهما سافرنا بعيداً، وسافرنا، فإن برودة الماء عبر الفراسخ والهضاب لا تنقصنا... كل هذا، إذن، ألم يكن هو الحبُّ؟ طبعاً، كان كذلك. وهذا اليقين أصابني بالذعر. ربما كان ذيادوريمُ كاذباً والرسالة حقيقية، مختلفة - هل كانت رسالةً تحثها على أن تأتي، بكل شجاعة، لأنني كنتُ في أمس الحاجة إليها؟ إنني أذكر تفاهة هذه الأمور، غرابة هذه الأشياء. لكن، يا سيدي، إن كنتَ تعتقد تماماً أن بعض أمور البشر مستحيلة، فإنك لن تستطيع أبداً أن تكون قائد جاغونسو، ولو لجزء ضئيل من نصف يوم بسيط، ولو في أراضي الخيال الشاسعة. هيا، إذن! - أقول. لو أن أوتاسيليا جاءت، وظهرت هناك وسطنا - أي منحى كانت ستأخذه الأمور؟

حماقة، جنونٌ خالص. كانت أوتاسيليا محميةً، بين أمها وأبيها، وسط أهلها، في ذلك البيت العالي في فازيندا سانتا كاتارينا، في ذلك المكان هناك، أقصى وأفضل مكان في هذا العالم بالنسبة إليّ. وأنا، من دون سبب ولا هدف، كنتُ أقود رجالي يوماً عن يوم عبر تلك البقاع العدائية، أبتعد أكثر فأكثر عن المكان الذي تسكنُ فيه. كل يوم، نبتعد عنها مسافة أكبر، أنا وذيادوريمُ، كما ترى، يا سيدي. وليكن في علمك، يا سيدي - أنه يكفي أن ينظر إليّ ذيادوريمُ بعينيهِ الخضراوين الحالمتين، ورغم خجلي، دون أن أعلم بذلك، أستلذّ برائحته، بوجوده، بالدفع الذي تبعثه يدهُ في يدي. سوف ترى. هل كنتُ اثنين مختلفين؟ هذا ما لا أفهم اليوم، ولم أكن أعرفه وقتئذ.

إنَّ أقصى ما أتذكَّر هو القمر المتضائل، وأنا كنا في فسحة شاسعة وسط الغابة، حيث تُبْقِبُ منابع نهرٍ صغير، مكان بمروج لا تنتهي، نعمت فيه الخيول براحةٍ وافرة. هناك توقَّفنا لبضعة أيام. أتذكَّر، أردت أن أكتب رسالة. هذه الرسالة، يمكن أن أكلف واحدًا من أسرع رجالي بأن يسلمها شخصيا إلى خطيبتي، ويعود لي بالجواب. ما كنتُ أفكِّر في كتابته كان بسيطًا جدًّا: أخبر عن صحتي، أسألها عن صحتها، إن كان أهلها بخير، وأبعث لها سلامًا مليئًا بالشوق والحنين. أهنيء نفسي لأنني لم أقل شيئًا، في تلك اللحظة، عن مجدي وقيادتي. لماذا؟ هكذا. كما عنِّي أن أنظم بعض الأبيات: لكن النسيم لم يكن يساعدني على ذلك. كانت صراحةٌ مُرهقة. كتبتُ نصفَ ذلك. بمعنى: كيف كان بوسعي أن أعرف أنه النصف إن لم أكن قد كتبتُ كل شيء لأقيس عليه؟ آه، أرايتُ؟! حسنًا، أقول هذا لأضحك، مازحًا؛ لكن أيضًا لأبيِّن لك فقط شيئًا مهمًّا: تلك الرسالة، لم أنته من كتابتها، ولم أرسلها، إلَّا بعد عام تقريبًا، يومًا بيومٍ، وقتًا طويلاً بعد ذلك... أقول لماذا؟ بكل بساطة، لأنني لم أستطع. تذكَّر ذلك، يا سيدي: لم أستطع ذلك إطلاقًا. لكن، تذكَّر أيضًا: النهار يطلع بعد الليل - وهذا هو حافز الطيور الصغيرة... إنني أتحدَّث بكلامٍ مُلتو. أحكي حياتي التي لم أفهمها. أنت رجل ذكي جدًّا، وتتمتع بحسٍّ إنسان متعلم للغاية. لكن، لا تنزعج، ولا تنتظر أن تمطر السماء في شهر آب. سوف أحكي لك، سأقوم بذلك - سأحدث عن الموضوع الذي تنتظره مني. اسمع جيدًا.

هل كان الشرير موجودًا؟

أحيانًا، أفكِّر. دميةٌ من العشب، ترتدي معطفًا باليًا وقبعة ممزقة، تفتح ذراعها على شكل صليب، في حقل من حقول الرُّزِّ، أليست كركوزًا يحسبُ

نفسه فزاعة؟ طائر السَّرَّاب يراها فلا يأتي؛ الطيور تترقزق، تُحذِّر بعضها بعضًا من بعيد. تبدو لهم الدمية بشرًا. وأنت نفسك، لا تفكّر حقًا في الشيطان. الغاباتُ الموحشة ملكٌ للخنزير الوحشي... السَّرَّتاو يقبل كل الأسماء: هنا الأراضي العُليا، هناك الهضبة العليا، وهناك، بعيدًا، الكاتينغا البيضاء. من يفهم طبيعة الشيطان؟ إنه لا يُحدثُ ثقبًا: يغرُسُ وتُدًا. يمكن أن يتأخَّر معي. وما لا يوجد بطريقة نراها، يملك كثيرًا من القوة الكاملة، في بعض الأحيان. كيف كان بوسعي أن أقول له، وهو فارغ بذلك الشكل: - ابتعد عن حديشي هذا؟! - إذن، وبخصوص الرسالة، ما كنتُ سأضع فيها كان تذكيرا شبه منظم، تكرارا شبيها تمامًا بما طلبه ذيادوريم: - أن تُصَلِّي أوتاسيليا، أن تتلو صلواتها من أجلي... نعم. لكن، هنا، يحدث أن. إنَّ يدي تضعفُ قبل قلبي؛ فلا أستطيع. لا أستطيع، بطريقة شيطانية، غير منطقية - تجبرني على ذلك قوى أخرى... - وفجأة، انتابني الخجل، وشعرت بالقرف من ذاتي وأنا أرغب في كتابة هذه الرسالة. تخلَّيتُ عن الأمر، جمعتُ ذلك النصف في حقيبتِي. الإنسانُ إنسانٌ فيما لا يراه وما يستهلكه. آه. لا. أوتاسيليا، لم أكن جديرًا بها. كان ذيادوريم شيئًا مستحيلًا. تخلَّيتُ عن كل شيء.

الشيطان، هل حقدتُ عليه؟ هل فكَّرتُ فيه؟ في بعض الأحيان. ما كان بي من شجاعة لم يكن يفكّر فيه؛ وما كان يفكّر فيه كان يقذف بي في دوامة من الشكوك والاشتباكات. كنتُ أتأمل مع برودة النهار. في الوقت الذي تغيبُ الشمس، لكن النهار يبقى قائمًا، كأنه نادم على رحيلها. أو، أحسن من ذلك، عند الفجر، في اللحظة التي أفتح عيني؛ يستمر ذلك لبضع دقائق فقط، وهناك، خلال ذلك الوقت، في سريري المعلق، أرى كل شيء يضيء، مشرقًا وواضحًا. هكذا: - كُنْ حذرًا، يا زيوبالدو، لا تترك الشيطان يضع حبلًا حول عنقك... هكذا كنتُ أقي نفسي. هنا، حرصت على وضع خطة

قائمة: أي وسيلة تسمح لي بالإفلات من إبليس، كما سمّيته؟ هل كان يحوم حولي ليسيطر عليّ؟ لكن، إن هو تمكن من السيطرة عليّ، لن أكون أنا هو الثعبان الأبيض، فهل أكون أنا قائدًا على لا شيء، شخصًا تافهًا؟ آه، كان لا بد لي من العثور على شيء ما، على وسيلة ذكية أحتال بها على الخبيث أمام باب بيته، وأحمي هكذا نفسي من نهاية مشؤومة. بأيّ طريقة؟

لكن، ما حدث هو أن هذه اللحظة بين النوم واليقظة كانت قصيرة جدًا، كانت تمر فقط، ولا تستقر. لم يكن بوسعي أن أتشبث بأي شيء، لأن الوضوح سرعان ما انتهى. كانت حركة العالم الصاعدة تحملني بعيدًا عن هذه الأفكار والتحذيرات، وتركني جافًا. وكنت ضد نفسي، لبقية الوقت. هل كنت كذلك؟ كان الجميع يطيعون كل يوم أكثر، وكل يوم يطرون عليّ بالمزيد من المديح والثناء. وشيئًا فشيئًا، تعودت على أن أقفز بسرعة من سريري المعلق؛ كما لو أنني أتحاشى الذكاء الصغير النافع الذي كان يبدو كأنه يحدثني من أعماق قلبي. بحركة مفاجئة، كنت أبعث كل ذلك - شرارة هدنة، حضور طائر طنان، ما إن تعلن عن نفسها حتى تنطفئ - وسرعان ما أجدني منخرطًا من جديد تمامًا في تيار العالم، في أنصاف الفرح: نصف طيبة ممزوجة بنصف حُبث. في تلك اللحظة، كنت أنهض، أذهب لأبحث عن حصاني سيّريوز لأسرجه. حصان لفجر الأيام. كنت أنطلق لوحدي.

الركض وسط الظلام، أنت تعرف ما ذلك، يا سيدي: أغصان الأشجار تسوط رؤوسنا. كنت دائمًا أذهب بعيدًا شيئًا ما؛ وحين أعود، أجد رجالي يستعدّون، القهوة جاهزة، والفرسان مصطفىون لينطلقوا. ذات يوم، ذهبْتُ أبعد مما دأبت عليه عادة. فصادفتُ المجذوم.

كان كأنه يختبئ، عند أعلى شجرة، مثل أفعى أرارابويّا. كدت أقفز من الفرع. كان رجلًا تغطي جسده جراح مقرقة، مجذوم حقيقي؛ لا أمل في

شفائه. كي لا أرى مثل هذه الأشياء، أرمي بعيني بعيدًا عن ذاتي! أخرجتُ
مسدسي. فجأة، انكمش الآخر، وراح يرتعش؛ ارتعش فجأة حتى انتفضت
لرعشته أغصانُ الشجرة وأصدرت ريجًا قوية. لم يصح بأي شيء، لم يقل لي
شيئًا. هل كان لديه ما تبقى من الصوت؟ كان عليّ أن أسحق ذلك الشيء
غير الإنساني.

لحظتها، تذكرتُ واقعة: ما حكوا لي عن ميديرو فاش يوم لمح مريضًا
كهذا، وسط أشجار الجوافة. كان الرجل يلحس بكامل لسانه ثمار الجوافة
الناضجة، واحدة تلو الأخرى، بنية نقل العدوى إلى الأشخاص المتواجدين
هناك حين يأكلونها بعد ذلك. هناك من يقومون بمثل هذه الأفعال. كان
ميديرو فاش رجلًا خدومًا وصارمًا، فوضع حدًا لحياة ذلك الرجل. ما إن
سمعتها، حتى بقيت تلك الحكاية في قوقعة أذني. الغثيان، الغضب الأسود
الذي انتابني: لا بدّ أنّ المجذوم كان يفوح برائحة كريهة؛ أينما كان، وحيثما
ذهب، كان يلطخ المكان أظفَع بكثير من بَرّاقة ضخمة، وكل شيء يتعفن
بمرضه اللعين. تحولت كل ثمار الجوافة إلى فواكه مسمومة - وahan الوقت
للضغط على الزناد: قانون عادل، قانون ميديرو فاش...

- إيه، أيها المتسخ! - صحتُ في وجهه. ووصفته بكل النعوت الخبيثة.
هل كنتُ أفعل ذلك كي أؤجل تنفيذ واجبي بطريقة ما؟ لم يجيني. هكذا،
أمام عيني، لا يجيبني أحد؟ لكنه كان يحدّجني بنظراته: لأنّ عينيّه كانتا وسط
الأوراق. لم يكن غير رجل مسكين - إنك توافقني على ذلك، يا سيدي.
لكني، هنا، رأيتُ المجذوم وكرهته كرها! صوّبت طلقتي نحو جمجمته فوق
عينيه.

سمعتُ فارسًا قادمًا. انتظرتُ. حتى لا يُقال إنني أطلقت النار غدرا
على رجل مصاب بالجذام، خلصة ومن دون شهود. من كان القادم؟ في فجر

الصباح، والنهار بدأ ينشر خيوطه، تعرفتُ عليه: ذِيادوريمُ! دون سبب، أدخلت سلاحِي في الجيب. هل كان ذِيادوريمُ يتبعُنِي؟ - ذِيادوريمُ: هل تنصف هذا الرجل؟! - قلتُ وأنا أُشير إلى مُحباً المجذوم. - إنني هنا، أراك، أنت بنفسك يا زِيوبالدو... كن حذراً، يا زِيوبالدو - كان سِيُجيُنِي. مثل جمرة تططق بعد الإلقاء بها داخل سطل ماء، هكذا كنتُ أسمع ذلك الحديث في ذهني. فارتعش كياني بكامله. وأنا أنتظر منه بين الفينة والأخرى أن ينطق بالتهمة التي يهمس لي بها خيالي المضطرب: - هل تجلبُ المارق!... - أنا وهو - الشَّيطا؟! هل كان يستطيع، فعلاً، أن يسيطر عليّ؟ - هذا، لا، أبداً! - صحتُ مازحاً. انتفضت فوق السرج، كأنني كلبٌ يستيقظ من غفوة. كان ذِيادوريمُ قادماً على متن حصانٍ يعدو خبياً سريعاً. لكنني أدركتُ الزمام همزتُ حصاني وصحت فيه فاستجاب: انطلقنا في ركض جهنمي...

- إيه، إبليسُ! أيها الشَّيطان! إيه، إبليسُ! أيها الشَّيطان!

انطلقنا كالسَّهم نحو الأمام لمسافة ربع فرسخ تقريباً. نحن الثلاثة؟ هذا ما ظننتُ. وفجأة، توقفت في الحال؛ نفَضَ حصاني عنقه. نظرت بإمعانٍ من حولي، تلمَّست بيدي. ولا أدنى أثر للشَّيطان... كان ذهني عبارة عن حَكَّة ضخمة. كيف كنتُ سأتدبَّر أمري ضدَّ ذلك البخار الخبيث الذي يبدو أنه اخترق عظامي، وكان يجثم على معدتي، يخنق أنفاسي بقبضة؟ هذه المرة، كان لا بد أن أرفض فسحَ المجال له. أن أرفض ذلك. هل رغبتُ في ذلك؟

عندما نظرتُ، كان ذِيادوريمُ قد توقّف هناك بعيداً، قرب الشجرة التي اختبأ فيها الرجل. لا بد أنه قد لمح ذلك الشيء الحي، ولا شك أنه لم يفهم نزواتي، ولا سبب ذلك الركض. ومن المسافة التي كنت عليها، رحْتُ أتأمل ذِيادوريمُ. دائماً فوق السرج، متوتراً، مفكراً، كان يبدو أكبر، لا يرفع عينيه عن عيني. والمجذوم؟ آه، هذا، فليتحرك، ولينقذ نفسه، كي لا يموت...

فيما كان يفيد ذلك، في لحظة كهذه، حين تنتهي الطيور من الاستيقاظ وتبدأ في الغناء؟ طالما أن هذا المجذوم مستمر على قيد الحياة، ولو بعيداً منزوياً، في هذا العالم، سيظل كل شيء مريضاً ومُهَدَّدًا، لأن الإنسان يُصاب بالغثيان من الإنساني.

هذه النفاية البشرية كانت منبوذة من كل قوانين الأرض، لأنه كان ملعونا: موسوما: جسده، خطيئته! وإلا، لماذا لا يضع حدًّا للشر أو لا يترك هذا الشر ينهي حياته؟ كان الرجل ميتًا في حدِّ ذاته. يمكن لذيادوريم أن يقول دائمًا ما يحلو له. أن هذا الرجل المجذوم كان أخي، مخلوقا، مثلي تمامًا؟ كنتُ أنفي ذلك. كيف يمكن أن أستلذ بحبِّ ذيادوريم، وبحبِّ أوتاسيليا وأنا أعلم بوجود مجذوم كهذا؟! ألم أكن أنا هو الثعبان الأبيض؟ إنَّ دور القائد لا يتمثل في حصد الامتيازات، بل في تصحيح العيوب. وأنا أعود أدراجي، همزتُ الحصان. - أنا لستُ ملكًا للشيطان ولستُ ملكًا للربِّ! - فكُرتُ فجأة، كما لو أنني أصبح بذلك؛ لكنها صيحة كان لا بدَّ من النطق بها بصوتين مختلفين تمامًا عن بعضهما. كنتُ مستعدًّا. أمسكتُ مسدَّسي. لكنني كنتُ أكمل بنفسي ما كان ذيادوريم سيقوله لي لا محالة: - إنَّ قتل هذا التعيس، يا زيوبالدو، على الأقل، من باب الاحترام، اقتله بيدك، اقتله بالخنجر - سترى أن دم هذا القلب، خلفَ العفن، دُمٌّ ساخن سليمٌ - كيف يمكن أن أغرس فيه طرف الخنجر ذي المقبض الذهبي، الذي قدَّمه لي عرَّابي سيلوريكو مينديس هدية؟ - آه، أنت! انبطح أرضًا... - وأنا أركض على متن الفرس، رميتُ بخنجري على الأرض. هل رميته أم أنَّ غصنَ شجرةٍ لمسني فانتزع السلاح من يدي؟ وصلتُ. توقفتُ. كان حصاني خفيفًا، رشيقًا يضرب بقائمتة الأمامية على الأرض؛ ويتنفس مثل بغلٍ. رأيتُ ذيادوريم. لكن المجذوم اغتنم الفرصة ليتعد، فلم أر شيئًا من نُزوله من فوق الشجرة: ربما نزل بسرعة، ومشى يجبو

على أربع وسط نباتات الفاصوليا البرّية. شعرتُ بتعبٍ كبيرٍ ينزل عليّ: مَنْ بوسعه أن يعلم، إن كنتُ هنا سأُقتلُ أو لا أُقتل. المجذوم.

لكن ذِيادوريم، كما كان ماثلاً أمامي، كان بوجه مشرق، وجمال أكبر، غير عادي. عيناه - الانطباع الذي كان لي - كانتا تكبران، تكبران، بلون أخضر لم أرَ أخضَرَ مثله، أخضَرَ لم يكن له مثيل قطُّ، في أيِّ مرجٍ من المروج. الوسط يتعتم، لكن فقط بعذوبة جميلة. وأقسم لك، يا سيدي: ذِيادوريم، رأيتُ في شخصه، لحظتها، صورة سيدتنا العذراء الجميلة في الدّير! القديسة!... أو كُذِّ على ما أقول: كان الجمال والحبُّ، مع احترام كامل، وفوق ذلك بريئُ شيءٍ ما لا يدركه حتى عقلنا.

لكنني رددتُ ذلك. تلك الرؤية المدوخة. كأنها كانت تعزّلني عنه نارٌ هائلة وحاجز عال من القراميص، وبيننا وادٍ سحيق، ونهر واسع انتفخ بمياه الفيضانات. كيف كان بوسعي أن أحبَّ رجلاً، من نفس طبيعتي، رجوليٌّ في ملابسه وسلاحه، اشتهر بخشونة أفعاله؟ قطّبتُ جبیني. هل كان الذنب ذنبه؟ هل كان ذنبي؟ كنتُ أنا القائد. السّرّتاو لا أبواب له ولا نوافذ. هذه هي القاعدة: إما أن تكون مباركا، فتحكم السّرّتاو، أو ملعونا، فيحكمك هو... كل هذا، هل ردّدته؟

حتى قبل أن يفتح ذِيادوريم فمه ليستم لي، ويُحدّثني، كان لا بدّ لي أن أفعل شيئاً. شيئاً ما بسبب القلق، شيئاً ما بسبب المكر؛ وجزئياً بسبب الغضب. كيف عرفتُ أن أمسك بجوهر فكرة كهذه؟ هذه الحركة، كيف نجحت في أن أذكرها؟ سيدي، إنني لا أعرفُ شيئاً. لكنني دسستُ يدي: بين سلاحِي وعلبة الرصاص، وحزام الحقيقة، ثم فتحت سترتي وقميصي. وهنا، أخذتُ الرّباط، جبل كتفَيّ العذراء - الذي قطعته في نهاية الأمر لأنني لم أستطع أن أنرعه - ثم رميتُ بالكتفَيّ نحو ذِيادوريم الذي تلقّفها في الهواء. كان يهْمُ

بطرح سؤالٍ عليّ، لكنني رفضتُ ذلك، لأنَّ صوته كان أكثر تأثيراً على نفسي. يعني أنني أنا من تكلمتُ أولاً، في نهاية الأمر. - يجب أن أعود - لأن الرجال في انتظاري! - قلتُ أخيراً: وكان نفسي لا يزال سريعاً أكثر من اللازم.

هكذا كنتُ أتصرّف، أعطيتُ الأوامر كما ينبغي. لم أكن مستعدّاً لأكون لطيفاً. وشبرٌ واحد، بالنسبة إليّ، في تلك اللحظة، يمكن أن يكون بقياس ثلاثة أبواع. همزت حصاني. لكنه لم يكن بحاجة لذلك؛ لأنَّ ضغطاً خفيفاً من قدمي كان كافياً لينطلق كالريح. في سلام! لكن ذيادوريم، بدل أن يتبعني في الحال، ابتعد في الاتجاه الآخر. كبحت حصاني سيرويز، لأرى من باب الفضول. كان ذيادوريم يسير في الاتجاه المعاكس حتى يبحث ويستعيد المسدس الذي سقط من يدي. وفي رُكنٍ قصيٍّ من قلبي، شكرتُ في صمتٍ صداقته على هذه الرقة. ثم ذهبْتُ. دائماً في المقدمة، بما أن حصاني سيرويز لم يكن يسمح بأن يلحق به أي حصان ليركض إلى جانبه. ثم طفقتُ أغني. بشكل سيء، لكنني غنيتُ - لأنني كنتُ أرى أنه كلما ازدادَ صمتي كان ذيادوريم يزداد تحكُّماً في أحاسيسي، وكان ذلك شيئاً غير ممكن. أثناء ذلك، بلغنا المعسكر. لكنني وصلت لأتكلّف بمُستجد من حجم كبير. مع أولئك الرجال من أوروكويا.

لا بدَّ أنَّك تذكر ذلك، يا سيدي: أولئك الرجال الخمسة الصامتون، فلاحون بدورهم، يتحدثون من الأراضي العليا، شجعان من أوروكويا العليا. أوّل ما ظهرُوا كان مع زي بيبيلو، ونزلوا معه عبر نهر باراكاتو على متن طوف من جذوع أشجار البوريتي. هؤلاء، أشخاص هادئون موهّقون، قليلو الكلام، لم يثيروا قط أي ضجة بيننا. هكذا، فجأة، أرادوا أن يتحدثوا معي على انفراد. كان أحدهم، ويدعى ذيوداتو، هو زعيمهم. تقدّم خطوة أمام الآخرين، وأخذ الكلمة.

قال لي إنهم يريدون حديثاً معي أنا لوحدي، على انفراد. كنتُ أقدر أولئك الرجال. كانت شجاعتهم ملفوفة بكثيرٍ من الجِدِّ. إن أهل أورو كويًا - حسب ما يُقال - يتحدثون مع السمكة كي يستدرجوها إلى الشَّصِّ. مجرد كلام يُحكى. تمامًا كما يُحكى أنَّ أهل السَّرْتَاو في غويَّاس يملِّحون طعامهم بعرق الفرس... من يدري؟ لا يعرفُ مكانًا آخر إلا من خلال الافتراءات والإشاعات الكاذبة؛ تمامًا كما يفعل الناس في هذه الحياة. لكن هؤلاء الخمسة كانوا يعجبونني. اندهشتُ لرؤيتهم جميعًا على الأقدام، لكنهم كانوا يحملون على ظهورهم أخراجًا وأكياسًا، كأنهم مجهزون لرحلةٍ مُشيٍّ على الأقدام. ممَّا كان يمنحهم هيئة أكثر جدِّية. لذلك أصحْتُ السمع لأصغي إلى ذبذباتهم، زعيمهم.

- مع كامل الاحترام، أيها القائد، قرَّرنا... أن نرحل. إن سمحتَ بذلك، وفق أوامرك... - قال لي الرجل الفظُّ بكل هدوء. اضطرت لأنظر إليه بإمعانٍ، لأن وجهًا بتلك الملامح يُفحصُ شيئًا فشيئًا.

فهمتُ، لكنني طرحْتُ السؤال من جديد. لم يُحكَّ الرجل رأسه. عيناه مثل تمثالٍ قديسٍ من خشب. أنفٌ كبير، أنفٌ يتدلَّى. كانت له نفس اللحية الصغيرة التي تنمو في ذقن الفرس.

لم يُحكَّ الرجل رأسه. تحدث بكل ثبات. كانوا يريدون أن يرحلوا، نهائيًّا؛ مضطرين لذلك. آه، كانوا يعرفون القاعدة جيدًا: يمكن لأي جاعونُسو أن يغادر أيَّ جماعةٍ متى شاء - شريطة أن يصرح برحيله وأن يعيد للقائد أو زعيم الجماعة ما كان لهما. الأسلحة، لم يكونوا مجبرين على إعادتها، لأنها ملكهم؛ لكن، بما أنهم جاؤوا سيرًا على الأقدام في البداية، فإنهم كانوا يتركون الخيل بمحض إرادتهم. ما سيحملون معهم كان فقط شيئًا من المؤونة يسدُّون بها رمقهم - قَدْرٌ قليل من الطحين واللحم المجفف، وشيء من السُّكر البُنِّي،

ما يكفي بالكاد لمدة ثلاثة أيام. ومع ذلك، وجدت الأمر جنونًا. جنونٌ أن يرغبوا في التسكّع هكذا انطلاقًا من ذلك المكان حيث كنا عبر مستنقعات شاسعة، وسط تلك القفار. لماذا يغادرون هكذا، حتى من دون أن ينتظروا أن أظفر بأول نصر؟

- هكذا فعلاً، أيها القائد... نحن مجبرون، كما قلتُ، مع كامل الاحترام والتقدير، نعم، يا سيدي... - ردّ عليّ الرَّجُل بنصف جواب، وبصراحة على ما يبدو. لاحظتُ القبعة فوق رأسه، كانت قبعة من جلد غزال سُواسو أبارا، بحواشي مرنة وشكل مناسب جدًّا. كانت تلك الملامح تمنحه هيئة محترمة، حذرة، رغم بقع صغيرة متشابهة انتشرت في وجهه على إثر مرض قديم، كما يتناثر الغبار فوق حساء جوز الكاجو. - ما هو اسمك الكامل، يا ذيوداتو؟ - سألتُه. - ذيوداتو ذو الأنف الكبير، هذا هو لقبِي - قال؛ وكان ذلك بكل براءة. أدركتُ كم أنني لم أعر قطُّ ما يكفي من الاهتمام بهؤلاء الرجال، وبشجاعتهم. إنَّ أسماءهم الأصلية كانت هي: بانتاليياو، سالوستيو جواو، جواو تاتو وأوبيسبو. كان تلك أول مرة أنتبه فيها لذلك. لم أسمع قطُّ بعد ذلك عن أخبارهم. اليومَ، أفكر في ذلك. لحظتُ، كنتُ فقط أبحث عن طريقة لأحتفظ بهم معنا. ثم طرحْتُ عليهم مزيدًا من الأسئلة. من أين كانوا؟

- من هناك، من الأنهار... - من بوريتي كومبريدو، تامبوريل، كامباووبا، فيرجينس، ماتا كاشورُو، داس كوبراس... فوق بارًا دافاكا، أرينوس... وكلها في السَّرتاو. هذه أماكنٌ. وفيما كان يفيدني أن أعرف أنَّ أكوأخهم كانت هناك؟ ما أردتُ أن أعرف هو أين كانوا لما وصل زي بيبيلو إلى غويَّاس والتقى بهم. - نعم، يا سيدي، على ضفة النهر... في تلك الحقول التي تحفُّ نهر ساو ماركوس، نعم، يا سيدي، في إسبارامادو...

فازيندا تملكها سيدة تدعى دونا موجيانا... - أعوان السيدة دونا موجيانا؟
كذلك كانوا. كانوا في خدمتها. لكنهم كانوا يشتغلون مياومين في حقولها.
أي نوع من الجرائم ارتكبوا قبل أن يبدأوا في ارتكاب جرائم قوية؟ ولماذا
قرروا أن يتبعوا زي بييلو؟ أردت أن أسألهم. وهو ما سألتهم على حين
غرة:

- أي شيء جعلكم تشعرون بالإحباط كي لا تأتوا معنا؟ - قلت، وندمت
لأنني قلت ذلك؛ لأن الادعاء والسؤال لا يشكلان طريقة في التفاوض.
لكن ذبوداتو ارتبك لسؤال كهذا من طرفي، فتوقف على الفور، أخذ كل
وقته؛ وراح ينخر في حرج. لم يكن يربطه أي عقد معي، لكنه لم يكن يريد أن
يهينني بدون سبب. في الأخير، نظر إلى رفاقه الذين كانوا يحكون رؤوسهم
بتأقل لكن بطريقة مأكرة، دون أي تعبير آخر، لا ندري إن كان ذلك تأكيداً
أم عادة - من عادات أولئك الناس وتقاليدهم.

- نعم، يا سيدي، نعم - قال في الأخير مجيباً - لقد خمد الحماس قليلاً...
وقد ضاع ما اتفقنا عليه... - وكان شبه غارق في الخجل.
- والآن؟ - قلتُ.

- واضح، أيها القائد، مع كل الاحترام والتقدير، لقد تغيرت الأمور...
بما أننا جئنا مع زي بييلو... وقد ضاع ما اتفقنا عليه... - قال.

- ماذا قال لكم زي بييلو حين شغلكم معه؟

- نعم. حين شغلنا معه، نعم، يا سيدي...

- هل وعدكم بامتيازات؟

- لم يقل شيئاً شغلنا. قال كلاماً مبهماً... فجئنا.

- ماذا قال؟

- الآن، لم نعد نعرف... أشياء معقولة... معقولة جدًا... والآن، إن سمحت، ما اتفقنا عليه نسيناه، لم نعد نعرف... لكنه قال أشياء معقولة جدًا...

منزعجًا وقد نفذ صبري، بدأت أناقش:

- حسنًا، ولكن لماذا لم تذهبوا فوراً مع زي بيبيلو، حين رحل؟

- تركنا الوقت يمر... نحن لا نشتكي... نحن لا نشتكي...

فكرتُ ورأيتُ ما حدثتُ من قبل. كان هذا الرجل، من تفاصيل ذكية، يأخذ مسافة، يتوجسّس مني. هؤلاء الرجال المختلفون، من السُّرُتاو العميق، والغابات الكبرى، بأنوفهم الواسعة مثل الكلاب - ماذا كان رأيهم في شخصي؟ ثم فكرتُ: آه! آه، إذن، حتى أبدد الشك باليقين، وأعرف إن كانوا يتوجسسون مني، خطرت لي فكرة. ماكرًا، قلتُ بصوت عالٍ غير متوقع:

- حمدًا لسيّدنا يسوع المسيح!

لو رأيتُ، يا سيدي، كيف قفز الرَّجلُ من الدهشة وكيف نظرَ إليّ بعينين جاحظتين لا يصدق أذنيه، حتى أنه تأخر كثيرًا قبل أن يجيبني بصوت خفيض جدًا: إلى أبد الأبد، آمين...

آه، حينها، ودّعتهُم، وكان بوسعهم أن يرحلوا. آه.

آه. لا. كانت حماقة. في الحقيقة، لو أنه قفز، فإنه لم يفعل ذلك بسبب صوتي. بل بسبب نبرة صوتي لأنني، في سرّعي راغبًا في أن أنطق اسم الرَّب بـكل صدق، تلعثمت وأنا أتكلّم - متوترا، كما تعرف...

ورحلوا في النهاية، لأنني تخليتُ عن حجز هؤلاء الرجال لمزيد من الوقت. ونظرًا لما آلت إليه الأمور، فيم كانوا سيُفيدونني؟ إنَّ ميثاق الشجاعة بين الرجال في زمن الحرب لا تصنعه مطرقة مأمورٍ في المحكمة، بل هو مسألة

أخذ وعطاء. وكل هذا، مع ذلك، أثار أعصابي. لم يكن أولئك الرجال رجالاً، بل رجال زي ببيلو. هل كان زي ببيلو ذكياً متعلماً، يحضر في صالونات الفازيندات؟ تخلّيتُ عن ذلك، وانتهى الأمر. وماذا بعد؟ كأن أحدهم كان يقول: - سيكون هناك جفاف في الشّمال، وسيخرج الرجل والمرأة ليسيرا عبر الطرقات - الحياة تيهٌ مُتنوّع. تكتب في كرّاستك، يا سيدي: سبع صفحات... ولم يكن رجال أورو كويّا يغادرون بحثاً عن زي ببيلو، كما علمتُ ولم تسرني معرفة ذلك. كانوا عائدين إلى مواطنهم النائية. يمكن أن تزرع حقل مَنيهُوتُ أينما كان: تُزِيلُ أشجار غابة، تهبّي أرضاً جيدة غير مزروعة وتزرعها... رحلوا، فركبتهم يأخذون الخيول. وزّعت عليهم مبلغاً بسيطاً؛ فتحوا أعينهم واسعة، مبتهجين... المال دائماً مُرَحّب به... ما أقول حماقة، لكنه ينطوي على الحقيقة - أنا بعيداً عنهم، متخلّصاً منهم، بقوا على علاقة جيدة معي، لكنني لو حرصت على أن يخدموني لفعلوا ذلك بكثير من النفاق... هل تفهمني، يا سيدي؟ أقول إنهم رجال مختلفون عني تماماً، مثابرون جداً على أعمالهم حتى... لأقول لك ما فكرتُ فيه: كان عليّ أن أطلب منهم أن يتذكّروا أن يصلّوا كثيراً من أجل مصيري... لكن، بما أنهم هَجَرُونِي، فهل كان ذلك فآلَ شؤمٍ؟ لا أعرف. ماذا أعرف؟ لم أكن أثق سوى بنفسي. ما أقسم عليه وأعرفه هو أن طائر الطوفان له حوصلة!... مكتبة سرّ من قرأ

كنتُ أفكّر. بعيداً، على بعد أيام من الطريق، فكّرتُ في أنني أرغب ولا أرغب، في لحظات مختلفة: أن يصلّوا لأجلي، بطلب مني مقابل أجر. صلاة جيدة، بسيطة جداً، يمكن أن تفيدني: صلاة مَريمية أو تساعية. بنفس الطريقة التي بعث بها ذيادوريم الرسالة إلى حبيبتَي أوتاسيليا، بواسطة البغال رئيس إحدى القوافل. ناضلتُ من أجل التشبث بهذه الفكرة، التي طردتها بنفسني بعد ذلك. إنَّ أحسن الصلوات، أحياناً، هي تلك التي تأتي

من بعيد جدًا، من دون أن نعلم بذلك. أتذكّر شخصًا ما، من أيام طفولتي. رجل، في الضفة الأخرى من النهر. كان هذا الشخص يحبّ صلاة غامضة ومختلطة، حتى أنني أشكّ إن كان أيّ كاهن قادرًا على أن يفهم منها شيئًا إن هو حفظها. حسنًا، هذه الصلاة قد تفيدني. أو تلك المرأة التي ولدت رضيعها الصغير فوق أرضية المزرعة، في قرية المُتَبَجِّحين: كانت تدين لي بشكر، ألم يكن بوسعها أن تتوجّه إلى الرّب، ولو بعبارة حمدًا للرّب، آمين؟ - هل من المؤكد أن هذا البغال سيُمّرّ عبر سانتا كاتارينا - سألتُ ذِيادوريم. سألتُ لأكون فكرةً. كنتُ أريد أن أفكّر في ذلك، وأعيد التفكير فيه مساء. بهدوء. لكن سرعان ما بدأ هذا الهدوء المريح - صحابته الصغيرة - يهجرني. هل يستطيع الراعي أن يقبض على سُمك الهواء بحبله؟ هل بدأتُ أدور وألفُ، أصارع من يساعدي؟ اليوم، أعرفُ؛ لأنني أعرف لماذا. لكنني لم أكن أتحدّث لوحدي. كنتُ أملك رجاحة عقلي، أعتقد. إلّا أنني كنتُ ألتمسُ الطريق، داخل متاهة. وتأخرت كثيرًا لأفهم أكثر مما رأت عيناى، بعد الأحداث الفظيعة، التي ستسمعها على لساني، يا سيدي. فقط بعد أن تسارع كل شيء. قرّرتُ أن أضع حدًا لتلك الأمور الغريبة.

هل أجابني ذِيادوريم عن شيء لم أسأله عنه؟ - يجبُ التّحلي بالشجاعة، يا زيوبالدو، يجبُ التّحلي بكثيرٍ من الشجاعة... آه لو كنتُ أعرف! الشجاعة، أنا؟ من، في هذه المهمة، يستطيع أن يتجاوزني، أتساءل بعض الشيء، من يستطيع أن يصمد أمامي، مثل جبل شامخ؟ كنتُ أملك ما يكفي من اليدين والحماسة لأغسل ملابسى. لكن كل ما قاله لي ذِيادوريم لم يعد يثير إعجابى. أعطيك مثالًا. ما حدّث ووقع، ذات يوم، في كاروجو، قرية حزينة، في الأزمنة القديمة. هرب سكّان القرية بسبب حربٍ أو أي أمر مستعجل آخر، فأغلقوا الكنيسة الصغيرة تاركين بداخلها ميتا وسط الشموع... كنتُ

أحب ذيادوريم بشكل صحيح، كان حبي يكبر ويزداد، بعيداً عن تجاوزاتي. وقد نطق بتلك الجملة التي ذكرتها من دون سبب ولا قصد، كانت فقط استحضارا، عبارة عادية، قولاً من أقوال الحياة. لم تكن موجهة إلى أي أحد منا معاً، لكنها تصلح للجميع. أو ربما كانت موجهة لي، في البداية، لكن في ماضٍ سحيق. هناك في كاروجو، في تلك القرية، حين فتحوا الكنيسة من جديد بعد عدة شهور، كان المرحوم قد جفّ لوحده... أما نحن، ذيادوريم وأنا، فكنا نمشي معاً، سوياً، كما قلّت من قبل. رجلٌ مع رجلٍ، يداً بيدٍ: فقط إن كانا يتمتعان بشجاعة هائلة. وكان يبدو أننا كنا نركض جنباً إلى جنب معاً بين نظيرين، طوال حياتنا. لأن الشجاعة هي القلب الذي يخفق، وإلا، فإنه يخفق بنبض زائف. الرحلة - السّرتاؤ - كلّ الرحلة.

فقط تلك الشمس، بكل لمعانها - والعالم مغسولٌ كأنه ماء يرتعش. لم يُخلَق السّرتاؤ سوى ليكون هكذا على الدوام: أفراح! وذهبنا. أراضٍ فقيرة تماماً، تركها أصحابها، حقول حمراء. اكتشفنا طريقاً جديداً. طريق خاص بالقطيع. كما اكتشفنا مشروع.

أقول فقط كيف حدث ذلك: من المتعة تأتي الدوخة، فنفقد صوابنا. لأنّ الحياة أمرٌ في غاية الخطورة... ذيادوريم، كان وجهه ندياً، فمّه من الحب؛ لكنّ كبرياءه كشفت عن لمسة حزين. لم يكن ذلك يناسبني؛ هل كان ذلك هو سبب حزني؟ لا، بتاتاً. كنتُ قد أصبحتُ قائداً مجيداً. لم يكن ذيادوريم يشكّ في مساري: وهو التقدّم لملاقاة هرْموجينيس. هكذا، نزلنا على جوانب المنحدرات. تلال رملية بها كثير من الحجارة ووهاد من كل جانب؛ وعرة لدرجة أنّ أحزمة السروج كانت تهدد بالتمزق في المنحدر؛ وكي ننزل كانت الخيول تربض على الأرض تقريباً، فتتمدّد أعناقها كأنها تصير طويلة؛ وتتدحرج الحجارة، أكواما، في الفراغ. حتى أنني ضحكْتُ. كان ذيادوريم

يؤمن أكثر من أي وقت مضى بتحُمُسي لملاحقة هِرْموجينيس. كانت تلك المنحدرات هي التي تُؤَخِّرُنِي. بعد الخروج منها، سأذهب بسرعة كبيرة جدًا. الآن، يجب أن تعرف، يا سيدي، ماذا كان مشروعِي: كنتُ أريد أن أعبر صحراء سوسورَاو!

هل تصدِّقُنِي، يا سيدي، دون انتظار؟ كما قلتُ لك. حتى أنا، اليوم، أكاد لا أصدق حين أفكر في الأمر. ما الذي كان يدفعني لذلك؟ اليوم، وقد تقدمت في السن، أرى: حين أفكر، حين أتذكر، أدركُ أنني وقتئذٍ كنتُ متهورا مغرورا. أمهلني الرَّب. الرَّب لا يستعجل، بل يأخذ كل وقته. السَّرِتاو ملكه. إيه! - أعرف ما تريد أن تسألني. لأنك تفكر كثيرًا، وبصوت مرتفع. إيه. والشیطان؟ إن كان مثل البوم التي تخلق، من صمتٍ إلى صمتٍ، فتقبض على الفأر وتأخذه في رجلها المعقوفة... كلاً، لم أفكر في شيء من هذا؛ كيف كنتُ أستطيع ذلك؟ كان ابتكاري واحداً، مثل كل دقيقة من دقائق الساعة لو كنتُ أملك واحدة. عبور صحراء سوسورَاو. كنتُ ذاهبا لأقوم بذلك. وأنا ذاهب، شعرتُ بغبطة كبيرة.

وبالنظر للطريقة المختلفة التي التَّفَفْنَا بها حول المكان، متحاشين المرور عبر فيسبي وبومبال دو بوي، لم يشكَّ أي واحد من رجالي في هذا المشروع. سوف يصابون بصدمة. وقد بدأ بعضهم يُعَبِّرون عن قلقهم من التواجد حيث كنّا. على بعد خمسة فراسخ تقريبًا: من الصحراء الشاسعة، الضخمة، خلف التلال. كنا نصل وعلى يسارنا فاو دو أوكو وفاو دو كوجو: ذاك الجرفان المذهلان - ثقبان يتسعان للبحر بكامله، مع كل تلك الطبقات من الأدغال الهائلة؛ النهر يمرّ من وسطها تمامًا، مختفيا في الأعماق، فقط تحت خليط الأشجار، السوداء من طول السنين، وهي تشكل غابة جميلة وكثيفة. هذه هاوية. وفي هاوية من هذا الحجم، نحتاط من النزول والذهاب للرؤية،

رغم أنه لا تنعدم هناك دروب للنزول عبر تلك الأخاديد المقطّعة المغطاة بالأجمات، وسط نباتات سرخس ضخمة. أكيد أن هناك إناث نمور في الأسفل - سيضعن ويرضعن صغارهن في العرائن؛ وهناك يعيش التّابير، ناجيا من سلاح القناص. إن كنتُ أتحدث عن ذلك فبسبب الملاريا، من أفضع الأنواع: الحمى، هناك في الأعماق، شيء صعب، بل في غاية الخطورة. حمى خبيثة، تصيبُ المرء، يا سيدي؛ ذلك الآخر المتوحش، الذي يمكن أن يقتلك تمامًا، في أجل لا يتعدى أسبوعا.

وهو الأمر الذي لم أفكر فيه وأنا منشغل بمصري، بل كان ذيادوريمُ، تحت ظلّ الحبّ، هو من سألني:

- ريو بالّدو، هل تعتقد أن شيئًا بدأ بداية غير موفقة يمكن أن يعرف نهاية سعيدة في يوم من الأيام؟

فكان ردّ فعلي غاضبا جدا:

- أخي، يا أخي، أنا أتعرفُك؟! أليس اسمي الثعبان الأبيض؟ إنني أجتهد في هذا الأمر وأعطي أقصى ما عندي!

ظلّ ذيادوريمُ واجما وانسحب إلى ذاته. انغلق، فلم أعرف أي شيء. لم أكن أعرف أننا معًا متضاربان، عقوبةً لي. اليوم، أعرف؛ يعني أنني عانيتُ. ما كان شكوى طائشة اعتبرته أنا خوفا. هكذا، هو كان يهبط ليحذرني من كل شيء، وأنا أتصرّف بدم ساخن، لا أعيره اهتمامًا. ما أدراني، يا رجل؟ الحياة غير منسجمة تمامًا. لكل واحد نصيبٌ وقسمة. هناك ضباب سيزويز. هناك كل الوجوه التي تشبه الكلب، ومنحدرات الحياة.

ما تخيلتُ في تلك اللحظة أن ذيادوريمُ كان يحاول أن يذكرني بأنّ ميديرو فاش لم يتمكّن من عبور صحراء سوسوراو. لكن ذيادوريمُ لم يتكهّن أيضًا

بما كان يدور في خلدي. ولهذا السبب تحديداً كنتُ أريد القيام بذلك. بما أنني كنتُ رجلاً حقيقياً، بخيال متحرّر، أعتبر تلك الأخطار تافهة، وأستطيع أن أنجح في ذلك. أن أحقق النصر، هناك حيث لم ينجح في ذلك أي أحد آخر قبلي! كنتُ أطلق مثل تلك الشرارات على الدوام. أنا، لا؛ بل كبريائي التي كانت تتجراً على المستحيل.

كان ضباب الليل يهبط ويعلو. توقّفنا. كان ذلك في فيريدا صغيرة، بها مستنقعات، وواحة صغيرة من أشجار البوريتي. أشعلنا النار. لم أنم جيداً، يؤرقني سري. في الجزء الأول من نومي، نعمتُ بنوم عميق، أما بعد ذلك، فنمت على موجات متفرقة. كان ذلك الهوسُ يثير لذة فجّة في نفسي، كما يحدث عشية يوم من الاستمتاع.

عند الصباح، وجدّنتني قَوَاي واقفاً على قدمي.

أمامنا، غابة أشجار المانغابيير! وبعدها، الصحراء. صحراء سوسورّاو - بين خمسين وحوالي ثلاثين فرسخاً بين العمق والعرض، إن لم يكن أكثر. لم يكن بوسع أيّ كان ليثنيني كي أعود من هناك صفرَ اليدين. في تلك اللحظة، لم أكن أجهل نفسي فحسب، لأنني شربتُ من منابعي الخاصة - تلك البحار. يجب أن أقول إنني لم أغامر هكذا مجاناً، بل لسبب وجيه. بسبب هِرْمُوجِينِسْ؟ كانت جماعتنا في حربٍ وحربٍ مضادة، تعبّران الطرقات، مثل كلاب القنص، عبر الهضاب العليا. إلّا أنّ السّرّتاو كان شاسعاً يُخفي أكثر من اللازم. إذن، كنت ذاهباً لأعبّر الصحراء من طرف إلى آخر، أهاجم فازيندا هِرْمُوجِينِسْ، حيث أُسرّته. البيضة شيء يمكن كسره. أمر بسيط. من أجل نصر عادل، يا سيدي، لا تنظر إلى العدو ولا تُحدّق فيه، اهتم فقط بواجباتك. كنتُ أدير ظهري للشعبان، لكنني وجدت وكّره، كي أضربه وأصيب. ألم تكن هذه هي شجاعة ميديرو فاش.

كان النهار ينتشر رائعا، يرشح شمسًا، وحتى الريح كانت معلقة. رأيت الشمس تتحول، تتخذ لون عجوز، والسحالي تنزلق دون ضجيج تحت كتل من نباتات خاتم سليمان. ألن يشعر رجالي بالقلق؟ رأيتُ بومةً - لكنها من تلك البوم الصغيرة التي تلتوي؛ ولا تنذر البوم إلا في عزّ الليل، عندما تبدأ بالنعيب. بصقتُ في حليب أبيض لنبات ماريا بُرافا، الذي كان يزهر عطراً يفيضُ صحّةً وقوة. حان الوقت. أمسكتُ الزمام، وتوقفتُ تمامًا. ناديتُ على رجالي.

- هنا، أيها الرجال، هنا.

محاربون في حضوري! هبّوا جميعًا يتدافعون، ليعرفوا ما الجديد. أطلعتهم على الأمر. هل فهموني؟ مصطفى - كانت كل وجوههم متشابهة. هل سيتبعونني؟ لم يكن يبدو على أي أحد منهم أنه على علم بما سيأتي، وما كنتُ أخطط له منذ عدة أيام. لا جَواؤ غوانيا، ولا مارسيلينو بامبا، ولا جَواؤ كونكليس، ولا الأاريي. بل ولا حتى ذيادوريم. نظر إليّ ذيادوريم بعينين متلائتَيْن: من الشجاعة، من الاستعداد. هو، نعم. ولكن، الآخرون؟ ربما كانوا يقيسون مدى جرأتي؟ كنتُ كأني قد جننتُ جنونا لا حدّ له.

لأن ما كنتُ أمرُّ به، حتى ميديرو فاش ما كان ليُصدّقه: كنتُ أريد كل شيء، بدون أي شيء. كنتُ أريد أن أتوغّل في تلك الصحراء الغادرة - شمس حارقة، وحشة، أرض شبح - لكن من دون استعداد، ولا دواب تحمل ما يكفي من مؤونة، ولا ثيران نسوقها كي نذبحها، ولا قراب جلدية أخرى نملأها حتى الحافة، ولا قطع بغال لحمل الماء. فيمَ كنتُ بحاجة إلى كلّ هذه المعينات؟ حتى القدامى كانوا يعرفون حق المعرفة أنه سيأتي يوم يستطيع فيه كل واحد أن يبقى مستلقيا في سريره المعلق أو في فراشه، فتخرج المعاول لوحدها لتحثّ الأرض، وكذلك تفعل المناجل لتحصل المحاصيل، والعربات لتذهب من تلقاء ذاتها تحمل الغلّة، كل شيء: لأنه،

أوليسَ ما لا يملكه لإنسان في حوزته، ويدينُ له بالطّاعة؟ هذا، لم أكن أفكّر فيه - لكن قلبي كان يفكّر. لم أكن رجل الأمور اليقينية: كنت رجل أشياء القَدَر! ولم أرسل أيّ دورية لتستكشف المكان - ولم أرسل كذلك سوزارتي، ولا نيلسون أو كييس، ليشقّوا الطريق؛ أو تبيّوا ليْمَهْد الطريق ويصغي، ليرى إن كان هناك ما يسعفنا: أي نقطة ماء محتملة.

كل من يستشعر في نفسه الشجاعة، سيتبعني. - والآن، سندخل لنقضي الليل هناك، بالداخل... - قرّرت. كان يكفي أن نتصرّف بسرعة. لكن، ما إن سمعني الصغير غريغو حتى قال:

- نحن؟ نحن أيضًا؟

كان هذا طفلًا، ألم يكن من واجبي أن أكلف أحدًا ليأخذ غريغو ويتركه في مكان آمن؟ بالحدس، قرّرتُ ألا أفعل ذلك. وإلا، كيف جاء حتى هذا المكان؟ الآخرون، إن لم يطيعوني، فهل أعود أدراجي، وأتخلّى عن مقصدي؟ أبدًا، أبدًا. لو اضطررت، سأذهب لوحدي. بل قد أذهب لوحدي مع عظامي البيض. لحظة قلبي وأنا أنتظر جوابهم. أعطيتهم وعدي! رجالي. آه، الجاغونسو لا يحتقر من يعطي أوامر مجنونة.

- لو كان غدًا هو يومي، لن أراي بعد غد.

- قبل أن يولد الطفل، تكون ساعة موته قد حدّدت.

- يوم يأتي يومك، لن تتجاوز منتصف الليل.

هم من كانوا يتحدثون هكذا؛ كلهم، يشجعون القائد. كانوا شجعانا، يحثون على الشجاعة ويدعون إليها. كانوا يطيعونني، وكان خيرُهم من حولي. تقدّمنا بشكل عادي إلى انتهى العشب. هناك كنّا، وهناك توقفنا، وجها لوجه مع الصحراء. الأزمّة في الأيدي. تحرّكنا.

الشمس في مجدها. فكَّرتُ في أوتاسيليا؛ فكَّرتُ فيها كأنني أبعثُ إليها
بقُبلة. أطلقتُ الزَّمام ودخلتُ في تلك الآفاق. وحيثما دخلتُ، في الرَّمال
الرمادية، كانوا جميعًا يتبعونني. والخيول، بطيئة، كانت تسافر كأنها تمخر
بحرا.

هل ترى، يا سيدي، وتتابع ما أقول؟ سحَبني أحدهم وشَدَّني. لم يفلح
الماء في أن يذيب قطعة مِلحي. آه، ولم يخترق ذهني أذنَى شك. تقدَّمتنا هكذا.
أنا في المقدمة، أفتح الطريق.

كانت تسندني أذرعُ ملائكية قوية. أقول؟ الآخرون، واحدًا تلو الآخر،
كانوا يغتنمون قطعًا متلاشية من شجاعتي. مَزَّقنا السَّرَتاو. الواقع العاري.
حدثَ ذلك كما حدثَ. ولا أقول إنه كان أمرًا صعبًا؛ لا يمكن أن يكون
كذلك هذه المرة! تعاوِذ سحرًا! كل شيء ساعدنا، حتى الطريق صارَ
مقتصدا. كانت النجوم تبدو ساخنة جدًّا. عبَرْنَا، تسعة أيام بكاملها. جميعًا؛
كلنا بخير، إلَّا واحدًا. سوف أحكي.

هل يعني هذا أن الصحراء لم تكن بكل تلك الفضاءة؟ أم لأننا وجدنا كلَّ
ما كنا بحاجة إليه، رغم أننا سرنا في اتجاهات غير مضمونة، حتى من دون
أن ننشغل بذلك؟ من أحسن إلى حسن، دون معاناة كبيرة، دون أن نخطئ
الهدف؟ كيف كانت صحراء سوسورَّاو من الداخل؟ - كانت عالمًا قبيحًا
في حد ذاته، شيئًا مبالغًا فيه. الأرض عارية، ومن دون كتل العشب التي
تظهرُ هنا وهناك، ونحن نسيرُ ونسيرُ، حتى ذلك المكان الذي لا يجدُ فيه
البصرُ نفسه فيثوُّه. وسط كل شيء، لأنه كان هناك كل شيء. قطع من الحجر
الصلب: كانت حوافر الخيل تثير شرارات - الحصان يدوس حجرًا أزرق.
وبعد ذلك، أرض رخوة، سُمك ما يعادل شبرًا من الرمال الرمادية تغطي
الحجارة. حتى الخنادق والتلال الصغيرة. كنا نمشي نُدير ظهورنا للشمس.

لكن، بما أن الحظَّ كان بجانبنا، فقد غامت السماء، مما نتج عنه فورًا ضبابٌ رطب أنعشنا. كان لنا غيثًا وفيرًا. أماكن غريبة. كانت هناك حشرات قراد... ماذا كانت تمتص لتبقى على قيد حياتها العابرة؟ آه، صادفنا مواشي برّية - ثيران تجري هاربة، اعتادت على تلك الأماكن أو لم تكن تعرف كيف تخرج منها؛ ماشية تسكن تلك المناطق النائية، كنا نقتلها كأننا نقتل غزلانا. لكننا اقتنصنا أيضًا غزالين - وجدّا طريقةً ليصيرا سمينين... وهنا، هل كان لدينا كل شيء؟ أظنُّ ذلك. كنتُ أسمع طنين ذبابة طوال الوقت. عناكبٌ، نمْلٌ، نحلٌّ برّي يبشّر بوجود أزهار.

عمومًا، لم نعانِ العطش كثيرًا. لأنه، فجأةً، بفضل لُغز في الهواء، تدبّرنا أمرنا لنصل إلى بعض الأماكن. وكما قد لا يصدق ذلك أحدٌ ولا أنت أيضًا: كانت هناك نباتات في تلك الأماكن.

وبكل صدق ونزاهة، يجب أن أقول أيضًا: إننا اتخذنا قاعدة احترمت، دون أن نعرف من خطرت عليه فكرةٌ وضعتها. وكانت تتمثل في الركض ضمن مجموعات صغيرة على أكبر مسافة ممكنة، دون الابتعاد عن الأنظار. بحيث إذا ما لمح أحد شيئًا مختلفًا، يمكن أن يشير إليه، وينادي على الآخرين ليبشّرهم بذلك.

صدّقني، يا سيدي. لم يكن فقط عشبًا خشنًا، أو نباتًا رَغْبًا مثل حيوانٍ سريغٍ ميّت: صَبَّار بنفسجي اللون، ورود شائكة تثير الخوف. أو نبات شيكيشيكي الشائك الذي تتلوى أغصانه مثل يرقات ضخمة، ذلك الذي يبكي في أيام المطر أزهارًا بيضاء. أو الصَبَّار الأسود، الصَبَّار الأزرق، على شكل قنفذ. آه، لا. كانت الخيول تتقدم وهي تدوس أشواكًا فضية، ضامرة، ممزّقة، على مستوى الأرض، فتبدأ الأوراق - وكانت هناك نباتات قُرَاص ونباتات فيرونيّا، وبعدها النيلة ذات الأزهار الزرقاء، وأزهار شبّ الليل

التي تحبس كثيرًا من الندى، الندى الثقيل جدًا: فتبدو الأوراق كأنها هي على وشك الذبول. ونباتات الفربيون... وشجيرات السبوتة التي تثمر الزعرور.

أقول - كنا نجد الماء. وليس فقط ما نجده في البروماليات التي تحتفظ به في سيقانها. لكن، في مكان مجرى ماء، بركة ماء صالح للشرب، للخيل. يا له من فرح! بل كانت هناك خلجان أيضًا، لا تغيب عنها أشجار البوريتي، والنخل المجنح - لإنشاء أي فيريدا. وآبار على سطح الأرض، ماء يبهج الأنظار. لأنه من حولنا - أتصدّق ذلك؟ - كنا نرى شجاعة الأشجار، أشجار الغابات، وإن كانت قصيرة: أشجار السيماروبا، الباديان، القرفة، سالف العروس، الكاسية، والغاميليرا. الغاميليرا البيضاء! كما في أغاني الزمن القديم:

ظل الغاميليرا فقط

على ضفة الجدول...

وجدنا كل هذا، والباقي، دون اكتفاء ولا قرف، فلمست الوفرة. وذلك الاحترام الذي كان رجالي يعبرون لي عنه بتفهم كان يزداد يوما عن يوم. الجاغونسو، الريوبالدو، سلالة الثعبان الأبيض. إلى الأمام! لكن، هنا، فكرة - كانت تخطر عليّ من حين لآخر، بشكل عابر، هذه الفكرة - استقرت. أنت تعرف، يا سيدي. كم هو مغيظ الحديث عنه، أنت تعرف. الشيطان! قبل أن يساعدي، ما الذي سوف يشترط مقابل ذلك؟ - دع الأمور تسير، سأندبر أمري في النهاية... - قلت مع نفسي. خطأ مؤسف. ألا أتذكّر أو ألا أعرف أنّ هذه هي طريقيته: يتركك تسير شيئًا فشيئًا، تستمرّ وينسى...

وفي لحظة ما، اقترب ذيادوريم، ليتصالح. بسبب ألمي، تذكرت جيدًا. ذيادوريم، جميل من قمة رأسه إلى أخمص قدمه.

- اسمع يا زيوبالدو: سوف نواجه لحظة عصبية - قال لي؛ ولم يكن يرتعش خوفاً، لأنه كان حبا - اليوم، أعرف.

- زيوبالدو، لقد أوشكت ساعة انتقامنا... إذن، كل شيء سيُعاد من جديد، سيُدفعُ ثمنه مرة أخرى، وسأحكي لك شيئاً، سرّاً...

قال ذلك، وكان الحبُّ فيما نطق به من كلام. سمعتُ. سمعتُ لكن بطريقة خاطئة. كنتُ بعيداً عنه، بعيداً عني. ومما قاله لي ذيادوريم أيضاً لم أفهم غير النصف.

أعرف فقط ما كان، والشمس في كبد السماء، كأننا في ليلٍ توهج بالأضواء. هذا ما يبدو لي. كنتُ أتابع مشهداً تحت شمس كبيرة: كان بغلٌ صغير، متوحش من فرط العيش في الكاتينغا، يبحث عما يقضمه في ذلك الريف الأجرد، وسط الأشواك.

ألم يكن يجدر بي أن أهتم بأمور أكثر خطورة؟ انظر واسمع، يا سيدي. نقار الخشب يطير دون أن يثق في الهواء. كما زي بييلو - تذكرته فجأة - عندما يكون غاضباً أو عندما يريد أن يزرع الخوف في الجميع، فيصيح: - شَمَالُ ميناس! شَمَالُ ميناس!...! - وكان على حق. لكن زي بييلو كان رجلاً لا يتوقف عن رسم المشاريع. أما أنا، فكنتُ أسير وفق حدسي المستمر. أستعمل أي مساعدة متى ظهرت، ولكنني دائماً على حذر من الشرير: هو من يفسد الأمور فتزنخ، وتحمض. تتجدد حيله في كل لحظة، وهي كثيرة جداً كأنها حبات الرمل الدقيقة المتراكمة فوق ساحلٍ رملي. ألم أكن أعرف ذلك، إذن؟! آه، كنتُ أفكر في ذلك تقريباً، عندما بدأ الرجل يهمهم. من كان ذلك الرجل، بصفاته، أقول: خلاسي، متين البنية، داكن السحنة، سيء المزاج، يتحدث من لست أدري أي أرض. هكذا، هل هناك سلالة من هؤلاء الناس؟

آه، لا. لحسن الحظ، كنتُ في كامل قواي الذهنية. ربما بشكل مفرط... لن أهتم بهذا! - قلتُ، يعني: فكّرتُ في ذلك وأنا أقوله. لم أرغب في أن أتحمل عبء ذلك فوق ظهري؛ لأنني كنتُ أستمُ الآخر: حيلُهُ. عمل الشيطان... - رأيت المناورة. - حسناً، في هذه الحالة، سلام...، قلتُ، قلتُ مع نفسي. - لن أهتم به - وعدتُ نفسي. كنتُ أملك أكثر من ورقة في جيبِي. تأرجحتُ لحظة، في توازن. فكّرتُ قليلاً. لكن كل شيء خُذش بسرعة، بسرعة، كما يحدث حين يستشعرُ الحصان غضبَ الثور.

هنا، سمعتُ الصوت - كان صوته متوتراً يرتعش مثل صوت جذي؛ والطريقة التي صاح بها - داعياً للشجار. تعيسُ. رفعتُ عينيَّ.

آه، من كان ذلك الرجل، كنتُ أعرف ذلك، كان اسمه ثريسيزيانو. الوحش: لا تنفع غير العصا للحديث معه. كنتُ أعرف. حسناً فعلتُ وأنا أتوجّس من الشيطان. هل كان ثريسيزيانو قليل الصبر أم أنه كان - بالنظر إلى كيف كانت ترتعش خياشيمه - يعاني من ظمأ أشدّ من الآخرين، وأصابه الجنون؟ كان يُقال إنه يعاني من آلام في الرأس، ويتحمل آلام طفح وقروح. كان محتجّ ضدّي، يصبح بالشتائم. رجلٌ فقد صوابه، عيناه جمرتان. وأنا، سيد قواي الذهنية، كما قلتُ. أستطيع أن أفكر على إيقاع بغلٍ... - دع الكاهن يكمل قداسه، أيها الرفيق - قلتُ مع نفسي. أولاً، أردتُ أن أتحمل: لأن الشيطان لم يكن إنساناً يتحكّم بي ويثيرُ غضبي. كان يكفي فرض شيء من الهدوء، بحذر؛ ثم، عن طريق كلمات ذات طاقة إيجابية، أتحاشى بعناية شجاراً يمكن أن يكون قاتلاً، وأوبّخ ثريسيزيانو مستعملاً سلطتي الشخصية، وليس الحجارة أو العصا. هذه المرة - أنا القائد - لن يسلب مني الشيطان ذلك...

لكن - آه! - كما يقال: واحدٌ يفعلُ، والآخر يأمر. هذا ما حدث، وهذا ما وقع. ما رأيْتُ. من يعاني من العطش، يشتكي من عينيه، ويفقد البصر

في النهاية. لكنني، رأيتُ. استمر ذلك مدة ثانية واحدة. مثل شرود: جزء من الثانية، ونفقد الوعي لمدة عشر سنوات. رأيتُ: هناك - القبة منحرفة، الخنجر يتجاوز الحزام بكثير، الشَّعْرُ فوق الجمجمة، تغيرات الوجه... الشيطان! هو، هنا، أمام عيني، كان هو الشيطان... الشيطان! كَشَرَ. أعرف كيف تلمع أسنانه. كان هو الشيطان، يسخر مني. الشيطان شخصيًا!

وهو يتوجه نحوي، أطلقَ الفرس! الشيطان؟ مباشرةً نحوي. عليه اللعنة! كان يهجم، فظيعة، بشراسة ثور متوحش. وقفتُ فوق المهمازين. إيه! اصفرَّت الشفرة ولمعت، ثم صاح بحقد ليطن ويخترق، وكل جسده مندفع إلى الأمام. وجَّه الطعنة. وقفتُ في وجهه، جسدًا لجسد... بسبب حركة خاطئة، انغرس طرف الخنجر في طقمي، وما كنت أحمل في حزامي وفي حقيبتني من أشياء: بقي معلقًا هناك، مدة ثانية. طار خنجري - سكَّني الوفي - ثابتًا في يدي. أمسكت الآخر من تحت، وقطعتُ - قطعتُ عند مستوى العنق - صرَّ الحديد حول العظم، فمزَّق القصبة الهوائية، فانطلق منها صفير كهفي وانبجس الدم عاليًا جدًا. ذبحتُ فوق تفاحة آدم... هو، الآخر، سقط تحت الحصان، وانطفأت عيناه القاسيتان حتى قبل أن يلامس الأرض... مات لعينًا، مات وحلقه يطلق شخيرَ حنجرتة!

وماذا رأيتُ؟ الدم في خنجري - لمعان رائع جميل، كأنه برنيقٌ مخملي... وهو: كان يرقد فوق أشواك المانداكارو. كما سقط. آه - لا! آه، لكن لا أحد يرى الشيطان ميتا... الجثة، التي كانت هناك، كانت هي جثة ثريسيزيانو فعلا!

كان موته شيئًا جيدًا. هل كان كما ينبغي له أن يكون؟ كان ينبغي أن يكون كذلك ما دام الشيطان غير موجود! الحُذع، الحِيل... انطلاقًا من ذلك اليوم، لن أفكر فيه أبدًا. ولا في المسكين ثريسيزيانو الذي كان يرقد مذبحًا هناك،

تريسيزيانو الذي كنتُ قد... اخترقني بردٌ قارس وجعلني أرتعش. عانيت من هذا الرعب - يدنا قادرة على الفعل من دون أن تترك الوقت للفكر...

بكل بساطة، هناوني جميعًا وأثنوا عليّ بقوة وكلام جميل، لأن سلطتي لم تتراخى. لو استعملت البندقية، ما كان ذلك سيثير إعجابهم بهذا الشكل، لأن سمعتي في الزناد كانت شيئًا معروفًا؛ أما في الخنجر، فقد نجحتُ الآن! ومن أقرب مجموعة على شِمالنا، ولو على مسافة بعيدة، كان أحدهم قد رأى أو سمع، فهبَّ مسرعًا. كان هو جيريببي، جيريببي الصغير، فوق حصانٍ انطلق يعدو مسرعًا. كان دِيادوريمُ قد أطلق طلقة نارية عشوائية؛ بسبب التوتر. وقريبًا جدًّا، سيكونون جميعًا على علم بالرجل الذي مات وبهذه الملحمة: على حافة البئر - هناك، في الأعلى، كان الجلد المندفع يتجعد، وفي الأسفل، ترهّل كثيرًا: فوق الحَلَمَتَيْن تقريبًا! وكان هذا الجلد يكشف عن ثقبٍ مربع، فطيع، يظهر فيه كل لحم الجسد. - حسب ما أعرفُ - أخبرني أَلاريبي - كان هذا الرجل من جبال أوما... - الوغد، جاء من بعيد، هذا الضفدع السام! كان البعض يتحسّسون الجسد - لم تكن به أدنى شعرة. كانوا يريدون أن يخففوا عن هذا الجسد كل الأشياء ذات القيمة. وحسب ما قال أحدهم، فقد كان يحمل معه: زينة رخيصة، حلية صغيرة من الفضة؛ ومهمازين رائعين، من المعدن الجيد.

لم أرتبك. موتُ هذا الرجل يدخلُ في باب الانتحار. - طريقة موته؟ هل ذهب إلى الجحيم؟ - سأل غريغو الصغير بكل جدية. أولاً، ما دخلي في ذلك، كي يهنؤوني؟ أن يكون الموت - بسببي أنا، أعرف ذلك؛ ولكن، قل لي، يا سيدي، قل لي: الثانية، تلك الثانية الصغيرة، أين ذهبت؟ راح الأعمى بورُوميو ينشد بصوتٍ أغنَّ ابتهالات وتسييحات. خوف الأعمى ليس هو الخوف الحقيقي. كان دِيادوريمُ ينظر إليّ - كأنه يراني من الجهة الأخرى من

القمر. لحظتها فقط، رأيتُ الدّم مرة أخرى. ذلك الدّم على ملابسي، لزقة حمراء نتنة. نظفتُ ذقني قليلًا من ذلك الدّم الغريب الذي يلطّخني لزجًا سميكًا؛ لكن، أنا الذي أشعر بالقرف من الدّم، هل كنتُ أتركه هناك على سبيل الذكرى؟ آه، لا! لأنه، هناك، داهمني رعبٌ أكبر وأدهى. الدّم... الدّم شيء يجب أن يبقى مخبأً دائمًا في الأحشاء، شيء لا ينبغي أن يُرى أبدًا. وربما لهذا السبب أيضًا كان المجد الخفي كبيرًا جدًّا، عظمة قربان الرّب في ذهب بيت القربان - أبيض ناصع! - وأنا أجله كثيرًا، أجتو على ركبتيّ معًا فوق أرض صلبة.

فيما عدا ذلك، كان الجسد لا يزال هناك، في هواء تلك الصحراء. تركنا المكان لأنه كان علينا أن نواصل الرحلة ونسير إلى الأمام. وعلى إيقاع الرحلة، فكّرتُ في شيء آخر. وحتى في عبارات هلّوليا!

كل شيء، كما أحكي لك، يا سيدي. كان القدر يصرّ على النهاية الحزينة لثريسيزيانو. ذلك أنه ما إن قطعنا ثلاثة فراسخ حتى خرجنا من الصحراء، كما في الوقت المناسب: بلغنا وادي صغير مخضر، وأرضا بين جبلين، أعني هضبة؛ فوطأت أرضا مسيحية. قريبًا، سوف نرى مناطق كرونديوباييس الواسعة، أراضي النخيل في باهيّا.

مشيتُ في المقدمة، مُسالماً تمامًا، أطلب جرعة ماء في كوخ رجل أعزب؛ أخبرني أنه على مدار عشرة فراسخ كانت توجد القرية بكل تأكيد. ودون تأخير- تابعنا السير. قبل أن نصل إلى هناك، كنا قد مررنا بكارينيانا العليا - هناك حيث يصبغ إبليس وجهه بلون أسود. أصبحنا الآن قاب قوسين أو أدنى من المكان الذي كنا نتطلّع إليه. على بعد رحلة يوم ونصف يوم - باتباع الاتجاه الصحيح الذي اكتشفناه بسرعة - لا بدّ أنه كان يوجد بيت سلالة هرّموجينيس! سوف ننهي هذا الأمر ونحن ننطلق باكراً مع طلوع

النهار، ثم نفاجئ كل أولئك الناس، بسرعة، ونأخذهم على حين غرة. كان هُرموجينيس يراوح مكانه، بعيداً، يصادف آثاري القديمة، ولا يتخيل ما نقدم عليه من أفعال. آه، كان ذلك هو تعويضي. آه! - الطائر الذي يخلق بعيداً يهمل البيض في عشه...

لذلك لم نتأخر كثيراً؛ لم نكن نريد أن يعرفوا أخبارنا مسبقاً. لم نأخذ ولا يوماً واحداً نستريح فيه. كنا نسير خبياً وبسرعة، فقطعنا المسافة في ليلة واحدة - ثم وصلنا مع أولى أضواء الفجر. انتشرنا دائرياً حول المكان، وحافظنا على التواصل فيما بيننا عن طريق الإشارات: غناء نسر الأكاوا وصيحات القرد. فلا بُدَّ أنهم ظلوا يحتفظون ببعض الاحتياطين للدفاع: رجال وينادق. ثم لم يبقَ سوى أن ننتظر أول قُبسٍ من نور الصباح في الأفق وصعود النهار المهيّب. على طريقتنا. أطلقنا النار.

أقول بصراحة: حدث قبيحٌ، وقبيحٌ حكيه. أعرفُ. لذلك أوجزُ وألخصُ: لا أعلّق. أنت في النهاية، ستُكمل ذلك، يا سيدي. لكن، نحن لم نقاتل منذ مدة طويلة، وما كنا نريد القيام به كان شيئاً عاصفاً، ضارياً.

بيت الفازيندا - ذلك الخط الأبيض المصبوغ بالجير؛ لكنه كان بناية ضخمة تعلو قمة تلٍّ، مخادعة، وهي تبدو ملتوية. أطلقنا عليها وابلاً من الرصاص. وكم كنتُ أصيحُ!: أنهق كالحمار...

من يسكنون هناك، كانوا رجالاً عاديين - انهاروا أمام رجال جيشي. كانت هزيمة نكراء! كأنهم كانوا مكسوري الأجنحة، فلم يحاولوا المقاومة: بالكاد سمعتُ طلقات تردُّ على هجومنا. ثم انطلقنا متدفقين نحو الداخل، فبرزنا هائجين وسط البارود مثل دوامة ريح عاصفة. بما يكفي. أتخلى عن قول ما قمتُ به. ألم يفعلوا جميعاً مثلي كذلك؟ نظرتُ خلفي، أخشى ألا يوافق ذيادوريم على ذلك؛ لكن ذيادوريم، في المقدمة، حاملاً سلاحه،

أَيَّدَنِي. كم قتلنا وخربنا - أشخاص وحيوانات، ثور هادئ كان يلحس الطَّلَّ، خنزير هزيل عند باب الحظيرة. سادَ الشَّرُّ. لِيُخْرِجَهُ الرَّبُّ مِنْ نَفْسِي! لِيُنْقِذَنِي الرَّبُّ! مرة واحدة وإلى الأبد...

بعد ذلك أضرمنا النار في البيت من كل زاوية وركن بواسطة المشاعل. استعرَ الحريقُ: احترقَ كل شيء، دفعة واحدة، مثل خشب أومبورانا الأبيض... ولم نغادر قبل المساء، حينَ خمد الحريق. وفي الصباح الموالي، أقمنا معسكرنا على ضفة مياهٍ راکضة. كنا منهكين من التعب وقلة النوم. لكننا كنا قد سجننا ووضعنا تحت سلطتنا زوجة هِرموجينيسُ الشرعية، التي بحثنا عنها بشغف.

كانت تلك المرأة قاسية؛ تنظر إلينا باحتقار. كانت تختلف عن أي مصير آخر. ترتدي لباساً أسودَ، بالياً، شحَبَ لونه؛ وقد سقط المنديل الأسود الذي كانت تضعه على رأسها، ولكنها لم تكثرث وهي عارية الرأس. سمحنا لها بالجلوس، فجلست. لم تتسارع أنفاسها. لا بد أنها كانت جميلة، في متع شبابها؛ وكانت ما تزال كذلك. قدمنا لها طعاما، فأكلت. وأعطيناها ماء، فشربت. باختصار شديد، أجابت عن سؤالين أو ثلاثة أسئلة؛ ومباشرة بعد كلامها، كانت تشدّ فمها بقوة، فتبرز شفاتها الدقيقتان الضيقتان. لكنها كانت تتكلم وهي تصفر تقريباً. أظنُّ أنها لم تكن تمضغ التبغ، ولا تدخن الغليون، ورغم ذلك كانت تبصق عند قدميها، لكنها لا تطأ المكان بنعل حذاءها بعد ذلك، كما نفعل عادة في مثل هذه الحالة. لاحظتُ أنها كانت حافية القدمين، وهو ما لم يكن من عاداتها، ولا شك أن ذلك يرجع إلى الارتباك والساعة التي أمسكنا عليها فيها. وجدنا لها نعلا. كانت تعرف أنها ليست من صفوفنا. تقبّلت نظراتي، قاسيةً، قاسيةً، بخنوعٍ حقدٍ هادئ؛ حتى بأظافر قدميها، ولو كان بوسعها ذلك لقتلتني. لفّت وجهها في شالٍ أخضر؛ لون أخضر شاحب

جداً. لكنني كنتُ قد احتفظت بعينيها إلى الأبد، في ذاكرتي. رغم وجهها النحيف، وشحوبها، لم تكن عيناها تشبهان أي عيون أخرى، بنظراتها السوداء، غير المتوقعة والراسخة، وعينيها الداكنتين الجافَتَيْن من كلِّ ماء. هل كان فمُها يحمل آثار معاناة سابقة؟ بالنسبة إليّ، لم يكن لها اسمٌ قطُّ. لم تقل لي أي كلمة، ولم أقل لها أي كلمة أيضاً. خشيت أمراً واحداً، أن تعجبني بوصفها امرأة. لكنني خفت من أن أشعر بشيء من الحزن: صحيح أنني لم أرتعش لأسباب شقائها. كان من الأفضل بمئة مرة ألا تأتي معنا. هذا هو أن تكون قائداً، أحياناً: تضطر لتحمل معك أفاعي في حقيبتك، دون إذن بقتلها... وظلت كذلك مغطاة الرأس، من دون تعابير، تفتح راحتي يديها، وتديرهما إلى أعلى تعبيراً عن أنها لا تخفى آلات حادة، أو لأنها كانت تطلب صدقةً من الرَّب. أذكرُ تلك المرأة، كما لو أنني أذكر معاناتي الماضية. تلك المرأة التي ذهبنا لنبحث عنها في ولاية باهيا.

من الواضح أننا لم نستطع المكوث في الجوار، ولكننا انطلقنا من جديد ونحن نلتفُّ حوله - لا نسلب غير امتيازات مالية، دون قتل أو تخريب - وفق نظام الجاغونسو. كنتُ أقود بحزن، وفكري يغلي غليانا. رأيتني أرضُ جالاباؤ، ورأيتني كل الهضاب العليا. تلك المقاطعات التي كانت فيما مضى ضمن أراضي فولتا غراند الشجاع. بعد ذلك، نزلنا نحو غوياس، نتسكع. مناطق مقفرة، بها أناس فقراء يعيشون حياة بسيطة. لكن السُّرتاؤ في حركة دائمة - إلا أننا، لا نلاحظ ذلك، يا سيدي؛ تماماً مثل كفتي الميزان تحت وقع ثقل خفيف جداً... قطعنا أراضي بعيدة جداً؛ لكنني كنت أستشيطُ حقداً وأنا أفكر في المدن التي كانت موجودة. ولا أعرفها. كنتُ أحقد عليها - لأنني لم أكن منها، لم أكن قادماً منها... وكنتُ أبحر بلا قيود. هناك القراميد وهناك السُّحب... كما لو أنني أستطيع أن ألوي زرقة السماء بيدي؟! عدتُ

إلى الوحش الضاري؛ عدتُ حقاً لأكون الثعبان الأبيض، لكنني بالغتُ في الأمر.

لم تعد تنفعني، ولو بشكل مؤقت ونادر، فيما كنتُ أفهم من أحاسيسي، عدا بعض الأحداث والذكريات. وكانت، على سبيل المثال، كما يلي: أغنية سيرويز، أمّي، في بيغري، وهي توبّخني؛ أشجار البوريتي، البوريتي، ثمارها، - عناقيد من ثمارها؛ وجود ذيادوريم، غرابة ذلك الطائر الأنيق: فارس الرمال الصغير؛ تمثال سيدتنا العذراء في الدّير، تلك المنقذة؛ الأطفال الصغار، عراة كأنهم ملائكة، يقفزون خلف أمّهاتهم اللواتي ذهبن لجلب الماء من على شاطئ نهر ساو فرانسيسكو، يضعنّ الجرار في توازن على طوقٍ فوق رؤوسهن، لا وقت لديهنّ لأحزان عظيمة؛ وحييتي أوتاسيليا.

خيّطُ تلك الذكريات يسحبني، أعتقد أنني قد غسلتُ نوعاً آخر من الطّيبة. وأقول إنني ربما شعرتُ مرة أخرى برغبة في معانقة لمسات الشابة نيورينيا. لماذا هنا، في اللحظة المناسبة، لم أميز ذلك بوضوح؟ وكانت تسكن هناك الآن، في الأمام، في ذلك الامتداد. نعم، بالسير في هذا الاتجاه. لكنني لم أعرف ذلك؛ وعُدنا أدراجنا. أوقات قاتمة. إنّ ما لا تراه عيناى اليوم، ربما سأضطر لأعاني منه بعد غدٍ.

ما ابتكرتُ ونحن نسير هكذا عبر تلك البقاع الحزينة، هو أن نُعلّم شيئاً فشيئاً أولئك الفلاحين البسطاء، إنّك تذكرهم، يا سيدي؛ نُعلّم هؤلاء البسطاء استعمال السلاح وقت القتال الشديد. وكانوا يعدون في ذلك بالشيء الكثير، لأن الدّابة لا تجمع إلّا عند بداية السفر. كنتُ سعيداً وأنا أرى تيووفراسيو، أهم رجل بينهم، يُصوّب مسدسه القديم ذو الفوهتين نحو لصّ بريء. لكنني لم أسمح له بإطلاق النار. هل كان زي بيبيلو ليسمح بمثل هذا الشطط؟ هنا، حين كنتُ أتذكّر زي بيبيلو، كانت أوقات ذكاء

متقد بالنسبة إليّ. هكذا، لو كان لا يزال حيًّا، لا بد وأنه سيتوصل خلال مدة وجيزة بأخباري وما كنتُ أنجزه؛ وأنا أخذنا المرأة؛ وهي الآن بين أيدينا، سيضطرُّ هِرْموجينيسُ للدخول في القتال.

تلك المرأة، منفرجة الساقين فوق حصانها، تسير في صمتٍ سيء ونهائي، تخفي وجهها خلف الشال الأخضر. أعطيناها قبعة من سعف نخل الأوريكوري لتقي نفسها من شمسٍ باهياً الحارقة. عدا ذلك، لم نسمع منها قطُّ أي شكوى أو احتجاج؛ ولا حتى كلمة بسيطة. ما لم أفهمه فيها هو ذلك الهدوء الناعم، والضَّاري جداً: الذي لا بدَّ أنه يتشبَّث بالأمل؛ تلك القدرة. إن كان الحقدُ، والحقد لوحده فقط، هو من يمنحها تلك الثقة، فإنَّ الحقد كان أمراً نافعاً، بهذا المعنى: يكون أحياناً أملاً مكتملاً. وقاني الربُّ من حقدٍ كهذا!

لكنَّ الرجلَ الذي صوّب نحوه البسيطُ تيوُفَراشيُو مسدَّسه الرديء القديم، كان مُسنّاً. هذا الرجل، أقول، أنقذتُ حياته. نجا هكذا، لأنني لم أفلح في معرفة القصد من وجوده، وأسباب وعيه. كان يسكن في كهف، داخل كوخ منعزل جداً، وسط كتل من نباتات المُخلَّدة في الهضاب العُليا، وبريق نخيل البيندوبا.

صعدتُ، رفقة الآخرين، إلى قَمَّةٍ تَلَّ تلتقي فيه الرِّياحُ. من الأعلى، كان فكري يستطيع أن يدقق كثيراً من الآفاق. وانظُرْ لترى، يا سيدي: من جهة، على بعد حوالي خمسة عشر فرسخاً، كان هنا ساوُ جوزِيزينو دا سيرًا، أرض مزهرة، حيث كانت تعيش الآن نُيورنيا، بنتُ أنا دوزوزا. وكان ذلك أمراً رفض فكري أن يزودني به، وقتئذٍ، كما قلتُ. هناك، هناك. لم أكن قد توصلت برسالتها. بالنسبة إليّ، كانت مجرد حينٍ أحفظ به. هذا ما أظنُّه اليوم. نُيورنيا، بنتُ الهوى، التي تستقبل الجميع ولا أحد، كانت تعيش

هناك؛ جميلة، وصافية صفاء تلکما العینین اللّتين لم تكونا سوى لها... أحبّ الرّجال الاستمتاع بتلك البراءة الرائعة. إذن، إن لم تكن ذات قيمة، فكيف يمكن أن تكون لكلّ هؤلاء الرجال؟

لكن، عند العودة، ونحن ننزل من ذلك التلّ، المُسمّى تيبّا - أقصد تلّ أوفيسيوس - عثرنا على ذلك العجوز، عند باب كوخه. رجل شبه مجنون، يتحدث عن زمن الإمبراطور الطيب^(١). كان من باهياً، له لحية مثل مكنسة من ألياف النخل: كان من غويّاس وباهياً. مسكين المسكين، لا يملك ولا ثلاثة أكواز من الذرة في سقيفته. كان خلاصياً أمهق. لحيته مثل الكلاء الوسخ، وشعره عاصفة هوجاء. سألتُه عن شيء لم يكلف نفسه عناء الاستماع إليه، بينما تيو فراسيو، الذي كان يريد الآن أن يبدو جاغونسو كامل الأوصاف، أخذ، يصيح - وألصق فوهة مسدسه بصدر الرجل. لكنه لم يضغط على الزناد. وكان العجوز صبوراً متحملاً. وقيمة صبر رجل عجوز تساوي وزنه ذهباً. تحدّث معي. وحدّثني عن كل ما تعلّمه طوال حياته الممتدة في الزمن. يا إلهي، كم كان ذلك الرجل يعرف كل شيء من الأمور العمليّة عن الحرث، عن أشغال الحقول والغابة، كل شيء. لكن، اليوم، بفضل ما وفره من معرفة، كان عجز الشيخوخة يجردّه من أي قدرة على العمل: بل حتى كل ما تعلّمه عفا عليه الزمن اليوم ولم يعد صالحاً. عجوز صغير، ترمش عيناه كثيراً.

هل كان عجوزاً بليداً؟ لا أعتقد. وكل هذا، كل ما أعيد تصويره الآن، يعود إلى ذلك الانطباع الغريب الذي تركه في نفسي هذا الرجل العجوز. لأنه لم يكن يملك من سلاح شخصي غير خنجر صغير، مديّة ثلثة وهراوة -

(١) الإمبراطور بيدرو الثاني (١٨٢٥-١٨٩١) الملقّب باسم «الشهم» أو «الطيب»، من عائلة بُراغانسا الملكية التي فرت من البرتغال. يُعتبر ثاني وآخر إمبراطور في البرازيل. (المترجم)

وهي عبارة عن عصا جوفاء ومحشوة بالمعادن، يمكن أن تصلح حتى للقتل - كان يعرج بشكل مؤسف: والسبب هو ساقه اليسرى التي بُترت - على إثر لسعة ثعبان - ربما من فصيلة الثعابين ذات الدّم البارد. كان مرتاحاً معي، فطلب مني في الأخير حفنة ملح وقبل مني قطعة لحمٍ مجفّف. لأنه، في قوته المعتاد، كان يقتاتُ على الإغوانات، أو حيوانات السّريع التي كان يستطيع دائماً أن يقنصها بضربة صائبة من هراوته. أطلقَ عليّ اسم «القائد الكبير لجماعة قطاع الطرق...».

وفي النهاية، كي يشكرني على ما أسديتُ له، قال لي، ناصحاً، إنّ كلّ ما لا يزال قائماً في كثير من الفازيندات المهجورة، يوجد مدفوناً في أعماقها، وكان يعرف ذلك معرفة أكيدة، كثيرٌ من المال، بكميات هائلة. عليّ أن أذهب إلى هناك... - قال لي - أخرج تلك الثروات المدفونة وأخذها لأننا نستحقها أنا ورفاقي... - أين؟ في أي اتجاه؟ - سألتُه مجاملاً. برمش عين، أشار إلى الغابة. من هذه الجهة، على بعد خمسة وثلاثين فرسخاً تقريباً، في ضيعة تسمى ريبّاشو دازّ المّاس... حماقة. هل أبحر كل هذه المسافة، أقطع الغابة، أجري عبر الأحراش والكاتينغا، فقط لأؤكد جنونَ رجل غريب؟ لم تكن حربي تسمح لي بمثل هذا الوقت. ثم، لو كان يعرف ذلك حقاً، لماذا لا يذهب بنفسه ليستخرج ذلك الذهب ويأخذه لوحده؟ كنتُ أسخر منه بلطف. لماذا يُسدي النصائح للآخرين؟ الدجاج - أجنحته - يحب غبار الرمال... والرجل العجوز - الذي أتحدث عنه، هل كان يفهم متاعبي؟ أنا كنتُ هناك فقط على سبيل الإعارة. ليكن، والشيطان... ما كنتُ أملكه هو الطريق الذي يفتحه لي حصاني. سيرّويز. هللّويا خالصة.

وهذا العجوز، بطريقته الغريبة في النّظر والتصرّف، كان شيءٌ ما في ذاتي يجعله متوجّساً. لكن - أي شيء كان؟ أي شيء كان؟!... كان لا بد أن أسأله.

ومع ذلك - لأنه لا ينبغي أن يلاحظ الآخرون أن قائدًا ما يشعر بالقلق،
ينشغل باللايقين، اضطررتُ لأسأل دون أن أبدو كذلك، مستعينا بشكل
آخر من أشكال المزح: - هل ولدت هنا، يا أخي، أم جئت من مكان آخر؟
هل تجد فعلاً أن السّرّتاو مكانٌ جيد؟

أجابني بحماسةٍ منه، لكنه قدّم لي إجابة واضحة: أقولها لك، يا سيدي:
- إن السّرّتاو ليس شريراً ولا رحيماً، يا أخي! يعطي أو يأخذ، قد يسعدك
أو يحزنك، وفق طبيعتك، يا سيدي.

أجابني بحماسة، كأنه يريد أن يجرّحني؛ وقد استعدّ للعضّ! أجاب وهو
يشير إلى صدري بإصبعه. هل أزعجته مزّحتي؟ لم أتمكن من فكّ شفرات
قوله. رجلٌ من أهل السّرّتاو لا يعرف الطمأنينة. لكننا تركناه هناك،
وبسرعة، لأن العجوز استعمل كل أصابع يده ليمخط أنفه، فأصابني ذلك
بالقرف. نزلنا بقية التل نمشي متسكّعين. عندما بلغنا الأرض المنبسطة،
كانت أغصان الأشجار قد بدأت تمتلئ بغبار الليل. أراضٍ مقفرة؟

هل ما أعرّفه اليوم يستمدُّ قيمته من الماضي؟ إيه - جوعٌ طائر السّبَد
يزداد ليلاً... لأن كنز العجوز كان يمنحني سبباً. كان بوذي أن أجري إلى
هناك، أقطع الفراسخ الخمسة وثلاثين تلك، لأرى ربها في ريباشو داراً المأس
- والطريق التي تمر عبر ساو جوزيزينيو دا سيرّا، ذلك المكان المبارك، حيث
تعيش نيورينيا. مرة أخرى مع نيورينيا، وفق ما أعرف، كانت حياتي
تتلوّى بين تلال أخرى، وتسير نحو مرفأ مختلف. أشعر أنني أعرف. كنتُ
سأتزوّج نيورينيا، سعيداً مثل زرقة السماء؛ وأعود أدراجي. أجدني في كثير
من الأحيان وأنا أفكر في ذلك. لو أنّ الطريق انحرف في لحظة ما - لو أنّ
ما وقع لم يقع؟ كيف كان سيكون ما هو كائن؟ ذكرياتٌ لا تقدم لي أي
يقين. الماضي - عظامٌ حول عَشّ اليوم... و، أقول لك، يا سيدي، لا تظنّ

بي السوء: لأنني متزوج وفق أعراف الزواج - لأن عواطف الصداقة تجاه زوجتي الطيبة ذهب خالص. لكن - لو أنني بقيت في ساو جوزيزينو، وتخلّيت سعيّداً عن القيادة حيث كنت أحمل اسم الثعبان الأبيض، كم من الأشياء الفظيعة كان على ريح السحاب أن تمرّقها كي لا تحدث؟ ما هو ممكن - ما كان ممكنا. إنّ السّرتاؤ لا ينادي على أحد هكذا علانية؛ بل إنه يتوارى ويلوّح بالإشارة. لكن السّرتاؤ سرعان ما يبدأ يرتجف، تحتنا... ثم - أيضاً - يصبح ممكنا ما لم يكن كذلك. ربما لا تجد الأمر كذلك، يا سيدي؟ لكن، ما كنت أقول لك، كان بسبب نيورينيا. دائماً ما يؤلمنا، مرة، أي حبّ ممكن، أهملناه في يوم من الأيام... لكن، بما أننا كنا جاعون نسو، فقد انطلقنا صاعدين مباشرة على متن خيول جيدة جديدة. عبر رمال الهضاب العليا، المملوءة بالعدم. فوق الرّمادي، في الرّمال الميتة، من دون جبالٍ تقف حاجزاً أمام الريح.

بقينا نتجه غربا، نسير هائمين عبر الريف البنفسجي، نركض وعيوننا على كل شيء؛ هضبة لا حدّ لها ولا نهاية. لا شيء فيها غير بضع قبضات من الكلاء هنا وهناك، بقساوتها النحيقة. وأحسن ما في الأمر الآن أنه، لو صادف أحدهم موكبنا المتوحش، سيكونون أشخاصا من بقاع بعيدة، لا يعرفون المرأة، ولن يقولوا: - هذه زوجة السيد هرّموجينيس، يأخذونها إلى سردابٍ تحت الأرض...

وهذه بالذات لم تكن تتعبنا؛ المرأة التي تختبئ وراء الشال الأخضر. المرأة من دون خلاص - أي تلك التي تذهب من أجل أن يموت رجل آخر - أمام تقلبات القدر. كنتُ أخاف أن تصاب بمرض. أعطيتُ كل الأوامر من أجل معاملتها معاملة حسنة. كما قرّرتُ وسهرت على ألا تُرتكب أيُّ أعمال وحشية في الأماكن المسكونة التي ندخل إليها، وألا نضايق أحداً، من دون

حاجة مُلحة لذلك. وكذلك لأن هذا لا يضيف شيئاً إلى مجدي، لأنني كنتُ أسير نحو نهاية كبيرة. بل أصبحت متوتراً.

بمجرد أن ظهرت أشجار الكروندوباً بأعداد هائلة، وبرزت التلال الرملية البيضاء واللقالق فوق الجميع، كنتُ قد لاحظتُ كل شيء. رأيتُ ذلك النهر الذي يصير مالخاً، أكلت حبة جوز من شجر الأوريكوري. الهجوم، القتال، هذه الفوضى كانت تغريني. الآن، بسبب مثل هذه المبالغات من أعمال الجاغونسو - حتى بالنسبة للكلام بشكل طائش دون توقف - لم يعد لي وقت لأشياء أخرى. ليس بسبب الخمول أو قلة الرجولة؛ آه، كلاً؛ فطيلة مدة قيادتي، وقبل ذلك بكثير أظنُّ، تحمَّلتُ كل شيء بئس وغير إنساني. أصحَّحُ وأقول: البردُ لوحده هو الذي لم أتحمله جيداً. حين يشتد البرد، كنتُ أنام فعلاً بالقرب من عدة مواقد نار. البرد والجاغونسو لا يتوافقان. ونحن نتقدم بتلك الطريقة، فوق الهضاب العليا، ملأنا الأخراج بسيقان شجيرات القرفة إيما، التي تنمو لأكثر من متر واحد ويصلح خشبها لإشعال النار. ومع طلوع النهار، أشرب من باب الاحتياط كأس شاي الجوريبا، الذي ينعش كل قواي الفكرية. وبعد ذلك، أتحكم في برد الصباح الباكر. وعكس ذيادوريم، لم أحلق وجهي منذ مدة طويلة. كانت لحيتي تلمع كبيرة سوداء، وتمنحني مظهراً جميلاً - بوسعي أن أنتبه إليه شخصياً بكل سهولة، وأنا أنظر إلى نفسي في صفحة الماء، عندما ينحني حصاني سيرويز ليردَّ من أيِّ جدول بعرض ذارعين. أشياء عادية!

رجالي، على ما يبدو، بحاجة إلى النساء، لقد جاؤوا ويقولون إنهم يريدون أن يأخذوا معهم بعضاً من تلك المنتشرات على حافة الطريق، وألحوا عليَّ في ذلك. وهو ما كنتُ أرفضه وأستهجنه بقوة: لم نكن بعد في الوقت الذي يسمح لنا بهذه المتع. والمشكلة أن أولئك النساء لم تكن بأعداد كافية كي

تكون لكل واحد امرأة، كما يجب، ولذلك فإن رفقتهم يمكن أن تشكل خطراً على نظام حياتنا، وتخلق مجموعة من المشادات والشجارات. ما كنا نجمع ونأخذ هي الخيول الجيدة. وأخذنا معنا حوالي خمسين رأساً من مواشي باهياً؛ بشكل عشوائي. في حقول الكلاء، حين نصادفها، لم نجد أي صعوبة في الأمر. بعد ذلك، ساءت أمور وتحسنت أخرى. يا سيدي، ابحث عن نصيبك من الفرح، لأنك يمكن أن تجده حتى في السرتاؤ القاحل.

وبالحديث عن النساء، سأعطيك مثلاً. حين تسافر راكبا باستمرار، جالساً على سرج دافئ، فإن الوسادة تضع حدًا للحديث عن الحب. كنت أمتطي حصاني هكذا في هدوء، يمشي بخطى منتظمة، والهضبة العليا تمتد واسعة أمام ناظري. هناك، كان الهواء كله هدوء. كان رجال هرْموجينيس يمشون بعيداً. لن تغامر أي كتيبة جنود بالقدم إلى هنا، إلى أراضينا المستكشفة، أبداً. الطمأنينة تولد الرغبة. لم أكن مع إضاعة الوقت، ولكني كنت أرغب في شيء من المرح، في قرية جيدة بها سوق للماشية. كنت أريد أن أستمع لقيثارة كيلوس الجميلة، وإيقاع الأقدام الراقصة. لكن، في الحقيقة، شعرت بالحاجة إلى أجساد النساء العاريات. في تلك الأيام، خففت نظامي وأصدرت أوامر أقل صرامة: يمكن للجميع اللهُو بطريقة مقبولة مع نساء توافقن على ذلك، دون إلحاق أي ضرر بهن، ودون الدخول في مشاجرات مع إخوانهن، آبائهن أو أزواجهن، ما داموا يتصرفون بحكمة. كان ذلك هو قانوني وحرصت عليه. لماذا ندمرُ هكذا، من أجل لا شيء، حياة رجل سليم يشتغل؟ ما كان زي ببيلو ليسنَّ قانوناً مختلفاً عن هذا القانون... والآن، أرى، أتساءل، من أين يأتي الشيطان وما يقوم به من مطاردة؟ يجب أن أقول ذلك وأكرره، كنت أرغبُ في متع النساء، أرغب فيها لأزين بها أوقات الحياة. لكنني كنت أختار - بذخ الجسد ومرح الوجه. من لم تكن تروقني هي الشابة

العدراء تمامًا، المغرقة في التقوى، والمرأة القبيحة جدًا، المنخرطة بالكامل في حياة أسرتها. مثل هؤلاء، والمتجهات من النساء، كنتُ أرفضهن. لكن، حينئذ، حدّثوني عن فيردي أليكريم، فانطلقتُ ممتطيًا حصاني، مسرعًا إلى هناك.

كان المرشد شابًا دقيقًا، راعي بقر من غويّاس، في منطقة أورورو. قال لي إن فيردي أليكريم لم يعد غير قرية صغيرة: سبعة بيوت صغيرة، بين أشجار الجوافة، على طول جدول ذي مياه صافية. نصف دزينة من الأكواخ البائسة، سقوفها من سعف النخل، وجدرانها من طين على الأخشاب. لكن، كان هناك بيت كبير، يتوفر على شرفة ونوافذ من زجاج الميكا - بيت مطليّ بالجير يعلوه قرميد حقيقي، كان بيت السيدتين. كانتا فتاتين جميلتين، تحكمان القرية، رغم أن بقية السكان كانوا من عائلات محترمة وشريفة. وصلتُ وسرعان ما وجدتُ أنّ مكانًا كهذا يستحق اسم الجنة.

أولًا، وقبل كل شيء، بما أنني كنتُ القائد، فقد حرصت على أن يحصل كل واحد من رجالي على نصيبه. وزّعتهم على مجموعات، وقررت أن يتابعوا السير مرورًا بأماكن محددة. لأنه، على بعد فراسخ قليلة، سيجدون مثلاً قرى أخرى، مثل أذرووادو وساؤ بيدرو، بل وحتى بارؤو برانكو، التي كانت بلدة صغيرة. أما ديا دوريم، فأرسلته أيضًا كما ينبغي، خصيصًا ليقود المستكشفين. وحين أصبح كل شيء جاهزًا، انطلقتُ، فقط زفقة حاشية من عشرة رجال. ما لم أقل: كانت قرية فيردي أليكريم تقع في وادٍ جميل، تحيط به الجبال. من أعلى، كانت تُرى القرية بنظرة واحدة. همزتُ حصاني وانطلقتُ نازلاً كالسهم.

وصلتُ إلى هناك بسرعة كبيرة. تركت رجالي ليتشربوا في البيوت ويتحدّثوا مع النساء وأطفالهن. أما أنا فنزلتُ ببيت السيدتين. كان ذلك

هو اختياري. حسنًا، إن كان هناك من وفاءٍ، فهو حبُّ بنات الهوى. فهنَّ يخبرن كل ممارسات الحياة الجميلة. يُخَصُّصْنَ بالمتعة والمرح عابرَ السبيل؛ وحب الناس كما يجب، لا يتم حقًا، وبشكل عميق، إلَّا إذا لم نكن نعرف الآخر اجتماعيًا أكثر مما يجب... وصلتُ ليلاً، وكانتا هناك في البيت المُضاء لاستقبالي. كأن الحب العام يحافظ على الشباب، صدَّقني، يا سيدي-نيورنيا، مثلاً، متزوجة بالعديد من الرجال، وكل صباح تستيقظُ زهرةً جميلة. وأقول هذا على مضض، لأن تلكما السيدتين لا تقارنانِ بنيورنيا بأي حال من الأحوال، لأنهما لا تستحقان حتى أن تغسلا قدميها.

لكنهما لم تكونا ناقصتي جمالٍ وحسنٍ، كلاً. كانت إحداها - ماريًا دالوش - سمراء: بقامة تصل ثُمن شُجيرة قرفة. شعر طويل، أسودُّ، كثيف مثل لبدة حيوان - يغطي وجهها تقريبًا، تلك الموريسكيَّة الصغيرة. لكن ثغرها كان برعمًا مفتوحًا، لحميًا أحمر. تبسم بشفتين مطويتين ولها ذقن دقيق غاية في الرقة. وعينان عسليتان، تشعان بألق أخضر، جعلتاني أعتقد أنني في غويَّاس. كانت خبيرة بارعة. وسرعان ما تكفَّلت بي. لم تكن امرأة بسيطة أو عادية.

أما الأخرى، هورتيُنسيا، فكانت لطيفة قصيرة وجميلة، وكانوا يلقبونها «الجليد الأبيض» لأن جسدها كان أبيض رائعًا كأنَّكَ تضمُّ بياض الفجر البارد... كانت فريدة حتى بما كان يفوحُ من عطرٍ إيطيها. أما قدُّها، فمنحنيات متموجة كأنها جدول في جبل، يصيبُ بالحيرة. لذلك، يا سيدي، لا يمكن أبدًا قياس طولها بالضبط. بين الاثنتين معًا، اكتشفتُ أن في جسدي ما قسى وما لَانَ. كنتُ هناك تمساحًا، هذا ما أعرفُهُ.

في عزِّ الليل، شعرتُ بالجوع، ولم أرغبُ في شرب الكاشاسا. استرحتُ، شربتُ لبنًا خائرًا باردًا جدًّا. أكلت حلوى بالليمون. شربتُ قهوةً لذيذة، محلاةً بسكرٍ من النوع الفاخر، ناصع البياض. لأن السيدتين كانتا غنيتين؛

يعني لا بدّ وأنها كانتا تملكان مبلغاً كبيراً من المال. كان بيتهما مكاناً للتوقّف من أجل قضاء الليل، يقصده كبار مُلّاك الأراضي، ما يشبه فندقاً بثمن مرتفع. أمّا هما، فتحدّرانِ من عائلتين محترمتين. كانت البيضاء هوزتينسيا بنت فازينديرو من بارانا، تُوفّي. كانتا تملكان أراضٍ، وحقولاً من الفاصوليا والذرة على حافة الجبال. وهنا أيضاً، في فيردي أليكريم، ملكتنا كل الأراضي الصالحة للزراعة. ولهذا السبب، كان السكان وعائلاتهم في خدمتهما، يعيشون في تناغم واحترام، والامتيازات - كما لاحظت ذلك بنفسى: نظام ينبغي أن يسود دائماً في كل مكان.

وبينما نحن نحسبى القهوة، سمعنا صوتَ سعالٍ قادمًا من الخارج. وكان هو الرجل الذي تركته ليقوم بالحراسة. وكان هذا الرجل هو فيليسبيرتو - ذلك الذي استقرت رصاصة نحاسية في رأسه، فكان وجهه يخضّر من حين لآخر، كما قلت لك من قبل. ففكرتاً معاً في أن تأذنا لفيليسبيرتو بالدخول ليتناول القهوة بدوره، تدّعيان أنه ليس من العدل أن يبقى أحد يتجمّد من البرد في الخارج بينما الآخرون يستمتعون بالداخل. كلاهما، كما ترى، شخصان يفيضان طيبةً ولطفًا.

فوافقت على ذلك بكل سرور، لأنها كانتا على حق. إلّا أنه، فيما يتعلق باللباس، لم يكن واردًا تمامًا، بما أنني القائد، أن أسمح لفيليسبيرتو أن يراني هكذا عاريًا، كما كنتُ. لهذا، جلبت لي ماريًا دالوش لباسًا قديمًا من ملابسها، يمكن أن أربطه حول حزامي، كي أخفي أعضائي الخاصة. جرّبته. وهنا فهمتُ عدم الاحترام، فغضبتُ، وأزحت المرأة بدفعة واحدة، ورميتُ بعيدًا تلك الخرقة. ثم ارتديتُ من جديد ملابسى الخاصة، بل وحتى صدرتي. ضحكنا منى كثيرًا. هل كانتا تحسبانى أبله؟ وددتُ لو أصفعهما - لولا جهاهما ولطفهما، وأيضًا مرحهما المجنون الذي سحرنى تقريبًا.

دخل فيليبسبيرتو، ألقى التحية، أكل وشرب. يومها كان بخير، عاديا. إلا أنه كان صامتا جدا. أظن أن هذا النوع من الشبان، الذي يميل إلى الرجل الضخم أكثر من الشاب الوسيم، هو من تلتهمه النساء بعيونهن. يبدو، من أول نظرة، أصغر مني، وأكثر هدوء. لا يبحث عن الإثارة مع النساء أكثر مما يسعى إلى ركن يستكين فيه إلى قدره شيئا فشيئا. لم يطمع فيهما ولا في متعهما. لم أنتبه لحظتها إلى أن ماريّا دا لوش كانت تغازله بعينيها. حتى أنه، بعد أن أكل فيليبسبيرتو وشرب، وكان يهيم بالذهاب، قالت لي، بعد طول تفكير: إن لم يكن لدي مانع ستذهب مع فيليبسبيرتو إلى الغرفة الأخرى لمدة ساعتين تقريبا، بما أنني أثناء ذلك الوقت القصير سأقضي وقتا ممتعا مع هورزينسيا، الجليد الأبيض. غاضبا، قلت لا؛ وهي: - وجدتنا هنا بالصدفة، وحسن الحظ. تذهب وتأتي، والحظ يتسم لك. لك ما من نصيبك، ألا تقسمه مع الآخرين؟ ... - وبذلك، جعلتني أغير رأيي. كانت تلك الطائشة امرأة عنيدة. في السرّ تاو هناك كل شيء.

إن أجبته بالرفض، فإن ذلك لم يكن سوى باب احترام القواعد: لا يمكن أن نعربد إلا بوجود حارس يقوم بمهمته. كنت أنا القائد. وكان فيليبسبيرتو هو الحارس. في بيت فيردي أليكريم كانت هناك متع - لن أجد أحسن منها في أي مكان من العالم. وددت لو كنت ملكا هناك، من أجل الاستمتاع. أنت تعرف: أنا، القائد، والآخر، الحارس. على ما يبدو، كانت أيام فيليبسبيرتو معدودة، ومن الممكن أن حالته لا تسمح له بتأمين الخدمة. ولكنني فكرت أيضا: أنا، في دور الحارس؟ تصور ذلك! آه - رغم الجانب السلبي لهذه المخاطر - كنت أستطيع أن أفكر على انفراد: آه، لو كنت أملك قرن جذي وقدمين مشققتين... هنا، كنت أريد أن أكون ملكا من أجل المتعة، وخاتمة الأمور تأتي في مرتبة ثانية. كان الموت مع فيليبسبيرتو،

المسكين. شيء غريب أن تذهب رصاصة وتستقر في مركز جمجمته، في ثنانيا فكره - وهناك، من حين لآخر، كانت تحدث بعض المشاكل: يوما ما، قريباً جداً، سيكون الموت المشؤوم. الآن، هل من الممكن أن يرغب في التخلي عن حياة الجاغونوسو؟ حكاية تلك الرصاصة التي دخلت واستقرت داخل إنسان، هكذا - ولا يمكن إخراجها منه بأي وسيلة، لا تقتل بضربة واحدة، ولكنها لا تخشى الانتظار - كانت تؤثر على عقله. هذا الرجل، رغم قيمته وشجاعته، هل كنت لا أزال أرغب فيه ضمن جماعتي؟ تلكما المرأتان، الممتعتان، الصغيرتان الجميلتان، تمنحان هذه المتعة... خطرت لي فكرة أخرى. أنا الوحيد الذي أعرف: أنا، حارس! إلا أنني لا أستطيع أن أقدم لك وصفاً لحالة أفكارى، وانطباعاتي؛ أعرف الخطوط العريضة فقط.

طلع النهار مشرقاً. لكن ماريًا دالوش لم تكن انتهازيّة، كما لاحظتُ، وأنا أرى كيف حدثت فيليبسبرتو بنظرة مغازلة. من يدري إن لم يكن هذا الشاب يريد أن يبقى هنا دائماً، إلى الأبد؟ سألتُه. راح فيليبسبرتو يضحك مرتبكاً حتى أنني أدركت على الفور أن حدسي كان صحيحاً. وأضافنا، مبالغتين: - اترك لنا هذا الشاب، ونعدك أننا سنعتني به، ونقدم له كل ما يحتاجه! - وغير قولهما كل شيء، النساء! وفيليبسبرتو سيقى هناك متعلقاً، ملتزماً، خاضعاً لتلك الملذات؛ هل بوسعه أن يجد دواء أحسن من هذا في آخر أيامه؟ عندئذ، عانقتُ الرفيق وعانقتُ المرأتين، مودّعا إلى الأبد ومعرباً بكل وضوح أنني شبعْتُ منهما. امرأتان حاذقتان! حتى أنه، في ساعات الفراغ - وقد صار ذلك معروفاً - كانتا تعيشان عشيقتين معاً، الواحدة مع الأخرى. فما الذي قالتاه لي ساعة مغادرتي؟ هذا:

مكتبة

t.me/soramnqraa

- أحقاً أنت ذاهب، يا حبيبي؟ زيارة طبيب؟

فلم أملك سوى أن أضحك.

جمعتُ رجالي. وغادرت ذلك المكان. على مضضٍ، نوعًا ما: كنتُ أشعر بشيء من الحسد نحو فيليسبيرتو. لكنني، حينئذٍ، اعتبرت فيليسبيرتو مثل أخي. كما أن في السماء الجنة وبهاؤها، هناك في الأرض جمال النساء - الذي هو العطش. وهاتان المرأتان أطلبُ من الرَّب أن يباركهما كثيرًا. غادرتُ، إذن، وتركتُهما زهرتين في تلك القرية الصغيرة، كأنهما ظلتا هناك تنتظراني على شاطئ البحر. آه: أنا، حارسُ! - إنَّك تعرف، يا سيدي.

هكذا، كنتُ أريد أن أنسى كل شيء، بعد نهاية التوديع. واجب رجولتي وأنا أرى ذبادوريم، كما اكتشفته وهو ينتظرنِي مع الرفاق، في حقلٍ من حقول التّف، يصطاد الحجل. ثم تقدمت نحوه، حائِراً بعض الشيء. هل كنتُ على حق؟ ذلك أن ذبادوريم كان يعرف كل شيء. كيف كان يعرف؟ لأنَّ كل ما يتعلق بي سرعان ما يفقد طابعه السّري عنده. الحبُّ يرى كل شيء: - قضيتُ وقتاً ممتعاً، يا زيوبالدو، مع المرأتين في فيردي أليكريم... هل أنت مسرور؟ - سألني بصراحة في وجهي. هزرتُ كتفيّ ووضعتُ يداً على صدري. لكنني اندهشتُ لأنَّ ذبادوريم لم يغضب. بل ضحك أيضاً، بنبرة خفيفة، ونظرة رضا مأكرة.

- هل تخلّيت عنها؟ - سألني بعد لحظة.

- إيه؟ إيه؟ هي، من هي؟ ما ذا تقصد بهذه الكلمات الشريرة؟ ... - اكتفيت بالردّ عليه، وأنا أعود إلى الواقع.

واجهته لأنني فهمت على الفور. فأوقف الحديث. فهمتُ للتو: من ذكرها هي أوتاسيليا. خطيبتِي أوتاسيليا، البعيدة جداً - بوجهها الأبيض الذي يصعد مثل القشدة، وسط الظلام.

إنَّ كل هذا بالنسبة إليك، يا سيدي، لا يبدو معقولا، ولا يوضح أي شيء. وأنا هنا لأكرر كل شيء بالتفصيل، لأعيش ما كان ينقصني. إنها أشياء

دقيقة جدًا، أعرف ذلك. هل مات القمر؟ ولكنني نتاجُ ما أحسستُ به ثم فقدته مرة أخرى. أنا من صنعتُ النسيان. أسير تائها. وقد حدثت عدة أمور صغيرة.

كما حدثت. أحكي لك؛ يمكنك أن تُوقفني.

عُدنا من المكان الذي بلغناه. ومن هناك توجَّهنا مباشرة نحو الغرب، نحو أراضي لا تسكنها غير النُسور. وكانت طريقنا تقتضي أن نمُرَّ من جديد عبر الأراضي العليا في ولاية غويَّاس، والهضاب العليا ميناس جيراييس. تركنا خلفنا سهولا ووديانا، تركنا خلفنا غابات كثيفة. وكان طائر الوقواق يغير لازمته، حزينة هنا، سعيدة هناك بالنسبة إليّ. بمعنى أنني مخطئ: يبدو ذلك حزينًا اليوم، لكنه كان سعيدًا وقتئذ. كانت الغزلان الكبيرة تهرب منا، تحتمي ورؤوسها مرفوعة في شكل مستقيم فوق ظهرها تقريبًا كي لا تعلق بالأشجار. وكان هناك الأيل الكبير سُواسو بُوكو مع أنثاه. ذات يوم، قتلنا أفعى أناكوندا، يبلغ طولها ستة وثلاثين شبرًا، تنتفخ بالهواء. وكانت هناك أماكن، يتعين فيها فجأة، أثناء الليل، أن نمسك بطرف المسدس، وحتى البنادق؛ وأن نشعل نازًا كبيرة لأنه من هناك، من وسط الظلام يمكن أن يأتي ليتسكع وسطنا حيوان من أغرب الحيوانات: ظلال نمور ضخمة، تُزخِرُ وهي تقترب، أو الصَّقر الليلي الذي لا نسمع تحليقه، ويشبه البوم؛ أو فجأة، على حين غرة، كأن الريح تحملها، يصفُرُ ذكرُ التَّابير ويبرز بيننا عنيفا كأنه حصانٌ متوحش. وهناك تعرَّف فيرالدو، من سيرُّو فريُّو، على نبتة تسمى، أعتقد، «دليل التائه»، ولكن في أرضهم يسمونها «الشَّمعة» حيث يمكن أن نشعلها ونثبتها في شجرة عند بداية غصن فتحترق مضيئة، لامعة، مثل مشعلٍ.

قطعنا حقولًا كثيرة. أيام صافية تمامًا، والسماء عالية. كانت أكثر الطيور المحلقة هي النُسور. كانت غويَّاس تحرق المراعي. فيصعد من ذلك دُخانٌ

يفوح برائحة الرماد. احتدَّت الشَّمْسُ البنفسجية واشتد لهيها. شدَّنِي الحنينُ إلى أشكال أخرى من الجُرأة. مات بيتولو من طلقة رصاص طائشة لم يرغب فيها أحد - هذا النوع من الحوادث الممكنة جدًّا. وفي مكان من بادري بيشتوتو، مات فرييتاش ماشو بدوره على إثر آلام بطن قوية في جنبه الأيمن. ولم ينفع مع ذلك شاي الأعشاب الخضراء الذي قدَّمناه له. أُصيب الأريبي بالتهاب في عينيه. وانفكَّت ذراع كونسيسو، فعانى كثيرًا كي تعود إلى مكانها. كما تلاحظ، يا سيدي، إلى غاية الآن، هذه حوادث تحلُّ دائمًا بشكل صحيح، وقد وفَّرْتُ عليك ذكر كلِّ التفاصيل؛ لم أتحدث سوى عن حوادث الموت الخطيرة، وعن مآسي أخرى مختلفة، أو عن أمراض مزعجة جدًّا.

ومن أصحاب الفازيندات الأغنياء الميسورين كنا نأخذ ضريبة، من نقود حقيقية: خمسة، عشرة، اثنا عشر ألفًا من الريالات التي كانوا يسارعون لدفعها. وهكذا ملأنا الصندوق. وكانوا يفتحون لنا براميل كاشاسا صغيرة ويقدمونها لنا. وكان العشاء وليمة يتلوها غناء جماعي. أحيانًا، لا أعرف لماذا، كنتُ أفكر في زي بييلو، أسأل إن كان أحدهم قد صادفه من قبل، لكن، هنا أو في أي مكان آخر، لم يكن أحد يعرف هذا الرجل. لكن من كان بعضهم يعرف عنه أخبارا من شهرته القديمة هو ميديرو فاش. لذلك، كنتُ ألوم نفسي لأنني فكرتُ في زي بييلو وذكرته. حماقات. وفي الطريق، تعلقْتُ مرَّة واحدة بامرأة متزوجة أحبطتني تمامًا وهي تقول بصوت مرتعش: - إن شاء الرِّب، إن أراد زوجي ... - فقاطعتها - إذن، أنا لم أعد أرغب في ذلك، يا سيدي. أنا لست مستعدًّا لذلك. ومن غير قصد، رميتُ بعين شريرة طفلًا صغيرًا كان بالقرب من هناك.

هكذا كنا نسير. لكنني أحكي لك الوقائع، ولا أحكي لك الوقت الفارغ

الذي ضاع. وأقول معلقًا: ليس من السهل أن يحتفظ الرجل، ثابتًا حازمًا، برأيه في عالمٍ شاسع ومتقلب. رحلات طويلة لا تنتهي. يمكن أن تفعل ما تشاء، يا سيدي، أو ما لا تشاء - لا يمكنك تحرير قدميك: اللتين يجب أن تظلَّ دائمًا فوق السَّرتاؤ. لا تثقُ بهدوء الهواء، يا سيدي. فالسَّرتاؤ لا نعرفه غير معرفة سطحية. لكنه، إمَّا أن يساعدنا، بقدرة هائلة، أو سيكون أكبر خائن يصيبنا بالكوارث. يا سيدي...

أصبحتُ واثقًا أكثر في دوري قائدًا. تصوَّر أنني وضعتُ جانبًا كل تساؤلاتي حول الحياة، وبدأت أستمتع بكل جسدي، خلال تلك الأيام الحارة تحت سماء لا تشوبها الغيوم. أيام صافية جدًّا. حتى أن حشرات الزَّيز كانت تصرُّ بالعشرات، وكان ذلك إنذارًا بتأخر موسم الأمطار التي كان البعض يتمنون تأخرها. كانوا مخطئين. أما أنا، فكنتُ أومن بأحسن التنبؤات. ودائمًا أخصُّ بتعامل من الودِّ والاحترام الرِّجال من أصحاب القيمة القديمة، المنتبهين إلى فداحة مسؤوليات الحياة اليومية. وكان هؤلاء هم جَواؤ غوانيا، مارسيلينو باميا، جَواؤ كونكليس، أَلاريبي وبعض الآخرين - الذي يستحقون التقدير الشخصي، ولم أنس التقاليد. لكني لم أكن أطلب نصيحتهم. ربما لم يكن أي حرج في ذلك، ولكن طلب النصيحة يشي بعدم الثقة في النفس، وهذا قد يكون أمرًا مُضِرًا. كما أنني لم أكشف عن خُططي. إن نهر أورو كويًا ينبع من الغابات الكبيرة - ولا يزجر، يل يجري هادئًا: الشمس، فوقه، هي ما يخفق هنا وهناك حيث نلمسه. حياتي، كلها... وأقر أنني ارتقيتُ عاليًا؛ في مهمة القيادة.

لم يفهمني دِيادوريمُ حقًا. وفق ما أذكر، حدث هذا ذات مساء، في تلك الساعات غير الواضحة، بينما كنا نسير على طول منصة مفتوحة. نحن معا، زوجٌ من الرجال، في المقدمة؛ حرارة شيطانية؛ والخيول منذ أكثر من فرسخ

تدوس أرضاً من الزجاج والطلق المنسّق. سماءٌ وسماءٌ، زرقة من فضل الرّب. سوف ترى، يا سيدي، كيف أنّ العالم يتّسع للعالم في غويّاس.

وما قاله لي ذيادوريمُ بدأ هكذا، بهذه الطريقة: سألني، وهو بجانبني، إن كنتُ أريدُ فعلاً هذه الحرب. عندئذ، فهمت بمرارة - أنه كان يلومني على اتباع طرق ملتوية، بدل أن أسير مباشرة نحو العدو. أجبتُه:

- حسناً، يا ذيادوريمُ، هل تكون أنت هو صاحب هذا المشروع؟! - ثم أضفت ساخراً: - صدّقني، إنني لستُ ذاهباً لأنتصر على طريقة غي، ملك بورغونيا... - أظنُّ أن الكلمات التي قلتها يومئذ، لستُ بصدد تحريفها الآن. لكن ذيادوريمُ شدّ الزمام، وتوقف: وبعينين صافيتين، صافيتين، نظر إليّ وتأمّلني جيّداً. ثم قال لي بتثاقل:

- زيوبالدو، اليوم لا أعرفُ حتى ما أعرفُه، وما تمكنتُ من معرفته نسيْتُ أنني أعرفُ أنني كنتُ أعرفُه...

انتظرتُ كي يقدم لي تفسيراً بنفسه. عندئذ، قال لي: - أنا ذاهب كي أنتقم لموت جوكا راميرو، أذهبُ وأنفُذ ذلك، كما يفرض عليّ واجبي. إلّا أنني، وليس أعني الرّب، لا أذهب بقلبي يخفق الآن في هذه الساعة، بل بقلبي من زمن مضى... نعم...

أؤكد لك، يا سيدي، أنني لم أفهم شيئاً مما قاله، لأن أفكارنا، في تلك اللحظة، كانت متنافرة تماماً، صمّاء، ونحن غير متناغمين أحداً مع الآخر. لقد وجّهتُ النبرة الجدية التي فرضها في كلامه أفكاري نحو مواضيع أخرى: أوروكويا - هناك حيث توجد غابات لا تعرف شمساً ولا عمراً. غابة ساو ميغيل هائلة - تُظلل العالم... هل يمكن أن يشعر ذيادوريمُ بالخوف؟ - شعرتُ بالقلق. كنت دائماً أعرف ذلك: يوماً ما، ينجح الخوف

في الصعود، يصنع ثقبًا في شجاعة أكبر شجاع ممكن... ومع ذلك، تابعتُ
وقلتُ:

- كل شيء في الحياة يخضع لهذه القاعدة...

لم أشك في الأمر كثيرًا. لم يكن ذِيادوريمُ خائفًا. فلم يخجل من أن يقول
لي:

- إنني لست ذاهبًا فقط كي أنتقمَ لوالدي جوكا راميرو، وهذا واجبي،
بقدر ما أنا ذاهب وفي نيتي أن أخدمك، يا رُيوبالدو، بكلِّ رغبتِي وأفعالي...
لم أعزَّ الأمر اهتمامًا. - وهَرْموجينيسُ يجب أن ينتهي! - قلتُ. ستظهر
بعض الدموع في عيني ذِيادوريمُ وهو يرى الأمل يتضاءل. كان يتأملني، ولم
أنتبه. هل كنتُ أرى في إخلاصه شيئًا عاديًا مستحقًّا؟ ممكن. لم أتوقف لأحلل
التفاصيل. لكن، في نفس الوقت، أظن أنني لم أجبه بأحسن من ذلك، بسبب
أمر شغلني. فقد حدث في تلك اللحظة بالذات أن وصل بالقرب منا سربٌ
من النمل المُجنَّح؛ وبالنظر لأعداد النمل، وطيرانها الأخرق، فقد لفتَ
ذلك انتباهي لأنه لم يسبق لي أن رأيتُ شيئًا مثله: الطريقة التي كان النمل
يملأ بها الفضاء وهو يطنُّ ثم يسقط، لأن ذلك هو قانونه، ذلك أن هذه
الحشرات حين تصبح ناضجة تثقل أجسادها عند المؤخرة، بوضعية الشكل،
فلا تستطيع أن تحافظ على توازنها أثناء التحليق، وتتناثر مساحة أشبار على
الأرض يتراوح لونها بين الأسود والنحاسي، فيفوح كل شيء برائحتهما،
وتحديداً رائحة الليمون الأحمر الذي يُقلى في المِقلّة. أكوام هائلة من قطع
الليمون الصغيرة، عالم بكامله... فتجفُّ الخيول، وبعضها، عنيدة، ترفض
أن تتحرك. اندفع الصغير غريغو، ذلك الطفل من سوكرُويو، كله حماس،
كي يرى أحسن من الآخرين وهو يطلق صيحات ويقوم بحركات؛ وقد
أعجبني ذلك لأنني كنتُ قد جلبتهُ معي في هذه الرحلة ليتعلَّم العالم تحديداً.

لكن هذا السرب الهائل من النمل كان يمتدّ في كل مكان من حولنا ويغزونا، يسقط في أي مكان، يعيق ويعرقل، فوق أكتاف الرجال، وعلى أطقم الخيل. طردت منه أطنانا وأنا أضرب بيدي، واضطرت لأخرج كميات كبيرة ظلت عالقة بقبعتي. النمل المجنّح: لقد سبق وسمعتُ بأشخاص جائعين يأكلون هذه القذارة بعد قليها مع الطحين. أما الطيور، فقد كانت تتحرّك بقوة في الحقول، صغار نسورٍ، تملأُ حواصلها. لكن كل نملة كانت تعرف جيدًا أنه ما إن تلمس الأرض، حين تسقط، حتى يتعيّن عليها أن تحفر لنفسها حفرة تحشر فيها نفسها، وتختفي في التراب، دون أن تستطيع اختيار مصيرها، محرومة من الجناحين اللذين تفصلهما بنفسها، فتسقط كأنها وريقة. هذا ما يميز هذه الحشرات عبر العالم: عاداتها. لكن، هناك، حين نظرتُ، لم أر شيئاً، كان ذيادوريم قد اختفى عن ناظري. غاصّ في كتلة الآخرين. آه، للأسف: وقد أسأتُ فهمه.

كُن صبوراً، يا سيدي: لأنني أخبرك بأن ما قلتُ وقع وقتاً طويلاً قبل أن يجري الحديث بين ذيادوريم وزوجة هرُموجينيس. والآن، وفق ما أعرف، سأحكي لك.

والحقيقة أن الجو ساء ونزل مطرٌ كثير. وأمام ذلك، خلال ثلاثة أيام من المطر المتواصل، وجدنا سبباً لنبقى أثناء ذلك بين أربعة جدران، فشغلنا فازيندا كاريم، وكانت ملك شخص يُدعى تيموتيو ريجيميلديانو دا سيلفا: زابودو، كما يعرفه الجميع. وكان هذا الرجل من أقرباء آل سيلفالفيس، من باراكاتو، الذين حصلوا على أراضٍ في الحدود، على ضفتي النهر. زابودو هذا: انتَبه جيداً إلى هذا الرجل، يا سيدي، لترى من هو الإنسان المحتال.

أولاً، صادفناه على حين غرة، بينما كنا نسير فوق هضبة صغيرة يغطيها كلاً خفيف. كان قد بدأ ينزل مطر خفيف، وأنا أقول في نفسي: لا بدّ أنه

توجد قريبًا من هنا مزرعة أو بيت فازيندا. في تلك اللحظة بالذات، ظهر رجلٌ. كان يمتطي حصانًا كُميتًا، ويجلس على سرج من تلك السروج الغريبة ذات الأقواس العالية المستعملة في المنطقة، يتتعلُّ زوجًا من الأحذية الخاصة بركوب الخيل، من جلد الثعبان، كما كانوا يصنعونها من قبل. شعرَ بصدمة حين رآنا، بطبيعة الحال.

وفي وقت وجيز جدًّا، تجاوز دهشته. قفز مترجلا، حرَّك ذراعه في أكبر إشارة ترحيب ومجاملة، ثم قال:

- أيها الفرسان، يمكنكم أن تمرّوا دون خوف وعن طيب خاطر، فهذا أمامكم صديق...

- صديق من؟ - أجبته.

- صديقك، أيها الفارس... صديقك وخادمك...

كانت أمنيته أن يرى ظهورنا في أقرب وقت. فبادرت بسؤاله: أين تسكن؟ - في الجهة الأخرى، يا سيدي... في ضيعة صغيرة جدًّا... - أجبني بنبرة مختلفة، فيها شيء من المرارة والحيرة. قاطعته: - تمامًا، نحن نسير نحو هذه الجهة، حيث تمطر بشكل أقل. أرشدنا إلى الطريق - وهنا، غير مرة أخرى طريقة كلامه، وراح يتحدث عن طيب خاطر، بكلّ صدق. كانت الفازيندا قريبةً من هناك، على بعد خطوات فقط. وقد أظهر أنه كان مخادعا.

زابدو هذا، كان رجلاً حقيرًا، مقرِّفًا لكنه محترز. طلبتُ منه الضريبة - التي حدَّدتها في مساهمة قدرها سبعة آلاف ريال - فغضب، نظرا لما ارتسم من تكشيرة على محياه وظهر يديه اللتين قبلهما عدة مرات. راح يشتكي دون توقف أنه يستطيع ولا يستطيع أداء المبلغ، واستأذني ليوضح كم تدهورت

شؤون المزرعة في السنوات الثلاثة الأخيرة، مع توالي الطاعون الذي ضرب الماشية، والمرض الذي أصاب حقول قصب السكر: ولهذا السبب لم يكن يتوقع جنني أية محاصيل. ورغم كل ما قال وكرّر، عنّ له أن يأخذني تحت المطر الهاطل لأرى بأمّ عيني وألاحظ الحالة المزرية لممتلكاته. وبدل هذا العبء، قبلتُ أن أنقص من المبلغ الذي خفضته إلى ثلاثة آلاف وخمسمئة ريال؛ خوفاً أيضاً من سوء الحظ. ثم إنه بالنظر لكل ما جمعنا من مال في غويّاس، لم أكن بحاجة للضغط بعنف على أي كان. بل اتفقنا أيضاً أنه سيزودنا مجاناً بنصف المؤونة، دون تكاليف؛ كان يُجادل لكنه يعطي. خاصةً أنني دفعتُ ثمنًا جيدًا مقابل الباقي: عدّة حدوات للخليل، ذرّة للدواب، بعض قطع لحم الخنزير، وعشرة براميل صغيرة من الكاشاسا - التي لم تكن جيدة، في الحقيقة. ما كان جيدًا هو التبغ الملفوف. وكان ذلك كافيًا، في نهاية المطاف، فقط ليغلق فمه ويكفّ عن الكلام. في النهاية، أعتقد أننا توقفنا هناك، في بيت زابودو، كان دون مُقابل تقريبًا.

ونظرا للمطر الذي كان يهطل على غويّاس بكاملها، كما قلتُ وأشرتُ إلى ذلك، فقد بقينا محصورين داخل البيت، لا نخرج إلى الفناء سوى لنأكل ثمار فاكهة الجابوتيكا. كانت معنا أوراق اللعب، فلعبنا لعبتي الإبعاد والخداع، لكنني رفضتُ أن أَلعب لعبة القَدْر لأنني رأيتُ أنني لست سريعًا في التقاط كلمات السرِّ ومعاني الصّيحات، التي تميز هذه اللعبة الشيطانية؛ ولأنها كانت لعبة فيها كثير من الكسل ولا تليق بقائد من حجمي. وبينما كان الرجال يلهون بهذه الشكل، كان زابودو يذرع المكان جيئةً وذهاباً، يفكر ويخطط لا محالة - ليختلسنا ويغشّنا بأقل مجهود - في ندالة جديدة قد يخرجها من كيسه باكيا. وحينئذ جاء وفاجأنا بهذه: إنّ السيدة، تلك السيدة، كانت تطلب حظوة لقاء الشاب المسمى ريئالدو...

والسيدة، أقول، كانت هي زوجة هرْموجينيس، التي كانت تغلق على نفسها في غرفة المُصلّى. وذيادوريم، كما تعرف يا سيدي، هو من كان معروفًا باسم «رينالدو».

هل أفزعني ذلك وأدهشني؟ - قد تسألني يا سيدي. كان هناك ما يدعو للفرع والدهشة. كنتُ في قاعة الأكل، ألعب الورق مع جَواو غَوانيا، جَواو كُونكَلِش، ومارسيلينو بامبا. كان أَلاريبي جالسًا عند عتبة الباب المؤدي إلى الفناء، وأمامه قَدْرٌ به ورق الصَّنْفرة ومشاقة لصقل الأسلحة. صاح: - أرجو من الرَّب ألا يقضي رينالدو على هذه المرأة! - شككنا في أنه قد يفعل ذلك. - إيه، ألا يمكن أن ترمي عليه هي تعويذة سيئة؟ - اقترح جَواو غَوانيا ضاحكًا. - آه، ليس هناك حقًا سوى زنجي أو زنجية للقيام بسحر جيد، كما يُقال.... - وكان هذا هو رأي مارسيلينو بامبا وهو يجمع ورقة سبع الديناري مع سبع السباتي. ألقيت أوراقِي فسحبَ جَواو غَوانيا أوراق ستٍّ، وثلاثٍ، والصَّبِي من فوق المائدة، وجمع كل الأوراق. توجَّهَ ذيادوريم نحو الغرفة حيث كانت المرأة، ليستمع إلى ما كانت تريده أن يستمع إليه.

جاء دوري فمزجتُ الأوراق وفرَّقْتُها على اللاعبين. أو، ربما، كان شيئًا تريد أن تطلبه منه. قال جَواو غَوانيا إنَّ المرأة ستتوسَّل من أجل الحصول على حريتها. ثم غَيَّرْتُ موضوع الحديث وأنا أنظر عشوائيًا من حولي، فلاحظت أولًا تلك الخواتم الباذخة التي يحبُّ جَواو غَوانيا أن يزيّن بها أصابعه؛ ثم أشرت لهم إلى تلك الثقوب المفتوحة في السقف فوق القاعة الكبيرة، وكان لا بد من وضع عدة علب من الحديد الأبيض في أماكن مختلفة، بل وقَدْرًا كاملاً وسط المائدة، لجمع مياه الأمطار. أما أنا، فقد فقدت أي اهتمام باللَّعب، ونهضتُ أمشي هنا وهناك -- وسط الرُّواق حيث كان الرجال مرتحين بل غافين، مستائين من كل ذلك المطر المتواصل.

استغرق ذبادوريم وقتًا طويلًا قبل أن يخرج من قاعة المصلّى، على ما يبدو. وحين عاد، لم يخك لي أي شيء. قال فقط، بشكل عادي: - آه، لم تقم سوى بالبكاء على مآسيها... - ولم أسأله عن المزيد. وبما أنني لم أسأله منذ البداية، منذ عودته، فإن طرح الأسئلة عليه مرة أخرى لم يكن يليق بسُمعتي ومقامي. كان ذبادوريم هادئًا شارد البال، لم يكن لائقًا ما يفعله - أن يخفي الحقائق. وكانت الكلمات التي جاءت على طرف لساني هي هذه: - أنني لا أحبُّ النفاق... فكّرتُ في ذلك، لم أنطق به. هل كان بوسعي أن أشك في أفعال ذبادوريم؟ هو، هل كان إنسانًا قادرًا على الخيانة؟ أمرٌ سخيف! هذه الفكرة، لم أتقبلها، لأنها لم تكن ممكنة. ولكن تصرفه لم يرقني حتى أنني قرّرت فورًا أن نغادر فازيندا كاريما، وأعطيْتُ الأوامر بذلك. أمرتُ بجلب الخيل وإسراجها، دون التفكير في الجو - وابل المطر، وتلك الغيوم الداكنة، تلك السماء الملبّدة والرعد الهادر. أمطار كثيفة تغرق الطرقات.

وكذلك أطاعوا أوامري. لكن، ما كادت الخيول تصل إلى الحظيرة حتى حصل تحسن مفاجئ في الجو - نظرا للريح التي هبت بقوة. فانجلت السماء، ولمعت الشمس، وتحسنت كل المؤشرات. وأمام ذلك - لهذه السبب ولأسباب أخرى - عبّر الرجال عن اندهاشهم وإعجابهم بي. فرأيتُ: كلما فهموني بشكل أقل، كلما نسبوا لي سلطات أكبر وقيادةً أعظم.

واعلم، يا سيدي، أن زابودو هذا بقي وحده، بعيدًا عن الآخرين، دون أيّ حماس، كأنه مخادع ماكر. اعلم، يا سيدي، أنه جاء ليلتقي بي، وعليه ملامح الحرج، ليخفّف الأداء، ويطلب فوائدًا وتمديدًا في آجال الدفع. والآن، ليكن في علمك، يا سيدي، أنه، لتتويع كل هذا جاء - فوق كل هذا - أثناء ارتباك المغادرة... وجلب، فجأة، هديةً لذيادوريم، كانت عبارة عن علبة من أجود وأحسن مُربّى السفرجل في غويّاس، باهظة الثمن: - كلما

ذقتها، ازداد حبك لها... حتى مُرَّبِي سانتا لوزيًا لا يرقى إلى هذا المرَبِي... - وهو يقدم هذه الهدية إلى ذِيادورِيم، هل كان ربما يحاول من خلال جماعة رجالي أن يكون لطيفاً معي، مقابل أي امتياز؟ ما الذي كان يخبئه هذا الرجل في ذهنه؟ طريقته الماكرة في النظر إلينا بعينين مختلفتين والتي لم أفهمها في وقتها. بما أنه أفلح من خلال ذلك اللطف مع ذِيادورِيم في أن يتودَّد إليَّ. كنتُ بليدًا، في نهاية المطاف، مع ذلك المخادع من بارانا. في الأخير، لم يدفع ولا سنتيما واحدًا، بل كان على وشك أن يقترض منِّي مالا. حتى الخيل والبغال التي سلَّمنا إيَّها، توصَّل عوضًا عنها بعدد مماثل من خيولنا وبغالنا، بل أحسن حالًا وأقلَّ تعبًا. بل إننا سمحنا له أن يحتفظ بحصانه الكميّ، الذي قال إنه ذو قيمة مقدسة لديه لأنه ورثه عن والده شخصيًا. امتطى مرحًا هذا الحصان، وجلس على ذلك السرج المقوس المرتفع، ورافقنا لمسافة ربع فرسخ، كأنه يسير إلى حفلٍ. لم نعدُ نرى مثل هذه التصرفات. وكان يرغب في ذلك، لدرجة أنه ينسى الخوف. والآن، هل انتهت جيدًا إلى زابودو هذا؟ رجل شيطان. أخبرني، يا سيدي: هل توجست من أي خدعة، وهل حدست أي شيء؟

اختفينَا من ذلك المكان. بعد خمسة فراسخ، رأيتُ الطين يجفُّ. كان الرِّيف يخبُض. لكنني تركتُ الرحلة تمضي في هدوء وطمأنينة؛ رغبتُ في ذلك، ورغبتُ. الحمار الصغير لسيدنا يسوع لم يكن يحمل بدوره مكبحًا معدنيًا... لكن هذا، أصحَّح، لم أقله في تلك المناسبة. كانت فكرتي هي أن أمنح نفسي وقتًا، كي أعطي لمشروعي شكلًا في كل تفاصيله. لكن -- لم أكن أشعر أنني أتلقى سياط أيَّ تعويذة شريرة، ولا أشعر، وأنا أرى الصليب، بأيَّ اشمزاز. ثم، أي وقت أو مصلحة كان يتبقى لي لأشغل نفسي بمثل هذه الأمور؟ كنتُ على الدوام منشغلًا في أعماق ذاتي بشيء واحد: ما سيأتي لاحقًا. كنتُ أريد

أن أرى نعمة تجري على رجلٍ واحدة... وأقضي على هِرْمُوجِينِس. كنتُ أتصور هِرْمُوجِينِس على هذا الشكل: ثورًا جامحًا. لكن، في الحقيقة، مهما بدا الأمر غريبًا في نهاية المطاف، لم أكن أحقد عليه. انظر واسمع، يا سيدي: كان هِرْمُوجِينِس جزءًا من المهمة، محكّمًا لملاحمي، شيئًا بارزًا بين ما ينتظرن من أمور والهضبة. لكن، لماذا كان مثل ضباب مشوش، يشبه الشبح؟ وهو، هو نفسه، ألم يكن خصمًا لي؟ كنتُ مضطرًا لأسقطه كي أحقق عملي العظيم! ولم أرَ الخطر، كما أنه لم يراودني أي شك. زمن اللون الأخضر! هيا! كنتُ على وشك أن أرفع يدي وأطلق صيحة القيادة - فينهار هِرْمُوجِينِس. لكن، أين يمكن أن يوجد؟ لم أكن أعرف شيئًا، ولا أتوفر على أي خبر موثوق؛ ولكن الخبر الذي نعرفه غدًا، يفيّدنا في هذا اليوم بالذات... كنتُ أعرف؛ أعرف الآن. كما يعرف الكلب.

هكذا، كنتُ أعرف، رغم أنه لا شيء أخبرني بذلك - بمعنى أن قلبي كان يُحدّثني: قريبًا جدًّا، سوف نتواجه أنا وهِرْمُوجِينِس في مكان ما من الهضاب العليا في ميناس جيراييس. كنتُ أعرف ذلك. فلماذا كنتُ مستعجلًا؟ كان يكفي أن أذهب، أذهب - لألتحق بجبال ديفيزوييس أو نهر ساو ماركوس. طريق رئيسية، طريق الشّر. وفي الحقيقة، لم تكن طريقًا صالحة للسير، بل بها أكوام من الوحل، تتخللها كثير من المستنقعات، تبتلع بشراة حتى الحدّوات الجديدة التي وضعناها في حوافر الخيل، نتعرض لانزلاقات وسقطات، بل إن حصانًا من خيولنا تكسرت ساقه وانشق صدره. - هذه الطريق لها أحشاء - كنا نقول بحق. جنون. ولم تكن رحلة اليوم كافية لتتقدم كثيرًا، لم نكن نهمل أي خطوة. تأخرنا كثيرًا. تأخرُ لم أندم عليه. كنتُ في رحلة قنصٍ أستمع كثيرًا. حسنًا، ألم تكن كذلك؟ لكننا تأخرنا لمزيد من الوقت في بعض القرى، والبيوت والفازيندات. كان ذلك أفضل - لأنه

هنا أيضًا كان لا بد من تعلّم ذكر اسمي. وكان الناس قد بدأوا يخصّصوني بالمكافأة والتعامل الطيب، بالنظر إلى هذا الامتياز: لأنني كنتُ سأخلّص العالم من هِرموجينيس. هِرموجينيس - كنتُ أحاول جاهدًا لأتذكّر ملامحه. لم أستعدّها. لا بد أنه من أفضح ما يكون: مكروها يرقبنا. - ذبادوريم - فكّرتُ - أنفُت، أنفُت، انتقامك الجميل - هِرموجينيس: الشّر من دون سبب. هل من أجل أن أقتل هِرموجينيس عرفتُ ذبادوريم، الذي أحببته، ثم خرجتُ في هذه المغامرات عبر العالم؟

تأخّرنا كثيرًا. إلى أن ساد في النهاية جوٌ صيفي مناسب، فتابعنا الرّكض. توقفتنا على بعد بضعة فراسخ قبل الحدود، فأرسلتُ حُرّاسًا ومستكشفين. راقبتُ أسلحة رجالي. كان كل شيء على ما يرام. كان النهر يجري بين ضفة ميناس وضفة غويّاس. من جهة ضفة ميناس جيراييس، كانت الغابة تتقدم بطيئة نحونا.

ساعات أحوال الجو شيئًا ما، ودخلنا في ميناس، نصعد الجبل والخيول تواجه صعوبة كبيرة. هناك، هدر شيء من الرعد؛ وصفعتنا بعض الأمطار. كان المنحدر قويًا، قاسيًا، فسرنا على حافة الهضبة. لم يكن أمرًا هينًا، والريح في آذاننا، ريحٌ لا تُغيّر لحنها أبدًا. كل هذا كنا نعرفه طبعًا؛ في الحركة المستمرة والفترات الفاصلة بين زخّات المطر، كلما تقدمنا عبر تلك الهضاب: تشكّل جدول تحت قائمتي حصاني. السّرتاؤ قديم منذ أزمان. لأن كل جبل ينادي جبلاً آخر، ومن قممها نرى جيدًا: كيف أن السّرتاؤ يأتي ويذهب. لا فائدة من أن ندير له ظهورنا. يُجانبنا هنا، ويجانب أماكن أخرى، بعيدة جدًا. يُسمعُ ما يصدر عنه من ضجيج. لأن السّرتاؤ هو فضاء الشمس والطيور - النسر والعقاب - التي تحلق دوما فوقه، على امتداد البصر... عبور محفوف بالأخطار، لكن هو عبور الحياة. ثم إن السّرتاؤ يرتفع وينخفض.

لكن منحنيات الأرض تمتد دائماً بعيداً. وهناك تشيخُ الرِّيح. والحيوانات الضارية، في أعماقه...

وهناك الرَّعد أيضاً. الرَّعد يهدر في الأراضي العليا، دائماً، باستمرار... كان بوسعي أن أعود أدراجي، ألم يكن كذلك؟ أم أن ذلك كان مستحيلاً؟ الأجنحة الهشة، لا أعرفها. الأجنحة الهشة... أعرف، أم أنت من تعرف، يا سيدي؟ القانون مُجَنَّح، وهو للنُّجوم. هل يُستأنفُ ربما باستمرار كلُّ ما كُتب من قبل - لكننا لا نعرف وجهته - سيئة كانت أم جيدة، ويُعدَّل مع مرور الوقت؟

عاد رجالي المتقدمون الذين أرسلتهم لاستكشاف الطريق، وجاؤوا يحملون خبراً: كان رجال هِرْموجينيس، جماعة كثيرة العدد، قد ظهروا في المنطقة - وأكد أنهم كانوا على علم بمساري. هذا ما كان. ارتعشنا من العجلة. تقدَّمْتُ. تقدَّمْنَا. صادفنا بعض رعاة البقر وأشخاصاً آخرين، كانوا يرعون القطيع أو ينزلون معه عبر الكاتينغا، كي يَحُولُوا دون موت كل الحيوانات التي تأكل العشب الجديد في الهضاب العليا، ذلك العشب الذي ينمو ممتلئاً بالرمال. لكن هؤلاء لم يكونوا على علم بأدنى شيء. انعطفنا قليلاً كي نصل أولاً عند نيسْتور، في فيريدا ميَّا، وعند كولوزيانو، بعد موجو. وادي موجو، أعتقد أن هذا كان هو اسمه، أيضاً. كان كولوزيانو يسكن قرب بحيرة، وسط غابة من أشجار البوريتي، ويصنع قبعات من القش: من أحسن القُبُعَات. كان علينا أن نسرع كي نصل إلى بيته وإلى بيت نيسْتور، قبل هِرْموجينيس - لأن هناك كان مخبأً للذخيرة. انعطفنا. كانت كثير من المستنقعات والبرك قد ظهرت من جديد. مياه الأنهار المتسخة، كثير من أشجار بُريجو البرية مزهرة. لكن مجاري الأنهار كانت تحمل كثيراً من الزبد على السطح - مما يدل على أنها فاضت بسبب الأمطار القوية في المنابع. رغم

كل هذا، نجحنا في الوصول بسرعة وجمع الذخيرة التي نريد، كلّ الذخيرة. حسنًا فعلنا. الآن، حان الوقت. ما الذي كان ينقص؟ من يريد أن يدخل معي - من حولي؟ - في حرب...

كلهم. كل رجالي، كانت هناك لحظات أشعر فيها أنني أحبهم كثيرًا، كما لو أنهم أشقائي، من بذرة أبي وأمي. أبنائي. لماذا أذكرهم، أحكي عن هذا وعن الآخر، أخص؟ عن ديماس دوييدو - الذي كان يشتم حتى غصن الشجرة الذي يسوطه، بل حتى البعوض الصغير الذي يلسعه. عن دوييدو - الذي كان يحرك شفّتيه دون توقف: لأنه دون كلل كان يُصليّ بصوت خفيض، أو يتحدث مع نفسه، فيردّد أشياء سيئة عن حياة الآخرين. عن سوزارقي - الذي كانت عيناه تسجّلان كل شيء، من شمسٍ، وأشجارٍ، وغبارٍ وأشكالِ الرّيح، كي يحتفظ في ذاكرته بتلك الأماكن المحفوفة بالمخاطر. عن سيكرانو جواو، على متن حماره؛ وعن أراوتا - رجل ثقة تمامًا: وكان في سجلّه أكثر من مئة قتيل. عن جيريببي، وهو دائمًا يجري بين الطليعة والمؤخرة، مستعجلًا الحاجة لسمع، يعلم، ويحكي. أو عن فيليسيانو - الذي كان يفتح عينه السّليمة جيدًا لسمع ما نقول؟ عن توسكانيثيو كارامي، الذي كان ينشد بصوت جميل أغاني عاطفية. عن جواو كونكليس، الذي كان يطلق صفيرا طويلًا لا ينتهي، تمامًا كما يفعل البغالون في أراضي غويّاس. أو عن جوزيه دي بونتو الذي كان يقود مع جاكاري بغالًا محمّلة بمعدّات المطبخ... لكنني أدقّق في التفاصيل. تلك الأشياء الدقيقة التي لا نراها في الحين، لكنها لا تُنسى بعد ذلك تقريبًا، أو لا يطاها النسيان إلّا بصعوبة كبيرة. وفكّرت في المسؤولية الملقاة على عاتقي، وأنا أرى رجلًا في سن محترم، مثل مارسيلينو بامبا - الذي كان قائدًا فيما مضى - يمشي بمحض إرادته مع الآخرين، أو يشد حصانه بالزّمام، وهو هناك متوقف هكذا حتى دون أن

يلتفت بوجهه نحوي، ليحني رأسه ويظل يسمعني ويتأمل نصائحي. أو عندما ينصح أحد الجاغونسو المُسنين واحدًا من الملتحقين الجدد بصفوفنا بأن يكون حذرًا في استعمال السلاح وسط الآخرين، وحقيقته تعجُّ بالذخيرة: لأنهم، في صمت يسهرون على كل صغيرة وكبيرة؛ والانطباع هو أننا كنا كأننا نعيش شيئًا في زمن السَّلم، استعدادات دقيقة تتَّم في البيت. أو حتى عندما أرى واحدًا من أولئك الفلاحين البسطاء، كل أولئك الناس الذي جلبتهم معي، وانتزعتهم من أراضيهم. هل كان هؤلاء رأيي إيجابي عني؟ آه، أعتقد ذلك. أو، بالأحرى، كانوا يشعرون نحوي بخشية إعجاب، بخوفٍ عميق. وكان بعضهم - كما قلتُ لك، إنني أذكر كل شيء - مثل أسونسيانو: عندما نتحدث عن القتال، سرعان ما ينحني بجسده نحو الأمام، شبه مُلتوٍ؛ وكان نحيفًا، شبه أكرش، بطنه كالبيضة؛ وأي قُبعة بسيطة لأي كان، قديمة كانت أم جيدة، كان سرعان ما يلتها بعينيه بشكل أبله... أبنائي.

لكنني لم أتوقف كثيرًا عند هذا الأمر، وفي وقت وجيز كنتُ أحرك مرة أخرى حُططي الواسعة، بقوة أكبر؛ كنتُ أغلي. كنتُ كذلك. هل أنا كذلك؟ لا تُصدّق، يا سيدي. كنتُ القائد الثعبان الأبيض - بعد أن كنتُ تاتارانا، بعد أن كنتُ الجاغونسو زيو بالدو. تخلّيتُ عن هذه الأمور، وتخلّت هي عني أيضًا، في قديم الزمان. اليوم، ما أنا بحاجة إليه هو الإيمان، ومزيد من الطيبة. إلّا أنني لا أفهم من يرضى بلا شيء أو بالقليل؛ أما أنا، فلا ينفعني في شيء أن أشمّ نفحةً من غبار كثير - بل أريد أن أغمس يديّ كاملتين في العجين وأراه يصعد... مناسبة أخرى، زمن مختلف. كنتُ أستعدُّ، دون دراية، لأعاني. وانظر، ما جرى، كنا نسير وأنا أقود: - إنها الحرب، إنها الحرب، سوف نحارب حتى يصير النمر جلدًا... إنها الحرب!... فوافقوا جميعًا، بل راحوا يغنون:

أوليريري،

يا امرأة من باهيّا...

سأذهبُ

ولن أعود ثانية...

أفعل ذلك،

أذهبُ،

إلى هناك،

يا امرأة من باهيّا:

وعند منتصف الطريق

أعود أدراجي.

أما الأغنية الأخرى - تلك التي تُسمّيها أغنية سيرويز، يا سيدي - فكنتُ
أردّها لوحدي، في صمتٍ...

جُرحتُ في كبريائي فتوطّد حُبّي، وأحسستُ، كما قلتُ لك، بما كنتُ أريد:
في النهاية، سأتزوّج أوتاسيليا - شمسَ الأنهار... سأتزوّجها، لكن مثل مَلِكٍ.
كنتُ أريدُ، أردتُ. - وذيادوريم؟ - قد تسألني في قلتي، يا سيدي. هل الجُحود
هو العيب الذي نتعرّف عليه بشكل أقلّ في ذواتنا؟ ذيادوريم - كان يذهب إلى
جهةٍ، وأنا إلى جهةٍ مختلفة: تمامًا كما يتفرّع جدّولان صغيران عن مستنقعات
الهضاب العليا، فيسيرُ أحدهما جهة الشرق والآخر جهة الغرب، ثم يتفرقان
إلى الأبد، لكنها يجريان بمياه صافية تحت ظلال أشجار البوريتي... وفي
لحظات أخرى، كنتُ أعود إلى هذه الفكرة: أن أتذكّر أوتاسيليا كان شيئًا
سليما ومخادعا جدًّا؛ وأنّ ذيادوريم كنتُ أحبه من باب الحبّ، وكان ذلك
مستحيلًا. نعم، انظر واسمّع، يا سيدي: هل تفهمّني؟ لا تستعجل؛ سوف

أحكى لك لاحقًا. في تلك الأيام، كان الأهم هو أن أذهب - أضحّح: أن أصل. حتى دون أن أتوصل بأي خبر عن هُرموجينيس، كنتُ أعرف أخباره. كنتُ أشمُّ كل نسمةٍ ريح. كان هُرموجينيس ورجاله - يزحفون متعرّجين مثل أفعى طويلة وعريضة، دون ضجيج، تحت أوراق يابسة. ورغم كل شيء، كنتُ منزعجا. أستيقظ في بعض الليالي في عزّ النوم، كأني مستعد لليوم العظيم. فراغ الليل، عندما تبدأ الغابة تمتلئ بهمسات الهدوء. أو يسود ضوء القمر، كما يحدث في الأراضي العليا، وتظهر النجوم. ضوء القمر؛ كي يسود ضوء أزرق مثل هذا الضوء: فقط بفضل نجمة تلمع بقوة.

ووصلنا! إلى أين؟ أينما وصلنا، هناك يريدنا العدو أن نصل. الشيطان يراقب، وما يريده الشيطان هو أن يرى... هذا إذن! بصراحة، يا سيدي: سهل تاماندواتاو؛ كان العدو يصل، بكل رجاله، يركضون سريعًا فوق خيولهم. تفرقت الخيل... سهل تاماندواتاو - اكتب هنا، يا سيدي: عشرون صفحة... في سهل تاماندواتاو. وقعت معركة عظيمة.

لم يُحْضَرْ لها. لم يُعلن عنها. أعلنتُ بداية القتال. هكذا: قانونٌ ضدَّ قانونٍ، ونارٌ ضدَّ نارٍ. بقوة القمر.

تاماندواتاو هو السهل - الذي نكتشفه من أعلى منحدرٍ؛ ثم نصلُ إليه نازلين عبر ممرٍّ وسط أخدود، كأنه مضيق في جبل يشقُّ المنحدر. لكن أكثر من ألف ثور، أو ما يناهز ثمانمئة حصانٍ قد تجدد ما تقعات عليه من كلاً، إن دعت الضرورة لذلك، في هذه السهل المنخفض. في جهة، كانت الغابة حصنا، كتلة داكنة. وفي الجهة الأخرى، ذرعٌ آخر من الغابة. مما يعني أنه، بعد الالتفاف حول هذه الغابة، هنا دائمًا فيما يسمى تاماندواتاو: السهل، الشاسع. لأن الاسم الذي كان يطلق على كل شيء كان فقط هو هذا: الغابة الكبرى لتاماندواتاو والغابة الصغرى لتاماندواتاو، وهكذا دواليك. كما أن

تاماندواتاو كان هو بيت صاحب الفازيندا - فازيندا تعود إلى حقبة سابقة، عندما كانت هناك أيضًا سينزالات وطاحونة سكر من الخشب. أصبح بيتًا منسيًا، مهجورًا، بأعمدة متساقطة وسط بقايا جدران متهاكة تضم بين ثناياها نباتات نمت فوق أكوام من الحجارة والتراب: قمة الإهمال. وكان يعيش، غير بعيد من هناك، ربا، بعض الفقراء الذين كانوا يمارسون الزراعة: مما كان يبدو من الحقول المزروعة، وحقول الذرة والفاصوليا السوداء. أما الناس، فبالكاد رأيناهم. وكان هناك أيضًا جدول يدعى تاماندواتاو، تحفه أشجار بوريثي عالية، وبه مياه عذبة صافية كأنها عذراء لا تشوبها ولا بقعة طين واحدة. يبدو أن هناك يمكن أن نصطاد أسماك بيايا الضخمة. ما أعرف هو أن المكان تعرّض لكثير من إطلاق النار. كان هناك مذود وسط الحقول؛ سمعنا الماشية فهربت، جامحة. انطلق رجالي راكضين على الخيل وهم يتعرّجون - حول الجدول - كأنه أفعى سو كورويو من دون أنثى، تمشي مجنونة... وكان العدو يتراجع. لم يجدوا أين يختبئون... هكذا بدأ كل شيء.

في الحقيقة، كيف أستطيع أن أصف لك حرفيًا كل جوانب المكان وأحدها لك، يا سيدي؟ فقط إن استعملت ورقة ورسمًا كبيرًا. ارسم صليبيًا، يا سيدي. وليكن صليبيًا ذا أربع أذرع، مع طرف عند كل ذراع: كل طرف يظهر بشكل واضح تمامًا... حسنًا، في هذا الطرف الأعلى، من هناك أتينا، عبر المضيق الجبلي. على يدك اليمنى، أي من جهة الغرب، الغابة الكبرى لتاماندواتاو. وقبلتها، في الطرف على اليد اليسرى، الغابة الصغرى لتاماندواتاو. والطرف الأسفل، نهاية الوادي - ذلك الجدار الذي برز فجأة، من سلسلة تاماندواتاو، الفضيعة، بمنحدراتها وفجواتها. منحدرات رمادية، بها مطبات وتجاويف، منحدرات غريبة جدًا - كأنها ظهور طابور من الحيوانات. ولكن، الآن، لاحظ مع، هنا في الوسط، عمومًا بين موقع جبال تاماندواتاو والغابة

الكبرى لتاماندواتاو: هناك البقايا القديمة لبيت السيد، المنهار تمامًا حتى أنه لم يعد غير أنقاض متراكمة؛ وقبلته، في الطريق المؤدي من الجبل إلى الغابة الصغرى لتاماندواتاو، القطع الأرضية لأولئك الفلاحين الفقراء. وهناك نجده. الجدول الذي يشق السهل بشكل مائل، منذ بداية الغابة الصغرى حتى البيت الكبير، وحوله خضرة يانعة، لكنه يتموج في متوالية من المنحنيات القصيرة، كأنه مسار مختصر لأفعى من الأفاعي. هذا كل شيء. والباقي، السماء والحقول. الشاسعة كما رأيتها، وفي النهاية: سمعت، في الطريق الكبرى، صيحات رجالٍ وصهيل خيلٍ: سُحِبَ غبارٍ ترتفع بعد الفرار الجماعي، وخيول تهرب.

لكن، في الأول، كانت البداية. وما سبق البداية؟ وكان - كُنّا نصل، كُنّا نصل. كُنّا نصل في الوقت المناسب. إلا أن الوصول هكذا، في الوقت المناسب، لم نكن نتوقعه بتلك السرعة. انتهينا من بلوغ نهاية الجبل. في أعلى الهضبة. لم يبق سوى أن ننزل ونحرّر الحقول في ذلك السهل الممتد. أما عن الآخرين، عن العدو، فلم نكن نعرف أي خبر، ولا نملك أدنى مؤشر. هل كنتُ أستطيع أن أعرف؟ كنتُ براءة فظيعة. وكانت هذه الأشياء الصغيرة هي التي أقدمها غذاءً لفرحي. هكذا، مثلاً، عندما أردتُ أن أختبر قيمة رجالي. كان أحدهم، ويدعى دوزأنجوس، يحب أن يُظهر خفته ومهارته: وكيف يصوّب ويطلق النار بسرعة. وكانت تسليني طقطقات سلاحه السريعة وهو يشحن السلاح. لكن سلاحه كان بندقية ضعيفة وقديمة جدًّا، من أسوأ ما يكون، وقد تهالكت فوهتها. - هيا، أريني بندقيتك، يا أخي... - قلتُ وأنا أخذها منه. لكن - بما أنه قال، حزينا: «إنها بندقيتي كومبلييا...» - فإنه لم يكن يرغب في تركها، وراح يتأملها منشغل البال. هذا الرجل كان يستحق أن نجد له سلاحًا مناسبًا - بندقية من حديد، أو بندقية من نوع وينشستر،

من عيار ٢٧، أو أي بندقية أخرى تطلق رصاصا حقيقيا. وهناك سلمني دوراًنجوس بندقيته العتيقة عن طيب خاطر: نظرَ إليّ خجولاً مضطرباً... لكن مارسيلينو بامبا - هو، أعتقد - بعد أن انتهى من الضحك، تذكر شيئاً طريفاً: قال إنه في تجويف صخرة، على جانب قمة الجبل، ترك ميديرو فاش ذات يوم حزمة من أسلحة الجنود النظاميين. وكانت عبارة عن خمس بنادق من نوع ماؤزر، مُزَيَّنة بعناية، مرتبة داخل صندوق، ومخبأة في قعر كهف في الجدار. هذا ما كان يقول. لم يكن أيُّ حيوان متوحش، باستثناء القرد، يغامر بالدخول إلى هناك؛ ولهذا السبب، بكل تأكيد، كانت البنادق ما تزال صالحة للاستعمال. - لماذا خبأها ميديرو فاش؟ - لأنه في تلك الفترة لم نكن نتوفر على ما يناسبها من ذخيرة... والآن، هل نتوفر على ذخيرة تناسبها؟ - هذا أكيد.

لقد قلتُ لك ذلك، يا سيدي: لم أكن أعرف شيئاً عن العدو، والعدو لا يعرف عني شيئاً؛ وكنا نتقدم كي نلتقي. وماذا؟ آه، ولكنني توقفت في الأعلى - كنتُ حقاً أعلى بكثير، وحدث ذلك، فجأة. لأنه سرعان ما غيّرنا الطريق، كي نصعد المنحدر، حتى تلك الكهوف. وأما البنادق، فلم نجدّها داخل الكهف، الذي كان فسيحاً، لا تسكنه غير بعض الطوايط. وأنا، تملكّنتني رغبةٌ فقلتُ سأصعدُ أعلى من هذا، حتى القمة. عدد قليل هم من رافقوني. الأعالي.

عددٌ قليل؛ أتذكّرُ الأريبي. ذهب فقط من أجل أن يذهب. كنا عائدین للنزل، وكانت الريح تعبث بوجوهنا - وذلك المنظر الرائع أمامنا، كما وصّفته سابقاً. بل لففنا أيضاً سيجارة ونحن نمشي، لم يكن من السهل أن نشعلها، بسبب ذلك التيار الصاعد من الهواء. توقّفنا. أشعل الأريبي قداحة. لكنه سرعان ما انحنى، أشار وأطلق صيحة صرخاء: - آه، هناك: في الكيمبمبي

- وهو ما يعني في لهجة موطنه: في المنعطف، عند المنحدر. وبالفعل، بعيدًا هناك، في المنحدر، في أسفل جبال تاماندواتاو، كان يصل فارس. ثم كان هناك عدة فرسان آخرين.

هُم، كانوا هم! لكننا كنا قد اختبأنا. - أوقفوا كل شيء... - قلت. وما شعرتُ به، آه، لم يكن خوفًا، ولا دهشة، ولا قلقًا. ما شعرت به كان لا شيء، لا شيء تمامًا، البياض، بينما كنتُ أتحركُ...

كنا سنقاتلهم مهما كان عدد القادمين منهم؛ لكن القائد هو دائمًا قرار. تكلمتُ. وعندما انتبهتُ لذلك، كنتُ قد أصدرتُ الأوامر الضرورية المناسبة؛ فكَّرتُ في كل شيء جيدًا، كما ترى، يا سيدي، إلخ. أولًا، أن يتكَلَّف ثلاثة رجال بأن يأخذوا إلى المخبأ في ذلك الكهف من لا يحملون السلاح: الصغير غريغو، الأعمى بوروميو وزوجة هرُموجينيس، وأن ينتظروا هناك حتى ينتهي كل شيء. واخترتُ لتك المهمة أيضًا ذلك الفلاح البسيط، دوزَّانجوس، وسرعان ما رأيتُ أنني أحسنتُ الاختيار، بما أن أول شيء فكَّر فيه كان هو كمِّية الطعام التي يجب أن نتركها لهم. بعد ذلك، كانت تعليمات الحرب، مقتضبة، بسيطة: تقسيم الرجال إلى ثلاث كتائب، لأننا سننزل عبر ثلاثة أخاديد مختلفة. أنا، مع رجالي، عبر أقصر طريق، الطريق العادي؛ سيمشي جَواو غَوانيا على يمين الطريق؛ مارسيلينو بامبا على شِماله: وعليهما أن يلتفًا حولهم، كل واحد من جهته، ثم يعودا ويكرَّرا عليهم من الخلف.

في رمشة عين، بينما نحن نتحدث هكذا، كان الرجال مستعدين لينزلوا، وقد خرجوا بالفعل؛ الجاغونسو لا يتوانى أبدًا. لكن، أولًا، رجال جَواو غَوانيا، ورجال مارسيلينو بامبا، لأنه كان عليهم أن يقطعوا مسافة أطول. أما أنا ورجالي، بما أنه كان أمامنا وقت كثير، فكان من الأفضل أن ننتظر. أحصيتُ الخيول. - تسلَّح جيدًا، يا ذبادوريم! - قلتُ. - تسلَّح جيدًا، يا

أخي! - لماذا قلت ذلك؟ لأنني لم أكن جحودًا بالفعل، ولأنَّ ذِيادوريم كان دائمًا في قلبِ عنايتي وحبِّي. هل كان هذا هو الحبُّ: الرغبة الجيدة والفعل السيء؟ تحسَّست السَّرج الذي كانت ساقاي تُدْفئانه. أمسكتُ مسدَّسي. اغتيمَ كثير من رجالي فرصة الانتظار لمزيد من الوقت ليأكلوا كسرة طعام، وأراد أحدهم أن يقدِّم لي نصف فطيرة من الذرة، لآكلها، وقام آخر بالشيء نفسه وهو يحمل كيسًا جلدًا مملوءًا بثمرات البلاذر الصفراء والحمراء. رفضت ذلك. رغم أنني، يومئذ، لم أفطر سوى على حساء المنيهُوت مع جرعة من الكاشاسا. لم أرغب في التدخين. ليس لأنني كنتُ متوتِّرًا. لكنني كنتُ أعرف أنها مسألة دقائق وليست مسألة ساعات. وجاء من قدِّم لي كيسًا مملوءًا بثمار البلاذر، يدعى جَواو نوناتو، من ذيامانثينا، وقال لي، بكل لطف: - اليوم، أيها القائد، بعد أن نربح المعركة، هل سنحتفل بذلك بكثيرٍ من الشَّراب؟ نعم، بطبيعة الحال. سرعان ما وجدُّني أقول له: - أنت، يا بُني، تعال معي في المقدِّمة، يا صديقي... أنت تجلب لي الحظ! - ثم همزنا الخيل، وانطلقنا.

ونحن نزل عبر ذلك الأخدود، كنا نتقدم متوارين عن الأنظار. وفي الأسفل، عند مدخل الوادي تحديداً، كان هناك عشبٌ كثيف ينمو بقوة، من تلك الأعشاب العالية التي تكثر عند سفح الجبال الرطبة. أعشابٌ تفوقني طولاً - كنا نخفي داخلها. وصادف ذلك أننا كنا نميز وسط كتل الأعشاب الخضراء بعض الفراشات التي ضاعت في متاهة، وراحت تخبط بأجنحتها لتثبت وجودها. سُكِّر سقط في العسل! لأنه كان ينبغي أن نميل شيئًا ما جانبا؛ وفي المقدمة، عزلتُ على الفور مجموعة من الرجال، الذي سيذهبون تحت قيادة فافافا: هؤلاء سيتقدَّمون أولاً - وسيكونون طُعماً فيبعثرون حسابات العدو، حين يبدأ القتال. تنفسنا لبعض الوقت، في تلك

اللحظات من الانتظار. مختبئين، الأعشاب تضرب وجوهنا وتثير رغبتنا في العطس. الضجيج الوحيد الذي كنا نسمعه كان هو صوت الخيول وهي تقضم العشب ملء أفواهها. كنتُ متلهفا لإنهاء ذلك، لكن ما كان يعتَمِلُ في نفسي على وجه الخصوص كان جهدًا من الصبر: القدرة على أن أظل أنتظر الحياة بكاملها. اللعنة - تمامًا كما كنتُ قادرًا على أن أقفز فجأة بقفزة واحدة. رأيتُ: من يعرف كيف يقاتل هو الحيوان، وليس الإنسان. كانت الأعشاب تمزج كل شيء في تنوُّع واختلاف: حرارة الهواء وبرودة الكهف - بردٌ وحرارة، جنبًا إلى جنب، حتى فوق الأوراق الدقيقة. لكن الحرارة كانت تصعد في جسدي عبر ساقِيَّ: كانت قدماي ترشحان عرقًا من شدة الحرّ. ولم أكن أميز الأرضية، لكن رائحة ذلك المكان كانت رائحة طين أصفر، كثيف. حتى ونحن متوقفون كنا نتمايل فوق السروج، من جهة إلى أخرى، في تلك الرّخاوة - استرخاءً كانت أذهاننا بحاجة إليه. لأننا كنا جميعًا هادئين جدًا كي لا نفزع الطيور التي تأكل حبوب الأعشاب، لأن تحليقها قد يُخطر العدو ويثبي بنا.

وعندئذ، رفعتُ قدمًا عن الرّكاب، وجثوتُ على ركبتَي فوق وسادة السرج. لأنه حان وقت المشاهدة؛ فنظرتُ ورأيتُ. كيف كان العدو قادمًا: الرجال في صفوف كثيرة، والدواب يفوق عددها المئة. شملتُ كل شيء بنظري، كانوا لا يزالون بعيدين. وضع فافافا إصبعين على رُكبتَي، كأنه كان يريد أن يكون قادرًا على أن يتلقّى أمرًا ما في صمتٍ... ظلّ ينتظر لحظة معينة من تنفّسي. ضربتُ بيدي على قوس السرج. دوُرٌ واحد، دوُرٌ: الجميع والجميع. أقول لك مقولة الجاغونُسو: إنهم لا يعرفون بأنفسهم إن كانوا يشعرون بالخوف أم لا، لكن عند الموت لا أحد منهم كان يفكّر! ومن يُقسم ويلعن، يا سيدي، فإنه يفعل ذلك من أجل دَم الآخرين.

ثم نظرتُ مرة أخرى. لاحظتُ أنَّهم كانوا يقتربون - وكانوا قد أطلقوا بعضاً منهم يركضون في الأمام، من أجل استكشاف الأخطار والممر عند سفح الجبل. أغمضتُ عينيَّ وعددتُ. حتى عشرة، كلاً، لم أصبر، ولما بلغت سبعة، قرَّرتُ: - انطلق لوحديك، يا فافافا! - قلتُ. فصاح: - هيا بنا! - ثم ضرب المهازئين منطلقاً نحو الأمام. ثم رأيتُ الخيول تتبعه مندفعة كالسهم، والأعشاب تنبطح تحتها. أيُّ أنَّ الرجال الذين رافقوا فافافا أعددتهم وأطلقتهم كما نفعل حين نفتح حاجز المواشي: وكان عددهم يفوق العشرين بقليل. وبصعوبة كنتُ أحبس الآخرين الذي كانوا يرغبون في الذهاب بدورهم. وكان ذيادوريم بينهم. - أنا؟ - قال ذيادوريم. قلتُ: - لا؟ - ثم أمسكتُ فرسه من تحت زمامها. لماذا فعلتُ ذلك؟ كان أمري كافياً. لم يكن لتلك الحركة أي معنى. فعلتُ ذلك فقط لأنني كنتُ أريد أن أستبقي ذيادوريم؛ وكانت تتسع لنا بقعة الأعشاب الخضراء العالية، حيث كنتُ أُميّز ذيادوريم كما لو أنَّ هالةً تُزين وجهه. سمعنا صيحات عالية وطلقات نارية: كان رجال فافافا يفككون مقدمة الأعداء. كنتُ راكبا لحظتها، فشعرت، مع ذلك، بالخجل من نفسي، كما شعرتُ أنَّ ذيادوريم لم يكن هالكا. وأنني لم أكن أملك أي سلطة على حضوره. أعرفُ: من يحبُّ يكون عبداً مخلصاً على الدوام، لكنه لا يخضع أبداً في الحقيقة...

وهنا، نهضتُ وأدركتُ: أنها بداية المعركة الكبرى. فافافا في المقدمة، انطلق كالسهم، يتبعه رجاله، ويطلق صيحاتٍ.

أثناء ذلك، كان الآخرون، رجال هرُموجينيس، يشكلون كتلة واحدة، فانتشروا بسرعة في المكان، مبتعدين عن بعضهم البعض - غابة من الفرسان. هكذا، كانوا يصيحون ويصرخون من كثرة عددهم، ويعرفون كيف يكرّون وكيف يفرون. طلقاتُ نارٍ حقيقة، سمعتُ منها القليل؛ لكن في الطريق ذات

التراب الجاف وسط الحقول، ارتفعت سحابةً غبار. ابتلعتُ ريقِي: يعني أنني كنتُ أنتظر المزيد من الطلقات. أثناء ذلك، خرج فافافا بمحض إرادته - لأن الآخرين يمكن أن ينصبوا لهم فخاً - وذهب لوحده في خَبَبٍ، مأكراً جداً، وكان يخفف من تقدمه. كي أرى جيداً، نهضتُ شبه واقف على سرجي، وحصاني تحتي جامد بحذر، لأنه دابةٌ حكيمة. لكن، أريدك أن تعرف، يا سيدي، ما قمْتُ به أثناء ذلك! رسمتُ علامة الصليب بمنتهى الإجلال. فهل كانت تلك حركة من وقَّع ميثاقاً؟ حركة ابن من أبناء الشيطان؟ لا، وألفُ لا؛ أحتجُّ. بل إنني أذكر ما وقع لي: كنتُ مقتنعا تماماً بأن ما كان تابعا للشيطان، كلباً من دون كمامة، كان هو - هرْموجينيسُ! ولكنني كنتُ أريد شجاعةً من الرَّب؛ فحصلتُ عليها، أليس كذلك؟!

وحانت اللحظة الحاسمة من الزمن. ناديتُ فقط على جَواوُ كونْكليس: - الآن هو الآن... - ثم انطلقتُ: - هذا كل شيء! - انطلق حصاني يضربُ برأسه. ثم تبعني الآخرون، مندفعين: كان عالماً حقيقياً. صحتُ متحدِّياً بأعلى صوتي: - أكثر! أكثر!... - ورجالي يصيحون بقوة، كأنهم خرجوا من الهواء. لم أَر الكثير. لكن نيران الحرب احرقت تاماندواتاو بكاملها.

علَّقتُ أنفاسي - أسمعَت، يا سيدي؟ - وهربتُ، جانباً بحصاني، أسحبُ زمامه. بقيتُ جامداً. كنتُ تحت شجرة ضخمة ممتدة؛ شجرة كأنجواو. حسب ما بدا لي. وتوالى الطلقات، رشاشات، وسط سحابة من الغبار. حتى العشب كان يصفر. وبقدر رغبتِي في الرؤية، كان الوضع فظيماً معقداً، فكان لا بدَّ من شيء من الوقت قبل أن تقع العين على شيء محدد. كان ذلك يشبه، إن صح التعبير، مائدة باذخة كبيرة، إذا سُحب غطاؤها انهار كل شيء... من كان يستطيع فرض النظام وسط ذلك، حتى ينال النصر في النهاية؟ لعلَّ الرِّصاصُ. أدخلت قدمي في الرِّكاب مرة أخرى، ثم ضغطتُ

برجليّ على جانبي السّرج. كان لا بدّ أن أعطي أوامر. كنتُ وحيدًا. أما أنا، فلم أكن أقاتل. هل كنتُ زي بيبيلو؟ انتظرتُ. كان بوسعي أن ألاحظ كل شيء بكلّ برودة دم، خاليًا من كلّ خوف. لم أكن غاضبًا. كان غضبي قد خفّ. بل، وسط هذه الفوضى، بمّ كان سيفيدني؟ كنتُ أحتفظ بمسدّسي في يدي لكنني شبكتُ ذراعيّ. أغمضتُ عينيّ. فقط بضغطة من رجليّ، علّمتُ حصاني سيرويز كيف يحافظ على هدوئه. ومرّ كل شيء خفيّفًا عابرًا. وما كان من واجبي، كان هو هذا: أن أقود. فهل يعني هذا أنني كنتُ أستطيع أن أذهب إلى هناك، أختلط بالجميع وأقود؟ كلاً! كنتُ أقود فقط. كنتُ أقود العالم، الذي كانوا يفكّكونه تمامًا. لأن القيادة هي هذا الأمر فقط: أن تحافظ على هدوئك وتتحرّلى بمزيد من الشجاعة.

شجاعةٌ فوق شجاعةِ الجميع. هل كان ثمة في تلك اللحظة أحد ما في حياتي، ليُعلّمني؟ رأوني! والحال أنّ الشجاعة، هناك دائمًا من يستطيع أن يتذوّقها أكثر ويتحمّل أسوأ ما فيها: مثل الهواء: يمكن أن نسحب منه الكثير إلى داخل صدورنا، مهما كانت ممتلئة، ونحن نُطيل التّنفّس... بحقّ إيماني، هذا ما فعلتُ. سأقول لك: إنّ لم أهُلّل باسم الرّب، فإنني كذلك لم أتعلق بالشیطان؛ لكنني لم أنطق سوى باسم واحد، كنتُ أقوله بصوت خفيض وحازم، فكّرتُ فيه بقوة أكبر. وكان هو: - الثعبان الأبيض!... الثعبان الأبيض!... الثعبان الأبيض!... وكنتُ أنا نفسي. كنتُ أعرفُ. كنتُ أريد.

ثم عادت الحربُ لتلحسَ ما بجانبي، كأنها اللهب عندما تستعرُ النّار. اقتربوا. واقتربت طلقات النار - نارهم. كان الرصاص يصفقُ ويصفقُ. كانت طلقائه تقصّ العشب عند مستوى الأرض وتنتزعه مع حفنة من تراب. تقطع الأغصان فوق رأسي وتشرّ حبات عرفتُ من خلالها أن تلك الشجرة كانت شجرة أنجيكو. كنتُ القائد، أليس كذلك؟ حتى عندما

اقتحمت شحنةً بندقية قبعتي الجلدية ولا مست أخرى، مُدَوِّيةً، صدرتيّتي. لم أحرّك إصبعًا، لكنني سخرتُ من الخطر. كان بوسعي أن أمد ذراعي وأحرك يدي كي أردّ بطلقات كثيرة من مسدّسي، لكن ربما كنتُ سأموت - لشدة ما كنتُ محاصرًا بالرصاص الذي كان يمضي سريعًا، قريبًا، وحارقًا أيضًا - الثعبان الأبيض... - تذكرتُ فقط همسًا بعيدًا، كما يحدث حين نغازل فتاة رقيقة. كأسُ كاشاسا من أجل فرحي. من أجل الرّيح. والرصاص، لا شيء غير الرصاص، أكثر من أي وقت مضى، خلال دقيقة أبدية. لكن، حينها، أن أتحرك من هناك، هذا هو ما لا ينبغي فعله على وجه الخصوص. إن مُتتُ - تكاسلتُ في التفكير - سأموت ثلاث مرات واقفًا، شجاعًا: مثل أكبر شجاع في العالم، حين يتحلّى بأكبر قدر من شجاعته! بحق إيماني، هكذا كان. صرتُ ابنًا هادئًا تمامًا، مثل ماءٍ بحيرةٍ هادئة.

وفجأة، تغير كل شيء. التفّ رجال هرّموجينيس بالخيل ليذهبوا في الاتجاه المعاكس ويتفرّقوا بعيدًا. وحدث ذلك لأنّ رجال جواو غوانيا، الذين انتهوا من الانعطاف، خرجوا عند طرف الغابة، وراحوا يكرّون على العدو من الخلف بصيحات عالية - هيا! هيا! الموت! - كما يُقال. كان علينا أن نربح المعركة ونظفر بالنصر. وكانت المقدّمة التي نشرها هرّموجينيس تفرّ، بسرعة. كان أحدهم يمتطي حصانًا أسود، تردّد قليلاً، فانهال عليه بأسب، سوزازتي وسيسفريدو راكضين مختلطين - فأناروا سحابةً غبارٍ قبيحة. اندفع جسده متباطئًا، ميتًا: تجمّد في الهواء، ثم قفز: مثل قطعة خشبية... أُصيب آخر بهلع شديد، فحدث له نفس الشيء - كان جواو فاكييرو قد ترجّل عن حصانه، وأطلق عليه الرصاص عدة مرات. انكمش فوف السّرج مثل حيوان المدرّع. ثم جاء ليسقط بالقرب مني، فسمعتُه يئنّ وقد جرح جرحًا بليغًا - جرّده من السلاح، لكن لا تُجهز عليه، يا أخي... - قلتُ لجواو فاكييرو. كان ذلك

الرجل المصروع، يئنُّ، يحاول أن يغرس أظفاره في جذع شجرة، ويصيخُ.
وكانت الشكوى التي يُعبرُّ عنها: أنهم جاؤوا على متن خيول متعبة، وُرُجَّ
بهم في مهمة كارثية للغاية، منذورةٌ للهزيمة... كان يفرغ ما في جعبته، يلعن
حظَّهُ، قليلاً، وقد تكسَّرت ثلاث أضلعٍ في جسده. لكنه كان يطلبُ، مؤمناً
متوسلاً، جرعةَ ماءٍ. العطشُ هو الحالة الوحيدة التي هي نفسها، إنسانية،
متشابهة، لا تختلف من شخص لآخر. انحنيتُ ووضعت بين يديه قارورتي،
شبه الممتلئة، والتي كانت مناسبة كأنها إبريق. تجلَّدتُ، أغمضتُ عينيَّ حتى
لا أرقَّ لحال هؤلاء التعساء. ولم أسمع شيئاً؛ لأن الأذن بدورها تنسدُّ. كنتُ
أجلس منتصباً فوق حصاني. المجال الذي يجب عليَّ فيه ممارسة القيادة، هو
هذا: كل شيء في ذاتي - شخصي، ظلُّ جسدي فوق الأرض، حُضورِي. ما
فكرتُ فيه بقوة، ألف مرة: أنني كنتُ أريد انتصارنا: كنتُ أريده انتصاراً
هادئاً: مثل شجرة سامقة!

خفَّ إطلاقُ النار.

بعد ذلك، ظهر رجال مارسيلينو بأميا، فجأة، ليزيدوا من محنة هِزموجينيس.
كانت مذبحة. هاجمناهم من الجانب. سأحكي لك كيف. يا سيدي: كنا
نسمع الطلقات المتكررة للبنادق. نيرانُ تاماندواتاو: اعلمْ ذلك، يا سيدي.
ثم، بأم! وحتى في أفطع أوقات المعركة، تكهنتُ، عرفتُ: أن أوامري
كانت موفقة، وأنه لم يعد يفصلنا غير خيط رفيع لربح كل شيء، وتحصل
النهاية. بقي فقط أن أقطف الفاكهة الناضجة، وأنجح في النجاة. أعرف
أنني خاطرتُ بنفسِي - انطلقتُ راکضاً وسط الخليط. وصلتُ إلى حيث كان
كل شيء يُزجَرُ. أطلقتُ صيحات. استعملتُ بندقيتي؛ ثم رحْتُ أقتل. أين
كان هِزموجينيس، إذن؟ ونحن نصيح وراء مجموعة من الأعداء، انطلقنا في
صفٍّ نحو الجدول. تلقتُ كلَّ شجرة بوريتي رصاصةً.

علاوة على ذلك، لم يعد للعدوّ من وسيلة لاسترجاع مواقعه - وكانوا قد بدأوا يفقدون خيولهم. ثم إن الوادي، في ذلك الموقع، لم تكن به أشجار يمكن أن يختبئوا تحتها على طريقة الجاغوثس. وقليل منهم من بلغوا بقع العشب، أو الجزء الأكبر من النباتات العالية، من حيث لن نستطيع أن نُخرج أحدا. لا بدّ أن من هناك، والخناجر في أياديهم، كانوا يتسلّلون مثل الأفاعي - ولن نستطيع القبض عليهم إلّا بإطلاق كلاب الأثر المدربة على اقتفاء الناس، وهي ما لم تكن نملكه. فرّ معظمهم هارين، في جنون، وبصعوبة كبيرة تحت وابل من الرصاص. قليل منهم من أفلحوا في المرور. ومثل الريح في الريف الخالي، تابعنا مطاردتهم. كان هناك وادي صغير، فتجاوزنا أجمة من أشجار اللّوبيليا. كان ذلك من جهة الزراعات الجديدة. تلال صغيرة؛ أطلقنا النار. بيت مُهدّم، ثم آخر. أطلقنا النار. قليل، قليل جدّا منهم، من هربوا. من لم يهربوا سقطوا تحت نيران مؤخرة صفوفنا. كان مشهد موتٍ رائعا...

لكنّ رجلاً طويل القامة - قفز من على ظهر حصانٍ جريح - وجد وسيلة ليركض حتى وجد أمامه كوخًا صغيرًا. ولجّ إليه. أكيد أنه سيختبئ هناك ثم يطلق النار. هكذا، تخلّينا عن مطاردة الآخرين لمزيد من الوقت، ثم حاصرنا ذلك الكوخ، على مسافة آمنة، ونحن نبحث عن وسيلة لنختبئ. سيكون الأمر فظيعةً. وهذا الرجل، من كان؟ - آه، ريكازداو - كان يصيح رجالي. وكنتُ أعرف ذلك. أعطيتُ أمرًا بإطلاق النار. ارتعش كوخُ البوريتي، وبدا كأنه يتلوّى في مكانه، ثم انشَقَّ. أطلقنا النار وأطلقنا، ولن يتأخر الكوخ في أن يهوي، متهاكًا. لكني، أمرتُ بوقف إطلاق النيران. - وأين يمكن أن يكون هِرْموجينيسُ نفسه؟ - سألتُ. كان أحدٌ ما يعرف. لأنه سمع أحدًا منهم، جريحا أو سجينًا، يقول: إنَّ هِرْموجينيسَ لم يكن يشكل حاليًا جزءًا من تلك الجماعة، لكنه كان في تلك اللّحظة يسير مع كتيبة أخرى، باتجاه

الغرب، على بعد عشرين فرسخًا إلى الأمام. لكن، ماذا؟ كان كلُّ رجالنا تقريبًا قد وصلوا ليشهدوا آخر لحظات ريكازداو واقفًا على قدميه. أمرتُ: - سيد ريكازداو، اخرج من هناك!... - صحتُ من المكان الذي أختبئ فيه.

لم يجب. فقلتُ: - أطلقوا النار، يا رجال! - قرَّرتُ. دوى الرصاص. أثناء ذلك، بدأ الكوخ يقترب من نهايته. لكن، من داخله، لم يأتِ الردُّ من أي أحد: ولا حتى طلقة نار واحدة، لا شيء. هل مات؟ أم نفدت ذخيرته؟ انتظرتُ، مدة ابتلاع ريقِي ثلاث مرات. وهنا، صحتُ من جديد: - سيد ريكازداو، اخرج من هناك! - فأجاب بشكل غريب: - سوف أخرج! - وصاح بنبرة طبيعية جدًّا. أمرتُ رجالي، بكلِّ حزم، أن يلتزموا بوقف النيران تمامًا. سادَ صمتٌ شامل. راقبتُ.

هناك، كان الرَّجُل يفتح بثقل حُطام الباب. خرج، مشى بضع خطوات. كان يتقدم هكذا، طويل القامة، القبعة فوق رأسه، وهو شبه باسم. لم يكن يفتح عينيه. هل تخيَّل انعقاد محاكمة؟ هذا ما قلته في نفسي. لم يكن جريحًا. مشى بضع خطوات. ثم - هل فكَّرتُ في هذه؟ - آه، لا؛ ولكني رأيتُ ذيادوريم، في حقه، سينقضُّ عليه، ويخرج خنجره. لم أقم سوى بوضع حدٍّ لذلك، وأنا أفاجئه: أطلقتُ طلقة نارية، طلقة واحدة. خفض ريكازداو ذراعيه، وقد اخترقته الرصاص، ونُشِرَ جسده عند النصف. وهو يسقط، رمى إحدى ساقيه يمينًا، ورمى الأخرى شمالًا. سقط، انبطح. انبطح، كأنه تقريبًا لا يعرف أنه كان يموت؛ لكن كان بوسعنا رؤية أنه مات.

أعتقد أن الجميع قد أطلق تنهيدة ارتياح. أقصد إنَّ يدي اليميني، من تلقاء ذاتها تقريبًا، هي التي أطلقت النار. حسب علمي، أعادت آدم إلى الطين. هذه مجرد طريقة في الكلام - تخيُّلات...

- لا تدفنوا هذا الرجل! - قلتُ.

العدالة. لكن، في الحقيقة، كيف يمكن أن ندفن كل هؤلاء الرجال الذين سقطوا في ذلك اليوم؟

بينما نحن عائدون نحو الجبل، كنتُ أنظر إلى السماء من حين لآخر. مرَّ نسْرٌ صغير - كان قادمًا من جهة سونغادو دو آ - راح يحرك جناحية بكل هدوء، فبدالي ذلك تحيةً ودّية. تحليقٌ جميل!

لكن - ما الذي سيحدث بعد ذلك!

إنني أعرف أشياء قليلة، وأكيد أنني أحكي بشكل سيء كيف كانت الأيام الثلاثة التي تلت. خذ حذرَكَ، يا سيدي، سوف تُصاب بخيبة؛ كن مستعدًا حقًا؛ لأنه النهاية، النهاية الفظيعة...

أي سلطة كانت لي؟ كيف لي أن أعرف وأنا فرحٌ أو باكٌ أجدني مستقرًا، منخرطًا في المستقبل؟ الإنسان يسير مثل التّأبّر: يعيش الحياة. التّأبّر هو أكثر الحيوانات جهلاً... وأنا، مزهُوٌّ تمامًا، بانتصاري! كما أنه كان يعجبني قول الأعمى بوروميو، الذي لم يكن يعرف الحزن: - آه، لم يسبق لي أن شممتُ رائحة هذه البقاع من قبل - اتَّفَقَ معه. لكن، هو، ما يحتاج لمعرفة يسأل عنه أحيانًا. كان يطالب بالوصف الطبيعي لتلك الأماكن. هكذا، كان يعلق:

أيتها الماكابيرا ذات النجوم،

من وهبك كل تلك الأشواك؟

اللعة! أنا، لا. أنا أُلجأ إلى الآخرين، أسألمهم عما لا أعرف شخصيًا، يعني: في هذه الأراضي العليا حيث كنتُ القائد الأعلى؟ لم يكن هناك من أحد ليجيبني. لا أحد، على الإطلاق. ألسنا نحيا ونحن نمشي نديرُ ظهورنا؟ أصلي. ما يوجد، ما يوجد: يوجد مثل قعر الماء. الآن أشكُّ أن الأعمى

بورُوميو بدوره لم يكن يسأل سوى عما يعرفه أصلاً. وإلاً، وإلاً، انظر. يا سيدي، إن لم يكن من الممكن نشر هذا المرسوم المقدس:

أيتها الماكاميرا ذات النجوم،

قال الصَّبَّارُ:

- أحببني، يا شجرة السبّوتة،

فمن يحبك حقاً، هو أنا.

فهمتُ كل شيء. هكذا كان يُعني. وراءه، على متن حصانٍ آخر، كان الطفل غريغو، يكبر ويهرم. وامرأة هرُموجينيس، على متن حصانٍ هي الأخرى، كانت تمشي نحيفة عابسة، كأنها تمتطي سحابة. كشفت عن وجهها، وسحبت ذلك الشال الأخضر دون أيّ حرج وما كانت تفتش عنه في وجوه الناس كان تحت الذقن. من يعرف الكبرياء، من يعرف جنون الآخرين؟ كانت تأكل؛ كانت تشرب؛ كانت فيما مضى فتاة شابة ومبتهجة، فتزوَّجت. هذه المرأة، لم ألمحها إلا بعد أن عادت إلى مُتّع الحياة... لم تقل ولا كلمة واحدة. نعم. كان النهار الآن قد طلع: الشمس تشقُّ الحقول. المرأة، الطفل، والأعمى - هؤلاء خرجوا، وغادروا. بأمرٍ مني، جلبوهم من كهف في الجبل، لكنهم أخذوهم، تحت حراسة مشددة، إلى قرية باريداو: يرافقهم عشرة رجال من الحرس.

وكان السبب هو هذا: إنَّ هرُموجينيس كان قادمًا من الغرب، ويمكن أن يصل. فليصل، وفي أسرع وقت! كانت صفوف جماعته قد كبرت - علمنا ذلك - وتعزّزت بأعداد كبيرة من قُطّاع الطرق من الجاغونسو - كما أنَّ من هربوا أحياء من تاماندواتاو لا بدَّ أنهم هرعوا نحوه ليخطروه. أطلقتُ المستكشفين ليراقبوا ويقدرُوا المسافة التي تفصلنا عن وصولهم. آه، ولكن،

عند منتصف الطريق باتجاه الغرب، كان الممرُ الآمن في الجبل مكانًا آمنًا يدعى سيريري فيليو. توجَّهنا إليه.

دون تماطل، سرنا إلى هناك بسرعة. إلى أن تلاشى ضباب الصباح. سُمِعَ هديرُ الرعد وهبَّت ريح قوية. مما جعل الجميع يقولون إنها ستمطر قريبًا، في غير مصلحتي. على حافة الغابة، في سيريري فيليو، قطعنا بالسكاكين غصونًا ونباتات متسلقة كي نبني دعامات وسقفا يغطي الأسرَّة المعلقة. تحسَّن الجوُّ، وشيئًا فشيئًا توقَّفت الريح. لكن ذلك العمل كان ضروريًا، فلم نبَق عاطلين قطُّ؛ ولم نجد وقتًا، أذكر ذلك، لا وقتَ حتى لقول كلمةٍ لذيادوريم، كما كنتُ أفعل كل يوم. حلَّ الليلُ. فتذكرت أنني ذاهب لأنام وأنا منهمك من التعب. لأنام قليلًا. وهو ما حدث، وما لم يكن فكري يقبله. لأنني، فجأة، استيقظتُ.

فجرٌ منتصف الليل. كان القمر قد انكمش، واختلطت الجبال بالغابة. ألقىت نظرة من حولي. كان العالمُ كلُّه نائمًا. فقط همسات الطبيعة التي تبرز فوق الصمت، وصيحات أو أو أو أو تطلقها أفعى جرسية؛ صيحات عالية جدًا، حزينة جدًا. بعد ذلك، سمعتُ عواءً ممتدًا لأحد الكلاب. كل الرفاق نائمون، وأنا مستيقظ، واقف على قدمي، في عزِّ الليل. بدأ قلبي يثقل في صدري. هل كان ذلك بسبب عواء الكلب؟ خطرت لي فكرةٌ حزينة. هل لأنني استيقظتُ قبل الأوان، وسبقتُ الآخرين بكثير؟

لكنني كنتُ أريد أن أعنتم فرصةً أنني كنتُ أفتح عيني، وكنتُ بحاجة لذلك. ما كان يهمني هو أن أصمد حتى ينفك ذلك الطوق الذي يخنق قلبي. هل كان الرَّب يعاقبني - لأنَّ له ساعته - أم أنَّ الشيطان بدأ يساومني؟ فأدركتُ أن بوسعي أن أختار، أن أطلق العنان لإحساسي: نحو الحزن كما نحو الفرح - بعيدًا، بعيدًا جدًا، حتى النهاية، بقدر امتداد السَّرتاؤ...

وحينئذ، رفعتُ عينيّ ونظرتُ إلى السماء. تلك النجوم التي لا تسقط.
حزامُ الجوزاء، الدّب الأكبر، كوكبة الصليب الجنوبي، ذيل الثّابير، درب
التّبانة. أثار ذلك رغبات في نفسي. كان عليّ أن أظلّ متيقظاً للغاية. ثم رأيت
السماء تتلبّد بالغيوم. سوف أنتظر وأنا أقوم بشيء أو بآخر، حتى يحلّ النهار
نهائياً، وتطلع الشمس على الجميع. ومع ذلك، تمكّنتُ من أن أستخلص من
همس الليل هذه النهاية، أبيات هذه الأغنية:

هدوء في مياه النهر الواسع...

الرّب أو الشيطان، في السّرتاؤ.

طلع النهارُ ماطرًا. وصار العالمُ أبيض، تشقّه البروق. ضربت الصاعقة،
هدر الرعدُ، وكنا نسيّل مبلّلين؛ وكلّ ما فكرنا فيه، كلّ ما قمنا به، هو أننا
سرّنا نتخبّط في جبالٍ موحلة. نعم، أخبرني، يا سيدي: أهكذا يكون يوم ما
قبل؟ كنتُ أخشى فقط على الخيول، أخاف أن تهرب. وتفرّ - تعرف كم
هي شاسعة الهضاب العليا، وكيف أنه، هناك في البلاد العليا، يحدث هذا:
أنه بعد ليلة هادئة، فجأة، تنزل في الصباح شلالات من المطر... ثم انجلت
الغيوم عن السماء، فجأة، قبل منتصف النهار، هبّت ريح معتدلة وأطلّت
الشمس، ورأينا كيف جفّت الرمال بسرعة... خنّت الساعة. لا شيء غير
حركة تمايل فرساني، يمتطون خيولهم، يملؤون ويكدّسون حقائبهم كأنهم
نحلّ حطّ فوق شجرة أو مبورانا... آنذاك، فكّرتُ أنهم كانوا يعرفون ما لا
يعرفونه: كانوا في قلق كبير.

وعاد المستكشفون، من مهمة المراقبة، مبلّلين بالكامل. قال أحدهم: - لا
يظهر أحد في الأفق، قاصدًا هذه الجهة... إلّا إذا كانوا قد تأخروا كثيرًا... -
أين كان هرّموجينيس؟ تلبّدت السماء بمزيد من الغيوم. ثم قال مستكشف
آخر: - هم، لم يظهر لهم أثر... - ثم أرسلتُ آخرين، ليذهبوا ويفتشوا، بفعالية

أكبر، ويجوبوا تلك الضواحي، وما وراءها. شيء ما نبهني إلى فراغ الوقت من حولي - فقلتُ مع نفسي: - هل السَّرتاؤُ قادمٌ؟ نعم، كان قادمًا. اصطكَّتُ أسناني. عضضتُ يدَ القَدَر. لأنه كان يومَ ما قبل اليوم: انظر واسمع. لكن ذلك الشيء، الواقف جدًّا، القريب جدًّا، كان لا يزال مختلفيًّا وراء غيوم المستقبل. من يدري إن كانت هذه الحجارة من حولي تسخن، إن لم تبدأ في لحظة معينة في التحول، في قلب صلابتها، كما تفقسُّ الطيور؟ لا أرى غير أسرار. لكن اقتراب العدو، كنتُ أحدثُه؛ نعرف ذلك، من ضغط الجسد كأنه يريد أن يملك عيونًا إضافية؛ بل حتى لستُ أدري أي شيء راسخ في الصدر، في الأحشاء، في التجاويف. كان هِرْموجينيسُ مُنهمكًا في الظلام، مستعدًّا، بدافع الحقد، ليهجم. هل كانت الحربُ قد حدَّدت موقع المعركة، هنا، في سيريري فيليو؟ لكنَّ رجالي، جاغونُسو شجعان يزأرون، والذين قد يهدؤون بكلمة واحدة مني، كانوا الآن ينتظرون قراري.

وحينئذ ظهر من جديد سوزارتي، الذي كنتُ قد أوفدته منذ تاماندواتاو كي يذهب ليتجسَّس ويراقب بعيدًا، مثل كلب يشتمُّ رائحة. وصل كأنه يمتطي حصانًا ميتًا. توقف. الحصان الكُميت، كأنه مفكَّك - كان يقوس في شكل حزين قائمته الأماميتين - انهارَ فجأة على الأرض، وانبجس الدَّم متدفِّقًا من فمه وخيشومه: لقد انفجرت معدته ورثاهُ. لكن سوزارتي، حتى قبل أن يصرَّ السَّرج، كان قد حرَّر قدميه من الركاب وقفز بخفة إلى الأرض، أخذ ثانية واحدة، وقال: - إنهم هنا. وبخصوص البقية، أشار بإصبعه.

هِرْموجينيسُ، أكبر لعين! كان يصل مع رجاله. قاموا بمحاولة للالتفاف والوصول من جهة الشمال. كان سوزارتي قد لمح، في اليوم السابق، حركة المراقبين والرعاة، وقدَّر عن بعد الجزء الأكبر من الجماعة: غبارٌ ما يناهز ثمانين رجلًا... كان هو هِرْموجينيسُ. كان يلتف حولنا، محتالا، كأنه طائر

كاسر، بما أنه لا يربطه بي أيُّ اتفاق قانوني؛ وكان من حقه أن يخوض الحرب بالحيلة! الشَّرُّ بالشَّرِّ؛ لكن، لحدِّ الآن، كان تهديد الخطَّة يتحرك بشكل أكبر. لأنهم يمكن أن يأتوا ويصلوا بأعداد كبيرة. أو بشكل غير مباشر؛ أو، أيضًا - بينما نقف نحن هنا، نقدم لهم أنفسنا صيدًا في المتناول - كان بوسعهم أيضًا أن يصعدوا، فجأة، من الجهة الأخرى حتى باريداو، يختطفوا المرأة ويفعلوا ما يحلو لهم برجالي العشرة المعزولين؛ ثم يعطفوا نحو سيريري فيليو، لينقِّضوا علينا وعلى كل مؤخرة صفوفنا... في رمشة عين، رأيتُ المشهد. أشهرتُ قيادتي عاليًا وبكل وضوح. كان رجالي من الجاغونسو ينتظرون القرار الصائب؛ ولا ينظرون إليَّ حتى. - حذار! - قلتُ. ثم أوجزتُ. يا إلهي، من خلال نبرة صوتي سمعتُني أقولُ ما كانت سرَّة ذكائي تملِّيه عليَّ، في لمسات صغيرة وسريعة. كان تلك هي الخطَّة المرسومة.

حينئذ، أعطيتُ الأوامر. كان لا بدَّ من تقسيم القوات، وهو ما قرَّرتُ. مناصفة. ظلَّ جَواو كونيكلش وجَواو غوانيا مع رجالهما، مُعلِّقين، هنا، في سيريري فيليو، يؤدون انتظارًا شجاعًا. وناديتُ على الآخرين، مع مارسيلينو بامبا بوصفه قائدًا مساعدًا: انطلقنا نحو باريداو. وسرعان ما تفرقنا على أربع مجموعات في دوران خيول. وكنا قد بدأنا ننتشر على شكل قوس دائري في الرِّيف ونتطلع إلى الأمام. وحين استدرتُ، كان دِيادوريم يركض على بعد بضعة أمتار من خلفي، فرأيتُ ابتسامتي على شفَّتيه. كنَّا نسير، نشدَّ الأعنة بحزم، وندير ظهورنا لشمس الغروب. لمحت فكرة عما ستكون عليه الحرب، الوحشية. السير على متن الخيل، هكذا، كان هو ما أفضل وما أراه أقل خطرًا.

من سيريري فيليو إلى باريداو، ستة فراسخ؛ وكان لا بدَّ أن أترك على الأقل رجلًا واحدًا كل نصف فرسخ، في حالة ما إذا كان لا بدَّ من نقل رسالة، من

الجميع إلى الجميع، وفق ما تتطلبه الحرب من سرعة. فعلتُ ذلك: كان لا بدَّ من فعله. فيما تبقى، مهما كان، نفس الشيء. كان رجالي ينفذون التعليمات بكاملها. كلُّ فرح الجاغونُسو أن يتحرَّك راکضًا على صهوة جواده. الفرح! هل قلتُ هذا؟ آه، كلاً، لستُ أنا. يا سيدي، أعدْ هذه الكلمة فوراً إلى باب فمي.

ماذا كنتُ أقصد؟

مستجدات جديدة.

كنا نركض بسرعة مستقرة، ولم يعد يفصلنا سوى فرسخ واحد عن باريداو، عندما ظهر تُريغوزو. كان عائداً بعد أن استكشف الجهة الجنوبية، وكان صفحة بيضاء، لا يعلم شيئاً مما توصلنا به من معلومات. فلم يكن يعرف شيئاً عن هِرْموجينيس. لكنه ألحَّ على عرض تقريره. قال أموراً لا أهمية لها. قال. أيُّ حاجة كانت لديه في أن يجعل فكري يغلي، ويجعل الدَّم يتجمد في عروقي؟!

- أيها القائد، في سارز، وادي صغير على بعد ثلاثة فراسخ نحو الأسفل، صادفتُ راعي بقر فقال لي رسالة من هنا وهناك: مفادها أن رجلاً يدعى أبراو، رفقة فتاة ترتدي ملابس أنيقة... كانا يصلان على طول النهر، ويحملان متاعهما على متن البغال، تحت حراسة رفيقين...

قال. وكان ذلك هو الشيء الذي لم أتوقعه في حياتي بكاملها. أوتاسيليا! كيف يمكن لكل شيء أن يقع في هذا العالم، وكيف شعرتُ برغبة قوية في أن أستخلص من كلام المُستكشف كل معانيه. أكملتُ مع نفسي: السيد هاباو؟ يجب أن أعرف إن كان يجلب معه فتاة جميلة، أم يأتي محملاً بخبيرة أمل فقط... فقال تُريغوزو، وأكمل كلامه. كانت هي! أوتاسيليا. أوتاسيليا.

كان لا بد أن أسمع ذلك للمرة الثانية. كان تريغوزو يعرف أقل عن حقيقة الأمور. تخيلتُ، وتخيلتُ. أوتاسيليا - مجيئها إلى قلب السَّرتاؤ كي تلقاني وتراني مرة أخرى... لكنها ستجد غضبَ الحرب عند كلِّ جاغونسو هذا العالم، مندلعا في كل أرجاء الهضاب العليا. فوضى فظيعة، في كل مكان من حولها، بعيدًا عن بيت والدها، ومن دون أي ضمانات... أي حماية سيقدم لها السيد هاباؤ هذا، رفقة دينك الرفيقين المسكينين السيئين، في تلك الوضعية المؤسفة التي كانوا فيها؟ ابتلعتُ ريقًا مرًّا. كان رجالي يتحلَّقون من حولي، صمَّتْهم يفهمني، كأنهم على علم بالأمر. سألتُ مرة أخرى: من يدري، بما أنهم توقفوا هكذا عند ضفة النهر، إن لم يكن يجب عليهم أن يعودوا أدراجهما، ويتجها أيضًا نحو باريداؤ؟

- كلاً، أيها القائد. قال لي الراعي إنها يسيران من هناك إلى هنالك... يهربان من خطيرٍ إلى أخطر. وفي باريداؤ نفسها، لم يعد يقيم أحدٌ هناك. كل العائلات، والسكان هربوا، وتفرقوا، ما إن وصل الرعب إلى هناك... الخوف كبير جدًا...

ارتعشتُ بقوة أكبر. حان الوقت. بمُجرَّد أن سمعوا باريداؤ بشكل عابر حتى تفرَّق رجالي على الخيل راغبين في الذهاب إليها راكضين. فهمتُ، بل فهمتُ أكثر مما ينبغي، ثم مرَّرتُ يدي على وجهي. لا مجال لتردُّد القائد - كنتُ أعرف ذلك. ولكنني كنتُ هنا، أتحمل مسؤولية القيادة، وأوتاسيليا هنالك بحاجة إلى مساندي. والحرب التي يمكن أن تُستأنف في رمشة عين، بل وقبل ذلك بكثير. فماذا أفعل؟ إن للرجل أنواعا مختلفة من الشرف، تتضارب فيما بينها. في هذه الورطة، من دون وقت أمامي، هل يمكن أن أنخلي عن رجالي؟ كان لا بد أن أذهب. لكن، ليس من أجل ذلك في حد ذاته، كلاً. ولكن حبيتي أوتاسيليا كانت قادمة، في لحظة مخوفة بالمخاطر، من

أفزع كل اللحظات. كان بوسعي أن أطلب من الحب: - هل تمنحني الربيع؟ رأيتني مرعوبًا، مترددًا تمامًا - الحجارة السوداء في العشب، الحقول الممتدة. كل ما استطعتُ كان هو هذه الصَّلَاة المهددة: - أعطني فقط ما هو لي، وهو ما أريد وما أريد!... - قلتُ متوجهًا إلى الشيطان أو إلى الرَّب. سوف أذهب إلى هناك. ألم تكن أوتاسيليا هي خطيبي، التي يجب أن أدللها كما لو كانت زوجتي؟ مركزُ العالم.

حسنًا، قلتُ: سأذهب، رحلة ذهاب وإياب، دون انتظار. قفزة، كما يُقال. كان عندي ما يكفي من الوقت لأعود وأطلق نار الحرب. أثناء ذلك، يتابع الآخرون تقدمهم، ويلتحقون بباريداو. وكان الليلُ قد بدأ يحلُّ.

إلا أنه، أمام تلك المهمة، فكَّر الكثيرُ منهم في مرافقتي: بدعوى أنه، بوصفي القائد، لا يليق بي أن أرغب في الذهاب إلى تلك المهمة لوحدي. حرَّكتُ رأسي رافضًا. في الأخير، قبلت اثنين منهم: أَلاريي وكييس - رفقةٌ تكفيني. لم أكن أرغب في خلخلة كل شيء، وإضعاف صفوفنا بأخذ مزيد من الرجال. هكذا ينبغي أن تكون الأمور. أعطيتُ أوامري، وهمزتُ حصاني.

لكن، ولكن: وأنا أنطلق، توقفتُ على الفور. توقفتُ لأعيد ذيادوريم الذي كان يمشي ورائي - إيه، أنت، ماذا هناك؟ - قلتُ بنبرة لاذعة. كان ذيادوريم يريد أن يرافقتني، وكنت أشك في دوافعه. لم يُجِبني. قرأت في وجهه تعبيرًا غاضبًا، من الطريقة التي رمشت عيناه وهما تتطلعان إلى الأفق. - أنت لن تذهب إلى باريداو؟ هل تشعر بالخوف؟ - قلتُ له ساخرًا. كان ذيادوريم يُعقِّد عليَّ الأمور. شرارة الحقد في عينيه كانت بسبب أوتاسيليا... سمعني، فعزل حصانه جانبًا ولم يجِبني. نظرَ شاردًا إلى الأرض؛ محمَّرًا من الخجل. قدَّم لي هناك هديةً صداقةٍ - فرفضتها، رفضتها. بما أنني فقدتُ صوابي، فقد شعرت بحاجة ملحة لأكون خبيثًا، أكثر قسوة، بقسوة الجحود. كان هوسٌ

ذِيادوريمُ بأن يتصرف كما كان يفعل شيئًا يقوِّي عنادي - عُدْ من حيث أُتيتَ، يا أخي، أنا القائد! - قلتُ. فعَبَّرَ عن حُبِّ وبراءةِ لا حدودَ لهما، واكتفى بالقول:

- لقد كنت دائمًا قائدي، يا زيو بالدو، دائمًا...

ثم رأيتُ كيف - بيده الناعمة كالسلام، والحازمة مثل الحرب - كان يداعب قوس السَّرج. أجبته بإهانةٍ قبيحة. زجرتُ غاضبًا لأنَّ ذريعة ذِيادوريمُ كانت تُزعجني. ضغطتُ على الزِّمام. برَكُضٍ سريع، التحقَّتْ بكيبيس وألاريبي اللذين كانا ينتظراني بعيدًا. لم أكن أنظر ورائي - كي لا أرى إن كان ذِيادوريمُ يطيعني، تمامًا كما بقي هناك، جامدًا، إلى أن رأني أختفي. ظُلِم. ولكن واجب ذلك اليوم كان يسوقني. ولم أفكر في كل شيء، بينما كنتُ أسرع نحو أموري الخاصة، وقلبي يخفق. سوف تقول لي، ستقول لي: لماذا، في تلك اللحظة، افترقنا عن بعضنا أنا وذِيادوريمُ - تمامًا كما تفرق، في نفس الماء، ذرَّة ملح عن ذرَّة سكر... ذهبتُ ورغباتٌ مُتضاربة تُمزِّقني.

ركضنا ركضًا جهنميًا - نحن الثلاثة: كيبيس، ألاريبي وأنا - عشوائيًا تقريبًا، وكان ذلك ما يجب القيام به. رأيتُ الأمور مجددًا بكل برودة. لكن خطوات الركض الأولى كان صعبة عليَّ. كان ذهني شاردًا: - لقد جُنَّ ذِيادوريمُ - قلتُ. ولكنني سرعان ما تماكنت نفسي: لأن «ذِيادوريمُ» كان اسمًا سرًّا بيننا، خاصًّا بنا، لم يسمع به أحد آخر قط. تظاهر ألاريبي بأنه لم يفهم، واكتفى بالقول: إيه؟ - ولكن، هنا، كشفتُ السر، واعتبرت ما مضى قد ولى وفات، ولم يعد يهمني: ثم شرحتُ: - ذِيادوريمُ هو ريينالدو... لا ذَ ألاريبي بالصمت ليفهمني بشكل أفضل. لكن كيبيس طفق يضحك: ديدورين... كنيةٌ جميلة... - كان يتحدث كأنه ينطق اسم طائر من الطيور. غضبتُ. - إن ريينالدو شخص شجاع، أكثر الرجال شجاعة في السَّرتاؤ. جاغونسو رائع

جداً... - قلتُ بصوت عالٍ.. - جاغونسو رائع جداً - كرّرتُ. بكل احترام، أكّد أَلاريبيّ: - نعم، إنه جاغونسو رائع... لماذا لا يتدبّر أمره ليتحدث معي بطريقة أخرى مختلفة عن هذا التبجيل؟

كان الليل قد حلّ بظلامه الخالك، ولَمّا يظهر القمر بعد، فلم أستطع أن أرى وجهه لأُكوّن فكرة، فظَلَّت الكلمات التي نطقْتُ بها من دون مالِك.. - إنَّ أوتاسيليا هي خطيبي، يا أَلاريبيّ. هل تتذكّرها؟ وقبل أن تعمّ فترات صمت أخرى، أجبني: إنني أتذكّرها... تلك الفازيندا الكبيرة، هنالك... حتى أنه كان يزعجني إصرار أَلاريبيّ على أن يفتح الطريق أمامي، وحرصه على أن يزيح أوراق الأشجار وأغصانها كي يجعل مساري أكثر راحة. كنا نسير كعباً لكعب تقريباً. تخلّيت تماماً عن متابعة الحديث. ثم إن الظلام كان يغلق كل الأفواه.

أين كنْتُ ذاهباً؟ ولماذا؟ - كنْتُ أقوم بواجبي. ما كان لأوتاسيليا أن تختار بالضبط ظرفاً كهذا، غير مناسب تماماً، لتأتي وتخطّط برقّتها وسط رجالٍ مقاتلين، من دون حماية، وهي من عائلة محترمة... لم يكن أَلاريبيّ وكييس يغفلان لحظة واحدة عن الانتباه لكل شيء، من حولنا وعلى جانبنا - يتخيّلان أنه يمكن أن يبرز في أي لحظة من ظلام الليل عدوٌّ لا نتوقعه بتاتا - كي يوجه لنا ضربة، بما أننا كنا في وقت حرب. إلى أين كنّا ذاهبين؟ هل في الاتجاه المشار إليه، مباشرة نحو وادي سارز، أو نستمر، بعد الوصول إلى نهر باراكاتو، لنصعد نحو المتابع؟ وكان كل شيء يثير غضبي - بسبب ذلك الراعي الذي جاء يحمل رسالة. بل لم أكن متأكداً إن كان الأمر يتعلق بالسيد هاباو، إن كان يتعلق بأوتاسيليا...

كان نصف السماء بنجومه، العارية وسط السحب المنذرة بالمطر. وفي الغرب، كانت كوكبة الثريا على بعد ذراع واحدة: لا بدّ أن الساعة كانت

تشير إلى التاسعة. لحظتها، سمعنا ضجة كبيرة وسط الأغصان المتشابكة. بقينا واقفين، والبنادق في أيادينا. - إنه حيوان التأير... - قال كيبيس، بخبرته المتقظة. ربما يكون نمرا يرقب القمر. بسبب نصائح غير مناسبة، كانت أوتاسيليا عرضة لكل الأخطار. سلّمها السيد هاباؤ حجر الجمشت... - قلتُ. قلت ذلك بصوت عال؛ لم أكن أرغب في أن يردد ألابريي من بعدي مثل الصدى: - سلّمها الحجر... - بمعنى: أن الحجر كان من الياقوت الأصفر! فقط حين أحكي لك، يا سيدي، أخلط الأمور وأخطئ - هذا الارتباك. من يدري، ربما كان ذبادوريم يتألم خصوصا بسبب هذه الهدية من الحجر. ما كان ينبغي لأوتاسيليا أن تأتي. أنا... وهذا التيه! أين يمكننا الآن أن نجد مسافرا أو ذلك الراعي اللئيم، لنجبره على تقديم مزيد من التفاصيل؟ لا بدّ أن ذلك الراعي لا يملك مسكنا قارا. دائما يسير وراء قطيعه من أوروكويّا. كان الجميع يهربون من باريداؤ ومن كل مكان، يحملون حُزما على ظهورهم. وحين وجدنا نارا صغيرة في حقل، بعيدا بعض الشيء، فكّرتُ: لا بدّ أنهم أشخاص توقفوا هنا في العراء، في طريقهم نحو أي مكان. لم يكن أي شيء من هذا كله. فقط نارٌ صغيرة بلهيب أزرق، تتناثر مع الرّيح الخفيفة: نارٌ عجيبة، وهجُ المستنقعات. فقط ما كنتُ أفكر فيه هو ما لم نكن نجده. هل كنتُ مختلفا عن الآخرين؟ كنتُ كذلك. الدهشة - حين انتبهتُ لذلك! ألابريي وكيبيس، حتى صمتها الذي لا وجه له، لا بد أنه مختلف عن صمتي، بأقلّ ثقلٍ من الأفكار. من يدري؟ أعرفُ أنه لا بدّ أنها كانا يشعرا بطريقة مختلفة بمعانقة روائح الليل، ويسمعان بشكل مختلف كل آلاف الصراخ في الحقول. ولّد ذلك عداؤ في نفسي - لكنه كان يواسيني في الوقت ذاته - مزيجٌ. كما يحدث، ونحن نسافر على هذا الشكل، فينفخ حصانٌ بفمه فجأة، وهو يحرك الملامح الغامضة لرأسه الأبيض، فيثير الانتباه

إلى رائحة عرقه، التي تستمدُّ قيمتها من إلحاحها، وصبرها المسؤول... هل كانت تلك الليلة أقوى من قراري؟ إنَّ عرفتُ ذلك، فلم أعد أعرف الآن. ليلٌ استقرَّ في ذاتي، من الهدوء إلى ندى الصباح.

ومرة أخرى، رأيتُ الفجرَ ينبثقُ، حين توقفنا لنستريح قرب جدولٍ لا اسم له. الشروق: إنه الشمس البارزة - والطيور الصغيرة المدهشة. فوق رؤوسنا، اصطبغت الشمس بعدة ألوان. وحينئذ استعدتُ ذكريات عديدة من ذكريات الكسل، كما في حياتي السابقة. ما كان ينقصنا هو القهوة؛ بيد أننا أكلنا فاروفا، وشربنا جرعة ماء. اقتطف كييس تفاحة برّية طازجة، وكان مهووسًا بالعثور على الفواكه في الأشجار والآجام. جمع الأريبي قطع خشب وأشعل نارا؛ فقط من أجل الدفء والعادة، بما أنه لم يكن لدينا من طعام نسخنه ولا من أكل نطبخه. فكّرتُ كيف سوف يغرد قريبًا طائرٌ ماهرٌ فينادي على طيور أخرى وأخرى، لتشكل جوقة، تشبه العمل. كنتُ أغبط الطيور وأنا أفكر كيف يكون العش الذي تبنيه - بحركات صغيرة ودقيقة، لكنها مصممة وفق أفعال وغايات. ففكّرتُ حينها: أن ماء ذلك الجدول، كان هناك على الدوام، بين نباتات كتل الأعشاب ونباتات الساسافرا، وأشجار البوريتي المتوجة مع الريح - وأنه كان من الضروري أن أكون أنا هناك، في ذلك اليوم، وفي ذلك اليوم فقط، كي أجدها: هذا، لماذا؟ آه، حماقة... كنتُ متعبا، وألمٌ في وركي.

لطرِد السَّام، ثرثرتُ. - في نظرك، يا الأريبي، أي اسم ينبغي أن يحمله هذا الجدول، وأي تسمية يستحق؟ - كان الأريبي يقرص على بعد خطوتين مني، فتوقف عن النفخ على النار والتفت نحوي: - لا بد أن له اسم، إلا أننا لا نعرفه. يكفي أن نسأل واحداً من سُكَّان المكان... - أجنبي بشكل أفضل. لكنني أجبتُ أنه لا حاجة لذلك. حفرتُ موقعا في الأرض لأغفو قليلاً.

على أي حال، كان لا بدَّ أن نتوقف هنا لبعض الوقت كي تستريح الخيول.
نظرًا لليوم الشاق الذي ينتظرها، كانت الحيوانات بحاجة للراحة والأكل؛
والخيول لا يهمها أن تنام، أتعرف: إنها دواب يكفيها أن تأكل، وتأكل،
وتأكل. غفوت. نمتُ نومًا عميقًا لأكثر من ساعتين.

لماذا أحكي لك كل شيء، وأسرد عليك كل هذه المقاطع، يا سيدي؟
آه، عندما استيقظتُ، تذكرُ ما سيأتي. استيقظتُ متألمًا وفي حالة سيئة. مرارةٌ
في فمي. لا بدَّ أنه كان بي مغص. كل هذه الآلام، بل وتعب آخر. كما لو أنَّ
استراحة تلك الساعتين لم تفدني في شيء. هكذا: ما كنتُ أشعر بأي ثقة،
ولكن الشكوك داهمتني، ولم أعد أعرف ما أفعل. استيقظتُ على ضجيج
صوتيَّ الأريبيِّ وكييس، وقد كانا مستعدَّين في انتظاري، وهما يتبادلان
كلامًا عاديًا عن أمور لا قيمة لها. بعد ذلك، أخرج الأريبيُّ من كيسه قنينة
كاشاسا، وقدمها لي لأشرب أول جرعة. كانت قنينة متوسطة الحجم،
صافية، تشبه قارورة دواء. شربت بارتياح. لكنه كان، رغم ذلك، ارتياحًا
حزينًا بعض الشيء، فلم أصدق: رغبتُ في تأمل بعض المفاهيم: - ما رأيك
فيما تُفكرُ فيه، يا الأريبيُّ؟ لم يفهم: راح يتكلم عن باريداو، عن سيريري
فيليو، وعن هزموجينيس. قاطعته: لا، ليس هذا؛ ولكن ما رأيك في الحياة،
وكيف تسير، باختصار؟ - حسنًا، عن هذا... ما أدراي أنا، يا رجل؟ بالنظر
إلى كل ما رأيتُ وشاهدتُ، عمومًا، استنزفتُ قدرتي على فهم أي شيء كيفما
كان... ثم تحدّث، وتحدّث. لكنني ألححتُ: - ألا نفهم الهدف من الحياة،
هكذا فقط يمكن أن نكون جاغونسو حقيقيين... كان الأريبيُّ يتأهّب
ليقطع سعفَ نخلة بوريتي يابسة، فتوقّف. نظرَ إلي، وقال: إنَّ كان الأمر
يتعلّق بالفهم فقط، فأنا أفهم الأشياء والناس... أجابني، وأحسن القول.
فهل كان يفهمني أنا؟ فكرةٌ حمقاء خطرت لي. سوف أجلس هناك في دائرة

رفقةً ألابريي وكيبيس لأحكي لهما حياتي بكل تفاصيلها، كل فكرة حمقاء من أفكارى وأحاسيسي، كل حدث غير معروف: رياح ومساءات. سوف أسرد كل شيء وعليهما أن يكونا متبهين ويصغيا جيدًا. وبعدها، أحمل البندقية في يدي، وأفرض عليهما، أجبرهما على الإدلاء بالحكم... جيدًا كان أم سيئًا، لا يهم، لأنه سيكون حكمًا عليّ. هكذا. سأكون حينئذ ما أكون، سأتوسل شفاعةً جديدةً لحياتي - في الضفة الأخرى من سلم آخر...

فكرت في ذلك، كدت أقوله. استمرّ ذلك زمنَ فاصلةٍ في الهواء. هل كان ينبغي لي؟ آه، كلاً، يا سيدي العزيز. مرّت لحظةٌ وكانت كافية؛ كي تُخرجني من هناك. دوارٌ، جنون ذهني... استعدتُ رباطة جأشي، ثم فكرتُ بشكل أفضل. أوه! يا إلهي، هل كنتُ غيبًا - بغلاً بأذنين طويلتين؟ هناك، كنتُ أنا القائد، وكنتُ هناك لأقود وأحكم. والمحاکمات، كنتُ أنا من يتعين عليه أن يقوم بها. لذلك قلتُ:

- اذهبا معاً لوحدكما. ابحثا عن ضفاف النهر. أنا لا أستطيع أن أستمّر بسبب واجبي. سأعود فوراً إلى باريداو...

تدخل ألابريي مرة أخرى: - ونحن أيضاً - ربما يحتاجون إلينا هناك... لكنني حسمتُ الأمر. بما أنني لا أستطيع أن أذهب شخصياً، فقد أرسلتهما على الأقل. ليذهبا، وينطلقا في الحال. كان من الضروري أن يجدا حبيبتَي أوتاسيليا، ويضمنا لها حماية جيدة. امتطينا الخيول نحن الثلاثة. انتظرتُ أن ينطلقا.

أذكر أنه حتّى لحظة تبادل التحية والانطلاق، كان ألابريي متردّداً، وأشار مرة أخرى إلى خط الغابة، وراء الجدول، وهو يرى: - يبدو لي أنني أرى فارساً يمرّ وراء الأشجار... لم يكن ذلك صحيحاً. لم يكن ذلك صحيحاً،

لأن كييس لم ير أي شيء، ما قاله، إنه لم ير شيئاً. وكان كييس يتمتع ببصر حادّ مثل الصقر. هنالك، قلتُ مع نفسي: هل بدأ الأريبي يهرم؟ صديقي - والغريب عني. فكّرتُ كذلك، بل أتذكّر ذلك.

عدتُ أدراجي، بينما كانا معاً ينطلقان في الاتجاه المعاكس. الآن، كنتُ مختلفاً، وهذه الأسباب: كنتُ أرتعش تحت تأثير حماس الحرب. نحيّتُ القلق جانباً، تماماً كما فعلتُ قبل لحظات وأنا أنساق وراء الإحباط؛ آه، كم نترك بسرعة طبيعة هذه الحالات. لكنني امتلكتُ فرحي أكثر فأكثر. من أجل مصير آخر. سوف تحظى أوتاسيليا بحراسة جيدة. وحينئذ، للمرة الأولى، أخذتُ أفكر بكل حرّية في ذيادوريم، مع شيء من الخشية. الطريقة التي تذكّرته بها: ذيادوريم، تحت المطر، في سيريري فيليو - هو نفسه، كما هو دائماً، كما كان من قبل في برد الشتاء القارس. ماء المطر يسقط نقطا، يومض وهو يلحس بجداوله الصغيرة التي تنزل عبر معطفه الجلدي. وحيداً منعزلاً، كنتُ أشعر فقط بهذه الأحاسيس. هل كان السّرّتاو يهتزُّ؟

تقدّمتُ إلى الأمام. في هذا الرّكض، كان لخصاني عشر قوائم. ثم وصلتُ إلى باريداو، مع آخر أشعة الغروب الجميل.

كان ذيادوريم في انتظاري على أحرّ من الجمر، أكثر من أي وقت مضى. رأيتُ مرة أخرى الفرح في وجهه.

باريداو، سجّل هذا، يا سيدي. كما تُخلّق ذبابة زرقاء في المكان الذي ذبحنا فيه ثوراً. كان كل شيء هادئاً، على ما يرام. ذيادوريم - بقبعته المرتفعة التي تمنحه هالة. كان كل شيء فيه يشي بثقة تامة: رأسه المرفوع، فمه المقوس، الابتسامة في عينيه، خصره النحيف؛ بل حتى حزام الخراطيش حول صدره. كان الآخرون منشغلين بأسلحتهم، وأصابعهم تجري متحسسة مداعبة. تحدثتُ مع كل واحد منهم. ها قد جاءت الحرب - بما أنهم كانوا يريدون

الحرب. حتى الفلاحون البسطاء: بوجوه شيطانية؛ وأقبح ما في الشيطان الأنف والشفيتين...

راقبتُ الحرَّاس. ذهبتُ لأرى أين وضعوا المرأة - أغلقوا عليها في غرفة، داخل بيت من طابقين. لتبقى محجوزة هناك، تحت حراسة مشددة. كان البيت في منتصف الشارع تقريبًا. لكن، بالنسبة لرجالٍ في حربٍ، ما أهمية قرية كاملة مقفرة؟ قرَّرتُ: أن أترك في المكان فقط عددًا قليلًا، للقيام بالحراسة. أما الآخرون، فأخذتهم جميعًا، على بعد مسافة مئة ذراع تقريبًا، ليتخذوا مواقعهم في مكان كان يظهر لنا في الأعلى، ولا بدَّ أنه كان هو نقطة الولوج، مهما كانت الوجهة التي نأتي منها؛ مكان مناسب جدًا للصمود والمقاومة. قمنا باستعدادات جيدة. أممي نفسها، لو عاشت ورأت، ما كانت ستلومني عن أي تفريطٍ من جانبي.

هكذا كنتُ أقدر رجالي - متحمسين، هادئين - رجالي من الجاغونُسو. كانوا الآن يُنظَّمون العالمَ بطريقة مختلفة. كان كل واحد يحصي ذخيرته، ويتفقد البندقية والسلاح. كانت الحرب شأن الجميع. كان عليَّ أن أتمتع بشعور ألا أكون السَّيد أكثر من اللازم، فأمرُ بكل صغيرة وكبيرة: لأنَّ كل واحد كانت له حساسية ليغضب أو يشعر بالإهانة، بوصفه جاغونُسو على دراية بشرف مهنته. فمن خلال تصرفاتهم كان بوسعي أن أعرف ذاتي، وأؤكد إن كنتُ على الطريق الصحيح، إن كنتُ أنا هو القائد. بطريقة لطيفة، قد أقول لأحدهم: - إيه، أنت، كن حذرًا؛ هنا جيد: لكن، ألا يكون أفضل هنالك؟ - فأسمعه يجيبني لا ويشرح لماذا، لا، ولماذا ليس أحسن هناك. تساءلتُ مع نفسي إن لم يكونوا قد تدربوا على مزيد من الغضب. فالغضبُ يُكمِّم فضاء الخوف، تمامًا كما يأتي الخوف من الغضب. لا حظتُ شيئًا: كيف أن لا أحد منهم كان ينطق باسم هُرموجينيس. وحسنًا كانوا يفعلون - لأن

العدو، لا نذكره عشية المعركة. بالكاد كان أحدهم يقول: - ليس هو الحبل: إنه الحلقة... - أو آخر: - إنه يُصيب بالجنون. لكن الآخرين لا يقومون بأي تعليق. وهو ما أَسْرَنِي. لكن ما أثار قلقي هو أن واحداً منهم فقط أضاف على هواه: - لقد عقد ميثاقاً...

آه، ماذا لو أنه قام بذلك فعلاً؟ لم يكن ذكره يعني الاستفادة من أي امتياز. أليس الشيطان ملكاً للجميع؟! همس لي قلبي بذلك: لا بد أن أظفر بالنصر... مهما حصل، لن يخرج هِرْموجينيس حياً من هناك، لأنني التزمتُ بذلك وأنا منكبٌ على الوصية. هل كنتُ أحقد عليه؟ حقد كبير. إلا أنني لم أكن أعرف لماذا. أعتقد أنني كنتُ أستمّد حقدِي من حقد آخر، كأنني أرى مرة أخرى ما سيأتي، كما نفعل حين نخيطُ بالعكس. هكذا، فإن عصارة حياتي، منذ أن كنتُ طفلاً صغيراً، كانت تتمثل في أن أقضي نهائياً على هِرْموجينيس - في هذا المكان، وفي هذا اليوم. قمتُ بجهد كي أستعيد ملاحمه، وكانت الرؤية التي تخيلتها رجلاً من دون وجه. رجل داكن، لا يملك وجهًا، كما لو أنني قد سحقت هذا الفراغ، تحت قوة الرصاص... رؤيةٌ أثارت الغثيان في نفسي. لم أكن خائفاً. ما كنت أشعر به هو التعب من الأمل.

كما كنتُ أرغب في أن ينتهي كل شيء نهاية معقولة، حتى أستطيع أن أتخلّى عن حياة الجاغونسو. في هذه اللحظة، لا بدّ أن حبيبتِي أوتاسيليا، بفضل الرّب، قد توقفت، تحت حماية جيدة، على مسافة بعيدة من هنا. ما إن ينتهي كل شيء، حتى أهبّ إلى هناك، وألتقي بها، ثم أقودها. وهناك كنتُ أزدري مهنة الجاغونسو، واحتيال القيادة. هل أعرف من هو القائد؟ فقط زناد السلاح الناري وعقارب الساعة. الشيء المنطقي الوحيد أن أخرج من وسط السّرّتاو وأذهب لأستقرّ في إحدى الفازيندات، بالقرب من مدينة من المدن. ما فكرتُ فيه: ... نهرٌ أوروكونيًا هو نهري - لا يتوقف عن التهديد

بالهروب من السَّرْتَاو من حين لآخر، لكنه ينعطف ويسقط من جديد في نهر
 ساو فرانسيسكو. في هذه الساعة، لا بد أن الأريبي وكيبس قد جدا حبيتي
 أوتاسيليا، بعيدًا جدًا، عند عالية نهر باراكاتو: وكان ذلك يشبه ابتكارًا،
 بأنني بنفسني كنتُ في الطريق أيضًا، في ذلك الصباح بالذات، أسير بخطى
 حثيثة. أحجية. هل أعرف السَّرْتَاو الكبير؟ من يعرف السَّرْتَاو هي النسور
 والصقور، والبوم، والطيور: إنها دائمًا هناك في الأعلى، تتحسّس الأجواء
 بأرجلها المعلقة، وبنظراتها التي تعيد قياس الفرح وكل أشكال البؤس...
 إلى أمور كهذه وإلى أمور أخرى أشد قسوة كان فكري يعود، منقسماً،
 وسط انشغالاتي الحقيقية. أما عن الواجبات، فقد كان كل شيء جاهزاً -
 باستثناء الانتظار الذي كان يُنهك ويعيد الطبخ من جديد. صار الليل ساخناً
 بما يكفي. وهناك أيضًا، لم نعد نشعل النيران التي تدل على مواقعنا. لكن
 الريف كان يعجُّ بالديدان المتوهجة. تخلق الرّجال في مجموعات صغيرة،
 يتحدثون وهو يجلسون القرفصاء. ما أصبح الآن أمرًا عاديًا هو أنهم صاروا
 يتهكّمون من بعضهم البعض، ويتحدّون أقلّهم شجاعةً أو من كانت
 شجاعتهم موضع شك. وكان ذلك ينشر بينهم ثقة إضافية، بينما كنتُ أنصتُ
 بما يتراشقون به من حماقات: - إيه أيها السلطعون الصغير، هل ستمضي إلى
 حال سبيلك من دون كاشاسا؟ - إيه أنت؟ هيا، اذهب لتلقي التحية على
 القطيع! - ومن طريقة تسليتهم، ضحكهم واستمتاعهم، كنتُ أدرك يقينهم
 الراسخ. وقريبًا، سيكون أمرًا خطيرًا الدُّنو من أي واحد منهم، كما يكون
 الاقتراب من ضفدع يعطس. - لقد قلتُ لك: اربط الحمار، لأن الحمولة لك
 - معي أنا، لا خوف على الحمولة... سيئة كان أم جيدة، ما أريد أن أراه سوف
 أراه... - هكذا كانوا يمزحون فيما بينهم. بإلقاء كلمات، كأنهم يمارسون لعبة
 الورق، لكن من دون أوراق. لماذا كان يسرُّني كل هذا؟ وكان ذبادوريم يقف

صامتا بالقرب مني، لكنني أكاد أشعر بحُضوره كلما التقت أفكارنا. مثل حبِّ في الظلام، مثل حنانٍ متسكِّع. ... ستكون نيرانا جهنمية! وسأرى من هو أكثر طفولة من جيريببي... - إن كنت لا تعرفُ ذلك، سوف تعرفه، لأنَّ سمعتي صنعتها من قبل... - جيريببي؟ حسنًا، هذا يتوسَّل صدقة من المَلِك... - وكانوا يرددون كثيرًا من هذه النكات. لقد صاروا الآن مستأنسين بوقت المكان، ومستعدين لأي طارئ. تمامًا كما يفعل القطيع؛ يصل إلى مرجٍ جديد، فيشتُم كلَّ شيء ويستكشف المكان، لكنه سرعان ما يقبل كل شيء ويبدأ في الرَّعي. الآن نعم، الآن أصبح رجالي جاهزين للقتال. والأفضل هو ألا يذهبوا إلى النوم، قبل أن يغلبهم النوم الكبير، حتى يتحاشوا أرق شخصٍ وحيد يقع ضحية الخوف من موت محتمل. هل كنتُ أشفق عليهم؟ لو قلت ذلك، قد تضحك مني صراحة، يا سيدي. لا أحد أصبح جاغونسو مجبرًا على ذلك. إن رجال السَّرَتاو، اسمع وانظر: السَّرَتاو انتظارًا هائلًا.

وفي لحظةٍ ما، سألتُ ذيادوريم: - والمرأة، هل قالت شيئًا؟ - لم أكن أعرف لماذا كنتُ أطرح ذلك السؤال. ليس أي شيء مما تقوله المرأة كان يهمني. ما كنتُ أحاول أن أعرف - هل نطقت بأي نبوءة غيبية؟ قال ذيادوريم: - لا. لكن لا بد أنه كان يجترُّها جسًا آخرَ يتعلَّق بموضوع مختلف. كنتُ أعرف جيدًا ما هو: ما كان دوما يفكر فيه - وما كان يتخيله بخصوص أوتاسيليا. بعد أن أطلَّ صمًّا كاملاً، قال: - وألاريبي وكيبس، أين بقيا؟ - غيرُة ذيادوريم، هذه المرة، لا أعرف لماذا، ولكنها لم تمنحني مزيدًا من المتعة. فرسمتُ، غير مهتم، نصفَ جوابٍ: - هنالك - قلتُ. وهناك كان الليل الكبير، وكنتُ أشير إليه بشَفَتي. كانت الديدان المتوهَّجة تلمع بالآلاف. لكن السماء كانت متلبدة بالغيوم، داكنة. فكَّرتُ. شبه نادم على ما قلتُ لتوه، غيَّرتُ الموضوع: وبقدر كبير من المهارة، عاكسني ذيادوريم وهو يهمل الرد

عليّ. أثار ذلك حفيظتي. لكن، شيئاً فشيئاً، سرعان ما تبخّر ذلك الغضب وصار متعة مقبولة. تركتني أنساق. أقول لك، يا سيدي: إن كنت قبلتُ، دون خجل، فإنّ ذلك قد كان بسبب الوقت - قليل جداً من الوقت، لا يسمح بأي شيء، والحرب وشيكة. فوجدتني متحرراً. هل تركتُ جسدي - روعي يرغب في ذيادوريم؟ كنتُ أتذكر عطره. حتى هكذا، في الظلام، كنتُ أعرف رقّة ملامحه، التي لم أكن أستطيع تمييزها، ولكني كنتُ أتذكرها، أستعيدها على هوى خيالي. ذيادوريم - وهو محارب باسل - كان يجلب كثيراً من الحنان: كانت رغبتني المفاجئة أن أقبلَ ذلك العطر، هناك، في عنقه، حيث تذوب وتهدأ قساوة الذّقن، والوجه... الجميل، ما هو؟ أقسم لي عن ذلك، يا سيدي! الجمال، شكل وجه شخص ما: والذي يمكن أن يكون قانوناً للآخر، شيئاً يقرّره القدر... وكان عليّ أن أحبّ ذيادوريم كالمواطن، وأن أخرسَ أيّ كلام. لو كان امرأة، مهما كانت متعجرفة متعالية، كنتُ سأتشجع: أقول عشقي، وعند الفعل آخذها، أدللها: أضمها إلى حضني. ولكن، كيف يمكن لمحاربتين أن يكشفوا عن حبّهما، حتى من خلال حديث بسيط - وهما مدججان بكل تلك الأسلحة والجرأة؟ من الأحسن أن يقتل الواحد من الآخر، أثناء القتال. وكل شيء مستحيل. مستحيل بشكل قوي وعنيف لدرجة أنني نسيْتُ أن آخذ حذري فقلتُ: - لو كان الوقت نهارة وضاحاً، لاستطعتُ أن أرى لون عينيك... - قلت ذلك وأنا تائه في هذا النسيان، تماماً كما لو أننا نفكر فقط، كما لو أننا نقول بيتَ شعر. تراجع ذيادوريم مفزوعاً - إنك لا تتحدث بجدّ، يا سيدي! - قاطعني قائلاً في غضب. توجه إليّ قائلاً: - سيدي - وقال لي: - سيدي. ضحك بخُبث. برعشة، عدتُ إلى ذاتي، غاضباً من زلتني. - لا تغضب، يا أخي. أعرف أنّك شجاع... - غيرتُ الحديث، وأنا أعطي لما قلتُ من قبل معنى آخر، كأنني

كنتُ أمزح فقط. ثم نهضتُ ودعوته ليمشي معي بضع خطوات. كنتُ بحاجة لشيء من الهواء. فرافقني ذبادوريم.

كانت ليلةً من أعماق الأعماق. كانت تهبُّ ريحٌ غريبة عن الموسم، ريحٌ تارة تأتي من الجنوب، ثم سرعان ما تأتي من الشمال، كما ندرك ذلك حين نشعل عودَ ثقابٍ، أو نرمي في الهواء بحفنةٍ رمْلِ صافية. مشينا. لكنني كنتُ قد غيّرتُ إحساسي، الذي لم يعد الآن سوى صداقة، صداقة نحو ذبادوريم، حقيقة-ملكيّة، قويّة وواثقة، بل أكثر من مجرد صداقة. ذلك التعاطف بداخلي، الذي كان يسمو بي. لدرجة أنني كنتُ أستطيع أن أقول له بكل صراحة كل ما كنتُ أتمنى له من خير، وما أكنّ له من تقدير دائم.

لم أقل ذلك. والسبب الذي جعلني لا أقول شيئاً كان هو خطر الظروف: وجدتُ أن حديثاً عاطفياً كهذا، عشية حربٍ، يمكن أن يكون نذير شؤم. ذبادوريم، فيمَ كان يفكر؟ هذا ما لم أعرفه، ما لا أعرفه، وهو السؤال الذي ما زلتُ أطرحه وأنا على مشارف الموت... الأكيد هو أننا تحدثنا فقط عن أمور غير ذات أهمية، دون استعجال. إلى أن تحوّلت الريحُ؛ غيّرت اتجاهها تماماً، ولم تعد تهبّ سوى من الشمال، كما استشعرتُ ذلك من خدي حيث كان وقعها أشدّ وأقوى، مُنعشاً. هبَّ السُّرْتَاوُ بريحٍ صاخبة. فأدركنا على الفور أن مطراً غزيراً يمكن أن يهطل، وكان لا بد أن نعود كي نذهب وننام في مأمن داخل بيوت القرية، ولا نترك سوى حفنة قليلة من الرجال، هناك في الأعلى، فوق التل. هذا ما كان علينا أن نفعل، لكنّ ذلك أزعجني كثيراً وأتعبني، أكثر من المغامرات الأخرى. هل تذكرُ، يا سيدي، الليلة السابقة التي قضيتها أسافر عبر مسار كل النجوم، وقمت بذلك حتى في جزء كبير من النهار، عدا عن غفوة خفيفة عند أولى ساعات الفجر. ما إن لمحتُ سريراً في المخيم، حتى انهرتُ. أوصيتهم: ألا ينادوا عليّ، مهما كانت السّاعة إلّا في

حالة الطوارئ. نمتُ كجثة. تلك الليلة كانت هي التي نمتُ فيها: بوصفي القائد الشعبان الأبيض، أو بتعبير آخر - الجاغونسو زيو بالْدو...

كنتُ آخر من استيقظ. كانت الشمس تغمر المكان بنورها. استنتجت: لا بدّ أن النهار سيبقى جميلاً. كانت الحرارة تشتدّ، فتُجفّف بسرعة الأرض، بعض برك الوحل، والأشجار التي كانت تقطُر ماءً - لأن الرذاذ ظلّ يسقط طوال الليل. شربتُ قهوتي، أكلتُ قطعة لحم دهني ملفوفة في الطحين، ثم مضغت شيئاً من السُّكر البُنّي. لا حظتُ أنّ رجالي كانوا يتحدثون بنفس الاستعداد، متحمّسين كما يوم البارحة. عدنا إلى المكان المشار إليه كي ننتظر، وبحثّ كلّ واحد عن مكان يتحصّن فيه. جاء كافالكانتي قادماً من سيريري فيليو، حاملاً رسالة: لا جديد. أجبتُ على الرسالة القادمة من سيريري فيليو: لا جديد عندي أنا أيضاً. وهو ما كان شيئاً إيجابياً، وكان يؤكده أيضاً المراقبون المنتشرون في النواحي. بل إنه، مهما حرصت على أن أظّل حذراً، كان اليوم يومَ سَلَمٍ. لا حظ الجميع ذلك. كان سِلْمًا صارخاً. أَلَنْ يأتوا؟ - قال أحدهم لا عنّا، وهو يتكئ على بندقيته. تساءلتُ بدوري. ألا أراه يأتي - وأن أضطر إلى تأجيل النهاية، إعادة البداية، وأن أكون مجبراً على أن أجوب العالم في مطاردة دون جدوى، أصابني هذا الأمر بالكآبة في النهاية. آه، لا! - قلتُ مرة أخرى. لا يمكن لأيّ رجل أن يترك هكذا زوجته سجيناً بين يدي العدو، ويصرّ على ألا يهاجم. أما عن قدومه، فهو آتٍ لا محالة، عاجلاً أم آجلاً. كانوا كلهم ينتظرون. وأنا أيضاً لم أترك السلاح، حين نزلت لحظة إلى النهر كي أستحمّ. وكان النهر قريباً جداً. ومن هناك لم تكن تفوتني ولا حركة واحدة من حركات رجالي.

نذير شؤم؟ إن كانوا قد غابوا عن ناظري فإنهم لم يغيبوا عن عيوني، بل عن ذهني. مسألة تخلصي من السلاح ومن الخراطيش، وما استغرق من

وقت كي أخلع ملابسي وأغمس معصمي، وأستعدّ لألج الماء على راحتي - كانت حركات تعكس الحالة التي كنتُ عليها، وأنا مرتاح مطمئن. كنتُ على يقين أنَّ ساعات طوال من السَّلام كانت تنتظرني. هل الشيطان هو من قال لي ذلك؟ قال ذلك؛ لكن هذه الطريقة: طلاقات نارية!

كم كانت صدمتي كبيرة - كأنه رعدٌ يهدر. ومن كل جانب تعالت الصيحات.

صيحاتٌ، طلاقاتٌ نارية. أي شيء سمعت أولاً في حقيقة الأمر؟ أولاً، بقفزة مجنونة، وقفتُ على رجلي، وأمسكتُ ملابسي، وسلاحي بسرعة كبيرة. ثم رأيت عالماً شبحياً. رجالي - يصيحون، ينادون على بعضهم البعض، يفرغون شحناتهم، وينزلون أيضاً من الأعلى، كأنهم أسرابٌ نحلٍ متوحش. لكن، لماذا؟ - لم أفهم؛ ثم فهمتُ من جديد، وبسرعة كبيرة جداً: برز العدوُّ للتو، بشكل مفاجئ تماماً، من الجهة الأخرى، في المكان الذي لم يكن من المفترض أن يأتي منه، من حيث لا نستطيع أن نتصور أننا قد ننتظر وصوله. كانوا بأعداد هائلة. وكانوا يتقدمون بفضاظة، وقسوة، كأنهم يسيطرون على باريداو، وعلى البيوت في أقصى القرية. أُصبتُ بالرُّعب. لأنه تحت ضغط غيابي، كان ينهارُ جزء كبير من العالم. كل شيء مختلف عمّا خُطِّطَ له. وأنا أعرف ما هو الدهول: كنتُ قد جمعتُ سروالي وقميصي، وعلقتُ هناك، ارتدي ملابسي من جديد، أُقيِّم الوضع بقلبٍ يخفق بُطءٍ: لا أصلُ في الوقت... لا فائدة من هذا... أنا لا أصلُ في الوقت أبداً...

من يدري كم استغرق ذلك من وقتٍ؟ ثم رأيتُ رجالي يتقدمون بدورهم بشجاعة وسرعة من الطرف الآخر، ليحولوا دون سقوط القرية في يد العدو... لأنَّ باريداو كانت شارعاً واحداً فقط؛ وهذا الشارع صار ممراً للرصاص - مثل ماسورة بندقيّة. ورغم أنني كنتُ أرى ذلك بذهول

مندهش، كنتُ أفكر بصعوبة: أنني كنتُ غيبًا، حارًا، بليدًا ألف مرة، لأن فرصتي قد ضاعت الآن بشكل لا رجعة فيه، وأن الحرب كانت تخرج عن سيطرتي... انتهيتُ من ارتداء ملابسي، وكنتُ أسمع أصواتًا: - لا تذهب إلى هناك، هل جنتت؟ لا جدوى من ذلك... لا تذهب ودعهم يحلّون ذلك فيما بينهم، لأنهم بدأوا بشكل خاطئ ومختلف، من دون أي إتقان، لم يعد لك أي شأن بذلك، بما أنهم أفسدوا عليك حربك... هذا ما كنتُ أسمعُ، همسًا خفيًا جدًّا، همسًا رقيقًا وودّيًا يكذب عليّ. خوفي؟ كلاً، آه، كلاً. لكن شُعري كان ينتصب في جسدي بكامله. تلك الفظاعة الناتجة عن عذوبة ذلك الصوت. فأحسست بجسدي شاسعاً. نَعَتُ نفسي بكلّ النعوت. كان شخصٌ يجري قادمًا، فكدتُ أن أطلق عليه النار. هل كان هاربًا من صفوف العدو؟ آه، كلاً، كان سيدورينو، وهو يسرع ليأخذ حصانًا. آه - ليت كل هذا يمر بخير! - سوف يعود إلى سيريري فيليو، ينادي، يطلب تعزيزًا، من أجل حمايتنا من الخلف. ثم حضنتُ بندقيتي، وانطلقتُ، انطلقتُ. لم أعرف أي شكل من الخوف. حيًّا، على قيد الحياة، التحقّت بالرفاق. رجالي - أعطيت أوامر. ولعلّ صوت الرصاصُ.

كانت نيرانًا مستعرة. دمارٌ يظهر من حيث لم نكن ننظر؛ مثل جندي شرس؛ يظهر كأنه شمسٌ صاعدة! كان الرصاص يتحطّم، وينشطر قطعًا. كان بوسعه أن يقتلع قشور أشجار غابة بكاملها... وامتلأت الأجواء تبتهج! آه، رجالي الجاغونسو - المنبطحين - كانوا يحفرون خندقًا في الأرض وفي كل مكان. يعرفون كيف يقاتلون، يعرفون ذلك من تلقاء أنفسهم، كما لو أنهم عرفوا ذلك على الدوام، من قلب أمهاتهم وآبائهم. لم تكن الصيحات غير زئير وعويل. ثم وصلتُ واتخذت موقعًا. هل كان لا بد أن أرى - وأقود؟ صحتُ: بحقّ جراح المسيح!... - فزاد رجالي في صياحهم. البندقية في اليد،

شيء فعال. ومن وراء البيوت. كنا نسيطر على مدخل الشارع. هل هذا أمر يقرأ؟ هذا يُكتب! وآلة الكتابة هناك كانت هي طلقات النار. في لحظة معينة، مرّ قريباً جداً مجتمعين: خمسة منهم، خمس أصابع، خمس أيادٍ. كان يجب أن يحفروا، وأن يشقوا ثقباً في الأرض. الرأس هي التي تدور يميناً وشمالاً، حتى في المخبأ، كأنها تريد أن تنحرف. لكن لا أحد يخشى الإنهاك. كنت أقول: أوغاد! - ثم أضع الرصاص في مُلقم البندقية. - حذار! - لم أكن أريد أن يغفل ذبادوريم فيتعرّض للخطر... قال ذبادوريم: - خذ حذرك، يا ريو بالدو... - تطاير شعر ذبادوريم جيلاً فوق جبينه، كان وجهه يبدأ من عينيه. هل كنت أقود؟ من يقود يقوم بذلك في اليوم بذاته، ولا يفعل ذلك يوم الأمس. كنت الثعبان الأبيض، ولكنه كان يتعين عليّ أن أكون الرامي الماهر، تاتارانا، الذي لم يكن يخطئ الهدف قط. الخوف، لم يعرفني، لحسن الحظ. بندقيتي. من صوّب نحوي وصوّبت نحوه، ثم نجا: معجزة؛ وألاً أكون في عداد الموتى: معجزة. موت كل واحد أمر محسوم سلفاً. يوم حظي. ما أقول وأنفي؛ اسمع جيداً، يا سيدي. لكن العدو كان يعيث في الأرض فساداً - وعمّت طلقات النار.

كان كل شيء هناك لعنة؛ بذوراً للقتل. من كثرة سماع الرصاص يلعلع بالقرب من شعورنا - التي تنتصب تلقائياً - أحسنا بألم في الأعصاب، في النهاية، ألم حقيقي، كأنها اخترق بعض الرصاص محاجر أعيننا حتى العمق، ذلك النوع من الألم الذي يثقب سقف الفم ويبلغ العظام، حاداً، كما يحدث أحياناً عندما نتناول بوظة... بل كان ذلك هو وجه الموت نفسه. - أفافي! مارسيلينو بامبا، هو بالذات. لم ينظر إلى أي أحد. انحنى بجسده الذي كاد ينشطر نصفين؛ ثم اصطدم جبينه بالأرض؛ انهار، تراخت يدها ومن فمه تدفق الدم مرتين. دمه. كأن ثورا داسه... فأطلقت الرصاص عشر مرات على من

كانوا أمامي، حتى أنتقم له. ثم لاحظتُ. إن الإنسان يموت بشكل أكمل مما يحيا، دون خوف اللحظة، والرّمص لا يزال في عينيه، المخط في أنفه، اللعاب في فمه، بالإضافة إلى البول والغائط، وبقايا طعام في الأحشاء... لكن مارسيلينو بامبا كان رجلاً من ذهب، يستحق دموع امرأة بالقرب منه، يدًا مرتعشة تغمض عينيه كما ينبغي - لأننا لا نرى شخصًا من طينته، بشجاعة حقيقية جدًا، يعرف كيف يكون وكيف يفرض نفسه، من دون أن يسعى ليظهر. ويستحق أن تُشعل لأجله شمعة، شمعة واحدة عند الحاجة، حتى تضيء شعلتها الطريق الأول لروحه - لأنه، كما يُقال، وحدها الشعلة تسهر على ضفّتي الموت، ضفة تلك الجهة وضفة هذه الجهة... ثم أخذته، سحبتُ جسده حتى لا يظل فوق آثار الوحل - لأنها أمطرت طوال الليل في هذا المكان. التقت ذيا دوريم القبة الجلدية وغطى بها وجه صاحبها. سلامٌ في السماء، وسلامٌ في هذا اليوم، من أجل هذا الرفيق، مارسيلينو بامبا، الذي من الأكيد أنه كان سيصير رجلاً ذا شأن لو أنه وُلد في مدينة كبيرة. بام، بام، بام! قلتُ بلغة النار. كان كل شيء من حولنا ينفجر، يتطاير أشلاء تحت وابلٍ من الرصاص.

نجحنا في الصمود - وفي الحفاظ على أكثر من نصف القرية، والشارع الكبير. حافظنا على البيت ذي الطابقين. نظرت بقلق، كي أرى جيدًا تلك الإقامة الغنية، على الجانب الأيمن من الشارع بأبوابها ونوافذها المصبوغة باللون الأزرق، والمربعة جدًا. كانت أعلى بناية في باريداو، تطلُّ على بقية البيوت. بداخلها، كانت المرأة محتجزة وتحت حراسة مشددة. كما كان هناك الصغير غريغو، والأعمى بوروميو في أمان. من الجهة العليا، من النوافذ والأبواب، ومن الطابق الأرضي، كان رجالي يتناوبون على إطلاق النار. هذا البيت، البيت ذو الطابقين، كان يرتفع هناك هادئًا - كان يعجبني، شامخًا يعلو فوق كل شيء.

هل أذهبُ إلى هناك؟

- حتّى الساعة، في الطابق الأول، هناك اثنان: واحد منهما هو جوزيه جيرفازيو. هناك أربعة تقريبًا، في الأسفل، داخل المحلات... - كان جيريببي هو من مدّني بهذه المعلومة، واضطرّ للصراخ في أذني، لأن صدى طلقات النيران كان يتردّد عاليًا.

- إنهم قليلون هناك للقيام بالعمل. هيا، اذهب إلى هناك يا ريوبالدو...
- من قال لي ذلك كان هو ذيادوريم. أثناء ذلك، زارت البنادق. تاك، تاك، تاك، راحت طلقات الرصاص تضرب الأرض بجنون وترفع الغبار.
أطلقت النار، بحدة. ثلاث أو أربع مرات. شحنتُ البندقية من جديد.
- هنا يكمن واجبي، يا ذيادوريم. لأن هذا هو أخطر مكان... - قلتُ، متيقّظًا تمامًا. كل ما ينصحني به ذيادوريم، كنتُ أحتفظ به جانبًا، كأنني أفعل ذلك بدافعٍ من الحدس.

- اذهب، يا ريوبالدو. فهناك، في الأعلى مكان القائد. إنه واجبك، لأنه بفضل تصويبك الذي لا يخطئ الهدف، من أعلى، يمكن أن تبلغ مسافة أبعد... هنا، الأمور صارت آمنة الآن... - قال بكل لطف، حتى يقنعني.

غيّرتُ البندقية واستبدلتُها ببندقية من نوع ماوُزر، ثم رفعت يدي، نار! لا أعرف إن كنتُ قد قتلتُ أحدًا بتلك الطلقة. ومرة أخرى، نظرتُ إلى أعلى، وتأمّلت ذلك البيت من جديد. موقعي؟ تأملت كل شيء، مليًا، وذيادوريم: هو، كان حازمًا، مثل غزالة ظهرت واختفت، عن قصد، مخادعة، حتى لا يكتشف أحد صغيرها هناك حيث يختبئ... كان ذلك البيتُ هو الحصن. ومن أعلاه ينبغي لقائد، كبير ومسؤول، أن يقود - ويحكم البلدة بكاملها أثناء الحرب.

- أنا ذاهب... - قلتُ وذهبتُ.

في موقعي، تركتُ جَواؤَ كوزيول، الذي كان شجاعًا كبيرًا. زحفتُ، تقدّمتُ في العراء، كما كان يجب أن أفعل، عبر الفناء الخلفي للبيت. ثم استدرتُ وأنا ألقى نظرة. لم أكن أريد أن أتوقف عن رؤية ذيادوريم. حبنا ونحن نفرق بين ابتسامة ونحيب، وسط هذه الحياة.

زحفتُ، أنزلتُ من فناءٍ إلى بستان وراء البيوت، سلاحٍ من فوق، أسحب طقم الحصان. في كل مكان في هذه الجهة، كان هناك الكثير من رجالنا، يحمونني بصيحات عالية: كما هو أمر عادي حين يبدي القائد شجاعة أكبر. رجال مثل جوي بيشيغيتتو، الملقَّب بـ«النعل». وكان هناك أيضًا جَواؤُ نوناتو، الذي يجلب الخطَّ الحسن، بوجهه الطيب. تقدّمتُ، تجاوزتُ حاجزًا من نباتات الخيزران، ثم بلغتُ جدارًا أحدث فيه بأسِي ثقبًا. انتبهتُ إلى أنَّ جيريببي كان ينزلق ورائي. الفتى الشجاع. عيناه الضيقتان، لم تظهرًا إلا لكون سوادهما لا يُصدّق: - هل تعتقد أن القناصين في الجهة الأخرى يتقنون فنَّ الرماية؟ - قال لي. آه، لماذا كان يقول لي ذلك؟ ألم يكن يعرف أن اللعبة صارت قاتلة الآن؟ وعندئذ، انفجر ضاحكًا وهو يشير إلى موقع في التراب الرخو، تحت شجيرة ورد، حيث قطعُ صغير أسود، ينام مطمئنًا تمامًا، كأنه أصم، بل شبك أرجله... لكن حبة معدنية مرّت بالقرب مني، ومزقت جذع شجرة بابايا: - حذار، انبطحْ! - صرختُ نحو جيريببي. كنا نسمع زئير العدو وشتائمهم، ورجاله يردّدون لازمة تقول إننا جميعًا لم نكن سوى أبناء عاهرات... الأوغاد! لكن جيريببي كان يردُّ عليهم ويشتمهم بما هو أفظع. ثم، أسرعنا فبلغنا الخنادق خلف فرنٍ للخبز، وانطلقت نحونا دفعةً من الطلقات، كأنها وابلٌ من البرد. مكان لعين! انتظرنا منبطحين على بطئنا. - اهْرُب أنت، يا جيريببي، أعتقد أن هناك من يقصفوننا من فوق

الأشجار... - نصحته جازما. تابعنا الزحف. لم يعد يفصلنا الكثير عن فناء البيت الكبير: لا شيء غير حاجز ضيق، يتشكل من مجموعة من الكروم التي تتدلى منها بعض العناقيد الضخمة. - هيا بنا، أيها القائد! - صاح جيريببي. ثم سقط ميتا فوقى هناك. - وقد أصيب بطلقة في جبينه. لم أصح، واصلت الزحف. وأنا أقوم باندفاع أخير، دفعتُ باب مطبخ البيت، فأسقطتُ صهريج ماء كبير بقي واقفاً مسنداً هناك. ثم دخلتُ. تلقى الصهريج من خلفي وابلاً من الطلقات، جعلَ صداه يتردّد في صفيحته البيضاء القديمة... حين دخلتُ، صاح من رأيّتهم في الداخل: إيه، أيها القائد، تحية لك! - إيه، تحية لكم! - أجبتهم. لحظتها، قلتُ مع نفسي: ها قد صارت الحرب مجنونة. لم أشعر بالخوف. ثم صعدتُ السّلام.

يا سيدي، اسمع نبض قلبي، أمسك برُسغي. انظر إلى الشيب في رأسي... الحياة أمرٌ في غاية الخطورة - أليست كذلك؟ لأننا لا نعرفُ سلفاً. لأنّ تعلّم الحياة هو الحياة في حدّ ذاتها. لقد أنتجني السّرّتاو، وبعد ذلك، ابتلعتني وبصق عليّ من فمه الساخن... هل تُصدّق روايتي، يا سيدي؟

صعدتُ تلك السّلام الحلزونيّة، أسمعُ الخشب تحت قدمي، مُنبّها: - أنا القادم هنا، يا رجالي... - عدة مرات. كل هذا كثيب بعض الشيء، يعطي الانطباع كأنه يوم أحدٍ من أيّام زمان. لاحظتُ أنني كنتُ ألهث قليلاً وبى عطش. لا بد أنه كانت هناك، في مكان ما - تحيّلُ - جرّة ماء بارد. أنا القادم هنا، يا رجالي... - ومع ذلك فزعوا - في البداية، لكنهم سرعان ما فرحوا لرؤيتي. في الغرفة المطلّة على الشارع، كان هناك: أراوتا وجوزيه جيرفازيو، منهمكين في إطلاق النار؛ الصغير غيريغو والأعمى بوروميو، جالسين على مقعد موجه نحو الجدار. كانا معاً قريين من بعضهما، ويرتحفان قليلاً؛ لا بدّ وأنها كانا يُصليان.

- والمرأة؟ - سألت.

أراد الصغير غريغو أن يُريني: كانت حبيسة في غرفة. هل كانت تُصلي بدورها؟ ممرٌ قديم، تؤدي إليه عدّة أبواب: كانت المرأة محتجزة خلف واحد من تلك الأبواب، داخل غرفة. وكان المفتاح بيد الأعمى بورُوميو. كان مفتاحًا ضخمًا بالفعل، أو ما بمده إليّ؛ رفضت. - هل هناك جرّة ماء في هذا المكان؟ - قلت، وقد تملّكني تسرّع مضطرب، بكل تأكيد. - يبدو أن هناك في الأسفل توجد جرّة ماء... - أجبني الطفل بطريقته. فهمت أنه كان يموت من العطش بدوره، ويريد أن يأتي معي - لا بدّ أنه كان خائفًا من أن ينزل السلم لوحده. وكان الأمر نفسه ينطبق على الأعمى بورُوميو، الذي لم يُجبني، لكنه حرّك شفّتيه، وظلّ فمه رخوًا، رخوًا، يُحدث ضجيجًا كأنه يمزغ سُكّرًا بُنيًا. أثار ذلك اشمزازي: لكنه لم يكن قد أكل أي شيء. لم أعد أسيطر على أعصابي فقلت له: - هل تسمعي، أيها الوقح، هل تسمعي؟ أهكذا تحترمني، وتشكرني لأنني انشغلتُ بأمرك، وجلبتُك معي أينما ذهبْتُ في رفقتي؟! قال: - ليرعاك الرّب، أيها القائد وليكن لنا جميعًا عونًا وسندًا... وأطلب منك أن تسامحني عن كل ما صدرَ مِنّي - ثم جثا على ركبتيه. ولما سمعته ونظرت إليه، شعرتُ بالخرج، وأحسست بشيء من الذنب. لأن هذا الرجل، الذي لا يبصر بعينه، ولا يملك عملاً يذكر، كانت قسوتي وراء محنته، انطلاقًا من مكان خروجه، من هناك حيث كان يعيش حياته. وكان عليه الآن أن يعاني خوفًا مضاعفًا، يتخيل أننا، عاجلاً أم آجلاً، سنهرب ويبقى هو متأخرًا بين براثن الآخرين. لكن توالي هذه الأفكار في ذهني كان سريعًا جدًّا، ولم يُفصِ إلى شيء. لا أذكرُ إلّا النصف، وإن كنتُ أحكي فأنا أقوم بذلك لتعزيز مهارتي. مثل رؤية عابرة في تلك اللحظة، من دون سبب، رأيتُ أوتاسيليا. ثم توجهتُ إلى النافذة، أكاد أنخيل أنني أراها، بعيدًا هناك،

في ذلك المكان حيث كانت تعيش حياتها. إنني أحكي لك، يا سيدي، كي تدرك كمّ الأشياء الغريبة التي كانت تدور في خلدي، وسط دوامة الحرب. وكان جوزيه جيرفازيو وأراروتا يُقرفصان، كل واحد منهما عند حافة نافذة، يحمل بندقية في اليد وخراطيش رصاص ممتلئة. وكانا ينظران تجاهي متيقظين، ينتظران مني أي إشارة. وحينئذٍ، لعللت رصاصةً في الهواء، وأتخذت مساراً منعزلاً، قريبة جداً، بصوت موسيقي جعلني أدرك أنها أطلقت من بندقية من نوع كامبلان. ومع ذلك، تعيّن عليّ أن أمدّهما بمزيد من التمارين والخبرة. والقوة. توجهتُ نحو نافذة. ثم أمسكت بندقيتي بحزم. ألقى نظرة من حولي. أنا - الزعيم!

ليكن في علمك، يا سيدي: كنتُ هناك زوج أمّ للجميع، في العراء وفي المخبأ، كأتني فوق منصة من الأغصان وُضعت للرصد، من أجل معاينة النمر القاتل. هل رأيتُ أم لم أر؟ راقبتُ فقط. بالمرصاد، سيداً لما اقتطفت. كان البعض، هناك في أرض مستصلحة، يناورون وفق هواهم، بأسلحة سيئة. صوّبتُ. كان أحدهم ضخّم البنية، يبدو كذلك، مرتدياً ملابس من باهياً. بحركة بسيطة، لا شيء، من زنادي، حسمتُ مصيره. سقط هذا منحرفاً؛ تلاه الآخر. كانوا ثلاثة: انتبه الأخير إلى وجود السماء، وراح يركض مراوفاً. زُومباً! لا أدري كم من القطع المعدنية تلقى في سطح ظهره... صحيح، هناك حيث كنتُ كان ذلك يستحق العناء... بعد ذلك، ردّوا بطلقات كثيفة. تراجعْتُ إلى الخلف، لكنني بقيت مختبئاً، أسيطر على الوضع. لقد بدأت هذه المعركة منذ أكثر من ساعتين. كان منتصف النهار، والشمس في كبد السماء.

وحده القطيع يخور مجاناً، إلا البقرة. وكان من الأكيد، هذه المرة، أنه لن ينتهي أي شيء دون نهاية - لأن هرّموجينيس لم يكن من ذلك النوع من

الكلاب التي تترك العظم هكذا؛ وكان قادمًا من مسافة خمسين فرسخًا! ولكل شيء أجل ونهاية. وهل ثمة طريقة حقيقية لرواية - لحظات كهذه من الحياة؟ الطلقات، الصيحات، الصدى، اصطدام الأجسام وهي تسقط، العويل والأشياء التي تنشطر. بل كان هناك الصمت أيضًا. لأن هذه الوتيرة كانت تضم تنويعات: قصف، طققة، صرير، انفجار، هدير، - بانغ! - وتتوقف النار؛ ثم الركود، الصمت الذي يستقر فجأة، أو يتلاشى شيئًا فشيئًا، ببطء. أخذ الزمنُ مقاسي. الوقت؟ إذا توقف الناس ليفكروا - يحدث شيء ما! -: ما أرى هو الزمن الخالص القادم من أسفل، الهادئ الرخو، دون أمواج، مثل مياه الفيضان التي ترتفع... الزمنُ هو حياة الموت: عدم الكمال. إنني أهذي - لا تُعر الأمر اهتمامًا. ولكن حول هذا النوع من المواضيع، ها أنا أعود إلى ذلك، كان بودي أن أسأل ذيادوريم في الليلة السابقة، عندما ذهبت لأتجول معه. كنتُ أفكر، لحظتها، أن أسأل ذيادوريم:

- ألا ترى أن العالم بأسره صار مجنونًا؟ هل نتوقَّف عن الجنون فقط حين نشعر بشجاعة كبيرة أو بالحبِّ؟ أو في الأوقات التي نتمكَّن فيها من الصَّلَاة؟ لم أسأله. لكنني كنتُ أملك الجواب الذي كان سيردُّ عليَّ به ذيادوريم:

- جوكا راميرو لم يكن مجنونًا بتاتًا، يا زيوبالدو؛ وهو، قتلوه...

حينئذٍ، قد يكون بوسعي أن أصحح وأقول:

- ولكن، مع ذلك، كل هذا سينتهي، ديا، دي، وأنني سوف أتزوَّج، لا بدَّ أن تأتي معنا لتعيش رفقتنا، في إحدى الفازيندات، على ضفة نهر أورو كويًا. نهر أورو كويًا بدوره، قرب المرفأ، يتوفر على رمال بيضاء، ويُشكِّل جزرًا بها أشجار خضرٌ مائلة. وهناك أيضًا طيور كثيرة: نفس الطيور الجميلة كما في نهر فيلياس، الذي أحنُّ إليه - طائر الجابورو ودجاجة الماء، مالك الحزين

الوردي الذي يمرُّ ويمرُّ ثانية في السماء الواسعة، كأنه فستان امرأة... وطائر فارس الرمال الصغير، الذي يقفز ويشعثُ شعره، بكل أناقة - ألا ترى أن هذا الطائر الصغير هو أجمل الطيور وأحبها؟...

هل كان هذا ممكنًا؟ مستحيل.

لم أكن قادرًا على أن أطرح كل تلك المزامير على ذيادوريم، فلم نتحدث فعلاً سوى عن أمور عابرة وتافهة، خاصة ما تعلّق منها بالذخيرة وبأسلحتي، واستعدادات الحرب. عشية حدث. هذه الأوقات هي التي تشكل البعيد. لكن، الآن، في أوقات الموت، فكّرتُ في ذلك مرة أخرى؛ بل ما الذي كان بوسعي أن أقول، راكبًا على متن حصاني لحظتها، لو كان ذيادوريم بالقرب مني؟ اليوم: لا أعرفُ كما لم أعرف قطُّ كل تلك الأوقات الماضية. وحينها، في المكان حيث كنتُ، كنتُ أرسمُ بتكتم يد الموت؛ مثل راعي بقر يمرُّ بالباب، والنافذة، وجدار البيت أو بأشجار الحظيرة، وحيثما مرّ، ينقش القرنُ الذي يسمُّ بالحديد قطيعه، كي يتعرّفه. هكذا، أتذكّر أن رأسي كان يؤلمني ألماً قوياً، ثابتاً في شكوى واحدة، يحدثُ ثقباً كأنه مخرز. تحمّلتُ. ربما كان ذلك من شدة العطش.

ثم عاد ذلك: رصاصٌ يُخلّقُ كأنه طيور الطنّان. بعضها يضرب، يشطرُّ، ويشطرُّ إطارات النوافذ. بعضها يسقط على الأرضية الخشبية - ترتدُّ في رقصة صغيرة - ثم تبقى هناك، مشوّهة، تشبه طرف أنبوب، متجعّدة كأنها حبات كستناء ناضجة. هذه كان بوسعها أن تبرد، ببطء. وكما تفقد هذه الحرارة الخبيثة، التي كانت تستطيع خطف حياة إنسان، كانت تفقد قيمتها أيضاً. تراجع جوزيه جيرفازيو وأراروتا نحو وسط الغرفة، ونصحاني باتخاذ الحيلة والحذر. لكنني لم أبرح مكاني. قلت لا، لا، ولا. راحت يداي ترتعشان، لكن ذلك لم يكن من الخوف القاتل. لم تكن ساقي ترتعشان. بيد

أنَّ أصابعي كانت ترتجف أحياناً، تهتز، مقوسة، كأنني أعزف الأكورديون. حيثُذ، صحتُ - الملاعين! - ردّوا بوابل من الطلقات. طلقات مكثفة، قصف بالبارود والرصاص، والصّفير - كما تهدر الريح، عند نهاية المطر... ورغم ذلك ألححتُ، صوّبتُ، ولم أتحرك من هناك، من النافذة المفتوحة، ولم أستسلم. سدّدتُ طلقات صائبة. كثير من الاحتقار لطلقاتهم التي كانت تمرُّ وهي تلعلع... لم أكن أركض خلف الموت - عليك أن تفهمني جيّداً، يا سيدي. كنتُ أتدرب على مزيدٍ من الشجاعة. رجولياً، وأنا أحمل بندقيتي وأطلق رشقات نارية. هل كانت تعويذة ما تحمي جسدي؟ أتمنى ألا يكون كذلك؛ ولا أرغب في معرفته. لم أمُت، وقتلتُ. ورأيتُ. من دون خطر على نفسي.

لكن، حين حدث ذلك، عظيماً، صُدمتُ: لأن هناك في الأسفل كانت أمور كثيرة تتغيّر. ذلك أنه، بكل بساطة، وبشكل غير متوقع، جاء جزء من رجال هِرْموجينيس، الذين كانوا بأعداد كثيرة - هؤلاء الحثالة! - وتمكّنوا من الالتفاف حول رجالنا، عند طرف الشارع، وهاجموهم من الخلف. هل كانوا سيتصرفون؟ هل كان ذلك ممكناً؟ خفتُ على الجميع. آه، كلاً، لن ينتصروا. لأنني اليوم أرى صديقي جَواوفاً كيرو: أكثر رجولة، أكثر سمرة، يلعن كل أولئك القردة، لا يرشّح ولو بقطرة عرق واحدة... وما يرتديه ويعيد لباسه هو الجلد... ثم أراه يذهب، يدير ظهره، يكرّ، يهاجم، وحده ضدّ الآخرين، ضدّ الجميع... مات، لأنهم قتلوه. على بعد مئة ذراع، تقريباً.

آه، كلاً! كان رجالنا صامدين، يطلقون النار، رصاصاً تلو رصاص؛ كان جحيماً من النيران...

وأنا، مُرتخي الساقين، استعدتُ ثقتي: في ظرف لحظة واحدة، وعرفتُ ما كان عليّ أن أفعل. هل أنزل، وألتحق برجالي، هناك في الأسفل، لأقدم لهم

المساعدة؟ لم أكن أستطيع، وما كان ذلك عليّ واجباً؛ وهنا، رأيتُ ذلك. كان لا بدّ أن يبقى رجل، قائد - في المكان حيث كنتُ، في البيت ذي الطابقين. لكنني أرسلتُ، حازماً، أراورتا وجوزيه جيرفازيو، وطلبتُ منهما أن يذهبا، أن يذهبا. وكان ذلك هو كل ما يرغبان فيه. نزلا السلام. كان حجم تلك الطلقات النارية فرقةً لا تُصدّق. هل كان ذلك كله هو الحرب؟ - فهمتُ. قدرْتُ تغلي فوق قدرٍ... انتظرتُ. كانت ملامح النهاية تلوح، وأنا هناك، متروكاً لأمرِي، وحيداً، وحيداً للغاية، مع هذين الاثنين. الصغير غريغو، يدُ تضغطُ ظهرَ يدٍ أخرى، والوجه منقبضُ من الرعشات المتتالية، لكنَّ الشفتين ظلَّتا مواربتين بتكشيرةٍ أليمةٍ. كان طفلاً. وكان الأعمى بوروميو يغمض عينيه. شعرتُ بالشفقة. لم أسمع شيئاً، قلتُ: - أحقّاً؟ قلتُ: - اصبر يا ابنيّ. العالمُ لي، لكنه يأخذ كلَّ وقته - وعدتُ بهذه الطريقة: إنه، كلما تهاوى، هدر، كنا نتصر: نتصر... نتصر! ثم ضربت بيدٍ حازمة على عقب بندقيتي. النصر! آه - النصر - وأنا، وسطه، تحمّلني الرياح...

هل كنتُ مخطئاً؟ مرّت نصفُ ساعة على ذلك، وربما أقل، فلمحتُ ضجّةً أخرى، لكن في الجهة الأخرى، مما أبهجني وجاء بالمعجزة - إيه، هناك في الأعلى! أيها القائد! - ما حدث هو أن رجالي الذين تركناهم في سيريري فيليو، من أتباع جواو غوانيا، جاؤوا، فجأة، وهاجموا بدورهم رجال هزموجينيس من الخلف - ابتهجتُ لذلك فأطلقتُ ناراً أخرى. الحرب، الآن، صارت هائلة.

قُم بتقديراتك، يا سيدي: بين الطرفين، كان ينتشر في المجموع حوالي ثلاثمئة رجل - يحاول كل واحد منهم أن يفرض ضجيج الجاغونسو وهو يقاتل. هل بقي هناك من سلاح بسيط في الهضاب العليا؟ ولا بندقية واحدة. كانت كل الأسلحة هنا تُشبّ شجاعةً ضدّ شجاعةٍ، حتى تُستنزف كل الذخيرة.

بهذه الطريقة الفوضوية: كيف السبيل إلى خوض معركة من الداخل، ومعركة أخرى من الخارج، وكل طرفٍ فيها هو مَنْ يُحَاصِرُ وَمَنْ يُحَاصَرُ؟ كيف يمكن إعادة تركيب ذلك، في النهاية؟ بعد النَّصر، فقط. لم يخامرني شكٌ في ذلك. ولدتُ لأكونَ. الآن، في هذه اللحظة المتوقفة، كنتُ أنا، نهائياً، باسم الجميع، كنتُ، هائلاً، أعلى ما يرتفعُ فيما يُرى ويظهرُ. وعرفتُ: المهمة، الحقيقية، لقدري، كانت ألا أشعر بالخوف. ألا أشعر بأيِّ خوفٍ. ولم أشعر به. ألا أشعر به، وسيتفكك كل شيء بلُطف، بعيداً عني، من أجل انتصاري: جزيرة تحيط بها مياه صافية... عرفتُ. قمتُ بمهمَّتي. إلى أن سمعتُ أحدهم يضحكُ مني. كانت ضحكةً متخفّية، ضحكة واضحة بداخلي أكثر من ذاتي، لكنها ضحكة مخنوقة. فتوجَّستُ من ذلك. وهذا ما لم أرغب أن أفكر فيه، ولم أفكر فيه؛ وتأكدت من أن ذلك كان فكرة جيدة زائفة، سهلة. كنتُ على وشك أن أطلق اللعنات، وأقول: أيها الشيطان! أيها القَدَر!... لكنني لم أقل غير: السَّ... - السَّرَتَاو... السَّرَتَاو...

فيما يشبه التوقف، سمعت أحداً يتنحجُ. التفتُ. لم يكن سوى الأعمى بورُوميو، وهو يُلوِّح بيديه، وذراعيه؛ قبيحاً، مثل زنجيٍّ يشحن بندقيةً. حتى دون أن أعرف لماذا، سألته بسرعة:

- هل أنت السَّرَتَاو؟!

- تماماً يا سيدي، تماماً يا سيدي... أنا الأعمى بورُوميو، يا سيدي المحترم - أجبني.

- نعم، أنت! لا أفهم... قلتُ متلعثماً.

متلعثماً، كلاً، بل مُتعتعاً. لأنه، حين هممتُ بمواصلة الكلام، أحسست بلساني يرتجف نحو الخلف، وكل أجزاء وجهي ترتعش بنفس الشكل:

شفتاي، خدّاي، حتى أرنبة أنفي، وطرف ذقني، تهتزُّ بارتجاج خفيف. لكنني استجمعتُ قواي. أما الخوف، فلم أشعر بأيّ خوف. أمرت الأعمى أن يجلس، فأطاعني، وكان في حالة ذهول؛ بيد أنه لم يجلس على المقعد؛ بل قرفص مرتاحاً وظلّ كذلك. ضحك، فأثار اشمئزازي. لكن الاشمئزاز، هل هو الخوف؟ لم يعد الرّب يمنُّ عليّ بالجسارة، فعدتُ إلى موقعي في النافذة، من حيث كنتُ أعطي الأوامر وأمارس القيادة. كنتُ أنظر إلى الأسفل. آه، كيف كانت بنادق ماوِزر ووينشيسدير تصفّرُ بشكل جميل. أمطرت وابلًا من المعادن. كانت قاتلة. كما أوضح أيضًا أنني لم أكن عنيّدًا، بعيدًا عن كل شيء، في خسارة خاصة؛ بل، على العكس من ذلك: كل من يُطلّ، كان ينهارُ... بندقيّتي.

ألخّصُ ما حدث؛ ساعات طوال، كثير من الانفجارات، والطلقات النارية، تشابُكُ الرّصاص وهو يسوّطُ - يجلدُ دون توقف. دون توقف. وبقيتُ هناك، أنسخُ قدري. لكن، كيف أرويه لك، يا سيدي؟ إنني أحكي، ولكن كل شيء بارد جدًّا، من دون روح، باهتٌ-مُسَطَّح. أنت لا ترى، يا سيدي، أنت لا تعرف. هل أحكي ما فعلتُ؟ ما حدث. أنني كنتُ منهمكًا في التصويب. أطلقُ النار، وأطلق. وأنني ما كنتُ أنطق بشتائم ولا بصيحات، فقط لأن فمي، بسبب تلك الرعشة الدقيقة، بالكاد كان يطاوعُني. مرّة، ضربتُ برجلي على الأرضية الخشبية فتصاعدت منها ضجّة صمّاء- هل تستطيع أن تسمعها، يا سيدي، كما سمعتها أنا؟ وغضبُ الحرب، هناك في الخارج، هناك في الأسفل، كان يسيطر على نفسي بطريقة ما، لدرجة أنني لم أتوقف عن الشعور بألم الرأس الذي كان يؤلمني جدًّا من سقف الفم، ومن هناك راح يشتدُّ منذ أن بدأت المعركة. ولم أتمجّر ولاحتى قطرة ماء، ولم أدخن ولا سيجارة واحدة. أتطلّع أملًا إلى قدري: مسكينُ أنا. أنا! أنا...

كيف السبيل لأحكي لك، يا سيدي، فتشعر بما أحسستُ به؟ هل ولدتَ هناك؟ هل ولدتَ في العالم؟ ذِيا دوريم، يا سيدي، هل عرفته؟ ... آه، إنَّكَ تظن، يا سيدي، أن الموت بكاء وخداع - قبرٌ عميق وعظام مطمئنة... ينبغي لك، يا سيدي، أن تتخيل شخصا كان هو فجر كل الحبِّ ومات من أجل ذكرى شخص واحد. كان ينبغي لك، يا سيدي، أن ترى رجلين يقتلان بعضهما جسداً لجسدٍ تقريباً! كيف فعل أحدهما: تيك تاك، طلقة نار - وكيف تقدَّم الآخر، بلا انتظام، وسط الدخان: وكان قد مات من يَقتُل أكثر... يا سيدي... امنحني فترة صمت. سوف أخبرك.

كان كل شيءٍ مُعلّقاً في النهاية... التفتُ للمرة الأخيرة، كي أوبّخ الأعمى بورُوميو ورائي؛ بينما ذراعاي خدِرتانِ وتؤلّمانِي. وقاحةُ ذلك الأعمى، الأبله، المُقرفص هناك على عقبيه. كل ما استطاع أن ينطق به، في غباء: - من يعطيني شيئاً آكله؟ فكان جوابي: وبخْتُهُ. آه، وماذا بعد! ليبَق لوحده هناك، يعضغ تبغه الرديء ويصق لعاباً أصفر وأسود... تصبَّبتُ عرقاً. وفجأة، طفق الآخر، صائحاً، يغني، وكان ينشد مديحاً.

لم أكن أحسّ سوى بثقل ذراعي... بل بدالي ذلك غريباً، حين انتبهتُ إلى أن إطلاق النار في الشارع قد انتهى؛ خنْتُ أنه لا بد أن النيران قد خمدت منذ أكثر من دقيقة كاملة. نعم، لقد توقفوا. لكنهم كانوا يصيحون، يصرخون، ويتحدثون مع بعضهم البعض، بالتناوب. هل استنفذوا كل ما توفر لهم من ذخيرة؟ نظرتُ، دون أن أفهم. هل كان بوسعي أن أطلق النار؟ أظنّ أنني أردت أن أصرخ، ثم انتظرتُ وأجلتُ الأمر. لأنني رأيتُ: تلك الفوضى. ورأيتُ يخرج من باب، ليدخل ويلتحق بالمجموعة - ثم رفع السلاح أمامه ووضع إصبعه على زنادٍ مسدسٍ ذي فوهتين وصوّب - من؟ تيوُفُراشيُو، الفلاح البسيط، كأنه رجل حربٍ حقيقي! ومن رأيتُ يوبّخ رجاله:

هَرْمُوجِينِسْ! كانت القُبَّعة فوق رأسه صَحْنًا كبيرًا مدوَّرًا... رجلٌ في حالة غضب.

فهمتُ. ساعِدْني، يا سيدي.

عرفتُ ما سيقعُ: إنَّ رجالَهُ ورجالي دخلوا في تحدٍّ كبير ومجنون، بالنظر لما كان هؤلاء وأولئك يستعدون للقيام به، مصطفىين عند طرفي الشارع؛ يُلَوِّحون بخناجرهم. نظرتُ إلى ذلك، فرأيتُ ذيادوريم - وكيف كان يتحرَّكُ. أردتُ أن أصبح بألف لسان، لكنني بقيتُ من دون صوت، مجردًا من ذاتي، أشعرُ بدوارٍ، وقلبي يخفق من اللَهفة. وكان الجحيم في ذلك الشارع، كأنه مصيدة فئران... جُرَدْتُ من صوتي.

كيف كانوا قادمين، من هنا ومن هناك، في صفوف معادية، الأسلحة في اليد، والخراطيش على الأكتاف. أطلقُ النار، هل كان بوسعي ذلك؟ أصابني تشنُّجٌ فحدَّرَ ذراعي وشلَّها. ومن أعلى عمودي الفقري حتى أسفله، كان يجري خيط سريع من العرق. من كان يشلُّ ذراعيَّ ويكبِّحُني، فيسلبني قوتي؟ - شرفك... شرفي هو شرفُ رجلٍ شجاع... - قلت وأنا أئنُّ في أعماق ذاتي: روحٌ فقدت جسدها. أفلتت البندقيةَ من يدي، فلم أستطع أن أتحمك فيها بذقني، ولا بصدري. رأيتُ كيف أنَّ أصابعي ما عادت تمسك شيئًا. كدتُ أغرق في الفزع وأسقط في هاوية بيضاء.

جاء ذيادوريم - مهرولا كالمجنون، قادمًا من عمق الشارع، والخنجر في يده.

هذه المرة، كانوا قادمين، ليتواجهوا جسدًا لجسدٍ. ثلاثمئة خطوة. كنتُ منهكًا وأنا حيٌّ، أسقط. كلُّهم غاضبون، في عداٍ كبير. من دوني! أنا الذي كنتُ أنتف شعري لأنني كنتُ عاجزًا عن إعطاء أمرٍ أو إسداء نصيحة.

بل لا أستطيع حتى أن أهمس بشيء. امتلأ فمي باللُّعاب. سال لعابي... لكنهم كانوا قادمين، يصلُّون، مثل هبة ريح، في زحام وضجيج، يصرخون مختلطين... وحينها - كانت النهاية وقتلوا بعضهم البعض. فتقيأت، قلقًا من أجل خلاص... عندما أردتُ أن أصلي - لم تخطر على بالي سوى فكرة واحدة، كأنها صاعقة وصاعقة. وهل تعرف ما هي، يا سيدي؟ الشيطان في الشارع، وسط الدوامة... لو أنك كنت تعرف، يا سيدي... ذيادوريم - كنتُ أريد أن أراه - أسنده بنظراتي... سمعتُ بكل وضوح الخوف في أسناني... هِرْمُوجِينِيْس: خَسِيس، لا إنساني - في شعر لحيته... انقَضَ عليه ذيادوريم... استفزّه بتمويه من جسده، وتحاشاه... ثم اشتبكَا، تصارعا، واختلطا. وفجأة... لا شيء آخر...

وأنا أشاهد! كان ذلك يُدَوِّم، كثيفا، في تلك الفوضى، يلوي ذارعيه ورجليه نحو الداخل والخارج، كمن يجري متعثرا... الشيطان في الشارع، وسط الدوامة... الدَّم. كانوا يقطعون لحم الخنزير تحت جلود بشرية، ويشقّون اللحم. رأيتُ قميصا صوفية، ثم رأيتُ الرجل يتطاير، يسقط من جديد على الأرض، مثل جسد خنزير ملتهب ومسلوخ... حاولتُ أن أصلي، فلم أستطع، كنتُ أترنّح. تبارزت الخناجرُ الحمراء وتشابكت. اشتبكوا بالخناجر حتى حمّلات سراويلهم... الشيطان في الشارع، وسط الدوامة... هكذا، آه - لاحظتُ ورأيتُ - جليًا، بكل وضوح: كان ذيادوريم يطعن هِرْمُوجِينِيْس ويُدْميه... آه، غرس فيه الخنجر - تحت الترقوة - فانبجس دقُّ من الدَّم. وأصرَّ على قتله. لم أستطع أن أطلق ولا نحيبًا واحدًا، بحرُّ كنتُ أريده أن يغثني بصلاة، بكلمة واحدة، جهرًا أو سرًّا، جافة؛ ولكن ما حدث بداخلي، من فرط حماس اللَّحظة، أنني استطعتُ أن أتخيّل سيدتنا العذراء، على عرشها وسط الكنيسة... جرعة مواساة... بينما هناك، في الأسفل، كان حقد الموت، من دون

مغفرة. وهو ما ابتلعه حياً. أُنّات الحقد. الصيحات... وفجأة، لم أعد أرى
ذيادوريم! في السماء، ستار من الغيوم... ذيادوريم! وأنا أرى ذلك، استطعتُ
إذن، تحت حدّ الألم: تلملتُ، عضضتُ يدي، أذيتُ نفسي، غاضبا من كل
شيء... صعدتُ إلى الهاوية... من بعيد جداً، كانت تصل الآن بعض طلقات
النار، وكانت هذه الطلقات تأتي من أعماق عميقة. فقدتُ الوعي!
إنني أنا، وقد نجوتُ من العواصف.

إنّك لم تكن تعرف أي شيء عني، يا سيدي؛ فهل تعرف الآن كثيراً أم
قليلاً؟ أورو كويّا نهر فريد من نوعه... الحياة الكاملة لشخص ما، وما تركه
من طرقات وراءه، فهل أثرت هذه الحكاية في حياتك، يا سيدي؟ إنّك تملأ
كُرّاستك... فهل تعرف أن يوجد السّرّتاو؟ هل تعرف حواشيه، مركزه؟...
باستثناء ما يسقط من السماء، فإن كل شيء يخرج من ثقب سوداء. أعرف
ذلك.

وما زلتُ أحكي. كيف أنني، وقتاً طويلاً بعد ذلك، عدتُ إلى نفسي، فلم
أجدني، وحاولتُ أن أحدث ربطة في الزمن، وأنا لا أزال أتحسّس بعينيّ تحت
الجفنين المغمضتين. سمعتُ توشّلات الصغير غيريغو والأعمى بوروميو،
وهما يفركان صدري وذراعيّ، فأدركتُ من كلامهما أنني بقيت فاقداً الوعي
بسبب هجوم، لكنه لم يسُل من فمي لعابٌ ولا زبدٌ. كنتُ أطفو. بعد ذلك،
لا أعرف جيداً، جاء آخرون وأنقذوني - جاكاري، باكاما دي بريزاس، جواو
كوزيول وأكاوا: بلّلوا خدّي، وفمي، فلحستُ ذلك الماء. ثم استيقظتُ تماماً
- كما في اللحظة التي لا ينتهي فيها الرّعد من الهدير نهائياً، ونعلم أن الصاعقة
قد سقطت...

كان ذيادوريم قد مات - ميتاً ألف مرة - مات إلى الأبد بالنسبة إليّ؛ وكنتُ
أعرف ذلك ولا أرغب في معرفته، كانت عيناى تغرورقان بالدموع.

- والحرب؟! - قلتُ.

- أيها القائد، أيها القائد، لقد انتصرنا... قضينا عليهم!... انطلق جَواؤُ غَوانيا وفافافا وبعض رجالنا في مطاردة الناجين منهم، من أجل إنهاء العمل... - أجابني جَواؤُ كُونُكَلِش. - هِرموجينيس، مات وشبع موتا، قُتل... من تحدّث هكذا كان هو جَواؤُ كوزيول. مات... وشبع موتا... نصيرُ الشيطان. لم يعد هناك أي هِرموجينيس يُذكر. انتهى أمره وما تبقى منه لا يعدو أن يكون شخصا تلقى طعنة من سكين غير حاد فسال كل دمه متدفقا من جرح غائر في عنقه: وسرعان ما صار شاحبا، تماما، بلون أمغر مثل لون التراب، وعبارة تهكّم تعلو وجهه كمن يريد أن يسخر منا - وجه من القبر... هِرموجينيس ما.

كانوا كلهم الآن، بالحركات والأصوات، يشرحون: لأننا هكذا عشنا بهذه الطريقة الحزينة. بعد انتهاء المواجهات الجسدية المجنونة في الشارع، هاجم جَواؤُ غَوانيا لُصوصهم الذين كانوا في الخلفية، فسحقهم... كل هذا لم يكن له أي معنى. رفعتُ يدي. رأيتُ أنني أستطيع ذلك. وحده جسدي كان لا يزال صلبا بعض الشيء، وساقاي تصرّان على أن تظلّا صلبتين، وكان ذلك الإصرار يجعل مني، أحيانا، حيوانا مُحَنَظّا. لأنني نهضتُ، مستندا، ثم مشيت بضع خطوات: أدير ظهري إلى النافذة.

لحظتها، وصل أَلاريي وكييس. لا بد أنها يحملان أخبارا عن أوتاسيليا؛ كنتُ أجد صعوبة كبيرة في تذكر أشياء كثيرة جدًا. عادا غريين عن كل ما حدث، ورجعا خائبين من رحلتها.

- لا، لم تكن خطيبتك، أيها القائد - كان يحكي أَلاريي - كان الرجل يدعى آدم ليميس، وكان يرافق شقيقته، صاحبة فازيندا، واسمها إسميرالدا... كانا عائدتين إلى بيتها... تركناهما في بورتو دو سي، عند مرفأ كاتينغا.

كل هؤلاء الناس في العالم... قلتُ مع نفسي. كل هذه الحياة، من أجل
الفتنة والصراع. شكرتُ أَلارِيَّي، لكنني التفتتُ نحو رجالي؛ وسألتُ:

- القتل، هل هم كثر؟

- أكثر مما ينبغي...

كان جَواوُ كوزِيول هو من أجايني بسرعة، على طريقة الأصدقاء. ابتلعتُ
نحيبا جافا من دون صدى. كان أحدهم يقول لي الآن: أنهم يتناوبون،
مزودين بالمعاول، ليحفروا قبورا للدفن. لفَّ أَلارِيَّي سيجارة، وأراد أن
يقدمها لي، لكنني رفضتها. - وهِرْموجِينيس؟ - وكان أَلارِيَّي هو من سأل.

كانوا قد ذهبوا ليفتحوا تلك الغرفة، وجاءوا عبر الممر رفقة زوجة
هِرْموجِينيس. كي ترى - سيدتي، اقتربي من النافذة، انظري هناك في
الشارع... - قال لها جَواوُ كُونْكَلِش. تلك المرأة لم تكن شريرة. - يا سيدتي،
هل تتعرفين رجلاً كان نصيرَ الشيطان: لكنه بدأ يفوح برائحة كريهة، قُتل
بقوة الحديد. - هل كانت ستألمُ تلك المرأة؟ لكنها قالت لا، وحركت رأسها
بعض الشيء فقط، بكل ما تفرضه جِدِّيَّة الاحترام. - كنتُ أكرهه... - قالت،
مما جعلني أرتعش. أو ربما لم أكن قد شفيتُ بعد، لكن الألم الذي دوّخني
كان قويا حتى أنني اضطررتُ لأجلس على المقعد قرب الجدار. سمعتُ
بشكل عابر، كأني في خدر، وشبه وعي، نتفاً من حديث ساخن. - وملابس
المرأة، هل أخذوها؟ هل تركوها عارية؟ كانت المرأة هي التي تتكلم. آه،
وكانت المرأة تتوسل إليهم أن يأتوها بجسد ذلك الرجل الشاب، المتميز،
ذي العينين الخضراوين جداً... انهرتُ. تركتُ دموعي لتهمر، وأمرتُ: -
هاتوا دِيادوريم! بما أنه كان هو. - هيا، نبحتُ عنه، يا رفاق. فهذا هنا هو
ريِنالدو... - قال أَلارِيَّي. وبقيتُ هناك، بين الصغير غريغو والأعمى
بورُوميو. - آي، يسوع - كان هو كل ما التقطت من تلك الجلبة من أصواتهم.

لم تكن تلك المرأة خبيثة، بأي شكل من الأشكال. أدفأت دموع غزيرة وجهي وملّحت فمي، لكنها كانت تسيل باردة تقريبًا. ذِيادورِيم، ذِيادورِيم، آه، آوه، أشجار البوريتي في أرضي، أشجار بأزهار مذهبة... صعدوا السلام يحملونه، ثم وضعوه على المائدة. ذِيادورِيم، ذِيادورِيم - ربما لا أستحقه سوى نصف استحقاق؟ وعيناي تغرورقان دموعا، نظرتُ فلم أرَ جيدًا - كأنني أنظر عبر سربٍ من طيور مالك الحزين... وليتدبروا أمرهم ليجدوا شموعًا أو قطعة شمع، وليشعلوا نيرانا عالية من حطبٍ جيّد، حول ظلام القرية...

اختنقتُ، يخنقني الألم. بسبب ما قالته المرأة: أنه يجب غسل الجثة وإلباسها. وبأيّ شفقة كبيرة بلّلت بنفسها خرقةً مسحت بها خدّي ذِيادورِيم، وأزالت عنهما قشور الدّم السميكة، اليابسة. ظلّ جمالها نفسه سليماً، مستحيلاً أكثر من أي وقت مضى. حتى وهي على تلك الحال، بذلك الشحوب كالمسحوق على وجهها، كأنه قناع جاف تمامًا. كان وجهها نحيفًا، وفمها جافًا متشقّقًا. وفي شعرها، آثار البقاء... أنا لا أكتب، أنا لا أتكلّم! - حتى لا يكون هذا الأمر هكذا: هذا لم يكن، هذا غير موجود، هذا لا يمكن أن يظلّ كائنًا! ذِيادورِيم...

كنتُ أقول إنّ المرأة كانت ستغسل جسدهُ. كانت تترنّم بصلواتٍ من باهياً. أمرت الجميع بالخروج. بقيتُ أنا. فحرّكت المرأة رأسها قليلاً وهي تطلق تنهيدة خفيفة. لم تكن تفهم حضوري. لم تُرني الجسدَ عن طيب خاطر. ثم قالت...

ذِيادورِيم - عاريًا من أعلى رأسه حتى أخمص قدمه. وقالت:

- إنّها في أحضان الرّب. الفتاة المسكينة...

قالت. فعرفتُ. ما لم أحكِه لك، يا سيدي، خلال ما تقدّم من الوقت - وسامحني على ذلك: - ذلك حتى نكتشف معًا، ندًا لندّ، المرارة الدقيقة لسرّ بهذا الحجم، وتعلّم فقط الآن ما عرفته أنا أيضًا لحظتيئذٍ... إنّ لذيادوريم جسدَ امرأةٍ، كانَ فتاةَ شابةٍ في كمالها... بقيتُ مندهلاً. فالألم ليس أكثر قوة من الدهشة. كأنّ أحدهم ضربني بعقب بندقية.

كانت هي. وهكذا كان السّحرُ يذوب في سحرٍ أكثر فظاعة: ثم رفعتُ يدي لأرسم علامة الصليب على صدري - لكنني كتمتُ بها نحيبًا وكفّفتُ دموعًا أكثر غزارة. صحتُ. ذيادوريم! كان ذيادوريم امرأة. كان ذيادوريم امرأة تمامًا كما لا تحرق الشمس أبدًا مياه نهر أورو كويّا، تمامًا كما كنتُ أنتحبُ من اليأس.

لا تُعرِ الأمر اهتمامًا، يا سيدي. أمهلني بعضَ الوقت، وسأحكي لك. إنّ حياتنا لا تصل أبدًا إلى نهاية حقيقية.

مددتُ يديّ للألمس ذلك الجسد، فارتعشتُ، وسحبتهما، كأني سأحترقُ: خفضتُ عينيّ. ثم بسطت المرأة الثوب على أطراف الجسد. ولكنني كنتُ أقبل العينين، والخدّين، والفم. كنتُ أتكهّن بالشَّعر. الشَّعرُ الذي كانت قد قصّته بمقصّ فضي. شعرٌ، لو ترك على هواه، لكان ينزل تحت الخصر... وما كنتُ أعرف بأي اسم أناديه؛ فصحت متألّمًا:

- يا حُبّي!

هكذا كان الأمر. كنتُ قد انحنيتُ على النافذة كي أتحاشى معاينة العالم. غسّلت المرأة الجسد، ودثّرتَه بأحسن قطعة ثوب أخرجتها من متاعها الخاص. وعلى الصدر، بين اليدين المشبكتين، وضعت الشريط مع الكتفية التي كانت ملكي، وسبحة تتشكل من كويرات أوريكوري وحبّات تسمى

دموع سيدتنا العذراء. لم ينقص - آه! - غير حجر الجمشت، الذي طالما حملته في أسفارها... جاء كيبّيس يحمل شموعا أشعلناها ووضعناها في الزوايا الأربع. كانت تلك الأمور تحدث بالقرب مني. ثم ذهبوا، بكلّ ورع، ليحفروا القبر. مشمئزاً وثائراً بعنف، قرّرتُ في البداية: - ادفنوه على حدة، بعيداً عن الآخرين، على ضفة جدول، حيث لا يمكن أبداً لأي أحد أن يعثر عليه، ويعلم بأمره - وكما قلتُ، كنتُ أجنُّ. عدتُ لأسقط في برائث المعاناة. وحين انتبهتُ إلى نفسي حقاً، كنتُ بين أحضان المرأة ونحن نبكي معا بلا قيود. وكان كل رجالي من الجاغونسو يكون كذلك، بطبيعة الحال. ثم ذهبنا وتركناها هناك في القبر، مدفونة في مقبرة باريداو، في ريف السّرّتاو.

كان لها حُبٌّ في ذاتي.

وكانت تلك هي آخر ساعة من ساعات اليوم. هبطت السماء. لقد حكيتُ لك هذا، يا سيدي. وربما، فيما حكيتُ لك، ستجد، يا سيدي، أحسن مني، حقيقتي. وهنا كانت النهاية.

هنا انتهت الحكاية.

هنا صارت الحكاية منتهية.

هنا تصلُ الحكاية إلى نهايتها.

ثم غادرتُ المكان كالمجنون، حازماً، راکضاً ممتطياً حصاني. لكن، قبل ذلك، وزّعتُ ما كان معي من مالٍ، سحبتُ حزام الخراطيش - وهناك وضعتُ حداً للجاغونسو زيوبالدو! ثم قلت للجميع وداعاً إلى الأبد. لن أأخذ معي غير الطفل، والأعمى، ومن نجا من الفلاحين البسطاء: كان يجب عليّ أن أعيد هؤلاء إلى ديارهم، إلى أرضهم. كما ودّعت المرأة، بطريقة غريبة

على ما يبدو، دون أن أعطي تمة لما سيأتي. كما كلفت أيضًا جواؤ كوزيول، الذي كان رجلًا من باهيًا معروفًا بوفاء وعوده وطيبته، أن يسهر على عودتها أينما رغبت أن تذهب مرة أخرى.

تخلّيتُ عن السّلطة.

أين كنتُ ذاهبا، حتى في عزّ جنوني، لم أنس ذلك. إلى مكان واحد: إلى فيريداس مورّتيس... عائداً، عائداً. كأنني كنتُ أرى كل شيء من جديد— أعيد كل شيء مرة أخرى، وأتلقى من جديد ما لم أحصل عليه، أن أعيد ذيادوريم إلى الحياة؟ هذا ما كنتُ أفكر فيه، أنا المسكين. هل كنتُ أريد أن أحضن سلسلة من الجبال؟ لكنني لا أذكر جيداً هذا الجزء بسبب وعكة صحيّة ألمّت بي. وأنا أمشي، كانت تصيبي، فجأة، نوبات دوار، فيدور رأسي عدة مرات، حتى أضطر لأتمسك بشيء ما كي لا أسقط؛ وبعد ذلك، أبقى لفترات طويلة، دون أن أتذكر شيئاً، لا حيث أنا ولا اسمي. لكنّ الأريبي، باكاما دي بريزاس، كيبّيس، تريول، جيزوالدو، جواؤ كونكليس وباسبي كانوا يعتنون بي؛ هؤلاء كانوا يلحّون على مرافقتي، فجاءوا معي؛ وكذلك فافافا، بالإضافة إلى جواؤ نوناتو وعراي سيريل، اللّذين جاءا بعد ذلك. أصدقائي. كنتُ رفقتهم. وذهبتُ معهم.

الهضبة. مات البحر، الذي كان.

ذهبتُ. صارعتُ. كما شاء الرّب. كيف كنتُ أستطيع أن أنصرف عن حزني؟ ذهبتُ، كما قلتُ، في طريق مستقيم. في مكان ما، يحمل اسم بّغاء: اضطررتُ لتغيير حصاني. وفي لامبي ميل، قال فلّاح - إن ذلك المكان من المستنقعات، الذي كنا نقصده، لم يكن اسمه إطلاقاً فيريداس مورّتيس، بل فيريداس ألّتاس، وهو الأمر الذي أكده لي عراي كيليمين لاحقاً. وحينئذٍ، بعيداً بعض الشيء، بدأتُ أرتعش من الحمّى. الملاريا الثلاثية. لكنك، يا

سيدي، تفهم معنى الزمن، ومعالم هذه الرحلة. ينبغي أن تُنشد أغنية. أغنية عني، عن أحزاني. أُغرمتُ بنخلةٍ، ساعة الغروب...

انهرْتُ من الدُّبول، ولم أعد أتحَمِّل المزيد. في البداية، تناوبوا على حملي، واحدًا بعد الآخر. بعد ذلك، وضعوني داخل بيت صغير متواضع. بدأتُ أهذي من المرض. في اللَّحظة الأخيرة، وأنا أفقد الوعي، كانوا يمدّدونني فوق سريرٍ.

كانت حمىٌ جديدة، حمى تيفوديّة مع الملاريا، لكنها ملاريا خاصة، مرعبة - أقطع نوع! أُلِّتْ بي تلك الحمى القوية، كما لم أعهد لها قطّ - هذا ما قال لي الأليبي بعد ذلك - حتى أنني كنتُ أهذي أثناء النوبات. أسمعُه يحكي ذلك، ذكّرني بحكاية صاحب فازيندا، من أخبث الناس، الذي تملّكه الشيطان بسبب خداعه، فراح يعوي مثل الذئب في الغرفة، داخل بيته، يتوسَّل أن يخفّفوا عنه تلك الحرارة الجهنميّة، لدرجة أن العبيد كانوا مضطرين دائمًا ليرشّوه بكثير من الأوعية والسطول الممتلئة بالماء، لكيلا يلقي حتفه بسبب تلك النار الحارقة وأن ينشر الحريق في الغرفة... جنون. في رقصة شياطين لا وجود لهم. إذن، ألم يكن المرض كافيًا لوحده؟ ذلك الوقت الذي بقيت فيه حبيسًا، من دون ذاكرة. كم استمرّ؟ لكن، يوم عدتُ إلى وعيي، وقد شفيت واستعدت رشدي، ضوء من دون شمس، اسمعُ جيدًا يا سيدي، لم أعد في مخبأ ذلك البيت المتواضع، بل في مكان آخر، في فازيندا واسعة، حيث نقلوني دون أعلم بذلك. كنتُ في باربارانيا، في بي دا بيدرا، ضيفًا عند السيد جوزافا أوزنيلاس. تناولتُ حساء دجاج، مستلقيًا، أسند ظهري على أغطية بيضاء. وكان ذلك الأسى الذي كسّرني قد بدأ يفارقني بعض الشيء. أذكرهم جميعًا، باليوم، والساعة. كان أول شيء رغبتُ في رؤيته، وهذا ما سرّني، هو بصمة الزمن على ورقة تقويم معلّقة على الجدار. مَنَحني ذلك شعورًا بالطُمأنينة.

كأنني كنتُ أنتظرني، في الظلّ، تحت شجرة. إلّا أنّ شيئًا ما، شيئًا واحدًا، كان ينقصني. كنتُ كيسيًا مليئًا بالحجارة.

لكن السيد أوزنيلاس كان رجلًا نزيهًا جدًّا وطيبًا للغاية. عاملني معاملة الكبار، وكنتُ أميرًا في بيته. كلّهم - زوجته، بناته، أقرباؤه - اهتمُّوا بي. أما أنا، فإنَّ ما جدَّد نشاطي وحيوتي؛ كانت تلك الأدلَّة الصادقة والمتكررة على أنهم كانوا يقدرُون في شخصي رجلًا صالحًا ذا موهبة عالية، ويشنون على ملاحمي: إنني جئتُ، بشجاعة، لأطيحَ بهرْموجينيس وأطهرَّ الهضاب العليا من لُصوصيّة الجاغونُسو. يومًا بعد يومٍ، كان حالي يتحسَّن.

إلى أن جاء يوم، بينما كنتُ أستريح تحت أشعة الشمس فوق سرير معلق من القطن المخرَّم، أيقظني إحساسٌ سعيد، חדس. حين نظرتُ، رأيتُ فتاة شابة قادمة. أوتاسيليا.

عاد قلبي ليخفق مرة أخرى، وكان يقول لي إن القديم دائمًا جديد. أوكد لك، يا سيدي، أنّ أوتاسيليا بدت لي أكثر جمالًا، وحيثني بحنان حقيقي، يدلُّ على حبِّها. جاءت رفقة أمها. وكانت أمها، أقرباؤها، كلّهم من حولها فرحين يقدمونها لي أنا، حبيبتي أوتاسيليا، خطيبتي.

لكنني قلتُ كل شيء. أعلنتُ عن ذلك الحب الكبير والصادق الذي كنتُ أكنُّه لها؛ لكنني فقدته مؤخرًا بسبب قدرٍ سابق، حُبِّ آخر، كان ضروريًا أيضًا. وعليه، فقد كنتُ لا أزال بحاجة لشيءٍ من الوقت للحِداد والتعافي. فهمتني أوتاسيليا، ووافقت عن كل شيء طلبته منها. هناك قضت بعض الأيام، ترافقني، جميلة وساحرة...

كانت واثقة أنني سوف أعود إلى سانتا كاتارينا، لأجدد طلبَ يدها؛ وأرتدي لباس الصَّرج، أضع زهرة على صدري، من أجل حفل الزفاف.

ذهبتُ بقلب سعيد، كنتُ مغرماً بأوتاسيليا. هكذا، تزوّجتُ، وما كنتُ لأفعل شيئاً أحسن من ذلك، بما أنها لا تزال إلى اليوم شريكة حياتي القريبة مني - أنت تعلم ذلك، يا سيدي، وتعرفُها جيداً. بيد أن هذا حدث عدة شهور بعد ذلك، عندما اخضرتِ الحقولُ.

كنتُ قد تعافيتُ تماماً، وأنا مستعدٌّ لأستأنف الطريق، عندما ظهر هناك، في باربارانيا، وجاء لزيارتي أيضاً السيد هاباو - وكان قد تصالح مع السيد أورنيلاس أثناء ذلك. رجلٌ بقدمين على الأرض. بدا سعيداً جداً لرؤيتي مرة أخرى؛ وجلبَ لي هديةً، حصاناً آخر، بلون رمادي رائع. قبلتُ منه الهدية، وكنتُ ممتناً له بكل صدق. لكنه جاء من أجل أمر أكثر أهمية - وقد ذهب ليتأكد منه ويتحقق، ويفاوض، عارضاً مساعيه الحميدة. ذلك أن عرّابي سيلوريكو مينديس قد مات مؤخراً فباركني وأثنى على أعمالي؛ وترك وصيةً مكتوبة أرثُ بموجبها اثنين من أكبر فازينداته. كان السيد هاباو يريد دون انتظار أن يأخذني معه إلى كورّاليم وإلى كورينتو حتى أستلم أملاكه بأمان. رفضتُ ذلك، أجلّته، أقصدُ. في الحقيقة، عندما ذهبتُ، ورثتُ شرعياً، من دون حاجة لأقدم طلباً، في غياب أيّ ورثة آخرين أكثر شرعيةً مني - وهو ما أدين به أيضاً إلى المحامي الذي تكفّل بأمور الميراث. الأستاذ ميغو دي ليمّا. إلا أن هذا حدثَ بعد ذلك بوقتٍ طويلٍ.

قبل ذلك، كان عليّ أن أقوم بشيء آخر، وفق الترتيب الذي يأمرني به قلبي. شكرتهم عن كل شيء، وودعتُ السيد أورنيلاس وذويه - أولئك الناس الذي يستحقون جنة الأناجيل. أخذتُ معي فقط ألابريي وكيسيس؛ تركتُ الآخرين ينتظرون عودتي، حتى لا أثير شكوكاً وأنا أسافر رفقة عدد كبير من الرجال. لكن، قبل أن أنطلق، طلبتُ من السيدة بُرازيلينا قطعة ثوبٍ أسود ثبَّتْها شارةٌ على ذراعي.

قصدتُ مكانًا في جيراييس لاسانسي، يدعى أوس بوركوس. وهناك كنا. سألتُ الجميع، طرقت كل الأبواب: وكان قليلًا وحزينًا ما حصلتُ عليه. ما فكرتُ أنني سأجده مرة أخرى: امرأة عجوز أو رجل مسن، ممن يعرفون حكايتها - ويتذكرون يوم كانت طفلةً صغيرة - ويعرضوا عليَّ الأسباب السالفة لأمر كثيرة وأحداث عديدة. لم نجد أثرًا لهذا. وعليه فقد سرنا في رحلة أطول: جورامينتو، بيثي كرو، تيرابرانكا وكابيلنا، دو شومبو. لم أجد غير وثيقة واحدة. شهادة المعمودية في كنيسة إيتاكاميرا، حيث يُدفن عدد كبير من الأموات. هناك أخذوها إلى جُرن التعميد. سُجِّلت بتاريخ ١١ أيلول من عام ١٨٠٠ وبضع سنوات... انظر، اقرأ، يا سيدي. للمدعوة ماريًا ديو دورينا ذا في بيتانكور مارتينس - التي ولدت مع واجب أن تقاتل وألا تشعر أبدًا بالخوف، ومن أجل أن تحب كثيرًا، من دون أن يكون لها الحق في الاستمتاع بالحب... صلِّ، يا سيدي، لأجل روعي. ألا ترى أن الحياة حزينة جدًا؟

لكن، لا أحد يمكنه أن يمنعني من الصلاة؛ من يستطيع ذلك؟ وجود الروح هو الصلاة... حين أصلي، أكون بمنأى عن الدنس، بعيدًا عن أي جنون. أم ربما تكون الصلاة هي استيقاظ الروح؟

مسكين أنا، كان حزني يؤخرني، يُضنيني. لم تكن لدي القدرة على الرغبة في الحياة، من فرط الإرهاق، بل حتى مجهود التنفس كان ينهكني. وديادوريم، أدركت أن الحنين إليه غالبًا ما لم يكن يمنحني الطمأنينة؛ ولا حتى تخيله. لأنني كنت قد رفضت ذلك الحب في أعماق ذاتي طوال كل ذلك الوقت من الحياة، ومنذئذ صارت الصداقة زائفة مرّة؛ والحب، بل وحتى شخصه، رفضاني أيضًا. فلاجل ماذا سوف أستطيع أن أعيش؟ لكن حبي لأوتاسيليا كان يزداد أيضًا، في المهد أولاً، ثم يرتسم شيئًا فشيئًا. كان.

بعد هذا الوقت، لم أتأخر كثيرًا.

أثناء ذلك، وأنا في طريق العودة، حصلتُ على خبرٍ غير متوقع. بخصوص زي بييلو! كان لا بدّ أن يقع ذلك، فعلاً. لا أدري لأي سبب جعلني ذلك أنبعثُ من جديد. كان زي بييلو يسكن على بعد بضعة فراسخ، قرب ساو غونسالو دو أبايتي، في بور্তو باسارينيو. ذهبتُ إلى هناك. وكيف يعقل أنني، من قبل، لم أفكر قطُّ، في زي بييلو؟ مشينا خبيّا، ووصلنا نسير بمحاذاة النهر. أنت تعرف، يا سيدي - نهر أبايتي، بكل جماله الكبير حتى أنه يصيب المرء بالحزن: عريض، يمتدّ من تلّ إلى تلّ. وكنتُ قد بدأتُ أفكرُ في حياتي.

صاح زي بييلو: - يا إلهي! يا إلهي! - ثم عانقني صديقًا ودودًا، مسرورا لرؤيتي، كما لو أن شيئًا لم يدمّر عاداتنا. أستطيع القول إنه كان هو نفسه، مستعدًا ومُهادنًا.

- ليحيا الجميع! زيوبالدو، تاتارانا، أستاذ... - أوجز - هل أردتَ السّلام؟ كان يتأمّلني، بنظرته الماكرة، ولا ينقصه سوى أن يَشْتَمَنِي كما يفعل ثوران حين يلتقيان من جديدٍ في الحظيرة. قال إنني كنتُ سعيدًا، لكنني أكثر ضمورًا، وإنّ محجري عينيّ كانا غائرين بشكلٍ أكبر.

- لقد تواريتُ قليلًا... هل تعرف ذلك؟ بعثُ قطيعًا من الماشية. غيّرْتُ أهدافي. ربّح كثير من المال - هذا هو الأهم... وكثير من مسحوق الذهب... - كان هذا كلّ ما قال لي.

وكان ذلك كذبًا خالصًا. لكن، ربما كان صحيحًا أيضًا.

لأنه كان بحاجة إلى ذلك التبعّج ليعيش، حيث صار سيدًا. والدليل على ذلك أنه سرعان ما بادر قائلاً:

- لتحيا أنت! هل قضيتَ على هرْموجينيس؟ هذا جيد. كنتَ تلميذي...
كنتَ تلميذي، أليس كذلك؟
تركته يتكلَّم: لم يكن تبجُّحه يزعجُني. لكنه لم يفهمني فتوقَّف قائلاً:
- حسناً، حسناً. أنا لم أعلمك؛ ولكني علَّمتك كيف تعرف الحياة حقَّ
المعرفة...

ضحكتُ، منّا معاً.

بقيتُ في بيته ثلاثة أيام كاملة، هناك في بورْتو باسارينيو.

ثم حدَّثني زي بيبيلو وهمس لي ببعض مشاريعه. وهناك، زاد تبجَّحاً! لم
يعد يرغب في السَّرتاو، والآن سيذهب ليعيش في مدينة كبيرة، العاصمة.
هناك سيُمارس التجارة ويدرس المحاماة. - وأريد أن أكتب منجزاتي في
جريدة، مع الصور... أريد أن أصف مشاهد من حروبنا، وأحتفي بشُهرتنا
المستحقة. - أما فيما يتعلق بي أنا، يا سيدي! - قاطعته. تسلية الناس باسمي...
وحينها غيَّر الموضوع. لكن، خلال تلك الأيام الثلاثة لم يتوقف عن الرغبة
في التخفيف عني، وعن رسم خطط ومشاريع أخرى من أجل وضع قطار
حياتي في المسار الصحيح. كان أمراً بديهيّاً أنه لا يستطيع أن يعوضني تماماً
عن ألمي الكبير. إلّا أنّ زي بيبيلو لم يكن من النوع الذي يتوقف عن المحاولة.
وهو ما أشكر عنه الرّب.

لأنه، في النهاية، طلب كل اهتمامي، وقال:

- زيوبالدو، إنني أعرفُ أيَّ نوع من الصداقة أنت بحاجة إليها الآن.
اذهب إلى هناك. لكن، عذني: لا تنتظر، ولا تزدري. من هنا، مباشرة، تنطلق
وتذهب. قلْ له إنَّك من طرفي... هو مختلفٌ عن الجميع.

بل إنه كتب رسالة كي أحملها معي. وحين ودّعته، وعانقني، شعرتُ بالودّ الذي كان يكنّه لي في فكره. هل كان لا يزال يحمل تلك الصفّارة في جيبه؟ ثم صاح: - يا إلهي!

لا أحد غيره يستطيع ذلك. وحده زي بيبيلو، لا أحد غيره، يمكن أن ينقذ مصيري. لأن الرسالة كانت موجهة إلى عرّابي كيليمين دي غويّاس، في جيجوجا - في فيريدا بوريتي غريس. ما ذا أريد أكثر من هذا؟ اذهب إلى هناك، يا سيدي. في فترة شهر أيار، عندما يزهر القطنُ. أبيض جميلاً للغاية. القطن هو ما يغرس أكثر، من كل الأنواع الجديدة: بيبول، موسوليم. سوف ترى شخصاً نادراً، يقف الجميع قربهِ في راحةٍ وسكينة، وهو باسمّ، طيّب القلب... حتى فوييس وجدته هناك.

استقبلني عرّابي كيليمين، وتركني لأحكي له قصّتي حتى النهاية. رأيتُ كيف كان ينظر لي بصبرٍ لا حدودَ له - بانتظار أن يزول ألمي؛ وكيف كان بوسعه أن ينتظر لوقت طويل جداً. ولما رأيتُ ذلك، شعرتُ أنا أيضًا بكثيرٍ من الخجل.

لكني، في النهاية، تشجعتُ وقلتُ:

- يا سيدي، هل تظنُّ أنّي بعثُ روحي وعقدتُ ميثاقاً؟

وحينئذ ابتسم، مستعدّاً صادقاً، وردّ عليّ بهذا الجواب:

- لا تشغل بالك بهذا الأمر. فكّر فيما ينتظرك. إنّ البيع والشراء، أحياناً، فعّالان متطابقان، تقريباً.

وهنا أنتهي، اسمع وانظر، يا سيدي. هذه ليست رواية مقاطع من حياته، التي كنتُ معجباً بها أيّما إعجابٍ. أحكي أنني ذهبتُ ورأيتُ، عند مطلع النهار. الفجرُ.

هنا أنتهي. أنت ترى، يا سيدي. حكيتُ كلَّ شيء. إنني هنا الآن، مثل
جرفٍ يطلُّ على النهر تقريبًا. أسيرُ نحو الشيخوخة، بنظام وعمل. هل
أعرفُ نفسي؟ أوفِّي ما عليَّ. إنَّ نهر ساوُ فرانسيسكو - الذي يبدو عظيمًا جدًّا
لِلناظرين - كما يبدو عبارة عن قطعة خشب ضخمة، واقفة... لقد استمعتَ
إليَّ بلطف كبير، يا سيدي، وأكَّدت لي فكرتي: إنَّ الشيطان لا وجود له.
أليس كذلك؟ أنت رجل مستقلٌّ، حذرٌ. نحن صديقان. لا شيء. الشيطان
لا وجود له! هذا ما أقول، حتى إن وُجد... الإنسانُ الإنساني هو الموجود.
عبورٌ.

مكتبة

t.me/soramnqraa

«دُروب السُّرُتَاوُ» هي الرواية الوحيدة والتحفة الأدبية الخالدة للكاتب البرازيلي جواو غيماريس روزا. صدرت سنة ١٩٥٦، فكانت ثورة رجَّت أركان المشهد الأدبي في البرازيل وغيَّرت ملامحه بشكل عميق. خلق فيها الكاتب لغةً جديدة، طرح بناءً روائيًا مختلفًا، وجربَ طريقةً مجدَّدةً في تناول قضايا الفرد والمجتمع.

لقد عرَّف غيماريس روزا روايته بأنَّها «سيرة ذاتية غير منطقية». يستغلُّ النصُّ فضاء السُّرُتَاوُ البرازيلي، بأراضيه الشاسعة وحياته الصعبة التي يتيه الإنسان بين دُروبها وتعرجاتها، لرسم ملحمية يختلط فيها مصير الجاعة بحياة الفرد. وفي قلب السُّرُتَاوُ، «أَرْضٌ بحجم العالم»، هناك زيوبالدو، الرّايي البطل، ذلك الجاغوثسو المتواضع الذي صار مزارعًا كبيرًا، وهو يحكي ذكريات حياته لمُحاور مجهول، فتطفو شخصيته ببُلبها وتناقضاتها، بضوئها وعتمتها، بما يناها من عناية الرّب وغواية الشيطان، بما تعانيه من ألمٍ وعنف، وما يُميِّز روحها من حبٍّ وتفاعلٍ إنسانيٍّ مع كل من عرفهم من رجال ونساء السُّرُتَاوُ.

المترجم



«رواية متعدّدة، منذورة للخلود، عميقة لا تنضب مثل الواقع نفسه».

ماريو بارغاس يوسا

«عمل ذو بعدٍ قلَّ نظيره في الأدب... من أعظم ما كُتب. عنيف، رقيق، ودّي، متوحش».

جورج أمادو

مكتبة

t.me/soramnqraa

جواو غيماريس روزا
دُروب السُّرُتَاوُ



9

منشورات تكوين
TAKWEEN PUBLISHING

